تصميم الغلاف / مريم خليل

وَإِليكَ أَسْعَى

رواية

د/إيناس عادل

إهداء

لكل من اتخذ من السعي مسلكاً

****

إلـهي تعددتِ السبل وضللتُ الطرق إلا طريقك

إلـهي طرقتُ بابك نـادمة

وسعيتُ إليكَ جاهدة

ضعتُ في الأرض .. بحثتُ عنكَ

وجدتُكَ في كل شيءٍ حولي وما عرفتُكَ

أنا ضالَّةٌ مضِلَّة .. فاهدني بنورك إليكَ!!

١

قريبٌ منّي

تُسائِلُونَني لماذَا آمنتُ؟ .. لأنهُ هو اللهُ .. هو الخالقُ .. هو البارئُ .. هو من سجد الوجودُ لعظمتِه.. وخر الكون راكعاً لقدرته.. إذاً تريدون معرفة كيف تمَّ الأمر؟ كيف لفتاةٍ مثلي أنا أنْ تصلَ إليه؟ .. آه الأمر ليس عسيراً أبداً .. الله يسره ... لقد بدأت الحكاية بانضمامي لعائلةٍ غريبةٍ عني ..

****

لوس أنجلوس يناير ٢٠٠٦

اعتدلت جالسة فجأة ،لا تدري أكانت نائمة أم مغيبة ، لا تذكر شيئاً ، دارت حدقتاها في الفراغ حولها؛ فانتفض قلبها ورفعت يدها بسرعة لتتحسس حجابها قبل أن يقاطعها دخول أحدهم؛ فتقوقعت على نفسها في أحد أركان السرير الجالسة عليه ودموعها تسيل من الخوف وأوصالها ترتجف. مازالت يدها على رأسها المكشوفة تغطيه؛ لا تدري من خلع لها حجابها وماذا حدث لها؟؟

ظهرت امرأة من خلف الباب فلانت ملامحها بعد ما رأته في عينيها من ابتسامة وما على وجهها من فرحة.. سألتها مريم براحة:- أرى أنك استفقتِ .. هل أصبحتِ بخير؟..

خف ارتجافها رويدا وهي تقول :- نعم ..

ظهر شاب من خلف مريم قائلا :- أمي .. هل استيقظت الفتاة ؟؟

التفتت له مريم قائلة :- نعم بني .. إنها بخير الآن.

رفع نظره لتلك الجالسة على فراشه .. فأخفت شعرها تحت يدها وهي تقول :- أريد حجابي ..

نظر ياسين لأمه ثم لها قائلا :- لقد وجدتك هكذا ..

بكت بشدة وهي تخفي وجهها بين قدميها، فذهبت نحوها مريم لتهدئتها، ثم نظرت لابنها قائلة :

- ياسين ائتِ بحجاب من حاجياتي واخرج بسرعة .. هيا ..

****

نظرت إليه بشدة، ثم احمر وجهها من الغضب، سكتت على تطاوله كثيرا، والآن لن تسكت، ولن تخاف، فقالت مسترسلة :

- اسمع ياهذا.. أنا مسلمة.. لا يهم رأيك في الأمر.. ولا يهم كيف تراني.. لقد شكرتك على ما فعلته معي قبل.. ولكن لن أسمح لك بإهانتي أو الحكم على أفعالي بعد الآن.. أنا محجبة لأنني

مسلمة.. لا أتخذك صاحبا لأنني مسلمة.. لا أكذب لأنني مسلمة.. لا أشرب الخمر لأنني مسلمة.. أحافظ على صلواتي في أوقاتها لأنني مسلمة.. ومن الآن لن أسمح لك بالتدخل في شئوني لأنني أيضا مسلمة..

نظر لها باستهانة قائلا :- وبالنسبة لسذاجتك.. هل أنت ساذجة لأنك مسلمة أيضا ؟؟

****

لوس أنجلوس يناير ٢٠٠٨

- قبل أن أفعل عديني بثلاث.. اعتني بنفسكِ جيدا.. كوني قوية.. ثم انسيني..

صمتت وعينيها تدور كالذي يغشى عليه من الموت؛ فكرر :- لن أفعل قبل أن تعديني ..

حاولت التماسك قائلة :- أعدك ..

اقترب منها في خطوة واحدة ثم عانقها بشدة وهمس في أذنها :- أحبكِ.. لن أنساكِ.. أنتِ طالق.

****

لوس أنجلوس يناير ٢٠١٣

على أثر هذه الذكريات المتسلسلة استيقظت "رحيق" من نومها فزعة ، لماذا داهمتها الآن؟ دارت عيناها في غرفتها متمتمة :

- هو قريب مني، يبدو أنه قريب جدا، أمازلت أشعر بوجوده واقترابه ؟؟ لقد ظننتني نسيته ..

تنهدت وهي تنظر لصغيرها الذي يجاورها ويهتف باسمها منادياً؛ فابتسمت مجيبة :

- ماذا تريد سيف؟؟

تذمر"سيف" - الذي لم يبلغ عامه الخامس بعدُ - قائلا :- أريد أبي ..

تنهدت للمرة الثانية وهي تقول :- ألن ننتهي سيف؟ أخبرتك أن أباك مسافر، ولا أعرف متى سيعود..

أشار "سيف" لرف معلق في جانب الغرفة قائلا :- أريده هنا ..

نظرت للكمبيوتر المحمول قائلة :- لا، لن أفعل، يكفي ما رأيته ..

شرع في البكاء فصرخت به قائلة :

- سيف، اهدأ وإلا عاقبتك ..

أنهت صراخها وهبت واقفة، اتجهت لتغتسل وهي تؤنب نفسها، هي من شجعته على ذلك، أول مرة طلب فيها أن يرى أباه لم تتحمل شعور اليتم الذي لمحته في عينيه وأبوه حي يرزق لربما!

حائرة هي لا تعرف إن كان حياً أم لا؛ فقد اختفى منذ انفصالهما، طلقها ورحل كأن شيئا لم يكن، ويكأنها كانت حملا أثقل كاهله، ولما انتهى منه رحل ..

ولما طلب ابنها رؤية أبيه لم تجد أمامها سوى أن تريه صوراً احتفظت بها وبعض الأفلام المصورة التي أخذاها معاً والتي تبين بعض المشاهد المميزة في حياتهما القصيرة، علقته بأبيه من خلال صورٍ وأفلام، ثم فجأة قررت أن تمنعه منها، وكذلك تخشى من تعلقها نفسها برجل أذاب قلبها حباً وحين رحل أذاب قلبها ألماً، أحبته حتى الثمالة، وجرحها حتى النخاع، خشيت أن تتعلق بسراب لن يعود ..

أنهت اغتسالها وخرجت لتجد صغيرها ما زال يبكي .. وقبل أن تتحدث سمعت طرقات على الباب .. علمت أنه أخوها "مالك" .. فتحت له فصاحَ :

- لقد أيقظني صوت ابنك المزعج، ماذا يريد في هذا الوقت؟

ابتسمت قائلة :- ليس لك شأن بابني، كما أنني لا أصدقك، هل أيقظك صوت ابني الرقيق، رغم أن منبهك المزعج لا يؤثر فيك؟

ضحك قائلا :- ماذا تقصدين أم سيف؟ هل نومي ثقيل لهذه الدرجة؟..

ثم التفت لـ"سيف" قائلا :- هل ضربتك أمك؟ أخبرني حتى آخذ بحقك!

هدأ "سيف" قليلا وهو يقول :- أريد أبي!

اختفت ضحكة "مالك" وهو ينظر إليه بأسى، ثم حول نظره لـ"رحيق" قائلا :

- لماذا يلح في طلب أبيه هذه الأيام؟

أجابت "رحيق" :- لا تشغل بالك به، هيا اذهب لتستعد حتى لا نتأخر على عملنا، سيصل أبي اليوم إن شاء الله، أريده أن يسعد باعتماده علينا..

أومأ وهو يلتفت لـ"سيف" قائلا :- ما رأيك سيف في أن نلعب قليلا؟

ردت "رحيق" :- اذهب يا مالك، سنتأخر، أنا سأحسن التصرف معه، هيا..

خرج مالك؛ فاتجهت نحو ابنها قائلة :- سأريك أباك، ولكنها المرة الأخيرة هل فهمت؟؟..

أومأ فأكملت :- ولا أريد لأحد أن يعرف بما نفعل، حتى خالك. اتفقنا..

أطاعها سعيدا؛ فأخذته وأجلسته أمام الشاشة. شغلت الأفلام المقصودة وحين بدأ انقبض قلبها لسماع صوته، حاولت ألا تنظر للشاشة، حاولت ألا تراه، ولكن شعور بالشوق غريب اجتاحها، فنظرت وليتها ما نظرت!

انتبهت على ضحكات صغيرها وهو يشاهد أمه تغمر أباه بالماء، ويرد هو لها الكرة، ثم تتعالى ضحكاتهما ومزاحهما، ثم انتبهت لذلك المشهد الذي أثار شجون ذكرياتها، وهو يحملها عالياً

مهدداً أن ينتقم منها، لطالما كانت تخاف من الأماكن العالية، ودائما ما كان يهددها بخوفها، ويطمئنها كذلك، الداء والدواء هو..

حاولت أن تخلع نفسها من ذلك المكان وتستعد للخروج، ما الذي هيج شجون ذكراها الآن؟ أهو ذلك الحلم الغريب، أم ذلك الشعور الذي تملكها منذ البارحة وكأنها ستراه قريباً؟ وهل يعقل أن يظهر فجأة كما اختفى منذ خمس سنوات فجأة؟.. أنهت استعدادها وكذلك أعدت ابنها الذي هدأ كثيرا بعد رؤيته لأبيه، وخرجت ..

هبطت الدرج في منزلهم الكبير الذي يتكون من طابقين في الأعلى غرفتها وابنها وغرفة "مالك" وغرفة معيشة وكذلك غرفتا نوم أخريتان، بينما غرفة والديهما في الأسفل مع غرفة معيشة ثانية وغرفة استقبال وغرفة مكتب أبيهما، بالإضافة لعدة غرف للنوم، تحيط بباحة البيت التي تفتح على حديقة واسعة خلفية يتوسطها حمام سباحة وحديقة أمامية تؤدي للخروج ..
لتستقبلها أمها "سارة" وأخوها على مائدة الإفطار..وبعد انتهائهم جميعا، خرجت رحيق مع مالك وتركت سيف لأمها ترعاه ..

وفي طريقهما لشركة أبيهما التي يعملان بها، قال "مالك" سعيدا :

- تعلمين رحيق، أنا سعيد جدا اليوم، أشعر أنني محلقٌ في السماء، لا أستطيع وصف سعادتي، أخيراً سأتزوج "ليندا"، حقيقة لا أصدق!

ابتسمت "رحيق" قائلة :- أدام الله سعادتك وصب عليك الخير صبا.. ثم ترددت وهي تسأل :
- ولكن مالك! هل فكرت جيدا؟..

نظر لها قائلا وقد اختفت ابتسامته :- ليست المرة الأولى التي تسألينني فيها هذا السؤال، هل الأمر يقلقك لهذه الدرجة؟..

تعلم جيداً أن حديثها عن "ليندا" يزعجه، وهي ما أرادت ذلك، ولكن الأمر حقاً يضايقها بشدة، وخاصة وهي تعلم جيدا من هي "ليندا"، وتعلم مدى عشق أخيها لها، ولا تعلم على أي شئ عشقها هكذا؟

قالت :- لم أقصد أن أزعجك بقلقي، ولكن أقصد أن ليندا ليست مسلمة ، كما أن ..

قاطعها وقد بدا على صوته الضيق :

- ستُسلمُ، ستعتنق الإسلام بعد زواجنا، هي وعدتني بذلك! وأنا لم أشأ أن ألح عليها في أمر كهذا، كما أن أباكِ تزوج أمكِ وهي أمريكية مسيحية ولم تكن مسلمة بعد، وأسلمت بعد الزواج، أليس كذلك ؟؟..

آلمها نبرة الضيق في صوته؛ فقالت :- أنا آسفة مالك، ولكن كنت دائما تقول بأنك لن تتزوج سوى من فتاة مسلمة مصرية ..

رد قائلا :- ذلك قبل أن أرى ليندا وأحبها!

فقالت :- ستتزوج من امرأة تكبرك بعامين ..

أجاب :- وما المشكلة؟ أنتِ أيضا تكبرينني بعامين، ودائما ما تخبرينني أنكِ تشعرين أنني الأكبر، كما أن الحب لا يعترف بتلك الفوارق!.. ثم أنهى الحوار قائلا :- رحيق، أستطيع أن أتخذ قراراتي بنفسي!

حاولت التبسم قائلة :- آسفة مالك، لم أقصد التدخل، يبارك الله لكما..

وأكملا طريقهما في صمت حتى وصلا، قابلتهما "ليندا" وقد اتسعت ابتسامتها حين رأت مالك فاندفعت نحوه تعانقه وتقبل وجنتيه قائلة :- عزيزي مالك اشتقتُكَ كثيراً..

أبعدها مالك عنه بلطف وقد بوغت من مفاجأتها له، فلأول مرة تفعل ذلك معه، بالإضافة إلى شعوره بالحرج من وجود أخته، ثم قال هامسا :

- ما هذا ليندا؟ قد أخبرتك قبل أن مثل هذه الأشياء لا تفعلينها قبل الزواج!

ردت بغنج :- ولكننا سنتزوج قريبا ما المشكلة إذا عزيزي؟ ألم تشتاق إلي كما اشتقت إليك؟!

حاول السيطرة على مشاعره قائلا :- بلى! ولكن تعلمين ..

قاطعته وقد ازداد صوتها نعومة :

- أعلم أنك مسلم، وأنا أيضا أحب دينك كثيرا، وأحب تمسكك به، آسفة، لن أكرر ذلك ..

عند هذا الحد اجتاح رحيق شعور بالاشمئزاز من كذبها الواضح، نظرت لأخيها بسخرية قبل أن ترحل وتتركهما، لا تعلم كيف أوقعت تلك الخبيثة أخاها في شباكها؟ تعلمها جيداً وتعلم نياتها، توقع الرجل من هؤلاء ثم تمثل العشق والحب ويصدقها، مالك أيضاً يصدقها ويعشقها، ولم يسمع لأحدٍ في أمره..

ودعها مالك على موعد بلقاء آخر، وذهب لرحيق، في مكتبها وجدها؛ فدخل عليها بعد أن استأذن قائلا :- أنا آسف، يبدو أنني أسأت أدبي معكِ.

ابتسمت قائلة :- لم يحدث شئ، لست غاضبة منك، أنا آسفة على تدخلي في الأمر..

جلس أمامها قائلا :- اعتذارك هذا يؤلمني أكثر ..

نظرت له ليكمل حديثه، ولكنه سكت كأنما يحاول أن ينتقي كلماته، وبعد برهة قال :- تعلمين أن ما فعلته ليندا الآن لم يحدث من قبل؟..

سألت :- ماذا تقصد؟ ..

أجاب بحرج :- أنها..أنها يعني..أنها عانقتني الآن .. ثم قال بسرعة :- لقد تفاجأت مثلك تماما ..

ابتسمت قائلة :- أعلم ..

وقف وبدا على وجهه الارتياح قائلا :- حسنا، لنبدأ عملنا إذا ..

تركها وذهب لمكتبه في شركة أبيهم للهندسة المعمارية، حيث يعمل مالك مهندسا ويحل محل أبيه لحين عودته في رئاسة الشركة، بينما تعمل "رحيق" مديرة لمكتب أبيها ومديرة لكل أعماله، عملها معه في هذه الوظيفة بدأ منذ ثلاث سنوات، ثلاث سنوات فقط ولكن قبل لم تكن تفضل الأعمال المكتبية، كما لم تكن تفضل أشياء كثيرة أصبحت الآن هي حياتها ..

أشياء كثيرة اختلفت في حياتها منذ خمس سنوات، حياتها كلها انقلبت رأسا على عقب، حتى أنها تركت عشقها الأبدي "الكاميرا" تلك الآلة التي لم تكن لتفارق يدها، الحلم الذي رسمته وخطت خطواتها الأولى فيه ونجحت، عالم التصوير، كانت قد بدأت تشتهر في مجالها رغم قلة أعمالها ولكنها كانت متميزة.

لم تكن تعمل وحيدة، بل اجتمعت باثنتين وكونّ فريق، وتكونت بين ثلاثتهن صداقة كانت دائما مثار للشجار بينها وبين زوجها في بداية علاقتهما، الألمانية "ميرا" والإنجليزية "ديانا" ..

انتهت علاقتها بزوجها ولكن بقيت صداقتهن، الشئ الغريب الذي جمعهن كان اختلافهن، فلم يكن لهن نفس الدين ولا نفس الوطن، ذلك الاختلاف الذي سبب الخلاف من ناحيته ولكن سرعان ما ألفهما، وتقربت كلتاهما منه، وخاصة الألمانية، وكان هو مستمتع بذلك حيث كانت ثرثارة تنقل له كل أخبار رحيق قاصدة، الأمر الذي كان يسعده بشدة ..

وتعاقب الليل والنهار، ليحل الليل بمفاجآت لكليهما' رحيق ومالك' وكعادتهما ذلك الشئ الذي ينبض في صدريهما لينبئهما بأن هناك خطب ما، فسره مالك بأنه قلق من رفض عائلته ليندا، وحتى يسترح من تفكيره ذهب لرحيق، فحديثه معها دائما مثمر، وحتى إن كانت تخالفه الرأي..

ولما اقترب من بابها، سمع نشيجها المؤلم، يعرفه جيدا، ويعرف تلك الحالة التي تأتيها، فزع ولم ينتظر ليدخل عليها سريعا، وجدها كما توقع تنكمش على نفسها في أحد أركان الغرفة تضم ركبتيها لصدرها وتدفن رأسها بينهما وجسدها ينتفض، هرع نحوها وجثى على ركبتيه أمامها واحتضن جسدها بين ذراعيه يهدؤها، ما زادتها فعلته إلا انتفاضا، وبقي يزيد ضمته حتى تهدأ وهو يهمس قائلا :

- رحيق، أنتِ بخير هنا، لن يؤذيك أحد، رحيق اهدئي أرجوكِ، أنتِ قوية، أخبريني ماذا حدث؟

بدأت تقول بصوت متهدج :

- أشعر به يا مالك، أشعر به قريب من هنا، سينتقم مني يا مالك، سينتقم مني ويأخذ سيف، أرجوك ابعده عني، لا أريده أن يأخذ ابني..

مازال قلقاً عليها وهو يقول :- لماذا ينتقم منكِ؟ لن يؤذيك أحد، صدقيني .. ثم أردف بصوتٍ مبتسم :- ما رأيك أن تأتي معي؟ سأذهب لأحضر أبي ..

نظرت له وقد بدأت تهدأ قليلا ثم قالت :- انتظرني لدقائق ..

هكذا تكون؛ تأتيها تلك النوبات كلما تذكرته وهي لا تنساه ،تبكي بشدة وتنهار، ثم تهدأ فجأة كأن شيئا لم يكن ..

بدلت ملابسها ثم وقفت ترتدي حجابها فدخل عليها "مالك" قائلاً :- انتظري ..

ابتسمت وهي تنظر له قائلة :- ما الأمر؟؟

أقبل عليها قائلا :- أريد أن أراكِ وأنت تربطين حجابك، أريد أن أعرف كيف تفعلينها!..

- لماذا ؟؟

اتسعت ابتسامته قائلا :- عندما تسلم ليندا أريد أن أربط لها حجابها الأول ، وأساعدها فيمَ بعد حتى تعتاد عليه ..

ضحكت رحيق وهي تعيد لف حجابها قائلة :- رومانسيتك تلك لا تتناسب مع كونك رجل شرقي.

ضحك قائلا :- مصروأمريكي لو سمحتِ ..

****

في المطار انتظرا والدهما، قبل أن يتركها "مالك" قليلا، تلك الحاسة الغريبة التي تمتلكها أخته مؤمن بها، ذلك الشعور الغريب الذي جمعها بزوجها منذ الللقاء الأول، يشعران ببعضهما حتى ولو بينهما أميال، الألم والأمل، الفرح والحزن، السعادة والمعاناة، شعور إن لم يتجسد في الإحساس تجسد في التصرف والفعل، إن مرض أحدهما إما أن يمرض الآخر أو يشعر بمرضه قبل حدوثه، إن تعرض أحدهما للخطر يشعر به الآخر في الحال، لذلك كان زوجها دائما منقذها من تلك المصائب التي كادت أن تتعرض لها ..

يعلم مالك ذلك، ولما أخبرته بما تشعر تيقن أن زوجها ظهر أخيرا، فهم لا يعرفون عنه شيئا منذ طلاقهما. لذلك ذهب ليتأكد من الأمر، أراد أن يصدق حدسه ويجده بالفعل، استغل فرصة كونهما في المطار وذهب ليسأل عن اسمه في تلك القوائم التي تسجل أسماء القادمين للبلد.

وصدق حدسه ووجد اسمه وعاد لها بوجه متغير، خافت أن تسأل ما به ولم يتحدث هو، ولم يشغل باله بذلك الشعور الذي ينبئها بوجوده، ولكن كل ما كان يشغله لماذا ظهر زوجها مجددا؟ وأين اختفى طيلة الخمس سنوات الماضية؟ ولماذا تخشى "رحيق" من انتقامه منها؟

وأد تساؤلاته وهو يرى أبيه قادما، ابتسم وهو ينظر لرحيق قائلاً :- أخيرا سأتزوج ..

ضحكت "رحيق" قائلة :- أهذا ما يهمك في الأمر؟ ألم تشتاق لأبيك الغائب منذ أسبوعين؟

ضحك وهو يعود ينظر لأبيه قائلا :- هل أكذب؟

ثم خفتت ضحكته وهو يضيق عينيه قائلا :- انظري، من هذه ؟؟ هل تزوج أبوكِ ؟؟ ..

نظرت أخته للفتاة التي تجاور والدها قائلة :- لو سمعتك أمك لقتلتك هنا ..

علت ضحكاته في المكان وهو يقول :- لماذا تقتلني؟ أنا ابنها الصغير المدلل، ستقتل تلك الصغيرة المجهولة ..

قالها وهو ينظر لتلك الفتاة، قصيرة الطول، ذات عينين صغيرتين تسكنان في وجه مستدير ببشرة سمراء، يحيط وجهها شعرها الأسود القصير الذي ترفعه عن عينيها بنظارة سودا، ترتدي قميص أسود قصير وسروال أسود، ملابسها ليست لفتاة، وإنما جعلتها أقرب ما يكون للرجال، حتى قصة شعرها ذكورية، مظهرها ككل يعكس شخصيتها المترجلة، وسلوكها البعيد عن الفتيات، ولكن في عينيها تكمن جرأة حزينة، وتمرد أخرس..

ابتسمت رحيق عندما اقترب أبوهما، وأقبلت هي تسلم عليه أولاً، عانقته بشوق ثم ابتعدت عنه ليقترب مالك الذي أنهى عناقه المتحفظ قائلاً :- طال غيابك أبي، والعروس طال انتظارها..

لم يبتسم أبوه "عمر" بل شعر بالأسى وهو يقدم الفتاة الصغيرة التي يصطحبها قائلا :

- ستصبر مالك، ستصبر، أقدم لكما .. بنان .. عروسك المنتظرة ..

لوهلة كأنه لم يسمع؛ فنظر لتلك الفتاة، ثم نظر لرحيق كأنه يطلب تأكيد، فلم يجد منها سوى اتساع عينيها لتؤكد ما سمعه، ثم تمالكت نفسها وهي تقترب لترحب بـ"بنان" ..

عاد بنظره لوالده الذي أومأ بعينيه قائلا :- سنكمل حديثنا في المنزل، هيا حتى لا نتأخر على أمك..

ساروا جميعا، وفي الطريق لم يتحدث أحدٌ وكأن على رءوسهم الطير. بالنسبة لرحيق فهي اعتادت على تقلبات حياتها، فظهور زوجها أمر على شدة خوفها منه، تمنته بشدة. أما مالك فالأمر مختلف؛ اعتاد لأن يرضخ لاختيارات أبيه كثيرا، لكن أن يصل الأمر للزواج، فهذا هو القشة التي ستقصم ظهر البعير!!..

٢

مات أبي

صم أذنيها صوت طلقات نارية،هرولت خارج غرفتها، ثم اتجهت نحو الصوت فزعة، فتحت باب منزلها الصغير المتواضع، ثم وقفت.نظرت للجثة المسجية تحت قدميها؛ تعرفها جيداً، نظرت لعينيه التي تستنجد بها، ثم جلست واحتضنت رأسه. همهم بكلمات سمعتها جيدا وحفظتها عن ظهر قلب، ثم تركته لصديقه العم عمر يلقنه كلمات، سمعته يقول :

- قل يا حسن أشهد أن لا إله إلا الله .. حسن انطقها أرجوك ..

نظرت لهما بنظرات ميتة ، ثم بحثت بعينيها عن قاتل أبيها ؛ فبينهما ثأر بدأ .

ولم تشعر بنان بأي شئ بعدها، قام عمر بما يلزم، وانصاعت هي لأوامره على غير عادتها المتمردة؛ فهي تريد فقط الثأر لأبيها، حتى عندما أخبرها أنه سيزوجها ابنه لحمايتها وأنها وصية والدها لم يهمها الأمر أيضاً؛ علمت أنها إن لم توافق سيجبرها ثم تسوء علاقتها بصديق والدها وهي لا تريد كل ذلك؛ وإنما تريد أن تبقى علاقتهما هادئة حتى تستطيع تنفيذ ما تريد.

وذهبت معه لقارة غير قارتها؛ بلد بعيد لتنسى حياتها الماضية وتنسى سنواتها العشرين.

ولما رأت مالكاً ورأت صدمته اطمأن بالها، لن تكون الشخص الوحيد المجبر في هذه الزيجة.إذا فهو لا يريدها كما لا تريده هي؛ يومان وتتخلص منه وتعود لثأرها .

وكما مرت أحداث وفاة والدها سريعاً؛ تم زواجها أيضاً سريعاً. وانعزلت في غرفتها بعدُ عن الجميع.

****

لم يفعل مالك ما أراد؛ عارض وامتنع، هاجم وتمرد، وفي النهاية أجبر على الزواج .حاول كثيراً أن يمتنع وثار كثيراً :- يا أبي لن أفعل.. لا أستطيع **!** أنا أحب ليندا كثيراً.

ثار عمر عليه :

- ليت أحمد بيننا الآن، كان سيقبل بما آمره به.. ليتك مِتَّ أنتَ وبقي هو حيا بيننا**!**

تلك العروق الصغيرة التي تظهر في أعيننا حمراء دامية تظهر غضباً مدفوناً، حزناً مكتوماً، تنبئ ببركان سينفجر أو فائرة ستفور.

تحكم مالك في كل ذلك، وحاول ألا تظهر انفعلاته أمام أب لا يريده، تحكم في احمرار عينيه، ولم يظهر من غضبه سوى ذاك، ثم قال :

- ليتني مت حتى لا أثير إزعاجك في كل مرة تجبرني فيها على شئ، لكن هذا الأمر لن أقبل به، لن أتزوجها، ولن أتزوج سوى ليندا، يكفي ما حدث.

- لتخرج من بيتي إذاً**!**

مازال مالك يتحكم في انفعلاته فقال بصوت مكتوم :- سأخرج ولن تراني ثانية .

لولا صرخة من أمه تبعها تهدج صوت رحيق قائلة :- مالك أرجوك لا تفعل**!**

نظر لهما؛ لعيني أمه الراجية، وصرخة رحيق المستنجدة، ولكنه لم يعد يستطيع فعل أي شئ لأجلهما، لم يعد قادراً على التحمل، فأتاه صوت أبيه قائلاً :

- سأتركك لساعة واحدة تختار مصيرك.

لم يرد، ولم يحرك ساكناً، جاءته رحيق أمسكت معصمه قائلة برجاء :

- مالك لنفكر بقليل من العقل، زواجك بها مؤقتاً، هي أيضاً مجبرة مثلك، والزواج سينقذها من ورطة محكمة، لم يكلفك أبي بهذا الأمر إلا لأنك جدير بذلك، وصدقني ليندا تحبك وستتفهم الأمر... قالت الجملة الأخيرة غير مقتنعة بها .

من معصمه الآخر أمسكته أمه مستعطفة إياه :

- مالك، لن يعوضني عنك شيئاً. لا تقبل بأمر يضرك، أحمد مات، ويعلم الله أنني لم أطلب منه أن يستبدله بك، لو أنت رحلت عني سأموت، أنت مدللي، فكر في الأمر بتريث، أعلم أنك تريد

أن تستقل بذاتك، ولكنك اخترت الوقت الخطأ، فليس هذا ما تستقل بذاتك فيه، لأن الأمر مجرد خدمة إنسانية، ستفعلها لأجل امرأة .

ثم أضافت مازحة وصوتها مازال يغطيه الحنان :

- ولو لم تفعلها من المحتمل أن يفعلها أبوك، هل ستقبل بذلك لأمك المسكينة.

حاول التبسم لها ولكن ابتسامته أبت الظهور، نظر لأيديهما وأعينهما، نظر لمستقبله دونهما، حياته بلا رحيق وبلا سارة ودون سيف، صحراء مقفرة، حياته دون ليندا، لا يجد لها ملمح.

تركاه يفكر في الأمر، إلى متى سيظل هكذا يؤمر فيطيع؟ كره حياته بهذا الشكل، تمنى يوماً أن تصبح علاقته بأبيه طيبة، وتمنى كثيراً أن يتفهمه أبوه ويفهمه، ولكن يبدو أن الأمر مستحيل، عليه أن يفكر في الأمر الآن بطريقة عملية، زواجه بها مؤقت وشكلي لأمر في نفس أبيه، إن قبل به فليقبل لأنه أراد ذلك وإن رفض فسيرفض لأنه يكره الأمر.

وقضي الأمر، وأعلن موافقته، وبعدها لم يشعر بشئ وكأنه بكلمة موافق ضغط زر نفذ كل ما حدث حيث انتهت مراسم الزواج سريعا؛ و قام والده بإشهار الأمر بين معارفهم وأصدقائهم الكثر.

وصل للطابق الثاني مالك وبنان ، تقدمهما عمر قائلا :

- ها هنا انتهى دوركما .. مالك سيذهب لغرفته .. وبنان اذهبي مع رحيق لتريكِ غرفتكِ ..

انتبه كلاهما له؛ وقد سرت راحة في نفسيهما وفعلا ما أراد.

انفرد مالك بنفسه، أغلق الباب وأي منفذ للهواء وجلس أرضاً وبكى، بكى بكل ما فيه، حتى عندما قرر أن يواجهه لم يستطع؛ ما ذنبه في موت أحمد؛ لماذا لا يشعره أنه ابنه كأحمد ورحيق؟! في كل أمر يضغط عليه بموت أحمد، وفي كل مرة يذعن للأمر بسبب ذكرى أحمد. أحمد مات؛ متى سيفهم والده ذلك؟ متى سيقرر أن يتعامل مع مالك لأنه مالك؟ وليس لأنه يريد أحمد؛ ليت أحمد يعود ويموت هو .

أخرجه من بكاءِ وأفكاره صوت رحيق تناديه، ولكنه لم يرد؛ فيكفيها هي الأخرى ما تحمل من هم. لا يريد أن يهيج ذكرى أحمد لديها؛ فشقيقهما الأكبر مات منذ زمن، ولو كان بينهما لفعل الكثير لأجلهما، ولكنه مات لتموت معه كل بهجة في حياتهما.

ولما ظهر ياسين استعاضا به عن أحمد، فقد كان يشبهه كثيرا؛ كان له أثر السحر على حياتهما. ونعمت حياتهما مجددا؛ ولكن ياسين هو الآخر اختفى واختفى معه كل جميل. بقي له ولأخته سيف؛ سيف من ياسين خفف عنهما وعذبهما كثيراً. وكأن مالك ورحيق خلقا ليشقيا كما يظن الأول دائما.

لم تمل رحيق من طرقاتها، ولم يجب مالك؛ فقررت تركه لبعد حين. وذهبت لتجلس مع شعورها الغريب؛ متى سيظهر ياسين وأين اختفى؟ وماذا بعد أن يظهر؟ هل تعاقبه؟ تعذبه؟ تبكي له وتشكو منه؟ تعاتبه وتقسو عليه؟ هل سيعود ليردها إليه؟ أم سيكون غريباً عليها؟ لن تعرفه ولن

تقترب منه؟ ماذا ستفعل عندما تراه؟ وماذا سيفعل هو لما يرى سيف؟ هل سيعرفه؟ اختفى منذ سنوات ولم يعرف أنه ترك في رحمها جزءاً منه، وإن ظهر الآن سيفاجأ بابن له قد بلغ. ماذا سيكون شعوره؟ يا إلهي إنها حيرة كبيرة. رحمك الله يا أحمد؛ لو كنت هنا لحميتها من كل شئ، حتى من أفكارها السوداء. ولكن مالك!! ألم يكن أمانها؟ أصبحت مثل والدها تقارنه بأحمد الغائب وهي تعلم مدى ألمه من ذلك.

مالك أصبح حمايتها وسندها منذ زمن، ولكن بسبب ياسين؛ بسبب ياسين فقط أصبح مالك المستهتر المنحرف الفاسد رجلاً، أصبح مالك الأمان الذي تمنته وعوض أحمد الذي رجت الله أن يعوضها به.

****

في صباح اليوم التالي ذهبت رحيق إليه نادته فاستجاب ، عندما رأته لم يخفَ عليها أثر السهر والإرهاق البادي على وجهه، تحدثت برفق :

- لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .. هون على نفسك ...

رفع نظره إليها قائلا :- ليندا ..

أمسكت كفه بحنو قائلة :- تعالَ معي سيُحل الأمر إن شاء الله ..

- إلى أين ؟

- سنقابل ليندا ، نفهمها الأم؛ لأنها تحبك لن تخذلك.

- أتعتقدين ذلك؟؟ .. قالها بقلق؛ فردت :

- أكيد . ولكن لنتناول طعامنا أولا، لا أريد أن تتسع الفجوة بينك وبين أبي.

ضحك ساخراً وهو يقول :- حقا؛ فجوة!! لقد انتهى فيّ كل شئ.

كانا قد سارا عدة خطوات، فتوقفت رحيق والتفتت إليه قائلة :

- مالك أرجوك، لأجلي أنا تماسك، لأجل ليندا كن قويا حتى تنتهي زيجتك القصيرة وتتزوجها.

قاطعهما صوت سيف الذي اندفع نحو مالك مردداً بعضاً ممَّ سمع :

- خالي، كن قويا لأجلي؛ لدينا مباراة اليوم، هل تريد خسارتنا؟

تبسم مالك قائلا :- أنت تكفي لجعلنا نفوز، ولكن هل استعددت جيدا.

أشار سيف برأسه موافقاً ثم اقترب من مالك هامساً :- أين العروس أريد رؤيتها ؟

تجهم وجه مالك وهو يجيب :- ابحث عنها.

فنظرت رحيق لابنها قائلة لتغير مجرى الحوار :- سيف لدينا تدريب اليوم هيا بنا لئلا نتأخر.

ثم قالت لمالك :- تبسم وإلا ضربتك أيها القوي.

ابتسم قائلا :- سأبتسم لأجلك فقط ولا تطلبي مني أكثر من ذلك.

وهبطا لوالديهما ..

****

كالعادة جو متوتر على مائدة الإفطار، وغابت بنان كما هو الحال منذ قدمت لبيتهم . وفت رحيق بوعدها وذهبت مع مالك لمقابلة ليندا، وعلمت بعواقب المقابلة لما رأت وجهها المتغير. رغم أنها لم تتمنى ليندا زوجة لأخيها يوماً ورغم أنها تمنت انفصالهما كثيرا، ولكن ليس في هذا الوقت بالذات؛ مالك يحتاجها بشدة وهي لا تريد شيئاً يؤثر عليه أكثر من همومه.

تحدثت رحيق قائلة :

- ليندا، صدقيني الأمر ليس كما فهمتِ إطلاقاً، زواج مالك أمر مؤقت، سينتهي وستتزوجان كما اتفقتما.

نظرت إليها ليندا بلامبالاة ثم قالت :- هذا الأمر بيني وبين مالك؛ لماذا تتدخلين أنتِ؟

- ليندا!!.. قالها مالك غاضباً؛ فوقفت رحيق قائلة :- أنا آسفة لم أقصد التدخل، مالك سأنتظرك بالخارج ..تركتهما ولم تترك الفرصة لأخيها بالاعتراض.

طأطأ مالك رأسه ولم يعرف كيف يبدأ فقالت ليندا مباشرة :

- يحق لك الزواج باثنتين وأكثر في دينك أليس كذلك؟؟

رفع رأسه وقد بوغت فقال :- بلى ولكن القانون هنا ...

قاطعته قائلة :- لن يعرف أحد ..

حدج بها قائلا :- ماذا؟؟ لم أسمع جيدا ..

قالت :- بل سمعت .. سنتزوج في السر .. ولن يعرف أحد بالأمر .. حتى رحيق.

وكأنه تذكرها فقال :- ولكني أخبرتكِ قبل بألا تحدثي رحيق هكذا .

- مالك لا تغير الموضوع .. دعك من رحيق الآن، وفكر في أمرنا جيدا؛ هذا إن كنت تحبني وتريدني أن أنسى ما حدث.

- ولكن ..

اقتربت بوجهها منه ونظرت لعينيه قائلة :

- مالك أنا أحبك بشدة بل أعشقك، هل ترفض التضحية لأجلي.

اهتز صوته قائلا :

- ليس الأمر كما تتصورين، أنا أقصد أن الإشهار من شروط الزواج.. في ديني أقصد.

تردده يفيدها جدا فقالت بثقة :- لنشهر الأمر بين أصدقائنا ..

- دعيني أفكر بالأمر ..

ابتسمت قائلة :- سأنتظر ردك بعد يومين ..

وافق بعينيه ثم قال :- والآن هل سامحتِني ؟

خفتت ابتسامتها قائلة :- دعني أفكر ..

ارتسم الحزن على محياه قائلا :

- ليندا أخبرتك أنني متورط في الأمر .. كما أنني كنت أخطط لزواجنا في أقرب وقت.

سكتت قليلا ثم قالت :- فلتفكر في عرضي جيدا .

ابتسم وهو يقف قائلا :- لنذهب الآن حتى لا أتأخر على رحيق .

وقفت قائلة :- وسأعتذر لها لأجلك .

تعرف كيف تكسب قلبه جيدا، فاتسعت ابتسامته وهو يقول :

- أنا سعيد جدا لأنني أحبك جدا جدا .

غضت طرفها وهي تشعر بالانتصار .

****

اطمأنت رحيق بفرحته وسعدت بها، قبلت اعتذار ليندا الكاذب لأجله هو ودونه كانت ستقبله؛ فتلك عادتها الصفح الجميل.

لمدة يومين يفكر مالك في الأمر، ويحاول أن يصل لقرار؛ فليندا لن تنتظره إن لم يوافق، وكذلك هو يريد أن يطمئن بقربها منه، وكان يبدو عليه التفكير الشديد والشرود الدائم أمام الجميع.

وعند الغروب وقف في شرفته فلديه موعد مع ليندا؛ وإلى الآن لا يعرف قراره. سمع لصوت رحيق تقول :- يا صاحب الشعر البني ..

ابتسم وهو يلتفت لها قائلا :- مرحبا .

- جئت لأطلب منك شيئاً

حثها على الحديث فقالت :- بنان ..

- بنان .. اه اه ماذا بها ؟؟

سحبت نفسا قويا لتستعد لما ستقول ثم تحدثت :

- تعلم أنها أجبرت على الزواج مثلك تماما .. كما أنها بنت العم حسن .. بالطبع تذكره جيدا .. لقد مات .. قتل أمام عينيها .. ومنذ حينها وهي لا تتحدث مع أحد ولم تبكِ مطلقا .. وأمي تقول أنها بالكاد تأكل ..

تأثرت ملامحه وهو يقول :

- كيف تحملت ذلك ؟؟ .. أعلم أنها أجبرت ولكن لم أقتنع بمبررات أبيكِ !!

أكملت قائلة :

- حتى يحميها .. يريدها أن تعيش بيننا ثم تأخذ الجنسية وألا يحق لها العودة لبلدها .. فقط لفترة قليلة ثم تطلقها أنت ولكن سيكون أبونا أنهى أمر أولئك الذين يريدون أذيتها.

- من هم ؟؟ ولماذا يريدون الأذى لها ؟؟

- لا أعرف ..

تفهم قائلا :- وماذا تريدين مني؟

- تتحدث معها .

- أنا ؟؟ ولكني لا أعرف كيف أتحدث في تلك المواقف .. ماذا سأقول لها ؟ تحدثي معها أنتِ .

قالت بصوت هادئ :- ظننت أن كلامك معها سيجدي .. لا عليك سأحاول مجدداً .

رن هاتفه فارتبك، فابتسمت رحيق وهي تغادر غرفته قائلة :- تحدث معها لا تقلق .

أجاب سريعا ثم ذهب لمقابلتها. كان اتصالها استعجالاً بالأمر، وهو إلى الآن لا يعرف ماذا سيقول لها؟ لقاء سريع عرفت ليندا كيف تديره جيدا، مالك يحبها فلِمَ تضغط عليه؟ ستظهر نفسها امرأة لطيفة جميلة ودودة لحين انتهاء الأمر. قد يظهر لها شخص آخر أفضل من مالك تتخذه صاحبا ويحقق لها أحلامها. وفي تلك الفترة قد تقضي أوقاتها مع أكثر من صاحب كان قد منعها مالك عنهم. زواجها به الآن سيقيد حريتها كما أنه يريد زواج أبدي وهي لن تتحمل مالك لآخر عمرها. يكفي أن تقضي معه عدة أشهر.

لذلك قررت وأخبرته بقرارها؛ ستنتظره حتى ينتهي من تلك الزيجة، ستسامحه ولن تتركه. مالك شخص ساذج في نظرها تستطيع أن تريحه بكلمات قليلة؛ وقد كان.

عاد للمنزل بعد وقت طويل معها وسعادته تسبقه، شعر بالجوع الشديد فعرج على المطبخ ليعد لنفسه أطعمة عدة. بعد وقت دخلت عليه، وجدته فوقفت مكانها عند الباب، التفت لها، رآها فابتسم ثم قال :- مرحبا بنان تفضلي بالجلوس.

تقدمت وجلست خلف المنضدة، وأكمل هو إعداد الطعام، سعادته مسيطرة عليه بشدة فصنع لها أيضاً أطعمة أخرى.

شعرت بنان بالجوع الشديد لذلك أتت لتبحث عن شئ تأكله، ولما وجدته قررت التراجع لولا أن دعاها للجلوس فجلست. رائحة الطعام شهية ومع شدة جوعها أصدرت معدتها أصوات عالية فشعرت بالحرج الشديد ونظرت لمالك الذي يوليها ظهره ولكنه لم يلتفت. سمعها فابتسم ولم يشأ إحراجها. أنهى الطعام وجهز المائدة وجلس معها ليتناولان طعامهما بصمت.

كانت تأكل بنهم فترك طعامه وبدأ يراقبها لم تتوقف عن الطعام حتى انتهى وفرغت الأطباق.
فوقف مالك يعد لها طعاماً آخر فقالت :- هذا يكفي ..

التفت لها قائلا :- ولكنكِ لم تأكلي منذ جئت إلى هنا ومن المؤكد أنك مازلت تشعرين بالجوع.

وقفت وهي تقول :- أشكرك .. يبدو أنني أنهيتُ طعامك .. لم أقصد.

ابتسم قائلاً:- لا عليكِ، لقد أكلت طعاماً كهذا قبل أن آتي إلى هنا ومع ذلك مازلت أشعر بالجوع.

تبسمتْ وهي تفهم محاولته لتخفيف حرجها ثم قالت :- سأنظف الأطباق.

منعها قائلا :- لن يحدث هذا، سأنظفهم أنا، كما ترين فأنا أجيد الطهي وكذلك غسل الأطباق.

أومأت قائلة :- تعودت أن أخدم نفسي بنفسي.

ابتسم قائلا :- إذا فلنعمل معاً.

وافقته ووقفت تساعده في غسل الأطباق وتنظيف المكا، ولما انتهيا ابتسم وهو ينظر لها قائلاً :
- أنتِ الآن تمتلكين أحد أسراري؛ فلا تخبري به أحداً.

حثته على الاسترسال فأكمل :

- لا أحد يعلم أنني أجيد الطهي أو حتى أنني أجيد التعامل مع المطبخ، فقط رحيق من تعلم، حتى ليندا أعددت الأمر لها مفاجأة.

هزت رأسها متفهمة ثم قالت :- ليندا حبيبتك، لماذا لم تتزوجا؟

- بسبب زواجنا أنا وأنت.

- ولماذا وافقت على زواجنا، لماذا لم تدافع عن حقك في الزواج بحبيبتك؟

- لأنه ..

- لأنك لا تحبها، هكذا هم الرجال، لا وعد يمنعهم ولا كلمة تأخذها منهم، إنكم كائنات ليس لها فائدة في الوجود، بحق السماء لماذا خلقتم؟

اتسعت عيناه ثم ضاقت قائلا :- ماذا تقولين؟

- سمعت جيدا، والآن سأستأذنك لأذهب لغرفتي.

قال هامساً :- هداكِ الله .

نظرت له بازدراء شديد من رأسه لأخمص قدميه قائلة :

- آه أأنت من هؤلاء القوم الذين يظنون أن للكون إلهاً صانعُه؛ يأمر فيطاع، يعذب ويثيب ؟؟..

اتسعت عيناه عن آخرهما وهو ينظر لها قائلا :- ألستِ مسلمة ؟..

ردت ساخرة :- بل جعلوني مسلمة .. لم أختر ديني .. ثم ما هذا الشئ الذي يربطكم بمجهول؟ وهل تعتقد أنه لو أتيح لي الاختيار سأختار دينا أعتنقه؟ .. إنه الغباء بعينه!..

عقد ما بين حاجبيه وهو يقف مبتعدا عنها قائلا :

- لنفترض أنني من هؤلاء القوم الذين يعتنقون ديناً اسمه الإسلام، ولنفترض أنني أؤمن أن للكون إلها خالقه، ماذا تريدين أنتِ الآن ؟؟

رفعت كتفيها بلا مبالاة قائلة :- لا أريد شيئا، فقط كنت سأسألك ما دليلك أن هناك إلهاً لهذا الكون؟

بُهِتَ ولم يرد؛ فكل معلوماته عن الإسلام صلاة تحثه أخته عليها، شهر يصوم فيه لأنه تعود على ذلك، غضب يعتمل في صدره عند تعرض أحدهم لدينه بالسب أو الإهانة، لكن أن يجادله امرؤ في أمر دينه، أن يحثه أحد على التفكير في أي شئ يخص دينه، لم يتعرض لموقف كهذا قبل..

وقفت وعينيها تلتمع بشئ من النصر قائلة :

- ها أنت لم تعرف الإجابة، كنت متوقعة لذلك، كلكم هكذا تجيدون الحفظ والترديد، ولا تفهمون أي شئ!..

همت بالمغادرة، لولا أنها بكلامها أثارت الحمية بداخله، رغم تقصيره الشديد الذي يعرفه إلا أنه لن يقبل بأن تنتصر عليه، أمسك ذراعها يوقفها قائلاً :

- زوجتي العزيزة، أردت فقط أن أخبرك بشئ ..

انتبهت له فأكمل سائلا :- كيف خلقتِ؟..

نظرت له بثبات قائلة :- بالطبع تريدني أن أقول أن إلهك خلقني ولكن من خلق إلهك؟؟

تخشب جسده وهو ينظر لها قائلا :- ماذا ؟؟؟

ثم تمالك نفسه ولا يعرف من أين أتاهُ هذا المنطق وهو يقول :

- أنت صانعة للذهب .. أليس كذلك ؟؟

أومأت بإيجاب فأكمل :

- ماذا لو أعطينا للذهب عقلا؟ وسأل صانعه كيف صُنعَ؟ ماذا ستكون الإجابة؟

أجابت بثقة :- سيكون عقلاً أحمقاً لا محالة، أنا الصانعُ! هل يعقل أن أكون الصانع والمصنوع في آن واحد؟..

سحب نفسا عميقا وهو يشعر بانتشاء استفزها، ثم قال :

- أنا أيضا قلت ذلك عقل أحمق، كيف نثبت صفة الخالق ثم نجعله مخلوقاً في آن واحد؟..

ثم أشار لعقلها قائلا :

- فكري جيدا فيما تقولين زوجتي العزيزة.. ولا تكوني من هؤلاء القوم الذين يحفظون ويرددون دون فهم ..

ثم تركها وقد أزيح من على كاهله مسئولية لا يقدر عليها، تركها وهو يقرر أن يخبر أخته بالأمر، فهي تستطيع جدالها، أما هو فليذهب ليشعل سيجارته علها تريحه من الضغط الممارس عليه، لماذا زجوا به في تلك الزيجة، لماذ؟

ولما ابتعد حرك رأسه متعجباً وهو يتمتم :- إنها غريبة، يا إلهي انهِ هذا الأمر عاجلاً!

****

نشيج كل ليلة، ونحيب كل ذكرى، لولا أنه يعلم غرابة الأمر لعنفها كل يوم، ولولا أنه يعلم من السبب فيمَ حدث لبحث في الأرض كلها عن ياسين حتى يأتيَ به. دخل عليها وجلس جانبها أرضا واحتواها بين ذراعيه ككل مرة، ولما انتهت رحيق قالت :

- أريد أن أراه، إنه هنا واثقة أنا من ذلك، سأبحث عنه، قد يكون عند خاله.

احتوى وجهها بكفيه قائلاً :- هل اشتقت إليه إلى هذه الدرجة؟

هزت رأسها بعنف قائلة :- أنا أكرهه، أكرهه بشدة؛ أريد رؤيته لأخبره بذلك، سأخبره أنني أكرهه وأن يرحل ويتركنا سأسأله لماذا عاد؟ إنه ..

قاطعها قائلا :- إن عاد فهو عاد لأجلكِ وأنت تعلمين ذلك. ثم قال باسما :- إنه الأحمق الوحيد الذي قال لزوجته أحبك وهو يطلقها.

ابتسمت قائلة :- نعم أحمق غبي جبان مخادع كاذب ..

- اتقِ الله ..

- أستغفر الله! ولكن أنا أشعر الليلة بشئ غريب صدقني.

ضحك قائلاً :- إنك تشعرين بذلك منذ ليالٍ، ولم يحدث شئ.

- ولكن الليلة لن تمر على ما يرام أنا متأكدة من ذلك، سيحدث شئ غريب، أشعر بذلك، هل من الممكن أن يظهر الليلة؟

سحب نفساً عميقاً وهو يقول :- خيراً إن شاء الله؛ سيحدث خيراً .

- قد يكون !

نظر لها قائلا :- أليس من الخير أن وجوده في حياتنا جعل علاقتنا هكذا بعد أن كانت.. بعد أن كانت مجرد لقاء عابر يجمعنا لا يلقي حتى أحدنا السلام على الآخر.

نظرت له قائلة :- أنا كنت أفعل .

ابتسم وقال :- وأنا كنت طائش متشرد يائس وعدلت عن كل ذلك بسببه، أعلم مدى جرحك وأعلم مدى ألمك، ولكن لا أستطيع أن أكرهه فأنا أدين له بالكثير، فلنلتمس له عذراً، وأنتِ تعلمين جيداً أن ما فعله لم يكن بإرادته.

ثم أكمل مغيراً دفة الحديث :- أتعلمين ماذا فعلت زوجتي المزعومة ؟!!

انتبهت له فقص لها ما حدث وأخبرها عن أفكارها فقالت :- إنها مسكينة بائسة، سأتحدث معها إن شاء الله، مازالت صغيرة فقط عمرها ٢٠.

ثم ابتسمت مواصلة :- نفس عمري منذ سبع سنوات عندما ..

قاطعها قائلا :- عندما حدث أجمل شئ في حياتك، تذكري ذلك دائما.

ووقف قائلاً :- سأخرج لأتنفس بعض الهواء، حتى تمر هذه الليلة الطويلة، أعتقد أنه لن يشعر بي أحد.

- مالك لا تتأخر .

وافقها، ثم تركها مع أفكارها، نفضت رأسها بعنف لتخرج منه 'من ياسين' ومن ذكرياته السيئة مثله، كاذب مخادع لم يحبها يوماَ، إنه جبان متخاذل، وهي أيضا خذلته، لم تبقى جانبه كما وعدته؛ هل سيسامحها؟!

٣

لماذا تأخرت

أن تستمر حياتها بشكل طبيعي أمر تعودت عليه، فليست رحيق بحاجة إلى حديث يطيب خاطرها وليست بحاجة إلى مساندة تقويها، نوبات ضعفها تخرجها فقط في ذلك النشيج الذي يأتيها وحدها مع ذكراها. لم يحدث شئ في تلك الليلة، خرج مالك وعاد فجراً، لم تسأله عن شئ، بينما مرت بغرفته واتجهت لغرفة المعيشة وجدت بنان، فشاركتها الجلوس الصامت.

وعند الفجر قامت رحيق للصلاة بعد أن استأذنتها، اتخذت طريقها لغرفتها ثم عدلت عن ذلك بعد أن تذكرت كلمات مالك عن بنان. ذهبت لتصلي أمامها، كانت تحتاج مناجاة ربها بشدة، وكعادتها عندما بدأت خشعت وقد نسيت كل شئ وبقيت تصلي لله شاكرة شاكية داعية.

لما انتهت تذكرت بنان، كانت تراقبها وهي تعلم، أنهت أذكارها ثم قالت لها باسمة :

- بنان ! ألن تصلي ؟

ارتبكت بنان قائلة :- أصلي ؟

- نعم ..

لا تستطيع الرد على رحيق أو جدالها، ولا تستطيع استفزازها كما فعلت بمالك. مالك رجل! لكن رحيق امرأة رقيقة جميلة، عاملتها بلطف منذ قدمت لبيتهم وتوددت إليها كثيراً وخففت عنها أكثر. فابتسمت بتهذيب قائلة :- أنا لا أصلي ..

- هل يمنعك مانع ؟.. قالتها رحيق باسمة ؛ فقالت بنان :

- لم أفهم، ولكن أنا لا أصلي لأني لا أفهم ما فائدة تلك الحركات الجوفاء وما فائدة أن أذل نفسي وأحني رأسي أرضاً لإله لا أراه.

تنفست رحيق بعمق ثم اقتربت منها وجلست باسمة، قارنت بنان سريعاً بين ردة فعلها وردة فعل مالك الرجل، هكذا هم الرجال همجيون! تراهم دائماً لا فائدة لهم سوى حب السيطرة والسيادية، ارتاحت ملامحها انتظاراً لكلمات رحيق التي بدأت قائلة :

- بنان! هل تسألينني لأنكِ تريدين معرفة الفائدة وتبحثين عن الحق، أم تسألين لأجل الجدال والتكذيب وفرض الرأي فقط؟

ردت بنان :- لا أعرف، ولكن أكيد أنني لن أسئ أدبي معكِ، قد أفعل مع مالك لكن أنتِ لا أعتقد.

ابتسمت رحيق لصراحتها ثم قالت :

- إذا فلنتفق في البداية على شئ، وهو أن تعيشي باحثة عن الحق، باحثة عن الله حتى تؤمني به إيماناً كاملاً، ستجدينه في كل مكان وترين إعجازه في كل شئ.

علقت بنان :- ولماذا أبحث عنه وأنا لا أؤمن بوجوده ؟

ابتسمت رحيق قائلة :- وبماذا تؤمنين إذاً ؟

قالت بنان :- لا أؤمن بأي شئ .

- وكيف تعيشين، كيف يحيا المرء دون إيمان بشئ، دون أن يسعى لأجل شئ، دون هدف ورسالة، دون انتظار ثواب وخوف من عقاب .

ثم نظرت لعينيها، تبدو طفلة صغيرة ضائعة، تتفوه بما لا تعي، فمسحت على رأسها ثم قالت :
- بنان، الله جميل يحبك، لا تقلقي من شئ، نحن لا نؤدي حركات جوفاء، ولا نعبد إلهاً نشك في وجوده، إنما نحن مؤمنون إيماناً كاملاً بوجوده، كل شئ في الكون يخبرنا بوجوده أليس كل صنعة تدل على صانعها؟

- بلى ولكن .. ترددت قليلاً ثم أكملت :

- إنكم تعتقدون معتقدات غريبة، أخبريني إذا لماذا تحني رأسك إلى هذه الدرجة؟

تنهدت رحيق وردت :- لماذا تقولين أنتِ أنه ذل، بماذا يرتبط هذا الانحناء في ذهنك؟

وقفت بنان وبدأت تعنف قائلة :- إنه إهانة وذل، أنا لست أمة اشتراها أحدهم،ولست خادمة لأحد.

وتهدج صوتها وهي تقول :

- لماذا تفعلون ذلك ثم تشعرون بالاطمئنان، لماذا تلك الراحة التي غمرت وجهك بعد الصلاة بعد أن كنت متوترة خائفة وعيناك تنطق بالفزع والقلق .

تقدمت منها رحيق وأخذتها بين ذراعيها، مسدت رأسها ولم تتحدث.

فقالت بنان :- لم أقصد .

- لا تعتذري !

- أنا لا أعتذر .

ابتسمت رحيق وابتعدت عنها .. ثم أخذتها لتجلس جوارها وقالت :

- نحن نفعل ذلك لأننا نحب الله، نحبه كثيراً، في هذه السجدة نكون أقرب لله. لأننا نحبه نبتغي قربه ومناجاته. لا نعبده اضطراراً ولا مجبرين، ولا نشعر بالذل، بل نزداد عزاً بعبادته لقد قال في كتابه (ولقد كرمنا بني آدم) وقال (لا إكراه في الدين).

ابتسمت بنان قائلة :- رحيق أنتِ رائعة، ولكني لا أشعر بشئ مما ترددينه، إلهك الموجود لم يحمني من شر الناس ولم يحمِ أبي من بطشهم، إلهك الموجود لم أجده كما تزعمون.

نظرت رحيق أرضا في محاولة للبحث عن كلمات ولكن سبقتها بنان قائلة :

- لقد سمعت حديثك مع مالك، لم أقصد ذلك ولكن لماذا تضعين آمالك على رجل؟ ولماذا تنهارين بغيابه؟ سأقدم لكِ نصيحة، لا تسامحيه ولا تعودي إليه، يجب أن يذل حتى ينال رضاكِ.

ضحكت رحيق قائلة :- ما حكايتك مع الذل ؟

تجهم وجهها ووقفت قائلة :- سأذهب لأنام وفكري جيداً في كلامي عن إلهك وعن هذا الرجل.

نظرت لها رحيق ثم ابتسمت وهي تتمتم :- أنا التي تفكر في كلامك، صدق مالك إنك غريبة، ولكنكِ مسكينة يائسة.

****

وعند الشروق استيقظ سيف؛ وخرج مع أمه تجاه ردهة الطابق العلوي، ومنها اتجها للشرفة، وجدا بنان واقفة تتأمل السماء، فقال سيف :- زوجة خالي العزيزة ماذا تفعلين هنا؟

ضحكت بنان وهي تلتفت له قائلة :- مرحبا سيف ، صباح الخير.

أقبلت رحيق قائلة :- أراك تشاهدين الشروق، هل تعجبك روعته.

- تعجبني جداً .

وقفت رحيق جوارها قائلة :

- أتعلمين أنني أدمن رؤيته، إنه يدل على بديع صنع الخالق، لا أحد يستطيع فعل ذلك سواه، تعاقب الليل والنهار هكذا، ورؤية الشمس وهي تشرق من مشرقها وتغرب ثانية من المغرب، ثم القمر الذي يتوسط السماء بدراً، كل ذلك يجعلني أفكر في خالقي كثيراً، اتساع البحار، جريان الأنهار، والأرض التي تدور تثبتها الجبال بأوتادها.

نظرت لها بنان فأكملت :

- أنا لا أجبرك على شئ، فقط أرد على سؤالك، سألتِني كيف نعبد إلهاً لا نراه، وأنا الآن أخبرك أننا نرى وجوده في كل مكان، نرى صنعه ونرى خلقه، لا يستطيع بشرٌ أياً كان أن يفعل ذلك.

علقت بنان :

- ولكن من الممكن أن تحدث تلك الأشياء من تلقاء نفسها، أقصد أن الشمس تشرق وتغرب هكذا دون سيطرة أحد عليها.

ردت رحيق :

- ليكن ذلك، سيحدث ليوم أو يومين ثم تمل وتغيب عنا، قد تخطئ فتزداد حرارتها فنحترق، أو تقل فنتجمد، لأنه لا يحكمها أحد. ولكن كل هذا لم يحدث، بل إنها تسير على قوانين ثابتة منذ بدأت الخليقة لا تتغير ولا تتبدل.. قال الله في كتابه :

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

وقال أيضاً : **{ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }**

حاولت بنان أن تقاطعها ولكن رحيق قالت :

- يعجبني تفكيرك جدا لكن ما ستقولينه الآن سيؤخذ عليكِ، فكري جيدا ثم حدثيني، ستجدينني في أي وقت. وتذكري دائما؛ كوني حريصة على البحث عن الحق احرصي على أن تبحثي عن الله؛ حينها هو سبحانه سييسر لكِ السبل، اتفقنا.

- سأحاول!

ابتسمت رحيق قائلة :- جيد جدا؛ هيا بنا إذاً.

****

وبعد تلك الليلة الغريبة ذهبت رحيق لعملها مع مالك، وفيه انهمكت بشدة، وبعد مرور وقت طويل، سمعت صوت قريب منها يقول :- هل تسمحين لي بالدخول؟

ابتسمت ثم رفعت عينيها لصاحبة الصوت وقالت :- ميرا !!

ثم ذهبت نحوها لتسلم عليها وهي تقول :- لقد اشتقتكِ كثيراً، كيف حالك؟ وما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

ضحكت ميرا قائلة :- رويدكِ أنا بخير، والذي جاء بي إلى هنا أنني اشتقتكِ أيضا وجئت للاطمئنان عليكِ، كيف حالك أنتِ؟

جلستا متقابلتين حيث قالت رحيق :- حالي أنني أعيش بصحة جيدة، دعكِ مني أنا، كنت أريدكِ في أمر هام.

- ما هو؟

- لي صديقة أعرفها أريدكِ أن تتحدثي معها عن الإسلام.. ثم سكتت قليلا لتكمل :- ليس عن الإسلام بشكل خاص، ولكن.. لا أعرف، لا أعرف ماذا أخبرك؟

فردت ميرا :- هل أسلمت عن قريب أم أنها تفكر في الإسلام، أم تعارضه؟

- ليس بالضبط، ولكنها تنكر وجود الله!

فكرت ميرا لقليل من الوقت ثم قالت :- ولماذا لم تتحدثي معها أنتِ؟!

- تحدثتُ بالفعل ولكن يبدو أنها لم تقتنع، يا إلهي لم أتحدث معها بالقدر الكافي، في الحقيقة أنا مشتتة جدا في هذه الأيام ولا أستطيع التركيز في شئ.

هدأتها ميرا قائلة :- لا تقلقي من شئ، الأمر جد بسيط، أشعر أن بكِ شيئاً ما هو؟

قالت رحيق :- لا شئ، المهم الآن أن تهتمي بها، أقصد أنكِ دخلت الإسلام عن تفكر واقتناع فبالتالي أنتِ قادرة على إقناعها بالأمر، كما أنكِ اهتممتِ بهذا الأمر وتستطيعين الحديث مع أصحاب ذلك الفكر، ليس مثلي أنا ولدت وجدتني مسلمة.

قاطعتها ميرا :- وهذا لا يلغي دوركِ، كما أنكِ عرفتِ الإسلام بنفسك وتوصلتِ لكل شئ فيه عن عقل وقلب أليس كذلك؟

- بلى ولكن، ولكن أشعر أن حديثكِ معها أهم.

ابتسمت ميرا قائلة :- إن أرادت أن تهتدي سيهديها الله ، ادعِ لها، وأنا سأحاول الحديث معها بالتأكيد، ماذا بكِ إذاً؟

ابتسمت رحيق قائلة :- هل أنتِ مصرة أنني لست بخير! كل ما في الأمر أن ياسين هنا، لا أعلم أين يكون ولكنه هنا في نفس المدينة التي أعيش فيها، أشعر بوجوده قربي منذ فترة، وذلك الشعور يقتلني في اليوم والليلة.

اتسعت ابتسامة ميرا قائلة :- حقا! حقا لقد عاد! أتقولين الصدق؟ يا إلهي لك الحمد، اللهم لك الحمد. لقد دعوتُه كثيراً، أشكرك إلهي شكرا جزيلاً.. ثم نظرت لرحيق قائلة :- وأمر كهذا لماذا يزعجك؟ أليس من الأجدر بكِ أن تسعدي؟

وقفت رحيق وهي تقول ببعض ضيق :- تكفي سعادتك أنتِ لرجوعه!

التفتت ميرا تنظر لها وهي تقول بمكر :- أمازلتِ تغارين أيتها الساذجة؟ إن سعادتي برجوعه لأجلك، ولأجل سيف، ولأجل أنني اطمأننت على شخص أعتبره أخي، فهل تسمحين بذلك؟

ابتسمت لها رحيق ولم تعلق فوقفت ميرا قائلة :- سأغادر الآن، محمد ينتظرني في الخارج، أريد أن أعرف أي أخبار جديدة، ولا تقلقي بشأن ياسين، هناك سوء فهم ويجب أن تسمعيه وتتفهمي الأمر.

وقفت رحيق لتوصلها، وعندما خرجتا قالت :- سأنتظر زيارتك القادمة، لا تتأخري!

- لن أتأخر يا فتاتي إن شاء الله!

- أصبحتِ عاطفية أكثر من اللازم!

التمعت عينا ميرا وهي تنظر لمحمد قائلة :- بسببه هو.. ثم نظرت لرحيق قائلة :- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

بقيت رحيق تنظر لها، ميرا لم تتنازل عما تريد ولو لمرة واحدة، رغم أن كل ما أرادته اعتبر مستحيلاً، ولكنها الآن مسلمة ومتزوجة من محمد يوسف، شيئان صارعت في الحياة لأجل تحقيقهما.

نظرت لابتسامتها البراقة لما اقتربت منه وتذكرت كيف أخبرتها يوماً أن زواجها منه شبه مستحيل، لم تكن تضعفها أو تبث لها اليأس، ولكن الظروف التي أحاطت بهما حين ذاك أنبأت بذلك، تنهدت وهي تدعو لها ثم عادت لعملها.

****

عندما اقتربت منه ميرا، تناول يمناها في يسراه وسارا متجاورين قبل أن تقول :

- محمد! هل انتهى عملك اليوم، أم ستعود إليه؟

- لقد انتهى .

أوقفته قائلة :- ولماذا لم تعُدْ للبيت؟

جذبها لتسير وهو يقول :- جئت أنتظركِ لتشاركينني طريقي للبيت، هل من اعتراض؟

شدت على يده وهي تهمس :- لا أعلم كيف ستكون حياتي لو لم يبعثك الله لي!

- ستكون جنة.

- بل هي الآن جنة!.. رددتها بأنين بَيِّن ..

فوقف والتفت يواجهها ثم نظر في عينيها قائلاً :- ماذا بصوتكِ؟ هل حدث شئ؟

غضت طرفها، ثم قالت :- اشتقت لعائلتي، وأتمنى رؤيتهم، أخشى ألا أراهم طيلة حياتي.

ربت على وجهها بحنو قائلاً :- الذي هداكِ للإسلام قادر على أن يجمعكِ بهم وقادر على أن يلين قلب والدكِ ويجعله رحيما بكِ، أليس كذلك؟

- بلى، ولكن ادعُ الله لي.

أحاط كتفيها بذراعه وسارا مجدداً وهو يقول بصوتٍ فيه من المرح ما يخفف عنها :- انظري! يبدو أن الأمطار ستفاجئنا اليوم، هل أنتِ مستعدة ؟.. ضحكت وقالت :- إنني أنتظرها !

****

كل من حولها يتعاملون مع الأمر كأنه حقيقة واقعة لمجرد أن أخبرتهم عن شعورها بوجوده، ولكن لم تخبرهم بعدُ أنها رأته، كان بعيداً عنها ولكنها عرفته، وقفت وأصابها الفزع من المفاجأة، لم تكن متأكدة من أن حدسها صدق بعد غيابه كل هذه الفترة، ولكنه صدق، رأته وأطالت في الرؤية، لم تتحرك حتى تحرك هو، إنه زوجها، لماذا عاد الآن؟

رحيق تحتاج إلى توازن، ولكن كيف يأتيها وهو منها ليس بقريب ولا ببعيد، كل ما تشعر به أن الأيام القادمة ستأتيها بمفاجآت لن تتحملها.

تفكر في حال مالك وما سيئول إليه، حال بنان وأفكارها، سيف ورد فعله عند ظهور أبيه، تفكر في أمها وأبيها وما سيفعلانه، تفكير يؤرقها ويحرمها النوم.

أرادت أن تسعد مالك ولو بقليل، ولم يعجبها علاقة أبيها به، منذ وفاة أحمد وهي أكثر ما تفعله أن تصلح علاقتهما دائماً، تعلم أن مالك تحمل أباهم كثيراً حتى قبل وفاة أحمد.

أحمد كان الابن المميز وكأن ليس سواه أحداً، ورحيق كانت مميزة لأنها الفتاة الوحيدة، أما عن مالك فكان ومازال وكأنه غير موجود، وكأن أباها لم ينجب مالكاً، وسارة لم تكن تختلف كثيراً عن عمر سوى في بعض التدليل الطفيف الذي كان يحظى به مالك منها بسبب خفة ظله ومرحه الذي كان دائماً، وتحسنت معاملتها معه كأم حقيقية بعد وفاة أحمد.

لم يكن هذا الشئ ليخفى عن أحمد أو رحيق، حاول أحمد مراراً التحدث مع أبيه حول هذا الأمر؛ فكان عمر يرجع سبب معاملته لمالك لأنه فتى مستهتر فاشل لا يستحق حسن المعاملة منه، وما يفعل هو ذلك إلا ليؤدبه، فكان أحمد يقوم بدور الأب لمالك وساعد في ذلك فارق السن بينهما الذي وصل لعشر سنوات، ولكن هذا لم يعمي بصر مالك عن معاملة أبيه له واختصاصه بالغضب والسخط وأحياناً الضرب، كل هذه العوامل ساهمت في انطفاء حيوية مالك وانزواء شخصيته.

وبعد موت أحمد شعر باليتم الحقيقي، إذ لم يعد له في الحياة أحد، حتى كانت كلمة أبيه التي قالها بعد موت أحمد وكررها الآن ثانية هي القاضية " ليتك مت أنت وعاش هو "، فكر جدياً في الانتحار، فكر أن ينهي حياته، إذ لم يعد يستطيع الحياة، فكر في الانعزال بنفسه، أو الاستقلال بذاته بعيداً عنهم، ولكنه كان أضعف من أن يفعل، وأخذ وقتاً طويلاً حتى قرر الاستقلال؛ فاستقل مبتعداً عن بيتهم حتى أشفق على حال أمه فعاد.

ذهبت رحيق إليه وكلها رجاء أن يستجيب لها، طرقت على بابه حتى أذن لها بالدخول فدخلت، ابتسمت وهي تقول :- السلام عليكَ، كيف حالك؟

بين انشغاله بعمله، رد قائلاً :- وعليكِ السلام، حالي كما ترين أعمل!

سارت تجاهه ثم جلست أمامه قائلة :- لقد رأيت ياسين!

رفع رأسه إليها فجأة وهو يقول :- متى؟

- بعد حديثنا الأخير!

- وماذا حدث؟

- لم يحدث شئ، ولم يراني، فقط رأيته من بعيد ورحلت، في الحقيقة هربت من مواجهته وخشيت أن يراني.

تفهم حالتها وهو ينظر لها بعطف ففاجأته بقولها :- أريد أن أصلح بينك وبين أبي!

تجعد جبينه بضيق وهو يقول :

- لم أخاصمه ولم أفعل شئ يستدعي أن أبدأ بصلحه، كما يجب عليكِ أن تقدري شعوري، أنا أشعر أنني أعيش هنا كضيف غريب وغير مرغوب فيه، أشعر أنني آلة لتنفيذ أوامره ورغباته، لا تشعرين كيف حالتي تكون؟!! لا تشعرين بمدى ضيقي، أتعلمين أنني أفكر أحياناً بأنه قد يكون وجدني لقيطاً أو أنني ابن ..

قطع حديثه وقد خنقه الألم، فاتجهت إليه قائلة :

- أنت أخي أيها المجنون الأحمق، أنا أشعر أنك أخي لا تقلق، وصدق شعوري.

قالتها ضاحكة ، فابتسم قائلاً :- لا تحدثيني عن شعورك الآن، واذهبي لابنك قد يكون جائعاً أو يريد النوم.

جلست على مكتبه أمامه قائلة بتصميم:- لن أذهب إليه، وعليك أن تأتي معي الآن لنتحدث لأبي.

- بالله عليكِ في أي شئ أحدثه؟! هل أستسمحه لئلا يخرجني من بيته؟! أم أرجوه أن يعطف عليّ ويعطِني بعضاً من حنانه!

مطت شفتيها بقلة حيلة قائلة :- أريدك أن تصلي بي إماماً!

نظر لها متفاجئاً من تغيير الحديث وقال :- لا أستطيع، اذهبي للصلاة أنتِ، وسأصلي أنا بعد قليل.

نظرت لعينيه بطريقة مشاغبة وهي تقول :- انظر في عيني، وأخبرني أي صلاة ستؤدِّها الآن؟

وقف مبتسماً وهو يقول :- رحيق!

- أخبرني!

- العِشاء!

قالت معترضة :- كنت أريدك أن تصلي بي القيام، لقد أذن للعشاء منذ ساعتين ونصف، ألم تصلها بعد؟

ظهر على وجهه الاندهاش قائلاً :- حقا! لم أشعر بالوقت.

اتجهت لتخرج قائلة :- سأبعث إليك بسيف ليصلي معك، إنه يحب تقليدك في كل شئ، وما إن تنتهي سآتي إليك لننفذ ما أريد!

فابتسم وهو يحرك رأسه عجباً منها، واستعد للصلاة. لم يذكر كم يومٍ مر عليه دون أن يصلي ركعة واحدة، ولا يعرف ما الذي يمنعه عن الصلاة؟ قد يكون كسلاً، قد يكون سهواً، رغم الراحة التي تغمره، والاطمئنان الذي يملأ نفسه بعد كل صلاة، لا يعرف ما الذي يمنعه منها؟!

جاءه سيف سريعاً بصخبه، صلى مالك ووقف معه يقلده، كاد يخرجه من الصلاة لأكثر من مرة بحركاته العجيبة ونظراته التي لم تثبت على شئ في الغرفة. بالطبع تركيزه مع سيف أقوى من تركيزه في الصلاة الت يلم يشعر بها.

انتهى واتجه لرحيق، وذهب معها لأبيه، رغم أن ما يحدث يجرح كرامته وكبرياءه، يشعر أنه يهين نفسه، ولكنه أيضاً يكره أن يعيش تحت ضغط، يبغض شعور النفور أو التجنب، شعور الحيرة والألم، يحب أباه رغم ما يفعل، ويحب أن تصبح علاقته به على الأقل خالية من الغضب.

أمام غرفة والديهما، شجعته رحيق بنظرها وهي تطلب الإذن بالدخول، فأُذِن لهما، فتحت رحيق الباب ودخلت، ابتسم لها والديها، فدخل مالك خلفها، لم تختفِ ابتسامتهما، ولم يرفع نظره نحوهما خوفاً من ردة فعل أبيه، ولكنه فوجئ به يقول :- تعالَ يا مالك. ادخل! تفضلا!

رفع نظره أخيراً وقد شعر بأمل، يحاول أن يهيئ عقله بأنه يطلب رضا والده، يحاول أن يتحمل رد فعله المحبط لأنه والده، لكن صوته الودود وهو يناديه صدمه فابتسم وهو ينظر له.

دخلت رحيق واتجهت نحو أبيها مباشرة ثم قبلت رأسه قائلة :- هل يعني هذا أنكما اتفقتما، ولم تعد غاضباً.

اتسعت ابتسامته وهو يقول :- لم أغضب منه قط!

نظر كلاهما له باستغراب مالك ورحيق، ثم نظر أحدهما للآخر حتى قالت سارة :

- اجلسا! لم نجلس معاً هكذا منذ زمن.

ذهب مالك أولاً يقبل رأس أبيه ولم ينطق بشئ آخر ثم جلس بعيداً عنه، بينما جلست رحيق جوار عمر الذي شد على كتفيها قائلاً :

- كنت أريد أن أخبركِ بشئ، ولكنني فضلت أن أقوله لكِ أمام الجميع، حتى لا تهربي مني ككل مرة.

بسهولة فهمت مقصده فوقفت فجأة ثم نظرت لمالك مستغيثة وهي تقول :

- أبي! إن كنت تقصد موضوع الزواج فرأيي فيه لم يتغير.

أومأ لها مالك بعينيه أن تجلس، فجلست وأكمل والدها :

- الأمر مختلف هذه المرة، هناك رجلان يطلبان الزواج منكِ، أنا فقط أخيركِ بينهما، ولكِ قرار رفض أحدهما أو كليهما.

اندهشت من حديثه، ولكنها أجابت بثقة :- بالطبع أرفض كليهما.

تدخل مالك وقد عاد إليه بعض مرحه :- عريسان مرة واحدة، يا لحظك!! تَرَوّي قليلاً حتى تعرفي من هما، فقد توافقين!

نظرت له مستنكرة فاتسعت ابتسامته يطمئنها، بينما ألقى والدها بقوله :

- أحدهما ياسين! ياسين محمود!

اتسعت عيناها واحمر وجهها ودق قلبها طبولاً، ثم وقفت لتقول بتهورها المعهود تجاه ياسين :

- أوافق على الآخر!

٤

في بيتي مزعجة

استطاع مالك أن يصلح علاقته بأبيه قدر المستطاع، يبدو أنه أخيراً تمكن من فهمه وفهم تفكيره. أياً كان هو لم يريد أن يشغل رأسه بالتفكير في شئ سوى أن والده يشعر بالرضا نحوه، وهذا يكفيه. ويكفي أن يشعره بالسعادة! تطورت علاقته ببنان بين ليلة وضحاها، إذ أصابت رحيق صدمة بطلب ياسين الغريب، فانسحبت لغرفتها متظاهرة بالقوة حتى انهارت، وبقي مالك معها ولم يخبر والديه بما حدث، وبعد فترة انضمت بنان لهما على استحياء استغربه مالك ولم يعلق.

حاول استخدام حس الفكاهة مع رحيق، فوجد من بنان مشاركة قوية. أعجب بمرحها وذكائها، وحاول تناسي أول وآخر حديث بينهما. أهانت الرجال أجمع كثيراً ولم يعلق، أهانت ياسين وكل من يحبه، شتمته وشتمت كل شئ مذكر، ما كان منه إلا الضحك؛ ضحك منها وضحك لأنها استطاعت أن تضحك رحيق. شعر أنها طفلة صغيرة كما قالت أخته قبل، فأخذ يسخف منها ومن حديثها، ويسخر من تعليقاتها. كانت الليلة تلك ليلتهما، خففا كثيراً عن رحيق، وأنسياها ياسين لبعض الوقت، حتى وقت الفجر بقي ثلاثتهم ساهرين، لما وقفت رحيق تستعد للصلاة، طلبت من مالك أن يؤمها، مما أثار انتباه بنان التي أحبت أن ترى ماذا سيفعلان؟!

اصطفا للصلاة يتقدمها مالك، أرادت رحيق أن تحثه عل الصلاة حتى وإن كان في المنزل ولكنه سيتعود عليها، لم ترِد أن تطلب منه الذهاب للمسجد حتى لا يتحجج ببعده أو ببرودة الجو. وكما تعلم أن بنان ستراقبهما لذلك حذرت مالك من مشاكستها أو محاولة طردها من الغرفة، تحب صوت مالك كثيراً وفكرت في أن تسمعه بنان، مؤكد سيفعل بها شيئاً، متأكدة أن سماعها للقرآن سيفعل في قلبها شيئاً، لكن لم تتوقع أن هذا الشئ قد يجعلها تترك الغرفة هاربة وتصفع الباب خلفها بعنف.

بعد انتهائهما لم يعلق مالك وكذلك التزمت رحيق الصمت، رغم أن ما حدث أثار حفيظتهما وفضولهما، ما الذي جعلها تفر هكذا؟! هل شئ أخافها أو شئ أزعجها؟!

تركها مالك وذهب لينام حيث دخل في سبات سريع عميق، بينما بقيت رحيق في أرقها الذي يلازمها منذ أيام ولكن زاد عليه خوفها من تفكير ياسين!

في الصباح ذهبت بنان لمالك توقظه، لم يستيقظ حتى صرخت منادية إياه بصوت مزعج، استيقظ فزعاً وجلس على سريره مستنكراً ومندهشاً دخولها غرفته، فجلست أمامه كأنها صديقه مما زاد اندهاشه ثم قالت بصوت شبه صارخ :- هل استفقت؟؟

قال بسرعة وكأنه يخاف منها :- نعم!

فسألت :- لماذا وقفت أمامها، بينما وقفت هي في الخلف؟ ألأنها امرأة؟ ما هذه الإهانة؟ هي أفضل منك كثيراً!

قاطعها قائلاً :- لا أفهم شيئاً!!

- بالأمس عندما صليتما! كنت تقف في الأمام ورحيق في الخلف!! لماذا؟

لم يستوعب كلامها لفترة، فحاول أن يستفيق، ثم قال :

- هكذا هو الدين؟ لقد أمرنا الله بهذا؟ رأينا النبي يفعل ذلك ففعلنا؟ ليست أفضلية !!

هدأت قليلاً ثم سألت وهي تعرف :- ومن هو النبي ؟

تتعتع في الكلام وهو يجيب :- النبي محمد الذي أرسله الله إلينا بالإسلام، حتى يعلمنا ديننا ويخبرنا أن هناك إله خلقنا لنعبده.

سكت وقد كره عجزه في هذه اللحظة! أليس بمسلم؟! لماذا لا يجيد إجابتها؟ لماذا لا يكون كزوج ميرا مثلا؟ لماذا يخاف من سؤالها القادم ويخاف أن تسأله سؤالاً يعجز تماماً عن إجابته؟ نفض غطاءه وهو ينظر لساعته سريعاً متمتماً ليتخلص من أسئلتها ومن عجزه :

- يا إلهي لقد تأخرت عن عملي؟ سنكمل حديثنا فيما بعد إن شاء الله!!

هرب من محاصرتها وتركها في حيرة من أمرها ومن ذلك الشعور الذي اغتالها فجأة عندما سمعت ما كان يقرأ ورأت حركاتهما المتزنة والمتطابقة، لم تنم وأخذها التفكير من نفسها، لم تصبر وجاءت لتوقظه، أزعجته عمداً حيث شعرت بأنها بذلك ستنتقم منه! ومما فعل فيها! سألته عن شئ غير الذي دار في رأسها حتى لا تشعره بتخبطها وحيرتها، وسألته عن النبي الذي تعلمه والقرآن الذي ليس غريباً عنها رغم أنها لم تقرأه قبل. علمت أنه هرب منها مما أحبطها وأثار حنقها عليه أكثر، ولذلك ستنتقم!!

ونفذت انتقامها ليومين؛ حيث ذهبت لتوقظه صباحاً بأن تصرخ جوار أذنه بصوت مزعج؛ حتى أصبح يغلق بابه من الداخل لئلا تزعجه. تجوع في أوقات غريبة وتطالبه بتحضير الطعام لها لأنها يتيمة مسكينة تزوجته مجبرة. يعلم أنها تتظاهر بكل ذلك ولكن ينفذ لها طلباتها حتى ينتهي من إزعاجها، ولم يكن يتوقع أن تأتيه بعد عودته من عمله؛ في تلك الساعة بالذات يتمنى الراحة ولو لقليل، حقيقة هو لم يعد يتوقع منها شيئاً؛ إنها جريئة غريبة متطفلة.

ولما فتح الباب وجدها أمامه، نظر لها بامتعاض ولم يولِها اهتماماً، ودخل.

دخلت بنان خلفه قائلة :- أنت أيها الطويل، ألم تراني؟

ارتمى على سريره ينام قائلاً :- بلى! رأيتكِ، ولا أريد معرفة ماذا تريدين، الغرفة تحت أمرك، ولكن لا تقتربي مما يخص عملي، ولا تقتربي من سريري لأنني أريد النوم، هل فهمتِ؟

ذهبت نحوه قائلة :- ولماذا أقترب منك؟ هل تراني أريد رؤيتك؟ إنك ثرثار أحمق.

- أشكرك، وابتعدي عن سريري الآن!

ابتعدت واتجهت نحو خزانة ملابسه قائلة :- سأستعير منك بعض الملابس، ملابسي كلها تحتاج للنظافة.

جلس فجأة وهو يقول :- ماذا؟ حتى ملابسي لن تسلم منكِ، بحق الله ماذا تريدين أن تفعلي بي؟

فتحت خزانته وهي تقول :- ادعُ إلهك ينقذك مني، أو تطلقني.

تنهد قائلاً :- اذهبي لرحيق ستأتيك ببعض الملابس .

كانت تختار ما يناسبها من ملابسه وهي تقول :- ولكن ملابس أم سيف لن تناسبني، لا أفضل ملابس الفتيات، ملابس الرجال تناسبني أكثر.

عاد برأسه للخلف قائلاً :- اه تذكرت.. لستِ فتاة، ولكن ملابسي ستكون كبيرة وواسعة عليكِ.

التفتت له قائلة :- حسناً، أجيد الخياطة، سأعدلها لتناسبني.

نفض غطاءه واتجه لها قائلاً بغضب :- هل تعتقدين أن ملابسي ملككِ؟ اتركي ملابسي وسأشتري لكِ ملابس تناسبكِ من نفس المتجر الذي أشتري منه لنفسي.

قالت ببرود :- لا يهم، ولكن الآن أريد ملابس نظيفة، ماذا أفعل؟

وعادت لتكمل بحثها عن شئ تلبسه حتى وجدت قميصاً مناسباً وبنطالاً تناولتهما ونظرت له قائلة :- سأحاول أن أكيف نفسي بهما، وإن كان وجودي يزعجك إلى تلك الدرجة طلقني!

وهمت بالخروج تاركة مالك في غضبه وحنقه، لولا أن أوقفها شئ فذهبت نحوه قائلة :- ما هذا؟ إنه كتاب رأيته قبل.

نظر لما تنظر إليه ثم أسرع نحوه قائلاً بصوت عالٍ :- لا تلمسيه! إنه مصحف.

توقفت بسبب غضبه ثم قالت :- لماذا لا ألمسه؟ هل تظنني سأسرقه، فقط أود رؤيته.

وصل للمصحف ثم ضمه لصدره قائلاً :- إنه لا يمسه إلاالمطهرون؛ حتى تلمسيه يجب أن تتطهري وتغتسلي أولاً.

رفعت جانب شفتها بامتعاض قائلة :- ولماذا كل هذه الطقوس؟ كنت سأتصفحه فقط، أعطني إياه وسأقرأه فيمَ بعد.

ارتاحت ملامحه قليلاً ثم قال :- لا أستطيع أن أعطيكِ هذا، سأهديكِ بواحدِ آخر.

صفقت بمرح وقالت :- حقا! ستهادينني بشئ، شكراً لك مالك!

كانت هذه المرة الأولى التي يراها فيها تفرح هكذا، أو تشكره، كانت هذه المرة الثانية التي تبدو فيها طفلة، وتبدو فيها بسن العشرين ليس الأربعين عاماً التي تتقمسها.

****

علاقته بليندا مستمرة قوية، فكل منهما يجد من الآخر ما يريده؛ ليندا سعيدة بالحرية التي تعيشها بسبب انشغال مالك عنها وبالتالي فهي تملك كل الخيوط؛ مالك لم يتركها وفي نفس الوقت مستمتعة بصحبة أصدقائها الذين منعها عنهم، ورغم أنها لم تطيعه إلا أنها وصلت إليه ذلك، أنها تفعل ما يحب. ومالك سعيد لأنه يطمئن عليها باستمرار وتخبره أنها سعيدة معه وغير متضررة من زواجه بل تنتظره على شوق، وكلما طلب رؤيتها لبت طلبه لأنها مرات قليلة.

أَلِفَ إزعاج بنان كثيراً بل كان ينتظر إزعاجها في اليوم والليلة، فرحيق أصبحت منطوية على نفسها أكثر، يحاول أن يسري عنها فتتظاهر بالقوة أمامه، حديثه مع والده لا يكون سوى عن العمل، وكذلك حواره مع أمه قليل، فلا تبقى أمامه سوى سبب إزعاجه؛ تسبب له ضوضاء يفضلها وصخب يستمتع به.

أتى بالمصحف كما وعدها، ذهب لغرفتها وطرق بابها ففتحت له. نظر لها؛ غارقة في ملابسه، حاول أن يكتم ضحكاته والتظاهر باللامبالاة، ولكنه فضل استفزازها فضحك عالياً، نظرت له بضيق ثم قالت :

- ماذا تريد مني الآن أيها الطويل؟ لماذا أتيت إلي في هذا الوقت من الليل؟ هل تنتهز فرصة أنني فتحت لك الباب وأنني وحيدة فتدخل و ...

وضع يده على فمها يسكتها ثم قال :

- أنتِ أيتها المزعجة؟ أيتها الشمطاء القصيرة؟ وهل تعتقدين أنني سأنظر إليكِ؟ لقد أتيتُ بما وعدتك!

جرحتها كلمته فقالت مندفعة :

- ولماذا لا تنظر إلي؟ هل أبدو قبيحة إلى هذه الدرجة؟ ثم أنني لا أريدك أن تنظر إلي لأنني أكرهك.

شعر بإهانته لها، فندم على ما تفوه به، وعض على شفته السفلى آسفاً وهو يعدل حديثه :

- لا أنظر إليكِ لأنني أحب امرأة أخرى وأنتِ تعلمين ذلك. لهذا لا أستطيع رؤية امرأة في الكون سواها. وأنتِ لستِ قبيحة ولا تقولي هذا الكلام أمام رجل مرة أخرى، واحذري جيدا من لسانك وإلا عاقبتك بطريقتي.

ضيقت عينيها قائلة :

- ماذا ستفعل؟ لن تستطيع الاقتراب مني. ألم أخبرك أنني أجيد فنون القتال. كما أنني كنت أعمل مع الرجال، وكنت أعيش أحياناً وسط الأدغال بسبب عملي.

قال ساخرا :- يبدو أنني أتعامل مع حيوان بري.. وقبل أن ترد أعطاها هديتها قائلاً :- هذا هو المصحف، قد يفيدك في تفكيرك الأحمق..ثم ذهب ناحية غرفته وهو يقول :- لا تنسي الطقوس التي أخبرتك بها، ولا تقتربي من غرفتي أيتها المزعجة.

وكأنه يخبرها بأن ازعجيني ...

فلحقته بصياحها :- هل المصحف الذي منعته مني لأحمد ؟

توقف وقد أصابته في مقتل بذكر أحمد، أغمض عينيه بشدة ثم قال:- ليس من شأنك.

فنظرت للمصحف الذي بيدها في ترقب وعادت لغرفتها.

****

يجري خلفها كالوحش المفترس، يريد النيل منها، يلهث وتلهث، وتجري كالفريسة التي علمت نهايتها تترنح بشدة، تقع ثم تقف تنظر خلفها بوجل، حتى خارت قواها، ابتسم هو بخبث ثم علت

ضحكاته المرعبة. إنه يقترب، يقترب منها بشدة، لم تعد قادرة على أي شئ حتى فنون القتال التي تجيدها لا تقدر عليها الآن. كيف تنقذ نفسها؟ كيف تتخلص منه؟ صوتها اختنق وشلّ حركاتها بيديه.. وفقط انتهى كل شئ بعدها، وانتهت هي!

- بنان .. استيقظي أرجوكِ .. بنان .

فتحت عينيها فجأة ونظرت له ' لمالك ' دموعها انتهت وصوتها كتم، وفي حركة دفاعية ابتعدت عنه وانكمشت، ثم أخذت تبكي كما قبل.

أخيراً مات والدها، أخيراً تيتمت، هي لم تكون تشعر أن لديها أب، لم تكن تشعر بوجوده. كان في حياتها مجرد شخص يساعد في استعبادها، كانت تكرهه، لم يكن له وجود ولم يحافظ عليها.

ومات، تركها بين هؤلاء الأوغاد الذين رماها في شباكهم ورحل! لم يحمِها في حياته ولم ينصرها بموته.

نظر لها مالك بعطف وهو يمد يده بالماء قائلاً :- بنان اشربي ولو قليلاً من الماء.

أخذته وتجرعت الكوب كله، ثم بدأت تغضب من مالك 'الرجل' لقد رأى دموعها؛ الرجل انتهازي سادي همجي، سيستغل الموقف لصالحه، قالت مهاجمة :- كيف دخلتَ إلى هنا؟

رد مدافعاً :- كنت خارجاً من غرفتي لآتي بشئ آكله فسمعت صراخك.

- الآن؟ ..سألت مستنكرة؛ فرد مبتسماً :

- أنتِ بالذات لا يجب أن تعترضي على الأمر؟ فأنتِ أكثر من يجوع في مثل هذه الأوقات.

لم تبتسم وقالت :- هلا خرجت الآن، سأنام.

وضع يده على رأسها يبعثر شعرها كطفلة يلاطفها وقال مبتسماً :- ألن تخبريني ما الذي جعلك تصرخين؟

ابتلعت غصتها قائلة :- إنه فقط حلم مزعج لا أكثر.

سحب يده ووقف قائلاً :- لا تقلقي من شئ، أنا هنا بجانبك.

- أريد العودة لبلدي.

تنهد وجلس على كرسي بعيد نسبياً عن فراشها وقال :

- الانتقام من قاتل أبيكِ ليس حل، هل كنتِ تحبين أباكِ لهذه الدرجة؛ تقتلين من قتله؟

تفاجأت من معرفته بالأمر فتركت فراشها وذهبت تجاه شرفتها ثم وقفت وسألت :- من أخبرك بهذا ؟ .. ثم قالت ساخرة :- بالطبع كنت أحب أبي جدا جدا.

يبدو أنه تورط معها، أصبح يعرف عنها أشياءاً كثيرة من أبيه، هو يعلم أن أباه يريد عطفه تجاهها فأخذ يحدثه عن كل شئ يخصها، ويعلم أيضاً أن أباه يريد زواجهما دائماً أبداً ليس مؤقتاً كما وعده، ولكنه كان ينصت له ولم يعترض لأنه أراد أن يعرف بنان أكثر، أراد أن يعرف تفكيرها وكيف وصلت لما هي عليه؟ كيف لها تلك القوة والجرأة على سنها الصغير؟ لم يخبره كيف كانت علاقتها بأبيها؛ لأن عمر لا يعرف. عرف عن ثأرها وعن عزيمتها على فعله، فخطط لإبقائها معهم حتى تنسى، فهي وإن كانت قوية لن تستطيع مواجهة قاتل!

وأصبحت مسئوليته كرحيق تماماً، يطمئن عليها من آن لآخر، أعطاها صلاحيات كثيرة لم يكن ليفعلها سوى أنه أراد أن تطيعه ويستطيع أن يثنيها عن عزمها وتبقى هنا لها حياتها وعملها، فسأل :- ألن تكملي دراستك ؟

التفتت له قائلة :

- لا أريد، ليس معي أموال تغطي نفقاتي، كما أنني أريد العمل، سأعمل في استخراج الذهب في جنوب كاليفورنيا حتى أستطيع جني المال والعودة لوطني.

وقف قائلاً :- ولكني لن أتركك تعملين هناك، تستطيعين العمل في مجال آخر.

- لا أجيد سواه .

نظر لها قائلاً :- هذا العمل شاق جدا وليس بالأمر السهل أن تذهبي إلى هناك.

- أعلم ذلك، ولكني معتادة عليه.

تنهد ثم قال :- كما أن من واجبي أن أنفق عليكِ. ويجب أن تدخلي الجامعة.

- ولكنني بحاجة إلى العمل .

اتجه للخارج قائلاً :- لنتحدث فيما بعد.

أوقفته قائلة :- لماذا تفعل ذلك؟

التفت قائلا :- ماذا فعلت؟

وضحت :- لماذا تهتم بي إلى هذه الدرجة؟ بالطبع هذا ليس بداية حب فأنت تعشق امرأة أخرى! ماذا يكون إذا وماذا تريد من وراء ذلك؟

ابتسم وقال :- لا أريد شيئاً.

وخرج، بينما اتجهت لسريرها وبقيت مفكرة، لماذا تغير مالك معها فجأة؟ كانت كلما حاولت استفزازه نجحت في الأمر، كانت مصدر إزعاج دائم له، لماذا يحرمها من عودتها؟ لقد زهدت الحياة هنا.

****

وصلت رسالته لها، هكذا كان دائماً، يشير لما يريد، وفهمت ما أراد أن يصلها، هو عاد لأجل أن يستردها، كزوجة وحبيبة دائمة.

كان يعلم أنها سترفضه، بل توقع ما هو أدهى من ذلك، ولكنه قرر الصبر، طالما رسالته لها وصلت وفهمتها فلا يهمه شئ آخر.

لم يفكر أبداً بالتلاعب بها، كل ما جاء في باله أن يخبرها بسبب عودته ويقطع عليها أي سبب للحيرة والتوتر، لم يرد أن تراه قبل أن يخبرها بنواياه، يعلمها ويفهم أفكارها، هو الآن عاد لها، حتى وإن كلفه ذلك أن يطلبها لأكثر من مرة وترفضه، وأن يتحدث معها حتى تفهمه، وأن يطلب سماحها على ما فعله فيها، رغم أنه يعلم صعوبة ذلك.

جاءه الرفض ولم يخبره أحدُ بأمر سيف، أرادوا أن تسير الأمور هكذا دون تدبير، وخوفهم من رحيق كان الغالب في الأمر!!

بقيت رحيق مترقبة للقائه، بعد أن علمت من أبيها أنه جاءه وتحدث معه طويلا، لا تنكر فرحتها بعدما عرفت أن خلافه مع أبيها انتهى، ولم تنكر السعادة التي ملأت قلبها بسبب ما رأت في عين أبيها من قبول له ومعاملته له كابن كما كان!!

بين شد وجذب كان عقلها ، حيث أصرت على قبول زوج غيره، وهي التي عزفت عن الزواج لسنوات، كيف فعلتها بنفسها وكيف جُنَّتْ إلى هذا الحد؟! كما وصلتها رسالته، أرادت أن تصله أيضاً رسالتها، هي لم تكن تنتظره وستتزوج غيره!

رحيق الضعيفة الساذجة لم تعد هنا، لقد ماتت مع ذكراه؛ ولكن هل ماتت ذكراه حقا؟!

ذلك الأرق الذي ألفته، زادت حدته، ولم تعد قادرة على تحمله، فلجأت للمنومات ، وابتلعت أول جرعة وقلبها ينتفض من أن تدمن الأمر، سامحك الله يا ياسين!! بل سامحك الله يا عمر!! ..

****

بنان أيضاً لم تستطع النوم، مر ما يقرب من الثلاثة أسابيع لها هنا، لا تفعل أي شئ سوى تكدير عيش مالك والجلوس مع أمه لوقت قليل، أو مجالسة سيف وقد تتحدث مع رحيق، لم تخرج إطلاقاً! في الحقيقة هي لم تطلب الخروج ومنعت، ولكنها فقط تشعر بالسأم من كل شئ ولا تجد في الخروج حل.

لا تعرف هل تريد فعلاً العودة لوطنها أم لا؟ لا أحد لها هناك سوى صديقيها وقد يأتيان لها هنا لو طلبتهما، ثأر أبيها لا تعرف أهو لأبيها أم لنفسها؟! ..العمل! ..الدراسة! ..نفقتها! ..وجودها عالة على أحد!

كل ذلك يشغلها، ولكن هناك ما هو أخطر؛ ما تفوه به أبوها عند موته، هل تنفذ طلبه أم تعارضه؟ ستتحدث مع العم عمر في هذا الأمر، يجب أن تعيش مع أحد يكفلها ولا تعتبر نفسها عبئاً عليه.

خرجت لتمشي قليلاً بالممر أمام الغرف، وصلت لغرفة مالك وجدتها مضاءة، ترددت في الدخول إليه، فكرت في شئ تخبره به ما وجدت! كيف ستدخل له دون سبب، ولكنها أرادت أن تحدثه عن عودتها؛ وطلبت الإذن بالدخول قائلة بصوت شبه مرتفع :- مالك، هل أدخل؟

أتاها صوته قائلاً :- تعالي أيتها المزعجة!

دخلت، ثم وقفت أمام الباب قائلة بتردد :- هل كنت مع ليندا؟

ابتسمت عيناه قائلاً :- نعم، ولكن لوقت قليل فقط.

هزت رأسها موافقة ثم قالت :- ألن تعرفني عليها؟

كان جالساً على مكتبه فوقف ثم ذهب عندها وقال بتردد :- ولكن.. ولكني سأخاف على مشاعرها.. يعني أن ترى زوجتي.. شئ صعب عليها.

سكتت قليلاً ثم قالت :- هل تسمح لي باستخدام هاتفك؟

أعطاها هاتفه بسرعة قائلاً :- أكيد، تفضليه.

أخذته منه، قامت بعدة محاولات للاتصال، ولكن بلا فائدة، لم يجِب أحد فأعطته له بيأس وقررت الخروج فقال :- لا تيأسي من المحاولات، حاولي في وقت آخر.

لم ترد فقال :- لقد أحضرت لك هدية.

نظرت له بابتسامة وقالت :- هكذا سأحب خروجك مع ليندا كثيراً، كلما رأيتها أصبحت مهذباً سعيداً وتأتيني بهدايا أيضاً.

اتجه نحو دولابه وأخرج عدة أكياس مبتسماً، ثم أعطاها لها مصدقاً على كلامها :

- أحلم باليوم الذي يجمعني بها إلى الأبد.

ابتسمت فأكمل :- هذه ملابس جديدة اشتريتها لكِ، حتى لا تتطفلي على ملابسي ثانية.

نظرت للملابس ثم له قائلة :- ولكن، ولكنني أريد العمل، أخبرتك أنني تعودت تحمل مسئولية نفسي، لا أحد ينفق عليّ أو يطعمني ويكسوني سوى نفسي.

وجمت ابتسامته قائلاً :- ووالدُكِ؟

حملت الملابس واتجهت للخروج قائلة :

- سأسأل العم عمر عن كيفية العمل و العودة لوطني، يجب أن تتزوج ليندا سريعاً، طابت ليلتك.. وأغلقت الباب خلفها حتى لا يحاصرها بأسئلته ..

٥

حياة جديدة

وتجنبته بنان؛ تجنبت استفزازه، وتجنبت غضبه، تجنبت عناده، وتجنبت رؤيته، لقد بدأ يحاصرها بأسئلته، وبدأ يفرض سيطرته عليها، وهي لا تملك من الأموال ما يجعلها تعود لوطنها. استخدمت هاتف رحيق بدلا منه، حدثت جاك صديقها وعدها بمفاجأة، وبقيت في انتظار مفاجأته. حبست نفسها في غرفتها، وكرهت كل شئ.

لا تألف في الدنيا سواهما جاك وليو صديقيها، كانا معها في العمل، لم تشأ التعرف على غيرهما، هي تكره معرفة الرجال كما تكره أباها، ولكن جاك وليو غير كل الرجال، غير أبيها!!

ثلاثة أيام لم يكن مالك ليسأل عن غيابها أو أحد والديه، فقط رحيق تطمئن عليها من حين لآخر، أحبت رحيق كثيراً وهذه وحدها مشكلة؛ بنان لا تحب أحداً أو لم تحب من قبل - غير صديقيها- أحداً.عندما سمعت طرقات على الباب ظنت أنها رحيق، فأذنت لها بالدخول ولكنها فوجئت بعمر وسارة، أشارت لهما بالدخول ولم تتحدث.

علاقتها بسارة كانت جيدة، رحبت بها عند قدومها، ورحبت بها زوجة لابنها، كانت تشاركها الحديث في غياب الجميع، وشاركتها بنان ألمها الذي أخفته عن الجميع، هي الوحيدة التي شعرت بها هنا، شعرت معها بأن لها أم تحبها وتألم لألمها! حتى في غيابها عنها في الأيام الثلاث التمست لها عذراً. يبدو أنها أحبت سارة أيضاً وتلك مصيبة أخرى!

دخلا وجلسا على أريكة أمامها، بدأ عمر حديثه قائلاً :- يبدو أنكِ سئمتِ الحياة هنا!

نظرت بنان له وقالت :- نعم!

فقال :- هل أزعجكِ أحد؟

قالت :- بالطبع لا، ولكن.. ولكن أريد أن أعمل حتى أنفق على نفسي، وأريد العودة لوطني ..

ابتسمت سارة قائلة :- ستتركينني؟

نظرت إليها بنان، يا إلهي إنها تحبها كثيرا، كيف حدث ذلك؟ لا تحب أن تتعلق بأحد! سارة حنونة جداً وشئ كهذا لم تعتاده. فابتسمت لها وقالت :- ستنسيني يوماً ما، لن أبقى في ذاكرتك إلا لوقت قليل ، في الحقيقة أنا لا أبقى في ذاكرة أحد!

تنهدت سارة ثم قامت لتجلس جوارها، ثم ضمتها لها قائلة :

- أيتها الصغيرة المشاكسة، أنا أحبكِ كثيراً، لا تتركيني وحدي، ليس لكِ أحد تذهبين إليه، لا بأس أن تمكثي معنا وتعملي أيضاً.

رفقها أسكتها، فسكنت لها ولم تعقب، فقال عمر :- والآن ما قرارك؟

ابتعدت عنها قليلاً لتقول :- أريد أن أنفصل عن مالك.

نظر عمر لسارة ثم عاد بالنظر إلى بنان قائلاً :- ولكن.. لنؤجل هذا الأمر قليلاً!

- لماذا؟

- أي عمل تفضلين؟

نظرت لسارة ثم له وقالت :- أنت تعلم ماذا كنت أعمل!

خرج من دائرتها لدائرته قائلا :

- وما رأيك في الدراسة؟ ألا تفضلين إكمال دراستك؟ كما يمكنك العمل أيضاً، قد تعملين مع رحيق في شركتي!

فكرت لبرهة، تروقها فكرة العمل، لا يهم حرفتها، هي تريد الأموال حتى تستطيع العودة، فقالت:- ولم لا؟ موافقة!

وقف وهو يقول مبتسما :- الحمد لله، والآن ما رأيكِ في تناول غداءكِ معنا؟ لقد اشتقنا صحبتكِ!

قال الحمد لله وغمرت وجهه راحة، ماذا فعلت به هذه الكلمة؟ لماذا يطمئنون بربهم؟ لم يطل تفكيرها وهي تقف وخلفها سارة ثم تبتسم بتردد قائلة :- لنفعل.

ابتسمت لها سارة واحتضنت كفها ثم سارتا متجاورتين يتقدمهما عمر نحو الطعام.

****

اشتاقت رحيق لصديقتيها - ميرا وديانا - كثيراً، رؤيتهما حياة، جاءتا لها سريعاً بمجرد أن طلبت نصحهما، في الحقيقة هي لا تريد النصح بقدر ما تريد إبلاغهما بعودة ياسين وطلبه!! كما توقعت تماماً فرحة عارمة من ميرا يوازيها غضب هادر من ديانا، لكل منهما مشاعرها المختلفة نحو ياسين، وكلتاهما تكن له تلك المشاعر سواء كانت جيدة أو سيئة لأجل رحيق.

ومعهما أخذت في تذكر حياتها، قد تتسبب لها الذكرى في الشعور به، ولكن ميرا لم تتركها، إن بدأن حديث الذكريات، ستتحدث هي عن ذكرياتها معه.

في وسط الحديث سألت ديانا :- أين سيف؟

قالت رحيق بضيق :- سيصل الآن، لا أعرف رد فعل كليهما عندما يعرفان بالأمر، لقد علقته بأبيه كثيراً بسبب تلك الصور والأفلام.

فضحكت ميرا قائلة :- لم تنسيه إذاً، وتحتفظين بذكرياتكِ معه!

لم ترد رحيق، وبقيْن لدقائق حتى وصل سيف، دخل عليهن فبدأ بديانا وهو يقول مرحبا :- الأميرة ديانا. أهلا بكِ عندنا .

ثم قال لميرا :- أهلا بكِ ميرا.

ابتسمتا ورحبتا به، ثم قالت ديانا :- اشتقت إليك كثيراً أيها البطل.

اقترب منها قائلاً :- وأنا أيضاً أميرتي .

ابتسمت له وهي تحتضن كفه تقبلها قائلة :- أميرتك تشتاق إليكَ كثيراً، وقد طال غياب فارسها عنها.

ظهر الجد على ملامحه قائلاً :- لا فارس لكِ غيري، ثم أننا لم نلعب التنس معاً منذ زمن.

ضحكت وهي تقول :- أريد منافساً قوياً، بينما أغلبك كل مرة، أصابني الملل!

عبس ثم قال :- إذاً يجب أن أجيدها جيداً حتى لا تلعبين مع سواي.

- سأنتظرك !

ابتسمت ميرا قائلة :- تبدوان لي كحبيبين، هل أعزف لكما؟

نظرت لها ديانا بضيق مصطنع ثم قالت :- لا تلتفتي لنا، وفكري بزوجك وابنكِ فقط!

وقفت رحيق قائلة :- رجاء اهدآ الآن، سأذهب لآتي ببنان.

ثم نظرت لسيف قائلة :- هيا بنا، تبدو متعباً.

تشبث بديانا قائلا :- أريد أن أبقى قليلاً مع الأميرة!

بعثرت ديانا شعره قائلة :- اذهب مع أمك الآن لتسترح، أما أنا فسأزوركما كثيراً في الأيام القادمة إن شاء الله. أعدك بذلك!

ابتسم لها وذهب مع أمه، بينما بقيت ديانا مع ميرا التي تقص لها أمر بنان، أكثرهن تفهماً لها هي ديانا، وأكثرهن حكمة بسبب دراستها وتفكرها الذي طال في أمر الانتقال من ديانة لأخرى حتى استقرت في الإسلام أخيراً، ثم كرست جهودها فيما بعد بجانب عملها لهذا الأمر، بمجرد أن جاءت بنان بصحبة رحيق، وقفت ديانا ثم ميرا للترحيب بها، سلمت عليهما بحذر لاحظتاه، وتقبلتاه كذلك، قدمتها لهما رحيق قائلة :- بنان حسن زوجة مالك.

ثم وجهت حديثها لبنان قائلة وهي تشير لهما :- ميرا وديانا صديقتيّ.

وقفت بنان تقول معترضة :- اسمي بنان ولا أنتسب لأي رجل ..

فقالت رحيق :- أنا آسفة فقط لأن .. لأنه " ادعوهم لآبائهم " ..

قاطعتها ديانا وهي تقف لتشد على يدها وتوجه حديثها لبنان :- لأننا نعرف مالك فقد نسبتكِ إليه، كما أننا هنا نتحدث باسم العائلة عادة، ولأننا لا نعرف عائلتك فقد نسبتكِ لوالدكِ، ليس أكثر.

أرادت أن تبتعد كل البعد عن الحديث في الدين وقاطعت رحيق التي عادة ما تجيب على أي تساؤل بآية من القرآن، وفهمت من رد بنان أن لديها حنق على كل الرجال.

ضغطت على يد رحيق بخفة وجلستا، ثم قالت ميرا بمرح :- بنان اسمك لذيذ.

ضحكت بنان قائلة :- ولكنه لا يؤكل ..

ثم أكملت وهي تنظر إلى ديانا :- وكيف تتحملون مجتمعاً ينسب كل شئ إلى الذكور حتى النساء ينسبن إليهن.

أجابت ديانا :- ليست حرب، من سينسب إلى من، ولكن الفكرة جاءت بالعرف مرة وبالقانون مرة ثم سلمت بها أذهاننا كشئ مألوف، ولكن نسب الاسم لا يعني مطلقاً نسب الكيان، فعن نفسي لا أقبل أبداً بذلك.

بينما علقت ميرا مازحة :- إنهم أقوياء شداد فعليهم تحمل كل شئ على عاتقهم، ولكننا كنساء مرفهات لا نطيق تحمل تلك المسئوليات، كما أنني أحب أن أعيش حياة الملكات.

ابتسمت لها بنان وهي تفكر في كلام ديانا.. استمتعت بصحبتهن حيث أخرجنها من الملل التي كانت تشعر به تلك الفترة، ولكن هناك شئ جذبها لديانا، جعلها تركز مع كل كلمة لها، مع كل التفاتة وإيماءة، مع حركاتها الرشيقة الواثقة، ابتسامتها الهادئة، الحنان الذي يطل من عينيها كلما قدم سيف، ما بالها تقع في حبهن الواحدة تلو الأخرى؟! حتى ميرا امرأة رائعة!! يا إلهي! ألن تنجو من الحياة بينهم؟ يعيشون جميعهم على نفس النمط مع اختلاف شخصياتهم وعملهم، متى تعود لحياتها؟ متى تنتهي من كل ذلك؟

انتهت الزيارة وقد سري عنها قليلاً، ذهبت معهما رحيق حتى باب الحديقة الخارجية، وكانت هي خلفهن، رأت مالك فتعلقت عيناها به، قابلهن فابتسم لهن مرحباً حتى وصل لبنان، فقال :- بنان، كيف حالك؟

تذكرت أنها اختفت لثلاثة أيام ولم يهتم بالسؤال عنها فأظهرت ضيقها منه قائلة :- بخير حال، ولا أحتاج لسؤالك!

استنكر فعلها وتساءل أن يكون آذاها في شئ، قطعت تفكيره رحيق وهي تقول :- ها قد أتيت أخيراً، طال غيابك.

ابتسم وهو ينظرلها ثم قال :- ماذا أفعل؟ لقد كان عقاباً لتأخري في التسليم.

فقالت مشيرة لبنان :- بنان أيضاً انعزلت في غرفتها لثلاثة أيام، يبدو أنها لم تجد أحداً لمشاكسته.

قاطعها صوت أمها يناديها فاستأذنتهما وذهبت إليها فقال مالك :- لماذا؟ هل أزعجكِ أحد هنا؟ ..

شعرت براحة أنه لم يهملها وقالت :- أين كنت في الثلاثة أيام الفائتة؟

- لم أنتهِ من بعض التصميمات وحان موعد تسليمها، فاضطررت للمبيت في الشركة حتى أنهيها جميعاً.

عقدت ذراعيها أمام صدرها قائلة :- اعتقدت أنك كنت هنا ولم تأتِ لتسأل عن سبب غيابي فشعرت بالحنق تجاهك.

ضحك قائلاً :- هكذا تظلمينني دائماً.

نظرت لوجهه الضاحك ثم قالت :- تبدو سعيداً. هل قابلت ليندا؟

كعادته عند ذكرها تلتمع عيناه وتتغير خلجات وجهه، ويغمره ذلك الشعور بالسعادة، وقال :- نعم قابلتها.

رفعت جانب شفتها العليا بضيق واضح ثم قالت :- أريد رؤيتها ولو من بعيد، لن أخبرها أنني زوجتك.

ابتسم ورد :- تشاهدين صورتها، ما رأيك؟

هزت رأسها موافقة، فأخرج هاتفه، ولمس شاشته عدة مرات ثم قدمه لها قائلاً :- هاهي، جميلة، أليست كذلك؟

وافقته الرأي ولم تنظر لها بعد، ثم رأت صورتها، وأخذت تتأمل ملامحها وجسدها، إنها امرأة جميلة كاملة، كل شئ فيها جميل وفاتن، ولكنها فطنت لأنه جمال شكلي فقط، فعيناها يبدوان خادعتين، ولكنها فاتنة على أي حال، أجمل منها كثيراً، انزعجت من هذا الخاطر، لماذا تقارنها بنفسها؟ أعطته الهاتف وهي تقول :- تبدو جميلة! كيف عرفتها وأحببتها؟

كانا يسيران في الحديقة وهما يتحدثان حتى سألته فوقف قائلا :- ما رأيك أن نجلس أرضاً هنا، فأنا أشعر ببعض التعب.

جلسا وبدأ يحكي كيف رآها ومتى شعر بشئ نحوها لأول مرة؟ قص لها حرصها على الإسلام لأجله، وكيف تهتم باللغة العربية؟ كيف امتنعت عن أصدقائها الرجال لأن شئ كهذا يغضبه؟!! وكيف تهتم لمشاعره وتتحمل زواجه !! قص لها كيف يراها امرأة غاية في الروعة والكمال، وعبر لها عن شعوره نحوها حيث يشعر بامتلاك الدنيا بأسرها وهو معها.

كانت بنان مستمعة جيدة له، لا يعرفان كيف أصبحا هكذا منذ تحدثا معاً في المطبخ، وكأنهما صديقان، كيف أكلا وعملا وتناقشا وتشاجرا وسخر أحدهما من الآخر في أول حديث بينهما، صديقان رائعان، تدخل غرفته في أي وقت ولا يشعر بأنها فتاة وتجلس أمامه على فراشه وتضربه وتصرخ به، هي صديقه، يخبرها عن أسراره كسر الطبخ، ويهتم لغضبها ويحب فرحتها، وهي تغضب لأنه لم يطمئن عليها لما غابت، تسأله عن حبيبته ولا تغار، وتهتم لمعرفة كل شئ عن حكايتهما، وهو سعيد بذلك، إذ لم يتحدث معه أحد في هذا الأمر بسبب معارضتهم لليندا، وكم كان يتمنى أن يمتلك أختاً صغيرة حتى يشاغبها ويشاكسها يحبها ويحكي معها كما كان يفعل أحمد مع رحيق، وها هي أمامه، وجد أخته الصغيرة التي يهتم بها ويرعاها.

أنهى حكايته بفرحة سرت بين جنباته لذكر حبيبته، فقالت بنان :- أتعلم أنني أكره الرجال؟؟!

أشار أن نعم فأكملت :- وأكره أيضاً بعض طبائع النساء، لذلك تجدني متشبهة بالرجال!

- لماذا؟

- أكره كونهم وجبة سهلة أو سلعة رخيصة للرجال، خاصة إن أحببنهم!!

كان يجلس ممدداً قدميه فاعتدل قائلاً :- أعتقد أنكِ مخطئة، لأن الحب شئ متبادل، ولا يقبل رجل أبداً أن تكون حبيبته سلعة رخيصة حتى لو كانت له، يحبها دائماً جوهرة مصانة!

- ليت الرجال جميعاً مثلك!

رفع ياقة قميصه بزهو فضربته على كتفه قائلة :- سأغير رأيي هكذا!

ضحكا ثم قالت :- أجيد قراءة عيون الناس!

- مثل قراءة كفوفهم هكذا!

ضربته ثانية ثم أكملت :- لم أشعر بالراحة تجاه ليندا، احترس منها، ولا تكن ساذجاً تلهث وراءها هكذا، النساء حمقاوات جداً، يتعلقن أكثر بالرجل الذي يتجاهلهن.

قالت رأيها بحيادية، ورغم أن الكثيرين أخبروه بذلك، ولكنه لم يتقبل رأيهم كما تقبل رأيها هي، فنظر لها وقد اعتدل يواجهها ففعلت مثله بعد أن كانا متجاورين، وقال :- من أين أتاكِ هذا الشعور؟

- من النظرة الأولى لصورتها، كما أن كلامك عنها لا ينطبق أبداً على تلك الصورة، أعني أنك تراها كما تريدها في خيالك، لكني لا أعتقد أنها كذلك، قد تقول أنه حدس النساء.

- أنتِ امرأة إذاً.

ابتسمت وقالت :- يبدو ذلك.

نظر للسماء ثم قال :- أشعر بالجوع، هيا لنحضر طعامنا، لقد طال الحديث ومن المؤكد أن الجميع قد ناموا.

التمعت عيناها بابتسامة وقالت :- ستعد لنا الطعام إذاً؟

وقف وقال :- مضطر لذلك؟

- لماذا لا يعرف أحد أنك تجيد الطهي؟ ولماذا تطهو فقط وهم نائمون؟ ولماذا تتجنب ذكر هذا الأمر أمامهم؟ ولماذا أشعر أنكَ وحيد بينهم؟ ولماذا ..

التفت لها وأمسك فمها قائلاً :- أنت ثرثارة جدا، أصابني الصداع بسببك، اسمعي! لا تسألي عن أي شئ آخر.

ظهر الامتعاض على وجهها، ولوت شفتيها، فبعثر شعرها كعادته وأمسك يدها يشدها لتسير جواره وهو يقول بهمس :- سأخبركِ سراً آخر.

شعرت بالحماسة فأكمل :- أنا لا أحب عملي، لم أدخل هذا المجال بإرادتي منذ البداية، كنت أتمنى دراسة الإخراج والتصوير.

- وماذا حدث؟

- قدر الله أن أدرس الهندسة، هيا ساعديني لننتهي بسرعة.

بدأت تساعده بتكاسل، فقد كانت منبهرة بسرعته وأدائه، وأخذت تراقبه، هناك رعشة تسري في جسدها منذ لمس يدها، لم تكن المرة الأولى التي يمسك رجل بيدها، أو تتحدث إلى رجل، أو تنفرد برجل، ولكن لم تشعر أبداً كما تشعر معه هو، يبدو أنه سيستثنى من الرجال الذين تكرههم كجاك وليو.

بدآ في تناول طعامهما فتمتم مالك :- بسم الله ..

فنظرت له وقالت :- العم عمر والعمة سارة هكذا قالا أيضاً، لماذا تذكرون إلهكم عند الطعام وعند فعل كل شئ؟؟!!

نظر لها وقد توقف الطعام في حلقه، ولكن هذه المرة كان قد عقد العزم على التفقه في دينه، فراوغها بسؤال :- العم حسن كان مسلماً، ألم يكن يفعل مثلنا؟

- لم أره يفعل تلك الأشياء، سوى الصلاة التي عكف عليها قبل موته بقليل، ووجدت عنده مصحف يشبه الذي رأيته في غرفتك!!

تناولا طعامهما لوقت قبل أن يقول :- إن ذكر الله يملأنا بالراحة، وعلى الطعام أدب، كما أن ذكر الله يبارك في الشئ الذي نفعله، يبارك في طعامي مثلاً، ويمنع عني أي سوء من الممكن أن يصيبني بسبب أذى في الطعام.

ثم تذكر أيتين ترددهما أمه دائماً فقال :- " **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ".. الله سبحانه هو القائل .

أكملت تناول طعامها في صمت ولم تعلق بينما هو وكأنه استعاد روحه التي انسحبت، وانتظم تنفسه بعد ما شعر به من اضطراب أثناء حديثه.

أثناء تنظيف الأطباق قالت :- وهل أنت على يقين كامل بوجوده؟ هل تشعر به رغم أنك لا تراه؟ هل تصدق أن الكلام الذي تردده من عند ربك إن كان بالفعل موجوداً؟!!

لم يرد مباشرة، بل أخذ يعمل عقله ليبحث عن إجابة تقنعها، إذ تغيرت نبرة صوتها هذه المرة إلى شخص باحث، ولم تعد هجومية كما كانت، استمرا في العمل لدقائق، حتى انتهيا فصعدا لغرفتيهما وعند الباب قال :

- أشعر أنه موجود دائماً، ولم يساورني الشك في وجوده ولو لمرة واحدة، رغم أنني دائم المعصية إلا أنني لم أدعوه مرة إلا وقد استجاب، لم أذهب لبابه راجياً إلا وتقبلني، لم أشكو إليه إلا وقد فرج همي، في كل مصيبة تحيط بي أو مرض يصيبني أشعر بوجوده ومساندته لي، أفكر في أنني لو لم تربطني به صلة كيف ستكون حياتي؟ كيف سأعيش وأنا الآن أحيا بأمل لقائه والفوز بجنته، تملأ قلبي السعادة عندما أشعر برضاه عني، ويكبلني الحزن والكمد عندما أغرق في معصيته!!

لا يتصور عقلي أبداً أن هذا الكون ليس له إله، عاجزة عقول البشر كلها عن صنع شئ كهذا، بل وعاجز أي بشر عن التحكم في هذا الكون.

تكلم بعاطفة فياضة لا يعرف من أين أتته، ولكن مشاعره الصادقة ظهرت في عينيه ووصلتها حتى عجزت عن الجدال أو التفوه بسؤال آخر فهزت رأسها مستوعبة ثم قالت :

- طابت ليلتك، سأذهب أولا.

تابعها بعينيه حتى دخلت غرفتها، ثم دخل غرفته وأول شئ فعله ذهب ليتوضأ ويصلي العشاء فقد تأخر في صلاتها الليلة، كان يريد استغلال هذا الشعور الذي ملأ نفسه بالخشوع، إنه لم يستلذ بالصلاة منذ زمن، ولم يشعر بأنه واقف بين يدي الله وفي حضرته من قبل، وكأن حديثه معها وسع مداركه، ونمى عقله، وصل تأثيره لقلبه فخشع، ولما أنهى صلاته أمسك مصحفه 'مصحف أحمد' وبدأ يتلو؛ حتى صوته في التلاوة كان وقعه غريب ولذيذ عليه هذه المرة، شعر بلذة الطاعة التي كان يتمنى الشعور بها يوماً .

بينما حاولت بنان النوم بكل ما أوتيت من قوة، لا تريد التفكير في شئ ، لا تريد لحديثه أن يؤثر عليها، يجب أن تنام أو تشغل نفسها بشئ يلهيها عن التفكير، ستتجنب مالك ثانية حتى لا يتحدث معها عن أي شئ، ولن تسأله مجدداً، هو كاذب، لقد كان أبوها مسلماً يؤمن بوجود إله، ولكنه كان فاجراً عاصياً، لم يترك كبيرة إلا وفعلها، كان يذكر إلهه كثيراً ولم يكن هذا يثنيه عن أفعاله المشينة، إنها تكرهه، وتكره أن تكون مثله؛ لن تؤمن بإله يجعلها نسخة من أبيها، إنها حرة تتوق للحياة والراحة، ولكن لماذا لا تأتيها تلك الراحة وقد كفرت بإله أبيها؟؟ لقد آمن أبوها بوجود إله للكون ومع ذلك كان رمزاً للبؤس كله !! متى ستنام؟ متى؟!!

نظرت للمصحف الذي أعطاها مالك إياه، وجدته لم يفارق غلافه الملون بعد، اتجهت نحوه وفكت غلافه ثم أخرجته ضاربة بكلام مالك عرض الحائط، ماهذا الشئ الذي يستحق تلك العظمة منهم؟ لماذا يقدسون كلاماً مكتوباً بين وريقات إلى هذا الحد؟ لماذا تردده رحيق دائماً؟ ولماذا سعد مالك عندما تذكر شيئاً منه يردده على مسامعها؟ لترى ماذا يحوي هذا الشئ؟! فتحته باستهانة وأول ما وقعت عينها على شئ وجدت ..

" **وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ** "

أصابها رعب شديد بعد قراءتها، فأخذت تقلب صفحات المصحف بين يديها حتى وقعت عيناها على شئ آخر!!

" **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** "

حالة من الذعر أصابتها فرمت المصحف جانباً كأن حية لدغتها، وشعرت بتجمد أطرافها للحظات قبل أن تفر من غرفتها هاربة!!!

ولما استلذ بقراءته أطال فيها ونسي تعب الأيام الثلاثة الماضية، لم تغمره تلك السعادة من قبل، ولم يشعر بتلك المشاعر وهو يقرأ القرآن من قبل.

وصل لقوله تعالى " **وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً، ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً** "

وإذْ به يفاجأ بطرقات قوية يتبعها اندفاع باب غرفته، رفع نظره بسرعة ليجدها أمامه مذعورة، أغلق مصحفه ووضعه على مكتبه برفق ثم ذهب نحوها قائلاً بقلق :- بنان!! ماذا حدث؟ هل أصابك مكروه؟

تهدجت أنفاسها وظهر الرعب جلياً على ملامحها، ثم قالت بذعر :- ابعده عني يا مالك! ابعده عني أرجوك! لا أريد هذا الشئ في غرفتي!

حاول التخفيف عنها قائلاً :- اهدئي قليلاً!! ما الشئ الذي أبعده عنكِ؟

- ذلك المصحف!!

أخذها من يدها وذهب بها لغرفتها وهو يقول :- سآخذه ولكن ماذا حدث لكِ؟

كانت تسير معه ببطء متوجسة، حتى وصلا لغرفتها فتسمرت مكانها، نظر لها مشفقاً لحالها ولا يفهم بعد ما الذي فعل بها ذلك؟!

دخل وحده وبحث عن المصحف وجده على سريرها أخذه وخرج لها قائلاً :- ها أنا أخذته، لا تخافي من شئ!

مازال جسدها ينتفض رعباً، ولم تستطع الرد ناظرة للمصحف الذي يحمله بين يديه، حتى قالت أخيراً :- أخشى أن أنام وحيدة !

ربت على يديها مطمئناً وهو يقول :- تعالي سأبقى معكِ حتى تنامي!

- لا تتركني!

وافق برأسه ودخلت معه يعصف بها خوف لم تشعر به من قبل، لقد شعرت بتهديد ووعيد، لن تقترب من جدالهم ثانية، لن تسألهم عن أي شئ في الدين، لن تتحدث فيه، ولن تسمعهم أبداً، لماذا طلبت أن ترى هذا الكتاب؟ ستنام الآن ولن تفكر في أي شئ، ستنام!!

جلس على كرسي جوار سريرها حتى نامت، لم يطفئ ضوء الغرفة لئلا تستيقظ في الظلام فزعة وخرج شاعراً بالأسى لحالها!!

****

فكرت رحيق في أمرها؛ لابد من مواجهته والحديث معه، إن لم تبادر هي، سيأتيها هو دون استعداد منها، فلتتخلى عن ضعفها الآن! رحيق قوية! وستقف أمامه دون شئ يردعها، لن تخاف منه، ولن تجبن من رؤيته، ليست بحاجة إليه، ستقابله وتخبره بكل شئ، ستخبره عن سيف وتخبره أنها كانت قوية ولم يحدث لها شئ في غيابه، لن تخبره عن شئ آخر!

أخذها التفكير طيلة اليوم حتى حل المساء وزحف الليل، خرجت بصحبة سيف، وسارا كثيراً وبين حين وآخر تسأله :- هل شعرت بالتعب؟

يجيب نافياً فيكملا طريقهما، حتى توقفا عند مظلة وجلسا حيث شعرت بزخات المطر، اطمأنت لأن ابنها يرتدي ما يكفيه من الملابس، فنظرت له تقول غامزة :- ما رأيك؟!

نظر لها بابتسامة بدأت تتسع ثم وقف قائلاً :- هيا!!

وقفت معه ثم نظرت للطريق الخالي وأفسحت له المجال ليجري تحت المط، وقفت تستمتع بالنسمات الباردة والماء الذي ينعش وجهها، وتنظر لصغيرها الذي يجري أمامها مستمتعاً، توقفت عن مراقبته عندما سمعت صوت يقول مندهشاً :- مازلتِ تأتين هنا؟؟!!

ارتعش كل شئ فيها، وجفلت لما تعرفت على صوته، بثت الثقة في نفسها؛ رحيق! أنتِ قوية! لا تجعليه يشمت بضعفك، قوية أنتِ ! فالتفتت له بقوة وقالت :- لا يستطيع أحد أن يمنعني من هنا!!

غضت طرفها أمام نظراته التي كشفت عن شوقه وهي تقول :

- من المؤكد أن والدي أبلغك برفضي لطلبك، فهلا رحلت الآن سيد ياسين!!

- ولكن!! ألن تسمعيني قبل رفضك لي ؟!!

هناك خطر في المكان! ماهذا الهدوء الذي عم فجأة؟ أين سيف وصخبه؟

التفتت فجأة تبحث في المكان الخالي بعينيها اللتين أصبحتا ككشافات المراقبة تمسح المكان، ولكن ليس له أثر، أين اختفى؟.. فجأة خرج صوتها ليفزعه وهي تصرخ :- سيف!!

- من سيف؟!

- ابني! أين ذهب؟ كان هنا! هل خطفته؟ هل جئت لتأخذه مني؟ أين سيف؟ سيف!! سيف!!

لم يسمع أي شئ سوى ابني، وقف ذاهلاً يتابعها بعين جامدة، وحين استفاق أمسك ذراعها يشدها إليه قائلاً :

- ابن من؟ أجيبيني؟ من سيف؟هل هو ابني أنا أم تزوجتِ؟ لا أفهم شيئاً! مَن سيف؟ أجيبيني!!

نفضت ذراعها بعيداً عنه بعنف عندما رأت سيف قادماً نحوها، ذهبت تركض إليه، وعلى إثرها ذهب ياسين، توقف كل شئ بعد ذلك، لم ترى سوى سيف الذي فتحت له ذراعيها تجاوزها وذهب نحو أبيه صارخا بفرحة :- أبي !!

حجظت عيناه تنظر للصغير الذي يركض نحوه، ولرحيق التي تهتف :- ليس أباك!!.. ثم يردد الصغير ملحاً :- بلى إنه أبي..

٦

الآنَ أنتَ أب

طوفان من المشاعر اغتاله، فجأة هكذا يرى ابنه يجري أمامه، متى خلق؟ ومتى تكورت بطن أمه استعداداً لقدومه؟ متى صرخت عند وصوله؟ متى ركلها في بطنها؟ وبمن احتمت؟ متى بكى وجاع وصرخ ومتى نطق أول كلمة؟ ولمن قال أبي؟ متى بدأ يمشي؟ هل عذبها في التربية؟ يا إلهي! هل كبر فجأة؟ أم طال غيابه هو عنه؟ كيف تعرف عليه؟! وأين اختفى؟ ومتى ظهر؟ من سيجيب عليه أسئلته ويرد إليه حيرته؟

فليترك أسئلته الآن وينعم بشعوره هذا؟ هو أب!! أب لسيف الذي تمناه!! ماخاب أمله، وما قل رجاءه، هو سيف!! أمه رحيق!! رحيق زوجته وأم لابنه، أخذ يضم ابنه إليه كثيراً يستمتع به وبقربه، يفيض عليه بعطفه وحنانه، لولا صوتها الغاضب الذي أخرجه من أفكاره وحيرته :

- سيف !! تعالَ هنا !!

إنها تحمل وتلد وتربي، تعرفه بأبيه وتحببه فيه، تتحمل معه أيام عسيرة وتسهر على راحته، وتبكي من أنينه، وتتضرع إلى الله لأجله، ثم ما إن يرى أباه يتركها ويركض إليه!! ما ذنبها؟ هل أجرمت أو قصرت في حقه؟ وياسين هذا !! ماذا يفعل بابنها؟ سيخنقه هكذا؟ لماذا يشدد احتضانه به؟ ابتعد عنه أيها الخائن؟ ابتعد !! نادته ولم يأتِها؟ وهذا لم يتركه، فنادت ثانية :- سيف !! ألم تسمعني ؟!

أبعده عنه بعد ندائها الثاني، ثم رفعه عن الأرض ووقف به يحمله فوق ذراعه، بدأ المطر يشتد فقال :- تعاليْ لنجلس هنا! يجب أن نتحدث قبل كل شئ !.. قالها وهو يشير إلى الأريكة المظللة.

- لا حديث بيننا! اترك ابني الآن لقد تأخرنا عن العودة!

ارتفع صوته قليلاً وهو يقول :

- وكيف ستعودين وحدكِ في وقت كهذا وقد اشتد المطر؟ ثم أن ملابسك لن تقيك برودة الجو ولن تقيكِ المطر؟ أم أنكِ عدتِ تفضلين التصاق ملابسك بجسدك تحت المطر؟

ارتفع صوتها مثله وقالت :- ومنذ متى كنت أفضل ذلك؟ إنه خيالك المريض فقط الذي صور لك في السابق والآن!! اترك سيف!!

هدأ صوته وقال :- أنا آسف، هلا جلستِ هنا حتى ينتهي المطر على الأقل!

تقدمت وجلست، وعيناها متعلقة بسيف، ثم أخرجت هاتفها وأرسلت لمالك أن يأتيها وكتبت له العنوان، فاتصل بها وأخبرته أن يأتي عاجلاً!!

كل ذلك وهو رقيبها، يراقب توترها وغضبها، يراقب ألمها وضيقها، ولما انتهت اقترب وجلس جوارها يتوسطهم سيف، ثم قال :- ألن تسمعينني؟ هناك حديث طويل بيننا، وأشياء يجب أن أعرفها!

- لا أعتقد ذلك!!

- ولكنني أعتقد، سيف مثلاً كيف لم تخبرينني به؟ لم يكن ليفرق بيننا شئ حينها!

- لأنني لم أكن أعلم بوجوده وإلا كنت أخبرتك حتى تبقي جوار ابنك ولا تتركه، بالطبع لن أرجوك لتبقى جواري.. قالتها باشمئزازوانزعاج، فتنهد بندم، ومسَّدَ رأس ابنه ثم قال:

- بل كنتُ سأبقى لأجلكما! لأجلكِ أنتِ أولاً.

نظرت بعيداً وكأنها لا تهتم لكلامه، ولكنه أكمل :- رحيق، أنا عدتُ لأجلكِ أنتِ فقط، عدتُ ولم أعلم بأمر سيف.

نظرت لسيارة مالك التي تقترب، ثم وقفت، فأوقف مالك سيارته عندما وصل لهم ذهبت إليه، وفتحت الباب الأمامي لتأخذ المعطف الذي أحضره لها ارتدته سريعاً ثم همت بالركوب لولا صوت مالك الذي انتهى من سلامه الحار بياسين :- انتظري!

التفتت إليه فاقترب يقول :- سأنتظرك في السيارة مع سيف، تحدثي معه قليلاً.

- وفي أي شئ أتحدث؟ أنا الآن وافقت على الزواج بآخر، ألم يعرف بالأمر؟

- لنتحدث عن ذلك لاحقاً، ولكن الآن استمعي إليه.

عادت لتحتمي من المطر تحت المظلة، ثم انتظرت حديثه، حتى قال بصوت لمست نبرته الموجوعة :- ماذا أفعل وقد اعتدتُ منكِ على التماس الأعذار؟

- لقد نفذت كل الالتماسات، ولم أعد قادرة على التماس أعذارٍ أخرى، سيد ياسين لن أمنعك من رؤية ابنك، رغم أنني أشك في أبوتك له، ولكنك تستطيع رؤيته في أي وقت، أما أنا فلا تشغل بالك بي، ومن الآن فصاعداً لا تفكر في طلبك مجدداً، لأنني أصبحت لرجل آخر.

واختفت، لم يعد أمامه سوى ضباب، مطر يهطل، سماء تبرق وترعد، شوارع خالية، ليل حالك، وطرق مظلمة !!

- ياسين تعالَ معنا.

نظر لمالك وقال :- أريد أن أبقى هنا وحيداً، اذهب أنتَ واعتني بهما جيداً.

نظر مالك لسيارته ثم عاد بنظره لياسين قائلاً :- ابنك مزعج جداً، يبدو أنه يريد البقاء معك.

نظر ياسين لسيف الذي لم يكتفي من النظر إليه بعد وقال :- أنا أيضاً أريده معي دائماً، ولكن كل شئ في موعده يصبح أفضل.

ابتسم مالك من نظرة التصميم في عينيه وقال :- انتظرني هنا سأعود إليك، إلى اللقاء الآن.

أومأ له وراقبه وهو يتخذ مقعد السائق في السيارة التي تعلقت عيناه بها حتى اختفت، ثم نظر للسماء هاتفاً من أعماقه :- يا الله!!

****

- هل شعرتِ بالراحة الآن؟.. سأل مالك أثناء قيادته، فنظرت رحيق لزجاج السيارة تشاهد المطر وقالت :- بالغتُ في قسوتي عليه، لم يكن يستحق ذلك.

ابتسم مالك وهو يقول :- أصبحتِ تتصرفين بغرابة!

أكملت غرابة الأمر بقولها :- لم تخبرني من هو زوج المستقبل؟

ضيق عينيه بحيرة قائلاً :- كنتِ جادة في الحديث إذاً؟

- وهل يجوز المزاح في أمر كهذا.

- رحيق بالله عليكِ فكري جيداً!

- من هو يا مالك؟

- لا أعرف شيئاً عنه سوى أنه رجل أعمال أردني رآكِ عندما قدم لزيارة أبيكِ ذات مرة.

فكرت قليلاً ثم قالت :- لا أذكر شيئاً كهذا.

نظر لها يستوعب أمرها وقال بحزم :- طالما أنتِ مجدة في أمر الزواج بغير ياسين، فإياكِ أن أسمعكِ تبكي مجدداً، لن تجديني حينها، يبدو أن عقلك ذهب مع السنوات، هيا انزلي.

نظرت حولها فوجدت أنهم قد وصلوا لمنزلهم ترجلت من السيارة ثم همت بأخذ سيف، فمنعها قائلاً :- اتركيه، لم يكف عن البكاء لأجل أبيه، أليس من حقه رؤيته؟

تراجعت وهي تشعر بالقلق والخوف ثم قالت بصوت يسمعه مالك فقط :- ولكن يبدو أنه لم يلاحظ قدمه، لا تصدمه بالأمر أرجوك!

رد ساخراً :- تهتمين لشأنه إذاً؟

ارتعشت شفتيها ورمشت عينيها وقالت :- مالك! رجاء توقف، لا أحتمل أي شئ.

تفهم حيرتها وهو يقول :- أنا آسف، اطمئني على بنان قبل ذهابك لغرفتك، قد تكون بحاجة إليكِ.

ابتعدت عن السيارة فانطلق بها وقد اطمأن على أنها ستنشغل ببنان عن نفسها، لا يريد أن تأتيها نوبات كتلك في غيابه.

عاد مالك ليجد ياسين كما هو يقف تحت المطر وكأنه يغرق همومه به، ترجل من سيارته فقفز سيف منها يركض نحو أبيه الذي فتح ذراعيه له احتضنه بشدة وأخذ يدور به وكأن روحه ردت إليه أخيراً ..

ثم أخذهما مالك بسيارته إلى منزل ياسين القديم الذي يقطنه الآن، جلسوا فيه وتحدثوا كثيراً في كل شئ وعن كل شئ، لم يلومه مالك أبداً لأنه يعلم اضطراره لغربته وهروبه، حتى قرر مالك الرحيل. لم يقبل سيف بترك أبيه، لو عاد مالك بدونه قد تطرده رحيق أو تلقي به من علٍ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شئ أمام عناده، حتى ياسين لم يقدر عليه.

عاد وحيداً وعقله مشغول برد فعل رحيق التي ما إن علمت حتى سلمت بالأمر بصورة أدهشته! ما خطبها وعلى أي شئ تنوي ؟

رأته في بيته ثم دافع عنها وحماها من بطش أبيها فأصبح أمانها بعد الذي فقدته بغياب أحمد، وجوده في حياتها كان في وقت تحتاج فيه لقشة تنقذها من الغرق. كانت ضائعة يحاول أبيها دمجها في المجتمع بشتى الطرق؛ فهي لم تتقبل أبداً موت أخيها المفاجئ. لقد تركها وذهب ليأتيها بهدية تسعدها كما يفعل دائماً، وعدها أن يعود ولكنه ما عاد، كانت يائسة محطمة!

لا تعرف شيئاً عن دينها إلا النذر اليسير الذي علمه لها أحمد. رغم أن أبويها مسلمان ولكن لم يعرفانها دينها بل تربت في المجتمع الأمريكي كما هو بكل مساوئه وحسناته، لكن أمر كهذا لم يكن يعيق أحمد عن التعرف على دينه، ولم يترك أخويه غارقين في الحياة، بل علمهما معه، كانت رحيق تستجيب ومالك ينفر، وأحمد كان أشد تمسكاً برحيق حتى يستطيع الحفاظ عليها

كفتاة في مجتمع غربي، فعوضها عن كل شئ، أغرقها في حبه وعطفه وحنانه، كان يفعل معها كما يفعل كل ولد بفتاته أمامها، يفاجئها بهدية أمام صديقاتها، أو يحملها بين ذراعيه أو فوق كتفيه عندما تغضب، يتنزهان معاً كثيراً، ويطيلان الحديث معاً، شغل أي فراغ لديها، علمها دينها وأنها فتاة مسلمة لا يجب عليها أن تفعل مثلما تفعل قريناتها من مصاحبة لأولاد ثم ما هو أكثر من ذلك.

واختفى فجأة، تركها وحيدة تعاني من ويلات فراقه، وكما اختفى هو فجأة ظهر ياسين فجأة، لا تنكر اللبس الذي حدث لها في البداية تكاد تكون قد جنت، إذ قارنته بأحمد ، بل اعتبرته أحمد لولا لسانه السليط ، لم يكن أحمد فظاً ولا هجومياً مثله؛ أهانها كثيراً لشئ لا ذنب لها فيه،ولكنها تحملت لأنه حماها من بطش أبيها بها، حماها مما هو أكثر من ذلك، كان قاسياً وهي المدللة التي لم تألف إلا عيش الملكات.

ليتها ما أحبته وما تعلقت به، ليتها استطاعت أن ترفضه أو حتى أن تهينه ليتركها، وكم تمنت وما حدث شئ..

****

أهو أب؟! لا يستطيع التصديق إلى الآن! ابنه ينام على صدره بعد أن أهلكه الحديث، وينعم بقربه بعد أن استمتع بصوته الشجي، يا إلهي متى يصدق ذلك؟! حمله إلى فراشه وهو يضمه إلى صدره بشدة، وضعه برفق وأخذ يتأمله، أهو يشبهه أم يخيل له؟! حتى مالك أكد، هو يشبهه، نسخة مصغرة منه، هل أتعب أمه كما أتعبها هو، أم كان رفيقاً بها؟!!

خلع عنه معطفه، حتى يستطيع النوم ثم انحنى ليخلع حذاءه، بدأ بقدمه اليمنى ثم اليسرى، ثم وقف، حدق في قدمه قليلاً وبدأ يهز رأسه في عنف كأنه يخيل إليه، هناك خطأ ما، سيستوعبه الآن لا محالة، ما هذا؟! أين قدم سيف؟ نظر إلى وجه ابنه النائم ببراءة ثم نظر إلى قدمه وعيناه تشع بريقاً مصدوماً تحول إلى بكاء تدريجياً وهو يجلس ليضمه إليه بشدة ..كيف حدث ذلك ؟!

****

استيقظت رحيق من نومها المضطرب فزعة، ذهبت لغرفة مالك كأن خطواتها مدروسة، قابلها فلحقته بسؤالها :- أريد الاتصال بياسين !

نظر لها فخافت، ثم تلجلجت قائلة :- إنها المرة الأولى التي ينام فيها سيف بعيداً عني، مالك أنا أم.

ثبت عيناه في عينيها فقالت :- مالك!! سيرى قدم سيف بالتأكيد، ستصدمه المفاجأة وهو وحيدٌ به.

تجاهلها وهو يتصل بياسين ثم قال :- سأتحدث أنا معه.

- ولكن ..

- انتهى الأمر.

وقفت جواره متوترة، تفكر في شعوره الآن؛ يكتشف أن لديه ولد، ولم تكتمل صدمته حتى يكتشف إعاقة ولده!!

- أيا إلهي ارفق به !!

تعلقت عيناها بمالك الذي يحاول الاتصال لأكثر من مرة وقد بدأ القلق يظهر على ملامحه، فسحبت منه هاتفه حفظت الرقم بنظرة واحدة وذهبت لغرفتها تطلبه من هاتفها لحقها مالك قائلاً :- لقد عاد ياسين إذاً حتى يعود تهوركِ معه، أنتِ الآن امرأة من المفترض أن تكون عاقلة!

أخذت تعبث بوجهها وشعرها بحركات متوترة ثم قالت :- مالك أرجوك! انهِ الأمر حالا! أريد أن أعرف ماذا يحدث!

قاطعهما رنين هاتف مالك فنظر لها فقالت :- شغل مكبر الصوت.

فعل ما أرادت وهو يقول :- ياسين!!

- نعم مالك! كيف تخلعون ذلك الشئ .. ذلك الذي .. في قدم سيف.

كتمت بكاءها وهي تلحظ جيداً نبرة الأسى في صوته، نظرت إلى مالك الذي يخبره بكيفية فك القدم الصناعية لسيف، لم تكن الطريقة صعبة ولا معقدة، ياسين كما هو عندما تصدمه مصيبة يعجز عن فعل أي شئ. وانتهت الليلة التي شغلتها كثيراً، كم تمنت أن تكون جواره الآن!!

****

- مالك!! أريد منك شيئاً!

فتح عينيه ببطء وهو يقول :- بنان!! ما الأمر؟ هل أيقظتِني برفق أم يهيأ لي؟

ابتعدت قليلاً عنه - ومازالت جالسة على فراشه - حتى تسمح له بالجلوس، فقد تسللت لغرفته منذ وقت ليس بقليل وأخذت تتأمل ملامحه المسترخية طويلاً، لا تعرف ماذا تفعل هنا؟ لمّا كرهت فعلتها حاولت أن توقظه، أخذ وقتاً منها حتى استفاق أخيراً، فكرت كيف ستتحمله زوجته هكذا؟ إنه ينام كالميت لا يشعر بأي شئ!!

جلس وهو يقص لها ليلة الأمس قائلاً :- كانت ليلتي طويلة بالأمس وذهبت لعملي صباحاً ولم أستطع النوم، ثم أحضرت سيف، وتحدثت مع ياسين، وجلست عند أمي قليلاً وتجادلت مع أبي، ثم جئت لأنام، أليس من حقي النوم؟

ابتسمت وهي تنظر له فقال :- النساء يحببن الرجل الذي يخبرهن بخط سيره، حتى يمسكن بخطأ لم يفعله ثم يعاقبنه عليه، أعاملكِ كأنكِ زوجتي هل رأيت أفضل من ذلك؟

اختفت ابتسامتها وهي تقول :- ماذا تقصد ؟

ظهر على ملامحه الجد وهو يقول :- كما فهمتِ تماماً. ممنوع عليكِ دخول غرفتي مرة أخرى، خاصة إن كنتُ فيها، لا توقظيني من نومي أبداً، ولا تجلسي أمامي هكذا على سريري.

وعلا صوته وهو يسألها :- هل فهمتِ؟

وقفت مبتعدة وقد أخافها ما فهمت ثم قالت :- لن تستطيع أن تؤذيني.

وقف فجأة وهو يقول :- بل أستطيع! هل كنتِ هكذا طيلة حياتك؟

- كيف؟

- تدخلين غرفة أي رجل بسهولة؟

انفعلت مبتعدة عنه مضطربة وهي تقول :- بالطبع لا، هل تراني عاهرة؟ لقد وثقت بكَ ليس أكثر، وأنتَ تعلم جيداً أنني لا أثق بأي رجل.

انفعل هو أيضاً قائلاً :- وثقتِ بي! الأمر طبيعي إذاً، العاهرة أيضاً تدخل غرف من تثق بهم، ولا تلقي بنفسها في عرين الأسد.

تجمدت وهي واقفة ثم قالت :- لقد جئت إليكَ لأخبرك بضرورة انفصالنا، إذ لم يعد هناك ضرورة من الزواج، لقد وصل صديقيَّ أخيراً، وسأذهب للعيش معهما، ولن تضطر بعدَ الآن للتعامل مع عاهرة قد تلوث حياتك.

- بنان، اخرجي الآن، انتظريني في الحديقة أو في غرفة المعيشة في الخارج، حتى أنفذ لكِ طلبك.. نطق بها ثائراً؛ فخرجت دون كلم، بينما زفر هو بضيق، وحرك شعره بطريقة فوضوية، ثم اغتسل وارتدى ملابسه وخرج لها، وجد حقيبة ملابسها جوارها، فنظر لها وقال عابساً :- لقد اتخذتِ قراركِ إذاً؟

- نعم، وقبل أن أدخل غرفتك، لقد هاتفني جاك وأخبرني بوصوله وليو إلى هنا.

- كيف هاتفك؟

- على هاتف رحيق.

- ولكنني لن أطلقكِ الآن، لم نجد أمك بعد؟

- سأبحث عنها وحدي، كما أن جاك وليو هنا سيبحثان معي.

جلس جوارها فابتعدت ثم قال آسفاً :- لماذا لا تنظري إلي، هل تشعرين بالاشمئزاز مني؟

مازالت تخفي وجهها عنه وقالت بوجوم :- يجب أن ننفصل مالك! هذا ما جئت لأخبرك به، كنت أتمنى أن ننفصل ونظل صديقين، لكن يبدو أن أمر كهذا سيزعجك بعد الآن إذ لن تحتمل صداقة عاهرة.

اقترب منها وأجبرها على النظر إليه فلمح دموعها التي تحاول إخفاءها فقال :

- لم أقصد قول ذلك، أنا آسف، ولكنني أخاف عليكِ، كيف تفعلين ذلك بنان، الرجال سيئون جداً كما تعتقدين، ليس هناك رجل يبحث عن صداقة امرأة وتبقى معه كأخته، صدقيني، هناك ميل

فطري بين الرجال والنساء، ومن المؤكد أن هذا الميل لم يخلق لأجل أخوة، لا أخت لدي سوى أختي التي من أبي وأمي، بالفعل أعتبرك أختي، ولكن ليس كل الرجال سواء .

ثم عبس قائلاً :- أنا أهذي، يبدو ذلك، لا تلتفتي لما قلت، ولكن لا تدخلي غرفة أي رجل آخر مهما وثقتِ به، إلا زوجكِ عندما تتزوجين.

ابتسمت وهي تقول :- مالك! أتعرف أنك غبي متهور؟

ضحك قائلاً :- ما أعرفه أنك شمطاء ذات لسان سليط، كان الله في عون زوجك.

- لن أتزوج!

- الحمد لله، لقد رأفتِ بحاله.

وقفت لتقول :- أنا لا أعرف الطرق هنا، وأريد أن أذهب لجاك وليو، لقد وصفا لي المكان ولكن ..

قاطعها قائلاً :- للأسف بنان قد أكون رجلاً عابثاً ولكن لا أستطيع التخلي عن مسئولياتي؛ وبالتالي فأنتِ متورطة معي حتى نجد أمك وتستطيعين العيش معها، والحقيقة أننا اقتربنا، لقد عرفنا في أي مدينة تعيش وقريباً جداً سنصل إليها، هل تستطيعين التحمل قليلاً؟

سكتت لبرهة ثم قالت :- لنذهب لرؤيتهما فقط.

وافقها، ثم ذهبا معاً إلى مقهى ينتظرانها فيه، رأتهما وذهبت نحوهما، عانقتهما كثيراً، عناق رجولي كما وصفه، هي رجل. رغم ضيقه من رؤيتها تفعل ذلك ترك سيارته وذهب نحوهم، عرفتهما له وعرفته لهما، ثم جلس أربعتهم معاً، تحدثت مع صديقيها كثيراً، تخيل لو أن لديها طاقة لتفرح أكثر من فرحتها في وقت كهذا؟ لن يجد! لقد انقلبت مشاعرها فجأة، حتى جاء الحديث لحد ماتت فيه فرحتها حين قال ليو :- والآن بِينَّا مفاجأتنا الحقيقية لكِ.

- ما هي؟.. سألت، فأجابها جاك :- لقد أخذتُ بثأركِ من قاتل أبيكِ؟

عبست قائلة :- ماذا فعلتما؟

ابتسم ليو وقال :- أذقناه الذل ألواناً حتى استغاث بنا وطلب الرحمة، لا تقلقي بعد الآن، لن يستطيع مطاردتك حتى في أحلامك؟ وكما حاول أن يفعل فيكِ فعلنا نحن فيه ما هو أكثر وأشد عذاباً.

انكمش جسدها بصورة لاحظها مالك الجالس جوارها، علم حينها أن الثأر لم يكن لأبيها بل لنفسها، ولكن ماذا حدث لها؟

أنهت اللقاء سريعاً دون أن تسأل عن تفاصيل، وكأن الذكرى كفيلة بتعكير مزاجها، والتزم الصمت معها طيلة الطريق. لم تخبره ماذا حدث لها يوم فزعها أو يوم حلمها المزعج، هي لا تخبره عن أي شئ خاص بحياتها، حتى حكاية أمها لم تخبره عنها، وهو لا يستطيع أن يفرض نفسه عليها حتى تخبره، أسبوعاً لا أكثر وسينفصلان حيث علم أن أمها تقطن في واشنطن، لن

يراها بعد الآن، سيسلمها لها وينتهي الأمر، كما أن من كانت تخشاه قد انتهى، وأخذ صديقيها بثأرها الذي لا يعلمه، ولم يتحفظ على طريقة سلامها عليهما أو عناقها، لا يريد أن تحدث بينهما أي خلافات قبل فراقهما.

ولما وصلت للمنزل تركت سيارته، وذهبت لغرفتها سريعاً، تريد الانفراد بنفسها وذكرياتها، تريد الاعتراف لنفسها بأنها ما اهتمت أن تأخذ بثأر أب تكرهه، وإنما أرادت أن تثأر لنفسها قبل كل شئ. تريد الاعتراف أن أباها حين موته حذرها من البحث عن أمها، وهي أصرت على البحث حيث أخبرت العم عمر أن وصية أبيها أن تذهب لأمها. لا بد أن تعرف لماذا منعها من أمها؟ ولماذا طلب ألا تذهب إليها؟

إنها في حيرة شديدة، ويأتي مالك هذا يخبرها بأنها عاهرة. هي فعلاً عاهرة ولكن لم يكن الأمر بإرادتها، عندما وصلت بتفكيرها هنا، هربت، هربت من أفكارها، وتركت غرفتها، هربت بعيداً، نظرت لغرفة مالك ثم ابتعدت أكثر لن تدخلها بعد الآن، وصلت للحديقة وجدته مديراً ظهره لها اقتربت منه ببطء، ثم أصابها سعال حاد، فانتفض بسرعة والتفت، رآها فأطفأ سيجارته التي يدخنها ثم اقترب منها وقال بقلق :- بنان ماذا حدث؟ هل أصابكِ شئ؟

بدأت تهدأ ثم قالت :- لا لا شئ أنزعج فقط من التدخين، سأعود لغرفتي.

- لستِ مضطرة لذلك، لقد أطفأتها على أي حال، لا أدخن كثيراً، إنها مرات معدودة فقط.

تنهد وعاد كما كان وقفت جواره وهي تقول :- ما الذي جعلك تهذي بتلك الكلمات، لماذا رأيت الرجال سيئون فجأة؟

ابتسم ببطء وقال :- لأنهم سيئون .

- مالك، ماذا حدث؟ هل أصابك من سوء؟ ألم تقابل ليندا اليوم؟

- ليندا !! .. علّق ساخراً.. فاقتربت منه ثم أمسكت ذراعه تلفه إليها، صدمت وهي تنظر لعينيه قائلة :- هل تبكي؟

لم يبالي بسؤالها ولا بحاله وهو يقول كأنما يحدث نفسه :- لقد أحببتها كما لم أحب امرأة من قبل، بنيت كل أحلامي معها. تخيلتها وهي تنطق بالشهادة وأنا معها وعشت سعادتي بها، تمنيت رؤيتها بحجابها الجميل، وتخيلت نفسي وأنا أضعه على رأسها وأربطه لها، لقد تعلمت ذلك لأجلها، قررت التفقه في ديني لأجلها، حتى أساعدها على فهم الدين، تقبلت عملي الذي لا أحبه لأنها أخبرتني بحبها له وأنها عرفتني عن طريقه.

لقد كانت الشخص الوحيد الذي اخترته بنفسي، وحبها كان الشئ الوحيد الذي أقرره بنفسي، لم يتدخل فيه أبي ولم يجبرني على حبها، عارضته كثيراً لأجلها، صممت بيتنا الذي سنقطنه وأنا المهندس ذو الإمكانيات المحدودة كرست جهودي وطورت أفكاري لأصمم منزلاً خيالياً في مدى جماله .

تنهد وهو ينظر للسماء ويكمل :

- لقد كنت رجلا سيئاً كمعظم الرجال، كانت تعتبرني مجرد صديق من زمرة أصدقائها، لقد انتفت حاجتها إليَّ، وجدت من هو أكثر ثراءاً وسلطة مني، كنتُ مجرد دمية تعبث بي، مجرد رجل يلهث وراءها من معجبيها الكثيرين.

شدت على ذراعه قائلة :- هل هي من أخبرتك بذلك ؟ .. أومأ بعينيه موافقاً، فقالت :- كيف فعلت؟ ألم تخبرك قبل أنها تحبك؟

لم يرد وبدا لها أنه لا يستطيع الكلام بعد الآن فسكتت، وبقيت جواره واقفة، شعرت بالأسى تجاهه مع بعض الإحساس بالذنب، خافت أن يكون كلامها عنها هو ما أثر عليه، ولكنه يحبها ولن يصدق شيئاً عنها بسهولة.

وضع يديه في جيبي بنطاله وراح ينظر للسماء، يتذكر ما حدث معه ظهر اليوم، لم يكن ليخبر أحداً بما حدث حتى أن يومه مر بسلام ولم يلاحظ أبواه وأخته شيئاً عليه، حتى لقاءه مع ليندا ظهراً يكاد يختفي من عقله، مصدوم بشدة ولا يصدق ما حدث؟ كيف تحدثت معه هكذا؟ وكيف أتت بصديقها لمحل عمله تعرفه به وتخبره عن قرارها بالانفصال عنه؟ كيف استطاعت أن تكسره وتتخلى عنه وهي تهينه بصورة لم يتخيلها أمام صديقها؟ كيف قامت بذلك فجأة؟!!

انتزع نفسه من صدمته وقال :- أليس الأجدر بكِ أن تخبرينني ببعض أسرارك؟

تحدثت مرتبكة وقد فاجأها تحوله :- ليس لدي أسرار!

بابتسامة ساخرة لم تصل لعينيه قال :- وماذا عن أبيكِ وعلاقتكِ به؟ ماذا عن أمكِ التي ظهرت فجأة؟ ماذا عن كوابيسك؟ ومن الرجل الذي انتقم صديقاكِ منه لأجلكِ؟ أم أنكِ لم تثقي بي بعدُ؟

أجابت بصوت جامد :- الحديث عن تلك الأشياء يخنقني ويثير فيّ اضطراباً وضياعاً لستُ أهلاً له الآن؟

أومأ متفهماً وهو يقول بشبه ابتسامة :- أمامنا وقت طويل حتى تتحدثي معي إن أردتِ، فقد تحدد سفرنا في الغد إن شاء الله، يبدو أننا متورطان ببعض لفترة لا بأس بها.

أجابت منفعلة :- ليس بعد أن وجدتُ أصدقاء لي أخيراً تبعدني عنهما، هل سأذهب لمكان جديد وأشعر بوحدة من نوع آخر، هل كتب علي أن أعيش عمري كله ضائعة مشردة؟ أنتقل في العالم مطاردة هاربة بحثاً عن مأوى وحماية؟ بحق السماء لماذا تفعلون بي ذلك؟ لماذا يصر العم عمر على حمايتي وأنا قادرة لأفعل؟ لم يكن أبي يوماً جيداً لتلك الدرجة التي تجعل العم عمر يدين له بالكثير، أنا لن أرحل من هنا، وقد حظيت بوجود جاك وليو، أخبرتك بأنني سأذهب للحياة معهما، طلقني طالما الأمر بيدك ..

- قد لا يكون العم حسن بذلك السوء، سنذهب مساء غد إلى واشنطن، حتى أسلمكِ لوالدتك وأطلق سراحك عندها.. قال كلماته بجمود وتركها ورحل ...

دارت عيناها في الفراغ حولها بضيق جثم على صدرها، ثم دخلت للمنزل واستخدمت هاتفه تحدث صديقيها، ناقمة على حالها لمَ لم تستخدم هذا الهاتف من قبل دون الحاجة إلى مالك؟ ..

اتفقوا على الخروج، وانتظرتهم أمام المنزل متجنبة أن يراها أحد، وصلا بدراجة بخارية، ركبت خلفهما وانطلقوا بعيداً..

في مكانٍ لا تدري كيف عرفاه بهذه السرعة أخذاها، جلسوا جميعهم أمام طاولة يتحدثون ويحتسون ما استلذوا من الخمر، أفرغت فيه طاقتها وغضبها، واستمتعت بإعادة ذكرياتها مع صديقيها كثالثٍ لهما في مجمع الرجال، ولشدة ضيقها أكثرت في الشرب، وأكثرت في الحديث والصراخ الماجن، منذ جاءت لهذا المنزل واحتسائها للخمر كان خلسة ممَّ كانت تحمله عندما وصلت، وحين انتهى لم تستطع الخروج لتشتريه، ولم تجده في المنزل عندما بحثت، هي الآن تعوض كل ذلك، حتى أن صديقيها أشفقا عليها لكثرة ما تناولت ..

تتعالى الموسيقى الصاخبة في المكان، ومعها تزداد حركات جسدها الراقصة، وكأنها تريد للأرض أن تتشقق من تحت قدميها، حياة بائسة عاشتها، أب مهمل، وأم هاربة، فتاة ترفض الاعتراف بوجود إلهٍ للكون، رجال في كل مكان حولها يريدون النيل منها، فتتحول الفتاة المؤنثة لرجلٍ يرفض أن يسيطر عليه أحد، تتعلم فنون القتال وتجيدها، تدافع عن صديقيها إذا ما اشتبكا في شجارٍ ولا تنتظر حمايتهما، ثم فجأة يموت الأب المهمل، ومع موته يزداد الطامعين في قوتها ومهارتها ومن قبل فيها نفسها شراسة، قومٌ احتالت عليهم لتتخلص من رعونتهم وفسادهم الرابض في أرضها، كانت فتاة على صغر سنها بألف رجلٍ من أمثالهم، ونجحت في الحفاظ على بنان في داخلها كما ظنت. يهتز شعرها القصير وكأنه خصلات منفردة بذاتها، ومع اهتزازها تهتز حدقتاها باهتزاز جسدها، كالمجنونة تحولت، وكأنها تهذي في المكان، تصرخ بالغناء وتتجرع كأساً وراء الآخر، علَّ البؤس ينتهي والغم الذي تملكها يفرغ، لماذا هي من بين الناس أجمع تعيش تلك الحياة؟ يزداد سوءها يوماً بعد يوم، وتغوص في قاع الأسى للأعمق ولا تنجو..

عندما عاد مالك اتجه لغرفته وبقي في شرفته ساهراً يجافيه النوم، كأنه يعيش وحيداً هنا، لا يسأل عنه أحد، ولا يهتم بشأنه، رحيق مشغولة بحالها، وأبواه لم يعتد منهما الاهتمام، وأبوه خاصة، رن هاتفه في وقتٍ متأخر، كان ليو؛ استغاث به لينقذ بنان ممَّ تفعل، ذهب لمستقرهم سريعاً مرتجفاً، فمن رعب صديقها شعر بالخوف يتملكه نحوها، وجدها ترقص بمجون، قاومته كثيراً حين أرغمها على العودة معه، وبمساعدة صديقيها استطاع أن يجبرها على ركوب سيارته، وصل بها للمنزل يحملها على ذراعيه متسللاً للداخل خشية أن يراهما والداه أو رحيق، دخل بها لغرفتها، لم يستطع أن يتركها تغرق في بئر نومٍ لا نهاية له، فوضعها في الحمام تحت الماء الذي فتحه على آخره، تركها في حوض الاستحمام تفيق من غيابها، ناظراً لها، لمقاومتها الضعيفة حين بدأت تشعر، بدأت تقف مستندة على الحائط الذي لم يكن أهلاً للمعونة، تريد الهروب من قوة دفع الماء المتجه نحوها، ولم يرحمها مالك، ملأ دلواً حتى آخره وأفرغه فوق رأسها، فانتفضت وشهقت بشدة ، وكرر فعلته حتى تأكد من صحوتها، فتركها وخرج ينتظرها على فراشها، طالت مدة انتظاره حتى خرجت تلتف بروب الاستحمام ، فنظرت له شذراً وقالت :- اخرج حتى أبدل ملابسي..

لم ينظر نحوها، وخرج يقول :- أنتظركِ في غرفة المعيشة..

عندما وصلت إليه، نظرت إليه بضيق، ورفع نظره نحوها وقد قطب جبينه منزعجاً، وقال بانفعالٍ مكتوم :- لماذا خرجتِ، وكيف ذهبتِ إلى هذه الأماكن؟

بنظرة ميتة ردت :- لمذا أفقتني؟ هل طلبتُ منك أن تفعل؟ لماذا لم تتركني مع صديقيَّ؟ لم أكن أريد العودة.. ثم أنني لا ألتزم بقوانين بيتكم، أو حتى دينكم، ولا أهتم بما تسمونه طاعة لخالقكم.. وأكملت تمتمة :- هذا إن كان حقاً؟

تخلص من انفعاله بسرعة لا يعلمها، واتجه نحوها عانق بيديه يديها، وقال بلطف :- تعالِ معي سأخبركِ سراً..

سحبت يديها من بين يديه، ليكف قلبها عن اضطرابه، لم يهتم، وسارت تجاوره، حتى وصلا للحديقة ، جلسا في ركنٍ يتمردان على برودة الجو المحيط، وقال بهدوء هامساً :- لقد فعلتها مراتٍ من قبل..

انتبهت إليه وسألت :- ماذا فعلت؟

قال بابتسامة بسيطة :- فعلتُ ما فعلتِه أنتِ لتوّكِ، ذهبت لأماكن كهذه، شربت الخمر حتى انتهيت، رقصت كالمجنون كي أنسى بؤسي..

- وهل نسيتَه؟.. سألتْه، فأجابها :- بالطبع لا.. آذيتُ نفسي فقط .. تعرفين على الرغم من أن أبي لم يكن يلتزم بدينه، كما هو الآن، إلا أن هناك أشياءً كانت ومازالت محرمة علينا، ومحرم تواجدها في بيتنا، وممنوع من يفعلها من الدخول إلينا..

- وهي؟ .. سألتْ..

- الخمر، والعاهرات أو النساء الفاسقات عامة، والقمار والمقامرون.. لكي يحافظ عليَّ أنا وأخي ..

بابتسامة ساخرة قالت :- وقد جاء إلى بيتكم فتاة سكيرة، عاهرة، ومقامرة أيضاً..

- آه .. مازلتِ غاضبة من هذه الكلمة، وتعلمين أنني لم أقصدها، ثم أنني فعلتُ هذه الأشياء عندما رحلتُ من هنا ..

- رحلتَ؟.. سألتْ باندهاش أنساها ما قالتْ ، فرد : - نعم .. تركتُ المنزل لفترة طويلة، لم يهتم أبي لذلك، شربتُ الخمر وانتقلتُ إلى أماكن كثيرة، أقامر وأسهر، ويستغل صغر سني فاسدون، حتى ظهر ياسين.. ثم ضحكَ سائلاً :- أتعرفين ماذا فعل بي حين اكتشف ما أفعله؟

نظرت إليه بتساؤلٍ باسم فأجاب :- ضربني بقوة، وأخذني إلى مطعم خاله، عملتُ هناك في تنظيف الأطباق والطاولات، هانت عليَّ نفسي إذ لم يسأل أبي عني، ولم يهتم بوجودي كعادته، رحيق هي من أثارها القلق من غيابي فبحث ياسين عني لأجلها، مازلتُ شاكراً لفعله معي حتى الآن، هو من ردني إليَّ، لذلك كان الأقرب لي دائماً، حتى أنه من أجبرني على العودة إلى هنا .. لذلك عرفتُ أن الخمر والقمار ما هو إلا هلاكاً لنفسي، ولن تتغير حياتي بهما ..

سألتْ بشفقة لا تعلمُ من أين أتتْها حتى تلهيه عن حزنه الذي ظهر :- سأدينُ بالفضل لياسين أيضاً لأنه علمك أن تطهو جيداً..

اتسعت ابتسامة مالك وقال :- لقد أنقذني الطهي من التنظيف.. ثم قال بجدية :- الخمر ليس حلاً لهمومكِ بنان، ليس حلاً أبداً..

نظرت أمامها شاردة، فوضع يده على رأسها كمن يحنو على أخته الصغرى وقال بلطف :- لتنامي الآن، وانسي كل شئ، صدقيني ستسير أموركِ بكل خير..

قالت بخواءٍ انتشر في صوتها :- أتعتقد ذلك؟

بعثر شعرها بمشاغبة وقال :- بالطبع يا فتاة .. ثقي في حديثي ..

ثم تناول كفها في كفه وقال :- هيا بنا .. لدينا سفر طويل في الغد .. استعدي لتشاهدي واشنطن ..

تركت يدها تسكن في يده مطمئنة، وتسللت نظراتها إليه تراقبه، وهو يسير بها نحو غرفتها ، حتى تركها لدى الباب وقال :- طابت ليلتكِ بنان .. لا تقلقي من أي شئ..

وأدخلها وأغلق الباب، ثم اتجه لغرفته، تاركاً إياها ترتسم ابتسامة هادئة على وجهها تنسيها بعض من همومها المكتنزة في قلبها .. وترك نفسه تغوص في نومٍ عميق لا يذكره بمآسيه التي تزداد فوق رأسه ..

****

وفي أول هذه الليلة؛ جلس ثلاثتهم في المطعم بعد دعوة محمد لهما على العشاء، تحمست ميرا بشدة وهي من شجعته على فعل ما انتوى، بينما كانت ديانا متذمرة ومعارضة لفكرتهما، حملت ابنهما الرضيع على يدها تهدهده وهي تجادلهما، ولما تعب محمد من جدالها قال :- ديانا، تعلمين أنني دعوتُ زوجتي لعشاء رومانسي وأتيت بكِ فقط لرعاية ابني، فلا تتدخلي في الأمر.

رغم قوتها وتحديها لما يفعلان إلا أن الحديث إليها كمربية للأطفال أمر لا يهينها ولا يقلقها، فكم تتوق لأن تحمل يوماً طفلها هي، ولكنها تعوض أمومتها في ابني صديقتيها، ابتسمت وهي تنظر لميرا قائلة :- علمتُ الآن مدى إصرار زوجكِ على الصلح بينهما، ليس عمل الخير كما يدعي، ولكن لأنه مصري مثله، ويحمل ذلك الجفاء الذي أخبركِ ياسين يوماً به.

ضحكت ميرا قائلة :- محمد يغار بشدة من ذكر ذلك الموضوع، لقد جاء هنا فقط لتلقين ياسين درساً لن ينساه.

ابتسمت ديانا وهي تنظر للطفل بين يديها قائلة :- هكذا أتفق معكما ..

ضحك محمد وهو ينظر لميرا غامزاً حيث قالت :- هيا أيها الفارس المغوار لنبدأ الخطة ..

تحفزت ديانا لما سيحدث وتوترت ميرا لرؤيتها ياسين بعد تلك المدة، وأشار محمد للنادل كي يأتيه، ولم يكن هذا النادل بالطبع سوى ياسين .

منذ عاد وهو يعمل هنا في مطعم خاله، حيث بدأ حياته قبلُ هنا، ورفض عرض عمر له بالعمل في شركته. عندما أشار له محمد ذهب إليه بقائمة الطعام، في العادة عمله هنا مقتصر على المطبخ، ولكنه يفضل أحياناً الخروج لصالة الطعام، ولم يعرف أن خروجه اليوم كان مدبراً من محمد الذي اتفق مع خاله.

وقف ياسين أمامه وأعطاه القائمة بتهذيب وهو ينظر إليه، بدا شكله مألوفاً له ولكنه لم يتذكر أين رآه قبل، عرفه محمد بنفسه وهو يقف ماداً إليه يده قائلاً :

- محمد يوسف، منذ خمس سنوات كنت طالب ماجستير في علم الاجتماع بجامعة...

قاطعه ياسين وهو يمسك بيده قائلاً :- الدكتور محمد يوسف ..

أومأ محمد باسماً وهو يقول :- لقد تذكرتني إذاً، كنت أتمنى أن ألكمك في فكك عند رؤيتك، ولكن المكان غير مناسب، فتذكر أنني مدين لك به ..

ضحك ياسين وهو يقول :- الطيب أحسن، ماذا فعلت لكل ذلك ؟ ..

جلس محمد جوار ميرا وهو يقول لياسين :- تفضل بالجلوس، أريد الحديث معك لدقائق، لن أعطلك عن عملك!!

نظر ياسين للمطعم المزدحم بزبائنه، واطمأن بأن زملاءه يقومون بعملهم دونه على أكمل وجه فجلس مقابلاً لثلاثتهم، لم ينظر للمرأتين المحجبتين اللتين ترافقانه بعدُ، ولم ينتوي النظر إليهما إذ قرر إنهاء حديثه والمغادرة لإحضار طلبهم. وأثناء جلوسه وقعت منه نظرة عابرة لكلتيهما، ولكنها جعلته يستمر بالتحديق فيهما، لولا صوت محمد الذي أحاط بكتف ميرا قائلاً :- غض بصرك يا رجل، ألا تراني جالساً معهما.

نظر له ياسين ولذراعه المحيط بكتف ميرا وقال :- ماذا قلت؟ آسف! ولكن لا أفهم شيئاً، أنا آسف فهما يشبهان ..

قاطعه محمد باسماً:- لا يشبهانهما، إنهما هما، ميرا زوجتي وديانا صديقتها، لقد أسلما كما ترى.

هز رأسه بعنف وكل كلمة تتردد في أذنه بصدى غريب " ميرا زوجتي " " لقد أسلما " ، أعاد نظره لهما قائلاً :- ماذا؟ أسلمتما!! ميرا تزوجتِ محمد يوسف حقاً؟..

ثم ضحك بشدة وهو يقول :- فهمت الآن لماذا تريد ضربي!!

ضحك محمد وميرا بينما تحدثت ديانا أخيراً لتعلن وجودها لياسين وهي تقول :- في الحقيقة كما تعلم ومحمد أيضاً يعلم أن أمر الضرب هذا تستحقه ولكن ليس لأجل ما فعلت بميرا فقد كنت متفقة معك في ذلك ومحمد أيضاً لو كان في موقفك لفعل، هو فقط يغار عليها بشدة، ولكنك تستحق الضرب لأجل رحيق.

عم الصمت على المكان فجأة سوى من صوت الرضيع بين يديها، وضغطت ميرا على يد محمد تستمد منه الثقة والطمأنينة وكذلك فعلت ديانا بالرضيع الذي تحتضنه، ثم قطع محمد الصمت

قائلاً :- لقد كشفت ديانا عن سبب زيارتنا لمطعم خالك، عن نفسي أريد أن أرد لك خدمة فعلتها بي وبميرا يوماً، ومن ناحية أخرى أعتبر رحيق أختاً لي، كما أرى بك رجلاً يستحق أن أفعل لأجله شيئاً، ولا أصدق أبداً ما ذاع عنك في تلك الفترة ..

قطع حديثه وقد بدا أثره على ياسين حيث ظهر الألم في عينيه وكأنه يجاهد لينسى ما حدث وما انتشر عنه منذ زمن..

- وما دور ديانا في الأمر؟.. قالها ياسين بشبه ابتسامة، فردت متفهمة :

- هجومي عليك تعلم سببه جيداً، وما كنت أبداً لأشاركهما ما يحاولان فعله، لولا أن محمد قال " والصلح خير " فكرت أن أرد لك جزءاً مما فعلت معي، وألا أكون جاحدة وناكرة لجميلك، كلنا يشهد بتأثيرك علينا وبكل ما فعلته لأجلنا، رغم العداء الذي كان بيني وبينك، لكن زوجتك لا تقاوم، ولا أستطيع منع نفسي من فعل ما يرضيها، وإسداء خدمة لأخ جدير بالاحترام مثلك.

نظر أرضاً وهو يستمع لمديحهم ولم يستطع الرد فهناك الكثير لا يعلمون عنه شيئاً، شكوكه بدأت تزداد بأن ما أصاب رحيق في غيابه هو ما دفعهم لفعل ذلك، من المؤكد أنها تأذت بشدة، علم ذلك بعد رؤيته لسيف واكتشافه لإعاقته التي مازالت مسيطرة على تفكيره إلى الآن ..

رفع نظره إلى محمد الذي قال :- ياسين نحن نعلم جيداً أن الأمر معقد خاصة بعد قبول أم سيف بالزواج من السيد مازن، ولكن إن كنت ترغب بعودتها إليك والاعتذار منها فلتحاول وتتحمل قليلاً، الأمر سيعتمد كثيراً عليكَ، أكثر منها هي، ونحن جوارك إن احتجتنا في أي وقت.

نطقت ميرا أخيراً لتقول :- حارب لأجلها يا أبا سيف، وتذكر أن الحرب خدعة!!

نظر ياسين إلى محمد الفخور بزوجته، ثم نظر لرضيعهما التي تحمله ديانا ومد يده ليحمله، ترددت في إعطائه إياه بطريقة لاحظها، لم يعلق وهو يتسلمه منها وينظر له في مهده. يشعر أنه في عالم آخر، هل غاب كثيراً؟ ميرا تتزوج من محمد يوسف أخيراً، وديانا تدخل الإسلام راغبة، ورحيقه هي من ابتعدت عنه.

أعاد كلمات محمد على مسامعه بقلة حيلة، هل ستتزوج صحيح؟ لقد ظن أن ما قالته كان تهديداً كما هي عادتها، ولكن الأمر أصبح مسلّماً به، يجب أن ينقذ تلك المجنونة من زواج ليست راغبة به، لقد عاد إذاً لينقذها من تهورها ولا ينام الليل قلقاً مما تنوي ومما تفكر، متى سيرتاح بها ومعها؟ لماذا حُبُّهما متعب لتلك الدرجة؟

وقف واستأذن بالانصراف، ناول الرضيع لمحمد ثم قال :- أنا شاكرٌ جداً لكم، شاكرٌ لمشاعركم ومساعدتكم، ولكن رحيق تستحق مني أن أجاهد لاستردادها، لقد كان خطأي منذ البداية، وعليَّ إصلاحه.. أستأذنكم..

ابتعد وتابعوه بأعينٍ مشفقة، ثم تناولت ديانا الرضيع من محمد بسرعة وابتعدت به على طاولة أخرى لتترك الزوجين ينفردان بحديثهما، وأخذت تضم الرضيع "عليّ " كثيراً. لقد اشتاقت إليه في الدقائق التي حمله فيها ياسين، يجب أن تستمتع به قبل أن يرحلوا وتعطيه لأبويه، أو تصر

عليهما بأخذه للمبيت معها، فيرحب محمد بشدة وهو سعيد جدا بفكرتها، وتتركه لها ميرا إشفاقاً داعية الله لها ..

" لا تقلق .. افعل الخير واخلصه لله ، لا تنتظر أجراً أو شكراً من أحد ، فقد يمر بك الدهر لترى نتيجة خيرك تعود عليكَ بأكثر مما تأمل ، فقط اصبر !! "

٧

هناك بدأت

لوس أنجلوس .. يناير ٢٠٠٦

ذلك اللقاء الأول، عندما جاء بها لأمه، كانت فاقدة للوعي، وجدها في الطريق يحيط بها ولدين وفتاة، ويبدو عليهم التوجس والقلق، اقترب منهم وسأل :- هل تحتاجون لمساعدة؟

استغرب رد فعلهم حيث نظروا له برعب ثم رموها أرضاً وفروا من أمامه كجرذان هاربة. تورط فيها ولم يعرف كيف التصرف؟ كان قادماً جديداً للولايات المتحدة، ويخشى سوء التصرف، ورغم ذلك لم يجد أمامه حلاً سوى أخذها لبيته. هناك استقبلته أمه بلهفة وجزع :

- من هذه ؟

- لا أعرف، اتصلي بخالي واسأليه ما العمل؟

ذهبت لتفعل غاضبة، بينما اتجه بها لغرفته، حاولا إفاقتها ولم يستطيعا فبقيا في انتظارها وانتظار خاله الذي تأخر، حتى استفاقت، وصرخت بهما تريد حجابها، أتى لها بحجاب من ملابس أمه ساخراً. فأي حجاب هذا الذي تريده وقد كانت تتسكع مع أصدقائها بعد منتصف الليل ورائحة الخمر تفوح من فمها؟

تركها مع أمه حتى هدأت، ولما طلبت العودة لمنزلها تركها تعود لولا إصرار أمه على أن يوصلها لأنها أحبتها - مسكينة أمه - ومنعه خاله خوفاً من العواقب. حسمت رحيق الأمر بأن استأذنتهم للرحيل وحدها.

تحرك شعوره نحوها للمرة الثانية، شئ داخله دعاه لأن يوصلها، وكأنه وخز في الضمير، نفس الشئ الذي جعله يقترب منها وهي بين هؤلاء الشباب.

وفي طريقها لمنزلها معه كانت ترتجف عرفته العنوان خائفة، لم يسألها ما سبب ارتجافها ولم تسأله ماذا حدث، حتى وصلت لمنزلها وقبل أن تدخل التفتت إليه قائلة بصوت خافت :- كم الساعة الآن ؟

نظر في ساعته ثم قال :- الخامسة إلا ربع صباحاً.

- ويلي.. همهمت وهي تضع يدها على شفتيها المرتجفتين، سمعها ولم يعلق، سارت لخطوتين ثم سألت :- هل أذوني؟

نظر لها متعجباً ثم قال :- لا أعرف شيئاً، لقد وجدتك بين أيديهم غائبة عن الوعي ولا يستطيعون التصرف.

أومأت ودموعها تزداد ثم اتجهت للداخل، ولم يغادر بقي واقفاً ينظر للمكان الذي دخلت منه شارداً، لماذا لم يغادر؟ لا يعرف!!

وعندما وجد ما يفعله سخفاً قرر العودة، وبعد أن سار لخطوات جاءه صوت :- انتظر !!

وقف ولم يلتفت وقد خمن صاحب الصوت، مؤكد أنه أبوها، سمع وقع خطواته تقترب وإذ به يقبض على كتفه بعنف قائلاً :- ماذا فعلت بها؟

التفت له وقبل أن يرد جاءت رحيق قائلة :- أبي! لم يفعل بي شيئاً صدقني، لقد وجدني مع جوش وكايل وإليزابيث.. وشهقت قبل أن تكمل :- أبناء صديقك الذين تركتني معهم، لقد أنقذني منهم.

لم يكن ياسين ليفهم شيئاً حينها ولا يعرف ما العمل؟ ولكنه رأى تراجع أبيها عن غضبه وتركه له وبعد أن هدأ قليلاً قال :- وما أدراني أنك لم تفعل فيها شيئاً؟

كانت رحيق أيضاً من قالت بصوت متهدج :- لم يفعل، صدقني لم يفعل، اتركه يرحل يا أبي، كفاني ما حدث، اذهب لصديقك واسأله ماذا فعل أولاده بي؟ لماذا أذوني؟ لقد وجدني دون حجابي! أم أن أمر كهذا لا يهمك؟

حينها التفت لها عمر وصفعها بقوة فوقعت على الأرض ولم يشعر ياسين بنفسه إلا وهو يجري نحوها ليحميها منه!

ونتيجة لفعلته أهانه أبوها وهو يبعده عنها، ثم أمرها بالدخول وبقي وحيداً معه يهدده ويتوعده، رحل ياسين لا مبالياً سوى بحال الدمية التي سقطت أمام عينيه منذ قليل.

****

اعتزلت الناس كما كانت واعتكفت في غرفتها فاقدة الثقة في كل من حولها، ولم يفكر أحد في السؤال عنها أو الاطمئنان عليها سوى أمها التي بدأت تشعر بأن لديها فتاة أخيراً، وبقيت كذلك حتى عادت ميرا وديانا من إجازتهما، هما من أخرجتاها من عزلتها ..

معرفتها بهما بدأت منذ سنتين، جاءتا للدراسة، اختلفت دراستهن ولكن جمعتهن تلك الآلة البسيطة " الكاميرا "؛ عشقهن لها قرب بينهن في فترة قصيرة حيث وجدت كل منهن من تشاركها هواياتها وولعها، كان اللطف هو السائد في العلاقة ثم الأمان فالحب، اختلاف شخصياتهن كان له سبب في ميل كل واحدة للأخرى، شاركتاها ألمها في موت أحمد، وشاركتاها قبل فرحتها باهتمامه بها.

خرجت معهما للتنزه قليلاً بعقل شارد حتى دعتهما لتناول غداءهن في ذلك المطعم الذي اعتدن عليه. مازال وجهها شاحباً بسبب ما مرت به، ولم تتخيل أن من اعتبرتهم أصدقائها يفعلون بها ذلك، جوش وكايل وإليزابيث؛ ماذا فعلت بهم حتى يحاولوا ضررها؟ لماذا يسقونها الخمر وبه ما يغيب عقلها؟ وإلى أين ذهبوا بها؟ وماذا كانت نيتهم لفعل ما هو أبعد من ذلك؟

معرفة ديانا وميرا بما حدث لها هيج شعورهما بالعطف الذي لا ينتهي نحوها، والتعهد بحمايتها ممن حاول أن يؤذيها .

مطعمهن المفضل هو مطعم السيد طاهر العربي خال ياسين، جاءهن ياسين لخدمتهن، ثم فوجئ برحيق التي صدمت بوجوده وحاولت أن تتحاشى النظر إليه، ولكن رؤيته لميرا وديانا خاصة بملابسها الكاشفة لمعظم جسدها أكد نظرته لرحيق، إنها تتظاهر بالبراءة والعفة بحجابها الظاهري فقط. نظراته المحتقرة لها لفت نظر ديانا التي قالت بغضب :- لماذا تنظر إليها هكذا أيها الصفيق السمج؟

نظر لها ببرود وهو يقول :- وهل تغارين آنستي لأنني لم أنظر إليكِ أنتِ؟

كن قد أملينه طلبهن فأنهى سؤاله ورحل، تاركاً رحيق تذوب خوفاً، وديانا تستشيط غضباً، بينما ميرا التي بمجرد أن أخبرتهما رحيق بكينونته صفقت بمرح وهي تقول :- يا إلهي إنه رائع، يبدو أنني سأقع في حبه، ذلك الفارس المغوار، يا إلهي، هل أنقذكِ حقا؟

لم يسكتها سوى نظرة ديانا لها، وقفت رحيق وقد فهمت نظرته وماذا يعني بها، وقالت متوترة وهي تشعر بنغزات الدموع في عينيها :- هيا بنا لنأكل في مطعم آخر!

وقفت ديانا وشدت على يدها بتملك وهي تقول :- لن نأكل سوى هنا، وإن تجاوز مرة أخرى سأعمل على طرده من المكان.

جلست رحيق وقالت :- ليس هناك داعي لذلك قد يكون هذا مصدر رزقه الوحيد، كما أنني أدين له بما فعل معي.

ولكن ديانا بدأت تشعر بالنفور منه لما سببه لرحيق من خوف وعدم ثقة تضاف إلى هشاشتها وسذاجتها، فأصبح طعامهن دائما هنا، وأصبحت تأتي معها بخمر، رغم أنه يزعج رحيق ولكن هدفها كان ياسين، أرادت أن تؤذيه في عمله بسبب أذيته لرحيق، ولم يتوانى هو في معارضة ما تفعل بل وطردها أحياناً من محل عمله، كانت تستغرب من جرأته في الحديث معها وكأنه لا يخشى الطرد من هنا، حتى عرفت بقرابته لصاحب المطعم.

بعد شهر من زيارتهن المستمرة للمطعم بخوف ورفض من رحيق وحماس من ميرا التي ستقابل البطل، وإصرار من ديانا التي تريد إذلاله، هو أيضاً كان يصر على خدمتهن بنفسه، لإثبات قوته أمام ديانا، والسخرية من الألمانية الحمقاء التي تقع في غرام أي عربي تقابله، والاطمئنان على الهادئة المستكينة، بل على المخادعة التي تتخفى حول مظهر بعيد تماما عن شخصيتها، اعتاد هو على رؤيتهن، حتى جاءت ميرا وديانا وحدهما ذات مرة، أثار الأمر ريبته وشعر بقلق غريب عليها، فكر في السؤال عنها فتراجع عن استخدام الإنجليزية المتعجرفة ديانا واطمأن لاستشارة الألمانية ميرا فهي تتمنى منه نظرة، وصل عندهما وقبل أن يتحدث ارتسم القلق بعنف على ملامح ميرا بينما كانت ديانا تحاول جاهدة أن تبقى هادئة، فقال لميرا :- أين صديقتكِ المُسْلِمة؟ مالي لا أراها اليوم؟

وقع قناع البرود والعجرفة الذي تتسلح به ديانا وهي تقول منفعلة :- يا إلهي يبدو أنني سأضطر إليك، أنت الوحيد الذي تستطيع مساعدتنا في الوقت الحالي؟

غارت عيناه ودق قلبه بعنف .. فوقفت ميرا تقول منفعلة :

- هلا تخليتِ عن عجرفة الإنجليز قليلاً، نحن في ورطة، لقد تأخرَتْ كثيراً وتعلمين أن جوش يسعى لينتقم منها بعد ما فعل أبيه فيه بسببها، لقد غيبها عن الوعي في المرة السابقة ونوى بالفعل أن يعتدي عليها ماذا تراه سيفعل بها الآن؟ وأنتِ تفكرين فقط في أنكِ ستتنازلين وتتحدثي مع هذا !! .. ثم التفتت لياسين تكمل :

- اسمع أنتَ أيضاً، رحيق في خطر، لقد هاتفتنا وأخبرتنا بأن ننتظرها هنا، ولما تأخرت هاتفناها مجدداً، نظنها قريبة من هنا ولكننا نعجز عن التصرف الصحيح، لا نعرف ما العمل؟

- هيا بنا!!

قالها بحزم وهو يتحرك للخارج ويخلع زي عمله سريعاً، فكر أنه طيلة هذه الأيام يعتبرها خبيثة تدعي ثوب البراءة، يعتقدها مدمنة للكحول وهي شربته عنوة، ظن فيها ما هو أبشع من ذلك حين رآها مع أولئك الشباب وقد كانت حينها مخطوفة، ولم تدافع عن نفسها يوما أمام أقواله المهينة .

قالت ديانا بتوتر :- اطلبيها ثانية ميرا!

- لا تجيب .. هاهي، لقد ردت، ألو .. ريكو .. أجيبي علي أرجوكِ ..

سحب ياسين الهاتف من يدها فسمع صوتها يرتجف وهي تقول : - ميرا تعالي بسرعة .. أنا أقف هنا لا أستطيع التحرك .. جوش يقف ينتظرني أمام المقهى الذي نلتقي فيه .. إنه ينتظر خروجي .. أرجوكِ تعالي بسرعة ..

- سنكون عندكِ بعد لحظات إن شاء الله، لا تقلقي.. قالها ياسين الذي سحب الهاتف من ميرا بحزم؛ فأغلقت رحيق الهاتف سريعاً عندما سمعت صوته الذي أجفلها.. بينما التفت إليهما يقول:

- أين ذلك المقهى الذي تجتمعن فيه؟

قالت ميرا بلهفة :- قريب من الجامعة ، يا إلهي سنأخذ وقتاً حتى نصل ..

أوقف ياسين سيارة أجرة سريعاً وهو يهتف :- هيا اركبا !!

في الطريق كان القلق يعصف بهم، ديانا وميرا كانتا تعلمان الخطر الذي يشكله جوش عليها، منذ رفضت الارتباط به، ثم فشله في إذلالها بسبب إنقاذ ياسين لها، أصبح يداهمها في أحلامها، ومترصد لها في واقعها، ينتظر أي فرصة تكون وحيدة فيها، بلا أصدقائها الكثر المحيطين بها في الجامعة، وصديقتيها اللتين يتنزهان معها، تأخرها عنهما اليوم بث القلق في قلبيهما، وصدق ظنهما. وياسين به رعب لا يعرف سببه، هو لا يعرفها لماذا يهتم لأمرها؟ ولماذا غضب من سوء ظنه بها؟ قد تكون كذلك وما المانع من فسقها؟ أليس المرء على دين خليله؟ وهاتان

الجالستان معه في نفس السيارة خير دليل على سوءها، إحداهما تتحداه وتأتي بالخمر معها في مطعم يمنع فيه الخمور والأخرى لا تتحرج من الإفصاح عن مشاعرها ومغازلته علناً، ما المانع إذاً أن تكون مثلهما؟

وصلوا المقهى ترجلوا سريعاً من السيارة، بينما ركضت ميرا وديانا نحو المكان، أطلتا بعيونهما فلم يجدا شيئاً، نظر حوله في الشارع المقابل للمقهى حتى وقعت عيناه عليها، واقفة مستسلمة لجوش. تجمدت الدماء في عروقه، وهو يراه يقبض على معصمها بيد وبالأخرى يمسك وجهها معنفاً وساخراً، وهي ثابتة لا تتحرك، لا تفعل شيئاً، اقترب منهما بسرعة، وخلفه كانت ميرا وديانا، بمجرد اقترابه رأى ارتعاش جسدها وبكاءها الصامت، تعلقت عيناها تستنجد به لما رأته، فصاح في جوش :- اتركها أيها النذل الجبان !!

وأبعد يده عنها بعنف، ثم لكمه في فكه بقوة فوقع أرضاً، بينما اقتربت ميرا وديانا منها يعانقانها فغامت الدنيا حولها وسقطت بين أيديهما!!

نظر لها ثم لهما، هل هو متورط بها؟ متى ينتهي ذلك الكابوس؟ فعل ما يجب فعله فأخذها للمشفى وترك جوش طريح الأرض ..

كانت نائمة على فراشها، وحولها يجلس الثلاثة، ينظر لها ياسين بقلق عاصف، لماذا تكون بتلك السذاجة؟ لماذا لم تصرخ ولم تستغِثْ؟ لماذا خرجت له؟ ولماذا استسلمت لمهاجمته؟ هل بكاؤها وأنينها سينجدانها منه؟ يا إلهي !! كيف تفعل بنفسها كل ذلك؟

تحدثت ديانا حتى تقطع الصمت المنتظر لإفاقتها وهي تقول :- نحن ندين لكَ بالكثير، لنعقد هدنة معاً لأجل رحيق.

ابتسم ابتسامة بطيئة وهو يسأل :- هل هي ساذجة لتلك الدرجة؟

ردت ميرا :- أكثر مما تتصور ! موت أحمد أثر عليها كثيراً ، إنه أخوها مات منذ أشهر قليلة.

وأكملت ديانا :- سذاجتها تلك تجلب لها المصائب دائماً.. وسكتت قليلا قبل أن تقول:- سأنصحك نصيحة لا تستحقها، ولكن قد تنفعك يوماً، ليس من حقك أبداً أن تحتقرنا أو تنظر إلينا بازدراء لأن ملابسنا لا تعجبك أو لأننا ندين بغير دينك، فقد قال الله في القرآن " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ " .. ألم تفكر أن معاملتك لنا هكذا قد تنفرنا من دينك مثلاً؟ سأعقد معك هدنة وأتغاضى عمّ فعلت لأجل نبلك معنا اليوم.

لم يرد عليها وقد فوجئ بترديدها لآية من القرآن، ثم نصحها له بدينه وليس بدينها، نظر لرحيق النائمة يعلو وجهها ملامح البراءة التي جرحت، وشعرها البني الكثيف المفرود جوارها باسترخاء، عاد بنظره لوجهها ليجد ملامحها تتقلص وعينيها المغلقتين تذرفان دمعاً. توترت ملامحه ورق قلبه وهو ينظر لشعرها المكشوف مفكراً في رد فعلها إن استيقظت وجدته أمامها ووجدت نفسها نائمة في وجوده! نظر لصديقتيها لماذا لم يهتما بأمر كهذا؟ لماذا فكا حجابها وتركاها هكذا دونه؟ شئ داخله أصر على الجلوس ليرى ردة فعلها، هل ستهتم حقاً لوجوده أم

لا؟ وشئ ثانٍ أراد أن ينتزعه من هنا، وثالث دعاه لأن يبقى للاطمئنان عليها. حدس غريب أتاه بأن ما يفعله ليس عيباً أو حراماً، وكأنه من محارمها، وكأن كشف شعرها أمامه هو الشئ الطبيعي.

ابتسم ليخفي قلقه المضطرم عليها، وهو ينظر لديانا ويقول :- لنفعل آنسة ديانا، وآسف على سوء معاملتي، وأشكرك على النصيحة، لم أكن أقصد أبداً أن أحتقركن أو حتى أهينكن .

تمتمت ميرا وهي تنظر لرحيق :- لو كان أحمد هنا، فقط لو كان حياً، لم يكن جوش ليؤذيها، كان سيحميها من كل شئ ، حتى من نفسها.

زادت دموع رحيق هطولاً وتبعتها شهقاتها بعنف عندما ذكر أحمد، لم تفتح عينيها وكأنها تهرب من واقعها، لتوها أفاقت وهي تسمع اسم أحمد يتردد في المكان، اقتربت منها ديانا قائلة :- لقد انتهى كل شئ، لم يحدث لكِ أذى، أرجوكِ انهضي، رحيق !! افتحي عينيكِ فقط، أنتِ هنا بخير.

فتحت عينيها واحتمت بين ذراعي ديانا التي ضمتها بعطف، واقتربت ميرا تربت على ظهرها، ضاعت في حالتها وبحثت عيناها في الغرفة عن سبيل، حتى وجدته، نظرت له وتوقفت دموعها فجأة، بقيت لثوانٍ قبل أن تستوعب هيأتها، قبل أن تشعر أنها بلا حجاب للمرة الثانية أمامه، ثم فجأة أخفت رأسها بين ميرا وديانا المحيطتين بها هامسة بأنين مكتوم :- أخرجاه من هنا، أرجوكما، أين غطاء رأسي؟ لماذا تفعلان ذلك بي ؟

وقف دون حديث وخرج، بينما هتفت ميرا :- لقد أنقذكِ ثانية، كما أنه على نفس دينك، ما الضرر إذا ؟

ربتت ديانا رأس رحيق وقالت: - لقد خرج، لا تقلقي من شئ، لقد نسيت هذا الأمر صدقيني ! .. فنظرت لهما ميرا ذاهلة وهي تقول :- ما الأمر؟ لماذا عليه أن يخرج؟

ردت ديانا من بين أسنانها :- اسكتي أيتها الغبية، صحيح لا تعلمين شيئاً عن دينك فهل ستعلمين عن دين غيرك ؟

ابتسمت ميرا وهي تنظر لرحيق تطمئنها ، وساعدتها ديانا في ارتداء حجابها ..

لم تشعربعدها بأي شئ، لم تشعر بوجود أبويها، ولم تشعر باعتذار أبيها لياسين وشكره، ولم تشعر بالقبض على ياسين بتهمة الاعتداء على مواطن أمريكي، لم تشعر بشهادة ديانا وميرا لصالحه، ومبيته في السجن لليلتين، خرج وقدم له أبوها وظيفة جيدة عندما علم بأنه مهندس، مشاعر أمها التي قلقت لأجلها، علاقة أبيها التي حاول أن يوطدها بها، قلق مالك الذي أخفاه وراء تمرده، وقتما بدأت الاتصال بمن حولها شعرت بالتغير الحادث، شعرت بحنان أمها لها أخيراً، شعرت بأن لها أب يفعل شيئاً آخر سوى تدليلها لتناسب حياته الاجتماعية، شعرت بأن لها أخ سوى أحمد ..

استمر ياسين في العمل بمطعم خاله مع عمله في الشركة، ما حدث في ذلك اليوم كان له أكبر الأثر في تغير نظرته نحو رحيق، ولكنها أصبحت من سئ لأسوأ، فأصبح يلومها على سذاجتها

وضعفها، يلومها على انتقام جوش منها، حتى جاءت إليه ديانا ونظرت إليه بجمود قائلة :- كنت تعرف، أليس كذلك؟

- ماذا أعرف؟

- كنت تعرف أنها محجبة ولا يجوز لك أن ترى شعرها، أو حتى أن تجلس معها في نفس الغرفة لأن دينكم ينهى عن ذلك.

توتر وحافظ على ملامحه الجامدة وهو يقول :- نعم كنت أعرف!

زفرت بضيق قائلة :- يا إلهي ! لا تصلح الهدنة معك أبداً !

وتركته، بينما شعور الانزعاج لازال يلازمه، لم يكن من الأدب جلوسه معها، حتى أنه لم يخبر أمه أنه فعل، يعلم أنها كانت ستلومه أشد اللوم، وهو لا يطيق غضبها منه ..

اعتقد أيضاً أنه يوماً سعيداً ذاك الذي أتته فيه تشكره، وقفت أمامه بتوتر بدا جلياً في تلعثمها وهي تقول :- اه .. أنا آسفة .. لقد سببت لك العديد من المشاكل .. وأشكرك بشدة على ما فعلته معي .. تقبل اعتذاري لو سمحت .. أنا .. أنا .. أنا لم أقصد أن أورطك معي حقيقة ..

ابتسم قائلاً :- رغم أنني قضيت ليلتين في السجن، ووجعت قلب أمي، وعاقبني خالي بتنظيف المطبخ كله ليومين، لكن لاتبالي بما حدث، فلو كان أحد غيركِ لفعلت، لست السبب فيمَ حدث، كما أنني حظيت بوظيفة في مجال عملي وفي شركة كبيرة كشركة والدك، وهذا ما كنت لأحلم به يوماً ..

تلعثمت أكثر وهي تقول :- ولكن أبي يقول أنك أتعبته حتى وافقت ..

شعرت أن توترها بلغ نهايته وأن وجهها اشتعل سخونة وعيناها التي لم تفارق الأرض ستخونها لا محالة فقالت :- أعتذر مرة أخرى ..

وولت بسرعة لولا صوته قال :- ولكنكِ مازلتِ مدينة لي بشئ ..

التفتت تقول بتوتر :- ما هو ؟

- لقد أخذتِ وشاح أمي عندما ..

قاطعته وقد بدا الخجل والانزعاج على ملامحها لذكر تلك الليلة، وقالت :- أنا آسفة سأعيده إليكَ.

وفرت من أمامه هاربة، بينما جاءته ميرا بعدها قائلة :- ياسين أنتَ بطل رائع، أعتقد أن العرب كلهم مثلك، أليس كذلك؟

أغمض عينيه قائلاً بسخرية :- بالطبع نحن العرب كلنا أبطال فرطنا في أراضينا ..

فقالت :- لماذا تقول ذلك؟ أنتم بالفعل أبطال!!

- بل العرب همج متوحشون وإرهابيون أيضاً .. قالها ليتخلص من التصاقها به، فقالت مندهشة :- حقاً ..

أكد بتصميم:- حقاً ..

- ولكنك لست مثلهم !

رفع رأسه هاتفاً :- يا إلهي ألن أتخلص من ثلاثتهن!.. ثم نظر لها قائلا :- في المرة السابقة قضيت يومين لا أفعل شيئاً سوى تنظيف الأطباق، لست مستعداً لفعل ذلك ثانية ..

ابتسمت قائلة :- مهما ادعيت ضيقك منا، أعرف أن أمرنا يهمك، وليس بعيداً أن تفكر في الزواج من ثلاثتنا.. وتركته كما فعلت السابقتان ..

****

أصبحت رؤيته لهن مستمرة، في المطعم وفي الشركة التي يعمل بها حيث أصر عمر على تدريب ابنته على العمل معه بحكم دراستها لإدارة الأعمال، وتقدمت ديانا للعمل كسكرتيرة حتى تشغل وقتها، وتجني المال الذي يساعدها على دراستها وهواياتها المتعددة، أما ميرا فقد كانت ملاصقة لهما لا تفعل شيئاً سوى التصوير وفرض وجودها على ياسين والتوفيق بينه وبين رحيق.

واختلاطه بميرا وديانا كان دائماً وكثيراً، بينما رحيق دائماً ما كانت تنأى بنفسها عنه، كانت وحيدة شاردة الذهن، لا تتحدث معه كما تفعل الأخريتان ولا تقترب منه، فكل منهما كانت تراه فرصة، ديانا ترهقه في جدال ديني ليس أهلا له، وميرا ترى فيه الفارس العربي الذي تتمناه، أما هي فلا ترى فيه أي شئ ..

هي دائماً خائفة فاقدة للثقة فيمن حولها، حديثها قليل وابتسامتها متوترة، فأصبح يفرض نفسه عليها باختلاق الحجج كي تتحدث معه، كل مرة يجب أن تكون حجته العمل، لن تتحدث معه خارج الأمر، لن تتعاطى معه في الحديث سوى لضرورة، وحتى هذه الضرورة يكون في عينيها خوف عميق، فلجأ لطريقة أخرى وهي استفزازها فتدافع عن نفسها فتقوى، وبدأ بالحديث معها خارج إطارالعمل كأن يذهب ليخبرها قائلاً :- هلا قبلتِ دعوتي للغداء !

تقف فزعة وتبتعد قائلة :- أنا آسفة، لا أستطيع !

لم يضغط عليها، لأنه لم يكن ليفعل وينفرد بها حتى لو وافقت، فقط أرادها أن تتحدث بلا خوف، وتوالت محاولاته.

- أريد شراء هدية لأمي .. هلا ساعدتِني في الأمر؟

- أنا آسفة .. تستطيع الاستعانة بميرا أو ديانا ، لهما خبرة في الأمر أكثر مني.

كل مرة يدخل عليها في مكتبها ليختلق حواراً، وأحياناً كان يدخل في أوقات الصلاة ليجدها تصلي، فيتراجع وتفكيره يزداد بها، ما الذي يجعل حياتها تائهة ضائعة هكذا؟ هل كان تعلقها بأخيها تعلقاً مرضياً؟ رغم أن رؤيتها تصلي آمنة مطمئنة كان يهدئ روعه قليلاً ..

ولما لم تفلح حيله في الأمر، لجأ لطريقة لم يكن أبداً ليفضلها، ولكن هناك شئ ربط قلبه بها، جعله يتوق للاطمئنان عليها وجعلها قوية يعتمد عليها تستطيع على الأقل حماية نفسها، فاختلف حديثه معها كأن قال لها ذات مرة :- لماذا لم تتخذي صاحباً كما تفعل ميرا وديانا؟

- لأنني مسلمة .. قالتها بسرعة فسكت ..

ماذا يفعل حتى تغضب، تصرخ، تستنجد حتى بأبيها فيطرده من عمله؟ لماذا تضع نفسها دائماً موضع المذنب؟ لماذا تكثر الاعتذار؟ تهور وعلم أنه تهو، وما كانت أبداً أخلاقه أن يلجأ لذلك فقال :- وعندما تركتِ جوش يهاجمكِ كنتِ مسلمة ، وعندما شربتِ الخمر كنتِ مسلمة ، بالله عليكِ هل أنتِ صغيرة جدا أو بلا عقل لتشربي شيئاً لا تعرفينه ..

تجمعت الدموع في عينيها فازداد غضبه قائلاً :- وهل تعتقدين أنني سأصدق دموعك، هنالك ممثلات بارعات في هذا الأمر، وما أدراني أنكِ تخفين خلف حجابكِ وزي البراءة الذي تظهرينه خبثاً لا يعلمه إلا الله.

بدأت ترتعش ولم ترد عليه ولا يعرف كيف كبح ثورته وهو يقول :- ماذا ستفعلين لو آذيتكِ الآن أو تعرضتُ لكِ وأنتِ وحيدة هنا لا حول لكِ ولا قوة؟ .. ولا تمتلكين سوى بكائكِ .. هل تلك الدموع ستنقذكِ مني؟

أحاطت نفسها بذراعيها كأنها تحتمي منه، لا تعرف ماذا حدث له؟ لقد خَالتْه مهذباً، ولكنها رأته أسوأ مما ظنت، بينما مسح رأسه بيديه وقد يئس منها، ماذا يفعل لها حتى تجيد الدفاع عن نفسها، ولسوء حظه لم يجد أمامه سوى ديانا،رغم اختلافهما إلا أن أحدهما يثق في قدرة الآخر على تصحيح الأمور دائماً. لكن صدمه سؤالها :

- ولماذا تهتم لأمرها؟ ألم تخبرني قبل أنك لا تلعب بعقول الفتيات؟

زفر وهو يقول :- بلى ولكنني لن أكون موجود دائماً لحمايتها، كما أنكِ تدَّعين حبكِ وصداقتكِ لها و لم أرَ أثرَ ذلك عليكِ.

ابتسمت وهي تجلس خلف مكتبها قائلة :- تعتذر لها أولا عما فعلت!

- هل رأيتِني؟

- بالطبع هي من أخبرتني!

- موافق ..

- الخطوة الثانية أن تتجنبها مطلقاً ولا تشعرها بوجودك حتى، تجاهلها إن استطعت .

فكر لثوان ثم قال :- وهل هذا هو الحل، هل ستستطيع الدفاع عن نفسها بتلك الطريقة؟

- اترك الأمر لي، أعدك أنني سأساعدها على تخطي مخاوفها!

أومأ وخرج وعند الباب التفت لها قائلاً :- وأنتِ ديانا متى تتخطين مخاوفك ؟

توترت وهي تجيب :- أعتقد أنه قريباً جداً أستطيع !

ابتسم وهو يغادر مكتبها تاركاً إياها في حيرة لا تنتهي !!

****

خوفها زاد، فأصبحت تخشى الحديث مع والدها مفرط العصبية، تكتم حزنها عن أمها، لا حديث بينها وبين مالك سوى كلمات قليلة قالها تعبر عن غضبه يوم كانت في المشفى، لا تنكر السعادة التي شعرت بها لما رأت غيرته عليها، تعلم جيداً كيف انتقم من جوش ورغم خوفها من سوء فعله وخوفها على مالك، إلا أنه أحسن التصرف ..

هي في عزلتها ومالك في غرفته بعزلته، تذهب لجامعتها وعملها بسيارة وسائق خاص فأصبحت رؤيتها لميرا وديانا قليلة، وتحولت عزلتها إلى سجن، حتى اقتحمت ميرا وديانا حياتها وأشركتاها معهما في التصوير إذ قررتا إقامة معرض لعرض تحفهن الفنية والصور التي التقطنها والتي تعلم كل منهن كم قيمتها ومدى روعتها ..

تحولت رحيق تماماً، إذا انصب اهتمامها على شئ تعشقه، وعادت رحيق مشرقة كما كانت قبل موت أحمد، تحمست كثيراً لفكرتهما وأمسكت آلة التصوير خاصتها ثانية ولم تعد تفارقها ..

ياسين نفسه شعر براحة غريبة عليه لرؤيتها كذلك، وحاول تجنبها كما وعد ديانا رغم صعوبة الأمر عليه، أصبحت منطلقة دائمة الابتسامة، ولم يعرف السر في ذلك. وحين انتهين من التنظيم جاءته دعوة للحضور، أخذ أمه مرافقة له، عرفت رحيق سريعاً ولحظت تغيرها، وأخذها الحديث معها، بينما اندهش هو من موهبتهن وأثنى عليها ، ثم رحلا ..

بقيت رحيق مع ميرا وديانا حتى انتهين، وغادرت معهما لشقتهما التي يستأجرانها، كان الوقت متأخر حين قررت الرحيل فسألتها ميرا :- وهل شوارع لوس أنجلوس آمنة ليلاً ؟

ردت رحيق بتوتر وخوف :- بعض الشئ ..

فقالت ديانا التي أمسكت بيدها كأساً تتجرع منه خمراً :

- ابقي معنا هذه الليلة، لن يعرف أبوكِ بالأمر!

قالت رحيق بغصة :- أعلم ! ثم أكملت وهي تهم بالخروج :- طابت ليلتكما ..

أوقفتها ديانا قائلة :- اعتني بنفسكِ جيداً ..

ردت وهي تغادر :- وأنتِ أيضاً ، اتركي الخمر قليلاً ، سيؤذيكِ إدمانكِ له ..

وسارت في الشوارع متوجسة، لم تأتيها السيارة التي خصصها لها والدها، ولم يهتم هو بانتظارها، حاولت الاتصال بمالك ولكنه لم يجِبْ على اتصالاتها، سارت تتلفت في خطواتها

حتى داهمها المطر، لو كان في وقت آخر لركضت تحته سعيدة ولكن الآن زاد توترها. ووقفت، لم تستطع التحرك أو التصرف، زادت محاولاتها في الاتصال بمالك، ولم تجرؤ على مهاتفة والدها، خشيت أن يعاقبها أو يتجنبها كما قبل؛ في الحالتين موتها!! أين أنت يا أحمد؟!

رحل أحمد فلا تفكري به الآن، يجب عليها التحرك من هنا، يجب أن تتصرف، سارت خطواتها البطيئة، تقف بين الخطوة والأخرى تنظر حولها، أغرقها المطر وبدأت ملابسها تلتصق بجسدها، فأسرعت خطاها لتصل، لولا شعور بالدفئ غزاها فجأة وصوت تعرفه يقول :

- لأنكِ مسلمة ، لا يجب أن تلتصق ملابسكِ بكِ هكذا!

رفعت نظرها له ببطء وهي تراه يضع معطفه على كتفيها فقالت :- ابتعد عني .

ابتعد ياسين بعد أن وضعه عليها قائلاً :- هيا بنا، يجب أن تصلي للبيت في أقرب وقت، ماالذي أخركِ هكذا؟

سارت جواره وهي تتلمس الدفء من معطفه الذي لم تستطع رفضه بسبب حاجتها إليه، ثم قالت :- أخشى أن تمرض بسببي ..

قاطعها قائلاً :- لا تقلقي اعتدتُ على المصائب مذ عرفتكِ ..

اعتصر قبضتيه بشدة، فقد كان جالساً مع أمه حين شعر بقلق غير طبيعي، نظر لأمه الباسمة وتأكد أنها بخير، فذلك الشعور لا يأتيه إلا عندما يصيبها ضرر، ثم شعر بأنفاسه تضيق من القلق فاستأذنها للخروج قليلاً، طالما أمه بخير وخاله بخير لماذا أتاه هذا الشعور؟ لا يعرف أحداً سواهما؟ ولا يهتم بسواهما؛ وعند ذكر الاهتمام تذكرها، سبب نكباته وسعادته، فأخرج هاتفه سريعاً يحادث ديانا فردت ميرا وأخبرته بما حدث، ووجدها أخيراً، وعاجزة عن حماية نفسها كما اعتاد منها. هدأ وهو يسمعها تقول :- آسفة لم أقصد ..

تنهد وهو يقول :- هلا توقفتِ عن اعتذاراتكِ التي لا تنتهي، أخبرتكِ قبل أنني كنت لأفعل لو كانت أخرى مكانك.

أومأت وهي تكرر :- أخشى أن تمرض ، أنا حقاً آسفة ..

صرخ بها :- يا إلهي توقفي عن اعتذاراتكِ تلك، إن كان الأمر يزعجكِ لتلك الدرجة اخلعي المعطف وأكملي سيركِ بملابس تكشف جسدكِ..

تراجعت خائفة ، وفي نهاية حديثه قالت :- ليس من حقك أن تتهمني بتلك الاتهامات، لم يعد سوى أن تكفرني حتى يهدأ بالك، وأشكرك على إنقاذك لي في كل مرة، وآسفة حتى وإن لم تتقبلها، فأنا آسفة على المصائب التي سببتها لكَ، كان لي أخ منذ أشهر لا يجعلني بحاجة لأي غريب، وكان يحافظ عليّ حتى من نفسي، فلا تشعرني أنني تائهة من بعده، أنا لم أطلب أبداً مساعدتك، قادرة أنا بما يكفي لحماية نفسي ..

- اركبي حتى نصل بسلام ..

ركبت السيارة التي أوقفها .. ثم في الطريق قال :- أتمنى أن تكوني كما قلتِ ..

وسكتا حتى وصلا ..

****

لوس أنجلوس ٢٠١٣

طرق الباب بلطف قبل أن يؤذن له بالدخول، وقفت عندما رأته وقالت بمهنية :- هل لديكَ موعد؟.. فجلس ياسين مقابلها وهو يقول :- أريد الحديث معكِ بشأن سيف إن سمح وقتكِ .

- وقتي لا يسمح ..

- خمس دقائق فقط ..

جلست وهي تقول :- ماذا تريد ؟

- كيف بترت قدمه ؟!

٨

في واشنطن

هناك في العالم بقعة تتمنى لو تختفي فيها، بل تدفن حية، هناك في أسفل الأرض مكاناً لها، حياة تهرب منها، وسؤال يتردد في عقلها، هزت قدمها بتوتر وهي تجيب على سؤاله :- لسنا في حاجة لشفقتك، أو شعورك بالألم، لقد تجاوزنا الأمر بسلام .

- إنه ابني!.. قالها جزعاً..

أمسكت قلمها لتطرق على وريقات أمامها، متشاغلة عن النظر إليه قائلة :

- الأب يربي، لا ينجب ويهرب، أبوتك له مجرد اسم خلف اسمه في أوراقه الشخصية، لا تعطيك الحق في معرفة أي شئ عنه أو الاقتراب منه، وأعتقد أنني لم أمنعك من رؤيته بعد أن وجدته فجأة صبياً، ابني ليس بحاجة إلى أب لم يسهر لراحته ولا تألم يوماً لألمه.

لقد كان يتميز عادة بهدوء أعصاب أمام هجماتها ومازال، رد وكأن لم تقل شيئاً :- كيف بترت قدم ابننا يا رحيق؟؟

توقفت حركة قدمها، وتركت قلمها، أغمضت عينيها ببؤس، وكأن الذكرى كفيلة ببث الخوف بين جنباتها، معاناة دائمة وألم لا ينتهي، صراخ طفل يعرف الدنيا منذ عدة أشهر، بكاء لا ينقطع، أطباء عاجزون، أمل أم لا ينبض قلبها سوى لأجل حياة وليدها، رجاء ويدٌ تتضرع لله أن انقذه، أيادٍ تربت عليها تحملي قليلاً، طبيب جاء من عتمة اليأس؛ الحل أن نبتر قدمه، موافقة بلا تردد إن كان في ذلك راحة لرضيعها، أيام طويلة تسهر على راحته، ظهور نور بعد ظلمات، ابنها يعيش بطبيعية مرة أخرى، ضحكات تتسارع للظهور، تمتمات شكر، صدقات تخرج، سيف حي!! لا صراخ ولا ألم بعد الآن.

- كم كان عمره؟

- ستة أشهر.

سحبت نفساً عميقاً وكأنه هواء الغرفة كلها، تحاول استعادة فيه قوتها بعد لحظات ضعف لم يكن لها بد من الظهور أمامه. بدا صوته محشرجاً مهموماً، هو الآن ليس بأب، لم يكن معهما ولم يطمئنهما، لم يكن جوارها، تخلى عنها وعن ابنه في وقت كانا في أشد الحاجة إليه، عليه أن يعوضهما غيابه، ويعوض ابنه يتمه الذي شعر به في وجوده فقال :- وكيف يعيش حياته الآن؟ هل الأمر يشكل له أي ضرر؟

أشارت برأسها أن لا، فقال :- هل يؤلمه ؟

كررت إشارتها فقال :- عانيتِ كثيراً!!

ابتسمت لتقول بثقة :

- لقد منحني الله قوة لأتحمل، لم أشعر يوماً بحاجتي لأحد غيره، الحمد لله، كما أنني لست في حاجة إلى مواساة أو تعاطف معي أو ابني، لقد انتهى الأمر بأقل الخسائر، لقد بتر جزء بسيط من ساقه فقط . الحمد لله، الحمد لله .

دخل أحدهم عليهما وهو يقول مبتسماً :- السلام عليكم، كيف حالك أم سيف ؟

وقفت بتوتر لما عرفته من وصف أبيها له، وملامحها تتقلص خوفاً :- بخير حال، السيد عمر ينتظر وصولك، تفضل !!

أشارت له بيدها التي كانت تهتز تبعاً لحالة التوتر التي اجتاحتها، ثم تقدمته فدخل خلفها. لم يطُل مكوثها معهما بالداخل بل خرجت سريعاً بحال أسوأ مم دخلت به، فوجئت بياسين مازال جالساً، فأخذها الغضب تجاهه، هو السبب فيمَ آل إليه حالها، هاهي ستتزوج رجلاً لا تريده، لأجل التخلص من تفكيرها فيه فقط، لأجل قتل حنينها وشوقها إليه، لا تريد البقاء وحدها، لا تريد أن يخرج مازن فيجدها وحيدة فيحدثها وهي لا تطيق سماع صوته. ليت ياسين يبقى معها، لا يفعل أي شئ سوى أن يطمئنها أنه سيبقى جوارها للأبد، قبل أن تنطق قال :- أريد مقابلة السيد عمر، سأنتظره حتى ينهي لقاءه .

أومأت ولم ترد، فحالتها لا تسمح بأي شئ، أصبحت شاكرة له، لقد شعر بما تريد، جلست خلف مكتبها فقال :- هل سيستمر لقاءه بالسيد مازن لأكثر من ساعة؟

صدمتها معرفته به، فنظرت إليه لتجد في عينيه ما أربكها، تزايد غضبها عليه، لماذا لا يبالي بزواجها بغيره؟ لقد انتظرته لخمس سنوات، بل لم تستطع الزواج بغيره، أو حتى الارتباط بأي شخص وعدها بالحفاظ على سيف الذي اتخذته حجة لرفضها..

قالت :- لا أعرف، إن انتظرت خروجه فلو سمحت دون حديث لأن لدي عمل لم ينتهِ بعد .

فابتسم مستجيباً لطلبها، بينما قالتها ثم وضعت وجهها بين يديها تخفيه، يجب أن تنهي هذه المهزلة، إن رفضت مازن لا يستطيع أحد إجبارها على الزواج بياسين، سترفضه وينتهي الأمر، لقد حذرها مالك قبل سفره من فعل ما لا تريده، لن تضر إلا نفسها وهي تعلم .

- هوني على نفسكِ!

أبعدت يديها ثم نظرت إليه بغضب :- ماذا قلت؟

رفع كتفيه وهو يقول مستنكراً ذاهلاً :- لم أقل شيئاً !

وقفت بسرعة وتركته في حيرته منها لا يدري ماذا حدث وخرجت ، ستقتل صوته الذي يتردد في عقلها، ستتخلص من تأثيره عليها، ستتزوج !! يجب أن تتزوج !!

****

غرفتان في فندق بينهما باب، يتركه مفتوحاً من جهته لتتحكم هي فيه، شارد الذهن منذ وصل، يتذكر مشاجرته مع أبيه قبل سفره عندما علم بتدخله في ما فعلت ليندا، يوجعه بشدة ما قاله له، انجذبت إليه بسبب ثراءه. وعليه أن يحافظ على الثروة !! عاش عمره كله يجمع الأموال لأجل أبنائه وقد مات أحدهم ، فلن يتنازل عن الأُخريين .

تصدمه الحقيقة، ليندا لم تحبه، بل أحبت ثراءه، أحبت أمواله التي يكرهها، يخبرها أبوه أنه محروم من ميراثه فتهجره، حتى لو فعل عمر ذلك لأجله، وحتى لو صدق ظنه في ليندا ،سيبقى الأمر مؤذٍ له، سيصدمه أن المرة الأولى التي اختار فيها مساره فشل، وأبوه يثبت له أن تحكماته وأوامره هي الأصلح له .

ثم نقاشه الحاد مع رحيق لنفس السبب وأيضاً أمر زواجها، ولم يهاتفها أو يرد على اتصالاتها منذ أتى هنا، ثم مقابلته لليندا، اعتذاراتها الكثيرة، ندمها على ما قالت، شعوره بالغضب من نفسه، فقلبه مازال ينبض لها بعد ما فعلتْ، ولكنه أبعدها عنه، لا يريد لتأثيرها عليه أن يظهر، لا يريد أن يسامحها ولو ترك نفسه لها لفعل، سافر مع بنان ولم ينطق بكلمة واحدة طوال الرحلة، وصلا للفندق، وحجز غرفتين لهما متجاورتين يفصلهما باب، هو في غرفته شارد ساهم، لا يشعر بشئ ..

أما بنان فأصابها ملل من رتابة إقامتها، ودعها صديقاها وحذراها من تمردها، ولكنها لن تتوانى في الوصول لأمها، لا بد أن تعرف ما الذي يمنعها عنها، لقد عاشت حياتها كلها تعتقد أنها ماتت ، لولا كلمات أبيها لها. تركت غرفتها واتجهت نحو غرفة مالك، قد يؤنس وحدتها شجارُهما حتى، ولكنها تراجعت عن تلك الخطوة بسبب تذكرها لما حدث بينه وبين أبيه ورحيق، ثم أشفقت على حاله، فقررت الذهاب إليه للتحدث معه لإلهائه عن التفكير.

لقد انشغلت في التفكير به كثيراً في الفترة الماضية ، قد تكون سعيدة بسبب ما يفعله لأجلها، وبسبب شعور الأمان والحماية الذي يوفره لها، إحساسها بأن لها راعياً مسئولاً عنها، وظيفته في الحياة حمايتها، الحفاظ عليها حتى من شذوذ أفكارها، قد تكون شعرت بأبوته لها وقد افتقدت

هذا الشعور في حياة أبيها، أو شعرت به صديقاً لها كجاك وليو، أو شعرت أنه أخوها مثلاً وقد أصبح أقرب إليها من قربه برحيق.

يؤلمها ما آلمه بسبب ليندا، لم تصدم فيها، وقد تكون فرحت بخروجها من حياته، ولكن صدمته توجعها بشدة، لم تتعود أن تنكر جميل أحدٍ عليها، ومالك لم يفعل شيئاً كبيراً لها، ولكنه كان يسمعها طويلاً دون إظهار إزعاجه، وهي تعلم أنه ينزعج منها ومن صراخها وتمردها ولكنه لا يظهر ذلك، أخيراً وجدت من يحترم عقلها وتفكيرها حتى وإن وصفه حمقاً، ولكنه ناقشها فيه رغم جهله بجدالها، لا أحد يعرف قيمة مالك غيرها، رغم قصر مدة معرفتها به، فهي أسابيع قليلة، إلا أنها أصبحت تعرف عنه الكثير، توتر علاقته بأبيه، ضعف علاقته بأمه، قوة علاقته برحيق .

قررت الذهاب إليه وقد أصابها غضب بسبب طول تفكيرها به، فقررت أن تزعجه انتقاماً. وقفت عند الباب الذي يفصل غرفتيهما وترددت في فتحه أو الاستئذان أولاً، لدقائق قبل أن تفتحه وتدخل، وقفت تنادي خشية أن يطردها، فسمح لها بالدخول بصوت مرهق تعِب لاحظته. أخذتها به الشفقة ثانية واقتربت منه لتجده جالساً على الأرض جوار سريره مستنداً بظهره عليه ويرفع رأسه للسقف. كان البؤس جلياً على ملامحه ، بعض الشعيرات التي نمت على ذقنه بغير تهذيب، شعره الأشعث، وعيناه الحمراوتان، تحولت عيناها لعطف عليه وهدأت ملامحها، ثم اقتربت منه وجلست جواره أرضاً ورفعت رأسها للسقف كما يفعل، ثم قالت :

- هل تعتقد أن اللون الأبيض أفضل لطلاء الأسقف أم اللون الأسود ؟

انتبه فنظر لها وهو يقول :- ماذا ؟

فقالت مشيرة :

- أنا أعتقد أن اللون الأسود أفضل، وقد يرسمون بعض النجوم هنا وهناك القمر وهنا أيضا قد تكون كواكب وهمية، وممكن اللون الأسود يختلط به الأبيض، أعتقد أنني أمتلك ذوقاً راقياً ..

نظر للسقف الأبيض وهو يستمع لها، وحين انتهت قال بابتسامة جانبية لم تملأ وجهه :

- وأنا أعتقد أن ما لديكِ لا ينتمي للذوق في شئ.

نظرت له وابتسمت قائلة :- ها ، قد ابتسمت أخيراً ..

ثم ضربته على ذراعه قائلة :

- ماذا دهاك أيها الغبي المتعجرف الجلف الأحمق، كيف تتركني وحيدة كل هذه المدة؟ هل جئت هنا لتعاقبني؟ ثم أن السقف ليس فيه شيئاً لتتأمله وتتركني، تأملني أنا، فأنا أجمل من هذا السقف بالتأكيد !!

ضحك بشدة وهو ينظر لها وكأنه نسي كل شئ ثم قال :

- في المرة القادمة سأقطع لسانكِ قبل أن تشتمي، وبالنسبة للجمال فأنا أعتقد أن السقف أجمل بكثير. وهل أترك خلوتي لتأمل صديقي؟ الرجل عادة ما يتأمل امرأة جميلة، أما أنا فلا أرى امرأة ولا جميلة ..

تجاوزت كل ما قاله رغم أنها لا تنكر حرجها واضطرابها، لم تبدِ غضبها أو ضيقها، ولم تظهر مشاعرها التي انتفضت لذمه ، فقالت :

- أنا أعرف جيداً أنني امرأة جميلة، ولكن حين أريد أن أكون سأكون، بالطبع لن تراني جميلة وأنا أرتدي سروالاً وقميصاً كالذي ترتديهما، وأنت تراني أتعامل معك معاملة رجل لرجل، ولكن مالا تعرفه أنني أفعل ذلك لأحمي نفسي ..

أعجبته فكرة أن ينشغل بهموم شخص آخر لينسى همومه فقال :- ممن تحمين نفسك ؟

- يبدو أنني وقعت بلساني ولن ننتهي، أنا أريد حماية نفسي عندما كنت أعمل مع الرجال، لا أختلط بالنساء تماماً، فكان عليّ إظهار أنني كأي رجل، ولذلك أيضاً تعلمت فنون القتال، وبرعت فيها.. ثم تنهدت لتكمل بألم :

- ورغم كل ذلك لم أستطع إلا أن أبقى فتاة ضعيفة .. كم أكره ضعف الفتيات وأكره أن أكون مثلهن ..

تنهد هو الآخر وهي تنهي حديثها، يشعر بمدى السوء التي عاشت فيه، وأي قسوة تجرعتها، خاف من أن يستفسر أكثر فتصدمه معرفة ما وصل تفكيره إليه، لا يريد لقوتها أن تنهار إن تذكرت أو قالت شيئاً تود نسيانه.

رن هاتفه فنظر كلاهما إليه ، ثم ظهر الامتعاض على وجهه وهو يقف قائلاً :- لنقف في الشرفة قليلاً .. فوافقته وهي تقف بدورها قائلة :- ألن ترد على هاتفك، إنها رحيق !!

أشار برأسه أن لا وهو يتجه لوجهته، فسارت معه، قبل أن يقول :- لا تمتلكين هاتفاً؟!

- نعم!

ابتسم مكملاً :- ما رأيكِ في الذهاب لشراء واحد لكِ، سنذهب لأمكِ في الغد وقد تقيمين عندها وننفصل، أريد الاطمئنان عليكِ من فترة لأخرى ..

عبست قائلة :- ليس معي ما أشتري به ، كما أنني ..

قاطعها قائلاً :- قد تكون آخر هدية بيننا .

نظرت له لثوانٍ ثم ابتعدت بنظرها لشئ آخر غير تأمل ملامحه التي أدمنتها وهي تقول :

- ولكن .. ولكنني لا أجيد التعامل معه.

ابتسم وهو يمسك يدها يجرها خلفه للداخل نحو غرفتها قائلاً :

- سأعلمكِ كل شئ .. هيا بدلي ملابسكِ سريعاً قبل أغير رأيي .

تركها فوقفت وقد فغرت فيها، رمشت بعينيها لعدة مرات متتابعة ثم نظرت له، وبعد نظرت ليدها التي كانت في يده الآن، ثم أغمضت عينيها بشدة وهي تحرك رأسها كأنها تنفض تأثرها به فقال :- ماذا حدث لكِ؟ هيا ادخلي. ورجاءً أظهري لي أنكِ فتاة، لا أريد أن أصطحب رجلاً لنزهة معي ، هيا ..

قالها وهو يدفعها لداخل غرفتها، ثم يغلق الباب، وقفت مأخوذة بما حدث لبعض الوقت ثم تحركت كأنها مبرمجة لفعل ما قال.

كل ملابسها التي اشتراها لها، كانت كالتي ترتديها ملابس رجولية، سوى من بعض الأشياء التي لم تفضل النظر إليها حتى، وأخفتها في أغلفتها كما هي، بحثت عنها فوجدتها، أخرجت إحداها وارتدتها. نظرت لنفسها في المرآة، شعرت أنها تنظر لأخرى غريبة عنها ، فستان ينسدل على جسدها بحرية يضيق من عند الخصر ليتسع أسفله بأريحية ويغطي ساقيها، ذات أكمام طويلة ، مفتوح بعض الشئ عند الرقبة ، اتسعت عيناها بشدة وهي ترتدي لوناً غريباً عليها ، لون السماء غريب عليها جداً وهي اعتادت على ارتداء كل ما هو أسود أو يميل للسواد. ترتدي الألوان القاتمة كحياتها ، لم يعجبها شعرها ، فمشطته ، لا تعرف عن زينة النساء شيئاً ، فخشيت أن تستعمل شيئاً من الموجود أمامها فتفسد مظهرها، ارتدت حذاءاً غريباً عليها هو الآخر بكعب يرتفع عن الأرض قليلاً، وحقيبة رقيقة مرفقة بالفستان.

ذهبت إليه وهي تشعر برجفة تسري بها، طرقت قبل أن تدخل وكأنها تمهد لنفسها، كان منشغلاً بهاتفه فلم يرفع نظره إليها بعد مما أعطاها فرصة لتأمله وقد أصبحت ذقنه حليقة وهندم نفسه ورتب شعره، رفع نظره إليها فابتسم مندهشاً وهو يقول :- أصبحتِ فتاة رائعة.

حاولت أن تهرب من حرجها بهجومها قائلة وهي تشير لفستانها :- ما هذا؟ لم يكن ينقصني سوى غطاء لرأسي حتى يكتمل الاحتشام الذي فرضته عليّ .

اتسعت ابتسامته وهو يقترب منها قائلاً :- إن لم يعجبكِ اختياري فأنا آسف، في الحقيقة لم أختَر ملابس للفتيات من قبل، فاخترت لكِ شيئاً كالذي أراه على رحيق .

على ذكر رحيق قالت :- ألن تجيب اتصالاتها؟ تعلم كم هي قلقة عليك الآن ..

- ليست قلقة عليّ ، ولن ينشغل بي أحدٌ .. ثم مد يده لها قائلاً :- هيا بنا !!

بتردد وخوف أعطته يدها، تخشى من تلك المشاعر التي تغتالها لمجرد أن تحتضن كفه كفها، ذلك الاضطراب الذي يبعثرها تماماً، خطواتها التي بدت متوترة جوار خطواته الواثقة، عند الباب جعلها تتأبط ذراعه فسحبت يدها قائلة بهجوم :- وكأنك ستخرج مع فتاتك !!

ابتسم كما يبتسم دائماً عندما تهاجمه، ولا يدري ما الذي تفعله ابتسامته تلك بها، وقال :

- كوني فتاتي لليوم فقط، ما رأيك ؟!

استسلمت له وهي تعلق يدها على ذراعه، ومجرد الفكرة بأن تكون فتاته تخجلها بعنف، تبعثرها وتجعلها شخص آخر، ليست بنان التي تعرفها، وإنما أصبحت امرأة حمقاء كعادة النساء،

أصبحت ضعيفة لرجل كأي امرأة غبية. ولكنه مالك !! مجرد التفكير بأنه مالك يسعدها، مالك ليس ككل الرجال الذين تكرههم، ليس سيئاً، بل هو مضطهد مثلها ..

خرجا وعمل على إسعادها طوال اليوم، كان يريد أن يشغل تفكيره بها، معها فقط يشعر بأن له قيمة في الحياة، يشعر بسعادتها بسببه فيفرح، تشعره أنه أمانها وحمايتها فيطمئن، مازال في الدنيا شخص يشعره أن مالك موجود، يستحق أن ينظر إليه، وأن يحيا كما يتمنى ..

اشترى لها هاتفاً وأشياءاً عدة، تناولا طعامهما في مطعم هادئ، عادا مرهقين في نهاية اليوم، ورغم ذلك أصرت على أن يعلمها كيف تستخدم الهاتف، بدأ يعرفها سعيداً بملامح وجهها التي تكتشف شيئاً جديداً، حتى انتهى أخيراً قال :- أريد النوم ، هيا لغرفتكِ ، سأفارقكِ غداً أخيراً ..

رغم شعورها بفقدانه إلا أنها ابتسمت وهي تتجه لغرفتها قائلة :- أنا أيضاً سعيدة جداً لأنني سأنفصل عنكَ غداً، أخيراً سأحصل على بعض الحرية ..

ضحك قائلاً :- كاذبة، ستفتقدي صديق مثلي عندما تغضبينه يبعثر شعرك ..

- بل سأرتاح من بعثرتك الدائمة لشعري .. التفتت له وهي تقولها؛ فوقف واقترب منها ببطء فقالت باستنكار:- ماذا ستفعل ؟

- أخبريني الحقيقة .. ستفتقدينني أم لا ؟

- لا .. لا .. لا .. قالتها بإصرار جعله يبعثر شعرها بيده كما يفعل دائماً وهو يقول :- اذهبي لغرفتكِ إذاً أيتها الكاذبة، سأعد الساعات من الآن حتى يأتي الغد سريعاً ..

ابتعدت عن يده واتجهت لغرفتها قائلة :- وأنا أيضاً .. سأعدها ..

افترقا بابتسامة على وجه كل منهما ولم يعلما بعد ما يخفيه لهما الغد !!!

****

دخلت ميرا بيتهما الصغير بعد نهار العمل المتعب، تدفع عربة صغيرها أمامها، تعلم أن محمد يعود من الجامعة متأخراً اليوم، لذلك قررت أن تسترح قليلاً قبل أن تفكر في الغداء الذي ستعده لهما، ولكن عقلها كان مشغولاً بشئ آخر، هل تذكر محمد تاريخ اليوم؟ هل لفت نظره؟ أم أن شيئاً كهذا لم يستوقفه؟ سيصدمها بشدة عدم تذكره للأمر، رغم أنه لم ينساه قبلُ، ولكن انشغاله في العمل في الفترة الماضية قد ينسيه، ستعذره بالتأكيد، وهي لا تريد منه احتفالاً كالذي قام به قبل ذلك، تريده أن يخبرها أنه يذكرها فقط لا غير، تريد دعمه دائماً إذ تخشى أن تتراجع يوماً بسبب ما تشكله عائلتها عليها من ضغط كبير ..

تفكيرها في الأمر شغلها عن النظر لأنحاء شقتها الصغيرة ، فلم تنتبه لتلك التغيرات الحادثة، ولم تنتبه للترتيب البادي عليها، إذ تتركها كما هي بما يسببه فيها ابنها من عبث حين يلعب وحيداً أو مع أبيه، وتعيد ترتيبها حين تعود من عملها ..

دخلت لتضع ابنها في غرفته التي تجاور غرفتهما ، وحينها لاحظت الغرفة المرتبة ، اتسعت ابتسامتها وشعرت براحة، إذ علمت أن محمد من فعل ذلك، دائماً يشاركها في كل شئ، حتى في ترتيب البيت، لا يقصر فيه بسبب عملها وانشغالها بتربية علي، وقبل لم تكن تعرف أي شئ فكان يساعدها حتى أصبحت عادة. نظرت في المرآة تهندم مظهرها وهي تخرج سريعاً لتبحث عنه فلاحظت الردهة المنظمة كذلك، وهناك في أحد الأركان وجدت صندوقاً مغلفاً بورق يلمع، أخذها بريقه وذهبت نحوه، همت بفتحه قبل أن تسمع :

- يا إلهي تهتمين برؤية هديتك أكثر من اهتمامك بالبحث عني!!

توقفت يداها واتسعت ابتسامتها ولم تلتفت له وقد وصلتها نبرة الأسى التمثيلي في صوته، فقال :

- هل ستبيتين ليلتك واقفة هكذا؟

التفتت له وهي تقول :- اهتمامي برؤية الهدية كان شغفاً وفضولاً مني لمعرفة ماذا أحضرت لي، يعني اهتماماً بك من الدرجة الأولى ..

ابتسامة مبهجة ارتسمت على وجهه وهو يقترب منها قائلاً :- كل عام وأنتِ حبيبتي، اليوم أتممتِ العام الثالث لكِ، أدام الله عمركِ كله في طاعته ..

قبل أي رد فعل منها قال :- انتظري !! لا بكاء اليوم، لا امتنان ولا شكر ..

ضحكت وهي تقترب منه تعانقه قائلة :- خشيت أن تنسى، كدتُ أموتُ وأنا أراكَ تخرجُ صبحاً دون كلم ..

أحاطها بذراعيه قائلاً :- أنسى نفسي ولا أنساكِ ..

ثم همس لها :- ما رأيكِ أن تري هديتكِ الآن؟؟

ابتعدت عنه قائلة بحماس :- هيا !!

احتضن كفها وأخذها تجاه الصندوق الذي يتوق فضولها إليه، حجمه الكبير يشعل فضولها أكثر، جلسا أرضاً وقربه منها قائلاً :- افتحيه بنفسك!

بدأت تفض أغلفته الكثيرة وهي تقول :- هل هو شئ ثمين لتلك الدرجة ؟؟

ضحك قائلاً :- إن مللتِ اتركيه!!

- لن أفعل ، أنا أعلم أنك تريد ذلك ..

تزايدت ضحكاته مع ازدياد تأففها،حتى فكت الغلاف أخيراً،وفتحت الصندوق فوقف مبتعداً عنها فقالت :- لن أتخلص من مقالبك أبداً ،لماذا هربت مني ؟ سأقبض عليك..

قال من بعيد :- افتحي الصندوق ، ولا تفعلي شيئاً قبل أن تري هديتك بنفسك !!

- لنرى إذاً..

فتحت الصندوق الضخم فوجدته فارغاً، أغمضت عينيها لتتحكم في أعصابها فقال :

- اهدئي قليلاً، ابحثي عنها فقط ..

بحثت عنها فيه ثم قالت :- ليس هناك شئ ..

اقترب منها بتوجس، ثم نظر في الصندوق بنظرة واحدة قائلاً :

- ها هي.. يبدو أنه من المفترض أن أشتري لك نظارة بدلاً من تلك الهدية..

ابتسمت وهي تأخذها منه ناظرة إليه وقالت :- وهل ذلك الشئ الصغير يستدعي صندوق كهذا ..

بدأت تفتحها وقلبها يدق بعنف من أن تكون كما توقعت، ولما وصلت لها قالت بفرحة :- أنت مدهش، أليس كذلك؟ هل أحضرتها لي؟ إنها أحدث كاميرا ..

أومأ برأسه فاقتربت منه تعانقه بشدة وهي تقول :- محمد أنا أحبك جدا جدا جدا ..

ضحك قائلاً :- أنا أيضاً أحبكِ كثيراً ..

شعر ببكائها فقال :- اتفقنا لا بكاء اليوم، وأعدكِ بمجرد أن يتوفر لدي بعض المال، سأفاجئكِ بما تتمني وسأبقى جوارك مهما يحدث ..

رفعت رأسها تنظر إليه غير مصدقة فأكمل باسماً :

- لا شكر ولا امتنان، أنا وأنتِ فرد واحد وليس اثنين ..

أومأت بابتسامة واسعة، اليوم أتمت العام الثالث بعد إسلامها، تعتبره العام الثالث في حياتها، بل تعتبر حياتها ما بدأت سوى بعد أن أسلمت، وكذلك هو العام الثالث لزواجها، العام الثالث في النعيم الذي تعيش فيه، نعمة إسلامها، ونعمة محمد، يكفيانها عن متع الدنيا كلها ..

****

تشعر بندم وحزن بسبب إعراض مالك عنها، اليوم فقط شعرت ماذا يمثل لها، علمت أنها كانت تفعل معه كما يفعل أبوها تماماً، ولكنها ما قصدت يوماً ذلك، حبها له ما دفعها دائماً لجعله أفضل، تتمنى سماع صوته فقط، الاطمئنان على حاله بعد ما فعلته به ليندا، ولكنه لم يعطِها فرصة واحدة حتى ..

ذهبت لزيارة ديانا التي تعيش في بيتها وحيدة ، بعد أن تركت سيف مع أبيه، جلست معها يتحدثان طويلاً قبل أن تتطرق ديانا لموضوع ياسين قائلة :- هل تذكرين كيف كانت فكرته عنكِ في أول مرة رآكِ فيها، وما بعدها؟

- من ؟

- ليس سواه أحداً!!

- ياسين!!

أومأت ديانا فقالت رحيق :- بالطبع أذكر رآني هشة ضعيفة ساذجة، أخاف من أي شئ ومن كل شئ، وارتبطت الفكرة في ذهنه طويلاً ..

أكملت ديانا :- ورغم اعتقاده بذلك أحبكِ، رغم أنه كان يحاول جعلكِ امرأة قوية ولم تعجبه حينها شخصيتكِ الضعيفة أحبكِ، قبل أن تعود رحيق لطبيعتها..

ابتسمت رحيق سائلة :- لماذا تذكرينني بتلك الأشياء؟ ألم تكوني متضررة من عودته، وكارهة لوجوده ..

ابتسمت ديانا مجيبة :- رحيق لا تكذبي على نفسك، تعرفين جيداً أنني ما كرهت وجوده أبداً، كل ما في الأمر أنني كرهت أن يعود ليرهق أعصابكِ أو يستغل سيف لصالحه بعد أن علقتِه به، ولكنه لم يفعل، بل عرض الزواج عليكِ قبل أن يعلم بوجود سيف، أراد رحيق كما هي، خيب ظنوني به، لم يعمل في شركة والدكِ حتى ليستغل قربكِ منه، لم يجبركِ على ترك الزيجة التي ستقذفين بنفسكِ بها، ترك كل الأمر لك، وترك عرضه مفتوحاً ..

قالت رحيق بضيق :- ما الذي تهدفين إليه ديانا ؟ لا أحد يعلم ما حدث في الماضي سواكِ، لا أستطيع أن أعود إليه رغم أنني أتمنى ذلك، صحيح أنني لم أمنع عنه سيف، وهذا لثقتي بكونه أب جيد، ولكن لا أعتقد أنه زوج جيد ..

لم تسأل ديانا عن غياب سيف منذ أتت، حتى لا تظهر لهفة غير مبررة عليه، سيخففها عنها وجود علي ابن ميرا معها الليلة، وعدتها ميرا بأن تحضره لها بعد ساعة من الآن، ابتسمت لرحيق قائلة :- أمركِ غريب، أنتِ عرفتِ ياسين الزوج وليس الأب، ورغم ذلك تثقين فيه كأب فقط ..

قاطعها صوت طرقات قوية على بابها ورنين جرس مزعج، فهبت واقفة ومعها رحيق، وقلباهما يدقان رعباً، تقدمت ديانا لتفتح وقالت :- قد يكون ثملاً أخطأ وجهته لا تقلقي من شئ !!

لفت حجابها على رأسها وهي تخرج بينما أخرجت رحيق هاتفها تحسباً لأي خطر يشعران به، نظرت ديانا للطارق من خلف الباب ثم تراجعت مصدومة تضع يدها على فمها لتكتم شهقتها، فاقتربت منها رحيق هامسة :- من الطارق ؟

همست ديانا برعب :- إنه هو ..

ربتت رحيق على ذراعها قائلة :- اهدئي ديانا، اهدئي، من هو؟

برعب أكبر نطقت اسمه :- عامر!!

ضمتها رحيق بقوة وبيدها الأخرى تعبث في هاتفها ، بعد أن طلبت مالك تذكرت سفره، فارتعشت يداها وهي تحاول الاتصال مرة أخرى بينما طرقات الباب تتزايد، لم تعرف بمن تتصل، ولم تكن تريد للشرطة أن تتدخل في الأمر، فديانا ستزداد رعباً، لم تجد أمامها سوى ياسين، طلبت رقمه سريعاً وهي تقول بمجرد سماع صوته :- ياسين أرجوك تعالَ بسرعة لبيت ديانا لو تعرفه ؟ إنه .. إنه ..

طرقات الباب تتزايد فتوترت أكثر وهي تمليه العنوان الذي يعرفه جيداً ، وبدأ صوتها يضطرب فقال :- ماذا يحدث عندكما ؟ ..

قالت بيأس :- ياسين أرجوك أسرع إلى هنا !!

ومع كلمتها الأخيرة كان الباب قد كسر ليهاجمهما عامر !!

٩

بداية ونهاية

وقفت رحيق مواجهة له بينما أوقفت ديانا خلف ظهرها وقالت :- عامر اخرج الآن وإلا طلبت الشرطة لك!!

ابتسم بشيطانية مما أربكها ودب الرعب في أوصالها بينما تحاول إخفاء ديانا بأكبر قدر ممكن وأكملت :- ماذا تريد منا؟ اخرج وإلا جلبت لنفسك المشاكل..

ضحك بشدة وهو يقول :- المشاكل.. ابتعدي عنها وإلا وجدتِ مالا يرضيكِ ..

كانت تعبث بهاتفها بتوتر تريد الوصول لرقم معين ولكنها لا تستطيع حتى النظر إليه فتغفل عن عامر ويستغل نقطة ضعفها، فمررت هاتفها لديانا الأكثر منها رعباً والتي فهمت بمن تريد الاتصال وفعلت، بينما أكملت رحيق :

- ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟ هل جئتَ لتثبت للعالم أن ما يردده عن المسلمين صحيح، هم همج إرهابيون ووحشيون أيضاً، ليس هناك أبداً حرمة للنساء أو الدم، بالله عليكَ ماذا تفعل بنفسكَ وبنا؟ اخرج من حياتنا يا عامر، أنا لا أريد أن أعرضك لأي أذى، لكن أنتَ من تريد ذلك!!

- أريدها، يجب أن تكون لي، لا أريد شيئاً سواها، أين قوتها التي تهاجم بها بلا خوف، لماذا تختفي كفأر مذنب؟ واجهيني ديانا !!

تقدمت ديانا نحوه وهي تقول بقوة تكاد تنهار :

- أنا لا أريدك عامر، لا أريد حياتك، ليس بعد أن أنقذني الله منك، اذكر لي أي ميزة تجعلني أتقرب إليكَ حتى، أنت لم تحترم أي شئ لا دين ولا قانون، لم تحترم حتى أنني امرأة أجنبية عنكَ تعيش وحيدة ...

ثم شهقت بعنف وهو يقترب منها ليقبض على ذراعها بقوة قائلاً بصوت هادر :

- ستأتين معي الآن ديانا، لن يخلصكِ أحد مني، حتى صديقتكِ الحمقاء هذه لن تفعل لكِ شيئاً، وأخوها الأحمق مسافراً ..

- لكنني أستطيع فعل الكثير !!..

التفتوا جميعاً لصاحب الصوت الذي لم يمهل عامر ليلكمه في فكه ويقبض على يده المتملكة لذراع ديانا ليدفعه بعيداً عنها، بينما أبعدتها رحيق عنهما سريعاً وهي تأخذها للداخل ..

لحق بهما محمد الذي حاولت رحيق الاتصال به ومعه ميرا، دفع ميرا للداخل وأوقف ياسين عن ضربه لعامر قائلاً :- ياسين كف عن ضربه!! لو سمحت اتركه!!

تركه ياسين ومازال يمسك بمجمع ثوبه، وقد بدا له أن محمداً يعرفه كما يعرفه الجميع إلا هو، فوجه محمد حديثه لعامر :- ما الذي جاء بك إلى هنا عامر؟ ألم ننتهي من مشاكلك من قبل؟ هل تريد أن تعرض نفسك للسجن، تعرف جيداً عقوبة ما تفعله !!

لانت ملامح عامر وهو يقول :- وماذا أفعل لها حتى تعود؟ لماذا لا تعطيني فرصة أخرى؟

استرخت يدا ياسين لما شعر ببؤسه وهو يتابع رد محمد عليه :- هي لا تريد الزواج بكَ أو بغيركَ؟ لا ترفضك أنتَ عامر، هي ترفض الأمر برمته، وليست الرجولة أن تفرض نفسك على امرأة لا تريدك ..

رد عامر :- حاول معها محمد، هي تقدر حديثك، وستستمع إليكَ ..

هز محمد رأسه في قلة حيلة قائلاً :- صدقني يا عامر الأمر ليس بيدي مطلقاً، كما أنك دائماً ما تروعها وتخيفها، وهي صبرت كثيراً، في المرة القادمة لن أكون مسئولاً عما سأفعل، ولن يهمني أي شئ ..

أمسك عامر يد ياسين ونفضها بعيداً عنه وهو يقول :- هي السبب في نوبات جنوني وتهوري ..

رد محمد :- لم يجبرك أحدعلى شئ، وهذه ليست المرة الأولى التي تتعرض لها فيها، ألم ترى أن تظاهرك بالسماحة والدين سيقل تدريجياً ..

غادر عامر المكان ببؤس وهو يقول :- ولكن أخبرها أنني سأظل أحبها ، ولستُ مسئولاً عما سيفعله حبي بها ..

نبرة التهديد الواضحة في صوته جعلت ياسين يقترب منه بسرعة ليمسك معصمه قائلاً :- ليس وأنا على وجه الأرض، لن تستطيع الاقتراب منها حتى تسمح هي بذلك، وقبل أن تفكر في المرة القادمة، تذكر أن ياسين محمود قد قتل من قبل غيرة على أهل بيته !!

تبادلا نظرات تحدي وقوة قبل أن يتركه ليغادر، بعد تهديد ياسين تحولت حالة الثلاثة في الداخل من الرعب والقلق لابتسامات تشق طريقها للظهور بينما كان محمد يهتف :

- أنت .. قتلت .. قتلت من ؟ هل أنت مجنون ؟ بأي حق تجعلك الغيرة تقتل ؟

ضحك ياسين كما ضحكن وهو يقول :

- ما هي إلا طريقة لترويج الإشاعات عني ، أما عن القتل فأنا قتلت النساء عشقاً ، فكما تراني جاذب للنساء بالفطرة ..

كان رد ياسين باللهجة المصرية ، لكونهما مصريان يفهمان حديث بعضهما جيداً ولأن رحيق التي تستمع لحديثهما بالداخل ستفهمه جيداً هي فقط التي تجيد فهمه ، فتلك كانت كلمتها الدائمة له لتبرير غيرتها عليه ..

ضحك محمد قائلاً بنفس لسانه :

- لقد صدقتك حقاً ، كيف تفعل ذلك ، هل يستنجدان بكَ فتأتي لضربه مباشرةً دون أن تفهم أي شئ ..

ابتسم ياسين مجيباً :

- وأنا أريد أن أفهم الآن، ما الذي يحدث؟ ومن هذا؟ ثم ماذا تريدني أن أفعل وأنا أراه يمسك بيدها ويعنف معها، هل أتركه سائلاً من أنتَ وقد استنجدتا بي ..

ربت محمد على كتفه قائلاً :

- ليس الأمر كما تظن، لقد كان زوج ديانا منذ أربع سنوات، استمر زواجهما لأشهر قليلة قبل أن تصر هي على الطلاق رافضة الإفصاح عن الأسباب، ولم تفلح معهما محاولات الصلح، في الحقيقة هي رفضت لكل المحاولات التي قام بها لردها، ولكن مع إخفائها سبب الطلاق كان موقفها ضعيفاً أمام من تدخلوا في الأمر وهم يرونه يبكي لأجلها بينما تقف هي صامدة دون أن يهتز فيها شئ .. تنهد محمد مكملاً :

- ثم طلقها، وأصبحت ديانا أمام الجميع المرأة القاسية متحجرة القلب، ولم يعرف أحد بحقيقة الأمر، حتى أصبحتُ أنا في حياتهن بعد عام بسبب زواجي وميرا، في هذا الوقت زادت محاولات عامر لردها، وتقرب من كل من تعرفه، جاءني وأخبرني بسبب الطلاق، ولكن اعترافه جعلني في صفها هي وليس في صفه، وفي خلال السنوات الماضية فعل كما فعل الليلة كثيراً معتقداً أنه سيحاول إقناعها بنفسه ..

لم يشأ ياسين الاستفسار عن سبب الطلاق وقد لاحظ أن محمد لن يخبره به، فقد تجاوزه أثناء سرده للأمر، ولكنه قال :- ولماذا استمرت في عيشها وحيدة، لماذا لم تعُدْ إلى لندن، على الأقل كانت ستعيش مع جدتها وأمها وفي بلد بعيدة عنه ..

ردد محمد بأسى :

- لقد توفيت جدتها منذ زمن، فجاءت لتعيش هنا مع أمها قبل إسلامها أو زواجها به، ولكن أمها توفيت في حادث، فلم يعد لها أحد تعود من أجله، كما أن عملها وحياتها هنا، ثم ارتباطها بسيف ابنك، كل ذلك أبقاها في أمريكا ..

كان حديثه خافت فلم يسمعْنه بالداخل فقال ياسين :- وما العمل الآن، هل سنتركها وحيدة هنا؟

نظر محمد للباب قائلاً :- نصلح ما أفسده أولاً ، ثم نتحدث معها في هذا الأمر ..

تشاركا في إصلاح الباب حيث خرجت ميرا تناوله العدة المطلوبة بناءً على وصف ديانا لموقعها، ديانا التي مازالت ترتعش خوفاً، عدة أشهر من حياتها ولكن تأثيرها عليها لم يختفِ بعد، مازالت تذكر عنفه معها، بغير ذنب كان يضربها صبح مساء، آذاها بشدة نفسياً قبل جسدياً، ليس بعد أن تخلصت منه أخيراً تعود إليه بتلك السهولة ، إنه مريض لا محالة ..

بعد انتهائهما خرجت ديانا محاولة التجلد لتشكرهما، بمجرد أن رآها ياسين قال :

- لن نستطيع أن نتركِكِ وحيدة هنا بعد الآن، يجب أن تنتقلي للإقامة مع أحدنا ..

اقترب منه محمد ليقول مهدئاً :- لنجلس أولاً ياسين ثم نتحدث ، تفضلْن بالجلوس ..

جلس ياسين وجلسن فقالت ديانا :- أولاً أشكركما بشدة.. ثانياً لا أستطيع سوى الإقامة في بيتي.

قاطعها محمد مازحاً:- لو كنتِ أطعتِني وجئتِ لتعيشي معنا كمربية لعلي لما حدث كل ذلكِ ..

ابتسمت قائلة :- ما حدث سوى الخير .. فقال ياسين :- لدي اقتراح آخر؛ ما رأيكِ في الانضمام لنا، وتعيشين مع بنات خالي ..

قاطعته رحيق قائلة :- وهل تعيش معهن ؟ تعيش مع بناتِ خالك؟

توترت بعد أن فضح أمرها بسبب لسانها المتهور، وسرت ابتسامة خفيفة على وجوه الجميع مما أربكها أكثر فأنقذها ياسين من الحرج قائلاً :- كيف أعيش معهن وأطلب من ديانا أن تأتي للإقامة عندنا، بالطبع لهن مكان خاص للإقامة، لا تقلقي على صديقتكِ ..

أكملت ديانا :- ياسين أشكرك بشدة ولكني سأبقى هنا ..

وقف ياسين وهو يشير لمحمد بأن يغادرا قائلاً بحزم :- ننتظركن في الخارج، احزمي أغراضكِ بسرعة!!

وقفت ديانا لتقول منفعلة :- لستَ مسئولا عني !! وأنا لن أذهب لأي مكان ..

نظر ياسين لمحمد وقال :- هيا بنا !!

خرجا بينما أمسكت ميرا ديانا لئلا تنفعل أكثر وأخذت تقنعها ورحيق بضرورة ترك المكان ولو لفترة بسيطة، فهي لن تأمن العيش وحيدة .. بينما في الخارج انتظر محمد مع ياسين في سيارة خاله التي أحضرها معه ليعجل الوصول إليهما عندما هاتفته رحيق، وقد كان القلق يعصف به وهو لايعي شيئاً، اتخذ مقعد السائق وجاوره محمد الذي قال :- أتساءل كيف كانت علاقتك بثلاثتهن في الماضي ؟ ليذعنَّ لأمركَ هكذا ، حتى ديانا تفعل ..

ابتسم ياسين وقال :

- علاقة أخوة خالصة باستثناء رحيق طبعا، شئ بداخلي يدفعني لأن أكون السند الذي يحتجْنه، وديانا حتى إن تمردت فهي في أشد الحاجة لذلك السند، وبالنسبة لزوجتك، لقد كانت متمردة هي الأخرى، وما جعلها تذعن لأوامري فهو أنت وليس أنا ..

ابتسم محمد لمعرفته بكل شئ من ميرا فقال ياسين بشبه قلق أخوي بحت :- وكيف هي حياتكما؟ هل أنتما سعيدان؟ هل تسير أموركما بخير ..

اتسعت ابتسامة محمد وهو يقول :

- الحمد لله بخير حال، لولا تلك الأفكار التي ملأتَ بها رأسها، لأصبحت بخير منذ البداية، ولكن مرت فترة كبيرة نعاني بسببك، لا تعلم كم ليلة مرت عليَّ وأنا أدعو الله لأن أراك فقط لأوجعك ضرباً، لا تعلم ماذا فعلت حتى أغير أفكارها عني، حتى أقنعها أنني إنسان سوي طبيعي، وما زاد الأمر سوءاً حكاية ديانا وعامر، لكن الحمد لله كل ذلك فات وانتهى ..

تمتم ياسين بأسف :- الحمد لله، وأنا آسف جدا، ولكن لو تبادلنا الأدوار لفعلت أكثر مما أفعل أنا، لقد كانت مهووسة بك، ومستعدة لفعل أي شئ لأجلك ..

سكت قليلاً وهو يسأل بتوجس :- هل أخبرتكَ بكل شئ، أم لم تخبرك ؟

ضحك محمد مجيباً :- لا تقلق، أخبرتني، أخبرتني كيف كان تفكيرها ولم يمنعها من ذلك سوى وصفك لي بأنني إرهابي همجي، متزوج من أربعة وأسكنهن في غرفة ضيقة، أضربهن ليل نهار، أعتدي عليهن ، أحرمهن من الطعام والشراب وأبسط حقوقهن، وتم طردي من مصر لسوء أخلاقي ..

سكت وهو يرى ياسين يضع يديه على عينيه ضاحكاً فقال مستاءاً:- هل أكمل؟

أشار ياسين برأسه أن لا فسأل محمد :- هل علمت الآن لماذا كنت أتمنى ضربك؟

لم يذكر إحداهما تفكيرها آن ذاك احتراماً لها ولكبريائها، فقد كانت تفكر في عرض نفسها عليه إن لزم الأمر، بل فكرت في ما هو أكثر من ذلك!!

فقال ياسين :- هل تزوجتما وهي مازالت تصدق فيك تلك الأشياء؟

أومأ محمد مجيباً وهو يقول :- لا أريد أن أتذكر تلك الفترة، عندما يحين الوقت سأخبركَ بكل شئ، ولكن ليس الآن، فمجرد تذكرها أشعر بالهم يجثم على صدري !!

ازداد استغراب ياسين ولكنه تفهم حالته وتجاوز الأمر سائلاً :- تأخرنَ أليس كذلك ؟

أكد محمد وهو يتصل بميرا لتخبره برفض ديانا لترك منزلها حتى أجبرتاها على الخروج ، أخبر ياسين بالأمر فعلق :- لن تتغير أبداً ..

لم يمر الكثير من الوقت حتى خرجْن لهما، وصَّلُوها لبيت خاله الذي أخبره بالأمر سابقاً، وأرشدها ياسين لطريق البيت، دخلت وعرفها عليهن، ثم تركها معهن وزوجة خاله وأخذ سيف وخرج، وبقيت ديانا تواجه حياتها الجديدة ..

عاد للسيارة، ووصل محمد وميرا لبيتهما، وبقيت رحيق التي تركت السيارة بمجرد مغادرتهما قائلة :- أشكرك ياسين، وآسفة أنني ورطتك في الأمر، لم يكن أمامي سواكَ أنت ومحمد وخاصة أن مالك غير موجود ..

علق ياسين بطريقة تهكمية :- لا بأس، فلا فارق بيني وبين مالك، أليس كذلك؟

تجاوزت سخريته المبطنة وهي تقول :- لن أتعبك أكثر، سآخذ سيارة أجرة من هنا لتوصلني لبيتي!!

صك أسنانه قائلاً :- وهل سأتركك تفعلين ذلك في وقت متأخر كهذا؟ اركبي رحيق!! أنتِ أكبر من فعل تلك الأشياء، اركبي فأنا شخص أليف جداً لا أعض حتى!!

رمشت بعينيها بتوتر وركبت مضطرة لوقف سيل السخرية الذي جرى على لسانه ولتجنيب سيف رؤية شجار ليس أهلاً له، كما أنها لم تشكره كما يجب على ما فعله لها اليوم ..

بينما كان يشغل ياسين شيئاً آخر، أياً كان المبرر، ولكنها لجأت إليه في وقت كهذا، حتى لو كان رقمه العاشر في قائمة من تلجأ إليهم وقت الشدة، ولكن يكفيه أنه في قائمتها، جلست في الخلف محتضنة سيف بين ذراعيها، ومر الطريق دون حديث بينهما وبمجرد وصولهما همت بفتح الباب لولا صوته :- انتظري !!

تراجعت فقال :- أريد مقابلتك غداً لأمر هام، هلا حددتِ موعداً؟

- ليس بيننا أمور هامة تستدعي المقابلة!!

- ولكنني أرى أنه هام، كما أنه أمر يخصني، وبالتالي أنا الأكثر معرفة عن مدى أهميته!!

تململت في جلستها معترضة على أسلوبه في الحديث ثم قالت :- ماذا تريد؟

- ستعرفين غداً إن شاء الله، إن كان يناسبك فقد آتي لزيارتكم بعد نهاية يومك في العمل، ما رأيكِ؟

وافقت برأسها ثم تركت السيارة ورحلت، ومعها رحل الهواء!!

****

ماتت أمها منذ خمس سنواتٍ خلتْ، أخبرهما المحامي المكلف بالبحث عنها ظهراً، ومنذ معرفتها بالأمر، وهي تجلس ساكنة جوار مالك، لا تعرف أين هي بالظبط سوى أنها معه الآن، لا تعرف أمن المفترض أن تبكي على أمها، أم تبكي لحالها، لم تجرب شعور الأم حتى تبكي افتقاده، ولم تكن شخصاً مهماً في حياتها حتى تبكي فراقها..

نظرت إلى الجالس جوارها منذ زمن وقالت :- إذاً لقد انتهى كل شئ الآن؟.. عُد إلى عائلتك واتركني هنا، سأتدبر أمري..

نظر إليها مشفقاً وقال :- كما جئنا معاً سنعود معاً، ثم أنكِ لم تشاهدي واشنطن بعد، ما رأيكِ أن نبدأ جولتنا الآن؟

لماذا يحاول أن ينسيها أحزانها وبه من الهموم ما يغرقه؟ لماذا يهتم لشأنها، ويحدثها بحماسٍ ليخفف عنها؟.. قالت بأسف :- لا أريد، من فضلكَ عُد يا مالك واتركني!

شاغبها بقوله :- ماذا قلتِ؟ من فضلك! ما هذه الأخلاق التي جاءتْكِ إذ فجأة؟

ابتسمت ونظرتْ بعيداً عنه، فقال بمرح :- متعادلان! لقد ابتسمتِ.. ثم وقف بسرعة وتناول يدها في يده قائلاً :- هيا لدينا مغامرة خطيرة اليوم!

جذبت يدها قائلة :- انتظر فقط! يجب أن نفترق الآن!

تخلى عن مرحه وقال آسفاً :- سنعود معاً، وهناك نفترق! والآن ..

قاطعته :- والآن لنعود إلى الفندق حتى نسافر في أسرع وقت، لا أريد البقاء هنا لثانية واحدة بعد الآن، ما جئنا لأجله لم يعُد موجوداً.. قالت باختناق، فنظر نحوها بأسى، ولم يتحدث...

سارا متجاورين، أوقف سيارة أجرة لتحملهما للفندق، وعند وصولهما، تركت السيارة أولاً ثم هو، سبقته لغرفتها، وأغلقت على نفسها ولم تسمح له باقتحام خلوتها، انعزل هو أيضاً في غرفته، وأمسى كل منهما وحيداً شارداً مفكراً في همومه.. عند انتصاف الليل ضاقت بها الدنيا فخرجت دون أن تخبره، سارت في الشوارع حائرة هائمة، على غير هدى تحركت، صوت أوقفها يناديها بالاسم المعروفة به في بلدتها " بينًّا " ، تلفتت تبحث عن مصدره، نظرت إليه، لحظاتٍ وتعرفت على صاحبه فأصابتها رجفة، ومضات في ذاكرتها، عملها، الرجال المحيطون بها، بلدتها، ماذا يحدث لها؟ تعرف أنه يريد الانتقام منها، لقد فعلت به الكثير مما يضطره لذلك، نظرت حولها، هي وحيدة، بمن تستغيث؟ وبمن تستنجد؟.. لم يستغرق الأمر كثيراً من الوقت، لم تهرب، ولم تهاجمه بقوتها، كانت ضعيفة في هذه اللحظة، تعصف بها الدنيا من كل اتجاه .. طعنة تلو أخرى استقبلتها، وانتهى بها الأمر طريحة الأرض...

****

في حديقة منزلهم انتظرت رحيق زيارته، تشعر برجفة غريبة عليها، اعتقدت في البداية أن مكروهاً أصابه، ولكنها تأكدت من سلامته ومع ذلك لم يطمئن بالها، ومالك مازال لا يجيب على اتصالاتها، لا تعرف ما العمل، ولكنها أصبحت متأكدة أن قلقها سببه مالك، فكل من حولها هنا بخير، لم يعد سوى مالك، تكاد تجن من قلقها عليه، تُرى ما الذي يحدث له الآن؟ هل تسافر له أم ماذا تفعل؟

ظهر ياسين فوقفت وقد تحول قلقها لتوجس وحيرة من زيارته تلك، بمجرد وصوله لها، خرجت أمها لتحيته وكذلك والدها، ما الذي يحدث هنا؟ ابتعدا عنهما وبقيا في الحديقة، سمحت له بالجلوس وجلست، ولكنها لم تستطع إخفاء فضولها فقالت :- ما سبب الزيارة إذاً ؟

تحدث ياسين مباشرة وهو يحاول أن ينحي مشاعره جانباً :- سمعت أنكِ ستتزوجين السيد مازن قريباً !!

جفلت من مباشرته وقالت :- نعم ، الأمر حقيقي!!

فحاول التماسك قائلاً :- ستسافرين معه للأردن؟

- نعم!!

- وتأخذين معكِ سيف؟

- بالطبع!!

تنهد قائلاً :- ولكنني لن أترك ابني يربيه غيري!!

غضبت قائلة :- ماذا قلت؟ هل هو ابنك حقا؟ ثم أن غيرك كان يربيه لأربع سنوات أين كنت أنت حينها؟

هدأ قليلاً وهو يقول :- رحيق !! لنتكلم عن الأمر ببساطة ونكشف أوراقنا!!

زاغت ببصرها وقالت :- ماذا .. ماذا تقصد؟

قال بثبات :- أنتِ لا تريدنني أن أبقى معكِ في نفس المدينة فقررتِ ترك الدولة كلها لي، وأرض الله واسعة، تخشين أن يجبرك أحد على الزواج بي فقررتِ الهرب بزواج آخر، تخافين أن آخذ سيف وأهرب به بعيداً فقررتِ الاحتماء برجل آخر مني أنا!!

تغير صوته في آخر جملة تغيراً أربكها وهي تقول :- غير صحيح، لماذا تعيش وكأن العالم يدور من حولك أنت فقط؟ ..

رد بأسف :- لأنكِ هكذا رحيق، تعيشين وكأن العالم لا يدور إلا من حولي، وكأن الدنيا ليست سوى ياسين!

تماسكت وهي تقول :- إنه غرورك الذي يصور لك ذلك ..

ابتسم ليقول :- أثبتي أنتِ العكس لي!!

هزت قدمها بتوتر لتقول :- لست مضطرة لذلك!!

تنهد وهو يعلم مدى صعوبة مهمته قائلاً :- رحيق، أعدكِ أنني لن أخطف سيف، لن أحرمكِ منه، أعدكِ أنني سأترك البلد كلها وأعود حيث كنت إن كان هذا يريحكِ ويجعلكِ مطمئنة !!

وقفت لتقول بسرعة :

- لا .. لا تهرب ثانية، ليس بعد أن وجدك سيف، هل ستيتمه مرة أخرى؟ هل تعلم مدى تعلقه بكَ؟ أم أنها أصبحت عادة تعلق من تعلق بحضرتك ثم تتركهم ثكالى خلفكَ ..

وقف بدوره ليقول :

- لا تصعبي الأمر على نفسكِ، الزواج ليس مجرد فكرة، إنه حياة، لا تظلمي نفسكِ بسببي، إن أردتِ الزواج لن أعترض طريقكِ ولن أحرمكِ من سيف، فقط إن أردتِ، أنتِ حتى لا تتحملي سماع صوته، وجوده يحبس أنفاسكِ من الخوف، كيف سيكون زواجكما إذا؟ لا أريد أن أستمع لردك، ولم آتي لأجعلكِ تتراجعين عن قراركِ، جئت فقط لأخبركِ أن تفكري في الأمر جيداً، هل ستسعدين بهذه الزيجة؟ هل زواجك سيسعد سيف وهو يراكِ تعيشين وحيدة هائمة قد فقدتِ روح الحياة؟ عيشي لأجل نفسكِ رحيق؟ ولا تنشغلي بوجودي، فمهما يحدث سأبقى أنا شخص مهمل، فرط فيمَ يملك يوماً!!..

ما قاله كان صعباً عليه تحمله، أن يقنعها بزواجها برجل غيره، ولكن ليس أمامه سوى ذلك، إن حاول إقناعها بالتخلي عن ذلك الرجل والزواج به هو، لطردته من بيتها وقد يخسرها طيلة حياته، لا يريد أن يضغط عليها بأمر الزواج، فقط كل ما يتمناه ألا تفعل ما هي مضطرة إليه للخلاص منه، فقط للخلاص منه، ولشد ما يؤلمه ذلك!!

أنهى حديثه وغادرها تاركاً إياها في معاناة وحيرة ، لماذا يفعل بها ما فعل ؟؟!! ..

****

أجهشت ميرا في نحيب مكتوم وهي ترمي هاتفها جانباً، ماذا تفعل وقد أغلقوا في وجهها كل السبل؟ هل من مخرج لها؟ هل تتركهم هكذا؟ هل ستبقى دون عائلة؟ وهل أذنبت لتستحق عقابهم؟ أم هل أمسكوها بالجرم المشهود؟ كيف ستتحمل هجرهم لها، نبذهم لها وإنكارهم لوجودها؟ يعلمون جيداً كم هي متعلقة بهم شغوفة بحضورهم!! حتى أخوها وقد كان الأقرب إليها هجرها!!

سمعت رنين هاتفها يعلن عن استلام رسالة، ترددت في رؤيتها، وببطء تناولت هاتفها لتقرأ رسالة محمد ..

" قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .. قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ .. إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ "

نظرت لباب غرفتها المغلق عليها بإحكام وقد تأكدت أنه سمع بكاءها وعرف سببه، لكنها لم تستطع حتى التحرك من مكانها، لم تستطع مواجهته، ومازالت تتساءل هل إسلامها ذنب حتى ينحونها جانباً من حياتهم كأنها لم تكن؟! وليس حل لعودتها في كنفهم سوى الارتداد عن دينها كما أخبرها أبوها ذات مرة، هل تضحي بدينها أم تضحي بهم؟ لماذا يفعلون بها ذلك؟ لماذا لا يتفهمون اختياراتها وحياتها؟

نظرت لهاتفها الذي لم يفارق يدها وقد أعلن عن استلام رسالة أخرى فتحتها وقرأت ..

" قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .. قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .. إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى .. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى .. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى "

أجهشت في نوبة بكاء أخرى بعد انتهائها، لقد جاءتها رسالة من الله تثبتها، لن تتراجع عن قرارها، ليفعلوا ما يفعلونه، لن ترتد كما يريدون، لم تقصر في حقهم، ولم تتوانى عن طلب قربهم، ولكن المقابل صعب، يستحيل أن تنفذه، ستبقى مسلمة حتى الممات!!

نفضت آلامها جانباً وهي تقف متماسكة لتفتح الباب، ينتظرها محمد بالخارج، ومن المؤكد أن قلقه ازداد عندما لم ترد بعد رسالته الأولى، هو يريدها وهي ستبقى له، لقد تقبلها في كل حالاتها، تقبلها قبل أن تكون مسلمة، تقبلها هاربة من بيت أبيها تمشي في الطرقات للبحث عن مأوى، تقبلها وقد أخذت به الظنون لأسوأها، ورغم ذلك تقبلها، هو أول من ساعدها على قرارها دون ضغط منه، هو هدية من الله لها ليثبتها ويبقى داعماً لها، هو الباقي لها، وهي له، له فقط**!!**

حاولت أن تبدو متماسكة قدر الإمكان، وهي تفتح الباب لتجده جالساً أمامه، بمجرد رؤيتها انتفض واقفاً، نظر لها بطمأنينة وهو يفتح ذراعيه لها، هذا ما تريده تماماً، هذا ما تريده لتعود لبكائها الموجع**!!** اقتربت منه ثم ارتمت على صدره لتنهي ما تبقى من مشاعر يأس عند قلبه، أحاطها بذراعيه وشدد ضمها هامساً لها :

- أنا عائلتكِ كلها، لا تتركي نفسكِ لوساوس واهية مرة أخرى، كل شئ سيصبح بخير، فقط إن استعنَّا بالله **!!**

مسحت وجهها في صدره كقطة ضائعة تبحث عن مأوى وهي تقول :- لا تتركني، محمد أرجوك أخشى أن .. أخشى أن ..

شدد ضمه قائلاً :- لا تخافي من أي شئ، الله معكِ دائماً سيثبتكِ ويبقى جواركِ متى ناديتِه، لا تقطعي صلتكِ به أبداً ولا تستسلمي لشيطانك، ستظلين مسلمة إلى الأبد، ولن تستطيع قوة إجباركِ على غير ذلك سوى نفسكِ**!!**

بكت بشدة لتقول :- لا، محمد أرجوك كن بيني وبين نفسي، لا أستطيع تصور الأمر، لن أطيق الحياة لو فعلت ..

هدأها قائلاً :- أرجوكِ أنتِ اهدئي، وانسي الأمر، لاتحدثينهم ثانية، لا تحاولي الاتصال بهم، أرجوكِ، الله سيحميكِ من نفسكِ ومن أفكارك، ولكن اهدئي، لا أتحمل رؤيتكِ هكذا ...

أخذ يمسح على شعرها ويهمس لها بكلمات تهدئها حتى هدأت، فجلس وأخذها جواره وضعت رأسها على صدره ، فابتسم قائلاً :- هل ابتاعت ديانا عليًّا؟

ضحكت وكأنها نسيت ساعات بكائها في لحظة وقالت :- أليس هذا ما يرضيك لتتخلص من بكائه وإزعاجه؟

ضحك وقد أراحته ضحكتها وقال :- تخلصت من بكائه ليزعجني بكاء أمه**!!**

فخفتت ضحكتها وهي تشدد تمسكها به هامسة :- لن أزعجكَ ثانية إن شاء الله**!!**

رفع وجهها إليه بأنامله قائلاً :- لا يهمكِ إزعاجي، المهم ألا تخفي عني حزنك ثانية، اتفقنا**!!**

- اتفقنا**!!**.. قالتها ناظرة لعينيه بطمأنينة سكنت روحها ..

كعادته عندما تحكم الدنيا قبضتها على قلبه يفتح مصحفه ويقرأ، نعم معترفٌ هو أنه لا يقترب من القرآن غير في أوقات الهم والكمد، ومعترفٌ أنه رغم بعده عن الله إلا أنه يتمنى القرب، يتمنى أن تكون صلته به قوية، تلك الليلة التي سيفترقا فيها قبل ذهابها لأمها لم يناما، في غرفته بدأ يتلو ما تقع عيناه عليه، لم يكن مالك ليعرف أنها قريبة منه تستمع لتلاوته، فقرأ كثيراً قبل أن يعلم بوجودها.

قرأ سورة الرحمن كاملة، بينما جلست بنان قريبة من الباب الفاصل المفتوح بينهما، تجلس على الأرض وتضم قدميها لصدرها تحيطهما بذراعيها وتستند برأسها عليهما، كان وضع حمائي منها، بصرها يرتكز على نقطة واحدة في الفراغ وأذناها وقلبها جميعهم مع مالك ..

" **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** "

شئ من إقرار بالعظمة حدث داخلها، سرى في جسدها حالة اطمئنان، ثم انتقل لحالة انبهار في الآيات التي تليها وهي تسمع تعداد نعم الله وقدرته، وصلت لحالة شك عندما سمعت ..

" **هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** "

لماذا هي؟ لماذا لمْ تجزَ بإحسانها إحساناً؟ إن كان مالك يعبد إلهاً يجزي بالإحسان إحساناً؛ فلمَ الكآبة التي يعيش فيها؟ ولكن لماذا لم تُجزَ بإحسانها إحساناً؟ لماذا؟ توقفت تساؤلاتها وقلبهايرتجف لما سمعت ..

" **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** "

لم تفكر في رجفتها ولم تشغل بالها كثيراً، خافت أن تفكر، خافت أن تصل حالتها كما ذي قبل، وينتابها ذاك الرعب، ركزت حواسها مع مالك الذي سكت، لم تعرف هل انتهى؟ هل سينام؟ فكرت في أن تدخل له لتجعله يكمل ما كان يقرأ أو يعيده عليها، ولكنها عادت وسمعت فهدأت خلاياها وسكنت وهي تنصت له ..

(**بسم الله الرحمن الرحيم**

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .. وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً)

شعرت أنها ستستمع لحكاية قوم، ولأنها لا تعرف من هم، بدأت تساؤلاتها تتزايد، هل تدخل لمالك؟ هل تسأله؟ ولكن خوفها من أن تتكرر ذكراها؛ ذكرى الرعب وذكرى عجز مالك عن إجابتها أسكتها، لم يكن عجزه ما منعها بقدر ما كانت تلك المرة التي أجابها فيها ودخلت إجاباته عقلها بسلاسة، خافت من أن يقول حقاً، وخافت أكثر من عدم قدرتها على استيعاب ذلك الحق ..

(**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا**)

الإحسان مرة أخرى!! كانت تسمع من سارة أن الله يفي بوعده دائماً، سارة التي لم تسلم كما يسلم عامة الناس بسبب إقتناع مثلاً أو بحثٍ عن حق، ولكنها أسلمت وما كانت تعرف حتى ما هو الإسلام؟ كل ما في الأمر أنها رأت فرحة في عيني عمر لما ذكرت أمامه أنها تفكر في الإسلام، بسبب فرحته تلك أسلمت دون تردد، وبقيت مسلمة لفترة لا تعرف أي شئ عن الإسلام سوى أنها مسلمة وأن عمر سعيد كل السعادة بسبب إسلامها ..

لم يعرفها عمر بفروض أو واجبات ولم يعرفها حتى ما الفارق بين كونها مسلمة وغير مسلمة، حتى ولد أحمد - دائماً عندما يذكر أحمد أمامها تعرف أنه وراء كل خير حدث في حياتهم - لتكمل لها سارة أن أحمد الرضيع الذي يستكين بتلاوة أبيه للقرآن جوار أذنه جعلها تتعلم هذا الشئ الذي يسكن رضيعها، من هنا بدأت سارة تتعرف على الإسلام، وبدأت تلوم عمر على تركه إياها هكذا دون حتى أن ينقذها من غفلتها، لقد أسلمت لأجل سعادته وهو ما فكر في سعادتها بكونها مسلمة حقيقية، تذكر ما قصته لها من اضطراب حدث في حياتها في تلك الفترة قبل أن تصل لما هي عليه الآن !!

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)

انتبهت لترديد مالك لتلك الآية، لقد شردت بعيداً، بينما كان هو يرددها كثيراً ومازال، أحست بارتعاش صوته وهو يرتلها للمرة الثانية والثالثة والعاشرة، أحست بكلماتها تخترق قلبها، ما الذي يحدث هنا؟..

- توقفْ مالك!! توقفْ أرجوك!!

انتقل للآية التي تليها أخيراً فلم تسمعها وهي تحاول إخراج نفسها من أثر السابقة، ولم تنصت لما يليها، قررت أن تبتعد وتنام، ولا تفكر في شئ، ستذهب لأمها غداً، وينتهي الأمر، ولكن قراراتها توقفت عندما سمعت ..

(مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

بدأت تشعر بتنميل يسري في جسدها، أخذت تدعك ذراعيها بيديها وتحرك جسدها للأمام والخلف كأنما أصابها مس من جنون..

- توقف يا مالك، توقف رجاءً!!..

لماذا لا يفعل؟ ولكنها استكانت ثانية، هدأت وهي تشغل نفسها بالتفكير لن تستمع إليه، ولكن صوته يشعرها بالراحة، ما يقرأ يهدئ أعصابها المتوترة، لماذا أطال قراءته هكذا؟ نادراً ما تراه يقترب من هذا الكتاب؟ ألم يمل بعد من القراءة؟ ولكن هي لم تمل!! أرادت أن تستمع وتستمع، أرادت إمعان النظر في تلك الكلمات التي تقع على قلبها، فاتها آيات عدة وهي منشغلة في أفكارها حتى وصل لعدة نواهي، فكرت أن تقوم لتضربه، ولكنها تراجعت ماذنبه هو؟ لماذا لم

يفعل أبوها تلك الأشياء وينتهي عن تلك؟ خمر ونساء هو نمط حياته، ثم يتظاهر بالتوبة قبل مماته، لن تسامحه ما حييت، لن تسامحه على أي شئ!!

(وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا

وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً

وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا

وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً

وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً

وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا)

رفعت يدها لرأسها تفرك فروتها بشدة، ثم وقفت وابتعدت عن ذلك المكان..

- كفى هذا!! كفى!! نمْ يا مالك نَمْ!!..

أي قولٍ هذا؟ ما رأت في حياتها أحد ينتهي عن تلك الأشياء؟ أهم ملائكة؟ هي نفسها تتجرع الخمر كروتين كما تتجرع العصائر، أبوها نفسه لقد فعل كل تلك الأشياء، لقد كاد يقتلها، بل قتلها بالفعل بسبب فقره، قتلها بكل ما يستطيع فعله!! لا تريد أن تتذكر ذلك، لا تريد، لو موجودة هي تلك النار حقاً التي سمعتها من مالك، ليته يتقلب فيها الآن، بلا رحمة أو شفقة، ليته يشوى ويشوى، ليته يصرخ ولا يغيثه أحد، أحست بدموع قهر ستخرج منها، لا ضعف الآن! لا ضعف، ذلك الأب اللعين لا يستحق منها حتى دمعة!!

تنقلت في غرفتها كثيراً، تشغل نفسها بكل شئ بعيداً عن تلاوة مالك، ماله قد خشع فجأة؟! ما ذلك الهدوء الذي اعتراه ليجعله يقرأ كل ذلك الوقت؟ ألن ينتهي الآن؟! مر بها وقت لا بأس به قبل أن تقترب لتجلس قريباً من صوته ثانية، فلا شئ تفعله سوى ذلك، وقد ينتهي فتتحدث معه، لماذا كل ما تسمعه يصل إلى عقلها مباشرة؟ يستقر في قلبها ويرجفه!!

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)

يبدو أنها ألفت تلك الرجفة التي تملكت قلبها..

- إنه مجرد كتاب يحوي كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع، اهدئي بنان، لا تتأثري بشئ، ليس ذلك بالشئ المهم، مجرد كتاب!!

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)

- لماذا تكررها مالك؟ لماذا؟ اهدأ قليلاً!! استرح لبعض الوقت من قراءتكَ، اهدأ يا مالك اهدأ!!

لم تكن تعلم أنها نهاية السورة لذلك سكت قليلاً، بينما كان يرى ظلها ظاهر له من مكانه، يلاحظها أحياناً، وينساها أحياناً مع شعوره بما يقرأ فينسى كل ما حوله!! كم هو غافل عن ذلك الحق الذي بين يديه الآن!! لو يقرأه كل يوم، لما شعر بضيق أبداً في حياته.

شعر ببعض الإرهاق فهو غير معتادٍ على قراءته باستمرار وأيضاً علو صوته مع طول مدة قراءته زودت إرهاقه، حاول أن ينام، ولكنه لم يستطع، شعوره بقلق متزايد كلما اقترب الصباح يمنعه النوم، ماذا يفعل حتى ينام؟ إنها الليلة الأخيرة التي سيرى فيها بنان!! سيشتاق لتلك المشاكسة القصيرة.

رغم قصر المدة التي عرفها فيها ولكنها ستبقى الشخص الوحيد الذي عرف عنه أكثر مما عرف غيره، وستبقى الشخص الوحيد الذي شعر براحة أثناء جلوسه معه والحديث إليه بما يعتمل في صدره، الشخص الذي لم يوبخه أو يهينه، لم يدعوه لفعل ما هو مضطر إليه حتى وإن كان لأجلها، إنها النسمة الباردة التي أنعشت صيف حياته، حتى ليندا رغم حبه الكبير لها، ولكنه معها لم يكن مالك بشخصيته التي يحبها، لم يكن بطبيعته معها أبداً، كما هو الحال مع بنان.

وعلى ذكر ليندا غزاه ضيق مفاجئ وألم أشد، لا يريد تذكرها الآن، لا يريد تذكر غباءه وسذاجته. يبدو أنه سيقرأ ثانية، يريد أن يسكن قلبه بشئ محبب إلى نفسه، يريد لخلاياه أن تخشع وتلين الآن، لم يعرف ماذا يقرأ، فتح مصحفه ونظر لفهرس السور، حتى وقعت عيناه على سورة النور فابتسم، لكم يحب سماعها، إنها السورة الأولى التي شرح له أحمد معناها وسرد له كل شئ عنها، مازال يذكر ذلك جيداً، لم يكن ليستمع إليه أو يطيعه لولا وعده له بأنه سيلعب معه مباراة كاملة. جلس ورحيق يستمعان إليه، حتى استطاع أحمد بأسلوبه الشيق أن يثير فضوله للمزيد، فعرفها كلها، حتى أنه يذكر كيف كانت قراءة أحمد لها، يستطيع الآن قراءتها مثل ما كان يفعل، لقد سمعها بصوته كثيراً بسبب تلك التسجيلات التي مازال يحتفظ له بها.

قبل بدئه نظر للباب المفتوح فوجد ظل بنان مازال موجوداً، خشي أن تكون قد نامت فيقلقها صوته، تردد في الذهاب إليها للاطمئنان، ولكنه تراجع وهو يبدأ بالقراءة ناظراً إلى ظلها، إن نامت لن تتحرك، وإن كانت مستيقظة ستعتدل في جلستها حتى تستعد لاستماعه، وبدأ ..

بسم الله الرحمن الرحيم

تململت في جلستها فاطمأن لاستيقاظها ونظر في مصحفه ليقرأ، بانتقاله من آية لآية بدأت تشعر بأنها تفهم ما يقول، شعرت به، كأنها مريض يُتْلَى على مسامعه القرآن بغية سكينته، استمعت بهدوء، وسكنت لصوت مالك، تمنت ألا ينتهي الليل بسبب تلك السكينة التي شعرت بها، لم تُعمل عقلها ولم تسأل عن شئ، لم تجادل، ولم تناقش، اكتفت بالسماع، اكتفت بالسكينة، لم تفكر في من نَزَّل تلك الايات، لم تفكر في الخالق، لم تفكر في القادر على تلك الأشياء التي تسمعها، حتى وصل مالك لتلك الآية

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

لا يعرف لما رددها، كان يحب قراءة أحمد لتلك الآية بالذات بشدة، حتى رحيق تفعل، وكأن بها شئ يلامس قلوبهم. بدأ تأثره بها وتأمله فيها يزداد مع زيادة ترديده وتكراره لها، استوقفه ذلك الأنين الذي سمعه، ليس معه سواها فاتجه نظره لها مباشرة، كانت ترتجف وهي تغمغم بكلمات لم يسمعها، خاف من أن يتكرر ما حدث لها قبل ومازال لم يفهمه ولم تخبره، بدأ صوتها يعلو وارتجافها يزداد، ماذا حدث لها؟ اقترب منها بسرعة فإذا بها تهذي؛ جلس جوارها بسرعة وهو يحتضن كفيها بين كفيه قائلاً :

- أنتِ بخير، لم يحدث لكِ شئ، اهدئي بنان، اهدئي!!

نظرت إليه وصوتها بدأ يعلو بصورة أوجعته قائلة :- لماذا كان يفعل بي ذلك؟ لماذا؟

- بنان اهدئي قليلاً!! أخبريني ماذا حدث؟

صرخت تلعن أباها، وتلعن كل شئ حولها، تلعن ذكراه وذاكرتها..

انتقلت يديه من كفيها لذراعيها وهو يمسك بهما مؤازراً، وينظر لعينيها التي فاض دمعها، وشفتيها اللتين انسالت الكلمات من بينهما بلا توقف، شد على ذراعيها يسكتها، يواسيها، رغم كلامها المبهم إلا إنه استطاع أن يفهم ما ترمي إليه، لم تسكت ولم تتأثر، شدها إليه لتسكن بين أضلاعه، عاد بظهره يستند للحائط الذي كان يحميها وجذبها معه، أخذ يربت على رأسها ويمسد ذراعها، يبث فيها بعضاً من السكينة، وبعد وقتٍ همس بألم :- لم يؤذِكِ أحدٌ، صحيح؟؟

أومأت بعينيها التي لا يراها وهي تهمس :- صحيح !! لا يقدر أحد على إيذائي...

ابتسم وقد اطمأن، إنها تهذي كل هذا الوقت ولم يفهم سوى معاناة حياة كابدتها وحيدة، تعيش في العالم تحمي نفسها من كل البشرحولها، وقد كانوا وحوشاً متطفلين على حياتها عرضها أبوها عليهم كوجبة سهلة رخيصة، وهي في الحياة لا تفعل شيئاً سوى الوقوف جامدة كصخر صلد يصعب هزيمته، فهم لمَ تكره الرجال ولماذا تلعنهم؟ حتى آن لها أن تنهار وتتفتت حبيبات الصخر أمامه الآن..

بعثر شعرها بيده التي تسكن على رأسها وهو يقول مازحاً :- بحق الله على أي شئ كان الرجال ينظرون إليكِ؟ إنكِ لستِ امرأة كاملة حتى!! هل فقدوا أبصارهم؟ ... اه .. اه ..

أبعدها عنه وهو يتأوه بشدة من اللكمات التي بدأت توجهها لبطنه تارة ولصدره تارة أخرى، لم ترحمه من ضرباتها وهو يقف مبتعداً عنها حتى قال :- أعتذر بشدة يا سيدة النساء، يا جميلة الجميلات، دعيني أرجوكِ ..

تركته وهي تدفعه لغرفته وتغلق بابها عليها، ثم عادت لوجومها ثانية وهي تتجه لفراشها، كلاهما علم أن هذا الحاجز الذي هدم لتوه لن يبنى مجدداً!!

ولكن ما فائدة هدمه أو بنائه وقد انتهى كل شئ!! فقد افترقا في الليلة التالية بين مصير مجهول..

****

إلى ياسين /

هذه الرسالة تأخرتْ كثيراً، في الحقيقة أنتَ الذي هربتَ قبل أن تصلكَ، فشعرتُ أنه من الضروري أن أرسلها إليكَ الآن ..

بداية أشكركَ على استضافتك لي في بيت خالك، كم شعرت بسعادة حقيقية مع زوجته وبناته، أعانه الله عليهن، ولكن لا أستطيع أن أثقل عليكم أكثر من ذلك، أيام ثلاثة تكفي، لقد عدتُ لبريطانيا، سأعيش في مانشستر في العنوان المرفق بآخر الرسالة، رجاءً لا تخبر أحداً بالأمر خاصة ميرا ورحيق، في الغالب هما لن ينشغلا بغيابي كثيراً.

لقد جاءتني وظيفة مناسبة، معدة في برنامج إذاعي يتحدث عن الإسلام، أعتقد أنها بداية جيدة هناك. قبل أن تعترض على تركي لعملي هنا وقد حققت فيه نجاحاً لا بأس به، فأنت تعلم جيداً أنني لا أحب أجواء الشهرة والأضواء، وقد بدأت في الظهور بالفعل وكان لابد من الابتعاد عن تلك المحطة. لا أحب إغراء الشهرة، تعلم أنني تخليت عن بطولات عدة في السابق لنفس السبب، رغم حبي الشديد للتنس ولكن يكفيني أن احترافي له يكون لنفسي فقط، ليس لشهرة عالمية ولا أضواء.

أصبحت أدرب الأطفال الصغار الآن بعد إسلامي، ابنك جيد جداً فيها، يوماً ما عندما يصبح بطلاً معروفاً سأشعر حينها بالنجاح والتميز، ابنك بارع أيضاً في أشياء عدة ولم تعيقه قدمه عن شئ، اذهب به للنادي ذات مرة واتركه ينطلق، دعه يفاجئك بما يعرف، مالك له فضل كبير في تربية سيف ، اشكره جيداً عندما يعود ..

ثرثرتُ كثيراً، وأنتَ لم تكن معتاداً أن تثرثر ديانا لكَ، أعلم ذلك!! ولم أخبرك إلى الآن ما سبب رسالتي ..

لأنني أعرف مدى السعادة التي تملأنا عندما يزداد عدد المسلمين واحداً بسببنا، قررت أن أهديك تلك السعادة!!

" ياسين إن أسلمت يوماً فاعلم أنك آخر شخص قد تكون سبباً في ذلك، أنتَ عبءٌ على المسلمين، يا إلهي أنت عار عليهم "

تذكر تلك المهاترة جيداً، أنا آسفة بشدة بسبب لساني السليط وتبجحي معكَ، لم أكن أقصد ذلك الأمر بحذافيره، فقط كنت أقول عكس ما أشعر به، فأنت لسوء حظك وقعت تحت يدي في فترة كنت فيها ضائعة أبحث عن أي أمل.

لقد كنت ملتزمة بالمسيحية كما تعلم ، ثم تخليت عنها بعد جدالات طويلة بيني وبين نفسي، هناك قصور أريده أن ينتهي ، فكرت في تغيير الدين، فإن كان الرب واحداً وهو الذي أرسل الأنبياء وأنزل الكتب، فلم لا أجرب ديانة أخرى، واعتنقت اليهودية، ضايقني بشدة مكانة المرأة فيها، وأنا لا أقبل أبداً بذلك، الرجال هم الأفضل في كل شئ والنساء كائن مهمش**!!** تركتها مباشرة.

ولكن هل تعلم شعوري بالضياع حينها بعد أن كنت مواظبة على صلواتي في الكنيسة ، كلما أذنبت ذنباً ذهبت لطلب المغفرة من رجل يجلس دائماً في المكان المقدس بالنسبة إليّ، أعتبره في مكانة عالية، وإذ فجأة أحاول التفكير قليلاً فينهرني فأتمرد عليه وأعتنق ديانة أخرى فلا تعجبني فأشعر بالعار يقتلني لأنني ما أطعتُه، ذهبت إليه فقبل توبتي، ورغم ذلك لم أطمئن، ولا أعلم لمَ فعلتُ ذلك؟**!!**

جئت للدراسة هنا بطلب من أمي حتى أبتعد قليلاً عن التوتر النفسي الذي أعيش فيه، فتعرفت على أحمد أخي رحيق، ومن خلاله عرفتُ رحيق، وقد كانت ميرا صديقتي بسبب مشاركتنا لنفس الهواية، واتفقنا سوياً على الدراسة هنا حتى يتسنى لنا اللقاء.

معرفتي بأحمد أحدثت في حياتي فارقاً كبيراً، فقد أنقذني من ورطة كبيرة عندما قدمت للولايات المتحدة ولم يكن حينها يعرفني حتى، لم يطيل معي الحديث أو المعرفة، كل ما فعله أن أخبرني بشغف أخته لتلك الآلة التي لا تفارق يدي، وأنها لا تجد من يشاركها شغفها فعرض عليّ أن أرافقها، على عكسكَ أنتَ تماماً عندما فضلتَ أن تبتعد هي عنا حتى لا نلوث أخلاقها**!!**

لنعود لقصتي الطويلة، إن مللتَ منها قطع تلك الورقات وارمي بها في أقرب سلة، هي ليست بتلك الأهمية، ولكنني متأكدة من أنها ستشكل فارقاً معك..

لنكمل .. تعرفت على رحيق وجذبني إليها ذلك الألق الذي يميز عينيها، رقتها غير الطبيعية إطلاقاً، خجلها الغريب على فتاة تربت في مجتمع به كل هذا الانفتاح، دعكَ من تلك الأشياء أمام ابتسامتها التي لا تنطفئ، طفولتها التي لا تكبر، ما جذبني إليها أكثر ذلك الاطمئنان وتلك السكينة التي كانت تحظى بها، وقد كانا هذان ما أبحث عنهما..

بدأت أدرك في زحمة الدراسة والصحبة الجديدة والانتقال السريع من مكان لآخر أنني الآن بلا دين، فلا أنا يهودية ولا عدتُ مسيحية كما كنتُ، كنت أتمنى أن أصل لذلك السلام الذي تتمتع به رحيق وأخوها، لم يكن الإسلام ليطرق في ذهني أو حتى أفكر فيه قبل معرفتهما، فكل ما أعرفه عنه لا يشجعني إطلاقاً على الاقتراب منه، ولكن رؤيتهما جعلتني أفكر في المحاولة ..

وبدأت بالحديث إلى أحمد، تحدثت معه عن كل شئ، وسألته عن كل الشكوك التي تساورني، حديثي معه جعلني مقتنعة بأن الإسلام هو الدين الحق، وبمجرد اكتشافي لتلك الحقيقة تراجعت كثيرا، وتخاذلت أكثر عن اتخاذ أي خطوة، وتجنبت الحديث مع أي شخص في الدين أو حتى في الجدال، لم تعد بي طاقة لأي شئ، وبدأت أتهرب من ميرا ورحيق وكأنهما ستكشفان حالة الجبن التي اعترتني ..

كنت أزور أمي وجدتي كثيراً، وأهرب من نظراتهما إلي لأنني لم أعد أصلي في الكنيسة كما كنتُ، حتى أنهما أخبراني بوساطتهما لي عند القس ليسامحني ويعفو عني، فأثار الأمر ضيقي وانزعاجي، أن تتعلق توبتي بغفران شخص لي، لا يضر ولا ينفع، بينما عرفت أن المغفرة وقبول التوبة بيد الله وحده، واستمر هروبي من كل مواجهة حتى مات أحمد، الخبر كان كالصاعقة التي زلزلتنا جميعاً، فأنا لم أعرفه سوى لعامين اثنين وكدت أموت قهراً وحزناً عليه، فما بالك برحيق التي كانت تعتبره أباها، جئتَ أنتَ في فترة حدادها التي طالت، لتكتشف شخصية غريبة عليها، ولم تكن تلك حقيقتها أبداً..

بعد موت أحمد؛ حالة الفزع التي انتابتني بدأت تزداد ورعب قاسي يداهمني، ماذا لو مت أنا مكانه؟ كيف كنت سأقابل ربي وأنا مازلت مترددة في الإسلام؟ وقد زاد وزري بالوصول للحق!! ولكن ترددي سبب لي نكسة أخرى بأنني تراجعت عن فكرة أن الإسلام هو الحق، قررت حينها أن أعود لدیانتي الأصلية مسيحية تواظب على صلواتها في الكنيسة لا يشغل بالها شئ، ولكنني لم أستطع، عكفت على الخمر، وساءت حياتي أكثر مع ظهورك أنتَ، نسخة أخرى من أحمد. لم أكن أريد أن أتحدث إليك أو أراك فأظهرتُ ذلك بفظاظتي معك وعنفي، ولكن ردك كان مباغتاً إذ ظننتك ستستسلم وتعاملني بخلق المسلمين كما أحمد، ردودي عليك ما هي إلا أشياء كان يقولها أحمد لذلك انهارت رحيق في المشفى عند ذكري له ..

لا تعلم ماذا فعلتَ بي وأنا أراكَ تبر أمك بطريقة لم أرها في حياتي قط! تحضرها معكَ في حفلات الشركة كرفيقتك، تبقى معها لا تفارقها، عطلة نهاية الأسبوع التي تجعلها كاملة لها، التماع عينيها عند رؤيتك وثغرها الباسم لمجرد ذكر اسمك، كنت ذكي جدا عندما أسألك وتجيبني أنها أخلاق الإسلام. الشئ الآخر نظرتك للمشاغبات الثلاثة اللائي ابتليتَ بهن، لم تكن تنظر لي أو لميرا بعد حادثة رحيق سوى بأدب جم، حديثك معنا كان فيه نوع من التهذيب لم نعتدْ عليه، لم تنظر أبداً لنا كأجساد فاتنة كما تعودنا وإنما تعاملت مع عقولنا، عاملتنا كما تعامل المرأة في الإسلام، هكذا كان قولك، عندما جادلتني بسورة النساء كاملة، بصورة أذهلت ميرا ورحيق خاصة، التي لم تكن تعرف الكثير مما قلتَ، ذلك الجدال لو تذكره كان له كبير الإثر في إسلام ميرا، وسأترك لها سرد حكايتها إن أرادتْ. أما أنا فبالنسبة للسباب والإهانات التي وجهتُها لك يومها فلم يكن سببها سوى أنه أُسقطَ في يدي ولم يعُد لدي ما أقوله حتى ..

ولكن إن كان جدالي مع أحمد أقنعني بأن الإسلام هو الحق، فجدالي معك يسر الطريق أمامي لأخذ خطوة فعلية ..

لم أشكرك كما يجب، ففكرت أن سعادتك بمعرفة أنك سبب في دخولي وميرا الإسلام تكفيك عن كل شكر، والآن أريدك أن تسامحني على ما فعلتُه بكَ يوماً ..

بالفعل أنا مدينة لك بكم السعادة التي حظيت بها منذ أسلمت، وكأن الله اختارني أنا لأحظى بذلك، وكأنه أرسلك إلينا لتكمل ما بدأه أحمد ..

ما أخبرتُك بعنواني إلا لسبب واحد، أنني ليس لي أصدقاء مسلمين سيهتمون لأمري سواكم، أردتُ أن تدفنوني كالمسلمين عندما أموت..

كن مراقباً لميرا ومحمد، أبوها لن يتركها هكذا أبداً، وهي ضعيفة أمام ضغطه، وطاقة محمد على دعمها ستنفذ يوماً ..

كن مراقباً من بعيد فقط، لا تتدخل، محمد لن يقبل أبداً مشاعر الأخوة التي تفيض بها على زوجته. هو لا يغار منك أبداً بل يكن لك كل الاحترام أن صنتَ كرامتها ذات يوم، ولكنك ستبقى غريب عنها ..

رحيق خائفة، إن استطعت طمأنتها فلتفعل، لا تيأس من محاولاتك معها، اهتم بسيف جيداً، وأخبره أنني أنتظر منافسته القوية، عامر سيتقرب إليك، فرجاءً لا تضعف أمامه وتخبره بعنواني، سأذهب في زيارة إليه كمحاولة أخيرة في أن أجنب نفسي إياه ..

أعتقد أنني لن أعود، وكما أخبرتك لا أريد لرحيق أو ميرا أن يعرفا عني أي شئ، هما في غنى عني، ولا يريدانني في شئ ..

ديانا ..

نظر لعنوانها سريعاً وهو يبعد الورقة عن مسار عينيه وتظهر على وجهه تلك الكآبة التي تصيبه عندما تتأثر إحداهن بأذى. تركت رسالتها مع إحدى بنات خاله قبل أن تغادر، حيث طلبت منها بألا تخبر أحداً بالأمر، كيف ستعيش وحيدة؟ وكيف ستبعد عامر عنها بنفسها؟ يا إلهي لماذا يحمل لهن ذلك الشعور دائماً؟ ليس بأخيهن حتى، ماذا سيفعل الآن؟؟!! إما أن يعيدها أو يتخلص من تلك النزعة الحمائية تجاههن ..

وجد رحيق أمامه فجأة لا يعرف متى ظهرت ولا من أين خرجت؟ لم يكن يريد رؤية أحد الآن وياحبذا رحيق، سيفسد شيئاً لا محالة !!

قالت مباشرة :- أين ديانا؟

رد ببساطة تلهيه عن تلك المشاعر التي اجتاحته بحضورها:- هي بخير، ولكني وعدتُها بألا أخبر عن مكانها أحداً!!

ابتسامة ساخرة وصلت لزعتها له، وتأصل أثرها في قلبه قبل أن تؤلم قلبها وهي تقول :

- لخيرُ من استأمنتْ، حقا !! هل وثقتْ بك أنتَ لتخبرك وتأخذ عليك موثقاً؟

نظر للورقة التي يطويها بين يديه وهو يقول كأنما يدفن شظايا ألمه الغاضب، ويمحي من عقله ذكرى خذلانه لها :- اللوم لا يقع عليّ، بل يقع على أشخاص حسبوني ملاكاً لا يخطئ، وأنا مجرد بشر!! كثير الخطأ لا محالة من ذلك، الوعد سيف على رقبتي لا أخلفه إلا مرغماً ..

" لا أخلفه إلا مرغماً " رنت الكلمة في قلبها وهي تفرك يدها بالأخرى بشدة لتخفي توترها ثم قالت مجاهدة لبكائها :- ولكنني أريد رؤيتها والاطمئنان عليها..

يعلم أن ما حدث لمالك وبنان أثارت في نفسها قلقاً وقهراً، وخاصة بعد ما تعرضت بنان له، واختفاء ديانا سيزيد الأمر سوءاً بالنسبة لها، ولكن رسالة ديانا أثارت في نفسه ذكرى أراد أن يخفيها بشدة، ولم يستطع إلا أن يتذكرها بقوة برؤيته لرحيق، وقد علم بإلغائها للزواج بحجة مالك ومصيبته، آذاه بشدة ذلك الأمر، دائماً تريده أن يبدأ هو، عليه الخطوة الأولى دائماً، وما هي إلا رد فعل له، تنتظره ليمنعها من الزواج فتمتنع، وتأتي الآن لتعاقبه على خطأ كانت شريكته فيه، ألم يكن قرار الطلاق مشترك بينهما، ألم تكن تلك فكرتها، أم أنها أرادت منه التمسك بها أكثر مم فعل، غضب كبير اجتاحه تجاهها، قال دون وعي لما يقول :

- ولماذا تطمئني عليها؟ قولي الحقيقة بأنكِ تريدين شكوى حالكِ إليها، دائماً تعتقدين أن العالم يدور لكِ ومن حولك، مازلتِ أنانية في مشاعركِ، الجميع يسكب مشاعره تحت قدميكِ منتظراً قراراً منكِ بتقبلها ومشاركته إياها، ينتظر منكِ كلمة رضا، كلمة تعبرين فيها له عن مبادلتكِ إياه لمشاعره، يومان فقط وستنسي ديانا كما نسيتِ قبلها كُثُر، لا تقلقي على نفسكِ ستكونين بخير دونها، كما كنتِ دون غيرها ..

ثم تركها وولى، وهو متيقن من أنه سيندم على ما تفوه به، لأنه أخطأ ولأن حديثاً كهذا ليس وقته على الإطلاق، وفي حالتها تلك لن تتحمل، لن تتحمل مطلقاً ماقال!!

بينما وقفت هي عاجزة عن الحركة، عاجزة عن التنفس، عاجزة عن الاستيعاب، وفي عقلها ذكرى واحدة تتردد فيه، لم يكن يقصد بالجميع سواه، كان يشير لنفسه، يسكب مشاعره تحت قدميها وهي لم تكن تبادله إياها، أحقاً ما قال؟ لم تكن تبادله؟ فليكن ذلك إذاً، هي من الآن لا تبادله !!

****

- ما آخر فيلم رأيته أيها الأحمق، هل عملت مع المافيا قبل الآن ؟

يقف أمام النافذة مديراً ظهره إليها، بمجرد سماع صوتها الضعيف، شقت ابتسامة كبيرة شفتيه وانتشرت في وجهه، وهو يلتفت إليها، نظرت إليه وتأملت ملامحه، شعره البني الأشعث ، ولحيته النامية، تلك العقدة التي بين حاجبيه والتي بدأت في الاختفاء رويداً رويداً مع اتساع ابتسامته، قميصه مفتوح الأزرارالعلوية، والذي يشمره ليظهر قوة ساعديه، يبدو أن التعب والهم أخذا منه مأخذاً، طال نظره إليها وكأنما يريد أن ينسى كل ما حدث، ينسى كل شئ ..

اقترب مالك منها وجلس أمامها قائلاً بلطفٍ كأنما يحدث طفلة تريد رعاية أبيها :- لا أذكر اسمه الآن، ولكن رأيتهم يفعلون كما فعلتُ!!

- أين نحن الآن؟.. سألت بنان متعلقة بإجابته..

- في لندن !!.. قالها مبتسماً لعينيها..

نظرت لعينيه قائلة بضعف :- لا أفهم ماذا حدث؟ كيف وصلنا إلى هنا؟!!

أغمض عينيه باسترخاء وبدأ يتذكر كل شئ، ذلك الهاتف الذي أفزعه ليلاً يخبره بإصابة زوجته بالمشفى، وصلوا إليه عن طريق تلك الأوراق التي تحملها، لم يفهم ماذا حدث لها؟ ومن طعنها؟ حتى استفاقت وفهم من حديثها لرجال الشرطة بعض الحقيقة التي أخفت بقيتها. لم تستطع التفوه أمامه بكل شئ، لم تجرؤ على إخباره بأن من طعنها رجل تعرفه احتالت عليه وضربته وتسببت في طرده من عمله فجاء لينتقم، لم تستطع إخباره بأن غيره كثيرين ينتظرون الانتقام منها، فهي امرأة مهما حدث ضعيفةٌ سيرونها غريبةٌ بغير خلانها، حانت فرصة الانتقام منها ومن احتيالها السابق عليهم، إلى متى ستعيش مطاردة؟ كل ما في الأمر عملها في استخراج الذهب بين الرجال؟ تحتال أحياناً عليهم لتسرق ما يعيلها، ما الضرر؟! لم يعرفُ مالك بذلك!

سافر بها إلى لندن كي يبعدها عن أشخاصٍ يطاردونها يريدون إيذائها كما قالت وأخبره أبوه من قبل، لم يفكر في الخطوة التالية مطلقاً، فكل ما يشغله هو شفاءها في أسرع وقت.. حاول أن يطمئن نفسه بأنها كل أمورهما ستتيسر، فطالما هي بخير فكل الدنيا بخير!!

سكتت لبرهة من الوقت بعد انتهائه، ثم قالت ببؤس :- مازلتُ على قيد الحياة أيضاً، لم أمُت؟ حتى الموت ليس لي فيه حظاً!!

ابتسم حانياً وقال :- لا تتحدثي الآن، مازلتِ أضعف من القدرة على الحديث ..

مازالت أضعف من القدرة على الاستماع والحديث والمشاركة في الحياة مجدداً، كما اعتقد، هي عادت معه ميتة، ولن تعاود حياتها بسهولة؛ إلا أنه يستطيع أن يفعل ..

وبدأت في التعافي بيد أن حالتها النفسية لم تساعد في الأمر كثيراً، وكما اعتاد فقد رأى أن مسئوليته تتلخص في هذا الأمر!!

مرت الأيام بطيئة عليها، وكأنها تستسلم للموت، لم يكن معها في غرفتها سوى مالك الذي انشغلت بمراقبته، طرأ عليه تغيراً كبيراً، أصبح كثير الصلاة، لم يعد يترك مصحفه من يده، بدا اطمئنانه في وجهه جلياً ..

ثمة شئ يربط قلوبنا بالله عند الضيق، ثمة إيمان قوي ينبئنا أن كل الأشياء ستصبح بخير، كل الهموم ستزول، كل الكروب ستفرج، طالما هو قريبٌ منا، طالما هو معنا ونحن أقوياء به ..

بدأ يخرجها من عالمها الذي رضيتْه، وأخذ يسحبها لعالمه الملئ بالحياة، دون مقاومة كانت تفعل وتستجيب، رغم أنها كانت متمسكة بالموت، ولكن بدا لها أن تمسكها بمالك أقوى ..

لا تعرف لماذا طلبت منه هذا الأمر، لا تعرف لماذا سألته أن يستجيب لها، كانت تئن بضعف وعيناها مغمضتان، فاقترب منها قائلاً بصوتٍ حانٍ :- بنان!! هل تتألمين؟ هل أنادي الطبيب؟

تلمست يده تمسكها بمناشدة قائلة :- مالك!! اقرأ على مسامعي القرآن!! سأهدأ عندما أستمع إليه.

سحب يده من بين راحتها وهو يقول :- ولكن القرآن ليس مسكناً للألم، سأنادي الطبيب ليأتيكِ..

- مالك ..

- لن أتأخر !!

هو أيضاً لا يعرف لمَ رفض؟!! ولكن أن تطلب الاستماع فقط حتى تهدأ حواسها لأمر استاء منه بشدة وهي رافضة لتصديق ما تسمع؛ أي تناقض تعيش فيه هي؟؟

يوم بعد يوم بدأت تعود للحياة، بدأت تتعلق بسبب عودتها، أصبح مالك قِبلتها في الحياة إليه تتجه وإليه تلجأ ..

وأخذ هو ينظم لها أيامها القادمة، ويعدها لبناء حياة، يخطط لانفصالهما الذي أوشك على الحدوث، استعاد هو أيضاً حياته بعودتها، وكثرت اتصالات رحيق به التي لاحظ تغير حالتها ولكنه لم يستطع التحري عن الأمر وأرجأه لعودته، كذلك ياسين كان معه دائماً، ومحمد يوسف أيضاً، ولم يكن يعرف قبلُ علاقة أمه الوطيدة ببنان إذ دائماً ما اتصلت به تطمئن منه عليها وبعد ذلك أصبحت تحدثها مباشرة، لم يكن ليتخيل يوماً أنه سيسافر بعيداً فيحدثه أبوه يومياً كما يفعل الآن، يعلم أنه يفعل لأجل بنان، ولم يزعجه الأمر، طالما في ذلك سعادتها، فهي الآن تشعر بوجود عائلة تحيط بها، تحبها وتهتم بأمرها. ولم ينقطع جاك وليو عن الاتصال بها كلما سنحت لهما الفرصة ..

غاب عنها لبعض الوقت ذات نهار ثم عاد إليها حاملا في يده هدية عرفت ذلك من التغليف المميز لها، ابتسمت بفضول لتعرف ما هي؟ فاقترب منها ثم ألقاها أمامها قائلاً بضيق مصطنع أضحكها :

- إنه هاتف جديد بدلاً عن الذي سُرقَ منكِ، العالم كله يتصل بي ليسأل عن حالك، دائماً أنتِ سبب في إزعاجي ..

قالت ضاحكة :- وما ذنبي في ذلك؟ هيا شغله لي ..

فك غلافه لها وبدأ في إعداده ثم أعطاه لها قائلاً :- تفضلي .. كيف تشعرين الآن؟ ..

أومأت قائلة :- بخير حال ..

نظر لموضع جرحها بقلق ليقول :- هل مازال يؤلمك ؟

أشارت برأسها أن لا وهي تقول :- لم يعد مثل السابق ..

- ما رأيك أن نتجول في الحديقة قليلاً .. سيساعد ذلك على سرعة تحسنك!!

قالت بتردد :- أخشى أن يؤلمني .. لم أعد أحتمل ..

قال بعطف :- لا تقلقي .. أنا معكِ ..

وقف ليساعدها على الحركة، وصبر على بطء حركتها، حتى وصلا للحديقة، طلبت الجلوس فأجلسها على مقعد قريب قائلاً :- لم نتجول بعد!!

قالت بكسل :- لا أستطيع السير لأكثر من ذلك .. ثم سكتت قليلاً لتقول بعدها بتوجس :- مالك !! ما الذي سيحدث بعد الآن؟

نظر لها وبدا عليه التوجس هو الآخر مما سيقول ثم نطق :- لا تخافي من شئ، لم يعد باستطاعة أحدهم الاقتراب منكِ..

أشارت نافية وهي تقول :- لا أقصد ذلك.. أقصد أنا وأنتَ.. لقد انتهى كل شئ الآن.. انتهى سبب استمرارنا في الزواج.. سببت لك الكثير من المتاعب.. وأقحمتك في مشكلات ليس لك يد فيها..

ابتسم وهو يقول :- ما هذا؟.. هل هو شعوربالذنب؟.. ثم أكمل جدياً:- اسمعي بنان!! زواجنا محكوم عليه بالانتهاء قبل بدايته، وأنا في تلك الفترة رغم كل ما حدث لم أندم على معرفتك، بل إنها الشئ الأجمل في حياتي، أمر الطلاق سيتم إن شاء الله بعدما تستعيدين صحتك.. ولكنني أريد الآن أن أحدثك عن أمر آخر ..

أخفت حزنها قائلة :- ما هو ؟

وقف يمد يده لها قائلاً :- لنتمشى قليلاً أثناء حديثنا ..

بسطت يدها في راحته فشعرت بتلك الرجفة التي تسيطر عليها في قربه، وضع يده على خصرها ليساعدها على الوقوف فقالت بتوتر وحرج لم تعتاده على نفسها :- أستطيع الوقوف والسير بنفسي ..

قالتها لتبعد يده عنها، وتقلل توترها، ولكنه لم يفعل، سارا قليلاً قبل أن يقول :- الآن ستنسين كل ما فات، كل حياتكِ السابقة، كل الأحداث السيئة التي حدثت لكِ وتبدأين حياة جديدة ..

- كيف ذلك؟

- أولا الدراسة.. يجب أن تلتحقي بالجامعة!!

- وماذا أدرس؟

- فكري في الشئ الأقرب لكِ، ما هي ميولكِ؟ ما الشئ الذي كان يجذبكِ في المدرسة وتريدين التعمق في دراسته ؟

- لا شئ !!.. قالتها سريعاً فابتسم قائلا :- كيف ذلك؟ من المؤكد أن هناك شيئاً يثير فضولكِ لمعرفته!!

سكتت قليلاً ثم قالت :- أحب مشاهدة أفلام هوليود .. أعلم أنه شئ غير متعلق بالدراسة ، ولكن كان يجذبني إليها براعة صناعتها، هي الشئ الذي كان يثير فضولي، كنت أتوق لمعرفة كيف يصنعون تلك المشاهد..

وقفت وقد شعرت بالتعب، وهو أيضاً وقف ذاهلاً، طلبت منه الجلوس فجلسا، نظرت لذهوله الذي طال متعجبة فإذا به يقول بفرحة :- تفضلين دراسة الإخراج ، أليس كذلك ؟

قالت بخفوت :- بلى !!

اتسعت ابتسامته وهو يقول :- لكِ ذلك.. سنستعد للدراسة ونصبح زملاء بداية من العام القادم إن شاء الله..

تساءلت بعينيها عمَّ قال فأجاب :- إنه سر أخبرتكِ به من قبل، منذ زمن بعيد كنت أتمنى دراسة الإخراج، قبل أن ينتهي مصيري في الهندسة، ولكنني قررت أن أحقق حلمي هذا العام، سأؤدي اختبارات الدخول لألتحق بالدراسة بداية من العام القادم ..

ابتسمت له قائلة :- لقد زادت أسرارك التي أحملها ولا أعدك بأن تبقى مختفية ..

قال بشرود :- لن يصبح سراً بعد الآن .. الجميع سيعرف كل شئ قريباً جداً ..

قالت فجأة :- مالك هل لي بطلب، بل اعتبره رجاءاً!!

قال بسرعة :- لقد اعتدتُ على إزعاجك، أزعجيني متى شئتِ ..

ابتسمت لتقول بنفس سرعتها :- أعرف أن التدخين ليس عادة بالنسبة إليكَ، ولكن أرجوك ابتعد عنه حتى في حالات غضبك ..

ابتسم بجانب شفته ولم يرد فأكملت :- وأمر آخر أهم !!

نظر قائلا بسخرية :- إن كنتِ ستمنعينني من شرب الخمر، فأنا لا أقترب منه حتى، لذا وفري نصيحتكِ لنفسك!!

قالت بسرعة متجاوزة لسخريته :- أعدك أن أقلع عنه ولا أقترب منه بعد الآن أبداً فقط إن نفذت ما سأطلبه منك ..

نظر لها متعجباً ومستنكراً ثم قال ساخراً :- أمركِ سيدتي ..

قالت بتوجس :- في الفترة الماضية، انشغلت بي وبكل ما حدث لي، ونسيتَ نفسكَ تماماً، لم تسنح لكَ الفرصة لــ.. لتخرج..لتخرج غضبك مما فعلته ليندا بك، أعلم كم كنت تحبها، وأن ما فعلتْه ليس لك قدرة بتحمله، لذلك أخشى عليك إن لم تخرج غضبك في أي شئ، حتى لو أخرجته في أنا موافقة .

وقف ونظر لها، ثم التفت راحلاً عنها متجاهلاً لما قالت، أو متجاهلاً لما سببته له من ألم، وتركها وحيدة، ولكن ذكرى ليندا وحدها تكفي أن تسبب له كم الألم والضيق الذيْن لم يشعر بهما منذ برأت هي من مرضها ..

ندمت على ما قالت؛ بل أكلها الندم وأصابها ضيق نغز في قلبها، أن يكون هو سبب كل سعادة في حياتها وتسبب له هي كل ضيق وغضب، إلى أي طريق سيتجه الآن؟ وهل ستبقى وحيدة هكذا؟ إنها ضائعة بدونه، تشعر بالعجز في غيابه، متى سيعود؟ تقدم الوقت بها جالسة حتى عادت لغرفتها متغلبة على ألم تتوهمه في نفسها. أخذها به قلق غريب، ماذا حدث له الآن؟

تذكرت أخيراً الهاتف الذي أحضره لها، ترددت في الاتصال به أو خشيت سماع صوته، سواء مرهقاً كان أو غاضباً فلن تحتمل الأمرين ..

لم يجِبْ اتصالاتها فعلمت أنه غاضب، كذلك كان يفعل مع رحيق، حين غضب منها، أزعجتها الفكرة، أن يعاملها كرحيق، رغم أنهما بالفعل كذلك، ما بينهما لا يتجاوز مشاعر الأخوة أو الصداقة، ليس من ناحيته أي ميل لها كامرأة، ولكن هي!! هي تميل له كل الميل، تراها مصيبة معترفة بها، لا تعرف كيف انجرفت مشاعرها له هكذا؟ سينفصلان لا محالة، ولكن سيبقى مالك دائماً في نظرها غير كل الرجال، بل أن الرجال جميعهم أحسنهم لا أسوأهم اجتمعوا في مالك!!

سمعت طرقاته على الباب فارتعش قلبها إثر تمييزها لها، دخل وسلم كما اعتاد أن يفعل، اتجه للأريكة التي في جانب الحجرة، جلس عليها ثم تنهد قائلاً :- آسف أنني تركتكِ هكذا .. لم .. لم أركز في الأمر ..

فركت يدها في الأخرى، لم تعد تحتمل لطفه معها، أو حتى شفقته، في الحالتين سيثير إعجابها، وهي ليست بها طاقة لذلك، لتنهي خواطرها، قالت باندفاعها :- لا داعي للأسف! فأنا كالجرو الشارد ستلحق به شفقة كل عين ..

قطعت انفعالها وأشاحت بوجهها عنه، ثم قالت بصوت خافت :- عندما أخرج من هنا، وننفصل، هل سأبقى هنا للبحث عن عمل يكفلني أم أعود إلى لوس أنجلوس لأعيش مع جاك وليو ويساعدانني في العمل؟

قال بسرعة :- لا.. ثم انفعل قائلاً بغضب:- كيف تعيشين معهما؟ هل الأمر بتلك السهولة؟ لا تتعلمين من أخطائكِ أبداً!! ثم تنعين حظكِ بعد ذلك وتقولين أن الرجال حيوانات متوحشة، ماذا تريدين منهم وبينهم امرأة تعيش بأريحية شديدة؟؟!!

ثم تركها وخرج وصفع الباب وراءه، هي من أرادت أن يخرج غضبه فيها، فلها ما أرادت، لم تكن تعرف أنه سيثور عليها هكذا ولم تحسب حساباً لذلك، حتى أنها عجزت عن الدفاع عن نفسها كما اعتادت ..

لماذا تذكره بليندا الآن؟ لماذا تذكره بسذاجته وغبائه، تذكره بفشله في اختياره؟ لماذا وقد تناسى الأمر؟ لا يريد ذكر ليندا أو أي امرأة أخرى!! كفاه ما حدث! ولكنها أصابته في مقتل بذكرها للأمر؛ لن يعود ليعتذر مرة أخرى، لن يستطيعَ حتى الحديث معها ..

ولكنه عاد !! .. نظرت إليه بلا تعبير محدد، لم تكن تعرف مشاعرها ناحية ما قال، جلس على مقعده قليلاً قبل أن يقول :- تعرفين ديانا ؟ .. نظرت إليه فأكمل :- صديقة رحيق !!

أومأت بناظريها موافقة فقال :- ما رأيك في الإقامة معها؟ تعيش في مانشستر!! هي من عرضت هذا الاقتراح، إن لم توافقي فلا بأس، سنعود معاً وتعيشين في غرفتكِ معنا كما كنتِ!!

ضمت ركبتيها لصدرها وأسندت رأسها عليها رغم ما أصابها من ألم، لماذا لا يقدرون حالتها؟ هي لا تملك أموالاً، ولا تقبل بالحياة هكذا عالة على هذا مرة وعلى هذه مرة أخرى.. قد تكون

تلك الفكرة لم تخطر لهم ببال لأنهم غير معتادين على نقص الأموال حتى، بينما هي معدومة لديها.. نظرت إليه بعجز وقالت بمصارحة :

- عندما كنت زوجتك وافقت على أن تنفق عليّ، ليس لأنني اقتنعت بمبدأك وأنك الرجل الذي لابد أن ينفق، ولكنني كنت أفكر بإزعاجك بشتى الطرق فلم أجد بداً من أن أخسرك أموالك حتى، ولكن الآن بعد انفصالنا، فأنت لم تعد مسئولاً عني، ولم تعد مضطراً للإنفاق عليّ وأنا لم أطالبك بذلك، ولكنني أيضاً لن أستطيع الإقامة معكم أو مع ديانا، ليست معي أموال لدفع حق الإقامة والمأكل والمشرب، ولن أقبل بأن تعيلونني عطفاً وإحساناً، فقط ننفصل الآن وأستطيع بدء حياتي وإعالة نفسي بنفسي كما كنت، وأعدك بأنني سأسدد لك كل ما أنفقته عليّ عندما أحصل على وظيفة وأتحصل على المال ..

وقف ليقترب منها، وضع يده على كتفها ثم أرجع ظهرها للخلف ليساعدها على وضع مريح، ثم مدد قدميها بصورة أكثر راحة، واتخذ مقعده المجاور لها وهو يقول :

- سأعتبر نفسي لم أسمع شيئاً، وبالنسبة للمال فهو ليس بتلك الأهمية، أما عن أموالكِ أنتِ؛ فتمتلكين الكثير منها، عند زواجنا فتح أبي لكِ حساباً وأهداكِ مبلغاً من المال، وكذلك فعلت أمي، ورحيق أيضاً أحضرت لكِ هدية قيمة وحفظت لكِ في البنك، في الواقع هم فعلوا ذلك معتقدين أن زواجنا سيستمر، ولكن كل ذلك سيبقى لكِ فهو لم يكن إحساناً أو شفقة، وكذلك لكِ نفقات مني، قد لا تعترفين بها ولكنها حقكِ، خالصة كلها لكِ، يبدو أنكِ تريدين التخلص السريع مني، بعد يومين لا أكثر إن شاء الله ستكونين حرة، و فكري جيداً إن كنتِ ستعودين معي أو تقيمين مع ديانا حتى بداية العام القادم نلتقي للدراسة.. وإن قررتِ أن تأتي معي، فلا تخشي شيئاً، سأترك أنا المنزل لتكون لكِ كامل حريتكِ فيه ..

ثم وقف وهو يقول :- والآن أحلام سعيدة ..

وتركها في التفكير وانشغل عنها بورقة يخطط عليها أشياءاً لا تعلمها، لم يعجبها ذلك الجو المشحون بينهما بسببها وهي التي اعتادت أن تصبح كل الأشياء بينهما على محمل الصداقة لولا اندفاعها في مشاعرها لما حدث كل ذلك، بعد عصر اليوم الثاني لحديثهما والذي اعتبر آخر حديث بينهما، جاءها اتصال من والده في غيابه، تحدث معها طويلاً وقال كلاماً كثيراً، لم تفطن لنصفه، وسخرت من النصف الآخر، شغلها كثيراً أن أباها الذي باتت تكرهه والذي أضحى سبب كل مصيبة في حياتها يكون سبباً لما هي فيه الآن من عائلة تحيطها وأشخاص يحتوونها!!

كثر في حديثه أنه مهتم بوصية أبيها، ماذا فعل أبوها يا ترى لأجل كل ذلك؟ دخل مالك أثناء حديثها، فنظرت إليه وهي تكمل، جلس في أحد أركان الغرفة وانشغل بتلك الورقة التي لم تعد تفارقه، أنهت حديثها ونظرت إليه قائلة :- ماذا فعل أبي حتى يقوم العم عمر بكل ذلك من أجلي؟

ابتسم مالك ورفع نظره عن ورقته ولكنه لم يُحرِ جواباً فقالت لتهدم ذلك الحاجز الذي أصبح بينهما :- مالك أصبحتُ أعرف نصف أسرارك إن لم تكن كلها، هل ستخفي عني أمر بسيط كهذا ؟

عاد بظهره للخلف وقال كأن لم يسمعها :- في الثامنة من عمري ، عندما كنت صغيراً ..

قاطعته قائلة :- يبهرني ذكاؤكَ ، مؤكد أنك كنت صغيراً في الثامنة من عمرك ..

ألقى القلم الذي يمسكه عليها قائلاً :- لا تقاطعينني أيتها الشمطاء القصيرة!!

ابتسمت وهي تستمع إليه وقد اطمأنت أنه لا توتر بينهما الآن فقال :

- كنا نعيش في البرازيل حينها، وأراد أبي أن يصنع مجده وثروته هناك، ولكنني كنت طفل كأشقى ما يكون الأطفال، كنت متشرداً كما كانوا ومازالوا ينعتوني، لا أعرف ما الذي رماني لذلك ولكنه حدث؛ اختطفت مقابل فدية كبيرة وأن يعود أبي إلى مصر!! الخطف كان بسببي أنا، فأنا من ورطت نفسي في الأمر بشغبي غيرالمعتاد كما قالوا، لم يستطع أحد إنقاذي سوى أبيكِ بل وساعدنا أيضاً على الخروج من البرازيل وعدنا للإقامة في لوس أنجلوس ..

قاطعتْه ثانية :- أن يُكِنَّ أبوك لأبي كل هذا التقدير، لا يعني سوى أنه يحبك جداً، فلماذا دائماً تشعر بعكس ذلك؟

تململ من مقاطعتها له وقال :

- لأنه كذلك بالفعل، لقد كان هذا آخر الحب الذي بيني وبين أبي، فهو يعتقد من حينها أنني سبب خسارته الجسيمة في فرصة للنجاح في البرازيل، ولولا شغبي الذي أدى بي للخطف لأكمل حياته كما أراد ..

قاطعته ثالثة :- لقد كان يسألني أن أوافق على استمرار زواجنا، وألا أستجيب لك بأن ننفصل ..

تقلصت ملامحه وبدا عليه الألم الذي لا ينتهي ثم ابتسم ساخراً وهو ينظر إليها ليقول :

- وما رأيكِ أنتِ ؟

بوغتت بسؤاله فقالت :- ما رأيي ؟ .. في ماذا ؟..

- هل تريدينا أن نكمل هذه اللعبة؟ وأن تصبح حياتنا مجرد تجربة قد تنجح وقد تفشل والخاسر فيها ليس عليه أن يندم؟!! هل ستقبلين بزوجٍ سيبدأ حياته معكِ لأجل أن ينسى تجربة فاشلة في حياته، وأن يكون وجودكِ في حياته مجرد تسكين لوجعه.. علاج مؤقت وعندما ينسى سينساكِ أنتِ الأخرى ..

فهمت ماذا يريد من حديثه ورغم ذلك قالت :

- فتاة غيري يحق لها أن تسأل وينتظر ردها ولكن أنا ليس لي الحق في ذلك، وإن اضطررتني للزواج بك، حتى لو كانت بأسبابكَ هذه، فأنا لن أتردد في الموافقة، يكفيني أنني سأصبح زوجة لمالك.. ثم استدركت خطأها، ومنعت نفسها من استرسالها في الحديث قائلة :

- ولكنك تعلم أن علاقتنا أصبحت صداقة خالصة دون تدبيروأيضاً أخوة خالصة، ولا أعتقد أن الزواج يجوز بين الإخوة ..

أصبح موضوع الزواج يثير انفعاله بشكل مبالغ فيه، وأصبحت هي من يتحمل انفعالاته تلك، فاتخذ من الحديث وجهة أخرى قائلاً كأنما لم يتأثر بحديثها :- ألا تريدين معرفة ما في هذه الورقة ؟

تصنعت الخجل لتتجاوز هي الأخرى ما قالته وهي تجيبه :- أشكرك عزيزي لأنك رفعت عني حرج السؤال ..

ابتسم وهو يتجه نحوها قائلاً :- انظري بنفسك!!

أخذت الورقة التي يمد بها يده إليها، نظرت لها، ثم فغرت فيها محدقة بها، لتحبس أنفاسها من الانبهار فضحك قائلاً :- لا أعتقد أنها بذلك السوء!!

قالت وعيناها مسلطتان تماماً في الورقة :- إنها تشبهني تماماً !!

لبرهة أخذت تتأمل الصورة التي رسمها لها ثم قالت :- ولكنني لا أبتسم هكذا !!

ملأه شعورٌ بالسعادة لأجلها تمتزج بها بعض الشفقة وقال :- يوماً ما ستبتسمين هكذا، ألم يخبركِ أحدهم أنكِ تمتلكين ابتسامة رائعة؟!!

اتسعت ابتسامتها لتشابه تلك التي رسمها لها ثم قالت وقد شعرت بسخونة تسري في جسدها :
- أنت مبدع حقاً، لم أكن أعرف أنك فنان !!.. ثم نظرت له سائلة :- أم أن هذا أحد أسرارك التي لا تنتهي؟

نظر إليها وجلس ليقول :- أولاً لستُ فناناً ولستُ مبدعاً، إنها مجرد هواية قد تصيب مرة وقد تخطئ أخرى، ولم يكن أحد يعرف بالأمر سوى أحمد ..

- ورحيق ؟؟ سألتْه بنان ..

فأجاب :- قد تكون نسيت الآن!!

ضحكت لتغطي على وجومه وقالت :- أصبحتُ ممتلئة بأسرارك!!

ابتسم لها وقال :- لا عليكِ، ليس لدي صديق لأخبره بكل أسراري، ليكن أنتِ! ولتكن تلك الرسمة ذكرى بيننا!!

تنفست بعمق لتهدئ ضربات قلبها ثم نظرت للورقة التي تمسكها قائلة :- أريد أن أترك لك ذكرى أيضاً ..

- يكفيني لسانكِ أن يبقى بيننا ذكرى!!.. قالها مازحاً، فنظرت له بطرف عينيها وهي تقول :- عليك اللعنة! لساني ليس بذلك السوء!!

- نعم نعم أصدقكِ!!

- عندما تهم بالتدخين تذكر أنني أمرض بسببه، وتخلى عنه لأجلي!.. قالت بسرعة مترددة..

طلبها فاجأه للمرة الثانية فقال ساخراً :- هذا السبب كفيل بأن يجعلني أدخن ليل نهار، لمجرد فكرة أن التدخين يؤذيكِ!!

رفعت يدها لتضربه فآلمتها القوة التي زعمتها لتتراجع قائلة :- هل تعجبك الفكرة؟ أنا أتحدث بجدية الآن، لا تدخن لأنه يؤذي صحتك، وأعدك أنني سأبتعد عن الخمر وعن الرجال ..

ضحك بشدة مستمتعاً ثم قال :- أنتِ ستبتعدين بالفعل عن الرجال لأنكِ تخافين منهم!!

زمت شفتيها بضيق فاعتذر قائلاً :- لم أقصد ذلك، ولكنني أعدكِ بالمحاولة لأجل أن تبقى بيننا ذكرى جيدة ..

ابتسمت لتقول بتوجس :- وهل تعتقد أن إقامتي مع ديانا أفضل؟

- بالطبع !! فمن ناحية أنتما وحيدتان وأعتقد أنها تناسب شخصيتكِ لتكوني معها صداقة رغم فارق السن بينكما، كما أنكِ إن عدتِ معي ستفضلين العزلة عنا، ومن ناحية أخرى أريدكِ أن تبتعدي عن الولايات المتحدة لفترة من الوقت ..

أومأت موافقة وقضيا يومهما في الحديث عن أشياءٍ كثيرة كأنها المرة الأخيرة التي سيتحدثان فيها، في صباح اليوم التالي زارتها ديانا وبقيت معها لوقتٍ لا بأس به، ورغم استمتاعها بصحبتها إلا أنها كانت تتمنى أن ترحل حتى تنفرد بمالك لليوم الأخير بينهما، ساعدتها في الاستعداد للخروج وبقيت معها كأخت حقيقية، ثم تركتها أخيراً لتودع مالك!!

كان هو الآخر متأثر بشدة لفراقها، فهي كأخت صغيرة له لن يعوضها، كان يستمتع بآخر مرة يبعثر شعرها عندما تستفزه ولكن تلك المرة دون استفزاز، يستمتع بالنظر لابتسامتها التي تعتبر أجمل ما فيها، يستمتع بمقارنة طولها بطوله، أخبرها آخر مرة حينما أظهرت ضيقها من شعرها الذي طال وأرادت أن تقصره كما كان :

- اتركيه هكذا أجمل!!

- ولكن طوله يزعجني!!

- ولكنكِ فتاة، لستِ برجل!! عادة الفتيات تحب الشعر الطويل ..

سألته بأمل في نفسها :- هل تراني أجمل بطوله أم بقصره؟؟

أجاب مباشرة :- بالطبع أصبحتِ أجمل كثيراً عندما طال!!

اطمأنت قائلة :- سأتركه إذاً ..

أن تتحدث معه حديث طويل حول شعرها، حول شئ خاص بها، لذكرى ستبقى خالدة في ذهنها، نظرت له طويلاً بصورة أثارت انتباهه، وكأنما أرادت أن تحتفظ بصورته في ذهنها نابضة، بعد خروجها ذهبا معاً لإنهاء إجراءات الطلاق، صعقها نطقه للكلمة، وكأنما يقول الآن أنتِ خارج حياتي، بدت الكلمة ثقيلة على لسانه هو أيضاً، بل تردد كثيراً في نطقها حتى قالت مازحة لتخرج من ضيقها وحسرتها :- هيا يا مالك، أريد الحرية بعيداً عنك، لقد مللت صحبتك !!

علم أنها تمزح وارتاحت هي لذلك، ابتسم ثم شد على يدها ونطقها، ولما صعقت بها ارتجفت، فشدد تمسكه بيدها مطمئناً وكأنه يعلم بصعوبة الأمر عليها ..

ثمة شئ غريب يحدث لأي امرأة عند سماعها لفظ " أنتِ طالق " حتى وإن كانت تكره زوجها كما لم تكره أحداً من قبل، ولكن مشاعرها المؤنثة لا تحتمل أبداً أن يخبرها أحدهم بسهولة لفظها من حياته حتى وإن كان بناءاً على طلبها !!

أصرت على أن تذهب معه للمطار تشيعه فقط بنظراتها، لم تعد لمالك، ومالك لم يعُد لها، كانت النظرة الأخيرة يقيناً تعلم ذلك فاستوقفته قائلة :- مالك !!

بعد أن هم بالالتفات عاد بنظره إليها فقالت :- هل تسمح لي بشئ !!

دون سؤال فتح ذراعيه لها، فركضت نحوه تعانقه لأول مرة بشدة، ستحفر دفئه في قلبها، همس في أذنها مازحاً :- معظم النساء يتمنين عناق مني كهذا..

ابتعدت لتقول :- ماذا؟.. ثم ضربته على كتفه ثم صدره وابتعدتْ، لولا أن شد على يدها يقربها منه قائلاً :- سأشتاق إليكِ..

ظهر خجل غريب عليها وهي تبتعد أكثر لتغطي انفعالها باندفاعها قائلة :- إياكَ أن تعود للليندا، وإياكَ أن تتزوج دون أن تخبرني، إياكَ أن تميل حتى لأي امرأة دون أن تتحقق لمشاعرها جيداً.

ثم وضعت يدها على قلبه قائلة :- مالك، لا تؤذِ قلبكَ مجدداً ... لأجلي ..

وضع يده على يدها التي تسكن على قلبه وابتسم قائلاً :- في المرة القادمة التي أفكر بالزواج فيها سأستشيركِ أولاً ..

بابتسامة مغتصبة قالت :- هذا أفضل ..

ثم سحبت يدها لتقول :- هيا لئلا تتأخر أكثر من ذلك ..

أومأ مبتسماً وقال :- سأنتظركِ عندما تبدأ اختبارات الالتحاق حتى نبدأ تمردنا!!..ثم غادرها، لينفصل طريقيهما كما انفصلت حياتهما ..

عادت بكآبة إلى ديانا التي تنتظرها بعيداً قائلة :- آه يبدو أنني أزعجتكِ ..

ابتسمت ديانا وهي تحتضن كفها بين راحتيها قائلة :- لا عليكِ، تعالِ لنسترح قليلاً قبل موعد قطارنا، فالرحلة إلى مانشستر ستستغرق ما يقرب للساعتين ونصف ..

سارت معها وعيناها مازالتا معلقتين بالمطار، حتى همست ديانا :- ليس ما نريده هو الأفضل دائماً .. هناك ما هو أفضل منه ينتظرنا ولا نعلمه بعد ..

نظرت بنان لها لتبحر في عينيها الخضراوتين، لينبئانها بحياة هادئة كهدوئهما مع ديانا ....

بين الأمس واليوم

لوس أنجلوس ، فبراير ٢٠٠٦

- ديانا، ديانا، سأموت من الصدمة، انقذيني!!

دخلت ميرا تصيح ببهجة، بينما ديانا التي تعمل على حاسبها المحمول لم تبالي لها، فاقتربت منها ميرا قائلة :- ألا تريدين معرفة سبب صدمتي، هلا تركتِ هذا الشئ وانتبهتِ لي!!

زفرت ديانا بضيقثم قالت :- ألمانية نازية سادية حفيدة هتلر، هاتِ ما عندك، يا سبباً لقيام الحرب العالمية الثالثة!!

ضحكت ميرا وهي تجلس أمامها قائلة :- أيتها الإنجليزية المتعجرفة المتسلطة، لو كان هتلر حياً لأمرته بقتلك، كما أنني أخبرتكِ مراراً بألا تنسبيني إليه أيتها الفاسقة.. ثم فضت الوريقات التي بين يديها موضحة :- انظري وجدتُ هذا في بريدنا، دعوة لتصوير حفل زفاف إحدى نجمات هوليود، لقد اشتهرنا بعد ذلك المعرض ..

نظرت ديانا للشاشة أمامها قائلة :- نعم جاءتنا واحدة أيضاً على بريدنا الإلكتروني..

- وما رأيك في الأمر، ألا تعتبر فرصة جيدة؟

- بلى، ولكن أولاً موافقتي لن تعتمد أبداً أن هذا سيسبب شهرة لفريقنا لأن تلك الشهرة ستنسب إليكِ ورحيق كما اتفقنا قبل، ثانياً فأنا لدي مشكلة في موعد الحفل، لذلك أعتقد أنني سأترك لكما الأمر!!

وقفت ميرا معترضة :- كيف ذلك ؟ هل سيذهب الفريق دون قائده؟

وقفت ديانا بدورها وردت :- لدي مباراة تنس في هذا الوقت لن أستطيع إلغائها..

- أجليها!!

- سأنظر في الأمر، بلغي رحيق حتى تستعد، فالحفل في هوليود وقد يعترض أبوها..

قفزت ميرا بفرحة قائلة :- هيا بنا!!

****

أسبوعان قبل الحفل، أخبرتا رحيق ووافقت دون عناء، تعافت أخيراً من صدمة موت أخيها، واندمجت في حياتها بصورة أقرب لطبيعتها.

لم تختلط بياسين منذ آخر مرة التقيا فيها وقت المطر، حيث أصابه برد شديد وحمى ألزمته في فراشه أسبوع، وكان هذا توقعها، شعورها بالذنب تجاهه جعلها تتجنب حتى الطرق التي يسير بها، تتحاشى النظر إليه ما إن يجمعهما عمل واحد، فكرة أنها السبب في مرضه تزعجها بشدة بل وتؤرق مضجعها!!

عندما رأته في الأيام التي تلت أسبوع مرضه كان قد بدا عليه الضعف بشدة، ورغم ذلك لم تنقص وسامته، أنبت نفسها كثيراً على ذلك الخاطر، أن تنظر إليه لحد معرفة كم هو وسيم، كان الأمر الأكثر ضيقاً بالنسبة إليها عندها فقط لاحظت نظراتها التي كانت تتابع رشاقته في عمله في المطعم الذي أصبح مكان إقامتهن الدائمة، لم تكن تقصد ذلك أبداً حتى أنها لم تفعلها قبل ذلك، أن تتابع رجلاً أياً كان بناظريها كان الأمر الأكثر فحشاً في حياتها، عاقبت نفسها كثيراً على فعله، وكرهت ياسين كثيراً لأنه السبب فيمَ فعلت ..

كان انجذابه هو ناحيتها واضحاً جلياً لعيني ميرا وديانا، ولكن الأمر لم يتضح لرحيق مطلقاً، مما أسعدهما كثيراً، بل وخططتا للقيام بالمفاجأة التي يفضلانها.. قبل موعد الحفل بأيامٍ قليلة قالت ديانا :- ألم تلاحظي شيئاً جديداً، على ياسين مثلاً؟

ابتسمت ميرا قائلة بشاعرية :- بالطبع ألاحظ، البطل واقع في غرام رحيق حتى أذنيه!!

ابتسمت ديانا لتسأل :- هل الأمر يسعدك؟

- بالطبع !!..

فأوضحت ديانا :- ظننتكِ معجبة به وأمر كهذا سيسبب لكِ الألم!!

ضحكت ميرا قائلة :- بالطبع معجبة به، ولكن إعجابي لأنه عربي فقط، ليس أكثر..ثم أردفتْ بوجوم :- قلبي مع آخر !!

اتسعت عينا ديانا مندهشة وهي تقول :- دون أن أعرف!!

- وماذا ستفيد معرفتكِ، إنه لا يعرفني حتى، ولا ينظر إليّ، إنه حب من طرف موجوع!!

وجمت ديانا لرؤيتها ميرا هكذا، ميرا المحبة للحياة المنطلقة دائماً لا يقهرها شئ فقالت :- ماذا دهاكِ يا نازية؛ الحياة ليست رجل، وإن لم ينظر إليكِ فغيره كثيرون يتمنون منكِ نظرة واحدة!!

تناولت ميرا آلة التصوير الخاصة بها لتشغل نفسها ثم قالت :- ليتَ شِعْرِي .. ثم عادت لمرحها قائلة :- والآن ماذا سنفعل لذلك العربي؟

ابتسمت ديانا :- ادعيه للحفل !! ثم غمزت لتكمل :- أريد جنونكِ في ذلك اليوم ولن ألومكِ!!

ضحكت ميرا قائلة :- إذا فهي المعركة!!

وفعلت ميرا ما اتفقتا عليه، بالطبع لن يوافق ياسين بسهولة على حضور حفل كهذا، لولا أنها زجت بذكر رحيق في الأمر وأخبرتْه أنهن يرِدن حماية رجل، وقد تطل إقامتها في هوليود وديانا معها بينما تعود رحيق وحيدة، فليكن جوارها، اشترط عليها اصطحاب أمه، فكما دبرت له دعوة، دبرت لأمه، وجاء اليوم الموعود!!

اجتمعن في شقة ديانا وميرا، وما إن استعددن للخروج هتفت رحيق وهي تنظر لديانا مشيرة لملابسها :- ديانا.. هل ستأتين هكذا؟

اعترضت ديانا قائلة :- وما الذي يمنعني؟.. ثم نظرت إلى ميرا التي ترتدي فستاناً به من العري ما هو أكثر منها قائلة :- تلك الألمانية لم تلفت انتباهكِ، ثم أنني لست مسلمة حتى أتقيد بقوانين مثلكم ..

ضحكت ميرا لتخفف من وطأة الحوار وقالت :

- ما الأمر ديانا، رحيق لا تقصد ذلك بالطبع، ولكن الأمر أصبح بصورة مبالغ فيها، فأنتِ لستِ معتادة مثلي على ارتداء تلك الأشياء، أنا فاسقة والكل يعلم ذلك، ولكن أنتِ لقد كان ثوبكِ يصل للأرض، كنتِ ملتزمة بدينك، على عكسي أنا!!

نظرت لهما ديانا بتأفف لتقول :- والآن كفرت به، هل تعترضان؟

أشارت رحيق برأسها أن لا ثم قالت :

- عندما تغضبين تعاقبين نفسكِ بأسوأ العقاب، بل تنتقمين من نفسكِ وتؤذيها بشدة!! أخشى عليكِ من ذلك؛ أردتُ أن ترتدي ما يناسبك، ليس ما تنتقمين به من جسدك ..

حملت ديانا حقيبتها وما يخص العمل منهية الحوار بقولها :- لنتحرك الآن !!

تقدمتهما بينما نظرت إحداهما للأخرى بعين يأس وضعف ، ولم تعلم رحيق أن عادة ديانا تلك لازمتها حتى بعد إسلامها !!!

****

في الحفل ..

أقيم بين آخر النهار وبداية الليل، حيث نظمت على دخول وقت الغروب أثناء الحفل، في البداية كنَّ يستمتعن بما يفعلن، بيد أن رحيق صدمت بوجود ياسين، والذي قيد وجوده حركتها، حيث أن شعورها بعين تراقبها متى اتجهت جعلها تذوب خجلاً، كانت تود الذهاب للترحيب بأمه بسبب علاقتهما التي تتوطد شيئاً فشيئاً، ولكن ملازمته لها منعتْها.

أصبحت تخجل من قربه بشكل مبالغ فيه، رغم أنها تعمل مع الرجال بصورة طبيعية، ولا تتجاوز علاقتها معهم شيئاً سوى العمل كان أو الدراسة، مثله تماماً، لا تشعر بذلك الشئ الذي تشعر به في قربه، مجرد فكرة وسامته التي تلاحظها، وخجلها من اقترابه ترى في نفسها سذاجة فوق سذاجتها، أن يشغل تفكيرها رجل لأنه وسيم وفقط، قشعريرة تسري في جسدها لذكر الأمر أو إتيان صورته في عقلها، بأي عقاب ستعاقب نفسها هذه المرة، لا تفعل سوى ركعتين توبة بعد كل مرة تذكره فيها، وكأنه ذنب، بل هو كذلك، كم باتت تبغضه بشدة!!

بمجرد ابتعاده عن أمه ذهبت إليها، لا تعرف كيف فعل ذلك وابتعد، اقتربت منها وألقت سلاماً سريعاً خائفاً متوجساً، لولا يد مريم التي ربتت على يدها بحنو تجذبها لتجلس جوارها، كم أصبحت تعشقها على قدر كراهيتها التي تتوهمها لابنها!! جلست لثوانٍ قبل أن تراه يقترب فتقف سريعاً كأنما لدغها عقرب ثم تستأذن مبتعدة عنه..

أثناء الغروب، كان عليهن عمل شاق، فكل منهن يجب أن تظهر براعتها في التصوير الآن، ولكن أمام المشاهد التي قام بها العروسين لم تستطع رحيق أن تكمل، بل اعتذرت لديانا التي حدجتها بنظرة قاسية، ولكنها لم تستطع بأي شكل من الأشكال أن تكمل عملها، أشارت لها مريم فاتجهت نحوها مباشرة، فخجلها من ياسين أرحم كثيراً من بقائها مع ميرا وديانا الآن، جلست مباشرة فابتسم ياسين وقد كان يلاحظ فعلها وخجلها منذ البداية، بدأت تتصبب عرقاً مع سرعة تنفسها لتتجاوز الأمر فنظرت لها مريم قائلة بقلق :- هل أنتِ مريضة ؟

أشارت رحيق برأسها أن لا وقالت بصعوبة :

- لقد بذلت مجهوداً كبيراً اليوم، كما يبدو أنني تسرعت في الموافقة، لم يكن من الضروري أن أكون هنا أبداً ..

فسألت مريم :- لماذا؟ هل أزعجكِ أحدهم؟

ردت رحيق :- لا ولكنني لا أحب الاختلاط بتلك الطبقة من المشاهير، ولا حتى أحب الاندماج في تلك الحفلات، أردت ان أغير روتين حياتي فقط، ولكن يبدو انني أخطأت ..

كانت تنظر للساعة التي تحيط معصمها بين كلمة وأخرى فعلق ياسين الذي سكت طيلة وجودها لئلا يزداد خجلها :- هل أنتِ في انتظار موعد؟

ردت متناسية خجلها في وجوده، بل ومتناسية أنه المتحدث :- لا، إنه وقت صلاة المغرب.. ثم وقفت قائلة :- أستئذنكما عليّ الذهاب الآن قبل مجئ ديانا!!

فهتفت مريم :- وأين ستصلين هنا؟

ابتسمت رحيق وهي تشير للفندق قائلة :- لدينا غرفة خاصة هنا كفريق عمل، سأذهب إليها ..

فقالت مريم :- أريد الصلاة أنا أيضاً ..

قالت رحيق بحرج :- لا بأس من ذلك، ولكن عليكِ انتظاري لدقائق فقط، ستأتي ميرا لتوصلنا ..

تدخل ياسين قائلا :- ولماذا لا أفعل أنا؟؟

عرفت أنهما لم يفهما ما قصدت فقالت :- لأننا محجبتان، فسيكون الأمر صعب في دخولنا معاً، لكن وجود ميرا سيخفف الأمر وهي تجيد حل تلك المواقف، كما أنك ملتحٍ مما سيزيد الأمر سوءاً ..

غزت سخونة وجهها، ما الذي قالته؟ هل أصبحت دقيقة في ملاحظته، أن تعلق على اللحية التي لم تكن موجودة منذ فترة، لم يرِد إحراجها، وأنقذتها مريم من حرجها بقولها :

- يا إلهي، ستجلب لنفسك المصائب، ألم آمرك بحلاقتها ..

ضحك قائلاً :- من المخطئ الآن؟ لم يكن لدي الوقت الكافي، طلبت منكِ أن تنتظريني قبل أن نأتي ولكنكِ كنت متعجلة للحضور ..

وقفت مريم قائلة :- ليس الأمر كذلك، بل أنتَ تعلم أن إطلاق لحيتك يزيدك وسامة فوق وسامتك، فتركتها!!

وقف ياسين احتراماً لها ثم قال ضاحكاً :- الأمر كذلك إذاً، تحسدينني على وسامتي، هذا فقط لأنني أشبهك لو كنت شبيها لأبي لما تعرضت لكل ذلك .. ثم أنكِ تغارين من التفاف الفتيات من حولي..

انزعجت مريم قائلة :- ليتك كنت تشبهه، لقد كان الأجمل على الإطلاق !! ثم ممّ أغار أيها الأحمق؟

وقفت رحيق تتابع شغبهما وقد أشرق وجهها بابتسامة ، حتى قالت :- ستفوتنا الصلاة هكذا!!

قاطعتهم ديانا التي وصلت ناظرة لرحيق تهتف :- ما الذي فعلتيه الان؟

أجابت بهدوء :- لم أفعل شيئاً، الحفل ملئ بالمصورين وتخلفي عنه لن يعجزه، كما أنني يستحيل أن ألتقط صورة لا أشعر بها، بل أنفر منها جدا، وبالتالي ستكون سيئة وتسئ لعملنا، فتركت المجال لكما.

زفرت ديانا قائلة :- يبدو أن الحفل سينتهي الآن، هيا لننهي عملنا، لم يعد سوى المشاهد الأخيرة ..

أغمضت رحيق عينيها بأسف ثم فتحتهما براحة لتقول :- انتظريني لدقائق فقط، سأصلي وأعود إليكما، أعدكِ بذلك!

- ولكن الحفل لن ينتظر!!

ابتسمت رحيق لتقول :- لتنهيان أنتما الأمر، أعلم أنكما ستجيدان ذلك، لن أتأخر في الصلاة ..

قطبت ديانا ما بين حاجبيها لتقول :- أخبري بهذا شخصاً لا يعرفك، أنتِ تطيلين في صلاتك لا تنكري ذلك ..

ضحكت رحيق قائلة :- وهل في ذلك جريمة لأنكرها ؟.. ثم هدأت لتقول بحزم :- ديانا .. لا أحد منا يتدخل في حياة الآخر .. ونظرت لملابسها مكملة :- أنتِ لا تسمحين لي بالتدخل في خصوصياتك، وكذلك أنا .. التصوير لن يتعطل بغيابي .. وأنا لن أتأخر عن صلاتي .. الأمر محسوم بيننا من قبل ..

أعجب ياسين بقوتها، وسكتت ديانا، بينما جاءت ميرا لتقول :- ديانا هل ستفسدين مخططاتي .. تجاوزي عن الأمر!!

فهمت ديانا نظرتها فقالت :- لنذهب إذا ونتركها تصلي ..

ابتسمت ميرا منتصرة لنفسها وقالت :- اذهبي أنتِ أيتها القائدة ، يجب أن أحضر شيئاً من الغرفة ..

فتذمرت ديانا:- سأفعل ..

استنكرت رحيق ما فعلتاه أمامها ولكنها ذهبت مع مريم للصلاة تاركة ميرا وياسين الذي قال :- على أي شئ تنوين أنتِ والإنجليزية؟

- لا شئ!

- نظراتكما تلك تؤكد لي أن هناك شئ كبير ..

راوغت ميرا :- أخبرتك أن لا شئ ..

جلس على مقعده قائلاً :- لماذا دعوتِني للحفل إذا؟ رحيق ليست بحاجة إليّ إطلاقا، تستطيع الاعتماد على نفسها، أنتما أيضا تستطيعان، حارسكن الشخصي ملّ من الانتظار ..

ضحكت ميرا وقالت :- ياسين، وفر ذكاءك لعملك، ستعرف كل شئ بعد قليل ..

انتظرا رحيق التي نسيت مشكلة اصطحابها لمريم بعد شجارها مع ديانا، عادت تتأبط ذراعها، نظر تجاههما ياسين ورأى ابتسامتين مشرقتين فابتسم، فباغتته ميرا :- أتحبها؟

- لا .. اندهشت من سرعته في الإجابة بينما نظر لها قائلاً :- أعلم أن تلك الليلة لن تمر على خير، لا أعرف ما تدبيرك، ولكن أي أذى سيصلها حتى وإن كان مزاحاً سيعرضكما لغضبي وأنتما لا طاقة لكما به ..

علمت أنه يقصدها وديانا ولكنها لم تخف بل قالت :- تحبها إذا وتخاف على مشاعرها؟

نظر لها محذراً في حين وصلت أمه ورحيق وسمعتا ما قالت، وبدت لهما الجملة مشوشة بعض الشئ، ولم يعرفان عمن تتحدث ميرا ..

جلست مريم بينما قالت رحيق :- ميرا .. هيا ..

وقفت ميرا لتبتعد مع رحيق وغرق ياسين في حديث مع أمه، حتى جاءه اتصال من ميرا تستنجد بهِ، ذهب ملهوفاً لغرفتهن دون تمهل تاركاً أمه وحيدة في انتظاره، وعند الباب وقف يهاتف ميرا ثانيةً فرجته بالدخول سريعاً، لم يفهم ما الذي يرِدْنَه منه، ولما تردد قالت بلهفة :- رحيق غابت عن الوعي.. وكأن ذكر رحيق كافٍ لخرق كل القوانين، واضطراب أي ميزانٍ لديه، دون أن يطرق الباب دخل، رفع ناظريه ثم تجمد واقفاً، ليس في الغرفة سواها تقف أمامه ذاهلة..

عندما أخبرتها ميرا وديانا بأنهنَّ سيبِتْن ليلتهنَّ هنا، أخبرت والدها فوافق، جلسْن ثلاثتهنَّ سوياً يمرحْن ويراجعْن ما أنتجه عملهن، حتى تركتهما ديانا لبعض الوقت فأصرت ميرا على رحيق أن تجرب فستاناً اشترتْه لنفسها، وافقت وأبدلته بما ترتدي، فستان أبيض يكشف عن ساقيها وذراعيها، وكذلك ستفعل الأخريتان ، ويقضين الليل في التصوير والمرح، هما صديقتاها وتثق بهما حد الموت، هي في الأصل تثق بالجميع حد الموت، ولكن الآن هي وحيدة في الغرفة تقف

أمامه بلباسها هذا، ينظر إليها مصدوماً، ترتجف بخفة لوجوده، ويستشيط قلبه غضباً وقهراً، أهكذا فكرت ميرا؟

خرج صافعاً الباب خلفه، فتحول ارتجافها إلى انهيار أجلسها على الأرض، لم تمضِ دقائق حتى وقفت بثبات، وتحركت لغرفة تبديل الملابس، تبدل فستانها بملابسها المحتشمة، وتلملم حاجياتها عازمة على ترك المكان.. وفي طريقه للخارج قابل ميرا التي تبتسم بخبث، وديانا التي لم تفهم شيئاً لوجودها في الخارج أثناء حبك ميرا لخطتها، أخرس غضبُه ابتسامةَ الأولى، وأثار القلقَ في نفس الثانية فهتفت :- ماذا كنت تفعل في غرفتنا؟

قال صارخاً :- أهكذا ستجعلينها قوية، ديانا؟

أجابت بعدم فهم :- لم أفهم؟

بينما نطقت ميرا المتوجسة :- ماذا حدث ياسين؟ ألا تحبها بل تعشقها؟ لم أفعل شيئاً سوى أنني هيأت جواً مناسباً لاعترافك؟

أغلظ صوته الصارخ وقال :- ماذا؟ أيتها الغبية! هل مشاعر الناس لعبة؟ وما شأنكِ أحبها كنتُ أو أكرهها؟ ولكن هي الغبية الساذجة التي تثق بالناس أجمع، وتفعل ما تؤمر دون تفكير؟

ثم تركهما، ترك ميرا للوم ديانا الغاضبة المشفقة على حال رحيق من شئ لا تعلمه إلى الآن، قالت بهدوء ينافي غضبها :- ماذا فعلتِ؟

- قلتِ أنكِ لن تلومينني؟

لم ترد عليها وهي تتجه نحو الغرفة، وجدت رحيق تحمل حقيبتها مرتدية ملابسها التي رأتها بها وحجابها فلم تفهم الأمر، قالت بتساؤل :- إلى أين؟ وماذا حدث؟

رفعت رحيق وجهها الغارق بدموعها نحوهما، ثم اتجهت بناظريها إلى ميرا وقالت بصوتٍ خاوٍ من أي مشاعر تحملها :- سأغادر ، ولا أريد معرفتكما بعد الآن، لقد انتهى كل شئ..

رحلت ولم تسمح لهما بفرصة للمقاطعة، صرخت ديانا بميرا تناشدها بما حدث، ولما أخبرتها الثانية جلست لوهلة تستوعب الأمر ثم قالت :- ألم أخبركِ قبل ألا تقتربي من حدود دينها؟ هل ضاق عقلكِ بكل الحيل ليخرج بهذه؟

جلست ميرا ولم تجِب فقد عبر الصمت عن حالها، لم تكن تعرف أن نهاية مزحتها ستكون هكذا، هل بالفعل ضاق عقلها، أم استهزأت بمشاعرهما؟ ولكن الآن ضاق صدرها لما حدث!!

في توه غادر مع أمه، وغادرت هي أيضاً سريعاً، وتجنبت الناس جميعهم بعدها، فلم يعد لها من تثق به، قد تكون ثقتها بميرا وديانا عائدة لأحمد الذي ربطها بهما، أو عائدة لنفسها الساذجة التي تثق بأي كائنٍ يسير على قدمين، تنخدع بمن تنخدع ولا تتعلم أبداً، لماذا يفعلان بها ذلك؟ ألم تخبرهما مراراً بألا يقتربا من حدودها، وهي لم تقترب من حدودهما ولو لمرة واحدة، ألأنها خائفة مثلاً؟

وشريكها في الخديعة ينتظر رؤيتها على جمرٍ متقد، لم يهدأ له بالٍ قبل توبيخها، يعلم أنها لم تكن تعلم أي شئ، ويعلم أنه من السهل خداعها، ولكن لماذا تكون بتلك السذاجة؟ حتى رآها بعد طول انتظار؟ ولم يمسك عليه لسانه وهو يتجه نحوها يخرج طاقة الغضب المدفونة به إليها، شظايا وصلتها كلها، لم تبكِ ولم تنهار ككل مرة، فهذه المرة مس عقيدتها، وشكك في إيمانها، نظرتْ نحوه بقوة، ثم قالتْ بتحكم :

-- اسمع ياهذا.. أنا مسلمة.. لا يهم رأيك في الأمر.. ولا يهم كيف تراني.. لقد شكرتك على ما فعلته معي قبل.. ولكن لن أسمح لك بإهانتي أو الحكم على أفعالي بعد الآن.. حتى هذا الموقف أنت المخطئ فيه.. أنا محجبة لأنني مسلمة.. لا أتخذك صاحبا لأنني مسلمة.. لا أكذب لأنني مسلمة.. لا أشرب الخمر لأنني مسلمة.. أحافظ على صلواتي في أوقاتها لأنني مسلمة.. ومن الآن لن أسمح لك بالتدخل في شئوني لأنني أيضا مسلمة..

سكتت على تطاوله كثيرا، والآن لن تسكت، ولن تخاف؛ فنظر لها باستهانة قائلا :- وبالنسبة لسذاجتك.. هل أنت ساذجة لأنك مسلمة أيضا ؟؟

وسارتْ الأمور برتابة بعد ذلك، ولكنه وجد مشاعره نحوها تتدفق بصورةٍ لم يعد قادراً على التحكم بها، طلب من خاله أن يساعده في أمر الزواج خشية أن يرفضه والدها لأنه لا يملك ما يعيل ابنته، وساعدته أمه بمبلغ لم يكن يتوقع أنها تملكه، بقي أن يعرف رأيها قبل أن يقدم على خطوةٍ كهذه، ولم يعرف كيف يلتقيها كي يسألها، فلم تعد لها علاقة بميرا وديانا حتى يستعين بهما، ويرى أنها محقة فيمَ فعلتْ..

ولم يعرفْ أنها بجلسة واحدة مع ديانا التي أتتها معتذرة كانت قد نسيت كل شئ وسامحتهما..

حين جاءتها ديانا لم تتوقع أبداً أن رحيق قد تسامحها أو تبتسم في وجههما يوماً، ولكنها فعلتْ..

قالت ديانا من بين اعتذاراتها :- ولكنكِ مخطئة رحيق! هل من المفترض أن تطيعي ميرا في كل ما تطلبه؟ كيف تلبسين فستاناً كهذا في مكانٍ لا تأمنين نفسكِ فيه؟ أين تقارير أحمد لكِ؟ ميرا مختلة ونحن نقر بذلك، أين عقلكِ أنتِ؟

قالت رحيق بأسف :- لا أعرف كيف فعلتُ ذلك؟ الأمر حدث بسرعة غريبة؟ ألوم نفسي منذ ذلك اليوم ، ولم يخف الأمر في نفسي، حتى ذلك الوقح جاء ولامني..

ابتسمت ديانا وقالت :- ولكن الفستان الأبيض أثبت ما أرادته ميرا، هذا الوقح واقع في غرامك لا محالة..

عبست رحيق وهي تقول :- ديانا أنا أكرهه، ولا أريد أن أسمع اسمه حتى..

ربتت ديانا على يدها وقالت :- ميرا حزينة واجمة منذ ذلك اليوم، أنتِ تعرفين أنها تدرس هنا لتهرب من سيطرة أبيها عليها، لا تقسِ عليها أنتِ الأخرى، هي معترفة بخطأها، هل تسامحيها؟

أومأت رحيق برأسها موافقة، وطابت نفسها كأن شيئاً لم يكن، إلا منه هو..

حين عاد مجرى حياتهن يسير معاً، التقاها ياسين في وجودهما، عبست رحيق بسرعة لمجرد رؤيته وقالت :- ماذا يحدث هنا؟

جلس حول الطاولة أمامها بصورة أخجلتها وقال :- لا يحدث شئ على الإطلاق، أردت أن أخبركِ بأمر هام، ولا تقلقي من شئ، ثقي أنني لا أريد أن أغضبكِ أبدا.. اسمعيني فقط ..

لانت ملامحها وهي تحرك مقعدها خطوة للوراء فقال :

- رجل في الخامس والعشرين من عمره، لا يملك من المال سوى ما يساعده على الزواج بأقل الإمكانيات، يستطيع أن يعيل زوجته، ولكنه لا يستطيع توفير حياة مرفهة لها الآن، يقولون أنه على دين ويرون أنه ذو خلق، يعشق أمه وستبقى دائماً المرأة الأولى في حياته، مشكلته أنه أعمى عند الغضب، ويحاول تغيير ذلك بالفعل، متهور قليلاً ، ولكن من المؤكد أنه سيكون زوجاً جيداً ..

في كل كلمة يقولها كانت دقات قلبها تتعالى وتتعالى حتى صمت أذنيها، عند نهاية حديثه شعرت بكهرباء تسري في جسدها، قبل أن ينظر في عينيها قائلاً :- هل ستقبلين برجلٍ كهذا زوجاً لكِ ؟

نظرتْ لميرا وديانا- اللتين لم تغادرا خوفاً من تكرار خطأهما معها- لتهرب منه لولا أنه قال :- لم أسمع ردكِ بعد!!

قالت بتوتر :- الأمر يرجع لأبي، وهمت بالمغادرة فقال:- بالتأكيد سيعود لأبيكِ ولكن أريد أن أعرف رأيكِ أولاً ..

كررتْ بتوتر واضطراب أكبر :- الأمر يعود لأبي !!

تنهد ليقول :- هل ستتحملين معه حياته المتواضعة لوقت قليل فقط ؟..

استنجدت نظراتها بميرا وديانا، ثم قالت بعد سكوتٍ أرعبه:- لا أحكم على الأشخاص بناءً على رصيدهم في البنك!!..

وقف منتشياً ليغادروقد شعر أن تنفسه عاد ينتظم بعد انقطاع ثم قال:- اعلمي فقط أن هذا الشخص يحبكِ كما لم يحب أحداً من قبل، وتركها لسخرية صديقتيها، وأثر ما حدث عليها..

****

لوس أنجلوس ٢٠١٣

بعد عودة مالك استقرت حياتهم كثيراً، وظهرت الفرحة على وجه رحيق ولم تفارقها. أصبحت تهتم بمالك أكثر من ذي قبل كأنما تود تعويضه عن كل ما حدث، أخبرهم مالك بأن بنان مقيمة لدى صديقة له، حيث لا يعلم أحد بأمر ديانا بناءً على طلبها، كان شاكراً لها ولياسين حيث قدما له تلك الخدمة، أصبح مستقراً في عمله بعد اتخاذه لقراره بدراسة الشئ الذي يحب، ألح على ياسين في العمل معهم في الشركة كما كان، فقد كان يخطط لوجود أحد يعتمد عليه جوار أبيه عندما يتركه، وقد كان ياسين كفؤا لذلك، وبعد محاولات عديدة لإقناعه وافق ..

وأصبح ياسين يعمل مع رحيق، حاولت هي أن تتجاوز آخر حوار بينهما، فهو الآن ليس سوى زميل في العمل، تسيطر عليها ذكرياتها الجارفة معه بشدة ، ولم تعد قادرة على تجاوزها، أو تجاوز مشاعرها المنجرفة تجاهه.. ولكن أبداً لم تنسَ كيف انتهتْ حياتهما معاً..

في آخر نهار العمل حينما دخل عليها، شعرت بوجل، إذ أن جميع الموظفين خرجوا لم يعد سواها ومالك كما ظنت ، بمجرد اقترابه فكرت بالاتصال بأخيها ولكنها تراجعت عندما استند على مكتبها بيديه ونظر لها قائلاً :- رحيق!! هل تقبلين بي زوجاً؟

توقف قلبها لثوانٍ، وغزت حمرة وجنتيها، ليست حمرة الخجل، وإنما غضب وقهر، هل يكرر طلبها ظناً منه أنها ستستجيب له كالسابق؟ ستحبه وتعشقه وتفني مشاعرها له، ثم ماذا؟ عند أول مصيبة يبيع! يتخلى عنها تاركاً إياها تائهة ضائعة بدونه، أليست هي الأنانية التي يرمي الجميع مشاعرهم تحت قدميها؟

ازداد احمرار وجهها واشتد، وعرف أنه ليس خجل، التوت شفتيها لأسفل وزمتهما في تحدٍ لبكائها، واحمرت عيناها مجاهدةً لمشاعرها المضطرمة، ثم هتفت فجأة :- اخرج الآن! لا أريد رؤيتك..

وقف مشدوهاً، وقد صدمه عنفها، وأوغرت قلبه دموعها المكتومة فقال بقلبٍ مكلومٍ لأجلها :- رحيق! لم آتي لأجبركِ على شئ صدقيني! اهدئي فقط!

صرخت ففزع وهي تقول :- اخرج الآن! أرجوك اخرج من هنا!

ولم تستطع التحكم بعدها في دموعها المنهمرة، غرق وجهها وهي تكابد لتخرجه لئلا يرى ضعفها، لا تريده أن يشهد انهيارها ويفرح أن له مكانة عندها، أو أنها تبكيه وتبكي حالها بعده..

على صراخها جاء مالك، نظر إليها وجِلاً ثم أطلق على ياسين نظره وقال هادئاً :- رجاءً اتركنا الآن!

أطاع ياسين ضائعاً، وذهب مالك إليها، مسحت دموعها بعنف وهي تهتف به :- مالك أنا أكرهه، لا أطيق رؤيته، ابعده عني..

ابتسم لا مبالياً بصراخها، ثم أخذها بين ذراعيه مهدئاً، وقال :- المصيبة أنكِ كاذبة، أنتِ دائماً كاذبة حين تهتفين بكرهكِ له!

لم تجِبْهُ إذِ انهارت باكية تتشنج بين ذراعيه، هل اقتربت مواجهتها بياسين؟ هل سيقدر لها أن تجتمع به ثانيةً؟

****

عزيزي مالك /

نعم نعم!! تعود على الأمر، سأرحمك من لساني السليط لفترة حتى أعود إليك لأبهرك بتطوره، كما أن الخطابات لها طقوس خاصة لذلك سأناديك عزيزي في تلك الرسائل فقط ..

أشكرك بشدة على تلك الأشياء الكثيرة التي اشتريتها لي، وذلك الكمبيوتر الذي أكتب لك من خلاله، لقد تأخرتُ في مراسلتك حتى يتسنى لي تعلم الكتابة عليه بسرعة، لقد عكفت على ذلك في الأيام الماضية، ليل نهار أكتب، حتى أن ديانا أشفقت علي بسبب مرضي، ولكنني لم أتنازل!

لقد فوجئت بتلك الأشياء التي وجدتها في غرفتي عندما وصلت معها، ملابس كثيرة، وأحذية، وذلك الجهاز، وكتب وكل الهدايا التي أحضرتها لي، لو كنتَ أمامي حينها كنتُ ضربتُك حتى أوجعتُك، ثم عانقتُك بشدة!!

ديانا شخص لطيف معي لأبعد حد، مازالت معتقدة أنني مريضة عليها رعايتها، بل أشعر أحياناً أنني ابنتها، تخيل يا مالك!! لديها عاطفة أم استثنائية!!

في الليلة الثانية من وصولي إلى هنا، سمعنا صراخ رضيع منعنا النوم، ارتدتْ حجابها وخرجتْ تتبين الصوت فاكتشفتْ أنه ابن جارها البريطاني، عرفتُ أنا أن الرجل يعيش وحيداً لذلك ترددتْ هي في طرق بابه، لكن كما تعلم فأنا لم أتردد وهممتُ بأن أطرق الباب فنهرتْني بشدة!!

ولكن صراخ الرضيع أدمى قلبها، لذلك أخذتْني معها وطرقنا الباب بلطف ثم عدنا إلى شقتها، كررنا الأمر لمرة أخرى وتراجعنا، ففتح الباب رجل جميل، آه إنه وسيم جداً يا مالك، ولكنه كان منزعجاً يبدو ذلك ..

أخذتني ديانا من يدي كما تفعل دائماً معي وطلبت منه بأدب أن يعطيها الرضيع لتعتني به، تردد في بادئ الأمر قبل أن تؤكد له أنها تستطيع العناية به وستعرف إن كان بحاجة إلى طبيب؛ فستستدعي طبيباً له، وافق شريطة أن يأتي عندنا وينتظر ابنه، ولكنها اعترضت وأخبرته أنها لن تفعل ذلك أبداً وإن كان سعيداً بصراخ ابنه فليبقه معه !!

لا أعلم أي قوة تلك التي تمتلكها هذه المرأة، إنها تعيش وحيدة وهو رجل يبدو عليه ساحر للنساء، وتبدو عليه الشدة أيضاً، كان الأولى بها أن تخاف من عرضه، ولكنها لم تهتز حتى، وهو الذي خنع لها وأعطاها ابنه!!

أخذتْه معها للداخل، وسرتُ أنا خلفها ولكن عيني لم تفارق ذلك الوسيم إلا بصعوبة، لقد خفتُ منه، أو تراني لم أرَ رجلاً فيه ذلك الخليط العجيب من قبل، وقبل أن تشتمني أيها المتسلط، هو لم يجذبني إطلاقاً، أنا أصفه لك فقط ..

آه آه! ستقول دعينا منه وأكملي قصة الرضيع، سأفعل لا تتعجل الأمر، كل ما حدث أن ديانا ساحرة، فعلت بالصبي أشياءً قليلة ونام بعدها، ولكن شغلني كثيراً احتفاظها بحفاضات أطفال وهي لا تمتلك أطفالاً حتى، وكل مستلزمات الأطفال، لقد حممته وألبسته ملابساً غير التي ارتداها من قبل، ثم أحضرت له شيئاً ساخناً وأسقته إياه فشربه ونام، كنت أراقبها بعين ذاهلة، كم كانت حنونة كأنه ابنها بالفعل، كما كانت متأثرة بشدة من عودته لأبيه، ولكنني أعتقد أن ضيقاً آخر أصابها بسبب ترددها على شقة ذلك الغريب، رغم أنني لا أرى في ذلك شئ فهي كانت تساعده، ويبدو أن هذا الوسيم اندهش بشدة عندما رأى ابنه نائماً، قالت عدة أشياءٍ بسرعة عن اهتمامه بابنه وخلاف ذلك ثم عدنا لشقتنا لأغرق في النوم بعد انتهاء هذا الإزعاج!!

النوم .. تخيل أن الكوابيس لم تعد تهاجمني، أنام قريرة العين لا يشغل تفكيري شئ، في الحقيقة يشغلني شئ؛ ولكن لا أعلم ما هو؟ عندما أعرفه سأخبرك به!!

ديانا لم تقبل أبداً أي أموال مني وقالت أنني في استضافتها، هل هذا شئ جيد أم لا؟ أنا لا أعرف!! وحتى تجنبني الملل ستأخذني معها لعملها وتشركني في كل أنشطتها اليومية، لقد تطوعت يوماً لإعداد الطعام، صنعت شيئاً كالذي صنعتَه لي قبل، لم يكن لذيذاً كما فعلتَ أنتَ ولكنه على أي حال كان جيداً، ولم تشأ ديانا إحراجي بل قالت بأنه لذيذ جدا.. لطيفة هي ديانا..

يبدو أنني واقعة في غرامها!!

وذلك البريطاني لم يزعجنا، بل أصبح يقدر لنا ما فعلناه برضيعه؛ إذ يبدو أن زوجته تشاجرت معه في تلك الليلة، وتركت المنزل له مخلفة ابنها وراءها بلا رعاية، ويبدو أيضاً أنها عادت ..

سأخبرك بخبر قد يسعدك، لم أتذوق الخمر إلى الآن مذ تركتك، ديانا لا تدخله إلى بيتها مطلقاً، حاولت شراءه وأنا أتجول معها في المتجر ولكنها أخبرتني بأنه قد يؤذِني وخاصة أنني لتوي قد تعافيت من جراحة..

آه لا تعتقد أنني تخليت عنه بسببك، فأنت لم توفِ بوعدك ودخنت مرة بعد انفصالنا!!

يدي آلمتني بسبب كثرة الكتابة لذلك سأتوقف الآن وأكمل عندما أشعر بالراحة!!

انتظر أيها الأحمق!! كيف تقول لي ذلك؟ تلك الرسالة التي تركتها لي، تخبرني فيها بأن طعنة أخرى في نفس موضع الأولى ستقتلني وتنصحني بأن أطعن نفسي!! هل تريد موتي؟ انتظرني فقط!! ستمر هذه الأشهر القليلة وترى ما سأفعله فيكَ عندما أعود!!

لا تحدثني هاتفياً فصوتك يزعجني، لا أريد سماعه!!

المزعجة لكَ دائماً / بنان

أرسلتها وابتسمت ، فهي لم ترد على اتصالاته لها إلى الآن وكل مرة ترسل له رسالة هاتفية بأنها سترسل له خطاباً مطولاً عندما تتقن الكتابة ..

وفي نهاية اليوم جاءها رده :

مشاكستي بنان /

لست معتاداً على تهذيبك الذي لم تستطيعي التمسك به حتى نهاية الرسالة، كما أنكِ أصبحت ثرثارة جداً، سعيدٌ أنا جداً أن يدكِ آلمتكِ حتى تتوقفي فقد أصبت بصداع حاد بسببك، توقفي عن مغازلة الرجال أيتها الفاسقة، هل هذا وعدكِ لي بالابتعاد عنهم؟!

وبالنسبة للخمر، أنا لم أدخن ولا لمرة واحدة لأنني ببساطة منذ انفصلت عنكِ لم يصيبني أي غضب!!

هناك شئ قد يحدث قريبا وقد يضطرك لأن تأتي قبل مرور عدة أشهر، لتنتقمي مني على ما قلت، ولأطعنكِ بنفسي حتى تموتين وأتخلص منكِ !!

وبالنسبة للأشياء التي أحضرتُها لكِ، فهي ليست سوى هدايا تسعدكِ، أعلم كم تصبحين سعيدة بهدية بسيطة، لا تفهمي أبداً أنني أريد سعادتك، فقط أردت ألا تكدري عيش ديانا بكآبتك التي عهدتك عليها، فقليل من السعادة قد يغير مشاعرك وتصبحين جيدة معها، وبالنسبة لضيافتك، هذا أمر طبيعي جداً، لا تفكري فيه كثيراً، ديانا شخص جيد كما قلتِ أنتِ ولن تقبل منكِ أموالاً ..

لا تفكري كثيراً في الحدث الذي سيأتي بكِ إلى هنا قريباً، فعندما أتأكد من حدوثه سأخبركِ !!

وأنا في انتظار معرفة ذلك الشئ الذي يؤرقكِ، ستخبرينني به في رسالة قريبة ..

ولا تحاولي تجريب الطعام في ديانا مرة أخرى، أخشى أن يقتلها طعامك !!

المفتقد لإزعاجكِ دائماً /

مالك

أرسلها هو أيضاً مبتسماً، فذلك الشئ الأكثر سعادة في يومه أن يتواصل معها ويعرف أخبارها، انتهى وذهب إلى ياسين ..

****

ديسمبر ٢٠٠٩

عادت لألمانيا منذ عامين واستقرت هناك، استمرت زياراتها لرحيق وياسين بعد زواجهما السعيد، كانت زيارتها لهما فرحة في حد ذاتها لرؤية تلك السعادة التي تجمعهما، وكانت تتحين الفرص للقدوم للوس أنجلوس لرؤيتهما ..

أكثر ما كان يشغلها في ذلك الوقت الصلاة التي تجمعهما خمس مرات في اليوم، عشقت مريم كما عشقها الجميع ولم تكن تمل صحبتها، وكانت تراقب اجتماعهما عند كل صلاة يتقدمهما ياسين وخاله الذي يعيش في جوارهما بأسرته، تلازم مريم وتراقب وضوءها وصلاتها، وتستشعر ذلك النور الذي يضئ وجهها، ولم تكن تتخيل أبداً أنها ستفاجأ يوماً بموتها!!

وهي تسير شاردة في شوارع لوس أنجلوس في هذا العام، كان كل شئ قد تغير، اختفاء ياسين من حياتها بعد انفصاله عن رحيق وموت مريم، وذبول رحيق وإسلام ديانا وزواجها وطلاقها كل شئ جعلها ترى ظلمة في الدنيا، لم تعد سعيدة كما كانت، ولم تكن تعرف أنها ستأتي بعد غيابهم ضائعة، لم تعد ميرا السعيدة بعد أن طردها أبوها وشردها، لم تعرف أحداً غيرهما، ولكن لكل منهما مصيبتها، إلى من ستلتجئ؟!

لم يظهر في رأسها شخص سواه، هو من دق قلبها له منذ سنوات، هو من رأت فيه كل رجال العالم، هو من وصفه ياسين بأقسى الصفات وأبشعها ورغم ذلك بقيت على حبه، تعلم أن ياسين لم يقصد سوى ابتعادها عن ما نوت، هي أيضاً شاكرة له أنه منعها من ذلك، كيف كانت ستنتظر

لنفسها وهي تفعل ذلك الفحش بأن تسبب له فضيحة حتى يتزوجها أو تعرض حتى نفسها عليه؟؟ أي مصيبة كانت ستفعل بنفسها؟!!

ولكن هي الآن تائهة في الطرقات، لا تعرف ما سبيلها، هل تعود لأبيها وتعتذر على تطاولها معه؟ هل تخبره أنها ستبقى على دينها ولن تدخل في الإسلام؟ ولكن ديانا منذ أسلمت وهي سعيدة!! حتى رحيق دائماً سعيدة بدينها، على عكسها هي تماماً، لا تعرف دينها ولا تريد معرفته حتى، تعيش حياتها عبثاً قبل أن تفكر في دين جديد قد يعطي حياتها قيمة !!

هي تعرف أن جنون الحب يسيرها مذ عرفته، آن له أن يعرف أن هناك قلباً يحترق بحبه، ويذوب به ولعاً، تعرف عنوانه جيداً ستذهب إليه ويحدث ما قد يحدث! ليكن إرهابي كما قال ياسين، لتتأكد من ذلك بنفسها فتكرهه وتبرأ من حبه !!

اتخذت قرارها وذهبت إليه، وفي عقلها يطرق اسمه فقط " محمد يوسف "، رنت الجرس للحظات قبل أن يفتح لها ويبدو عليه النعاس، ولكنه قال بأدب :- هل أستطيع مساعدتك في شئ؟

المرة الأولى التي يحدثها فيها مباشرة، والمرة الأولى التي تقترب منه هكذا، جاءته هاربة من أبيها لتستنجد به هو، ويقدم لها المساعدة، لم تحتمل هذا كله وانفجرت باكية بصورة صعقته!!

١٣

حياتي أنتِ

لو تعلم كم بات ضعيفاً دونها، لو تعلم قسوة الحياة على رجل فقد أمه، كانت تعلم مدى عشقه لها ومدى قربه منها، لم تقدر حالته وهو يفقدها فجأة لم تمرض ولم تشكو. استيقظ يوماً وجد أنه أصبح يتيماً ضائعاً بلا مريم، بلا أمه، ولم يكن بيده أيضاً حزنه الذي أعجزه عن فعل كل شئ.

ولما استفاق أخيراً؛ وجد نفسه متهماً بسرقة تصميمات من شركة أبيها وبيعها لشركات منافسة، ومطروداً من عمله، لم يتذمر ولم يشكو، كان معترفاً بتقصيره ولم ينتظر من عمر أن يقدر حالته، انتشرت حوله الشائعات التي أكدها بسكوته وخنوعه لما يحدث؛ فهو لم يكن يستطع الهجوم أو الدفاع عن نفسه، كان عاجزاً عن الحياة.

عاد للعمل بملتجئه؛ مطعم خاله، ولكن هذا لم يدر عليه سوى عائد بسيط يكفي لإعالته وزوجته بأقل الأشياء، بعد أن عودها على حياة رغدة في السنتين السابقتين، وهي لم تشكو من ذلك بل بقيت جواره تسانده، وتشد من أزره، رغم ضيقها من فعل أبيها، إلا أنها عوضته عن ذلك باحتوائها له ولحزنه، حاولت مساعدته بأموالها فرفض بشدة كما رفض مساعدات خاله!!

بدأ عمر يرى أن ابنته لا تحيا كما تمنى لها، ويرى أنها فقيرة معدمة وهو ثري يستطيع إعالتها، فما الذي يبقيها مع زوج كهذا، فاتجه لتأثيره وسيطرته عليها بأن يحثها على طلب الطلاق من ياسين، رفضت ورفضت ورفضت، بل تجاوز الأمر كل ذلك وانقطعت علاقتها بأبيها، وبدأت

تلح على ياسين بأخذ أموالها وبدء مشروع له. كانت متأكدة من نجاحه وأنه سيرد لها أموالها حين يستطيع، لكنه رفض.

رفضه جرحها بشدة، لم يقدر ضغوط أبيها عليها، ولم يحاول الخروج من محنته، ورغم ذلك تحملته، ولكن ما أحنى ظهرها حقاً هو ظهور جوش في حياتها مرة أخرى، كانت لتوها تخلصت من هلعها منه قبل عامين، ما الذي رماه عليها مرة أخرى، لم تخَف من ظهوره، ولم تكن لتخاف لولا وجود ياسين في حياتها، لم تنسَ أبداً تلك الليلة التي جاءها فيها غارقاً في كدماته ودمائه، حينها علمت أنها النهاية!!

لقد أوقعوا به وضربوه، بسببها!! عاد جوش لينتقم منه، وهي السبب. لو لم يكن دافع عنها وأصبح حمايتها لما حدث له ذلك، ولو لم تكن زوجته لما طرده أبوها من عمله، لو لم تكن تعيش منعمة في ثراء أبيها قبل زواجها به لما شعر أبوها بفقرها وكدر عيشه بسببها، هي السبب في كل مصائبه؛ ستتركه عله يرزق بحياة سعيدة!!

في عامين من حياتها منحها كل السعادة والهناء، منحها كل ما يملك و لم يقصر معها في شئ، ولأجل أن يحافظ على الوهم المزعوم " الثراء التي عاشت فيه " لم يكن ليدخر سنتاً واحداً يقيهم شر يومٍ كهذا، كله بسببها، أخبرته أنها لا تريد تلك الرفاهية وأن السعادة التي قدمها لها أفضل كثيراً من أموال أبيها، ولكنه لم يهتم، فضل أن يغنيها عن كل شئ، ثم خسر كل شئ، وهي لم تعد تحتمل أن يخسر أكثر من ذلك..الطلاق هو الحل!!

في البداية عرضت الأمر كنوع من التحفيز له، وكأنها تهدده بأن ينهض أو تبتعد عنه. لم يعبأ لها لمرة وثانية وثالثة، فقد كان لاهياً عنها في عالم آخر، ساكناً ينتظر الموت ليلحق بأمه، كان ضعيف كضعفها يوم فقدت أحمد. حثته على الانتصاف لنفسه، أخبرته بأن يدافع عن نفسه حتى يظهر الحق، قالت له أنها تصدقه واثقة فيه وبه ، لم يعبأ ولم يتحرك. فاض بها الكيل، لم تحتمل أن تراه هكذا فكررت طلب الطلاق كتهديد فقط ولكنه هذه المرة أذعن لها.

حينها كانت الصدمة هي المسيطرة عليها، هكذا بسهولة فرط فيها كما فرط في نفسه، ولم يحتمل كبرياؤها أن تكرر حديثها إليه. وبقي عقلها مشتت مع قلبها، أهي تخلت عنه أم فرط هو فيها؟! بعدها جاءها لينفذ طلبها، لم تعرف حينها أتدافع عن كرامتها وتدعي اللامبالاة؟ أم تخبره أنها ستبقى معه حتى النهاية وهي تراه كالميت أمامها؟ ولم يعطها الفرصة لتختار وضعها أمام الأمر الواقع وهو يملي عليها وصاياه الخرقاء كعقله، ويعانقها كأنه لن يراها ثانية، وترك المدينة بعدها واختفى.

عاشت تائهة ضائعة، هل انتظر أن تطلب منه أن يبتعد فينفذ؟ أم انتظر أن يتخلص من حملها دون أن يجرحها؟ لماذا فعل بها ذلك؟ لماذا أبعدها عنه بلا رحمة؟ لماذا يقصيها من حياته كأنها بلا فائدة مرجوة!! تركها لسنوات تعاني هل الذنب ذنبها أم ذنبه؟ هل هي تخلت عنه أم أراحته من شرها؟

ولكن لما عاد كان كل شئ قد تغير!! حتى أنها فوجئت بطلبه للزواج منها، لماذا يريدها الآن؟ هل تحسنت أحواله؟ أم فعل ذلك كاعتذار؟ وهربت بطريقة بائسة وهي توافق على الزواج بآخر، ولم يكن في أبشع أحلامها أن تفعل يوماً ذلك، ولكنه ما ترك لها وسيلة أخرى، هو السبب!!

إن كانت عقدة الذنب تحاصرها فهو بقي لخمس سنوات يموت بسبب غيابها ، هو متأكد أنه السبب فيمَ حدث؛ هو من فرط فيها وليست هي كما تزعم، يرى أنه كان به من الخسة والنذالة ما يجعله يتركها هكذا، ولكن أن يبقى معها لأنه يحتاجها فقط لهو منتهى الخسة ، هو يحتاجها أكثر منها هي، أكثر مما تعرف، يستمد قوته الظاهرة لها منها هي!! أي جنون ارتكباه عندما فعلا ذلك؟ كان هو من يمتلك زمام الأمور، وبيده منعها من قرارها، ولكنه لم يرى أن هذا هو الحل، حياتهما وصلت لحائط مسدود، وانفلت الزمام من بين يديه!!

والآن بعد عودته بعدما طلب الزواج منها أكثر من مرة، يعرف أنه من الصعب أن تتقبله، يعرف أنها ذات يومٍ حين طلبت الانفصال كانت تهدده، يعرف أنها شعرت بهوانها عنده حين نفذ، ولكن لم يكن بيده حيلة أخرى، حين اغترب لخمس سنواتٍ لم يكن يداوي جرحه فقط، بل كان يحاول أن يمنحها فرصة للحياة بدونه، تغلب على نفسه مراراً، ولكنه في النهاية ما استطاع أن يعيش بعيداً عن ذكرها..

جاء معتمداً على سماحتها، ظن أنها ستقبله وتعفو كما هي عادتها دائماً، ولكن لمَ انتهتْ عادتها الآن؟ لماذا لم تبقِها لأجله هو فقط؟

حين أخبره مالك بأنها تريد مقابلته، لم يصدقْ نفسه، وفرح كمراهق أخذ وعداً باللقاء من فتاته، ذهب إلى منزلهم، جلس في الحديقة يحيط به عائلتها، مالك ووالداها، بالظبط كأول مرة جاء، وهاهو أبوها تخلى عن غروره وكبره، إنه لم يعرفه الآن، وجاءتْ هي كعروسٍ تتهادى على صفحة النهر، خطواتها المرتبكة تميزها، وطرفها المسدل يزيدها تألقاً، جلست فانسحب الجميع إلّاهُ، قالت مباشرة بصوتٍ حافظتْ على ثباته :

- موافقة على عرضك، ولكن بشروط..

بسرعةٍ أجابها :- أوافق عليها..

ألم يشعر بمعاناتها طوال هذه المدة حتى تتخذ قراراً كهذا؟ قالت :

- أولاً زواجنا سيكون لأجل سيف، يعني أبوان له فقط، لقد حرم من أبٍ حي لسنوات أريد أن أعوضه عنها.. والشرط الثاني لستَ مجبراً عليه، هو لأنني لن أكون لك الزوجة التي تتمنى، فيمكنك الزواج بمن تتمنى..

نظر لها مطولاً يفهم ما قالت، أو يتأكد منه، أهي رحيق من تحدثه؟ لا ينكر أنه معتمدٌ على رصيده من الحب لديها، ولكن سيكتفي الآن من رصيده ويوضح لها كيف تكون هي عنده، ليبدأ الهزل معها إذاً حتى يصلا للجد في أقرب وقت، سيتزوجان ولن يكونا زوجين، هذا ما أرادت قوله، ليرى إذاً كيف ستتحمل هي؟ وكيف سيطيق هو ذلك؟

لا تعرف لمَ تمنتْ أن يرفض عرضها ويقبله بنفس القدر؟ تتمنى أن تبقى معه وتبعده عنها، هل سيستمر خوفها من التجربة كثيراً؟ إن لم يطمئنها ويفهم مشاعرها كما اعتادتْ فكيف ستسير أمورها، لا تريد انهيارات أخرى، قد اكتفتْ منها..

- موافق! لنتزوج..

ازدردت لعابها لتمنع جفاف حلقها ثم قالت :- إذاً سيتفق معك أبي على بقية التفاصيل..

وفرت من أمامه تتنفس الصعداء على ما فعلته، لتبدأ معاناة أخرى معها بين هل هو صحيحٌ ما فعلت أم خطأ ستندم عليه؟

تاركة إياه ترتسم على شفتيه ابتسامة لعوب متسائلاً :- إلى أي حالٍ سننتهي هذه المرة رحيق؟

وبعد إتمام الاتفاق مع أبيها قررا الزواج بعد أسبوعٍ لا أكثر ليفاجئها هذه المرة قبل أن تصدمه بشرطٍ ثالثٍ يعرفه...

****

لوس أنجلوس / ديسمبر ٢٠٠٩

صحوة مفاجئة من نعاسه وهو يرى انفجارها في البكاء أمامه؛ ما الذي يحدث هنا؟ هل أخطأت وجهتها أم ماذا؟

- آنستي! هل أستطيع مساعدتكِ في شئ ؟.. رددها لمرة أخرى عله يسكتَ بكاءها، ولكنها ماسكتت، وبعد أن أجلسها البكاء وقفت، قالت بخجل لم تعتاده على نفسها :- أنا .. أنا .. آسفة .. لإزعاجكَ .. في .. وقتٍ .. كهذا .. سأرحل الآن !!.. والتفتت لتقابل درجات السلم قبل أن يهتف :- انتظري !!

نعيش في الدنيا نبحث عن نصفٍ يكملنا؛ وعندما نراه نشعر أن جميع جنسه اجتمع فيه، وأنه الشخص الأمثل لحياتنا، وأنه المكمل الموافق لنا، كقطع الأحجية التي تحيرنا؛ ثم لا نجد لشبيهتها مثيل، هو شعور بالحيرة والتخبط والتشكك في كونه هو أم لا، لماذا هو فقط من حرك شيئاً فينا لم يحركه سواه ؟؟ لا نعرف!! ولكنه سيبقى هو!! هو فقط!!

وقفت ولم تلتفت فقال :- لماذ أتيتِ إلى هنا ؟

لا تعرف إجابة تجيبه بها، ولا تعرف ماذا تقول؟ فاعتذرت بتمتمة ثم أكملت طريقها للأسفل!!

دخل وأغلق باب شقته، والتمس الدفء بذراعيه، الجو شديد البرودة في ديسمبر؛ رغم انزعاجه من هذه الغريبة إلا أنها ساعدته على الاستيقاظ ليصلي قيامه، خيراً فعلت!!

توضأ فسمع رعداً اعتاده كل ليلة مع نور يبرق ومطر يشتد، ابتسم وهو يدعو، ثم قطب جبينه فجأة عندما تذكرها، من المؤكد أنها لم تصل لمبتغاها بعدُ، فتح نافذته يبحث عنها، فلم يرَها، الشوارع خالية إلا من بعض السكارى يترنحون، أغلق نافذته ودخل رغم أنه لم يطمئن؛ غريب أمرها تأتيه في ليلة لتشغل فكره هكذا؟

صلى ركعتين ولم ينتهِ المطر بعد، وشغله كثيراً أين ذهبت؟ أطل من نافذته مجدداً فلم يجدها، هاتفٌ في رأسه دعاه لفتح باب شقته، ولما استجاب له صدم، كانت جالسة أمام الباب تلتمس الدفء إذ لم يقيها وشاحها الخفيف إياه، تبكي وتئن بوجع جلب شفقته لها!!

ضائعة هي؛ أن تطرد من بيتها وتحرم من أموالها ونفقاتها، وتأتي إلى هنا لا تمتلك من المال إلا النذر اليسير، لا تستطيع حتى الذهاب إلى رحيق أو ديانا، رغم أنها تعلم ما ستفعله فيها ديانا إن علمت ما حدث لها، وتعلم كم ستعنفها لأنها لم تلجأ إليها، ولكنها لا تستطيع اللجوء لهما مطلقاً مهما حدث!! ولا تعرف لماذا تلجأ له هو وتُعرض نفسها لإهانة مثل هذه؟

عندما فتح بابه صدمت وارتعدت فرائصها، ولكنه دخل ثانية خشيت من ذلك، ظنت أنه دخل ليطلب لها الشرطة فهي متطفلةٌ عليه، أو دخل لإحضار شيئاً يضربها به، ولكنه لم يفعل بل عاد إليها بمعطف طويل، ثم مد يده به قائلاً :- ارتدي هذا !!

وقفت بسرعة وأخذته منه معتذرة، فأحضر مقعدين عند الباب و دعاها للجلوس، جلست وجلس؛ يشعر أن هناك خطأ ما، ولا يعرف ما حله، قال بهدوء :- من أنتِ ولماذا جئتِ إلى هنا في هذا الوقت ؟

بجمل سريعة بين شهقاتها ردت؛ تريد ان تسلم فطردت من بيتها ومنعت صحبة عائلتها، جاءت لصديقتيها ولكنها لم تستطع زيارتهما، فوجدت نفسها عنده، وظنت أنها شقة لأسرة قد يساعدونها حتى ينتهي الليل!!

تنهد ثم قال :- سأذهب بكِ إلى فندق تقيمين فيه حتى الصباح؟؟

قالت بحرج:- ليس معي أموال ؟؟

حرجه الأكبر انه لا يمتلك في هذه اللحظة أية أموال تكفي لليلة في فندق جيد؛ فقال :- أستطيع توصيلكِ لإحدى صديقتيكِ؟

لا تريدهما الآن، لن تستطيع مواجهتهما حتى إن رأتاها معه ، فوقفت قائلة :- أشكرك، أستطيع إعالة نفسي حتى الصباح ..

لا يعرف هو كيف حدث كل شئ بسرعة، ولا يعرف كيف انتهت به الليلة لتبيت معه في شقته، لا يعرف أي مصيبة حلت عليه هذه الليلة، لا يعرف!!

مرت السنوات ولا يذكر سوى شئ واحد، عندما وصلت للشارع فاعترضها بعض الشباب، فأعادها لشقته مجبراً، أدخلها للغرفة المجاورة لغرفته ثم أعطاها مفتاحها قائلاً :

- أغلقي الباب جيداً، غداً إن شاء الله سنذهب للمركز الإسلامي أو المسجد!!

ما رأت في حياتها ليلة أصعب من هذه، فيما بعد قدرت له ما فعل، ولكن في تلك الليلة ما قاله ياسين وديانا ورحيق حتى يبعدوها عنه بقي قائماً في ذهنه وكأنها صدقته الآن، لم يغمض لها جفن من الرعب والخوف.. وهو أيضاً كذلك!!

في اليوم التالي طرق بابها وخرج لينتظرها أمام الشقة، مازال ضيق يجثم على صدره، لا يعرف أخطأ ما فعل أم صحيح؟

ذهبا معاً للمركز الإسلامي، سألها الشيخ وأجابت، وبقيت مترددة، لم تستطع اتخاذ قرارها بعدُ، فأخبرها أن تأتي عندما تكون على يقينٍ مما ستفعل!!

طلب منها أن تنتظره في الخارج لدقائق وجلس مع محمد؛ في حديث طويل بين شد وجذب، وفي النهاية أمسك محمد رأسه قائلاً :

- وما الذي يجبرني على ذلك، عرفتها بالأمس فقط وأتزوجها اليوم، ثم أننا بذلك سننفرها من الإسلام، ولماذا نزوجها برجل لا تريده؟؟ شيخي انسَ الأمر، لا أستطيع القيام بذلك!!

بدأ يتحدث بلسان آخر، ستسلم على يدك، تعلمها دينها، ولك الأجر، كما أنك بحاجة إلى زوجة تعينك على الحياة هنا، وهي بحاجة إلى زوج يأخذ بيدها و ما المانع إذاً؟

- وما أدراكَ أنها صادقة؟

- قلبي أخبرني!! فكر في الأمر، واستخِر، لستَ مجبراً، وقد ترفض هي وينتهي الأمر!! سأدبر لها مكاناً للمبيت حتى تتخذ قرارك، لن تستطيع أخذها معكَ بعد الآن!!

تركه حائراً، نظر لها عندما خرج ليجدها حزينة شاردة، لم تلحظ حتى مروره، لا يبدو عليها الخداع حتى!!

طال تفكيره ليومين، نصف راتبه من الجامعة يكون لإيجار شقته المتواضعة والنصف الآخر يرسله لأخواته المتزوجات، ويعيش من عمله الإضافي، من أين له بأموالٍ للزواج، كما أنه لا يعرفها حتى، ولم يكن يخطط للزواج الآن، وحين يقرر الزواج ستكون له صفات يريدها في زوجته ..

الزواج رزق!!

بدأ بمهاتفة أخواته الثلاثة اللائي يكبرنه، كلهن شجعنه على الأمر، مبارك لك تزوج!!

لم يعد له أحد يبقيه في مصر بعد زواج أميراته الثلاثة، وانشغلت كل منهن بزوجها وأطفالها وعائلتها الجديدة، جاء إلى هنا قد يستطيع صناعة مستقبل دفن في مصر قبل أن يولد، وعدهن أنه سيأتي لزيارتهن عندما تسنح له الفرصة، ولكنه إلى الآن لم يستطع فعلها سوى لمرة واحدة، ويرسل لهن بالمال كأنه ينفق عليهن، رغم رفضهن ورفض أزواجهن لمَ يفعل، ولكنه سيظل يرى نفسه المسئول الأول عنهن!!

بعد يومين آخرين من إبلاغهن بالأمر، أبلغ الشيخ موافقته على هذه الزيجة السريعة، وبدأت نفحات الزواج تهب عليه، إذ أرسلت له أخواته كل ما أرسله لهن يوماً من أموال، لم يقبلنَ غضبه أو اعتراضه بل أرسل له أزواجهن كذلك واعتبروه هدية الزواج.

جاءه موافقتها على الزواج، وبقي متردداً خائفاً كخوفها من الإسلام، حتى تم الزواج!!

وأصبحت ميرا زوجة محمد يوسف كما حلمت دوماً.. لثلاثة أشهر معه حتى أعلنت إسلامها بصورة رسمية..

****

مانشستر ٢٠١٣

خرجت بنان من غرفتها تبحث عن ديانا وما إن وجدتها سريعاً جالسة في شرفتها حتى اتجهت نحوها قائلة :- متى سنسافر؟

ابتسمت ديانا وهي تنظر لها قائلة :- ما رأيكِ في بعض القهوة باللبن، لذيذة!!

تذمرت بنان ثم ابتسمت لتقول :- أريد عصير الفواكه تصنعينه بنفسكِ!!

وقفت ديانا قائلة :- حالاً تجدينه أمامكِ!!

اتجهت لمطبخها فذهبت بنان معها وهي تعيد سؤالها :- متى سنسافر؟

أحضرت ديانا الفاكهة ثم قالت :- يوم الزفاف، أريدها مفاجأة لرحيق!!

وجمت بنان قائلة :- ومتى سنعود؟

- بعد يوم واحد من ذهابنا!!

- سنبقى ليومين فقط!!

أومأت ديانا قائلة :- لا أستطيع تأجيل عملي أكثر من ذلك؟ هل يضايقكِ الأمر؟

قالتها وبدأت في صناعة العصير بينما قالت بنان :- لا .. كنت أسال فقط!!

ابتسمت ديانا وهي تقول :- إن أردتِ البقاء هناك ، لكِ ذلك، لن أجبركِ على العودة معي!!

نظرت لها بنان محدقة بها ثم قالت ما تفكر فيه :- وأترككِ تعيشين وحيدة!!

قالت ديانا وهي تسكب لها العصير في كوب :

- أنا أعيش وحيدة دائماً، رغم أنني سأفتقدكِ؛ ولكن لا عليكِ فكري في الشئ الذي سيسعدكِ!!

- أنا سعيدة هنا ..

قدمت ديانا العصير لها وهي تقول باندهاش :- حقاً!!

أخذت بنان الكوب منها وقالت :- حقاً!!.. ولا تعرف ما سر السعادة التي لمعت في عيني ديانا، هل هي مفتقدة لوجود أشخاص معها إلى ذلك الحد؟

عادتا إلى الشرفة فقالت بنان :- لماذا لم تتزوجي كرحيق وميرا؟ ألستِ بنفس العمر؟؟

ضحكت ديانا قائلة :- بلى!! ولكن الزواج ليس بالعمر أبداً، أمي تزوجت أبي عندما أكملت الأربعين من عمرها، أنجبتني مباشرة ثم انفصلا!!

علقت بنان وهي تنهي كوبها :- إنه لذيذ، أريد الكثير منه!!

- عندما تستيقظين كل يومٍ ستجدين منه في الثلاجة!!

- أنا أيضاً، أنجبتني أمي ثم انفصلت عن أبي مباشرة!!

ثم أكملت :- لم تتزوجي؟

أجابت ديانا :- تزوجت، وانفصلت عن زوجي بعد ستة أشهر تقريباً!!

- ألم يكن جيداً؟

- لم يعد زوجي الآن!! فقط لم نكن متفقين ..

- ألم تتزوجي ثانية؟

- لا أحتاج لوجود رجلٍ في حياتي، سوى في أمر واحد!!

نظرت بنان لوجومها وسألت :- ما هو؟

ابتسمت ديانا قائلة :- أريد أن أصبح أم، الشئ الوحيد الذي سيجعلني أماً هو الزواج!! أريد أن أكون عائلة، لا أريد أن أبقى في الدنيا وحيدة، أريد أناس يحيطونني عند موتي ويلقنونني الشهادة، يصلون عليّ !! يحملونني ويدفنوني، حتى في آخرتي يجاورونني في الجنة!!

وجمت بنان ثم نظرت للسماء الصافية وقالت :- أنا أيضاً وحيدة، ولكن ليس لي هدف مثلكِ ..

قالت ديانا بصوتٍ حانٍ :- مازلتِ صغيرة وتبدأين حياتكِ، ستدرسين، وتتزوجين وتنجبين أطفالاً كثيرة، سأربيهم لكِ!!

قالتها ضاحكة، فزاد وجوم بنان قائلة :- لماذا تتجنبين الحديث معي في هذا الأمر؟

- أي أمر!!

حينها انفعلت بنان بصورة فاجأتها قائلة :

- لماذا تتجنبان ذكر الأمر أمامي؟ رغم أنني متأكدة من أنكما تفكران فيه، أنتِ ومالك، وتعلمان أنكما أقرب الناس إلى قلبي، لكنكما لا تفهمانني أبداً، أريد أن أعيش مطمئنة مثلكما، ولكن لا أعرف كيف؟ أنا لست سيئة لهذه الدرجة لا أهاجم الرب ولا أنفي وجوده وفي نفس الوقت لا أشعر أنه موجود، لا أشعر بشئ، لو موجود هو بالفعل أريد أن أصل إليه بعقلي، أشعر به في كل شئ حولي كما تفعلين أنتِ ويفعل مالك، عندما تعرض لمصيبة لجأ إليه وكان على ثقة أنه سيجيبه وأجابه بالفعل، لقد أنقذني وكنت على وشك الموت، لا أستطيع تصديق ذلك، كيف استطاع؟ أريد أن أصل إليه وأشعر به، ولكنني أشك في كل شئ، كل شئ يجعلني أقول قد يكون وقد لا يكون، الشك شئ قاتل أنتم لا تفهمونه، لا تفهمون كيف يعيش الإنسان وهو يشك في كل شئ حوله، لحد قد يصل به إلى الجنون!!

ابتسمت ديانا وقالت بهدوء :

- ولكنني أعرف!! قد أكون لم أشك في وجود الله، ولكنّ شك أصابني في الطريق الصحيح للوصول إليه!! أعلم كم هو صعب شعوركِ بالتيه والضياع!! ولكن الأصعب اتخاذكِ القرار؛ عليكِ أن تتخذي قراركِ إما بالبحث عنه، أو بإنكار وجوده تماماً رافضة أي دليل!!

سكتت بنان قليلاً تنظر لعينيها ولا تفعل شيئاً آخر؛ عليها اتخاذ القرار، ولكن أي القرارين سينهي حيرتها، فسألت :- ما هو شعورك بالله؟ أجيبيني بصدق!!

تهدجت أنفاس ديانا ثم ابتسمت وهي تلاحظ أنها قالت الله ولم تقل إلهكِ أو ربكِ .. ثم أجابتْ :

- أشعر به في كل نفس أتنفسه، في كل صبح جديد أراه، في كل غروب شمس و طلعة كل قمر، في كل فرج بعد ضيق وكل رزق بعد تعب ، أشعر به أرحم بي من أمي و أشعر بغفرانه الدائم لي، أشعر بحب لا محدود تجاهه، أشعر بسعادة وأنا ساجدة قريبة منه، أشعر كأني إنسان ضائع ورمته الدنيا حتى رسى على شاطئ الأمان بقربي منه، إنه الحق الواضح، الحي القيوم، أشعر أنه معي دائماً في كل لحظة من حياتي، وأنه لولا وجوده معي لما وصلت إليه بعد ضياع دام لسنوات عديدة!!

انتهت وقد تغير وجهها وهدأت سكناته، وارتعشت عيناها تنذر بدموعٍ حبستها لتحافظ على القوة التي تظنها بها بنان..

- سأبحثُ عنه..

نظرت إليها ديانا وقد فوجئت بقرارها السريع ولكنها ابتسمت وقالت :- لنبدأ الآن..

ابتسمت بنان ووقفت بدورها واتجهت معها لإحدى الغرف، إلى متى ستداري حيرتها بمزاحٍ سخيف؟ إلى متى ستدفن شكوكها داخلها متظاهرة بذلك العبث الذي ظنوه بها؟ هل ستصل إلى اطمئنانهم وسكينتهم ذات يوم؟

****

كما في زواجهما الأول مر الأمر بيسر شديد؛ لم يعرقله شئ، ولكن هل سيستطيع الحفاظ عليها أم سيفرط فيها ثانية؟؟

وبقي متوتراً طوال اليوم، إلى الآن لم يتحدثا عن أي شئ، لم يتصارحا؛ يجب عليهما قبل البدء من جديد أن يصححوا كل الأخطاء التي أدت إلى فشلهما سابقاً، ولكن كيف يفعل بعد قرارها؟ كان عليه احتواء الأمر وفشل؛ فلن يسمح لنفسه بفشل آخر معها..

خوفها بلغ نهايته وهي تنتظر تلك اللحظة التي ستنفرد فيها معه، لن تستطيع مواجهة جرائمها، لن تستطيع مواجهة كم كانت قاسية وهي تنحره بفراق ليس أهلا له، لا تعرف ما العمل؟.. ها هي تبرئه من الذنب وترمي اللوم كله عليها، كما كانت وستكون، مسكينة رحيق ويعرف هو ذلك، لم ينقذها من حيرتها سوى مرأى ديانا وبنان قادمتين نحوها وهي تجلس في غرفتها مع

أمها، عانقتهما بشدة و لم تسأل أين كانت ديانا؟ لم تسأل كيف اجتمعتا؟ بها من الهم ما يغنيها عن أي سؤال؟ لكن اكتفت بنظرة عتاب لمحتها ديانا متسامحة..

لا تنكر انبهارها لما خرجت لتجد الحديقة بهذا الشكل، وعرفت أن ميرا من فعلت!! لم تكن موافقة في البداية على إقامة زفاف لها، ولكن جميعهم أصروا، وبدأ ياسين باستخدام أسلحته وجعل سيف يلح عليها في الأمر..

هي سعيدة الآن بما فعلته ميرا لأجلها، وسعيدة بعودة ديانا لأجلها، وسعيدة بسعادة سيف، ولكن ياسين!! لا تعرف شعورها نحوه، فهي تتمنى بصدق تجاوز كل ما حدث وبناء حياة جيدة معه، تتمنى مسامحة نفسها على ما فعلت !!تتمنى!! أو تتمنى أن تسامحه على ما فعل، ستعود لتلوم نفسها ثانية، أي حمق تلبسها لا تعرف؟

ليلة هادئة مرت، فرحة لم تكن لهم منذ زمن، لا تحب تعكير هذه اللحظات..

****

منذ وصولها وهي تبحث عن مالك، أرادت ديانا أن يكون وجودها مفاجأة، فلم تخبر أحداً بموعد وصولها وكذلك فعلت هي ولم تخبره، أصابها ملل بطئ حتى موعد الحفل، رأته أخيراً، لم تصبر أن ذهبت نحوه بكل شوقها إليه وقالت :- أيها الأحمق أين كنت؟

كان حينها يقف مع محمد ووالده، فتركهما بحرج، واتجه مبتعداً حتى تسير خلفه وفعلت ثم توقف قائلاً :- لا أشتمكِ أمام أي أحد كان فلا تفعلي أنتِ!

ردت بنان منفعلة :- ماذا أفعل؟ أبحث عنكَ منذ جئتُ إلى هنا، أليس من الأجدر بك أن تبحث عني أنتَ أيضاً؟

ابتسم قائلاً :- ومن أخبركِ أنني لم أفعل؟

ثم نظر لردائها مكملاً :- رأيتكِ عندما وصلتِ مع ديانا ولكنني شككت في كونكِ أنتِ، لقد فكرتُ في الفتاة الجميلة التي تصطحبها ديانا و لم يخطر لي ببال أن بنان قد تصبح فتاة ..

احمرت وجنتاها حتى نهاية حديثه غضبت قائلة :- ماذا تقصد؟

ضحك قائلاً :- لا أقصد شئ، أخبريني كيف حالك؟ هل تشعرين بالسعادة؟ هل عرفتِ ما الشئ الذي يشغلكِ؟

أومأت سعيدة باهتمامه ثم قالت :- أخبرتك أنني واقعة في غرام ديانا لا تقلق علي، أخبرني أنتَ كيف حالك؟ هل وقعت في غرام امرأة أخرى؟ وماذا عن عملك؟

لو كان السؤال عن امرأة أخرى من أحد غيرها لثار عليه، ولكنه أجاب ببساطة :- أنا بخير حال، لم أجد إلى الآن امرأة تناسبني، ليندا جاءتني إلى العمل أكثر من مرة و ولكنني أعرضت عنها، حتى أرسلت لي صور زفافها منذ يومين !! عملي يسير بشكل جيد الحمد لله!!

وجمت قائلة :- ماذا؟؟ صور زفافها؟!

ابتسم وهو يهم بوضع يده على رأسها ليبعثر شعرها كما اعتاد ولكن يده توقفت في الهواء بصورة لاحظتها وشغلتها، ستسأل ديانا عن هذا لاحقا، وقال :

- ما بالكِ أيتها المشاكسة؟ هل ستبكين لأجلي؟ صحيح أنني غضبت بشدة حينها ولكنني فعلتُ نصيحتك..

ابتسمت قائلة :- فتى جيد!

ضحك وقال :- أنتِ أيضاً فتى جيد!

- مالك!!

- اه .. نعم تذكرتُ .. أصبحتِ فتاة .. فتاة جيدة!!

خفتت ضحكته وهو يتذكر نصيحتها التي أرسلتها له منذ يومين

" عزيزي مالك /

سألتُ ديانا عن علاج للغضب بدلاً من التدخين فقالت أن علاج الغضب في دينكم الوضوء والاستغفار

رسالة قصيرة بدلاً من ثرثرتي ، المهم أن تستفيد منها

زائرتك القريبة /

بنان "

وهي الحائرة الخائفة تنصحه بدينٍ تشك في وجوده، أيُّ جرمٍ تفعلْه بنفسها؟

****

انتهى الزفاف وانتظرها ياسين حتى تستعد للخروج معه، فهي أصرت على تبديل ملابسها أولاً، جاءته بعدها هادئة وكأنما تساق إلى الموت وليس إلى زوجها، إلى رجلٍ كان يوماً عشقها، هل سيصبر حقاً ويستطيع تحمل تمردها الأول عليه، أم سيضعف ثانية ويترك الأمر برمته لها؟...

١٤

لنبدأ حياتنا

لا يستطيع تحديد إن كانت الليلة الأجمل في حياته أم الليلة الأسوأ، منذ أن وصل بها لبيتهما، دخلا ففاجأته بنوبة بكاء طويلة وحرمته من أن يحتويها ثم انفجرت فيه تلومه على كل ما كان وبعدُ تركته واختفت في إحدى الغرف، جلس ياسين قرب النافذة المطلة على البحر ضاماً ركبتيه إلى صدره متكئاً برأسه عليهما ينظر للاشئ، هو لا يعرف أنها هكذا انتهت، أخرجت كل ما حبسته لسنوات، كل قهرها وحزنها، هي من الآن ستكون امرأة لا يعرفها، وعليه معرفتها من

جديد، كشخص غريب عليه، تساءل إن كان حبهما الكبير ذهب أدراج الرياح؟ سيبدأ من جديد، عليه استرداد حبها أجمل مما كان، هو يحبها وعلم تقصيره نحوها، ووعد بأن يفلح..

نعتته بالضعيف الجبان!! جرحته بهجومها، ومعترفة هي أنها صراحة، صراحتها معه كانت دائماً صراحة محببة إلى نفسه، حتى أنهاها بيديه، لا تعلم أن ما حدث له في خمس سنوات أعاد تربيته وتأهيله من جديد، وأصبح أكثر قوة واحتمال على مواجهة أي مصاعب، لماذا تلومه الآن على فجيعته بفراق أمه التي مازالت محفورة في قلبه؟ إنه الشئ الأكثر قسوة في حياته كلها!! هو نفسه لم يكن ليتخيل أنه سيصبح كذلك بفراقها، لأنه لم يتصور أنه من الممكن مفارقتها من الأساس، وظن أن حياته ستنتهي أولاً لعدم احتماله تخيل الأمر فإذا به حقيقة!!

كيف سيوضح لها أنه تغير ولم يعد ذلك الرجل الذي خذلها متى احتاجت، كيف سيغير صورته السيئة في ذهنها؟ يريد منها فرصة؛ فرصة واحدة ليثبت لها أنه زوج جيد وأب جيد!! ولكن لماذا حكمها يبنى على موقف واحد؟ هل ما فعله معها لسنتين مات أمام موت أمه؟

- ياسين.. ياسين..

أفاق من شروده على صوتها العذب، فظن أنه قد خيل إليه، هل ستثور عليه هكذا ثم تأتي تناديه بكل بساطة؟.. التفت ينظر إليها فقالت ببساطة :- صلاة الفجر..

أومأ موافقاً فعادت لغرفتها..

لو كان مالك لما استنكر ما فعلت فهو يعرف عنها ذلك، تبكي في لحظة ثم تبتسم في التي تليها، لكن ياسين لا يعرف، ففكر فيمَ فعلت مستغرباً، ولكنه لم يصل لجوابٍ يريحه!!

قام فصلى، ثم عاد لجلسته مجدداً، بينما هي صلت وفتحت نافذة غرفتها المطلة على المحيط تستمتع بالنظر إليه وانتظار شروق يوم جديد يأتيها فيه سيف الذي استأثرت به ديانا هذه الليلة، اشتاقت إليه كثيراً؛ ابنها الشقي ورجلها الأول!!

باسمة هي بصورة لم تفعلها من قبل؛ ولم تشغل تفكيرها بما قالته لياسين، فهي متيقنة من حاجته لهذه الصفعة منذ زمن، طوال هذه الفترة كانت نادمة أنها لم تفعلها وتصفعه حتى يفيق من غيبوبته، لم تكن المرأة الصالحة التي رغبت، والتي تساند زوجها إذا ما وقع؛ هو لم يسمح لها حتى، والآن كما لفظها من حياته قبل، هي ستلفظه من حياتها الآن كما فعل، وضعها في قالب الضعف الذي استهواه، وجعلها تعتمد على وجوده في كل شئ ثم تركها، معترفة أنها حمقاء إذ سمحت له بذلك، منذ الآن هي تشعر أنها طبيعية جداً، ليست بالقوية التي تتخفى خلفها، وليست بالضعيفة التي تكرهها، هي امرأة متوازنة الآن، وإن لم تجعله كذلك هو الآخر وتعيده لطبيعته ستعترف بفشلها حينها!!

إنها الكلمات الأخيرة لأمه وهي توصي عليه كأنه رضيع تخشى فطامه بعدها؛ ولكن ابنها لم يترك لها الفرصة لفعل وصيتها، وسمح لها بكل سهولة بالتخلي عنه!!

رغم كل ما حدث لها منذ ظهر ياسين، إلا أنها سعيدة بوجود مالك في حياتها، فخورة بأنه سند لها.. سند ما وجدته في أبيها الذي يرى إلى الآن أن سعادتهما تتمثل فيمَ يرغبه هو، وأنه ما كان

ليوافق على ياسين للمرة الثانية إلا لأجل ما رأى من ابنته الحمقاء في غيابه، لم يكلف نفسه حتى ليعرف أن ما كان بابنته ليس فقط هجر زوج؛ بل أصبحت أسوأ بسبب ابنها، إن كان بها ضعف فهي معترفة أن نقطة ضعفها الوحيدة هي سيف، هو فقط الذي تخاف عليه وتعيش لأجله!..

وهي الوحيدة أيضاً التي تعلم أن أباها ليس بذلك السوء الذي يراه مالك ويقره ياسين، هو فقط أب يخاف على أبنائه مثله في ذلك مثل كل الآباء؛ ولكن لكلٍّ طريقته في الخوف، لما هاجر في شبابه لم يتآلف بسهولة مع هذا المجتمع، لذلك رأى أن الحفاظ على أبنائه وعلى نفسه في مجتمع كهذا يكون بالثروة والعلم ولا مانع من بعض السلطة، وكان أحمد المثال الجيد للابن البار الذي يحقق حلم أبيه فيه، فساعده في الثروة وحقق له حلمه في العلم، وفجأة مات أحمد فظهر ياسين في الصورة مباشرة، فعوضه عن غياب أحمد من كل ناحية، لذلك زوجه ابنته بسهولة، ولكن تقريبه منه بهذا الشكل في العمل لفت أنظار الحاقدين إلى ياسين فوشوا به وبسهولة جداً قبل أبوها وشايتهم إذ كانت مدروسة جيداً!!

وبسبب حبه لابنته لم يشأ لها بأن تبقى مع زوجٍ مستغل خدع فيه واكتشفه فجأة؛ وصدق ظنه ياسين الغبي، إذ لم يستطع حتى الدفاع عن نفسه، ورأى أن لا فائدة، ببساطة أبلغها أنه لم يعد له أحد يحيا من أجله!!

ورغم شعورها بالقهر بعد طلاقها خاصة بعد علمها بالحمل، إلا أنها لاحظت ندم أبيها على ما فعل؛ فهو كأي أب لا يريد سوى سعادة ابنته، فيفعل أشياءً كثيرة تسعدها من وجهة نظره، ولكن بعد ما حدث لم يعد ليفرض عليها اختياراته!!

أما عن علاقته بمالك فهي حالة استثنائية !!

يريده في قالب أحمد لأنه يرى أن الابن المثالي كان أحمد، ليس مالك الذي له اختياراته وميوله وأهدافه البعيدة كل البعد عن الإطار الذي تمناه لهم، في وجود أحمد انصبت مشاعره واهتمامه تجاهه، وفي غيابه انحرفت مشاعره لمالك، فتوجهت إليه بغير رضا، يحبه ويرفضه، وكأنه ذنب، وكأنه اعتراض على وجوده، لماذا يكون الميت أحمد؟ كلهم أبناؤه نعم!! ولكن أحمد لم يكن ابنه فقط!! فلماذا يموت ابنه البار به ويحيا العاق؟؟!! وما فائدة حياة مالك إن لم تكن كحياة أحمد!! مشكلة أبيها مع مالك وأحمد هي اعتراض، اعتراض على قدر!!

عندما طلع الصباح هاتفت ديانا تسألها عن سيف، فأخبرتها الأخيرة بأنها ستذهب به إلى مالك بسبب سفرها المفاجئ؛ لولا رحيق قالت :

- إن لم يضايقكِ الأمر أريده معي! أو سأتصل بمالك ليأتيني به حتى لا تتأخري رغم أنني أردت رؤيتك قبل سفرك!!

ردت ديانا باسمة :- ستجدينه معكِ بعد دقائق؛ كنت أفكر أنا أيضاً في ذلك، أريد أن أودعكِ!

- سأنتظركِ إذاً..

بدلت ملابسها وخرجت لتجد ياسين جالساً كما تركته فجراً فقالت بهدوء :- ياسين..

التفت لها فلمحت احمرار عينيه وآثار أرق جلية عليه فقالت :- ديانا ستأتي بسيف الآن؛ يبدو عليك التعب، استرح قليلاً..

- ماذا؟!

لا تعرف أي جزء لم يفهم؛ فقال موضحاً :- أَسترح؟؟

فهمت أنه مستنكرٌ لحديثها معه بعد صراخها عليه ليلة أمس فقالت :- هل ستبقى جالساً هكذا بينما تأتي صديقتي لزيارتي؟

وقف متجهاً لغرفة أخرى دون كلم، اتجهت هي لتحضير طعام لسيف، حتى سمعت صوت الباب فركضت نحوه بسرعة سعيدة، وجدت سيف أمامها فاحتضنته كأنها لم تره منذ مائة عام، وكأنها بزواجها قدمت له الشئ الذي تمنى، بحثت بعينيها عن ديانا فوجدتها تقف بعيدة، أشارت لها بأن تأتي فوصلت عندها قائلة :- ماذا تريدين مني؟ لا أريد إزعاج العروس الجميلة ..

ابتسمت رحيق وكأنها عروس بالفعل، لم تغضب ولم تتظاهر حتى، كانت طبيعية وقالت :

- العروس الجميلة لم تكن لتسامحكِ لو سافرتِ ثانية دون إخبارها ..

ابتسمت ديانا قائلة :- لقد انكشف كل شئ وعرفتِ أنني كنت في بريطانيا وأن بنان معي..

نظرت لها رحيق معاتبة ثم قالت :- لندخل الآن ثم نكمل حديثنا أثناء الطعام ..

- ماذا؟ دخول وطعام؟ أين زوجكِ؟ لماذا يتركك تتسكعين في الخارج هكذا؟

- سأغضب!!

- لا تبالغي!! لدي عمل ضروري وهو ما عجل سفري!! حتى أن بنان منزعجة من الأمر، كانت تريد أن تبقى هنا لفترة أطول!!

- أين هي؟

- تنتظرني في الفندق حتى أعود إليها؛ طائرتنا بعد ساعتين إن شاء الله!!

- تمنيت رؤيتها، سأشتاق إليكما!!.. قالتها بحنينٍ فعانقتها ديانا قائلة :- ونحن أيضاً؛ سأشتاق إليكِ كثيراً، وسيف!!

ضحكت رحيق وقالت :- تشتاقين لسيف أكثر مني !! يبدو أنني سأغار..

ابتسمت ديانا وهي تشير لها مودعة فهتفت رحيق :- فكري في العودة إلى هنا!! لا أحد منا يعيش في وطنه، لستِ الوحيدة!!

دخلت وأغلقت الباب لتستعد لمعركة هي قائدتها، لا بكاء منذ اليوم، ولا شعور بالذنب، هو أبعد من أن تشعر تجاهه بأي ذنب، هي حتى ليست نادمة على بكائها أمامه، فلابد لها من هدم كل

مافات لتبدأ من جديد؛ عليها أن تنتهي من رحيق التي كرهتها بسببه؛ ستعيش الآن كربة أُسْرَة رائعة لأجل سيف، وتعيد تهيئة ياسين وتربيته إن لزم الأمر تنفيذاً لوصية أمه الغالية!!

****

استيقظت سارة فجراً وذهبت لغرفة مالك، أيقظته بصعوبة، قام فصليا معاً، وبقيا يتحدثان حتى الصباح، حين وضع رأسه على فخذها قائلاً :- ليتنا زوجناها منذ زمن حتى أراكِ في غرفتي!

شدت سارة شعره بطريقة آلمته قائلة :- أتقول أنني لا أزور غرفتك إلا في غياب رحيق؟

ابتسم مالك وقال :- أشعر بذلك!

مسدت رأسه ولم ترد، يعلم كم هي قلقة على رحيق؛ وكم يشغلها زواجها بهذه الطريقة المفاجئة؛ فأخرجها من قلقها قائلاً :- متى أتزوج وأتركك تعيشين وحيدة مع زوجكِ العجوز؟

ضحكت قائلة :- ماذا؟ ألن تبقى معي بعد زواجك؟

- لا، لا، أريد أن أنفصل بحياتي!

تصنعت الغضب قائلة :- سأقيم معك؟

ضحك وقال :- ماذا؟ هل تريدين حبس أنفاس زوجتي؟

- أنا!! أيها الشقي!!

قد يكون مالك هو الأقرب لها في البيت، هو من يشغل فراغها متى احتاجت، ويخفف قلقها متى ظهر!! قالت بعد سكوت :- لماذا لا تقيم بنان معنا؟

- أصبحت أشك أنكِ تحبينها أكثر مني؟

شدت شعره للمرة الثانية وقالت :- وما المانع في ذلك؟ فقد كانت تطيل الجلوس معي وتهتم لشأني!!

وضع يده على رأسه قائلاً :- ما هذا التقريع؟ أخبري زوجكِ أن يتركني قليلا وسأقيم معكِ للأبد.

ابتسمت وأصابعها تتخلل شعره، لا تنكر سعادتها بتحسن حياة مالك وظهور ابتسامته بصورة دائمة، ليتها وقفت لعمر ليتركه يفعل ما يحب، انحنت تهمس له في أذنه :- أريد إفطاراً تصنعه بنفسك!!

رفع عينيه لعينيها متفاجئاً ثم قال :- بنان الفاسقة!! بماذا أخبرتكِ أيضاً؟

ردت على نظرته بعتاب قائلة :- أتخبر بنان ولا تخبر أمك؟ اطمئن هي لم تخبرني، فأنا أعرف هذا الأمر بنفسي، قبل أن تخبر بنان به حتى!!

جلس مندهشاً وهو يقول :- كيف ذلك؟

- منذ بدأت العمل في ذلك المطعم قبل سنوات؛ لتنفق على نفسك هارباً من أموال أبيك!!

نظر لها بيأس قائلاً :- وماذا تريدنني أن أفعل، وهو يرفضني، هل سأتركه لينفق علي؟ هو حتى لا ينفق مشاعره علي، فبماذا تفيدني أمواله؟

ربتت وجنته لتقول بحنان :- ليس الأمر كما تظن بني، ليس كذلك إطلاقاً!!

وقف يمد له يدها قائلاً :- لا عليكِ، سأعد لكِ أفضل الطعام اليوم طالما انكشف أمري!!

أعطته يدها ووقفت لتسير جواره فقال :- ما رأيكِ في اقتراح يخرجكِ من وحدتكِ؟

- هاتِ ما عندك!!

- تعملين في الشركة معنا، منها لا تفارقين زوجكِ الذي يتركِكِ لساعاتٍ وحيدة، ومنها تعودين لعملكِ الذي تركتيه بسببنا، ومنها تشغلين وقتكِ!!

سكتت لقليلٍ من الوقت وصلا فيه لحافة الدرج، فإذا به ينحني ليحملها ، فزعت قائلة :

- ماذا تفعل؟ أنا أمك!!

وقف لينظر لها فوق ذراعيه قائلاً :- مرحباً بكِ، تشرفتُ بمعرفتُكِ، وأنا مالك ابنكِ!.. ثم ضحك قائلاً :- أعلم أنكِ أمي، وإن لم أحمل أمي مَن أحملُ إذاً!!

ابتسمت وهو ينزل بها درجات السلم حتى وصلا لنهايته فقابلهما عمر قائلاً بفزع :

- سارة!! ماذا بكِ؟

ضحكت وهي تقول :- لا تقلق!! ابنك يرفه عني فقط!!

في حين همس لها مالك :- العجوز يخاف عليكِ إذاً!! فاجئيه بقراركِ هيا!!

ابتسمت وهي تقول :- اتركني أولاً..

وضعها على الأرض برفق ثم وقف يحيط كتفيها بذراعه فهمست :- سنتركها له مفاجأة.. أحضر الطعام لي و واتركنا لبعض الوقت..

ابتعد قائلاً :- تبيعين ابنكِ لأجل زوجكِ، أشكركِ بشدة..

ابتسم عمر وهو ينظر له قائلاً :- ماذا به؟ هل جُنَّ؟

نظرت له سارة وقد آن أوان حديثها فقالت :- دعكَ منه الآن! تعالَ معي!

****

يكاد يجزم الآن أنها مريضة، مريضة بالفصام لا محالة، ما الذي تفعله الآن؟ منذ وصل سيف وهي تلعب معه بعد أن أعدت لهما إفطاراً لذيذاً كأنها سعيدة، أحمق لو ظن أنها سعيدة بوجوده، بل قالتها له صريحة أن وجوده يضعفها!!

لم يفهم أنها قررت أخيراً أن تعيش !! أن تبني الحياة التي تمنت والأسرة التي حلمت، ولكن قبل عليها عقابه على كل ما فعل؛ عقابه على تركه لابنه، وعلى ضعفه، وخذلانه لها!! لقد اتخذت القرار الصحيح بعودتها إليه بهذه السرعة، ستعاقبه وهي معه، سيكون العقاب أقسى من أن تعاقبه ببعدها!! سعيدة جداً منذ قررت، منذ عرفت ما الذي تريده وما الذي تهدف إليه، ليذهب للزواج بغيرها إذاً حتى تريه كيف تكون الحياة بدونها، ولكنها ليست بحاجة إلى ذلك؛ فقول الكلمة له تكفي، أن تخبره أنها زهدته كافية لجرحه، كما فعلها قبل وهو يخبرها أنه زهدها!!

ليرمي مشاعره تحت قدميها كما يقول، أي حمق كانت تفعله وهي تظن أنها السبب في كل ما حدث؟ لا تنكر أنها شريكة فيه، ولكنها ليست السبب!! أي غباءٍ أصابها لتضعف بظهوره هكذا؟ وجوده يضعفها بقوة، ولكنها ستثبت لنفسها أولاً أنها قوية!!

بلا أي شعور تحدثه، وكأنها لم تفعل شئ، وكأن زواجهما طبيعي، وجود سيف يساعدها بشدة!!

مراحل بناء أسرة سعيدة، لبنة في المجتمع، تمنت ذلك يوماً ولم تفعل!!

نظرت له جالساً ينظر لسيف الذي يحدثه وهي تتمتم :

- سترى من هي رحيق، يا ياسين!!..

****

ديسمبر ٢٠٠٩ / يناير ٢٠١٠

لمدة شهر بعد زواجهما لا يكاد محمد يراها، فهو بمجرد دخوله للشقة تهرع لغرفتها وتغلق بابها عليها، يكاد يجزم أنه يسمع دقات قلبها الفزعة بمجرد رؤيته، بل أحياناً كان يسمعها تبكي ليلاً، هو لا يفهم أي شئ، لم تُسلم، ولم تقبل به زوجاً فلماذا وافقت على الزواج وهي تخافه هكذا؟ لمدة شهر يعيش في حيرة لا يفهمها، حتى في المرة الوحيدة التي زارتها فيها صديقتيها؛ أخذتهما لغرفتها وأغلقت الباب عليهن، سمع صياحهن وتعنيفهما لها، ولكنه لم يميز حديثهما، حتى خرجتا وتركتاها تنفجر بكاءاً، أشفق عليها وحاول أن يدخل للحديث معها لكنها فعلت ككل مرة أغلقت بابها سريعاً، غضب بشدة حينها ودخل غرفته ليجنبها غضبه..

بعد شهر عجز عن احتمال المزيد، لماذا تخاف منه هكذا؟ نظر لنفسه في المرآة قد يرى فيه شيئاً؛ فشعر أنه شخص طبيعي، وصل تفكيره لشئ ما تفاجأ به فناداها بغضب :- ميرا!!

سمعته وخشيت من الرد، خاصة بعد تأكدها من حديث ياسين عنه، فقد سمعته أكثر من مرة يحدث ثلاث نساء؛ حفظت أسماءهن جيداً " أماني، ليلى، ودعاء "، كرر صراخه عليها فخرجت مرتعدة، بمجرد رؤيتها حاول أن يهدئ نفسه فقال :- تعالي إلى هنا !!

أشار لطاولة مستديرة، فاقتربت تجلس مرتعشة، جلس قبالتها وتنهد، حتى الطعام لا يجتمعان عليه، يطرق بابها ليعطيها الطعام الذي يصل لفمها بالكاد!!

- هل ستخبرينني بحقيقتكِ الآن؟ أم أخبركِ أنا بها؟

- أي حقيقة؟.. قالت باستهجان فقال :- هل جئتِ من ألمانيا لأجل دين أم لأجل زواج؟

سيجرحها قليلاً علها تتحدث ؛ للحظة لم تفهم ثم نظرت إليه فجأة وهي تتذكر تحذيرات رحيق وديانا بسبب فعلتها؛ هاهو يعايرها بأنها من فرضت نفسها عليه، وضعت يدها على فمها تكتم شهقتها فأخرج من جيبه ورقة وفضها أمامها، نظرت للكلمات عليها سريعاً لتزداد صدمتها وهو يقول :

- إنه والدك أليس كذلك؟ لقد فصلني من الجامعة!! والآن لم يعد لي شيئاً هنا، سأعود إلى مصر؛ هل ستعودين معي؟ أم ستفضلين البقاء جوار صديقتيكِ وعائلتكِ؟

ردت سريعاً :- لا... ثم وقفت ترتعش قائلة :

- هل تريد حبسي مع زوجاتك الثلاثة؟ هل تريد ضربي وإهانتي؟ لم أسعَ للزواج بكَ؛ بل ظروفي من اضطرتني لذلك، ثم أنك من طلبت الزواج بمجرد رؤيتي، لم تعرف حتى من أنا؟ وكأن الزواج عندك وسيلة، وكأن النساء قطع غيار لثراء حياتك!!

وقف أمامها عاقداً جبينه وقال :

- ما الذي تقولينه؟ عن أي زوجات تتحدثين، ولماذا أضربكِ وأهينكِ؟ ومن أخبركِ أنني لم أعرف كل شئ عنك قبل زواجي بكِ، حتى صديقتيك عرفت عنهما كل شئ، حتى زواجهما وطلاقهما!!

قالت بتهور :- أماني وليلى ودعاء اللائي تحدثهن ليل نهار!!

نظر لها متفاجئاً من معرفة أسماء أخواته ، ثم تذكر أنها تظنهن زوجاته، فلم يسعه سوى الابتسام، ثم ضحك وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة ..

أمام ابتسامته ثم ضحكته التي تراها لأول مرة نسيت خوفها وغضبها، واتسعت عيناها لرؤيته كأنها لا تريد أن يفوتها شيئاً منه، جلس وهو يقول ببعض ابتسامة :- اجلسي ميرا!!

كالمنومة مغناطيسياً استجابت وجلست، فقال :- هؤلاء أميراتي الثلاث ..

وجمت، فأكمل :- إنهن أخواتي!!

فابتسمت، ثم خجلت من ظنها فأكمل :- يعني تزوجتيني دون معرفة أي شئ عني، وليس أنا من فعل!!

قضمت أظافرها بندم ثم قالت :- هل فعل أبي هذا؟

أومأ موافقاً فقالت :- وماذا ستفعل؟ أنا .. أنا آسفة بشدة؛ لم أقصد أن أؤذيكَ!!

ابتسم قائلاً :- ميرا .. عليّ أنا الاعتذار منكِ .. ما فعلتِه معي جعلني أسئ الظن بكِ و حتى أنني ظننتُ أن فكرة دخولكِ الإسلام ماهي إلا خدعة، لكن بعد ما حدث اليوم وتهديد أبيكِ الصريح لي، تأكدت أنه فعل لمنع ابنته مما تريد!!

بدأت بالبكاء قائلة :

- هو حتى لا يعرف شيئاً عن المسيحية، بل لا يعرف الله من الأساس، ولكن فكرة معارضتي له تزعجه بشدة، الأمر بدأ عندما تقدم ابن أحد أصدقائه لخطبتي، كنت حينها أفكر في الإسلام وأعلم أنني لو أسلمت لا يجوز زواجي بغير مسلم، فرفضت وتحدثت معه في الأمر بهدوء ظنا مني أنه سيتقبله، ولكن حدث ما حدث، من المؤكد أنه صدم لما علم بزواجي من مسلم!! ولكن أنا أعفيك من هذا الأمر، يبدو أنني سأعود إليه مرغمة وأتزوج ممن يريد مرغمة أيضاً!!

- وما الذي سيدفعكِ إلى ذلك؟

تذكرت خوفها منه فسألت :- أخبرني الصدق، أنت فعلا لست متزوجاً بأخرى، لست إرهابي همجي، أليس كذلك؟

ابتسم قائلاً :- أنا مسلم ،ولست متزوجاً بغيرك!!

- حقا؟.. سألته ؛ فأجاب :- المسلم لا يكذب !!

صدقته، ثم قالت :- وماذا ستفعل مع أبي؟

سألها :- هل تريدين البقاء معي، أم تريدين الانفصال؟

- ماذا ؟.. سألته بدهشة ..

- أسألكِ إن كنتِ لا تطيقين العيش معي، أستطيع حمايتكِ من أبيكِ بطريقة أخرى، لا أريد إجباركِ على الحياة معي؟

أجابته بسؤال :- هل تزعجكَ حياتي معك؟

ابتسم قائلاً :

- رغم أنني السائل سأجيبكِ، قررت الزواج بكِ بعد تفكير واستخارة، صحيح أنها أيام قليلة، ولكنها كانت كافية لأشعر بتيسير في الأمر كله، ثم عرفت أشياء كثيرة عنكِ بعد الزواج بواسطة أصدقائك، وأشياءٍ أخرى عرفتها، واطمأننت بوجودكِ في حياتي، فقط!!

" واطمأننت بوجودكِ في حياتي "، هل تخبره بأنها تعرفه وتحبه منذ سنوات، أم تؤجل معرفته لبعد حين؟ ..

- لم أسمع إجابتكِ، هل تريدين الاستمرار معي؟

نظرت له بعد سؤاله، ثم قالت :- إن كان لا يزعجك الأمر، فأنا أريد ذلك!!

ابتسم قائلاً :- يعني لا خوف بعد اليوم!!

أومأت بتردد ثم قالت :- وأبي؟

- لا تقلقي، أستطيع إصلاح الأمر!!

صدقته أيضاً، ووثقت به؛ فقالت :- إذاً فقد اكتشفتَ أنني لم أكن اتخذتُ قراري للدخول في الإسلام هذه الليلة!!

أومأ فقالت :- أريد مساعدتكَ لو سمحت!!

- تحت أمرك في كل شئ!!

ولكن الحياة سارت بغير ما أرادا، استعان بمحامٍ صديقه ليحل الأمر مع الجامعة، وأخذ الأمر منه وقتاً طويلاً، فبحث عن وظيفة ثانية وثالثة حتى يستطيع الحياة، ولم يكتفِ والدها تحدث باللين معها مرة وتعامل بالشدة مرة أخرى، ورغم أنها لم تسلم بالفعل، إلا أنها بقيت مصرة على قرارها، أعاده للجامعة لأجلها، ولكن هذا لم يغير من موقفها شئ، حتى ذلك اليوم الذي بلغت فيه بإصابة محمد في حادث، كان والدها قد تخلى عنها تماماً بعد فشله في إرغامها على العودة..

لم تكن إصابته بالشئ البسيط، بل كانت بالغة، كسور ورضوض بجسده كله، ساندتها رحيق وديانا حتى النهاية، وبقيت جواره حتى تم شفاءه، لشهر ثالث معه، وبقي متمسك بها كما فعلت هي، لم تكن له أموال تكفي لعلاج ومشفى هي من دفعتها بالاستعانة بديانا ورحيق، كان قلقها عليه يدفعها لفعل أي شئ، ترد على اتصالات أخواته لطمأنتهن عليه، لم تكن تجيد العربية، فكانت دائماً دعاء من تحدثها لفهمها الانجليزية، حتى قال لها ذات مرة :

- تعلمينني الألمانية ، وأعلمكِ العربية!!

وافقت، ومعظم وقتهما كان يقضيانه في ذلك، حتى طلبت هي :

- حدثني عن الإسلام، أنت لا تفعل أي شئ في تلك الجبيرة، استغل وقتك!!

ضحك وقال :- لنبدأ!!

حتى خروجه من المشفى عرف بعض لغتها وعرفت بعض لغته، عرفت عن الإسلام كثيراً، وعندما وصلا للشقة قالت :- سأخبركَ بمفاجأة ..

رغم أنه يعلمها، لم يشأ أن يفسدها عليها فقال :- أنتظرها بشغف!!

- أشهد أن لاإله الله وأشهد أن محمداً رسول الله ..

ببريق في عينيها ورعشة في صوتها نطقت؛ حتى أن قلبه ارتعش، مازال ذراعه الأيسر مجبراً، ففرد ذراعه الأيمن لها فاقتربت منه لتدفن رأسها في صدره فهمس :

- ثبتكِ الله وأتم نعمته عليكِ.. لنذهب للمسجد الآن!!

- الآن ؟ سألت ؛ فقال :- نعم الآن!!

****

الآن فهم ياسين ما تفعل، فهم تفكيرها وخطتها، وكيف له لا يفهم وقد كانا عقلاً واحداً، ليقود هو الآخر معركته معها، وإما أن تكون له أو له!!

نظر لعينيها وهي تنظر له من بعيد متحدياً، ارتبكت فابتسم، لم يفعل شيئاً بعد؛ فماذا لو فعل؟ تمتم :- لنرى رحيق..

عند الظهر نظر لسيف قائلاً :- سيف، لنذهب للصلاة !!

- في المسجد؟

- نعم ..

ردت رحيق :- ولكن المسجد بعيد عن هنا!!

ابتسم وهو يجيبها :- إنني أقوم بدور الأب الجيد، الذي يجعل من ابنه رجلاً صالحاً!!

ابتسمت ساخرة وهي تظهر كالزوجة الجيدة :- اه صحيح؛ سأحضر لكما الغداء حتى تعودان!!

احتضن يد سيف بيده وقال :

- لا تتعبي نفسكِ عزيزتي! استعدي للخروج حتى نعود، سنأكل في الخارج!!

- ولكن ..

قاطعها سيف :- أمي أريد الخروج!!

إلا سيف، ولكنها لن تخسر أمامه فقالت :

- حبيبي سيف، هل نسيت موعدك في التدريب اليوم؟ لا أريد أن أرهقك قبل الموعد!!

كاد سيف يوافقها لولا ياسين الذي قال :

- هذا جيد لنذهب للغذاء في النادي ونبقى هناك في انتظار موعده!

صفق سيف بسعادة بينما أسقط في يدها وهي تقول بمضض :- حل جيد!!

تركاها وخرجا، بينما أخذت تتأمل المنزل الذي تجاهلته عمداً في وجود ياسين!! إنه الحلم وظن أنها نسيت، كيف لها أن تنسى، بيت يؤسسه هو، تشعر في أركانه بدفءٍ لم تعرفه، يطل على المحيط، بهو به جلسة عائلية تجمعهما بأبنائهما الكثيرين دوماً، غرفة منفصلة، ثم غرف أخرى متلاصقة، أن تشعر بالحميمية فيه، وليس كبيت أبيها واسع فيه خواء؛ يكون البيت تصميمه وينشئه بأمواله هو، لم تسأله من أي مصدر أتى بمال لينفذ حلمهما، ولكن يبدو أنه استطاع أن يعمل ويجتهد في السنوات السابقة، هذا شئ يسعدها، فهو لم يبقَ ضعيفاً إلى الأبد!!

تنقلت بين أرجاء المنزل وهي تتأمل أثاثه بأريحية، كل شئ اختياراتها، الألوان والتنظيم كما تريد، أمازال يذكر تلك الرسوم التي كانت تخططها لكل غرفة، فاجأتها تلك الغرفة التي دخلتها لتجد بها أسرة كثيرة، ابتسمت رغماً عنها، وهي تتذكر العدد الخرافي لأبنائهما!!

- أعتقد أن ثمانية تكفي!!

- لا، أنا أريد أحد عشر ..

- ياسين أنت مجنون!! أنا من الأساس رافضة لثمانية، تقول أحد عشر!!

- سنتحدث في الأمر لاحقاً!!

أشرق وجهها بابتسامة لتذكرها، وهي ترى الغرفة تضم ذلك العدد من الأسرة، فقالت بصوت مسموع :- ثمانية !!

- بل أحد عشر!!

شهقت وهي تلتفت بصدمة أخرستها لدقائق قبل أن تقول :- لماذا عدت؟

- نسيتُ شيئاً ..

ترك الغرفة ثم عاد ليقول :- ولكن لم تخبريني رأيك في المنزل؛ أهو جيد؟

أغمضت عينيها بشدة من الحرج، ثم قالت :- جيد !!

ابتسم وخرج، اكتفى برؤية الانبهار الذي أخفته عنه في عينيها الآن، صدق حدسه عندما عاد ليراها وهي تتفحص المنزل، يعلم أنها لن تفوت فرصة كهذه!! خرج وهو يتمتم ساخراً :

- أب لسيف فقط، سنرى!!

بينما كانت تؤنب نفسها في مكان وقوفها الذي لم تبرحه :

- أيتها الغبية، أب لسيف فقط، وتسعدين بِأَسِرّة أبنائكما، هل انتصر عليّ أم ماذا؟ لا ليس بعد، ليس بعدُ ياسين، لن أترك لك الفرصة قبل أن ألقنك درساً على كل ما فعلت!!

****

مالك /

لا تحاول الاتصال بي في هذا الوقت ، ولا تسأل ديانا عني، لن أستطيع الحديث معك، أو مشاغبتك كما اعتدتَ، هناك شئ يجثم على صدري يمنعني حتى من التواصل مع أي شخص ولو بالكتابة ..

بنان ..

منذ وقت لم يحسبه؛ ينظر مالك للرسالة المطبوعة أمامه على الهاتف، لا يعرف ما الذي يجب عليه فعله، كيف يتصرف الآن؟ هل يلبي رغبتها أم يسافر إليها؟ تلح عليه فكرة السفر بشدة؛ ولكنه لم يتخذ قراره بعد!!

منذ سفرها المفاجئ وهو يحاول الاتصال بها ولكنها لا تجيبه، ديانا طمأنته عليها ولكنه لم يطمئن، ماذا يفعل؟

****

تجلس منذ ساعة لا تفعل شيئاً سوى مراقبته، يجلس بين كتبه وأوراقه وحاسوبه الشخصي، ترضع ابنها وتهدهده، ثم تراقبه، حتى نام عليّ لم يعد لها شئ آخر سواه، بين وقت وآخر تحضر له شئ، مرة قهوة ومرة شاي ومرة عصير، دون حديث، كأنها تراه لأول مرة، كأنها تحفظ تفاصيله في ذهنها، ولما قرب انتهاؤه قال :- هل وجدتِ الخطأ؟

ابتسمت ميرا وسألت :- أي خطا؟

- منذ ساعة تبحثين في وجهي عن خطأ ما، هل وجدتِهِ؟

ضحكتْ :- هل انتهيت؟

- دقيقتين فقط!!

سكتت دقيقتين حتى انتهى، فأغلق الكتاب الذي بين يديه مرهقاً، فاقتربت منه تمسح جبينه قائلة بحنان :- يبدو عليك الإرهاق، ما رأيك في بعض الراحة قبل العشاء؟

تناول كفها يقبلها ثم قال :- ليس بتلك الدرجة؛ أنا بخير!!

جلست أمامه لتقول بمرح :- إذا أخبرني عن الشئ الذي تخفيه!!

ضحك محمد قائلاً :- اه .. هذا ما يجعلكِ تراقبينني كل هذا الوقت؟

- إطلاقا!! أنا اكتشفت فقط أنني أحبك كثيراً!!

- بين ملابسكِ!!

ضحكت و هي تجري سريعاً حتى وصلت لخزانة ملابسها، بحثت عن شئ غريب لا تعرفه، حتى وجدت ظرفاً أبيضاً، تناولته وعادت لمحمد قائلة :- ماذا به ؟

- افتحيه!!

فتحته وأخرجت ما يحوي ثم نظرت إليه بجمود قائلة :- ما هذا؟

- كما ترين تذاكر ذهاب وعودة لألمانيا، رحلة مدتها ثلاثة أيام فقط، هذا ما استطعتُ فعله!!

- لماذا؟

- تعرفين جيدا لماذا، قد تكون هذه المرة الأخيرة التي سنذهب إليهم فيها، لذلك كوني على يقين بأنكِ لم تخطئي في حقهم أبداً!!

أومأت دامعة فقال :- ظننت أن هذا شئ سيسعدكِ!

نظرت له وحاولت الابتسام قائلة :- أنا سعيدة بالفعل، ولكنني خائفة!!

شد على يدها بحنو قائلاً :- لا تخافي من شئ، أنا معكِ، والله معنا!!

وقفت تنظر لعينيه قائلة :- أنا أعشقك، ولا أعلم لأي حد سأفعل!!

وقف مقابلها ليقول :- لا أعتقد أنكِ ستصلين لحدود عشقي لكِ!!

****

ورغم أن الحالة التي تمر بها لا تسمح لمشاغباتهما؛ إلا أنهما مازالا محتفظان بطقوس الرسائل بينهما !!

فأرسل

" بنان الساكنة /

الوصول ليس صعب ، والسعي ليس بمعجزكِ؛ أنتِ قوية، وتمتلكين عقلاً حكيماً يجيد الحكم على الأمور

القائم على إزعاجكِ الآن /

مالك "

١٥

وتستمر الحياة

وأمام أحلامنا الكبيرة نتحمل ما يشق الأنفس ..

لن تنسى هذا اليوم، لا تعرف إن كان السبب في ذلك سعادة سيف التي رأتها، أم سعادة ياسين؛ وقد يكون سعادتها، كما تمنت كانوا، أسرة سعيدة مجتمعة، أظهرت سعادتها لياسين وتحدثت معه بأريحية غير متكلفة رغم أنها أظهرت بعض التكلف فيها والتصنع حتى يصل إليه أنها تفعل لأجل سيف، ولأن هذا ما وصل إليه؛ فعل كما فعلت، فلم ينزعج أحدهما من طريقة الحديث ولم يطمئن لها كل الاطمئنان!!

تناولوا طعامهم وتحدثوا ولعبوا حتى موعد تدريب سيف، وقف ياسين يشجعه كثيراً، ويهتف كأن ابنه يمثل وطنه في الأوليمبياد، مم أضحكها وهي ترى الناس ينظرون لزوجها غريب الأطوار، أصبح سيف يجيد السباحة وسيتقدم لمسابقة مع الأصحاء رغم أن مدربه أشار بتقدمه مع المعاقين، رفضت التصنيف كما ترفض الاعتراف بأن ابنها كذلك، ولكن ياسين وافق على الأمر بسهولة، هو لا يريد أن يشعر ابنه بأن غيره متميز عنه في شئ..

بدأت المشكلة حيث أثار الأمر حفيظتها؛ فهي ترى أنه بذلك يتدخل في تربيتها لابنها، وهو يرى أنه يربي ابنها كرجل صالح، كانا يعلمان أن مشاكلهما ستبدأ من عند سيف، كما ستنتهي عنده، ولأنها لا تريد خلافاً حاورته كامرأة ناضجة عكس ما توقع، فقد ظن أنها ستتخذها حجة لإثارة المشكلات ولم تفعل!! وانتهى الأمر كما رغب هو ولكن بإرادتها ليست مرغمة!!

حافظت على اليوم سعيداً هادئاً، ولكن بغير إرادتها لم تكتمل تلك السعادة، فقد تناولوا عشاءهم في الخارج، نام سيف في طريق العودة، فآثرت أن يبيت معها في غرفتها، وانفصلا كما الأمس، ثم حدث كل شئ فجأة!!

استيقظت على صوت ابنها يئن، اقتربت منه تناديه بلطف، ولكن لطفها لم يساعده وهو يقوم فزعاً ليفرغ معدته على فراشه، فزعت وهي تنظر إليه ثم حملته للحمام وهي تمسك رأسه بين يديها وتحنيه للأمام لتساعده على التقيؤ والراحة، شعرت أنه سينتهي إن بقيت هكذا، فغسلت وجهه وعادت به تريحه على أريكة في جانب الغرفة..

ذهبت لغرفة ياسين طرقت بابه عدة مرات، لم يرد، ماذا حدث له؟ لم يكن ينام بعمق هكذا، لماذا لا يجيب؟ جاء في بالها خاطر مفاجئ، ففتحت الباب دون تفكير في أي عواقب، اقتربت منه هزت كتفه بلطف تناديه، لم يجِب، وضعت يدها على جبينه تتحسس حرارته لتجدها مرتفعة كما توقعت، بدأ يئن هو الآخر، فأخرجت هاتفها واتصلت بمالك؛ بمجرد سماعها لصوته قالت :

- مالك، أحضر طبيباً وتعالَ إلى بيتي سريعاً أرجوكَ!!

لم تفهم ما الذي يحدث، تنقلت بين غرفتيهما تباشرهما حتى حضر الطبيب، فنصح بالذهاب لمشفى، وبالفعل ذهبوا فاكتشفوا أن الأمر تلوث في الطعام، وأعطوهما بعض الأدوية حتى الصباح عادوا للبيت واهتمت رحيق بهما!!

أبقتهما معاً في غرفة واحدة، كانا قد خلدا للنوم حين خرجت لمالك الذي لما يفارقها فابتسم وقال:

- تعالي أيتها المحظوظة، لماذا لم تأكلي معهما؟

رغم إرهاقها وقلقها ابتسمت قائلة :- حتى أعتني بهما، الحمد لله أنني لم أفعل، فمن كان سيكتشف مرضهما؟

ضحك وهو يفسح لها مكاناً جواره ثم قال :- ما رأيكِ في بعض الراحة، وأنا سأعتني بهما ..

ابتسمت وهي تنظر له قائلة :- لا عليك، ادخل لتسترح أنت، لدينا غرفة أخرى!

نظر لبيتها قائلاً :- زوجكِ العبقري!! كيف فعل هذا؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن مساحة الأرض كانت أصغر من أن تسع ذلك التصميم!!

ابتسمت وهي تجيل بصرها في المكان ثم قالت :- ولكن متى ..

قاطعها قائلاً :- تصميمه كان جاهزاً، وبدأ فيه بمجرد عودته..

أومأت وهي تقف قائلة :- سألقي نظرة عليهما ..

دخلت لدقائق ثم عادت تحمل وعاءاً وهي تقول :- لقد ارتفعت حرارة ياسين، سأحاول تخفيضها!!

ملأت الوعاء بالماء البارد وعادت إليهما، بينما قال مالك :- سأصنع لهما عصيدة!!

جلست جواره، ثم رفعت رأسه بيدها وباليد الأخرى أمسكت بالدواء، وهمست :

- ياسين.. ياسين افتح فمك فقط..

فتح عينيه ينظر إليها من قرب، ثم نظر إلى يدها القريبة من فمه وقال بضعف :

- ما هذا؟ هل هو سم؟

اتسعت عيناها وهي تنظر إليه ثم قالت :- نعم أريد أن أقتلك، افتح فمك بسرعة، وإلا قتلتك بطريقة أخرى!!

ابتسم وهو يفتح فمه، ناولته دواءه وأسقته الماء، ثم وضعت رأسه برفق، وبدأت تمسدها بقطعة قماش رطبة بماء بارد، بعينين نصف مغمضتين كان ينظر إليها بصورة أخجلتها حتى قالت بتهديد :- أغمض عينيك..

نفذ بسرعة فابتسمت، طرق مالك الباب قبل أن تسمح له بالدخول ثم قال حين دخل :- والآن ستتذوقينها أولاً، لئلا يحدث لهما شئ ..

ابتسمت وهي تقول :- تعال، أطعم ياسين واترك سيفاً لي!!

اعترض قائلاً :- ليس لي طاقة بزوجك، سأطعم حبيب خاله!!

- مالك!!

- تناولي هذا الطبق؛ هيا!!

زفرت وهي تتناوله منه، وضعته جوارها، ثم وضعت يدها أسفل كتفي ياسين تساعده على الجلوس، ورغم أنه مستيقظ إلا أنه تمادى في إظهار إعيائه، حتى همست له من بين أسنانها :

- ياسين اجلس ولا تمزح معي، وستتناول طعامك وحيداً..

نادى بضعف :- مالك ، مالك !!

وضعت يدها على فمه تسكته وهي تقول :- ماذا تريد؟ هل ستكشف أمرنا له؟

لم يرد عليها وهو يعتدل بمساعدتها جالساً، وأكمل صمته وهو يتناول الطعام من يدها، لم يكثر ورفع يده علامة على الاكتفاء، فقالت برقة طبيعية :- أنت مريض يجب أن تأكل جيداَ.

لماذا تفعل به هكذا؟ لن يتحمل قربها ثم تجلده ببعدها حين يشفى!! ولكنه غير قادر حتى على مقاومة قربه منها، ولطفها معه، اهتمامها به، وقلقها عليه؛ هل قلقة عليه حقا؟ أم أن الأمر لا يتعدى واجب زوجي؟ نظر لعينيها وهي تناديه للمرة الثانية :

- ياسين.. يجب أن تأكل جيداً، لأجل سيف!!

تمتم بضعف :- يكفي هذا، لم تعد لي طاقة على الطعام!

وضعت الطبق جانباً، ثم عدلت وسادته خلفه ليستند بظهره عليها قائلة :- يجب أن تنخفض حرارتك، ساعدني على ذلك، ولا تظهر ضيقك من الماء البارد!!

- أتذكرين ذلك؟

قالها مندهشاً، فوقفت هي سريعاً وقد جف ريقها واتسعت عيناها وفقدت الشعور بما حولها، ما الذي تفعله الآن؟ هي قاصدة للتصرف بطبيعية، ولكن لم تقصد أن تظهر له كم هي متذكرة لكل تفصيلة في حياتهما، طبيعتها في التعامل معه تجعلها تتحدث باسترسال متناسية لكل تعهداتها، يجب أن تبعده عنها حتى يعرف قيمة الحياة الزوجية، حتى يقدر الميثاق الغليظ الذي أخبرها يوما أنه يعرفه ولم يكن، إن أظهرت تسامحها ورحابة صدرها بكل سهولة قد يضعف ثانية ويجبن بعد أول مصيبة تقابلهما ..

قالت بتماسك :- ماذا تقصد؟ أنت من أظهرت ضيقك من الماء منذ قليل!!

ثم تذكرت وجود مالك معهما في الغرفة فالتفتت له قائلة :- مالك.. هل يأكل سيف جيداً؟

قال مالك وهو ينظر لسيف :- لقد أنهى طبقه.. كيف لا يفعل وقد وعدته بمباراة حين يشفى..

ابتسمت وهي تنظر لياسين وتكمل عملها معه، بصمت بين الاثنين حتى قطعه مالك مرة أخرى قائلاً :- لقد حدثتني أمي، وعرفت بما حدث، ستكون هنا بعد قليل!!

لثلاثة أيام تعتني بهما وترعاهما رعاية تامة، أصبحت محيرة لياسين يظن أنه اقترب بينما هو بعيد عنها كل البعد، متحفظة في مشاعرها بصورة أعجزته، لقد ظن أن الأمر أسهل من ذلك!!

وبدأت في إصدار قوانينها كربة منزل :

- ممنوع تناول أي وجبة في المطاعم بداية من الآن، ومن يخالف هذه التعليمات عقابه النفي في المشفى، ولن أهتم به!!

تذمر سيف بينما همس له ياسين :- هل تلقي التعليمات هكذا دائماَ؟!

أومأ سيف بأسى فقال ياسين يواسيه :

- لا تقلق، يجب أن تطيع أمك، حتى ترخص لنا الطعام في الخارج مرة أخرى، كما أننا لا نريد أن تمرض قبل المنافسة، هل نسيت ؟

وافق سيف على اقتراحه، فأكمل ياسين همسه :

- والآن سنطلب منها أن تصنع لنا بيتزا بدلاً من التي نتناولها في الخارج.. هيا !!

فرح سيف وهو ينظر لأمه التي تراقبهما وتريد أن تسمع همسهما وقال :

- أمي أريد بيتزا، وبعض شطائر الجبن، ومعكرونة ..

قاطعته قائلة :- حبيبي معدتك لن تحتمل كل هذا!!

كانت تنظر لياسين بضيق فانفجر ضحكاً وهو يقول :- صدقيني لم أطلب سوى البيتزا!!

التفتت تجاه المطبخ قائلة :- ابن أبيه، المكر يجري في دمه!!

- سامحكِ الله!!

****

مانشستر

تجلس بنان متربعة فوق سريرها بين كتب كثيرة، تنتقل بناظريها من واحد لآخر، جفونها متهدلة من أثر نوم تقاومه بضراوة، وملابسها مهملة ، وشعرها أشعث، وتحط على طاولة تجاورها أقداح قهوة كثيرة، وبيدها يقبع كتاب لا تفقه منه شيئاً، ما الذي يحدث هنا؟ كيف تنقلب حياتها بهذا الشكل المزري؟ ما بالهم يتمتعون بحيواتهم بينما هي تغرق في بحور الشك والحيرة؟ أي مأساة أقحمت فيها نفسها؛ لقد كانت تنكر وجود الرب وتعيش براحة وهي متيقنة من اعتقادها، ما الذي رماها للبحث عن وجود شئ تعلم أنه غير موجود؟ ولكن كيف يكون غير موجود؟ ما الذي يدق في رأسها الآن؟ أهو دبيب نمل، أم أن اصطكاك أسنانها هو الفاعل؟ أمسكت رأسها بقوة تتناسب مع قبضتيها الضعيفتين علها تسكت الأصوات التي تشعر بها، ولكن لا فائدة!!

لم تعد تشعر بشئ حولها، رؤيتها أصبحت ضبابية، رأت خيالات في الغرفة، كانت ديانا تأتي نحوها، تحدثها وتعنفها ولكنها غير مستوعبة لما يحدث، جفونها المتهدلة انغلقت تماماً، وارتخت يداها حتى سقطت من فوق رأسها، وجسدها الهزيل فقد سيطرته على نفسه، فلم تعد تحيا كما كانت!!

اقتربت ديانا منها بهلع في قلبها، وضعت يدها على رأسها، ثم قبضت على معصمها تتحسس نبضها وهي تهتف :- رَبّاهُ !! ما الذي فعلتِه بنفسك؟

لم تفكر كثيراً وهي تتناول هاتفها تطلب الإسعاف، ثم قامت تستعد للخروج!!

****

ميونخ / ألمانيا

واقفان في الطريق منذ وصولهما لا يتحركان، تقبض على يده كأنها ضائعة، لا تريد التقدم خطوة واحدة، تخشى من صد وإعراض آخرين، تخشى من مواجهة ليست أهلا لها، لن تحتمل إنكارهم لها مرة أخرى، لن تحتمل الغضب في عيني أخيها الأثير، أو النفور من عيني أبيها، لن تحتمل حرمانهما إياها رؤية أمها، تلك ليست المرة الأولى التي تأتي لأبيها، تعلم أنها على الحق، ولكنها لا تشعر بالاطمئنان وهم بعيدون هكذا تتمنى لو كان لهم نصيب من السعادة مثلها، أو حتى يتقبلوها كما هي.

همست لمحمد :

- ما رأيك في العودة؟ أفضل أن نعود بدلا من أن تلحقنا خيبة جديدة!!

ابتسم وهو ينظر للطريق أمامه قائلاً :

- كيف لي بالعودة وترك فتيات ألمانيا الجميلات، أفكر في الاستقرار هنا!! خذي ابنكِ وعودي أنتِ!!

- محمد.. غض بصرك!!

نظر لها وجدها غاضبة بالفعل ولا تمزح، فابتسم وجعلها تتأبط ذراعه وسارا نحو الفندق الذي سيقيمان فيه، وصلا لغرفتهما، فدخلا ثم قال :- اجلسي هنا!!

أشار إلى مقعد فجلست ، فاتجه نحو الباب قائلا :- لا تخرجي حتى أعود ..

- إلى أين؟

- سأقضي اليوم مع إحدى الجميلات، لا تقلقي من شئ!!

- محمد!!

ولكنه لم يرد لأنه قد خرج بينما جلست تقضم أظافرها، أين ذهب؟ وهل سيذهب للقاء فتاة ومعه ابنه؛ هل جنت أم هو من فعل؟!

****

مانشستر

تنظر لها ديانا نائمة على فراش المرض معلق بيمينها محلول مغذي، وظاهر الضعف عليها، لماذا تركتها لنفسها؟ لماذا لم تجبرها على ما تراه صحيحاً؟ سامحك الله يا مالك!! لم تكن لتفيدها تلك الكتب وهي تشك في كل شئ هكذا!! لماذا وافقتها على البحث بنفسها، لقد اتفقا على المشاركة في كل شئ!!

اقتربت منها تهمس :- بنان.. حبيبتي هل تشعرين بتحسن؟

لم تجد استجابة سوى حركة حدقتيها من تحت جفنيها، فقبلت ديانا جبينها قائلة :

- بنان.. كل شئ سيصبح بخير، لا تقلقي!!

****

وقفت رحيق خلف نافذتها تتابع المباراة القائمة في الخارج بين مالك وياسين وسيف، بالكاد شعرت ببعض الراحة بعد تعافيهما من وعكتهما، كانت بحاجة إلى تصفية ذهنها مما تفعل، لم تكن تتخيل أن الأمر بهذه الصعوبة، أو أن مشاعرها تجاهه ستخونها هكذا!! وكأنه يعرف ذلك ويحسن استغلاله، لكنها لم تستسلم، هناك شئٌ كسر بينهما، حتى إن سامحته ستظل مترقبة لموقفه إذا ما فاجأتهما مصيبة أخرى في حياتهما، هي بالفعل نسيت كل ما حدث وتحاول البدء

معه من جديد، ولكن ذلك الحاجز ليس بيدها، كما تعلم أن ما حدث ليس بيده، قد تكون تربي نفسها معه وتعيد تهيئة نفسها بتعذيبها بما تفعل، كما أن الأمر انقلب الآن لكبرياء أنثى تقبع بداخلها، فهي من طلبت منه أن يكون أباً لسيف فقط، وإن تراجعت الآن لن تستطيع تقبل نفسها ما حييت، ليتأدب كلاهما أولاً، هي بحاجة لتهذيب نفسها قبل تهذيبه هو!!

انشغلت عنه ونظرت لمالك، كم تمنت أن تراه بتلك الصورة المقبلة على الحياة يوماً، هو من كان لها، ساندها وفعل الأفاعيل لإقناعها بأنها ليست سبب في أي مصيبة، وعقابه الأخير لها حين قاطعها فترة سفره إلى واشنطن كانت القاضية، شعرت أن غرورها أخذها لتهمله طيلة هذه الفترة ولا تشعر بوجوده القوي في حياتها ولولا مقاطعته لها ما شعرت بقيمته، هكذا نحن بشر من طين حين يتشكل ليصير فخار ينسى أصله، ينسى قيمة كل شئ أضيف له ليتحول بهذه الصورة، ولا يدرك القيمة إلا إذا عاد لأصله ثانية؛ منه خلقنا ومنه تتكون بعض طبائعنا!!

أدركت أخيراً أن مالك نعمة في حياتها، ما كانت لتدركها إذا أبقت على غرورها وشعورها بأن الكون يدور من حولها كما قال قاتلُها، خاصة بعد تسليمه بطبيعته، عودته لمرحه، تمسكه بدينه على عكس ما كان، وإصراره على دراسة الشئ الذي يحب..

تذكرت ولعها هي؛ الشئ المختفي منذ زمن، علاه تراب النسيان، وغبار الحزن، وكأن يديها تحجرت عن الإمساك بها، وكأن عينيها ما عادت تستمتع برؤية ما اختفطته من لحظات الزمن السعيدة، ورغم ذلك لم تنسَاها في بيت أبيها، بل أتت بها معها!!

أحضرتها من غرفتها، ووقفت تتابعهم وهي تعدها للتصوير، خشيت أن يكون بها عطل، ولكنها عملت!!

بدأت في التقاط الصور لهم، وهي تشعر بسعادة لم تشعر بها منذ زمن. اشتاقت لأن تقوم بذلك، اشتاقت لتثبيت لحظات ستمر ولن تعود، أخذت تلتقط الصورة تلو الأخرى بإشراقة لم تعهدها وكأنها طفلة تكتشف شيئاً جديداً!!

فكرت في إعداد طعام لذيذ لهم رغم أنها تمنت لو يفعل مالك بعد انكشاف أمر مهارته في الطهي، ولكنها أجلتها ليوم آخر ..

كانت تقطع بعض شرائح الطماطم، حين شعرت بدخول شخص للمنزل، تيقنت أنه ياسين، لذلك لم تلتفت كأنها لا تشعر بمن دخل!!

ولكنه جلس أمام المطبخ المفتوح على البهو قائلاً :- أنا جائع، وزوجتي تحرمني من الطعام في الخارج، ماذا أفعل؟

- لا تفعل شئ انتظر حتى تنهي هي الطعام وتأكل وتسد جوعك!!

ابتسم وهو يلمح نبرة الضيق في حديثها ثم قال :

- لكنكِ لم تخبرينني من الذي علمكِ الطهي؟ لقد أصبحتِ طاهية ماهرة!!

تمتمت :- أيها الخبيث !!.. يعلم أنه معلمها لذا قالت :- علمتني نفسي!!

- كاذبة!!

صدقتْ وصدقَ؛ فهي قصدته بنفسها، وهو قصد أنه معلمها وليست هي من علمت نفسها!!

وكعادتهما فهم ما قالت فنطق سعيداً بدق كالطبول في قلبه :

- علمتكِ نفسكِ، إذاً صدقتِ!! أعلم أنني كنت نفسكِ!!

لا شئ أبداً تستطيع أن تثير استفزازه به، لماذا يفهم كل حديثها؟ لماذا لا يتحير من جملها ؟ أي حمق تفعله وهي تحدثه بلسانها الذي يعرفه؟!

أخرجت غيظها في التقطيع السريع لشرائح الطماطم، أنهتها ثم تلت الأمر بشرائح البصل، بنفس سرعتها وغيظها، امتلأت عيناها بالدموع تأثراً بما تقطع فغيمت رؤيتها فأخذت تعصرهما بقوة حتى تستطيع الرؤية، دون أن تدري ما حدث صرخت وهي ترمي السكين الذي تمسكه وتقبض على أصابع يدها الأخرى بألم، وترفعهما معاً لتجفيف عينيها من الدموع، لولا صوته الذي لحق بها :- ماذا حدث ؟.. انتظري!!

قبض على يديها بيديه وهو يسحبها معه لصنبور الماء وضع يدها تحت الماء الجاري وهو يتمتم :- ما الذي فعلتِه بنفسكِ؟ كيف تؤذين نفسكِ هكذا؟

- تمنيتُ قتل نفسي حتى تتأدب!!

قالتها بتوتر وهي تعصر عينيها بشدة حيث شعرت بأنها تحترق، وتحاول سحب يدها من يده التي تتملكها وقد نسيت ألمها الشديد أمام خجلها من فعله وقولها!! لماذا يكون هو نفسها ؟ لماذا ؟

فابتسم وهو يغسل وجهها وعينيها بالماء قائلاً :- لقد قتلتِها بالفعل وأنت تبعدينها عنكِ هكذا..

- ماذا تفعل الآن؟

قالتها وهي تبتعد بوجهها عنه، ولكنها استطاعت فتح عينيها لتره بهذا القرب، فأغلقتها ثانية، فسحبها للخارج قائلاً :- سأضمد أصابعكِ وأكمل إعداد الطعام ..

لم تعترض وهي تسير جواره، أحضر أدواته وجلس يطهر جرحها ويضمده لها، ينظر لعينيها بين تارة وأخرى فتعبس وهي تشيح بوجهها عنه، ماذا تفعل وهو مُصِرّ على هدم حصونها؟ الخبيث يعرف أنها تحبه وتذوب له ولعاً؛ وليست بحاجة إلى محاولاته حتى تميل له، ولكن هل يفهم أنها تريد صناعة مستقبل قوي لن يهدمه إعصار من الخوف والجبن والتردد؟ أيفهم ذلك؟

هو يفهم أن خوفها يمنعها، يعرف أنه ما حفظ لها الأمان ولو لمرة تشفع له، يعلم أن القضية ليست ضعف انتابه بعد موت أمه، بل تراكمات لسنتين كانت تتغافل عنها لإبقاء السعادة بينهما، وبقيت السعادة، ولكن ماكان يحفر في قلبها لم يكن بيده أن يمحيه!! هو الآن قادر على محوه!!

انتفضت وهي تسمع جرس الباب؛ فهدَّأ روعَها قائلاً :

- إنه مالك !! لا داعي للفزع ..

أومأت وهي تسحب يدها التي أنهى تضميدها وبقيت في يده، ذهب ليفتح فنظر له مالك قائلاً :

- ماذا كنت تفعل وتركتني بالخارج مع ابنك الشقي؟

ابتسم ياسين وهو يفسح له الدخول قائلاً :- جئت في وقتك، لتكمل الطعام لأن أختك أصيبت!!

نظر له قائلاً بقلق :- حقاً، ماذا حدث لها؟

ابتسمت رحيق وقالت :- لا داعي للقلق، إنه جرح بسيط!! وقد كنت أتوق لتذوق طعامك..

- كنت أخبريني بذلك، بدلا من جرح نفسك لتجعليني أفعل..

ضحكت رحيق :- يا إلهي أصبحت مغرورا!!

- أعلم .. أعلم ..والآن خذي ابنكِ واغمريه في الماء حتى تظهر عليه النظافة !!

- مالك!!

- هل أكذب عليكِ، هيا!

نظرت له معترضة وهي تذهب لغرفتها ومعها سيف، فلحق بهما ياسين وهو يقول لمالك :

- أكمل أنت الطعام، وأنا سأساعدها فلن تستطيع استخدام الماء ويدها مجروحة ..

نظر لهما مالك مندهشاً وهو يتمتم :- يا إلهي!! إنهما مجنونان لا محالة!!

****

ميونخ / ألمانيا

بعد ساعات طويلة عاد إليها وحيداً، وجدها تبكي فقال بملل مصطنع :- يا إلهي، ما الذي رماني على العودة، كنت أستمتع بوجه صبوح، كيف أتركه وآتي لتلك البكاءة..

بوسادة جوارها قذفته بها، وهي تقول بغضب :- عُد إليها.. لا أريد رؤيتكَ..

ضحك قائلاً :- سأعود بالطبع لا أنتظر منكِ إذناً ..

انهمرت دموعها بصمت فقال :- هل صدقتِ أنني كنت مع امرأة؟

أومأت بالإيجاب فقال ساخراً :- وصدق حدسكِ كنت مع امرأة جميلة بالفعل، تشبهينها كثيراً؛ كيف لم تعرفينني بها قبل الآن، لن أسامحك على هذا؟

- ماذا؟

- كل مرة نأتي هنا، نذهب لأبيكِ ونطرد من المرة الأولى فنترك البلد ونعود للوس أنجلوس، هذا جزاء من تقوده امرأة..

سكتت للحظات ظنت أنه يهذي فيها ثم قالت :- أين علي؟

- لقد تذكرتيه إذاً، لا تقلقي إنه في مكان آمن. هيا اغسلي وجهكِ وبدلي ملابسكِ، دعانا والدكِ على العشاء..

- من؟

- ميرا، هلا سكتِّ قليلاً..

في الطريق أخبرها بحديث طويل قال أن هناك مثل مصري يقول " أعز من الولد ولد الولد "، وقال أنه تحدث مع أمها التي لم ترها لثلاث سنوات وتعلقت بعلي ولم تتركه، تحدث مع أبيها وأخيها، ومنهما عرف أنها التي أخطأت في حقهما، أصبحت مسلمة ولكن لم تحسن إليهما ولم تبرهما كخلق الإسلام، قالوا أنها كانت تعاملهم بلطف قبل إسلامها لذلك لما تغيرت تغيروا.. لم يجادلهما في الأمر، إذ شهد على إعراضهما عنها، وضعفها بسببهما..

علقت :- ولكن " **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا** "

أكمل :- " **وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ".. ثم تنهد مردفاً :- ميرا يبدو أن قلوبهم لانت أخيراً، مهما حدث أنتِ ابنتهم ويحبونكِ، فلا تقسِ عليهم، اتفقنا..

وافقته بإيماءة من رأسها، حتى وصلا وقفا كلاهما وبكلا القلبين قلق يعصف، في قلبها هي توتر من لقاء بعد غياب ومقاطعة طالت، أما هو فمتيقن أن مشكلتها مع أهلها قد حلت، لم تعد بحاجة إليه، رغم علمه بأنها كانت تحبه قبل سنوات من زواجهما، ولكنه لن ينسى أنها جاءته حتى تحتمي من أبيها، ولكن الآن أمِنتْ أباها، فماذا سيحدث؟ أمام الباب شد على يدها قائلاً :

- والدك لا يعلم كيف تزوجنا! أخبرتُه أنني من عرضتُ عليكِ الزواج، وصممتُ على الزواج بكِ في تلك الظروف، أنا لم أكذب، فقط أخفيتُ عنه ما حدث في تلك الليلة، أنتِ أيضاً لا تخبريه، لن يقبل أن تتزوج ابنته بتلك الطريقة..

نظرت إليه بشبه صدمة ففهم عينيها قائلاً :- ما حدث لا يشينكِ، ولكنه كأي أب يخاف على ابنته، هل فهمتِ؟

أغمضت عينيها مع الفتح المفاجئ للباب!!

****

مانشستر

خرجت بعد يوم وليلة، جلست بنان في غرفتها تنظر حولها ومعها ديانا التي عاجلتها قائلة :

- هي أستاذة في علم النفس، وهي الأقدر على التحدث معكِ، يجب أن نذهب إليها قبل كل شئ، اتفقنا!!

سمعنا جرس الباب فقالت بنان :- سأفتح أنا، فقد سئمت الراحة!!

لم تعطِ فرصة لديانا التي تعلم أنها تهرب من الحديث، وهي تتجه لفتح الباب وتركتها تتمتم :

- أي راحة بنان، هداكِ الله!!

سمعت صوت رجل فخرجت سريعاً، وجدت جارها البريطاني يتحدث مع بنان باسماً، تساءلت عن سبب وجوده رغم أن شوقاً جارفاً تحرك نحو ابنه الذي يسكن بين ذراعه وصدره، وأشرق وجهها بسعادة وهي تراه يعطيه لبنان، فلم تطِق أن يغادر حتى ركضت نحو بنان المندهشة منها وتلقته بين ذراعيها تعانقه، لم تنتبه حتى لبنان التي قالت بضعف :

- يقول أن لديه مهمة مفاجئة وعليه الخروج، وزوجته غائبة، وأنه يثق بنا، وكان يطمئن على صحتي..

فقالت ديانا :- هل ترين كم هو جميل! يا إلهي إنه رائع!! تعلمين أنني أفكر في الإنجاب بجدية!!

- ماذا؟ ستتزوجين؟

- من قال ذلك؟ سأنجب فقط، لن أتزوج!

جلست بنان تقول بصدمة :- كيف ذلك؟ هل من الممكن؟

- نعم نعم!! والآن استعدي لنذهب لطبيب ثم لدينا موعد مع الأستاذة التي حدثْتكِ عنها، ثم زيارة للمركز الإسلامي..

قالت بنان بحيرة :- وماذا سنفعل في هذا؟

قالتها وهي تشير للطفل فقالت ديانا :- عندما يعود والده إن شاء الله!!

عادت بنان لحيرتها مجدداً، لم تدَعها ديانا تنفرد في غرفتها وهي تشغلها باللهو واللعب مع زائرهما الصغير، رغم أنه لعب بغير طعم ومزاح مر ولكن يبدو أنه أفضل مما تنوي فعله بنفسها!!

****

وعادتا بحال منعكس، من ذهبت بأمل عادت بألم ومن ذهبت بحيرة عادت ببعض انضباط؛ ولكن بقي شئ بينهما، كلاهما انفصلت في غرفتها لا تعرف أتبكي ذنب اقترفته، أم تبكي حياة عاشتها، أتبكي هم ثقيل لا يخف، أم تبكي أمل عذب قد انتهى!!

لا تعرف ديانا أي فكرة شيطانية أتتها، لم تكن أبدا لتفكر كذلك قبل إسلامها، ولم تكن يوماً لتقبل بفعل شئ شنيع كهذا؛ كيف فكرت وحورت الفكرة في رأسها؟ كيف بحثت عن سبب لتقنع نفسها وفعلت؟ هل وصل شغفها لتلك الدرجة؟ أن ترمي بنفسها في بئر الحرام، أن تضيع حياتها لأجل لا شئ؟ كيف تهورت لفعل ذلك؟

وكأن سحر يدور برأسها جراحة بسيطة ستحملين بعدها جنين يحمل اسمك؟ أي خراب حل برأسها حين فكرت؟ أي جرم كانت ستفعل؟ لولا أن أنقذها الله لأقدمت على الفعل!!

هي الشقية التي لا تستحق الرحمة ولا الحياة؟ كم باتت تكره نفسها التي تضعف أمام رغباتها؟ ما الشئ الذي سينسيها ذنبها؟ كيف أقبلت على ذلك؟

دائماً تحمل شذوذاً في أفكارها! هي العاصية البعيدة عن رحمة الله! هي اليائسة البائسة! وكيف تنسى ما يعصف ببنان من شك؟ ألم تفكر أن الأمر سيزيد حالتها سوءاً؟ وهاهو يتحقق ظنها وبنان تطرق بابها قائلة :- ديانا لقد وجدت الحل!!

لم تسمع إجابة ديانا فأكملت :- أنا لست مسلمة، ولن يكون حرام علي القيام بهذه العملية، إنها بسيطة زرع أجنة ليست بالشئ الصعب؛ أستطيع فعلها وأنجب طفلاً تأخذينه، أو أستطيع الزواج بمالك وأنجب ابناً أمنحه لكِ...

قطعت حديثها مع فتح ديانا لغرفتها بضراوة قائلة :

- إياكِ أن أسمعكِ تتحدثين في هذا الأمر ثانية، لقد أجرمتُ عندما فكرت في ذلك!! إنه زنا أيتها المتهورة، أنتِ، أنتِ، أنتِ مثلي تماماً عودي لغرفتكِ!!

صدمت من هيأتها فهي لم ترَ ديانا هكذا من قبل، لم تطِعها ووقفت تنظر لعينيها الحمراوتين من أثر بكاء، ووجها المرتعش، لم تمهلها ديانا وهي تغادر الشقة بأكملها، لدقائق طويلة قبل أن تعود حاملة لعدة أشياء لم تعرفها بنان..

دخلت ديانا غرفتها وأغلقت بابها عليها وبدأت تعاقب نفسها!!!

١٦

سأعود

وصلت رحيق للشركة وفي طريقها لمكتب مالك التقت بفتاة تعرفها، رحبت بقدومها قائلة :- مرحبا جهاد !! الشركة نورت..

ابتسمت جهاد برقة قائلة :- يكفي المكان وجودك حتى يستنير، أستأذنكِ الآن، فأختي تنتظرني بالخارج..

- تفضلي..

غادرت جهاد بينما دخلت رحيق إلى مالك لتجده مبتسماً فقالت :- قبضت عليك، أخبرني بكل شئ الآن..

ضحك قائلاً :- بماذا أخبركِ، تعلمين أن جهاد أخت فاضلة!

- مالك، لا تراوغ على أختك، أعلم أن جهاد فاضلة وأخت لي أنا، ولكنها ليست أخت لك ..

تلجلج قائلاً :- رحيق إنني لا أعرفها إلا منذ أسبوعين فقط، أنت من تكبرين كل الأمور هكذا؛ كما أنني لا أفكر في الزواج إطلاقاً..

تصنعت رحيق الحزن قائلة :- يا إلهي! لقد تمنيت ابنة خال لسيف حتى أزوجها له!!

وقف مالك وقال :- يا إلهي، اخرجي الآن. اذهبي لزوجكِ حالاً. لقد جاءت إليّ مضطرة، إنها لم تفعلها قبل ذلك..

وقفت رحيق تقول بابتسامة واسعة :- أعلم ذلك. ولكنني ألاحظ أنك تدافع عنها.. آه آه أخت فاضلة. سأذهب الآن لزوجي حبيبي، مؤكد أنه اشتاق إلي كثيرا..

- فوق ما تتصورين حبيبتي!

شهقت وهي تنظر تجاه الباب الذي يستند عليه ياسين ويبتسم ابتسامة واسعة تزيد وجهه جمالاً، بينما وجهها هي تلون بلون أحمر مع رعشة في عينيها، ما الذي قالته الآن؟ لماذا جاء إلى هنا؟

أخرجها مالك من صدمتها وهو يضحك قائلاً :- ابعدها عني، إنها تقوم بدور الخاطبة الثرثارة!!

اقترب ياسين ووضع ذراعه حول رقبتها يشدها إليه بطريقة أخرستها وهو يقول :

- مالك، لا تشتم زوجتي وإلا ضربتك، من المؤكد أنها اشتاقت إلي فجاءت لزيارتي، لا أحد يقطع إجازة عريس بعد أسبوع واحد من زواجه غيركم، ولكنني سمعت خطبة وزواج، متى ستفعلها؟

نظر له مالك قائلاً :- يا إلهي إنك تشبهها، ثم أنها لن توافق بي..

حينها نسيت رحيق خجلها وهي تضحك :- إذا لقد صدق ظني، تريد الزواج بها أليس كذلك؟

- لا تتعجلي الأمر، واخرجي هيا لدي عمل أريد إنهائه!!

جذبها ياسين معه للخارج وهو يقول :- إذاً اعمل بجد، ولا تطيل التفكير بها، عيبك أنك لا تستطيع إخفاء مشاعرك؛ أكاد أجزم أن مالكة تلك المشاعر تعرف بوجودها!!

تنهد مالك وهو ينظر لهما، لا يحمل نحو جهاد مشاعر قوية كما يظنان، فحكايته مع ليندا انتهت منذ شهر واحد، ولن يستطيع أن ينسى حبه الكبير لها بسهولة، ولا مشاعره التي انفجرت نحوها بعنف، الأمر جد صعب أن ينتقل من حالة لأخرى!!

جهاد فتاة جيدة، حين يفكر في الزواج بجدية فهي الأنسب لا محالة؛ ولكن ليس الآن، هو يشعر بنزف في مشاعره لم يطِب بعد!!

حتى أنه أخبر بنان عنها، وأحبتها من خلال حديثه، أشارت أكثر من مرة أنها أفضل من ليندا، كان هذا في الأسبوع الأول لمعرفته بها قبل زواج رحيق، ولكن انقطع حديثهما بعد الزواج لأمر لا يعلمه، وهاهو سيسافر ولا يعلم كيف سيطمئن عليها؟!

بمجرد خروجهما وقفت فوقف قائلاً :- لماذا وقفتِ؟

نظرت إليه بابتسامة متسائلة ثم قالت :- ارفع ذراعك عني، لقد خرجنا ولم يعد يرانا مالك..

جذبها لتسير معه فسارت وهو يهمس قريباً من أذنها :- ألم تعلمي أنني فعلت ذلك لأنني أشتاقكِ، وليس لوجود مالك!!

بمرفقها وكزته في بطنه فابتعد صارخاً فقالت :- لا تفعل ذلك ثانية!!

إنه يخجلها ويعلم أنه يفعل، عندما وكزته مرت امرأة جوارهما تعلقت أنظارها به، فجذبته رحيق سريعاً نحوها، وضعت رأسها تحت ذراعه وأحاطت خصره بيدها، ففتح عينيه ذهولاً ثم كتم ضحكاته قائلاً :- ابتعدي عني، لقد رحلت!

وكزته مرة أخرى لتقول :- يا إلهي، هل تسعدك نظرات النساء إليك، هل أختار لك عروسا من بينهن؟!

قال مستفزاً مشاعرها :- كما اخترت في المرة الأولى، أستطيع الاختيار في المرة الثانية!

ابتسمت قائلة :- أنا أثق في اختياراتك أيضاً، ولكن فكر في أبنائك جيداً؛ عليك أن تحسن اختيار أمهم!!

لم تعطه فرصة لإكمال استفزازه ونبرتها تتحول للجدية قائلة :- أريدك في أمر هام، تعالَ معي!

سحبت يده وراءها وهي تتجه لمكتبه، حيث أثارت في نفسه قلقاً وخوفاً، شد على يدها وهو يسير معها حتى وصلا دخلت وأغلقت الباب وجلست قائلة :- اجلس، لا تقلق، الأمر ليس بذلك السوء!!

جلس مقابلها قائلاً :- بل إنه السوء كله، ماذا حدث؟

قالت بهدوء :- ياسين أنت الوحيد الذي لن تسخر من شعوري أليس كذلك؟

- قلقة على من؟.. سأل فأجابت :- ديانا..

سكت وهو يجيل ناظريه في الغرفة، هو الآخر أصابه قلق منذ قررت السفر، ولكن ليس من حقه الاعتراض، ولم يقتنع بأسبابها إذ أن لها القدرة على فعل ما تشاء في أي مكان، كما أنها تنتمي لهم أكثر من انتمائها لمسقط رأسها، وتأكد من أنها استطاعت إقناع عامر بما تريد، وابتعد عنها بالفعل، ولكنه لم يفهم قرارها؛ لذلك أشار على مالك بأن تمكث بنان معها..

نظر لرحيق التي يعلم كيف يصدق حدسها وكيف توشي لها مشاعرها بكل شئ ثم قال :

- هل حدث شئ لها، أم أنه مجرد شعور لديكِ؟

كيف تخبره بما تعرف؟ رغم أنها تظن أن ديانا لم تعد تعاقب نفسها كما كانت، ولكن شعور راودها حين تحدثت معها في أمر الإنجاب منذ يومين، قالت بأنها ستختار زوجاً جيداً، أو تعود لعامر، لم تخبرها بشئ آخر؛ ومع ذلك تشعر بأن الأمر قد يتجاوز معها وتفكر في احتمالات سيئة وحين تنتبه تعاقب نفسها؛ تلك الدائرة التي دائماً ما حصرت نفسها فيها قبل إسلامها..

وأمر بنان الذي يشغلها من ناحية أخرى، تمنت أن تكون هنا جانبها، تعلم أنها في أشد الحاجة لأمل تتعلق به، لو كانت بينهم حتى، لم تعد تحتمل وجودهما وحيدتين هكذا، مع مشاعرها التي بدأت تعصف بها، وكأنها تخبرها بحاجتهما إليها!!

قالت :- لم يحدث شئ، فقط أشعر بالقلق عليها، وعلى بنان، وخاصة أن بنان تعيش في حالة غير مستقرة كما تعلم أنها..

قاطعها :- في أي شئ تفكرين؟

قالت بأمل :- أسافر إليهما، أتحدث مع ديانا وأحاول إقناعها بالعودة لتعيش جوارنا!! اسمح لي بذلك!! لن أطمئن طالما كنتُ بعيدة عنها!!

أشار برأسه أن لا وهو يقول :- لن أدعكِ تسافرين وحيدة؛ سأكون معكِ!!

- موافقة!!

سكت قليلاً ثم قال :- ولكن لننتظر قليلاً؛ ما رأيكِ لو تواصلتِ معها هاتفياً؛ خاصة أنهما معا، قد نستطيع حل الأمر عن طريق الهاتف!!

- أتعتقد ذلك؟

تنهد قائلاً :- إنه مجرد رأي، إن لم يفيد لن يضر!! أنا أثق بقراراتك، فقط لا تتعجلي الأمر..

نظرت إليه ومازال قلق يعصف بقلبها، عبثت في هاتفها وهي تردد :- ولكنها لا تجيب على هاتفها، حتى بنان لا تفعل!

- أين سيف؟

نظرت إليه وقد أخرجها من حالتها فقالت :- مع أمي .. ثم وقفت قائلة :

- لن أعطلك أكثر من ذلك، اعمل بجد!! إلى اللقاء..

ابتسم وهو يلاحقها بنظراته قائلاً :- ليت كل العمل أنتِ!!

وليتها تقاطعه دائماً، ليتها تطل عليه بين حين وآخر، سعيدٌ أنه ذهب لمالك ليسمعها تقول ذلك حتى ولو تمزح، ذهابه كان صدفة، فكيف لم يشعر بصفاء السماء فجأة، ونسيم عذب يسري في المكان؟ وهاهو اختفى النسيم واختنق الجو بعد رحيلها.

****

ميونخ

لم يسعها سوى فرحة غريبة عندما أقبلت أمها عليها تعانقها، تشبثت بجيبها كأنها عابرة سبيل في الدنيا، دائماً كانت تفكر أن أمها الحنون لن تتخلى عنها بسهولة لمجرد اختلاف عقائدي، لولا أن أباها من كان يحرمها الزيارة، لم يعطِها أخوها فرصة وهو يقبل عليها يعانقها، تفاجأت مم فعل،

ماذا فعل محمد به ليتغير معها هكذا؟ ليعود كما كان! حتى والدها الذي لم يفارقه ولدها، ليتها أنجبت منذ زمن، ليتها أحضرته ليبقى معه، ابتسمت بتردد وهي تذهب إليه، فشجعتها ابتسامته، قبلت جبينه ويديه بلهفة، أخيراً سمح لها بالاقتراب منه، أخيراً أمست في كنف عائلتها، تحت رعايتهم وحماية زوجها، حبيبها؛ أين هو؟ هل اختفى؟ خرج من حياتها أم ماذا؟ بحثت بناظريها عنه كالضائعة، حتى وجدته جالساً مع أخواتها الصغيرات، لقد كبرنَ، اشتاقت لشقاوتهن هؤلاء المتشردات!! لماذا لم يأتين إليها؟ هل استغنين بمحمد عنها؟ لم تمر دقائق من تفكيرها إلا ووجدتهن قادمات؛ فتحت ذراعيها لهن قائلة :- تعالين أيتها الجميلات!!

- اشتقنا لكِ ميرا!!

كما اعتادت دائماً، حديثهن في وقت واحد كأنهن نسخة متطابقة، قضت الليلة كلها بفرحة وراحة، حتى أنهم أصروا على إكمال أيامهما الثلاثة هنا، تعلم أن هذه سعادة أهداها لها محمد كواحدة من كثير، هي أيضاً تعد له مفاجأة ولكن لو يقبلها!!

لم يحدث ما خاف منه، ولم تنساه في زمرة فرحتها!!

قبل نومهما قال :- لثلاثة أيام معهم كوني مسلمة!!

لم يزد عن ذلك، وفهمت ما يقصد!!

****

مانشستر

قد تكون الآن طردت من رحمة الله، إن لم يكن بمصيبتها الأولى فبالثانية، هي الظالمة التي تصلح خطأ بخطأ أكبر، لماذا تعاقب نفسها بالذنب، لقد تخلت عن تلك العادة منذ زمن، ما الذي رماها عليها ثانية؟ منذ استيقظت ديانا صباحاً وهي تجلس على الأرض ملتصقة بسريرها مستندة برأسها عليه، منذ ما يقرب من الساعة؛ لم تقم للصلاة حتى، وكأنها تشعر أن صلاتها لن تقبل، لا تذكر شيئاً مم فعلت، أو تذكر وتتناسى، كأنه شئ بعيد يفصله عنها أيام وشهور، ثقل في رأسها يجلسها، تعلم أن سببه ما فعلت بالأمس بعد عودتها أمام بنان..

بنان!! تذكرتها أخيراً، الذنب الثالث لها، يجب أن تساعدها حتى ولو تكفيراً عن ذنوبها، قد تفيدها مساعدتها في إيجاد نفسها الضائعة..

قامت للصلاة بتكاسل، كأنها تأدية واجب وليست غذاء للروح كما كانت!!

****

لوس أنجلوس

عادت سارة لعملها الذي تركته منذ موت أحمد، بعد تفكير دام لأسبوع منذ حديث مالك معها، لم تخبر زوجها وهي تقرر أن تحل محل رحيق وتدير مكتب عمر إدراة كاملة، بعد قرار رحيق بالتخلي عن وظيفتها التي لم تجد نفسها يوماً فيها..

بثقة كاملة دخلت المكان، وطرقت مكتبه برقة قبل أن تلجه، رفع عمر نظره إليها مستنكراً وجودها ففاجأته بقولها :

- أريد ترحيباً يليق بمديرة مكتبك الجديدة!!

- من؟

- أنا بالطبع، وهل ترى غيري؟

وقف مندهشاً ثم قال :- ما الذي يحدث هنا؟ هل تتصرفون هكذا دون العودة لي؟

جلست أمام مكتبه بثقة متناهية اعتادها منها وهي تقول :

- أن نعود لك تعني أن تفسد حياتنا بديكتاتوريتك التي اعتدناها، وأنا ليس لي قدرة بخسارة أحد أبنائي ثانية، سكتُّ كثيراً وخنعتُ لك ولم أعارضك في شئ؛ من اليوم إما أن تختار حياتنا جميعاً أو حياتك وحيداً!

جلس منزعجاً ثم قال :- ماذا دهاكِ سارة؟ هل تهددينني؟

- حاشاك!! أنا فقط أحافظ على أبنائي؛ تعلم جيداً أنني لم أستطع إلى الآن أن أنسى فجيعتي في ابني، لن أستجلب شفقتك بأن ترحم أماً ثكلى، ولكن هذه الثكلى لن تتحمل فقد الآخر بسببك!!

قال بهدوء :- وما علاقة كل ذلك بعودتكِ لعملك؟

ابتسمت قائلة :- إنها دائرة مفرغة، لا تشغل بالك بها، هل أستطيع بدء عملي من الآن؟

أشار بيده قائلاً :- تفضلي! تعلمين أنني لا أجامل في العمل!!

التمعت عيناها وهي تقول بهدوء :- لنرى إذاً!

****

ميونخ

- محمد لقد فعلت شيئاً، ولم أخبرك به ..

كانت تتحدث وهي تعد حقائبهما، نظر لظهرها الذي يواجهه قائلاً :

- لست مطمئناً ، أخبريني أي مصيبة فعلتِ؟

استدارت له وقالت بتردد :- أولا اختلقت عذرا وأرسلت خطاباً للجامعة لتمديد إجازتك!!

بدأ الغضب يظهر على وجهه فعاجلته :- وجعلت تذاكر الرحلة ذهاب فقط لأننا لن نعود الآن!

اعتصر قبضتيه ناظراً لها بترقب فأكملت :- وحجزت لنا في رحلة الغد إلى مصر !! فقط !!

زفر قائلاً :- لماذا ؟

اقتربت منه وهمست برقة :

- لا تنكر اشتياقك لأخواتكَ، ورغم ذلك فضلت الذهاب لألمانيا لحل مشكلتي مع أهلي على زيارتهن، اسمح لي أن أكون سبباً في سعادتكَ ولو لمرة واحدة!! أرجوك اقبلها مني، ما فائدة الأموال التي أجنيها من عملي وأنت لا تقبل بأن أشاركك في شئ، لمدة عشرة أيام فقط في مصر، الإقامة كاملة سأتكفل بها مع رحلة الذهاب والعودة أرجوك، لا تخذلني!!

لن ينكر شوقه الجارف لأخواته، ولولا أن أزواجهن أبناء عمومته لما تركهن وسافر، ولولا أنه في مصر عاطل ليس له عمل وإن كان له فسيكون بمرتب زهيد لن يعيله وزوجته لاستقر فيها، ولكن ليس هناك أمل مرجو من بقائه، فقط أخواته يغمرن قلبه اشتياقاً، ليس معهن ولا يعرف عنهن إلا ما يردن إخباره به، وكأنه قانون المسافر، لا يخبروه بالمصائب لئلا يجزع وأن تصله كل فرحة فقط حتى يشعر أن العالم ليس سوى فرحة..

وكالطفل الصغير الذي يفرح برحلة المدرسة، أن تفاجئه برحلة لمصر لهي السعادة بعينها، ولكن أن يقبل أن تكون هي المنفقة فيها لهو السوء بعينه، فاعترض قائلاً :

- ميرا، الأمر منتهي بيننا قبل ذلك، ما تكسبينه من عملكِ خالصاً لكِ..

قاطعته قائلاً :- وأنا على اتفاقنا هو بالفعل خالصاً لي، أنا فقط أهديتك هدية، تقبلها أو ترفضها الأمر يعود إليكَ..

قالتها وابتعدت عنه واجمة، فشد يدها قبل أن تتجاوز مداه قائلاً :- تعلمين أنني لا أحتمل حزنكِ!

- ومع ذلك تسببه، ومازلت تضع بيننا الفروق والحواجز، رغم أنني أسعد بكل هدية تهديها إلي ولم أخبركَ يوماً بأن تحافظ على أموالك لأمور أخرى!

ثم واجهته قائلة :

- محمد!! الإنفاق ليس فقط واجب زوجي، بل من المفترض أن تفعله لأنك تحب ذلك، لأنك تحبني تحب أن تتكفلني، وكما تهاديني أهاديكَ!!

احتضن وجهها بكفيه قائلاً :- إذا لقد حاصرتِني!!

رفعت ناظريها إليه بوجنتين محمرتين من خذلانه لها، فابتسم قائلاً :- ومتى ستكون رحلتنا؟

غاص قلبها حيث شعرت أنه سيلغيها وانتفخت أوداجها بحزن سينفجر فاتسعت ابتسامته قائلاً :

- أريد الجلوس مع حماتي لأطول فترة ممكنة، عليّ معرفة موعد الطائرة حتى أودعها قبل ذهابنا!!

تحول حزنها لابتسامة وهي تقول :- سنسافر إلى مصر؟؟

أومأ بإيجاب، فتعلقت برقبته قائلة :- سأعاقبكَ على ما فعلتَ بي، لن أحدثكَ لمدة ساعتين!!

ضحك وهو يضمها إليه قائلاً :- يا لها من راحة، سأرتاح من ثرثرتك لمدة ساعتين، اجعليهم ست ساعات، مارأيكِ؟

أخذت تكيله بضرباتها، ثم ابتعدت عنه قائلة :

- أنا المخطئة أنني جلست هنا، سأذهب لمجالسة إخوتي أفضل كثيراً، ولن تراني حتى نرحل من هنا..

ضحك وهو يلوح لها قائلاً :- إنه الأمر الأكثر سعادة في حياتي..

وعلت ضحكاته أكثر وهي تصفع الباب خلفها..

****

مانشستر

لأيام أربعة تراقب ديانا الساكتة، تكثر الصلاة بصورة ملحوظة، خشيت أن تكون تعرضت لمصيبة، فهو حال مالك، من ملازمتها له عرفت أنه يكثر الصلاة والقرآن في كل مصيبة يتعرضان لها، أكلها القلق على ديانا، لم يتحدثا منذ تلك الليلة المشئومة، ولا تعرف ما الذي فعل بها ذلك، تخشى عليها بشدة، ولشد ما يؤلمها عجزها تجاهها..

جلست بنان في الشرفة التي يتسامران فيها دائماً، حين دخلت ديانا تبتسم؛ فقفزت من مكانها تنظر إليها وقد شعرت بنشوى لمرآها باسمة، جلست ديانا قائلة :

- أنا آسفة، دون شعور مني أثير قلق من حولي!!

جلست بنان قائلة بهدوء :- هل أصبحتِ بخير؟

- الحمد لله..

سكتتا قليلاً حتى قالت بنان :- لقد قرأتُ بعضاً ما كتبتِ!!

تساءلت ديانا :- أي شئ تقصدين؟

ازدردت بنان لعابها ثم قالت :

- موضوع بعنوان " ملة إبراهيم حنيفاً "؛ الذي نشرتِه على صفحتك الشخصية..

استحثتها ديانا على أن تكمل فقالت بنان :

- قلتِ أن الدين كله تفكر، وأن النبي ابراهيم وصل إلى ربه عن طريق التفكر، حيث لم يقتنع بما كان يعبد آباؤه وبحث في الكون عن إلهه، وكان يشك في كل شئ حتى وصل للخالق..

قاطعتها ديانا قائلة :

- لم يكن الشك هو مُسَيِّرَهُ بل كان يقين بأن للكون إله لا محالة، ولكنه قرر الوصول إليه بعقله، ورفض اتباع ما يعبد آباؤه هكذا دون تفكر، ولذلك أمرنا الله نحن المسلمين أن نسير على ملته، بأن نسعى إليه مجردين من أي تقليد عرفه إلينا آباؤنا، فأنا مثلا لو اتبعتُ آبائي لالتزمت الضلال طيلة حياتي..

قالت بنان بحيرة :

- لم أفهم، كيف بحث عن الله وكيف وصل لوجوده؟ وكيف تسيرون على ملته ؟

- سنبدأ من الآخر، في طريقي للبحث عن الله، يجب أن أتجرد من كل تقليد أعمى، سيدنا إبراهيم رفض الاتباع لأنه لم يقتنع بعبادة حجارة لا تنفع ولا تضر، فهدم كل فكرة تربى عليها بأن هذه الأصنام إله يعبد، وسار في الملكوت يبحث، رأى كوكباً فالقمر فالشمس واعتبر كلٌ إلهه، ولكن بمجرد اختفائه ينتابه الشك في أن يكون هذا هو الإله، ومازال موقناً بأن للكون إلهاً يبحث عنه، فتوجه إليه بقلب خالص يدعوه لأن يرشده إليه وكأنما قال ياربِّ أنا موقن بوجودك فاهدني بنورك إليك..

بصوت أكثر ارتعاشاً قالت بنان :- وذكرتِ كلاماً من القرآن عن ذلك..

ابتسمت ديانا وهي تقرأ :

- ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ))

- لا أعرف ما الذي يدخل الشك إلى قلبي؟ ولكن دون دراية مني تهاجمني أسئلة لا أجد لها إجابة.. قالتها بنان بشرود؛ فقالت ديانا :- أي أسئلة؟

نظرت لها قائلة :

- يعني مثلا ما الذي يدريني أنه إله واحد، أو مثلا كيف يكون هو؟ هل يعيش مثلنا أو يتزوج وينجب وله أبناء، يرثون الملك من بعده؟ هل يحيا ويموت؟ أعلم أنكم لن تتقبلون أمراً كهذا وأنا أيضاً أشعر بثقل في رأسي لعجزي عن الرد وإسكاتها ولكن لا إجابة تريحني..

ابتسمت ديانا قائلة :

- بنان أنتِ تحملين قلباً نقياً حافظي عليه، أعلم أن فطرتك سليمة، لذ أنتِ في حيرة بين ما يقوله عقلك وما يصدقه قلبك، لا تخشي من أسئلتكِ طالما لها إجابة تسكتها؛ أولاً هو إله واحد وما يثبت ذلك أن الكون كله يسير بخطة واحدة، كل الكائنات الحية وحدة تركيبها الخلية ، ولا يوجد شئ في كائن إلا ويوجد ما يناظره في كائن آخر، كما لو كان آلهة متعددون، لتنافسوا على الحكم

واختلفوا، هو واحد أحد صمد قال عن نفسه ذلك، حي لا يموت؛ الأمر بسيط جدا بنان، لا تعقديه، لقد أخذ الأمر مني خمس سنوات نادمة الآن بشدة على أنني ضيعتهم في كبري وغروري، وكان الأمر بيناً وأشد وضوحاً من الشمس في وضح النهار..

أجابت بنان بيأس :

- أنتِ لا تفهمين، إن مر عليكِ خمس سنوات، فأنا مر علي سبع سنوات أنكر وجود إله للكون، ظناً أنني بذلك سأعيش بطمأنينة محررة من كل قيود، فبذلك سأتجنب البؤس الذي يعيش فيه أبي، وبالفعل كنت منطلقة أعيش حياتي بسعادة، كما ظننت، ولكنها كانت الشقاء بعينه.

لم أشعر بطفولتي التي اندثرت تحت التراب دون جهد مني، ولم أشعر حتى بصباي، دفنت نفسي في عمل شاق حتى أتجنب أن أكون مثل أبي، يتشدق دائما بلا إله إلا الله، ثم يفعل كل الجرائم التي تخطر لكِ ببال، أعتقد أنها كانت محض جرائم أخلاقية.

وفجأة تحولت حياته إلى هدوء غريب، وأصبح يقرأ القرآن ويصلي وسعادة غريبة تظهر على وجهه، فأصبحت ناقمة عليه كيف يحول حياتي لجحيم وحياته تصبح فجأة كل النعيم، ومازال يتشدق بلا إله إلا الله، فزاد إنكاري لما يؤمن وزادت مهاجمتي حتى مات مقتولا ولكنه آمنا مطمئنا! لماذا استجاب له إلهه وأنهى حياته بشئ يحبه، بينما تسود حياتي أنا؟!

حين انتقلتُ للعيش في بيت مالك بدأ شكٌ يصيب قلبي أخفيه بإنكاري وأتظاهر بالحياة والمرح والسعادة إن لزم الأمر، تصيبني نوبات اكتئاب أرجعها للوحدة وغياب الأصدقاء وترك الوطن وكلها أسباب بعيدة عن سبب اكتئابي وحيرتي، شغلت نفسي بالبحث عن أمي التي لم يهمني أمرها وازددت إقناعاً لنفسي بأنني عالة على قوم، أخذت بأسباب كثيرة غير الحقيقة!!

لم أنسَ المرات التي استمعت فيها لقراءة مالك للقرآن، لقد كان شئ يصيب قلبي ويقنع عقلي أنه الحق كله، ولكن كبري وعنادي يرفض الاعتراف!!

اكتشفت أن أبي لم يكن سبب في بؤسي بل أنا من اتخذته حجة، واطمأننت لها، لا أعرف كم عدد المرات التي ذكرته فيها بالسوء، ووصفت فيها كم البؤس الذي طغى على حياتي بسببه، حتى اكتشفت أنني من فعل!!

أنا لا أريد معجزة تثبت أن الإله موجود لأنني.. لأن في عمق نفسي شئ يهتف بوجوده ويؤمن به، ولكن لا أعرف ما الذي يفعل بي ذلك، أنا.. أنا.. أنا لست بذلك السوء؛ فقط أخاف من أن أؤمن بوجوده، أخاف من التقيد بقوانينه، أخاف من أشياء كثيرة لا أعلمها، أريد أن أشعر بالاطمئنان، بالراحة، أشعر .. أشعر كما تشعرون في جَنْبِه، ولكن شئ يمنعني من ذلك!

ثم وقفت تغادر المكان وهي تهتف ببؤس أقوى :

- لا أعرف كيف يتحمل من هو مثلي في ملكوته، من المؤكد أنه سيعصف بيَ الأرض على جبروتي، ومع ذلك مصرة على عنادي!! ليعصف بيَ الأرض إذاً حتى تنتهي حيرتي!!

أوقفتها ديانا وهي تسألها بهدوء كأنها ما تأثرت بحديثها الطويل :

- وحين يعصف بكِ الأرض ستؤمنين بوجوده؟ تعلمين أن هكذا طلبت أقوام كثيرة، رفضوا الإيمان وتعنتوا، ثم تمادوا في كبرهم وبأسهم، وطلبوا من أنبيائهم أن يرسل الله عليهم حاصبا من السماء أو يغرقهم أو يعصف بهم الأرض، وفعل الله ..

وكأن ذرات الهواء ارتعدت مع رعدتها وهي تسأل :- ماذا فعل؟

- استجاب!!

تشقق حلقها من جفافه وسارت خطوة للأمام وديانا تنطق :

- **((ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَّمْدُودًا ، وَبَنِينَ شُهُودًا ، وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ، كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ، لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ، لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ))**

ثم تنهدت وهي تسأل :

- هل تحبين سماع في من نزلت هذه الآيات؟ أم أنكِ ستبحثين بنفسكِ كما تفعلين منذ أتيتِ إلى بيتي؟

ركضت بنان لغرفتها، ولم تشغل بالها بنبرة ديانا التي تحولت من نبرة حنون إلى صقيع بارد لا حياة فيه وهي تسألها سؤالها الأخير، هل تمادت إلى هذه الدرجة؟ هل انتظرت أن تستجلب شفقتها ككل مرة، وهي تتحدث عن مأساتها وحياتها قبل أن ينتشلوها؟ لقد كررتها لها كثيراً لكل منا عقل يستطيع أن يحكم على كل الأشياء بجلاء؛ ولكنها رفضت أن تسمع أو تعترف!!

بينما انشغلت ديانا في نفسها، بعد أيام أربعة اتخذت قرارات هامة، ولكن كلها متوقفة على بنان، هي بحاجة إلى صحبة تقومها إذا ما انحرفت أفكارها ثانية، وهذه الصحبة لا تعرفها سوى في لوس أنجلوس، لم تستطع حتى تكوين صداقات مع زميلاتها المسلمات في عملها هنا، وإن استطاعت لن تجرؤ على إخبارهم بما يدور في رأسها كما تخبر رحيق وميرا بكل أريحية، ستعود إلى لوس أنجلوس فهي لن تستطيع المرور بما حدث في الأيام السابقة مرة أخرى..

ستنفذ أمر ربها **((وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا))**

والقرار الثاني أنها ستتزوج، لا تعرف كيف ومن، ولكنها قررت؛ طالما اتخذت قرارها فكل شئ سهل بعدها، ولكنها ستؤجله حتى تعود إلى صديقتيها فهي أصبحت تخشى انحراف أفكارها حتى في الزواج، لأنها إلى الآن تريد من الزواج الإنجاب فقط، لا تريد رجل ولا مشاعر ولا احتواء ولا سكن ولا أي من هذه المسميات، رغم احتياجها لها جميعها!!

****

عاد ياسين من عمله الذي يهلك نفسه فيه ويبقى لأطول فترة ممكنة حتى يتجنب مكوثه معها وليس معها، أصبح يحترق من تجاهلها له، ولم يعد يفعل شيئاً، سوى إظهار تجاهله هو الآخر تارة، وتارة يخونه حنينه إليها، وقد تم الزواج بسرعة جعلته يظن أن كل شئ سيحل بسرعة، لو كانت تتجاهله تجاهلاً تاماً حتى؛ إلا أن تجاهلها له يكون مدروساً، تعرف جيداً كيف تتصرف معه، وكأن علاقتهما مسماة بالصداقة، هو لا يقبل بصداقة كتلك، رغم أنهما كانا صديقين في السابق؛ هي حتى لم تهتم لمعرفة أين غاب في الخمس سنوات الفائتة، مؤكد أنها قاصدة لإثارة جنونه..

شغله تفكيره عن تمييز الصخب الخارج من إحدى الغرف، لم ينتبه إلا بعد أن وجد البيت خالياً، بحث بعينيه فاصطدمت أذنه بموسيقى عذبة عالية، من المؤكد أنها ليست في بيته، زوجته الهادئة الحنون لن تستمع لمثل ذلك الصخب، ثم ابتسم في نفسه ساخراً فهو يعلم أنها من الممكن أن تفعل وترقص عليها أيضاً، ولكن فقط عندما تكون غاضبة أو حزينة، أو .. أو سعيدة، لماذا يحير نفسه؟ ليبحث عن مصدر الصوت أفضل!!

تتبع الصوت حتى وصل للغرفة التي تنام فيها؛ بخفة فتح الباب حتى لا تلحظه، ثم وقف مبهوتاً، كانت هي!! وكيف لا يعرفها بجسدها الملفوف بطوله المتوسط وشعرها البني الطويل بلفاته اللولبية، يعرف تلك الحركات المجنونة التي تفعلها وكأن الأرض تهتز من تحت قدميها، تحول نظره وما أراد أن يفعل للكائن الصغير الذي يفعل ما تفعل سعيداً مرحاً، وكأنهما يقدمان عرضاً مسرحياً متناسقاً، نظر للفراغ الموجود مكان قدمه، لا يسده شئ، ويتحرك على قدم واحدة وعكاز يتركه ليلتقطه مرة أخرى، الكائن الذي عاد ليجده نسخة منه مصغرة، وكم تمنى أن يكون شبيها لأمه، لكن لا عليه فيبدو أنه يشبه جنونها!!

لم ينتبها له رغم أنه أطال وقفته، مستمتعٌ بما يرى، هي طبيعية إذاً، طالما تعبر عن مشاعرها أياً كانت فهي طبيعية، ولكن هو كيف سيعبر عنها؟ سينسى أسى نفسه الآن ليكمل استمتاعه، ماذا تفعل بسيف؟ الصغير الرقيق! الآن فهم لما ينعته مالك بالشقي، لم يعلم أن أمه من تجعله هكذا!!

أكثر شئ أعجبه منذ عاد أنها لا تشعر سيفاً بعجزه، بل تجعله يفعل ما يعجز عن فعله الأصحاء، وها هو يفاجأ بابنه الآن يتحرك على قدم واحدة دون الأخرى، بعد مهارته في السباحة والتنس وكرة القدم، واستعداده لركوب الخيل!!

هل هي غاضبة لتلك الدرجة؟ إنها تهلك نفسها؟ ستموت هكذا!! المجرمة ماذا تفعل؟ وكأنه لتوه انتبه أن ما تفعله ليس رقصاً، بل تعذيباً!! تسعد ابنها وتخرج طاقة الغضب المكبوتة داخلها!!

وعلى قدر السعادة التي تشع من عيني سيف على قدر الألم الذي بدأ يظهر بتعقيدة في جبينها بعد ابتسامة طالت، ودموع بدأت بالهطول، ومازالت ترقص، مازالت تهد جسدها هداً، يعلم أنها ستعود طبيعية بعد انتهائها، ولكنه لن يستطيع تركها هكذا دون تدخله..

عينيها مغمضتان بشدة عندما أوشكت على الانهيار، لم تعد تحتمل أي من الضغوط المحاطة بها وإن لم تتخلص منها الآن، ستدخل في نوبة جبن لم تعد أهلا لها!! سفر مالك، واضطراب ديانا،

وتكفي حياتها مع ياسين كى تنفجر! سينتهي كل ذلك الآن، ستنفذ طاقتها وتنام!! ثم تستيقظ لتكمل عقاب ياسين!!

وفجأة توقفت الموسيقى ففتحت عينيها لتراه أمامها، واقفاً بكبريائه عاقداً ساعديه أمام صدره وكأنه لحظها المائل يفهم تفكيرها، ماذا تفعل؟ نظرت له بيأس وهي تفكر كيف تجعله لا يقرأ أفكارها؟ هل تتوقف عن التفكير أم تهجم عليه لتضربه الآن، تستطيع فعلها إذ لم تخجل مم رأى، ولم تخجل من شكلها المزري بسبب المجهود الذي بذلته!!

ولكنها ابتسمت وهو يصقف ببرود قائلاً :- جيد جداً، أداؤكما رائع!!

انحنت برأسها كأنها تحييه قائلة :- أشكرك سيدي!! هل أعجبك العرض؟

ستقتله! يوماً ما سيموت بسببها!! لن يغلب في استفزازها ولكن لم تعد به طاقة، هو حتى لا يريد أن يزود إرهاقها البادي على انفعالاتها، لم يرد على سؤالها، فتوجهت ناحية الباب فنادى :

- رحيق!!

التفتت إليه لتقول بيأس :- المصيبة أنني أعشقك!!

ثم اختفت بعيداً عنه !!!

١٧

وإليكَ أسعى

بسم الله الرحمن الرحيم

((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ

مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ

لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))

استهلت يومها بسورة الأنبياء؛ وبدأت قراءتها بصوت مرتعش، لم تكن تخاف من نوبة رعب جديدة، ولم تكن تنشد اطمئناناً ككل مرة، بل قرأت وهي تبحث عن شئ يجعل قلبها يخر ساجداً وعقلها يسلم تسليماً كاملاً، كانت ستبدأ بالفاتحة كبداية المصحف، ولكن شئ لفت انتباهها لاسم هذه السورة، قد تجد فيها قصة النبي إبراهيم، الذي بحث عن إله الكون بعقله، والذي رأت في قصته أنها الأقرب لها رغم أنه كان موقناً، بينما هي تشك في وجوده، لا.. بل كانت تشك، أما الآن هي تريد الوصول بالفعل، أتعبها الهجر والبعد، تريد لسفينتها أن ترسو بأمان..

وككل مرة تقرأ يرتعش صوتها، مع اضطراب في دقات قلبها، لم تتحدَّ كأول مرة، بل عرفت أن ما تقرأه هو شئ عظيم، فقامت لتغتسل كما أخبرها مالك في المرة الأولى، ثم جلست لتمسكه بين يديها برفق وتأمل.

وجدت في " **بسم الله الرحمن الرحيم** " راحة أرخت حواسها المستثارة، وكأن عقلها بدأ يستقبل ذبذبات أن الإله برحمته سيرحم نفسها الضعيفة، هو رحمن رحيم؛ مؤكد أن من خلق كوناً بعظمة كتلك له الرحمة كلها أن يكون رحمن، وأيضاً هو رحيم؛ تشعر ببعض اطمئنان بعدها ؛ فـ " بسم الله " تلتها " الرحمن الرحيم ".

كررت الآية الأولى لمرتين (**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ**)، وكأنها نزلت إليها، توقفت قليلاً ثم تلت الآيات التي تليها دون توقف، وكأنها تخشى من توقفها، ورغم ذلك لم تفتها آية، وكأن الكلام واضح وميسر، وكأنها ليست المرة الأولى التي تقرأه، في عمق قلبها رباط بينها وبين ما تقرأ يقوى..

حتى وصلت لهذه الآية (**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**) إنه العقل الذي تفاخرت به، أرادت الوصول إليه بعقلها وهاهو يخاطب عقلها، سمعت بخفقان القلب، لكنها لم تسمع بخفقان العقل واضطرابه كما يحدث معها الآن، وكأن قوانينه كلها تتهدم وتتبدل.

وبعين عقلها رأت القدرة وهي تقرأ :

(**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ

فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ

لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ)

ارتعدت فرائصها وتركت المصحف لدقائق، ما الذي يحدث لها؟ هي تطمئن دائماً بالقراءة، ليس هناك ما يدعو للرعب، إنه رحمن رحيم!!

ثم توقفت أفكارها للمرة الثانية " إنه !! " من هو، هل صدّق عقلها واعترف ليسبق لسانها القول!! لم يعد داعي للمكابرة، هل خرجت عفوية؟ أم أنها بدأت تقتنع؟ عادت لتقرأ مرة أخرى..

(**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ**

لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ

وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ

يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)

كانت قد قرأت أن لله ملائكة يعبدونه، وحينها تجبر عقلها بأشياء غريبة قد نسيتها الآن وهي تقرأ، أمام صدق الآيات وهي تشعر أن لا بشر يستطيع قول ذلك أو فعله، هو يستطيع القول وبثقة أنه فعل وأنه يقدر وأنه يملك، إنه المالك للكون كله وما فيه وهو الصانع والخالق..

إنه وهو ثانية، ماذا دهاها ؟؟!!

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ

لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ

وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

إنها إجابات الأسئلة التي قالتها لديانا؛ لو كانت قرأت هذا الكتاب مباشرة، لهو أكثر إقناعاً لها من إجابات ديانا حتى، مابال كلماته تشع نوراً وصدقاً، وكأنه وثائق موثقة ببراهين ربانية!!

للمرة الثالثة تقول كلاماً لا تقصده حرفياً " ربانياً " هل آمنت الآن أم ماذا؟ لن تجيب على السؤال ككل مرة وستهرب بالقراءة..

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ

وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

هذا ما أرادته تماماً، كل هذه الأشياء كانت تحيرها، لقد قرأت عن الإعجازات العلمية في هذه الأمور عندما كانت تتلصص لسرقة كتاب من عند بائع الكتب في المدينة حيث كان يشغله جاك أو ليو لتقرأ هي بعض الوقت دون تذمره، أو تأخذ الكتاب لها إن تذمر!! ثم بعد ذلك كانت تجلس معهما وتحكي لهما ما قرأت، ثم تسخر بعدها من أولئك الذين يصدقون أن إله الكون قادر على فعل هذه الأشياء، لشد ما كانت متكبرة ومتعجرفة بعقل هو مانحه إياه!!

ولتهرب من " هو " التي قالتها عادت للقراءة ..

(وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ

خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاء وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ

وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

وكفى بنا حاسبين!! تخللت أصابعها في شعرها تبعثره وتحك رأسها بشدة كادت تدميها، تشعر بنزف في عقلها وأنين في قلبها، تشعر بوجع، وجع في كل مكان، تشعر براحة موجوعة أو وجع مريح، حتى أذنها أصبحت تصدر أزيزاً وعيناها تبرق، وضعت يدها على قلبها وكأنها تريد تهدئته أو طمأنته، وهذه المرة كانت كالمدمن ستكمل قراءة علها ترتاح، لن تتوقف مرة أخرى..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ

(وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)

منكرون !! كيف لمن يرى الحق بأم عينيه أن ينكره إنه غبي لا محالة من ذلك، اشتدت قبضتها التي تضعها على قلبها وقد زاد أنينه، بدأت تشعر أنها شخص آخر في عالم آخر!!

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ)

نعم إنه هو من تبحث عنه، تريد أن تعرف عنه أكثر!!

(((إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ

قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ

قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ

فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)))

- ومن يدخلني في رحمتك؟ متى ستدخلني فيها وتجعلني من الصالحين؟

أكملت بصوت متهدج، وعين بدأت تتشوش رؤيتها بسبب ضباب يغطيها لم تعرف ما هو، ورعشة سرت في جسدها وبانت على حركة المصحف في يدها..

(((وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)))

- نادى فاستجبنا فنجيناه!!

(((وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)))

كتبت ديانا عن أيوب قبل ذلك، وقرأت هي بشئ من التأثر أبعدته بسخريتها التي باتت تكرهها!!

(((وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ)))

قلبها المضطرب يهدأ عند الرحمة، هلا نالها فيض منها ينقذها من نفسها!!

(((وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لّا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)))

كيف تفعل ذلك؟ كيف تنكر وجود إله له مثل هذه القدرة؟ لقد تذكرت ذا النون هذا من مقال قرأته لديانا! تشعر الآن بإعصار في رأسها، وبركان في قلبها كان خامداً ولتوه ثار، شئ يدق عظامها، وكأن قفصها الصدري يخنق رئتيها فباتت تختنق! ما الذي فعلته بنفسها؟ كم كانت ومازالت متكبرة مغرورة، اعتصرت قلبها بشدة وفيض من الدموع يهطل من عينيها، دون دراية منها كانت عينيها المشوشة تجري على الكلمات..

(((وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)))

إلى هنا وقفت، لم تعد تحتمل، كانت كل خلية في جسدها تبكي، وعند آخر آية شعرت أنه يخاطبها هي، هي وفقط!!

لم يكن البكاء هو المعبر عن خلايا جسدها، بقدر ما كان الانتفاض يفعل، لم تعد تعرف على أي شئ تضع يدها حتى تسكت وجعه، فأحاطت جسدها بذراعيها وضمت ركبتيها لصدرها وهي تدفن رأسها بينهما، كانت تنتفض بخفة قبل أن يتحول انتفاضها لبكاء جنائزي، وصوتها يعلو دون تحكم فيه بصورة غريبة، ثم بدأت تئن كأم ثكلى أو ابنة مكلومة، ما تشعر به الآن فاق كل شعور مرت به في حياتها لا تعرف حتى تفسيره، أهو ذنب أم خطيئة تشعر بها، أهو وصول واطمئنان، أم ندم على مافات، أهو يقين متجذر بعظمة عرفتها أم شك في سلامة عقلها؟ هل ستموت الآن؟ ستموت!! قبل أن تذهب إليه راغبة ستذهب إليه مجبرة عاصية ناكرة لوجوده الذي تقره!! وكأن جسدها يتقطع ألماً وكأن عينيها ستخرج من مقلتيها لشدة بكائها وكأن الأرض تدور دون توقف، وكأن روحها تسحب منها سحباً، وكأنها تنشد أملاً واحداً للحياة؛ لقد آمنت؛ آمنت بأنه الإله الواحد الأحد وأن لا إله غيره، آمنت بأنه لا إله إلا الله!!

يزداد انتفاضها مع تكرار مشاهدٍ بأصواتٍ مختلفة في رأسها، أبوها مرة، وشيخ المسجد الذي كان يذهب إليه في آخر أيامه مرة، صوت مالك، صوت رحيق، أشياء قرأتها في مذكرات أحمد حين تسللت خفية لغرفته..

((طه

مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ

إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى))

هذا أبوها، استهزأت بما سمعت منه يوماً..

((بسم الله الرحمن الرحيم

طسم

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ))

هذه المرة في مذكرات أحمد، كادت تخر ساجدة، لولا أنها رأت في ذلك عبثاً، أو لم تكن تفهم شيئاً، كل ما كان يحدث لم تكن تفهمه أبداً، أكثر من مرة شهدت آيات وبينات، كثيراً ما اصطدمت برسائلٍ نفرت منها..

سمعت ديانا بكاءها الغريب حتى أنها شكت أنه لها؛ لم تسمع بنان تبكي هكذا من قبل؛ ما الذي حدث لها؟ بهلع دخلت غرفتها لتراها بصورة أفزعتها، كانت مكومة على نفسها كالجنين في رحم أمه؛ لم تعرف كيف التصرف الصحيح وقد أعجزتها رؤيتها عن فعل أي شئ. لقد خافت؛ بل ارتعبت مما ترى، هل تموت أمام عينيها؟ للحظات حتى تحركت نحوها، باضطراب نطقت :- بنان !!

وكأنها نجدتها، هتفت بنان بحديث فهمته ديانا بصعوبة وهي تقول :

- كيف.. كيف.. أفعلها؟ لم .. يعد .. لدي .. وقت .. أريد .. فعلها الآن!! .. أرجوكِ .. الآن!!

جلست ديانا وهي تمسك ذراعيها بتملك تجلسها، ثم نظرت في عمق عينيها بقوة قائلة :

- يجب أن تكوني بقوة قرارك!! هل فهمتِ؟ لن تموتي قبل أن تفعليها!! انهضي!!

وقفت بنان تتعثر في خطواتها، ثم رفعت يدها لفمها تكتم شهقاتها، أشفقت ديانا ورقت لحالتها، بل إن الشفقة أقل ما يوصف حالتها، ضمتها إليها بقوة حانية وهي تربت على رأسها وظهرها قائلة :

- إنه رحيم، سيقبلكِ طالما عدتِ إليه! لمَ هذا الجزع؟ إنه أرحم بكِ من أمكِ، وتسبق رحمته غضبه !!

وكأن حديثها كالمسكن الذي هدأ ارتعاشها، كأول مرة قرأت فيها الرحمن الرحيم، دائماً تهدئ قلبها وتطمئنه!! رفعت ناظريها لها قائلة :- هل أستطيع فعلها الآن!!

أومأت ديانا قائلة :

- بالطبع، بابه مفتوح دائما!! هيا بنا، لتغتسلي حتى ترتاحي قليلاً ثم نذهب للمسجد!!

بصوت مرتعش قالت :- ولكنني لم أنطقها بعد!!

ابتسمت ديانا قائلة :- هل نطقها قلبكِ وأقرها عقلك؟

بدموع ذرفت لتلحق بسابقتها أومأت بنان، ثم قالت :- أنا حتى لا أعرف كيف تقولونها!!

ثم تبعتها شهقات متتالية، لم تتوقف حتى بضم ديانا لها مرة أخرى وقد بدأت تبكي لبكائها ثم قالت :- ما رأيك ترددينها خلفي قبل ذهابكِ للمسجد لترديدها مرة أخرى خلف الشيخ؟

أومأت بنان قائلة :- أريد ذلك، فأخشى ألا ألحق الوصول للمسجد!

ضربتها ديانا على رأسها بخفة قائلة :

- بل ستصلين، ثم تتعبين رؤوسنا فيمَ بعد بالمناظرات التي ستقيمينها، ونجلس نستمتع بفهم الدين منكِ!!

ما زادها حديث ديانا إلا بكاءاً وحسرة فهتفت ديانا قائلة :

- رباه، لماذا تفعلين بنفسكِ ذلك؟! رددي خلفي !! أشهدُ ..

وكأن لسانها قد ثقل وهي تردد :- أشهدُ ..

- أن لا إله إلا الله..

بخفة تتوافق مع رجفة قلبها قالت :- أن لا إله إلا الله!!

ثم انفجرت في بكاء مرة أخرى فأكملت ديانا :

- وأشهدُ ..

- وأشهدُ ..

- أن محمداً رسول الله ..

- أن محمداً رسول الله ..

ضمتها ديانا وهي تمسد رأسها، قائلة :

- الآن أنتِ مسلمة موحدة بالله، هيا بنا إلى المسجد!!

لتنفجر في البكاء المرة تلو المرة وديانا تضمها عاجزة عن فعل أي شئ لها، هي حتى يوم إسلامها لم تبكي بهذه الطريقة، بل كان بكاؤها بكاء سعادة وفرحة، شعرت وكأنها تولد من جديد وكأنها منحت فرصة أخرى للحياة، لماذا تفعل بنان بنفسها كل ذلك؟

سحبتها للحمام قائلة :- هيا اغتسلي حتى تستطيعي الهدوء، كيف سنذهب للمسجد بحالتكِ هذه؟

أطاعتها حتى تنهي الأمر سريعاً تريد أن تكون مسلمة الآن، موحدة كما أقر قلبها وسلم عقلها، حاولت تهدئة نفسها بأكبر قدر ممكن، حتى انتهت وخرجت لديانا التي تنتظرها وذهبتا، هناك خافت من أن يعاودها البكاء، ولكنها قوت نفسها الهشة وهي تحدث الشيخ، حتى وهي تنطق خلفه الشهادة، حاولت ألا تنهار، وعيني ديانا تطمئنها، وهي تسمع الكلمة للمرة الثانية :

- الآن أنتِ مسلمة !!

فقط !! أهذا كل شئ؟ هل غفر الله لها؟ أم أنهم لا يعلمون! بمجرد خروجها هتفت ديانا بسعادة :

- الإسلام يَجُبُّ ما قبله، يعني انسِ كل ما حدث في حياتكِ السابقة، فأنتِ الآن ولدتِ من جديد!!

بتردد نطقت :- سيقبلني؟؟

ابتسمت ديانا قائلة :

- إنه رحمن رحيم، إنه غفار تواب، يقبل التوبة ويعفو عن كثير!! أنتِ الآن مؤمنة بوجوده مقرة بعظمته!! ولن يكتمل إيمانكِ وأنتِ تشككين في مغفرته لكِ، عليكِ أن تحسني الظن بخالقكِ!!

أومأت بنان وهي تجاورها في الخطى ثم قالت بتردد :- بدأت من جديد فعلاً، وكل مافات ..

قاطعتها ديانا قائلة :

- الإيمان أن تؤمني بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ... والنبي محمد هو من قال أن الإسلام يجب ما قبله، إذاً فأنتِ تؤمنين بحديثه .. صحيح؟؟

- صحيح ..

أحاطتها ديانا بذراعها قائلة :- إذاً أنتِ مسلمة!! لنبدأ الآن نعرف ما هو الإسلام.. ما رأيكِ؟

لم تجد بنان من حماسها إلا أن انتقل إليها وهي تقول :- لنبدأ ..

ولكنها مازالت تشعر بوهن في عظامها لم تستطع التغافل عنه، هناك شئ فيها ينزف، لا تعرف أهي سعيدة الآن بعد قرارها، أم تشعر أنها أتعس أهل الأرض بسبب ماكان!!

لم تشعر بنفسها إلا وهي تسأل ديانا مرة أخرى بقلق :

- أشعر بدبيب في عظمي، هل .. أريد أن أطمئن!! هناك شئ .. لا أعرف!! أكنتِ سعيدة يوم إسلامكِ؟

وكأنها تشعر به هذه اللحظة فقالت بضحكة سعيدة :

- يا إلهي، لقد كنت أسعد أهل الأرض!!

- أريد أن أكون كذلك، ألم يؤلمكِ ما كنت تعتقدينه؟

- الإسلام يجب ما قبله، إنها ثقة، لا تقلقي، أعلم ما الذي سيريحكِ؛ تعالي معي، يبدو أن البكاء أنهكَ قواكِ!!

ليس البكاء؛ هي فقط لا تتصور أنها كانت في الصباح أبعد ما يكون، والآن قبل أن ينتهي النهار أصبحت تشعر أنها قريبة، تشعر به معها، حولها، هل وصلت إليه؟ هل الأمر بهذه السهولة؟ إنها تخشى نفسها؟ بل تخشى كل شئ، ومازالت عظامها تؤلمها!!

- ديانا !! أنا .. أنا ..

قالت ديانا برفق :- لنذهب لمنزلنا! ولكن هل شعرتِ بالاطمئنان أم مازلتِ قلقة؟

- لا أعرف!

- هل تشعرين أنكِ فعلتِ الصواب؟

- بالطبع؛ ولكن أشعر أن الأمر مر بسهولة أكثر مما تصورت!!

- هو بالفعل يمر بسهولة!! هيا بنا لدينا الكثير لنفعله، حتى تشعرين باطمئنان كامل!!

سارت معها واتخذتا وسيلة للوصول للمنزل وما إن وصلتا ودخلتا؛ حتى قالت ديانا :

- الخطوة الأولى؛ الصلاة !!

وارتفع آذانٌ يدعو للصلاة، لتبدأ بهِ ومعهُ أول خطوة، ليسجد الكون لعظمة خالقه، ويخشع الوجود من خشيته...

١٨

فرحة

أسبوعان من الحرب الباردة قبل اعترافها، ولأسبوعين بعدها فقدت الحياة معناها، فأطبق الصمت على الشغب الذي أضاف سحرا خاصا لحياتهما، توقفت النظرات والابتسامات، توقف

التحدي والصخب، لم تعد تحتمل ولم يعد به طاقة، كل منهما يريد أن يتقدم خطوة ولكن ألف سبب يعجزه، لشد خوفها من تكرار التجربة، تعشقه وتذوب في هواه، ولكن ذلك لم يمنعها من خذلانه، ولم يمنعها من أنانيتها، ولم يعِنها لتكون زوجة حقيقية تثبت نفسها وقت الشدة!!

أما هو فقد كانت أمه وابنته الكبرى، وقد كانت الشئ الأجمل في حياته، الجوهرة النادرة، والقلب النقي، تعب من هجر الوصال، ووصال الهجر، وكيف تكون حياته هكذا؟ لقد تعب من كل شئ، ولم تعد حياته كما كانت، ويستطيع جعلها!!

كان جالساً بسكون عند الشرفة ينظر من خلالها، حين اقتربت لتجلس جواره فكأن ذرات الهواء اضطربت بقربها، وكأن قلبه تحرك من مكانه، وكأن العالم يشهد انهياره؛ حاولت أن تبدأ الحوار لأن طاقتها نفذت من صمت أسبوعين فوجهت حديثها لسيف القريب منهما :

- سيف، ألن تنام الآن؟ لديك المسابقة النهائية غداً ويجب أن تنام جيداً..

نظر لها سيف قائلاً :- سأنام بعد قليل..

فتحدث الجالس جوارها بسكون كسكونه قائلاً :

- ألا ترين أنكِ تضغطين عليه بكل ذلك، سباحة وخيل وتنس وكرة قدم، غير المدرسة و..

قاطعته بانفعال قائلة :

- انتظر، ما الذي تقوله؟ السباحة شئ اختاره بنفسه، الخيل ألح علي كثيراً وخوفي عليه منعني من الموافقة حتى سمحت له أخيرا بذلك، التنس لتعلقه بديانا وليس جيداً فيه ولا ماهراً، وكرة القدم لشدة التصاقه بمالك، أعلم جيداً أن ابني خمس سنوات فقط وأعلم أيضاً ما الذي يناسب سنه.

لم يرد ومازالت نظراته مثبتة أمامه فتنهدت ووضعت يدها على كتفه قائلة :

- ياسين انظر إليّ!

ينظر إليها! لا يستطيع فعلها أبداً، ستهرب الكلمات ويحل الصمت، سيبحر في عينيها ويتجاوز كل مافات!! وقف ليبتعد عنها، وقد أحس سيف بتوتر الجو فانزوى في غرفته، وقفت وسارت على خطا زوجها حتى وقفت أمامه فقال بتحكم :- ماذا تريدين؟

ردت بتصميم :- أن تصل لأقصى غضبك!

فقال ساخراً :- ثم ماذا؟

ردت بنبرته :- أرى ماذا ستفعل؟

فأكمل سخريته :- وها قد وصلت لأقصى غضبي، أي قرار مصيري تنتظري مني أخذه؛ الطلاق أم التخاذل؟

أزرار قميصه العلوية كانت مفتوحة، فوقعت عيناها على صدره فتسمرت، لم تسمع حديثه الطويل ولم تسمع تنهيداته القوية، لم تنتبه لصوته الغاضب الذي بدأ يعلو، وقد بدا تركيزها كله في المكان الناظرة إليه، الآن فهمت تحفظه في الملابس منذ تزوجا، رغم أنه كان يستطيع استفزازها بشئ كهذا ولم يفعل، تمنت أن تمد يدها لتلمس ذلك الشق الطولي في صدره، أن تسأل ما هذا؟ أن يطمئنها بأنه بخير، ولكنها عجزت عن فعل كل شئ، وكأن شللاً أصابها في الفكر والسمع والحركة..

هو لما شعر أنها لا تنتبه له سكت، ثم نظر لعينيها المتسعتين بقلق، وصدرها الذي يعلو ويهبط كأنها تجاهد ألماً، فتتبع نظرتها ليجدها تنظر إلى ذلك الشئ الذي أخفاه عنها، بآلية امتدت أصابعه لغلق أزرار قميصه التي فتحت سهواً، ولكن قبل أن يكمل عمله امتدت يدها لتمنعه، ثم رفعت عينيها لعينيه ومازالت مبهورة الأنفاس كحالتها، حتى تجرأت لتقول بصوت متقطع :

- ما هذا؟

ارتخت يداه وهو يبعد يدها عن جيبه بضعف قائلاً :

- لا تشغلي بالكِ به، إنه محض عملية جراحية!

بصوت متقطع قالت :- ومتى كنت ستخبرني؟

- وهل علي إخباركِ بنفسي؟

سكتت وسكت وفي عيني كل منهما من الكلام الكثير، ثم انفصلا واتجه كل لغرفته قبل أن تتوقف قائلة :

- لماذا لا تقدر خوفي، أنا أخاف من نفسي قبل أن أخافك؛ لقد فشلت في أول اختبار حقيقي يثبت أنني زوجة جيدة، ماذا لو تعرضنا لشئ آخر وفشلت لمرة ثانية، أنا أشد ما أخشاه هذا الفشل الثاني، لست أخافك كما تظن، أو ليكن أنك واقع معي في الخوف..

همس بصوت لم تفتها نبرته الموجوعة :

- وهل سيبقى زواجنا معلقاً على المصيبة التي تنتظرينها؟

اقتربت منه وهي تنظر بقلق لمكان الجرح المحدد في صدره ثم قالت :- ماذا حدث؟

أغمض عينيه وهو يتنهد قائلاً :- عندما تهتمين لمعرفة الأمر ستعرفينه!!

ودخل غرفته..

مرت ليلة قاسية عليهما، أصبح الأمر فوق الاحتمال، ليسا ممتزجين كما كانا، وليسا متنافرين كما يجب، أما لهذا الواقع من آخر؟! بقيت ساهرة حتى الفجر، ونامت بعدها لساعات قليلة ثم استيقظت، خرجت سريعاً لتحضير فطور سيف وياسين فقد تأخرت. شعرت بهدوء في البيت، فدخلت غرفة ياسين ببطء حيث نام سيف معه، فوجئت بالحجرة فارغة ومرتبة ، تنهدت وهي تخرج لتذهب للمطبخ . لفت نظرها ورقة على باب الثلاجة، اتجهت نحوها لتقرأ

" زوجتي العزيزة؛ لقد تناولت طعامي أنا وسيف وخرجنا مبكراً لأن موعد مسابقته اليوم لو نسيتِ، لا تتعبي نفسك وتأتي للنادي اليوم، فسيف يرى أنكِ مرهقة ولا داعي لحضوركِ، وبالنسبة لطعامكِ تركت لكِ عصير التفاح المفضل لديكِ في الثلاجة مع بعض الأطعمة الخفيفة قد تعجبكِ.. اهتمي بنفسكِ جيداً، سأشتاق إليكِ حتى أعود "

ابتسمت وقد علمت أن جولته قد بدأت للتو، يصدر الأوامر لها، ليرى أي طاعة ستكون له؟!

جلستْ في أحد جوانب البيت، وارتسمت على وجهها ابتسامة شهية وهي تتذكر أحداثٍ لا تعرف كيف جاءت إلى ذهنها...

- ياسين.. أريد أن أكمل طريق أحمد حتى النهاية، هل تساعدني في الأمر؟

- وما طريق أحمد؟

- أنت تعرف كيف ينظرون للمسلمين هنا، وخاصة بعد ١١ سبتمبر، أحمد كان حريص على توصيل الإسلام الصحيح للناس، الإسلام كما هو، ليس كما يظهره أهله، كان حريص على خلق الإسلام، يتحدث مع الناس عنه ويعاملهم به، كان يشركني معه في ذلك، ولكن الآن أريد أن أكمل ما بدأه، فهل تشاركني؟

- لنفعلها إذاً!

- ياسين.. أرجوك ساعدني.. لقد اختفى مالك منذ يومين.. لم أجده عند أحد أصدقائه، ولا أعرف أين طريقه؟ أنا قلقة بشدة عليه..

كانت تبكي، فجزع وهو يهاتفها وقال:- اهدئي رحيق، أنتِ تعرفين أن مالك يحب الذهاب لرحلاتٍ طويلة مع أصدقائه، قد يكون فعلها هذه المرة..

- لم يفعلْ.. صدقني! لقد تشاجر مع أبي ورحل..

- انتظريني سآتي إليكِ الآن.. لماذا لم تخبريني من قبل؟

وعندما التقاها، فزع لحالها وقال :- الأمر بسيط.. مالك ليس طفلاً.. سنجده في مكانٍ ما قريباً إن شاء الله..

وبحث عن مالك حتى وجده بمساعدة صديقٍ له في أحد النوادي الليلية، يلتف حوله بعض الشباب يحتسون من الشراب ما يسكرهم، ويضحكون لامبالين بما حولهم، هذه المرة التي ضربه فيها ياسين، وقرعه تقريعاً، وفي النهاية جعله يعمل في مطعم خاله دون علم والده أو والدته، فقط رحيق من كانت تعلم حتى يطمئن بالها المشغول به...

- ياسين.. الاختبار النهائي اليوم.. ادعُ لي قلباً وقالباً..

- عُلِم وينفذ سيدتي..

حين أنهتْ اختبارها وخرجتْ وجدته في انتظارها اتجهت نحوه سعيدة بوجوده وقالت:- لماذا تركتَ عملك؟

- كيف كان أداؤكِ في الاختبار؟

- لا تقلق على زوجتكَ.. أداؤها دائماً ممتاز..

- لنحتفل ببدء إجازتكِ إذاً!

- إلى أين ستأخذني هذه المرة؟

- لن أخبركِ ككل مرة..

- ياسين.. أين درستَ هذا التفسير الذي قلته لديانا؟

- أبي عرفني إياه..

- هل تعتقد أن ديانا يمكنها أن تسلم؟

- الأمر بين يدي الله.. صديقتكِ عنيدة بشدة، ولكن الله وهبها عقلاً حكيماً..

- ميرا أيضاً تريد أن تعيش هنا، ولكن أباها يرفض الأمر..

- الحمد لله أنه يرفض.. تأتي لتعيش هنا، ثم تقضي يومها في الجامعة عند محمد يوسف، ثم تبكي في الليل.. إنها مجنونة لا محالة..

- ولكن.. يمكننا فعل شئ لها، ما رأيك أن نعرفه بها؟

- نعرفه بها؟ كيف ذلك؟ هل نخبره أن امرأة تحبك فتزوجها، إنها قدم للدراسة وحين ينهيها سيعود إلى مصر، قد يكون له حبيبة هناك أو خطيبة حتى.. ميرا يجب أن تعقل الأمور أكثر من أن تسيرها مشاعر مراهقة.. اتركي الأمر لي..

- ياسين.. أرأيت! المعرض القادم سيكون منافسة بين ثلاثتنا.. كل منا ستقدم شيئاً مختلف، في رأيك ماذا أقدم؟.. كنت أفكر في تصوير معماريات الشركة عندنا، إنها رائعة، وأخصص ركناً لتصميماتك أنت، وآخر لأحمد، أحمد لديه تصميمات رائعة، أتعرفها؟

حماسها أسكته، فابتسم وهو يراقب ملامح المستثارة ثم قال :

- أنا أغار من أحمد، وقريباً سأغار من مالك..

ابتسمت وأشرق محياها وقالت :- لو كان حياً لغار هو منك، هيا أخبرني، ماذا أقدم؟ ميرا وديانا استقرتا على شئ وأنا لم أفعل بعدُ؟

- دائماً أنتِ الأخيرة في بند الاستقرار، خذي قراركِ هذه المرة بنفسكِ!

تذمرت ثم قالتْ :- وماذا لو فعلتَ أنتَ؟ أنا من سيصور، هيا بسرعة لأجلي ياسين، لأجلي فكر في الأمر..

- لا تضغطين عليّ، افعلي بنفسكِ..

- ياسين..قالتها برقة، فاستجاب :- نعم ..

- ماذا أقدم؟

زفر باسماً ثم قال :- أكملي طريق أحمد.. عرفي الإسلام من خلال صوركِ..

سكتت لهنيهة ثم ابتسمت عيناها بانبهار وهي تقول :- أنتَ رائع.. فكرة رائعة.. كيف لم تخطر لي ببال؟.. سأبدأ من الآن..

وبدأت بالفعل، واجتهدت حتى يوم العرض، وقف يساندها، ويشد من أزرها أمام ميرا وديانا المتحديتين، بعد جدالٍ عقيم مع ديانا، لم تعد تحدثه، فقط تنظر إليه شذراً، وترمي كلاماً مبهماً لا يفهمه سواه، لم تغلب واحدة على أخرى في هذا اليوم وتساويْن فيه، بيد أن رحيق شعرت بالفوز بما قدمتْ، الأمر الذي أثار ضيق ديانا لأقصاه،وحين سألتْ رحيق بانزعاج لمَ اختارتْ هذه الفكرة لتقدمها في صور، أجابها ياسين هادئاً :- إنها صدقة لأحمد، لم نقصدكِ بها كما فهمتِ..

خرجتْ رحيق من ذكرياتها بصعوبة وهي تتمتم :- ليت أحمد هنا..

ثم استعدتْ لتذهب لابنها...

****

أصبح عمر يرى أن هناك مخططاً يجري من وراء ظهره، سفر مالك وعودته دون معرفة أين ذهب ومتى عاد، مهارة سارة السريعة في العمل وكأنها تركته أمس ليس منذ سبع سنوات، معاملتها له التي تغيرت وأصبحت متحفظة معه بشدة في الشركة وعند اعتراضه تنطق بجملته، لا مجاملة في العمل، حتى رحيق التي تخلت عن عملها بمجرد زواجها وكأنها كانت تنتظر ذلك، وياسين الذي يحمل في قلبه ما سببه له منذ سنوات خمس، حتى الصغير سيف يشعر أنه يتجنبه، هناك شئ خطأ، ما الذي يجري؟

يشعر بقلق نحو مالك فمنذ عودته من سفره القصير وهو متغير الوجه حزين، ولكن ليس بينهما حوار ليسأله، حتى في العمل فعل مع أمه كما كان يفعل مع رحيق يدخل بصحبتها، ليس كأي مهندس في الشركة يدخل وحيداً، بل لا بد أن يصطحب أحداً، حتى أنه لم يدخل إليه في الأسبوع

الأول لزواج رحيق وتجنب مواجهته في العمل، يظن أنه لم يلاحظ ذلك، ولم يلاحظ تحفظه الشديد في التعامل معه، هذا الشقي لا يفهم أنه أبوه، ويشعر بالقلق الدائم عليه!!

بشعور أبوي يحركه رفع السماعة بمهنية قائلاً :- أريد مالك..

بمهنية أيضاً نفذت الأمر، وكما توقع دخلت معه، فلما جلسا قال :- أريد مالك وحيداً ..

نظرت سارة له بتحدي رقيق اعتاده منها حين تغضب، ثم وقفت قائلة بابتسامة بسيطة :

- أستأذنكما..

بينما اضطرب مالك واندهش من طلب أبيه برؤيته ثم انفراده به دون عمل، وشعر كأنه طفل مذنب ينتظر عقاب أبيه، لا يتحمل أية ضغوط في هذه الفترة، خاصة بعد عودته من غزة، ليومين شعر بتغير جذري في نفسه لا يعرف ما وصفه، ولكن به شئ تمزق، روحه تنزف لسبب لا يعلمه، وانعزاله عن العالم كله بعد ما عاد، حتى أنه لم يعرف أي شئ عن بنان، ولم يتواصل مع رحيق كثيراً، لا ينقصه سوى تقريع أبيه له بسبب أو بدون..

لم يطُل اضطرابه وعمر يسأل بنبرة أبوية لم يعتدْها :- كيف حالك مالك؟

وكأنه شك في ما سمع فقال بطريقة عملية تعود استخدامها معه :

- أعمل في المشروع الجديد و..

قاطعه عمر :- لا أسألك عن العمل، أسألك عن حالك أنتَ!!

نظر إليه مندهشاً وقد بوغت بالسؤال، يتذكر آخر مرة تحدث إليه أبوه بتلك الطريقة، أو سأله عن حاله وماذا يرغب، ولكن ذاكرته خانته، فقال بصوت هادئ :

- الحمد لله، بخير! هل حدث شئ؟

- وهل يجب أن يحدث شئ حتى أسألك عن حالك؟

- اعتقدتُ ذلك!!.. قالها بصوت غير مصدق لما يحدث، هل يتحدث مع أبيه الآن؟ فسأله عمر :- أين سافرت مالك؟

- كنتُ في غزة!!.. قالها ببساطة، لا يعلم لِمَ أدت إلى انتفاض أبيه واقفاً وهو يقول :- ماذا؟ وما الذي ذهب بكَ إلى هناك؟ هل تكرر أحمد؟

أحمد مرة أخرى!! وقف احتراماً لأبيه قائلاً برزانة :- إنها المرة الأولى التي أعرف فيها أن أحمد كان يسافر إلى غزة، أما عن الذي ذهب بي إلى هناك، فهو أنني أردت الذهاب لزيارة أرضنا والاطمئنان على أهلنا، ولم أكن أعرف أن الأمر سيغضبك هكذا؟

ثم تحكم في أعصابه أكثر وهو يكمل :- لدي عمل الآن ، ائذن لي بالذهاب ..

لم يرد عمر وهو لا يزال ناظراً إليه، فتحرك مالك نحو الباب قائلاً :

- لم يكن هناك داعي لتكليف نفسك نبرة أبوية خالصة وحنان أب لا مثيل له حتى تعرف أين سافرت، لو كنت سألتني منذ البداية لأجبتُك، لا أريد أن أسبب لك التعب مرة أخرى بإنفاق مشاعرك علي..

وفتح الباب وخرج وهو يلوم نفسه على ما قال، لا يعرف كيف تحرك لسانه به، ولكنه لم يحتمل أن يرى مشاعراً تمناها عمره كله لمجرد سيطرة أبوية لا طائل منها، لن يتغير عمر، لن يتغير أبداً..

نظرت إليه سارة عندما خرج وقالت بقلق :

- ما بال وجهكَ متألماً هكذا؟ ماذا حدث؟ ماذا فعل أبوك؟

ابتسم قائلاً :- زوجكِ لا يفعل سوى الخير!

ألن يغيرها يوماً؟ ألن يخطئ ذات مرة ويقول أبي؟ لماذا اعتاد لسانه على زوجكِ؟ وكأنه يتحدث دائماً عن زوج أمه؟ غامت عيناها الزقاوتين كبحر هادئ قائلة :

- هل تشعر بصداع؟ لماذا تمسك رأسك هكذا؟

انتبه ليده الموضوعة على رأسه، فأنزلها قائلاً :- لا أبداً ..

ولكنه شعر بالفعل برأسه لما تركتها يده، فأغمض عينيه بشدة وهو يضع يده ثانية ويتحرك للخارج وهو يقول :- سأكون بخير، لا تقلقي..

- انتظر..

قالتها حازمة، فابتسم بضعف قائلاً :- يا إلهي أصبحتِ لبؤة ..

أمسكت ذراعه وسحبته للداخل وأغلقت الباب قائلة :- وهل كنتُ غزالاً قبل ذلك، اجلس هنا..

جلس مباشرة، وهو يغلق إحدى عينيه بسبب ألم رأسه الذي بدأ يزداد، فجلست على نهاية الأريكة وقالت بحزمٍ حانٍ :- هاتِ رأسك!

كانت بينهما مسافة فقال :- كيف أعطيها لكِ، هل أقطعها؟

نظرت له بتهديد فابتسم وهو يضع رأسه على فخذها؛ فما لبثت أن تمسد رأسه وتخلل أصابعها في شعره، وتضغط على جبينه حتى يهدأ ألمه، فقال بخفوت :- ماذا لو دخل أحدهم الآن؟

- أغلقتُ الباب، ثم إنه وقت الغداء، لا عمل الآن، وإن تهور أحدهم وطرق الباب الآن سأطرده من هنا.

وأكملت ما تفعل بينما شعر هو بالسكينة بين يديها، في كل مرة يهاجمه ألم رأسه تفعل معه ذلك ويشعر براحة بعدها، وكأن في يدها سحر!

خرج عمر خلفه نادماً على رده وغضبه، فهو ما أراد أن يتكرر ابن فوق المثالي كأحمد ثم يفقده، لذلك ثار لمجرد ذكر شئ كان يقوم به أحمد، هو لا يقارن كما يظن، فقط لا يريد أن يفقد آخر، لن يتحمل مصيبة أخرى، لذلك حتى لا يريد أن يكرر علاقته بأحمد حتى إذا ما فقد لا يجزع!!!

لما وجدهما قريبين هكذا ابتسم بأسى وعاد دون أن يشعرا.

****

" محمد، لنفعلها كل عام "

كان هذا تعليقها بعد زيارتهما لمصر، فقد انتهت زيارتهما لألمانيا بعد توديع حار اشتاقت إليه من عائلتها، وخاصة توديع أمها لمحمد، شيعتهما نظراتهم الودودة الحزينة لفراقهم.

وبقدر ما شغلتها علاقة محمد التي توطدت بأمها سريعاً بقدر ما أظهرت تجاهلها للأمر، شعرت لوهلة أنها حمقاء إذ تغار عليه من أمها، ولكنه كان مبالغاً في وده لها، حتى أنه أهداها بشئ لم تسأل عنه قبل رحيلهما، وودعته بعناق طويل لم تفعله معها وهي ابنتها، علقت على الأمر بمرح لم يُخفِ غيرتها، معترفة هي أنها لا تستطيع تصور أي امرأة أخرى جواره حتى لو كانت أمها، وشغل بالها أكثر كيف سيكون حاله مع أخواته اللائي يكبرنه ويعشقن ذكر اسمه فقط؟!

استعدت جيداً لذلك اللقاء وحاولت أن تنحي غيرتها جانباً أمام اشتياقهن الجارف له؛ فلهن حق عليه لن تنكره، وتكفي مشاعرهن الودودة إليها!! تحدثا كثيراً في رحلة الذهاب، واستمتعت بوقتها معه وابنها، حتى وصلا.

كان قد أخبرهن ليلة وصوله حتى يحضرن بيت أبيه لاستقباله وخوفاً عليهن من المفاجأة ولكنه وجدهن باستقباله في المطار أيضاً الأمر الذي أصابه بفرحة عارمة وقد كان يستعجل رؤيتهن بأزواجهن وأبنائهن الذين كثروا، قابلهم بوجه من السعادة مشرق، وعينين متألقتين ببريق غريب، بينما وقفت هي تحمل علياً مبتعدة عن الصورة، هكذا هم عائلة كاملة، أين الكاميرا الآن، تفكر في أي شئ لئلا تغار، هن أخواته، لم يرونه منذ سنوات ثلاث أو أربع، هو صغيرهن وأخوهن الوحيد.. أخرجها من عزلتها نداؤه :- ميرا، تعاليْ!!

تقدمت بتوتر ليقابلنها بترحاب لم تتصوره بهذه الروعة، ولأيام عشر كانت الأجمل في حياتها، وهي تسكن بيتاً فسيحاً أخبرها محمد أنه بيت العائلة أعجبها الاسم، وأن أخواته يلتقين فيه من حين لآخر، وأنهم لم يفرطوا فيه ليبقى ذكرى والديهم ويبقى لهما إن فكر في العودة والاستقرار في مصر، وتخرج في نزهات يومية، وتذهب لأماكن تراها لأول مرة وتستمتع بصحبة أخواته، وتنزعج باسمة بصخب الأشقياء أطفالهن الذين حولوا ابنها من طفل مسالم إلى شقي لا تعرفه!

إنها الفترة الأجمل دائماً لذلك لم تنطق بأكثر من ذلك " لنفعلها كل عام "، فقد عجز لسانها عن وصف سعادتها وكلها تتضاءل أمام سعادته هو. فهي مهما رأته سعيداً فسعادته لن تكون بقدر تلك السعادة التي كان عليها في مصر، وتعلم أن فعلها كل عام لهو الأمر الأكثر أملاً..

****

بنان الغائبة /

طال غيابكِ عني وقلقي يزداد عليكِ يوماً بعد يوم وقد أغلقتِ في وجهي كل وسيلة اتصال بك، حتى ديانا لا تعطِني جواباً يريحني، تقول أنكِ بخير عكس ما أشعر أنا.. طمأنيني عليكِ رجاءً بسرعة.. كما أنني مررت بأحداث عصيبة في الفترة الماضية، أريد أن أحكي لكِ عنها

القَلِقُ عليكِ /

مالك

وضغط زر الإرسال، وركز نظره على الشاشة علها تجيب، أرهقه تفكيره بها وقلقه عليها، مع تعبه بسبب معاملة أبيه المتغيرة معه، وهو لا يفهم لم يفعل ذلك، خشي من أن يضغط عليه بأمر آخر، أو يكون قد عرف بأمر دراسته الذي لم يخبره به بعد ويريد أن يحده عنه، ماذا حدث له؟ لا يمكن أن يتصور أباه بهذا الحنان له، قد يكون لرحيق، لأمه، لكن له؟! الأمر جد صعب!! ولم ينتهِ من تفكيره حين وصله ردها ففتحه بلهفة..

مالك /

أنا بخير لا تقلق، بل لم أكن بخير قبل كما أكون الآن، ولكنني مشغولة بأمر ستسعدك معرفته، فقد شهدت منذ أسبوعين أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، سأكتب لك خطاباً مطولاً عن شعوري في الفترة الماضية وعن كل ما حدث، ولكن حين أجد وقتاً لذلك، وبالنسبة لأحداثك العصيبة أنتظر حديثك لي عنها..

المسلمة الموحدة /

بنان

اتسعت عيناه يتأكد مم يقرأ، ثم فقد الشعور بكل ما حوله لثوانٍ معدودة سبقت هتافه الصاخب وهو يترك غرفته متجهاً لأسفل المنزل حيث أمه وأبيه :- أمي .. يا أمي .. أبي .. أمي .. أبي ..

صدم بهما خارجين من غرفتهما فزعين، فالتقط أنفاسه الثائرة قائلاً :

- بنان!! لقد أسلمت!! لقد أسلمت بنان.. هي أخبرتني بذلك..

تحول فزعهما لابتسامة واسعة تنبئ عن فرحة داخلية بسعادة مالك بقدر فرحتهما بإسلام بنان فقد علما بأفكارها التي لم تكن تخفيها، فاستقبلته أمه بذراعيها المفتوحتين عن صدر حانٍ فأقبل بأنفاسٍ لاهثة تضمه كثيراً وهي تبارك فرحته، حتى أنه أقبل على أبيه يعانقه بعفوية دون أي تحفظات اعتاد فعلها، ثم ابتعد عنهما وقد عاد إليه بعض رشده قائلاً :

- آسف يبدو أنني أزعجتكما، سأستأذنكما الآن..

ثم عاد لغرفته تتبعه عيونهما بعطف لا متناهي، بينما دخل غرفته وأغلق الباب ليغمض عينيه وهو لا يعرف سر هذه السعادة، ولم يكن يتخيل أنه سيفرح بهذه الصورة حين تسلم، تمنى لو يراها الآن، يرى وجهها بنور متيقن من وجوده، لقد شعر أنها فتاة أخرى لا يعرفها وهو يقرأ

كلماتها، أعاد فتح رسالتها ثانيةً ليبحث عن سباب واحد أو أحد ألفاظها لم يجد، هل تبدلت؟ ضحك بنشوى وهو يتخيلها موحدة كما قالت، ما الذي يجري في هذا الكون؟!

بنان مسلمة، يالها من سعادة!!

****

ضربت رحيق بأوامره المبطنة عرض الحائط وهي تذهب لتشجيع ابنها في مسابقته، وهل ستتخلى عن ابنها لأجله؟ يبدو أنه قد جن واختل عقله! أم ظنها ستخضع لأوامره وتبقى، ولم تفتها نظرات التحذير التي رماها بها ولكنها لم تبالي له، وما لبثت تتابع ابنها بقلق وخوف وبعض سعادة لتميزه، حتى انتهت المسابقة وأعلنوا فوزه بالمركز الخامس، فتأهبت لحديث طويل تسري به عنه وهي تعلم أن أمر كهذا سيحزنه، ولكن خطته الثانية أن سحب البساط من تحت قدميها وهو يستقبل ابنه بلهفة مسرياً عنه بكل ما نوت قوله!!

كان المسيطر عليها راحة بذهاب الحزن عن سيف، ولم يشغلها إزاء ذلك رغبة زوجها العزيز في إفساد كل شئ عليها.

وبعد عودتهما للمنزل، انشغل بنوم سيف ولما اطمأن لسكونه خرج لها وجدها جالسة جوار الشرفة تشرب العصير الذي أعده لها صباحاً بهدوء وانسجام، ولما أحست بخطواته التفتت إليه بابتسامة أجادت رسمها قائلة :- أشكرك! إنه لذيذ!!

حينها اقترب منها بشدة لدرجة أن لون وجهها شحب وهو يميل مقبلاً رأسها قائلاً :

- أعلم كم تحبين عصير التفاح، لذلك قررت أن أسعدكِ به الآن!

وكأنها تمثال ثابت، ابتعد عنها ومازالت عيناها مثبتتان على نقطة واحدة، ويدها تقبض على الكوب، وتشعر أن جسدها كله انفصل عن العالم في رحلة ذهاب بلا عودة، ولما رآها ياسين هكذا ابتسم بثقة قائلاً :- حبيبتي، ماذا حدث لكِ؟

وقفت فجأة كإنسان آلي، ثم بدأت تعود الحياة لها وهي تقول بأنفاس لاهثة :- طابت ليلتكَ!

وذهبت لغرفتها سريعاً، حتى أنها لم تنتبه أنها دخلت لغرفته هو، وأغلقت الباب خلفها بقوة، حتى عادت لوعيها وهي تهمس :

- أهذه خطتك إذاً؟ أيها الخبيث!! ولن أستطيع مجاراتكَ فيها!! يا إلهي، ما الذي أفعله بنفسي، لن أحتمل أن أكمل حياتي بهذه الطريقة.

وحتى تسكت صوت عقلها وتنام متجنبة أرق ليلة الأمس بحثت في أحد الأدراج عن منوم تستخدمه في مثل هذه الحالات، فانتبهت أنها غرفته، أي شَرَكٍ أوقعت نفسها فيه، لم تستطع الخروج وجاءتها ثقة غريبة أنه لن يدخل، ولكن الأرق ماذا تفعل فيه؟ بحثت عن أي دواء عنده حتى وجدت علبة بها أقراص في درج جوار سريره خمنت أنها إما مهدئ أو منوم أو مسكن للألم، فلا دواء آخر سيستخدمه، تناولت قرصاً تبعته بثانٍ حتى يعطي نتيجة أقوى ثم ثالث للتأكيد على النوم في التو واللحظة.

جلست على فراشه ثم تمددت واضعة رأسها موضع رأسه واحتضنت وسادته وحلقت في سقف الغرفة بنشوى باسمة!!

ولم يفت الكثير على تركها له حتى سمع صوت ضحكاتها العالي ففر إليها مستهجناً فزِعاً!!

****

صلاة .. زكاة .. صوم .. وحج .. في أسبوعين ألمت بنان بكل ما يتعلق بالصلاة والصوم، كالطفل الذي يبدأ المشي والنطق، بتردد وخوف يحاول ويفشل حتى يستقر له الأمر، كذلك كانت، لم يطمئنها سوى الصلاة حين تعلمتها، حين قالت لها ديانا أخبريه بكل ما في قلبك وكل ما يهذي به عقلك، وفعلتْ!!

هذا ما كانت تبحث عنه اطمئنان بالوجود، اطمئنان بأنه يسمعها ويجيبها، هذا ما سعت حياتها كلها تبحث عنه، الاطمئنان والسكينة اللذين أخذا وقتاً منها حتى استقرا في قلبها، قراءة القرآن والصلاة، قلبها الذي بدأ يتشرب الإيمان رويداً رويداً.

انعزلت وديانا عن العالم لأسبوع عكفتا فيه على طمأنة قلبها الهائج، وإقناع عقلها المضطرب، ثم لأسبوع آخر استمتعتا بالخروج كما لم يفعلا قبل، وفي النهاية قالت ديانا بينما يتجولان في الطريق عائدتان للمنزل :- ما رأيكِ في العودة للوس أنجلوس؟

- وحدي؟

ابتسمت ديانا تجيبها :- بل كلتانا!

أومأت بنان وهي تقول بنبرة هادئة :- ليكن ذلك! ولكن عملكِ؟

- لا تقلقي أستطيع تدبير عمل آخر هناك بإذن الله!

أكملتا سيرهما حتى قالت بنان :- نسيت أن أخبركِ، عندما ذهبتِ لعملكِ اليوم، سأل عليكِ جارنا البريطاني، يبدو أنه كان متلهفاً لمقابلتكِ!

أومأت ديانا ثم تنهدت قائلة :- دعكِ منه، وإن طرق بابكِ مرة أخرى وأنتِ وحيدة لا تجيبيه!

- لم أفتح له، بل حدثته من خلف الباب!

ابتسمت ديانا وهي تكمل سيرها معها حتى وصلتا، بدلتا ملابسهما ثم جلستا في غرفة ديانا حيث تنام بنان مجاورة لها في فراشها حين سمعتا صوت الجرس فاتجهت بنان نحو الباب وهي تضع وشاحاً على رأسها كما تفعل ديانا، حتى في خروجهما معاً تلف ذلك الوشاح كيفما اتفق دون تغيير في طريقة ملابسها، ابتسمت ديانا وهي تنظر لها بينما اتجهت هي نحو الباب لتعرف أن جارها البريطاني هو الطارق فتعود لديانا سائلة :- ماذا أفعل؟ إنه هو!

وقفت ديانا وارتدت حجابها لتخرج له بضيق وتهتف من خلف الباب :

- ماذا تريد؟

- هل لي بالحديث معكِ لدقائق!

قال بصوت حازم، فردت :

- أنا آسفة، ولكن ليس المكان ولا الزمان يسمحان بذلك، وأعتقد أنني لا أستطيع استقبالك في بيتي!

- لا تقلقي لن أدخل! سأخبرك بشئ وأنا واقف مكاني!

قالها بهدوء غريب، ولكنها قررت الفتح، فهو لا يستطيع فعل شئ لها، تستطيع التصرف في الوقت المناسب كما تعتقد، بمجرد فتح الباب وقف ناظراً إليها متفحصاً بصورة أزعجتها فقالت بضيق :- أيها السيد ماذا تريد؟

- تزوجيني!!

١٩

لكِ دائماً

مالك /

وعدتُكَ بأن أخبرك بالتغيرات التي حدثت لي في الفترة السابقة، وأروي إليكَ مشاعري، سأوفِ بوعدي رغم أنك لم تخبرني بما حدث لكَ!

المشكلة بدأت عندما عكفت لأيام ثلاثة على قراءة الكتب التي أحضرتَها لي، والتي تحكي عن أناس كان لهم مثل تفكيري إلى أن هداهم الله، ثم كتبوا عن أنفسهم وتغيراتهم. كثيرون هم؛ واتفقوا جميعهم في الاطمئنان بوجوده، والسعادة العظمى التي حلت بهم عندما وصلوا للخالق، وعن يقينهم الخالص في وجوده بعد سنوات من الشك والإنكار.

أتعرف يا مالك، ما حدث لي حينها لا أستطيع وصفه إلى الآن، إنه شئ شبيه بنوبة الذعر التي أتتني قبل، ولكن ليست مثلها، فقد زهدت الطعام وأنا أبحث عن وسيلة للوصول كما وصلوا، وقاطعت النوم بالمنبهات التي أدمنتها، حتى انهار عقلي قبل جسدي، وأنقذتني ديانا الرائعة.

كنتُ أبحثُ وأبحثُ لأصل للاطمئنان الذي وصلوا إليه حتى بدأتُ في قراءة القرآن " الشئ الأروع على الدوام "، وبدأت الحقيقة تظهر بوضوح وجلاء، ولكن عقلي الأحمق أبى التصديق، إلى أن واجهتْني ديانا بضراوة لم أعتدها منها، والحقيقة أنني كنت في حاجة إليها!!

حينها فقط اتخذتُ قراري، وبدأتُ أقرأ القرآن بقلب باحث وعقل صائب، حتى وصلتُ..

وفجأة أصبحتُ مسلمة، قال الشيخ لي قولي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقلتُ فقال الآن أنتِ مسلمة!!

لا أستطيع وصف سعادتي الآن وأنا أكتبها لكَ، يا إلهي إنني أغبطكَ على امتلاكِكَ ذلك السحر بقلب مطمئن منذ ولدتَ..

أتعلم أنني حينها أصبت بنوبة بكاء حاد، ولكنه ليس بكاء السعادة، بل بكاء الذنب والرجوع، لم أستطع أن أوقف البكاء ولا أن أتحكم في سيله، أعلم أنك مستغرب شكلي وأنا أبكي، أنا أيضاً كلما أتذكر الأمر أندهش من نفسي، لا أتخيل بنان بكاءة أبداً، على كلٍّ فقد كان قلبي حينها كإعصار هائج، وكأنه يقفز في صدري، وعقلي مشتت مشوش، كنت بحاجة ماسة إلى اطمئنان وسكينة يسريان عني، كنت بحاجة لِيدٍ حانية توضع على قلبي تسكن إعصاره.. ووجدتُها!!

يا إلهي كم هي رائعة ديانا!! لم تتركني حتى اطمأن قلبي، وفعلتْ معي كما كنتَ تفعل، نمتُ قريبةٌ منها ووضعت يدها على قلبي وأخذت تتلوَ القرآن، سمعتُ آياتٍ عن الجنة والنعيم، عن رحمة الله بعباده وقدرته وعظمته، غفرانه وإمهاله لنا حتى نتوب، قرأتُ آياتٍ كلها سكينة.

ثم علمتْني الصلاة! هذا شئ آخر أغبطك عليه، لا أعلم كيف كنت تتخلى عنها أيها الجاهل المستهتر، إنه حديث خاص جدا، تنسى فيه الدنيا وأوجاعها، تقترب من خالقك بصورة لا تكون في شئ آخر، أخبرتُه بكل ما يؤلمني وما يرهقني. إنها كالسحر، تخيل أن يقيناً اعتراني بأنه يسمعني ويراني ويجيبني! لقد كنت مندهشة من ذلك! ولكنه بالفعل أجابني!

لقد طلبت منه أن يهدئ قلبي الهائج، وأن يهديني إليه، وأن يريني الطريق الصحيح ويثبتني عليه، واستجاب لكل ذلك! بل وأصبحتُ أرى في كل خطوة أخطوها شئ يقنع عقلي أنني على الصواب، أنني على الحق!

بالفعل أنا سعيدة جداً، كنتُ أريد أن أحدثك أكثر عن شعوري بالصلاة والصوم، ولكن سأؤجلهما لوقتٍ لاحق، فقد حدث شئ مساء الأمس، عكر كل مخططاتي أنا وديانا، إن سنحت الفرصة سأخبرك به فيمَ بعد، هو شئ لا يدعو للقلق، فتخلى قليلاً عن شخصيتكَ القلقة!!

أنتظر روايتكَ لي، وأنتظر آخر أخبارك مع جهاد، لم تأتي بذكرها في رسالتك السابقة!!

بنان

****

بنان الصادقة /

كنت أود أولاً أن أخبركِ عن سعادتي بكِ الآن، ليس لأنكِ أصبحتِ على ديني، ولكن لأنكِ حددتِ هدفكِ بدقة ووصلتِ إليه، أنتِ أردتِ الله، أردتِ الوصول إليه بقلب سليم!!

أما عن ديني، فأنتِ على حق، لم أكن لأقدرَ قيمة الشهادة أو الصلاة قبل معرفتكِ، ولم أكن أعرف أنني أضيع كنزاً من يدي بتركي للصلاة!!

ولأسعدكِ أيضاً أنا ما تركتُ فرضاً واحداً منذ انفصالنا، بل الأكثر سعادة أنني أشعر بالصلاة ليس كالسابق عندما كنت أصلي صلوات مقطعة لا أعرف حتى ماذا قلتُ فيها!

عندما أخبرتِني عن إسلامكِ، رقصتُ فرحاً، ليس الرقص الذي تظنينه أيتها الساذجة، وإنما لا أعرف كيف وصفه، يكفي فقط أنني عانقت أبي بسبب فرحتي دون أي حواجز بيننا!!

وعن الأحداث التي مرت بي، فلقد سافرت إلى غزة، مع صديقي الذي أخبرتكِ عنه قبل، وكان معه بعض الشباب، وجهاد كانت معنا وفتيات أخريات!!

أتعلمين أنني شعرت بخزي كبير، نعم هو كل ما شعرت به، أن أعيش هكذا بكل تلك الرفاهية بينما هم يأكلون ما يسد رمقهم ويقم صلبهم فقط، أن أعيش متمتعاً في تلك البلد، بينما هم يعيشون في أرضهم المسلوبة مغتصبون، لا يملكون حتى الحق في المطالبة بحرية منتهكة، رأيت أطفالاً ينتظرون الموت، وأمهات ثكلى لم تجف عيونهن على أبنائهن القتلى أو الأسرى، رأيت خراباً، ورأيت أولئك يتمتعون برخاء العيش على أرض ما كانت ولن تكون يوماً أرضهم!!

عندما عدت شعرت ببعض الشفقة على أبي، إذ أنني رأيت آباءً يزهدون أبناءهم لأنهم يعلمون أنهم ميتون لا محالة، وآباءاً أخر يعدون أبناءهم للموتِ أو للشهادة، عارفين أن الأرض أرضهم مهما حدث، ومهما طال الزمان ستكون لهم، والبعض القليل منهم قد يئس، إذ لا فرار من الموت!

سأخبركِ لماذا أشفقت على أبي، تعلمين جيداً أن أحمد كان الفتى المثالي، يفخر به أبي أمام الجميع، كان مثالياً في كل شئ، ثم مات في حادث سيارة مفاجئ، لم يمرض ولم يسافر حتى تمهيداً لموته، كذلك كانوا هم، يشيع إليهم قتل أو أسر أحد أبنائهم فجأة، لذلك قد يكون أبي خشي من أن يتعلق بي أنا الآخر ويفقدني، قد يكون!

إنما أعلق نفسي بأمل شفاف أنه يحبني ويخشى علي من الموت فيهجرني، حتى إذا ما مت تخف وطأة حزنه، إنما أسكت وجع رأسي فقط!

وبالنسبة لوجع رأسي، رغم قسوة الألم الذي يفاجئني، إلا أنني أعتبره الشئ الأجمل، إذ يقربني من أمي بصورة أحتاجها، لشد ما أحتاج قربها، لا أعرف ما سبب الحالة التي تتقمسني هذه الأيام ولا أدري بتفسيراتها!!

أيتها الشمطاء القصيرة، لماذا تجعلينني أسترسل في الكلام هكذا؟ أنا لم أقل ذلك لأحد من قبل. أنتظر أن تخبرينني بكل شئ عنكِ، وكل خطوة من خطواتك أريد الاستمتاع والشعور بها معكِ.

لا تنسي أن تخبريني بما حدث وعكر صفاءكما، وإن احتجتما لأي مساعدة أخبريني سريعاً!

لي طلب أخير، رغم استمتاعي بتلك الخطابات التي تشعرني أنني شاب في الأربعينيات من القرن الماضي أراسل شخصاً في النصف الآخر من العالم، إلا أنني أريد سماع صوتكِ لأطمئن عليكِ أكثر، لم أسمعه منذ وقت طويل، ومن المؤكد أنكِ تتوقين لسماع صوتي الجميل، لا تنكري ذلك فأنا واثق منه!!

السعيد بكِ /

مالك

****

اتجهت للهاتف الذي لم يتوقف رنينه بصورة أزعجتها وبث قلقاً غريباً في نفسها، بكلمات قليلة قالها محدثها ليؤكد قلقها وشكوكها، كان معها ياسين يستمع وما إن وقع الخبر عليهما حتى حل صمت غريب، تبعته صحوة مفاجئة لكلاهما، وهي تدخل لترتدي حجابها وتخرج معه للمشفى حيث يرقد سيف بعد حادث سير اغتاله!!

بمجرد وصولهما بحثا عن طبيبه، والذي قابلهما بنظرة يائسة قائلاً :- أنا آسف، لقد مات!!

لم تعرف رحيق كيف عليها التصرف، هل هي في حلم عليها الاستيقاظ سريعاً منه، أم هي في واقع مر يتكرر، آخر شئ تذكره تلك الأقراص التي تناولتها ولم تشعر بعدها بشئ سوى استيقاظ بطئ في اليوم الثاني، ثم جلست مع ياسين قليلاً ليعنفها على ما ابتلعت وأخبرها أن سيف ذهب لمالك، ثم ماذا؟ إذاً هي ليست في حلم! إن ما حدث ماهو إلا واقع، سيف مات!!

وأي حياة بعد سيف؟ هل ستنهار منتحبة أم ستدخل في غيبوبة طويلة علها تلحق به؟ ماذا دهاها؟ لماذا لا تبكي؟ لا تصرخ! لا تنوح!

إنه سيف!! كل أملها في الحياة، وكل رجائها، ولأجله تفني نفسها وتموت؛ فأين ذهب؟!

الصدمة أصابتها بشبه تبلد في المشاعر، لم تكفي سوى للبحث عن ياسين، هاهو منهار في زاوية، يبكي كما لم يبكِ قبل، حتى في وفاة أمه لم ينتحب هكذا، يعلو نشيجه ليصم أذنيها، وهي عاجزة عن التعبير عن مصيبتها، عاجزة عن التأثر بفجيعتها!!

تمر الأيام ويدفن ابنها ومازالت متبلدة، وزوجها مازال كما هو منتحباً باكياً، لم يبقَ لها شئ، ومازالت تشعر أنها في حلم!!

الناس كلها اجتمعت، منهم من يبكي ومنهم من يصرخ، وهي لا تشعر! ولم يرحمها ياسين، إذ جاء بدم بارد قائلاً :

- لقد جاءت المصيبة التي انتظرتِها طويلاً! والآن هل هدأ بالكِ؟

لم تجِب، فهي لا تسمع كما لا ترى؛ فأكمل :

- تزوجتينني من أجل سيف، وهاهو قد رحل سيف! انتظرتِ ما سأفعله عند المصيبة، وها أنا لأفعل!! رحيق، أنتِ طالق!!

ماهذا؟ هل بدأت تشعر؟ لقد طلقها! ولكنها ليست كالمرة الأولى، ففيها كان كلاهما مجبر على الطلاق، كلاهما مثقل بمشاعر حب فاقت كل شئ، ومع ذلك لم تنفعهما، ولكن الآن لم يعد للحب مكان!!

هاهو تركها كما تركها سيف! ماذا؟ هل تركها سيف حقاً؟ لقد مات!! ماذا تعني؟ ألن تراه مجدداً؟؟

بدأت تصرخ وتنتحب بشكل مفاجئ، أخيراً شعرت :

- سيف!! عد إلي، سيف!!

****

دخلت بنان غرفة ديانا المفتوحة، لتجدها جالسة في منتصف فراشها متربعة بعين تائهة، جلست جوارها ووضعت يدها على كتفها قائلة :- فيمَ تفكرين؟

- وهل هناكَ شئ غيره؟

- هل تفكرين في الموافقة أم ماذا؟

منذ يومين انقلبت حياتها بسبب ذلك الرجل، لم تفكر في شخصه، بل تفكر كيف يتسنى لها الزواج به، هو ليس بمسلم ومتزوج!! وهي بحاجة إلى زوج! ولم يعطها فرصة الرد ولو فعل لأخبرته بالرفض مباشرة، ولكنه رمى قنبلته وأتبعها بـ " فكري جيداً في طلبي، لا تردي علي الآن "، وانصرف!!

ليته تركها تخبره برفضها، لماذا يتركها في حيرتها تفكر في الموافقة؟ هي حتى لا تعرف اسمه، وزواجها به على غير دينها مستحيل، فكيف تفكر في الموافقة إذاً!!

همست لبنان الجالسة جوارها :- ما رأيكِ؟

- لا أعرف، الأمر كله لكِ، ولكنكِ قلتِ أنه لا يجوز زواجكِ به وهو غير مسلم، كيف ستتزوجينه إذاً؟

- أفكر في جعله مسلماً، وفي نفس الوقت أنا لن أقبل بذلك، لن أقبل به زوجاً وقد أسلم لأجلي ليس لأجل نفسه ولا لأجل الإسلام، لا لأجل الحق!! كما أنني عندما فكرت في الزواج مرة أخرى تمنيته مسلماً منذ ولد، وليس حديث عهدٍ بالإسلام مثلي، وسأخبركِ عن السبب فيمَ بعد!!

سكتت لهنيهة ثم قالت :

- استعدي لنخرج، سنقابله الآن أبلغه برفضي، لقد اتخذ الأمر مني أكثر مما يحتمل، كما أنه لو أسلم فلديه زوجة وابن ..

قاطعتها بنان :- لقد طلقها كما قال!!

- لا يهم، هيا بنا!!

اتجهت بنان لتخرج فأوقفتها قائلة بصوت أقرب للرجاء :- بنان!!

التفتت لها فأكملت :

- عندما نعود، ابقِ معي، لا تتركيني وحيدة، ولا تسمحي لي بطردكِ من غرفتي أو الاختلاء بنفسي، وامنعيني من الذهاب لأي متجر في الطريق! هل تفعلين ذلك لأجلي؟

نظرت بنان لعينيها وقد فهمت أنها لا تريد تكرار ما فعلته بنفسها سابقاً ومازالت تجهله هي؛ فابتسمت قائلة :- لا تحملي هماً لشئ وأنا معكِ!!

وبعد ساعة كان قادماً إليهما في المكان المحدد للقاء، وبمجرد جلوسه ألقت ديانا بما تحمله فوق كاهلها قائلة :

- أنا أرفض طلبكَ، كنت متزوجة في لوس أنجلوس وزوجي مازال ينتظر عودتي إليه!!

لا تعرف لم تذكرت عامر الآن، رغم أنها لم تخطط لقول ذلك، ولكن عله ينتظرها بالفعل ستذهب لتتزوجه الآن وتتحمل ضربه لها، وقد يكون مريضاً فتساعده على العلاج، عامر جيد، إنه يحبها بشدة، ومستعد لفعل أي شئ لأجلها، هكذا أخبرها في آخر لقاء بينهما، حتى أنه أوفى بوعده ولم يتعرض لها ثانية!!

- في الحقيقة تمنيتُ أن أرتبط بكِ لأني رأيت فيكِ أما صالحة لابني!! كما أنني أعجبت بكِ!!

هزت قدمها بشدة، وطرقت بإصبعها على الطاولة الفاصلة بينهما بتوتر واضح، ثم قالت :

- الأمر الذي لا تعرفه أن ديني يحرم علي الزواج بغير مسلم، وأما عن ابنكَ قليل من الاهتمام يكفيه!!

ثم وقفت قائلة :- سنغادر أولاً، لأن طائرتنا في الصباح الباكر!!

فوقف قائلاً :

- آسف لأنني لا أعرف بفرائض دينكِ، حسبته أمراً عادياً، وأرجو ألا يكون سفركِ بسببي!

أشارت برأسها أن لا قائلة :

- لا عليكَ، السفر كنا نعد له منذ فترة، وليس بسببكَ، نستأذنكَ الآن!!

وتلقت يد بنان كأنها تتمسك بابنتها وغادرتا!!

لعنت تفكيرها كثيراً وهي ترى الأمر ينتهي بتلك الصورة، وببساطة شديدة، وقد رسمت في خيالاتها الحكايات والأساطير، سيسلم من أجلها، ويبحث عن الحق لأجلها، سيتمسك بها إذا ما قالت لا يجوز، سيفعل المستحيل لأجلها، بينما قال بكل بساطة وصراحة بدت لها وقاحة، أنها مناسبة كأم صالحة لابنه!!

أهكذا سيكون دورها في الحياة؟ أم لابنه! لكم تشفق على حالها الآن، وكم تتوق لمعاقبة نفسها على تفكيرها وظنونها!!

كيف ستبعد بنان عنها؟ وكيف ستذهب للمتجر الآن لشراء ما تريد؟ قد تستخدم شيئاً في الشقة، ولكنها بحاجة لأن تتخفى من بنان، لا تريد لسترها أن ينكشف!!

أخذها التفكير حتى وصلتا، فقالت :- سأغتسل، أستأذنكِ بنان!

نظرت لها بنان وقد عمل عقلها بسرعة فقالت :- أريد عصير، بعض من عصير الفواكه!!

فقالت ديانا باستعجال :- تستطيعين فعله بنفسك!

فأمسكت بنان ذراعها برجاء قائلة :- أرجوكِ، أرجوكِ!

زفرت ديانا بيأس ولم تنتبه أبداً لأن بنان تقصد إلهائها، وذلك لأنها في الأوقات الطبيعية تطلب راجية هكذا، ولكنها وجدت مخرجاً آخر قائلة :

- سأبدل ملابسي فقط!!

يجب أن تنفرد بنفسها لدقائق فقط، أرجوكِ بنان وافقي! أرجوكِ! انتظرت ردها بأمل رغم أنها تستطيع أن تثور عليها وتطردها من غرفتها، ولكنها تحب بنان بطريقة لا تمكنها من رفع صوتها فقط عليها ..

فقالت بنان بتفكير لا تعرف كيف وصل إلى رأسها :

- لقد نسيت شيئاً في غرفتكِ، اسمحي لي بأخذه قبل أن تبدلي ملابسك!!

وافقت ديانا فتقدمتها بنان وجلست على سريرها قائلة :

- الآن تستطيعين تبديل ملابسكِ وسأغمض عيني، أعدكِ !!

كرهت ديانا نفسها أكثر وهي تبدو بمظهر الطفلة السخيفة، فقالت انتصاراً لكبريائها :

- سأبدل في الحمام، وأخرج سريعاً!

وبالفعل خرجت بسرعة لا تعلمها، حتى تنقذ نفسها من نفسها، ثم قالت لبنان بنفس سرعتها :

- بالفعل حجزت لنا في طيارة الغد، هل يزعجكِ الأمر؟!

-لا إطلاقاً !

- لنحزم حقائبنا !

وقفت بنان قائلة بسعادة :- هيا !!

ثم قالت كلاماً كثيراً، ولم تترك ديانا بل سارت كظلها في الشقة، لم يناما طوال الليل، حتى تركتا الشقة بحلول الصباح، تعلم أن ديانا أنهكت قواها من العمل، ولكنها شعرت أن هذا أفضل لها من الانفراد بنفسها وفعل الشئ الذي تكره، وما أكد لها ذلك حين وقفتا أمام الباب صباحاً فعانقتها ديانا بحنان قائلة :

- أشكركِ بشدة أنكِ لم تتركينني لنفسي!

ورغم ذلك لا تعرف ما سبب شعور الخيبة الذي لازمها!! ورغم وجوده لم يمنعها من وضع كتابين أجادت اختيارهما عن الإسلام أمام بيت جارها!!

وتركتا مانشستر ثم انجلترا كلها!!

****

لا يعرف ما السبب في جعل الشئ الأسوأ هو ذاته الشئ الأحسن في حياته كلها، فلم يكن يعرف أن ليلة ستبدأ بتعاطي زوجته لمخدرات ستنتهي ذات الليلة بزوجته بين ذراعيه، ماذا يفعل فيها؟ أيضربها؟ هي بالفعل تستحق الضرب والعقاب، ولكنه تعب من العقاب، أوليس وجودها الآن بين ذراعيه عقاباً لها؟!

لا يملك إلا التبسم حين يتذكر ضحكها الهستيري وبكائها، وقد كان فزعاً لما رآها، ولأنه وزوجته لا يجيدون التصرف بأي حال من الأحوال ودائماً يهرعون إلى المشفى فهذا ماحدث!!

بعدما سألها عن أي شئ ابتلعت فأجابته بضحكها الهستيري وهي تشير للأقراص التي تناولتها، صدم مما رأى، وهو يحضر ملابسها ليأخذها للمشفى، حمد الله أن سيارتها موجودة هنا، وعزم على شراء واحدة في أقرب وقت حتى وإن استدان بأموالها، وضع سيف في المقعد الخلفي وذهب بزوجته للمشفى، تاركاً ابنه في السيارة، حتى اختفت في حجرة مع الأطباء عاد لأخذ ابنه، وبقي منتظراً لها لساعات بعدما أخبره الطبيب أن حالتها شبه استقرت!!

المجنونة، كاد يموت بسببها، كيف تتناول شيئاً لا تعلمه، ثم ستضطره لإخبارها بسبب تواجد تلك الأشياء في غرفته، كيف يعاقبها؟ كيف؟

بعد أن استعادت رشدها عاد بها للبيت مع شروق الشمس، بعد ثماني ساعات في المشفى، حملها لغرفتها، ثم حمل سيف لغرفته ومازال نائماً، خيراً فعل!!

دخل ليجدها جالسة فعنفها بشدة على ما فعلت وثار عليها، فتجاهلته ونامت كأن لم يكن شيئاً، لا ينكر قلقه ؛ فقد خشي أن يكون ما تعاطته أثر عليها، ولكن اتصال بالطبيب طمأنه.

وجلس جوارها يحتويها بين ذراعيه، سعيداً بقربها حتى ولو نائمة، عندما تستيقظ سيحل كل شئ بينهما، سيغضب ويثور ويثنيها عن قراراتها العظمى، وهو يعلم أنها لن تتمرد، يعلم أنه قد طفح بها الكيل كما هو، بل هو أكثر منها، فلم تكن هي عنيدة هكذا قبل..

ولكنها ما استيقظت، بل قامت فزعة صارخة، فانتفض وهو يضمها إليه مهدئاً، وقد تحول كل غضبه إلى حنان خالص، ونبرة عاطفة صافية :

- رحيق! اهدئي، أنا هنا جوارِكِ، حبيبتي اهدئي فقط!

مازالت تصرخ باسم سيف ومازال عاجزاً عن فهمها، وكانت الطريقة الأقرب لمؤازرتها هي ضمها لصدره أكثر!! حتى استوعب أخيراً أنها تحلم، مازالت نائمة؛ فحاول إفاقتها بلطف لم تتقبله فبدله بقوة وهو يتناول كوباً من الماء جواره، وينثر قطراتٍ منه على وجهها؛ ففتحت عينيها فزعة، وشهقت بعنف، ثم دفعته بقوة بعيداً عنها وانكمشت على فراشها قائلة :

- ابتعد عني، ألم تطلقني الآن؟ ابتعد!!

ثم انزوت في ركن تنتحب، وتردد كلاماً فهمه بصعوبة :

- لقد مات سيف! هل اطمأن قلبكَ الآن؟!

وعلا نشيجها فجأة، فقام واتجه لغرفة سيف، رغم خوفه عليه من رؤية أمه هكذا، لكن ليس أمامه حل سوى ذلك، حاول أن يبقيه نائماً، فحمله برفق وعاد به إلى رحيق، التي فزعت وهي تراه أمامها فقال ياسين برزانة :- هلا هدأتِ الآن! سيفزع إن رآكِ هكذا!

- هو بخير، لم يمت؟

أومأ برأسه ووضعه جوارها قائلاً :- ها هو، اطمئني إذاً !

اقتربت منه وهي تشهق ، فأبعدها قائلاً :- ستروعينه هكذا، والله هو بخير !

ثم انحنى يحمله يعيده لغرفته وهو يقول :- اتركيه الآن، وحين تهدئي ستذهبين إليه !

بقيت لفترة تستوعب أن ماحدث لم يكن سوى حلماً كئيباً مروعاً، بينما انشغل ياسين بابنه الذي لم يستيقظ رغم كل الأهوال التي حدثت لهم هذه الليلة، فوضعه على فراشه وحاول إفاقته برفق، فاستيقظ بعد مدة كادت أن تسحب فيها أنفاسه! بمجرد أن تحدث معه هدهده لينام ثانية وهو على يقين بأن ابنه يشك بجنونه الآن!

ثم عاد لمحيرته، وجدها ترتعش باكية، راح وضمها إليه بهدوء واستجابت دون مقاومة، فما عادت قادرة على أي شئ، وبهدوء بدأت تروي له حلمها، كانت بحاجة لأن تتحدث، ولم تكن تستطيع أن تسكت خشية أن يؤذيها حلمها، فهي ترى أنه آذاها بالفعل، لم تستطع كبت حاجتها، تريد الحديث معه بشدة بعد صمت طويل، وهي تخشى من أن يكون هذا عقابها بالفعل!

انتهت وهدأت وابتعدت، سمح بالأولى وفرح بالثانية لكنه منعها الثالثة وهو يشدد ذراعه حولها قائلاً :

- ألن تملي؟ ألم تشعري بأي ذنب تجاهي؟ لا تتحركي من هنا!

لم تكن بحاجة إلى أمر، كانت حاجتها ماسة لقربه، ولم تستطع منع فضول الأنثى داخلها وهي تسأل :- ما الذي أتي بتلك الأقراص عندك؟

- سأخبركِ بكل شئ لاحقاً!

- والجرح في صدركَ؟

- سأخبركِ بكل شئ لاحقاً!

فاستكانت، ثم انتفضت فجأة وهي تسأله :- كم الساعة الآن؟

- الثامنة تقريباً!

فوقفت بسرعة وهي تقول :- لم أصلي!!

ولكن جسدها خانها لوقوفها المفاجئ مع حالتها، لولا يده القوية أسندتها وهو يقول :

- يا إلهي ماذا أفعل فيكِ؟ هل تؤذين نفسكِ دائماً؟

أسندها حتى توضأت، ثم تركها تصلي وهو يجلس قريباً منها مترقباً حتى أنهت صلاتها بسلام.

فجلس جوارها أرضاً وأسند رأسها لصدره بهدوء دون كلم، واستجابت له دون عناد، ما عاد للرفض فائدة، وما عاد للمكابرة نتيجة، هل ستبقى منتظرة لمصيبة كما قال؟ لتعيش حياتها بسلام، وتسامحه ويسامحها، سيكون مسئولاً هي على يقين من ذلك، يكفي هذا الشهر تأديباً لهما.

فهمست مطمئنة :

- ياسين !! لن تتركنا مهما حدث، أليس كذلك؟

- إن شاء الله، سأبقى معكِ إلى نهاية عمري.

- حتى إن طلبت منك الرحيل، لا ترحل، اضربني إن شئت ولا تستجِب لي!

ابتسم قائلاً :- أتوق لتكسير رأسكِ، لا تقلقي سأفعلها!!

- ماذا فعلتُ بالأمس؟

ضحك بقوة أحرجتها وهو يقول :

- أنصحكِ بألا تعرفي ماذا فعلتِ، إن علمتِ لن ترفعي عينيك في عيناي طيلة حياتكِ!

شهقت وهي تدفعه بعيداً قائلة :- ماذا؟ وهل قبلتَ أن أفعل أشياءاً مشينة؟

ملامحها المصدومة، بوجهها المنكمش وعينيها المندهشتين ببريق العسل الصافي، وفمها المفتوح، أفقداه صوابه وهو يقول :- أعتقد ذلك!

ولكنه لم يفتأ أن ينفجر ضاحكاً وهو يسأل :- فيمَ فكرتِ أيتها الساذجة؟

زفرت بضيق حرج وهي تقف قائلة :- لا فائدة من الحديث معك، لا فائدة أبداً!!

لم يستطع أن يقف، أو يذهب خلفها من كثرة ما ضحك ومازال يهتف :

- تعالِ يا مجنونتي، تعالِ، فيم فكرتِ؟

توقفت والتفتت سائلة :- سيف!! هل رآني؟!

فتح فمه ذاهلاً ثم أكمل مرحه بقوله :- بالطبع لا، كان سيتبرأ منكِ لو رآكِ!

شهقت مستنكرة وهي تضع يدها على فمها بينما ازداد هو ضحكاً مما أغاظها أكثر فتركت الغرفة وذهبت لسيف، ستطمئن عليه وتبتعد عن ذلك الـ.. ، لا تعرف بما تصفه، لا تعرف!!

ولكن هي سعيدة لا تنكر، لقد حل الأمر، وانتهى!

هي الآن على وفاق مع ياسين، هي سعيدة!!

صدرت منها صرخة فرح لا تدري أسمعها أم لا، ولكنها ..

واقفٌ أمامها وجدته ، فابتسم قائلاً :

- أنا أيضاً، سعيد جداً، وأريد أن أقر باعتراف، أنني أعشقكِ دائماً أبداً!

٢٠

هي جنة

استقرت ديانا في سكنها الجديد بعد يومين ومعها بنان، ولم يكن إيجاد وظيفة مناسبة أمراً سهلاً كما ظنت، فحمدت الله أنها لم تترك وظيفتها في مانشستر واتفقت مع العاملين عليها أن التواصل بينهما سيكون عن طريق الانترنت، ولم يعترضوا إذ أنهم مقرون بكفاءتها.

ولكن بقي شئ يرهقها التفكير فيه، حتى أقرت أنها مريضة لا محالة، من تعاقب نفسها بفعل كبيرة من الكبائر حتى يأكلها الشعور بالذنب وتهرع للتوبة إنما هي محض مريضة، بل ومستعصٍ مرضها، لكنها لم تجرؤ على الحل، أو لم تعرف كيف التصرف وكيف تعالج نفسها؛ سوى بأن تكون دائماً قريبة من أشخاص يحبونها، يشاركونها تفاصيل حياتها.

ساعدها في ذلك تعلق بنان بها حيث أصابها نهم شديد لمعرفة كل شئ عن الدين ، أصبحت تناقش وتجادل أكثر من ذي قبل ، لا تريد لشئ أن يدخل عقلها دون اقتناع ، ووجب عليها هي أن تكون كثيرة الاطلاع حتى تستطيع إفادتها. وإن قصرت هي فبنان تستطيع الوصول لما تريد بنفسها. لم يمنعها حتى اليومان اللذان انشغلتا فيهما بالبحث عن سكن والاستقرار فيه، رغم مساعدات ياسين ومالك ومحمد لهما. كانت تستغل وجودهم في بعض الأحيان لتعرض مسألتها، والتي كانت تعجزهم في أحيان كثيرة؛ ولم يكن ذلك يثنيها عن عزمها، بل كانت مقدرة لمحاولتهم في البحث عن إجابة شافية، حتى أنها اعترضت ذات مرة قائلة :

- أنتم تفهمونني خطأ، أنا لا أبحث عن ثغرة في الدين لألحد مرة أخرى، بل أريد أن أسير على الطريق الصحيح، أليست هذه ملة إبراهيم ..

لا تنكر ديانا ما رأته من راحة ارتسمت على وجوههم بعد قولها ذاك، وكأنهم بالفعل كانوا يخشون فساد عقلها، هي فقط من كانت تشعر بها.

أما عن بنان فقد وصلت إلى هنا ولم تخبر أحداً بموعد وصولها، لا مالك ولا صديقيها. شعرت ببعض الغضب عليهما إذ لم يعرفان إلى الآن أنها أسلمت، كما قطعا الاتصال بها، ولكنها حاولت الاتصال بهما فأجابها ليو حيث أخبرته عن وصولها فالتقيا بها بعد ساعة.

كانت معها ديانا ، وما إن رأتهما بنان حتى همت بالذهاب نحوهما لتعانقهما كما اعتادت، لولا يد ديانا التي قبضت على ذراعها قائلة :- انتظري، لم يعد يجوز ذلك!

لم تعترض رغم شعورها بخيبة أمل زالت سريعاً حالما أخبرها جاك أنهما غير قادرين على العيش هنا وسيعودان لوطنهما ، لم تظهر حزنها ولم تعترض ، إذ رأت أن هذا أفضل لهما وأن عليها التخلي عن بعض الأنانية فهما ساعداها كثيراً .

وبقي مالك الذي أجلت معرفته للأمر ؛ فقد قررت إخباره بطريقة خاصة ، وقبل أن تفعل سألت ديانا لماذا لا تعانق الرجال؟

بدا الأمر مشوشاً بالنسبة لديانا، حيث رأت أن معرفة الأمر بديهية ، وأن بنان كانت تفعل كل شئ بفطرة سليمة ورغم ذلك أخبرتها أن الأمر ليس تعنتاً بل احتراماً لمكانة المرأة ، كما أنها ليست كالرجل وكما تحرم هي من عناق الرجال ، يحرم هو من عناق النساء .

حددت موعداً لزيارة سارة في منزلها ، فكما اشتاقت لرحيق ومالك ، اشتاقت لها بل أكثر ، وهناك التقت ومالك !!

بمجرد دخوله عليهما وقفت وقد التمعت عيناها ببريق لم تتحكم في إظهاره ، ولم تفتها تلك التغيرات التي طرأت على وجهه ، ولم تخجل من التحديق فيه كأنه حق مكتسب ، هل أصبح بريئاً؟ أم ازدادت وسامته؟ هل التمعت عيناه ببريق العسل الذي تراه؟ هل قصر شعره الطويل؟

تحديقها فيه أصابه هو بخجل، وقد منع نفسه من أن يحدق فيها لئلا يخجلها، كما أنه أحب أن يرى تغيراتها فقط بعد أن أسلمت، ولكن لم يلفت نظره شئ كثير، فملابسها هي هي، لم يزد عليها سوى حجاب ربطته بعفوية ليغطي بعض شعرها، لا ينكر أنه تمنى أن يراها فتاة، وقد رسم في خياله تصورات كثيرة، ولكن لعلمه أنها تفعل كل شئ باقتناع تام، لم يعترض على مظهرها. فهو يعرف أنها حالما تصل لهذه النقطة لن تتخلى عنها لأي هرطقات فاسدة.

ولم يمنعها من تدقيقها فيه كمن يبحث عن عيب سوى يده التي وضعت على فمه وهو يصدر صوتاً كناية عن وجوده وشعوره بالحرج، فأصابها خجل مفاجئ لم تعتاده، أن يخجل منها هو قبل أن تفعل هي، أي جرأة تملكتها؟ ولكنها جلست لترفع الحرج عنه وعن نفسها فقال :

- حمداً لله على سلامتك! لماذا لم تخبريني بموعد عودتكما؟

ابتسمت بهدوء يخفي اضطرابها وقالت :- لقد حدث كل شئ بسرعة !

تذكر شيئاً فقال بقلق :- هل السبب في ذلك.. المشكلة التي حدثِتني عنها ؟

سكتت قليلاً لتفهم ما يقصد ثم هتفت :

- اه .. لا لا .. ليست هي السبب .. لم تكن مشكلة بالمعنى المفهوم ، إنه شئ عارض فقط !

ثم دخلت في حديث جدي مع سارة تهرب فيه من حضوره ، ثم كان معها وديانا ليومين قبل أن يستقرا في سكن لهما ، لم تسأل سؤالاً إلا وفتح له أبواباً لم يكن يعلم عنها شيئاً؛ فيذهب عنها ليبحث ويبحث، ويعرف ما يجهله، وكأنه ينتظر ما تسأل فيه حتى يتعلم!!

****

على شاطئ قريب اتحدت خطواتهما، وتعانقت يداهما، وسارا في صمت متحدث، انشغلا مع ديانا وبنان ليومين، ولم يتحدثا في شئ إلى الآن، ولو خيرت لاختارت الصمت في هذه اللحظة،

تخشى من حديثها معه أو حديثه معها، تخشى أن يفرق الكلام بينهما، ولكنها لابد وأن تعرف ما حدث وتخبره بما كان!!

- لنجلس هنا.. نظرت له رحيق بترقب مبتسم ثم قالت :- لنجلس..

جلسا على الرمال، ورغم اطمئنانها بالصمت عاجلته بقولها :

- النساء ثرثارات إذا تحدثن لن يتوقفن عن حديثهن، لذا سأترك لك البداية !

ابتسم ياسين ابتسامة بدت صعبة الظهور وهو يقول :- رغم أنكِ تعلمين كل شئ!

- عن أي شئ تتحدث!

- عن ولادتكِ كيف كانت، دائماً تشيري إلى صعوبة الأمر عليكِ ككل، ولكن لم تخصي ولادتكِ لسيف بالذكر!

قالت ببساطة :- كدت أموت فيها !

لم تعلق على سؤاله بشئ آخر، فكل ما تخشاه الآن معرفة ما حدث له أثناء ولادتها، كانت تفكر فيه حينها، وتعلم أنه واقع في مصيبة لا محالة، وأنه يعاني الموت مثلها، ولكن بطريقة أخرى ..

فسأل :- كيف كنتِ؟

ابتسمت قائلة :- لنتفق أولاً! بلا غضب أو صوتِ عالٍ ، سأبكِ بسببكَ وأتركك هنا وحيداً !

ضحك قائلاً :- أخبريني أي مصيبة فعلتِ !

أكسبت صوتها بعض القوة قائلة :

- عندما علمتُ بأن جنين ينمو في رحمي، كنت في أسوأ حالاتي، فاضطرت الطبيبة لاحتجازي في المشفى، وأصبحت حالتي من سئ لأسوأ، حتى أقرت الطبيبة بأن عليها قتل ابني حتى تحافظ على حياتي، نعم أنا رأيته قتل، بالطبع لم أوافق على ذلك، واضطر أبي لاستخدام قسوته ليرغمني، ولم أوافق أيضاً، بل وهددتهم إن فعلوا ذلك بي سأقدم ضدهم شكوى، وتعلم أن هذا الأمر يكفي لإسكات الجميع، وقاتلت لأجل الحفاظ على سيف، حتى أن صحتي بدأت في التحسن

تنهدت وهي تكمل :

- كانت هناك فكرة مسيطرة عليّ ، إن عدتَ يوماً فإن أول ما ستسأل عنه ابن يكون لك سنداً في الدنيا، لكن أنا لن أنفعك كثيراً، لذلك فضلت حياته على حياتي، لأن حياته هي ما ستنفعكَ!!

ثم ابتسمت لتغير حالة الجزع التي انتابتها وهي تقول :

- ولكن الحمد لله ، كنتُ مثلما تقول دائماً بسبعة أرواح، وها أنا ذا لم أمت، كانت عملية الولادة صعبة بعض الشئ ولكن في النهاية عوضني الله برؤية سيف !!

ورفعت يديها لعينيها تكفكف دموعها ثم نظرت له قائلة :

- وبرؤيتكَ!

رفع ذراعه وأحاطها به؛ يقربها من صدره وهو يقول :

- دائماً تسيئين التقدير ، وهل سأسال عن ابني الذي لا أعرفه ناسياً زوجتي التي شاركتني كل شئ ..

منعه ألم في قلبه من الاسترسال في الحديث، هو بالفعل غاضبٌ من تصرفها، ولن يفيده غضبه في شئ ، تفكيرها في التضحية بنفسها هو الأسبق لرأسها ، هل يكسر رأسها الآن ؟

- ٢٠٠٨/٠٦/٢٤ ماذا حدث لكَ حينها ؟ كنت أشعر بكَ ! فقد قمتُ بولادة مبكرة ، من المؤكد أنكَ السبب في ذلك !

ابتسم قائلاً :

- لقد كنتِ مريضة طوال أشهر الحمل ، ومن الطبيعي أن يحدث لكِ ذلك أثناء الولادة فلا تتحججي بي ، لماذا لا تكوني أنتِ السبب فيمَ حدث لي؟

- وما هو؟

لماذا يماطل في الحديث ويؤجل إخبارها؟

- جراحة في القلب!

انتفضت فضمها قائلاً :- الأمر بسيط ، ها أنا بصحة جيدة أمامكِ ، إنها جراحة بسيطة !

ابتعدت لتنظر في عينيه بقلق قائلة :- في القلب وبسيطة ، كيف يجتمعان ؟

حاول أن يخفف الأمر قائلاً :

- لا تنكري أننا لا نفقه في الطب أي شئ ، أخبرني الطبيب أنها بسيطة ، إذاً فهي بسيطة !

نظرت لموضع الجرح في صدره قائلة :- تلك التي رأيتها ، أليس كذلك ؟

أومأ فقالت :- ولكنكَ لم تكن تشكو من أي شئ في قلبكَ !

ضحك مجيباً :

- أنتِ السبب في كل ذلك ، لو لم تمرضي ويحتجزونكِ في المشفى وتتعسر ولادتكِ لما حدث لي أي شئ !

قالت واجمة :- الأمر لا يستحق المزاح !

- ولا يستحق الندم ، لنطوي هذه الصفحة تماماً !

قالها جدياً فقالت :

- لن أستطيع أن أنسى كلما رأيته ، هل تؤلمك ؟ كيف تعرضت لذلك ؟ كيف ..

قاطعها :

- ماذا دهاكِ رحيق ، هل سنعود لعقدة الذنب مرة أخرى ؟ صدقيني لم يكن الأمر بذلك السوء ، فقط أنا من أهملت العلاج مما أدى لجراحة ، حتى أنني كدت أهملها لولا صديق لي أجبرني على ذلك !

تمتمت :- مهمل مستهتر ..

ابتسم :- تعايرينني بعيبكِ ؟

- ثم ماذا ؟ ما الذي فعلته بعد الجراحة ؟

أكمل مطمئناً :

- عندما تحسنت صحتي ، ساعدني نفس الصديق على إيجاد وظيفة تناسبني .. آه لم أخبركِ أنني كنتُ في ألمانيا .. أهلكتُ نفسي في العمل لأمنع رأسي من التفكير وأمنع حتى قلبي من إجباري على العودة ، كنت مضطر لذلك ، واحتجت لأن أغير حياتي وطريقة تفكيري ، اخترت أن أبدأ من الصفر ، أن أكون نفسي ، فإذا ما عدتُ أستطيع مجابهة أبيكِ ..

- يكفي ذلك ، لا أريد أن أتذكر أي شئ مما كان يفعله أبي ..

عادا للصمت لدقائق معدودة ، لتصفية ذهنيهما من أي إرهاق سببته الذكرى حتى سألت :

- هل بالفعل امتلكت أموالاً لمنزل كهذا ؟

وقبل أن يجيب علقت :- لا تحمل سؤالي أي معنى آخر !

ابتسم ، واتسعت ابتسامته قائلاً :- هذا كل ما امتلكته من أموال، لذا عدت لأعمل مع أبيكِ مجدداً!

- من أجل هذا فقط عدتَ لأبي!

أشار برأسه أن لا قائلاً :- في الحقيقة أشفقت عليه، إذ لم أتصور يوماً أنه قد يعتذر إلي بتلك الطريقة ، كما أن ذلك سيساعدني ..

سكت فسألت :- في ماذا ؟

نظر لعينيها قائلاً :- في القرب منكِ ورؤيتكِ دائماً !

حركت يديها حركات عابثة بتوتر قائلة:- لا تنسيني أهم شئ !

- وما هو أهم شئ؟

- الشئ الذي تناولته!

- حبوب الهلوسة.. قالها ضاحكاً، فقالت في صدمة :- من أين لك بها؟!

قال في أسى :

- وجدتها زوجة خالي مع ابنتها، ولا أعرف ماذا أفعل، لقد مللت من الحديث معها، لا أريد لخالي أن يعرف..

ربتت على يده عندما انفعل وقالت بطمأنة :- أستطيع حل الأمر إن شاء الله، أعدك بذلك، ثق بي فقط!

نظر لها برجاء فأكدته له ، ثم قالت بابتسامة مشجعة :- أريد أن أمسح كل ما فات ما رأيك؟

أومأ برأسه وقد شعر ببعض راحة بحدوث ذلك ثم قال :

- أريد ذلك أيضا ، لكن لن نتذكره حتى في خلافاتنا !!

قالت بصدمة مصطنعة :- وهل تفكر في خلافنا الآن ؟

ضحك قائلاً :- أبداً أبداً !

سكتت واستكانت على ذراعه لدقائق أخرى، ثم قالت :

- تعلم أنني مجنونة، أليس كذلك؟

- بل زعيمتهم ! قالها ضاحكاً فقالت :- هل تقبل بي زوجة لك!

لا ينكر صدمته التي أخرسته لدقيقة كاملة، ثم قال بابتسامة حاول إخفائها :- دعيني أفكر!!

ابتعدت عنه وقد أخافها سكوته وصدمها جوابه فقالت :- ماذا؟ تفكر؟ هل أنت جاد في ذلك؟

- موافق على أن تكوني أما لسيف فقط!!

- ياسين!!

- سأفكر ليومين!

- ياسين!

- ثلاثة!

- ياسين!

وقف فتمنت أن يقطع لسانها قبل أن تنطق، ولكنه عاجلها وهو يشدها ليرفعها إليه وعانقها بشدة ثم قال :- وهل ظننتِ أنني قبلتُ بكِ يوماً أقل من ذلك؟

أحاطته بذراعيها ووضعت رأسها على قلبه ثم قالت :- وتقبل بي أمًّا وابنة لكَ؟

تنهد بقوة وهو يشدد عناقه قائلاً :- أقبل!! على أن تقبلي بأن أكون حياتكِ كلها!

كانت هي من شددت ضمها قائلة :

- لقد قبلتُ بكَ في كل حالاتك ، حتى عندما أخبرتُكَ أنك فقط أباً لسيف ، كنت أتمنى إخبارك بأنك أب لي قبل سيف !! بل شريك روحي الذي لن أتنازل عنه !!

****

نظرت ميرا في هاتفها لتعرف الساعة ، وقد أنهت عملاً مهماً ليومها ، فاتجهت بابنها لمحمد في الجامعة ، لا تنكر أن شيئاً بداخلها تحرك بجانب اشتياقها له ، أرادت مراقبته كما كانت تفعل قبل زواجها به ، لثلاث سنوات لا تفعل شيئاً سوى التواجد أينما يوجد ومراقبته كمخبر شرطة، تحترق من الغيرة لو رأت امرأة قريبة منه ، وهي لا حق لها فيه، ولا حق للاقتراب منه !! تبكي قهراً وكمداً لحالها!

زفرت وهي تسير في أروقة الجامعة ، لماذا تذكرت تلك السنوات ؟ وجدته يقف مع فتيات ، فكتمت شهقتها وهي تتابع كأنها وجدته متلبساً بجريمة ، لم تبصر عيناها أولئك الشباب الذين يجاورونهن ..

توقفت لثوانٍ معدودة قبل أن تتجه نحوه بخطواتٍ ثابتة ، حتى اقتربت ففشلت في رسم ابتسامة رداً على ابتسامته الواسعة التي قابلها بها ، وزادت اتساعاً وهو يتناول عليّاً منها قائلاً :

- مفاجأة رائعة، اسعديني بها كل يوم !

شئ من الاطمئنان بدأ يتسرب لها ، وهي تراه يرحب بها منشغلاً عن طلابه ، ورأت أخيراً أن الجمع المحيط به ليس فتيات فقط ، ثم عاد للحديث معهم لدقائق قليلة ، حتى انتهوا وغادروا !

فنظر لها بجدية قائلاً :- هل حدث شئ؟

ابتسمت قائلة :- لا أبداً!

- ولكن يبدو على وجهكِ حزناً ما !

- أنهيت عملكَ؟!

أومأ بإيجاب فقالت :- لدي مفاجأة ، هيا بنا !

لم يتوقفا عن الحديث حتى وصلا كانت قد نسيت أمر غيرتها ، وهي تدخل وتطلب منه الجلوس في مقعد يعرفه فابتسم قائلاً :

- انتظري ! قبل أن أرى شيئاً ، لم أصلِّ الظهر ، وجائع جداً !

تمتمت بضيق :- تفكر في معدتك كثيراً !

ضحك وهو يتجه لغرفته قائلاً :- انتبهي لعلي، ثم أنكِ لن تتعبي في شئ، ستسخنين الطعام فقط!

صلى وأكلا ونام ابنهما ، ثم قالت :- لتجلس الآن ! أم أن هناكَ شئ آخر !

اتجه بهدوء لمقعده قائلاً :- ها قد جلست ، لنرى إذاً !

ابتسمت واتجهت لتجهيز الكاميرا ثم شاشة العرض المعلقة على الحائط وقالت بسعادة :

- أخبرني رأيك في كل صورة تراها ، اتفقنا !!

أومأ بابتسامة ، فبدأت تعرض الصور ، وهو يعلق على كل واحدة بإطراء أعجبها ، حتى وصلت لواحدة أخفتها سريعاً ، فوقف قائلاً :- انتظري !

لم تعود إليها ، فأعادها هو ، ثم نظر إليها وضحك كثيراً بصورة أثارت غضبها ثم قال :

- ما هذا ؟ إنها أسوأ من أن يقوم بها مصور مبتدئ !

- والآن ستترك كل ما فات لأجل خطأ صغير !

قبل رأسها ثم عاد قائلاً يشاغبها :- أحب استفزازكِ فقط !

ابتسمت قائلة :- لأنني لم أريكَ المفاجأة بعدُ ، سأتجاوز عن ذلك !

اتسعت ابتسامته وهي تعرض الصورة التالية فقال بشبه غضب ناظراً لصاحب الصورة :

- من هذا ؟

- إنه رجل !

- حقاً ، وماذا يفعل هنا ؟

نظرت له بشدة ثم للعجوز صاحب الصورة قائلة :

- محمد ! إنه تجاوز المائة عام من عمره ، هل تغار من رجل في سن جد جدي !

قال متلاعباً :

- وما المانع في ذلك ، فأنتِ تغارين من أمكِ وأخواتي اللائي بمثابة أمهاتي !

- تردها لي إذاً !

أومأ فقالت بغيرة :

- أنا لا أغار من أحدٍ ، أنا فقط أخشى أن تأخذ أي منهن مكانتي عندك ! كما أنني لا أقصد الغيرة قط ، ما يحدث يكون رغماً عني !

ابتسم وهو يتجه نحوها قائلاً :

- ثقي دائماً أن مكانتكِ عندي لن تكون لأحد غيرك ما حييت ، وحبي لهن ليس أبداً كحبي لكِ ، هن أخواتي ..

قاطعته وهي تضع أناملها على فمه قائلة :

- محمد ! ماذا فهمت ؟ أنا أعرف جيداً قيمتهن عندك ، ولم أطلب منك أبداً أن تقللها ، أخبرتكَ أنني أخاف فقط !! وخوفي لا يعني أنني أشك فيكَ ، هو محض خوف ليس لي يد فيه !!

ثم تنهدت قائلة :- عد إلى مكانك ، هناك قصة طويلة لهذا الرجل ..

عاد فبدأت تتحدث وهي تنتقل من صورة لأخرى :

- هذه له ، لنتجاوزها لأنكَ بالطبع تغار عليّ . هذه له وزوجته ؛ انظر لهما ! تخيل أنه يعشقها إلى الآن ، إنهما معاً منذ ثمانين عاماً ، كما أنهما بصحة جيدة !

أما هذه فعائلته كلها ، خمسة أجيال ، وهذه مع حفيده الأخير في الجيل الخامس ! يمتلكون بيتاً كبيراً يضمهم جميعهم !

قاطعها مندهشاً :- هنا في أمريكا ؟

ضحكت قائلة :- أنا أيضاً استغربت الأمر ، ولكن المستحيلات ربما تحدث !

فقال :- أتعرفين فيمَ أفكر ؟

ابتسمت وهي تقول :- الأجمل أن أنفذ فكرتك !

ثم حركت الصور وهي تكمل :- تحدثت معهما كثيراً ! ثم تنحنحت وهي تقول :

- ومعه خاصة ! لا تغضب ، فقد كان في حضور عدد من عائلته ولكنهم لا يسمعوننا !

ثم نظرت له لترى أثر ما قالت عليه ، وجدت وجهه خالياً من أي انفعال فذهبت نحوه بابتسامة ، ثم انحنت مقبلة رأسه قائلة :

- إنه جد جدي لا تنسَ ، ثم انتظر المفاجأة التي تفكر فيها ، كما أنكَ تثق أنني لم أرتكب خطأ !

صر على أسنانه قائلاً :- أكملي ! ماذا حدث مع جد جدي ؟

ابتسمت وعادت لتكمل :

- وجدته يملك عقلاً حكيماً ، فبدأت بالحديث معه عن الإسلام ، وكان الأمر قبل سفرنا لألمانيا بفترة ، وتعددت زياراتي لعائلته ، لأجل التصوير بالطبع والحديث معه ، لم أخبرك أنه جاءني لمحل عملي وزوجته ليطلبان مني أن أصور عائلتهما كاملة ليتحدث التاريخ عنها ..

قال :- لم تخبريني بذلك من قبل ، رغم أنكِ لا تخفين شيئاً عني ..

ابتسمت :

- لأنني أردت أن أفاجئكَ بأن اليوم أسلم السيد بون ! هذا ما فكرتَ فيه أنتَ ؟ إنه الشخص المؤثر في العائلة ، وإسلامه يعني دخول معظم عائلته الإسلام إن لم تكن جميعها !

ثم أكملت بابتسامة توشي بالغيرة :

- كما فعلت أنت مع أمي ، وأهديتها عدة كتب تتحدث عن الإسلام لأنها الشخص الأكثر تأثيراً في عائلتي ، كما أهديتها وردة حمراء ة وعطر !!

ضحك بشدة وهو يقف قائلاً :- ما يزعجكِ الآن ، الوردة الحمراء والعطر .

نظرت للشاشة لتخفي غيرتها الظاهرة فاقترب منها قائلاً :

- ألن تسمحي لي بتهنئتكِ على إسلام السيد بون !

فقالت :- بوردة حمراء وعطر !

ضحك لمرة أخرى وهو يحيطها بذراعيه قائلاً :- بأجمل من ذلك ..

فنظرت إليه لتقول :

- والآن ، ستأتي معي غداً لزيارته وزوجته التي على وشك الدخول في الإسلام ، لترى كم يعشق زوجته العجوز !

نظر لها بنصف عين قائلاً :- والآن هل تشككين في حبي لكِ ؟

بكى علي النائم فقالت وهي تبتعد :- الجيل الخامس سيثبت أو ينفي ذلك !

****

توضأتُ واتجهتُ للقبلة أصلي، ومن قلبي هتفتُ الله أكبر، فنسيتُ كل شئ حينها، واستحضرتُ عظمته في عقلي قبل قلبي.

لا أعلم إن كان ما يحدث لي شيئاً طبيعياً وكل من يصلي يحدث له ذلك، أم أنني فقط، فبمجرد دخولي في الصلاة أشعر بثقل في لساني، ولكنه ليس بالشئ السئ، فقط يكون لعظمة ما أقرأ ..

فأول شئ علمتني إياه ديانا " سورة الفاتحة "، إنني عاجزة عن وصف ما أشعر به حين أتلوها..

اقرأها وأخبرني ماذا حدث لك :

((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ))

كلما تذكرتُ أفكاري السابقة ، وكيف كنت أفعل وأتحدث وأجاهر بالأمر ، تذكرت فوراً تلك الآيات ، كلها رحمة ، وكأن الله يكرر لي أنا رحمته في كل آية ، أتتخيلُ ذلك ؟

يا الله ! لقد تركت الكتابة الآن وتأملتها مرة أخرى ، **بسم الله الرحمن الرحيم** ، أصبحت أرددها في كل شئ أقوم به ، أسمِ اللهَ قبل أن أبدأ ، رحمن هو رحيم !

الحمد لله رب العالمين ، أقرأها وأتوقف ، وأردد أيضاً الحمد لله ، ثم رب العالمين ، سأخبركَ بسرٍ لا تخبر به أحداً كنت قد سمعتها منك تلك السورة أثناء صلاتك برحيق ، وعندما قلت رب العالمين تساءلت لمَ لا يكون رب المسلمين فقط الذين يقرون بوجوده ، ولكن الآن فهمت ما لم أكن أفهمه ، فهو رب الناس جميعهم وخالقهم كلهم ، وخالق كل ذرة في هذا الكون العظيم .

الرحمن الرحيم ، لمرة أخرى أشعر أنني ملكت الدنيا وهو يبشرني برحمته !

مالك يوم الدين ، هنا سيتوقف عقلي عن إيجاد كلمة مناسبة ، ولكنه يخر ساجداً أمام مالك هذا اليوم ، رغم خشيتي من ذلك ، فأنا أقر برحمته كما قلت ولكن مازال بداخلي خوف لا أعرف سببه ، ولا أعرف إن كان طبيعياً أم لا ، أخشى أن يكون خوفي سوء ظن وأنا ما قصدتُ ذلك !

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، وهنا يرتجف قلبي، وأعجز عن استكمال صلاتي بسبب بكائي ، ولا أعرف ما العمل ، أعيد الصلاة كثيراً ، حتى أتوقف عن البكاء ، فلا أعرف أي فساد كان بعقلي لأنكر حاجتي له ، وحاجتي لعبادته والاستعانة به ، والاستغناء به عن كل الناس .

اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ، هذا الدعاء بالذات أشعر بإجابته معه ، فلولا هدايته لي لما أصبحتُ كما أنا الآن ..

تمنيت أن أخبركَ عن شعوري بالصلاة كلها ، ولكن لم أعد قادرة على الكتابة ، يبدو أنني أدمنتها ، سأقوم للصلاة ، وحين يكون لدي وقت سأكتب لكَ مرة أخرى ، لا تنساني من دعائكَ دائماً !

لم ترسلها ، هي فقط تحب أن تكتب عن كل شعور ، ترسله أحياناً لمالك وأحياناً لا تفعل ؛ إذ تشعر أنه شئ خاص بها ، ولكنها دائماً تتوجه بالحديث لمالك !

رفعت أناملها لتوقف انهيار دموعها ، ثم ذهبت لتتوضأ ، شعور بالطهارة كامل يغزوها ، إذ تشعر بأن أفكارها تصفى ، وقلبها يهدأ ، تشعر بأعضائها تستكين وكأنها تخلق من جديد .

بعد كل وضوء ، تشق ابتسامة شفتيها ، وتدخل سعادة غريبة لقلبها ! وتتمنى لو تحلق في الفضاء وتطير بلا أجنحة ، أو قوة دفع فتكفيها قوة دفع قلبها .

لم يكن هذا وقت صلاة ، فكانت في الغالب تجلس قريبة من ديانا وتنتظر أن تسمع صوت هاتفها يزف إليها بشرى " الله أكبر .. الله أكبر " فيدق قلبها بنشوى استعداداً للقاء !

خرجت لتبحث عن ديانا ، فوجدتها تقرأ في كتاب ولا تشعر بأي شئ حولها ، فاقتربت منها قائلة :- ألا توجد صلاة الآن ؟

انتبهت ديانا لها ثم قالت :- هل صليتِ العصر ؟

أومأت بنان فقالت ديانا :- لم يتبقى سوى ساعة على المغرب .

وكأنها تقرأ أفكارها أكملت :- يمكنكِ ترديد الأذكار الآن !

ابتسمت بنان قائلة :- سأفعل ، ولكن سأحضر طعاماً أولاً !

وقفت ديانا قائلة :- لنقوم بذلك معاً ..

شغلت الإذاعة تبحث عن برنامج تسمعه أثناء التحضير فقالت بنان :- انتظري ، سمعت شيئاً ..

ابتسمت ديانا وقالت :- لا تقولي أنكِ تريدين سماع هذين !

وتوقفت على إحدى المحطات فأومأت بنان بإيجاب مبتسمة ، ثبتتها ديانا واتجهت للمطبخ وهما يسمعان ..

- أنا أرى أن السبب في ذلك الإسلاميين الذين ملأوا العالم دماراً وإرهاباً !

- براون توقف عن ذلك !

- لن أتوقف عزيزي ، لا تنكر أنهم السبب ، وهل نسيت ١١ سبتمبر !

- ماذا ؟ وأنتَ هل نسيت العراق وفلسطين كمثال واحد فقط من الكثير ، أم أعدد لكَ ما بقي !

- لم أنسَ وأنا لا أقصد أولئك العزل بالإرهاب ، بل أقصد قادتهم !!

- لا ، لا تجمل كلامك لكسب تعاطف جمهورك ، الأمر ليس به تصنيف ، وكل جماعة كما فيها جيدها فيها خبيثها ، والمسلمون بشر ، قد يخطئون ، ويرتكبون الجرائم لأنهم بشر ، ولكن هذا لا يعني أن الإسلام يأمرهم بذلك ! أنتَ مثلاً ، هل يأمركَ دينكَ بـ ..

بدا سكوت الاثنين وكأن الأخير سيذل لسانه فلاحقه الأول قائلاً :

- وأنا لم أقل أن الإسلام دين الإرهاب ، بل المسلمين !

- ليس جميعهم !

وكأنه انتصر فقال :- إذاً فأنتَ تقر بأنهم إرهابيون !

- براون ! لا تتجاوز حدودكَ ، لأنك تعلم أنني لو تحدثت عن الأديان فلمن ستكون الغلبة ، خاصة إن تركنا الحكم لمستمعينا !

- أتعتقد ذلك آدم ؟

- هل تقبل التحدي ؟

توقف الصراع لفاصل إعلاني ، فقالت بنان منبهرة :

- يا إلهي ! ماذا يحدث ؟

ضحكت ديانا قائلة :

- دعكِ منهما ، كنت أتابعهما قبل عودتي لبريطانيا، إنهما صديقان حميمان ، ولكن هذه نقطة خلافهما الوحيدة ، كل منهما يدعي أنه متمسك بدينه ويدافع عنه ! وهو أبعد ما يكون عن معرفته بالدين ! ولكنني أشعر بسخافة البرنامج، رغم أنهما مذيعان قويان جداً، قد ينقصهما معدٌّ بقوتهما ليصل بهما إلى الانبهار الذي تبحثين عنه!

سألت بنان :- هل تقصدين أن أحدهما مسلم !

أجابت ديانا :- نعم ، إنه آدم صالح ! كيف أقمتِ في لوس أنجلوس لفترة ولم تعرفي به ؟

- أهو بهذه الشهرة؟

- بالطبع ، وبراون ديل أيضاً مشهوران جداً ، ولكن لا أحد يعرف شكلهما ! وقد يكون هذا السبب في شهرتهما !

تركت بنان ما في يدها وهي تقول :

- أخبريني بسرعة قبل أن ينتهي الإعلان ، براون هذا مسيحي ؟

- نعم !

- وما سر شهرتهما ؟

- كما أخبرتكِ غموضهما سر شهرتهما ، فكل من يتابعهما يتوق لرؤية هذين الرجلين وخاصة النساء ، ولست أنا منهن ..

ضحكت بنان قائلة :- لماذا ؟

ابتسمت ديانا قائلة :

- إجابتي ستجعل لساني بحاجة إلى عقاب ، وخاصة إن تعلق الأمر بشخصيهما !

قاطعهما عودة البرنامج :

- والآن اتفقت أنا وآدم على أن نتجنب الحديث عن الأديان مرة أخرى حتى نحافظ على صداقتنا!

ضحكت ديانا قائلة :- كل مرة يقول هذه الجملة .

فدخلت بنان في نوبة ضحك وهي تذهب لفتح الباب الذي للتو رن جرسه!

****

فاجأته مكالمة من أمه أثناء نومه، فبدل ملابسه وخرج إليها وجدها تجلس في سيارة أبيه تشغل مقعد السائق، فاتجه نحوها بنعاسٍ قائلاً :- أمي ! ماذا تفعلين هنا؟

نظرت إليه سارة بعتاب قائلة :- ألم أخبركَ ألا تنام في هذا الوقت!

جلس جوارها قائلاً :- شعرتُ ببوادرِ صداع خفت أن يزيد فنمت !

شغلت السيارة قائلة :- مالك ! سأعاقبكَ الآن !

ابتسم وهو ينظر لها قائلاً :

- وهل يوجد عقاباً أقسى من هذا؟ هل ستقودين بي؟ ستنقلب السيارة بنا!

ضحكت وهي تقول :- اربط حزامك يا فتى !

فعل وهو ينظر لها ، وبين كل حين وآخر يوجه قيادتها ، ويحذرها ويقلق ، ويطلب أن تبطئ سرعتها تارة وأن تزيدها أخرى ، فهي لم تقود سيارة منذ سنوات ، ولم ينتبه لأي طريق تتجه ، حتى وصلا ، هتف براحة :

- الحمد لله ، انتهت الرحلة بسلام ، أثناء عودتنا سأقود أنا !

تركت السيارة قائلة :- وقد لا نعود ، هيا !

ترجل من السيارة وهو يقابلها ليعلق ذراعها في ذراعه قائلاً :- إلى أين ؟

نظرت أمامها فنظر لما تتجه إليه عيناها قائلاً :- هل ستزورين مريضاً هنا !

لم تجيبه وهي تشده ليوازي خطواتها قائلة :- بل سأعاقب مريضاً هنا !

٢١

بين الحياة والموت

اتجهت بنان حيث تقف ديانا لتعد طعاماً لهما ثم قالت باستغراب :

- ديانا هناك امرأة تريدكِ بالخارج !

تركت ديانا مافي يدها، وخرجت ترحب بامرأة محجبة لا تعرفها، أدخلتها والغريبة ما زالت تعتذر عن زيارتها المفاجئة فردت ديانا بأريحية :- لا عليكِ، تفضلي بالجلوس!

جلست وجلستا أمامها فابتدأت كلامها قائلة :- أتمنى ألا تنزعجي عندما تعرفين من أكون؟

ابتسمت ديانا وهي تنظر لبنان بتساؤل، فقالت الغريبة :- أنا لينا، زوجة عامر !

أغمضت عينيها مباشرة وكأنها أصيبت بشئ كالطرق على رأسها ، ثم فتحتها وهي تقول بتماسك :

- بوركَ زواجكما ! لماذا أنزعج ، فأنتِ مرحبٌ بكِ على كل حال !

نظرت لينا لبنان باضطراب فأنقذتها وهي تقف قائلة :

- ما رأيكما في الشاي الأخضر ؟ أعتقد أنه جيد !!

ثم رحلت عنهما ، فقالت لينا :

- سأدخل في الموضوع مباشرة ، تزوجت عامر منذ شهر ونصف ، ولكن حياتنا لا تسير على مايرام ، فأنتِ تقفين بيننا .. ثم اعتذرت وهي تكمل :

- لا أقصد أنكِ السبب، بل ما فعله بكِ عامر ، هو لا يستطيع أن يعيش سعيداً وأنتِ لم تسامحيه بعد ، لذلك جئتُ إليكِ الآن ، أطلب منكِ مسامحته !!

أخرستها الصدمة وهي تفكر فيمَ قاله لها ، لقد حفظت الأمر بينهما ولم تخبر أحداً بعيوبه ، أو بمَ كان يفعله بها ، لم تخبرهم عن ضربه لها وإهاناته المتكررة ، وهو يضيع كرامتها أمام زوجته بمنتهى السهولة !! بتناثر قالت كلماتها :- بأي شئ أخبركِ؟

فردت لينا :- أنه كان زوجاً سيئاً لكِ وظلمكِ كثيراً!

- أهذا كل ما قاله؟

أومأت لينا بترقب ثم قالت :

- صدقيني هو تغير كثيراً، ويتمنى لو دار به الزمن حتى يمنع نفسه من كل ما فعل، كما أنني لم أستطع أن أخبره بحملي لتوتر العلاقة بيننا!!

- أنتِ حامل؟

أومأت لينا بإيجاب، وهي تنتظر ردها، فديانا تشعر بانهيار، لا تعرف سببه ، أهو ظلمه لها أم لأنه أخبر زوجته؟ أم لأنه سيصبح أباً؟ أم لأنها تشعر بغيرة؟ وقد يكون السبب خيبة أملها في أن تعود له زوجة، أو أن يكون السبب في أنها أهانت نفسها حينما فكرت به زوجاً للمرة الثانية، على كلٍ لن تنهار أمام زوجته.

بابتسامة تخفي انهيار كل ذرة فيها قالت :

- أنا سامحته بالفعل، ولم أعد أحمل في نفسي شئ تجاهه، ومبارك الزواج والحمل مرة أخرى..

- حقا؟

أشارت ديانا برأسها موافقة وهي تتمنى أن تغادرها الآن، أن تنفرد بنفسها ولا يقترب منها أحد، رحمتها لينا وهي تقف قائلة :- سأغادر الآن وآسفة مرة أخرى على إزعاجي لكِ!

وقفت ديانا محاولة رسم ابتسامة وهي تودعها، حتى خرجت وأغلقت الباب خلفها ، وآن أوان الانـهيار !

تحركت نحو غرفتها ببطء، وهي تمنع دموعها التي خانتها وهطلت بغزارة، حتى شهقاتها العنيفة لم تستطع التحكم فيها، ولم تمنعها بنان مم تفعل، بل عجزت عن مساندتها.

انكبت على فراشها وانخرطت في بكاء مرير ، ونشيج مؤلم ، وأطالت في العويل ، من غير سبب تعلمه، فعامر لا تريده زوجاً، فترة زواجها به نسيتها بالفعل، زوجته لم تجرحها، ما سبب بكائها إذاً، لا تعلم!

وقفت بنان على بابها، تسمع صوتها وتراها، تبكي لبكائها، وعاجزة عن التقدم تجاهها لخطوة واحدة.

****

تحركا في أروقة المشفى، يتمازحان ويضحكان متناسين ما جاء بهما إلى هنا، حتى رأت سارة رجلاً فقالت لمالك :- هذا هو الطبيب!

نظر مالك له ثم نظر لها وهو يقول غامزاً :- زوجكِ لا يطيقه، لا تقتربي منه!

ابتسمت وهي تتجه نحوه قائلة :- صحة ابني أهم من آراء زوجي في الناس!

ضحك وهو يسير معها ، مستنكرا لما تفعله ، فهو يستطيع زيارة الطبيب وحيداً ، واستشارته فيمَ يعاني ! لماذا تجبره على فعل ذلك ؟ هو ليس قلقاً بشأن الألم!

لم تتغير ابتسامته ، أثناء الفحص والحديث مع الطبيب ، كأنه آتياً مع معشوقته يحدّث الطبيب ولا ينظر لسواها!

أنهى فحصه ثم خرج معها وهو يقول :- والآن هل انتهى عقابي ؟

ابتسمت عيناها له قائلة :- وهل يزعجكَ العقاب؟ اليوم كله لي، أريد التجول معك، والتسوق قليلاً، والعشاء معكَ أيضاً!

انحنى أمامها قائلاً :

- مولاتي تأمر وأنا أطيع، ولكن بشرط، أن أكون سائقكِ الخاص! فأنا أخشى أن يقصف عمري.

ضحكت وهي تضرب ذراعه قائلة :

- ليكن ذلك ، هيا بنا !

فرحا كثيراً وضحكا أكثر ، ونسي ألم رأسه الذي كان يهاجمه ، حتى موعد العشاء ، دعاها لمطعم اختاره ، وجلسا يتحدثان كثيراً قبل أن يأكلا ، وحين حضر الطعام فاجأه قدوم والده نحوهما ، فهمس لسارة :- ما هذا ؟ ألا تستطيعي الابتعاد عن زوجكِ لساعات قليلة ؟

ابتسمت وهي تهمس مثله :

- إنه مسكين، لا يستطيع أن يأكل دوني؛ فهل ترضاها لرجل مثل أبيكِ !

ضحك ثم همس :- لو مثل أبي أرضاها!

ثم تنحنح وهو يعتدل واقفاً ، ثم ترك مقعده لأبيه وهو يقول بشبه ابتسامة :

- سأجعله قريباً منكِ ، حتى لا أكون سبباً في إزعاجكِ!

ابتسمت وهي تراه يجلس مقابلاً لها ، ثم أومأت بابتسامة لعمر الذي جلس ثم تحدث إلى مالك بحديث أدهش الثاني ، بينما تحدث الأول كأنه يفعل شيئاً معتاداً عليه !

- لا تكن متصلباً !

هكذا هتف مالك في نفسه أثناء الطعام، فإن كان أبوه يفعل ذلك بدافع منه أو من سارة، فليس عليه أن يقسو أو يتعسف، ليكن مرناً بعض الوقت، لم يكن الوقت مناسباً لقول ذلك أو كان، لا يعرف..في غمرة حديثهم قال :

- تعلمان أنني كنت أحب دراسة الإخراج؟

ابتسمت سارة قائلة :- وكيف ننسى ذلك ، هل تفكر بدراسته مرة أخرى ؟ إنه لشئ رائع !

ابتسم مالك وعيناه تترقب رد أبيه الذي ضحك رداً على سارة قائلاً :

- إنه يسأل فقط ، أم أنكِ توقعت بقية الحوار؟

- وتوقعها صحيح!.. قال مالك، فهدأت ابتسامة عمر، وهو ينظر له قائلاً :

- ولكن مهارتك في العمل تحسنت!

- ومازلت لا أجد نفسي فيه!

- وهل ستترك هذا المجال بعد سنوات الدراسة والعمل وتضيع منك هباء؟

رد مالك بمهادنة :- لن تضيع؛ من المؤكد أنني اكتسبت خبرة من الدراسة والعمل ستفيدني في حياتي.

ربتت سارة على يده قائلة بحنو :

- معك كل الحق؛ أن تحاول فعل ما تحب أفضل كثيراً من أن يضيع عمرك في فعل ما لا تحب!

نظر لهما عمر بحيرة ولم يملك إلا أن يقول :

- رغم أنني سأفتقد وجودك معي، إلا أنني سأبقى جواركَ دائماً متى احتجتني!

حملق فيه مالك ، ثم نظر لأمه التي اتسعت ابتسامتها وعاد لأبيه قائلاً :

- ألا يغضبكَ الأمر؟

ابتسم عمر لردة فعله قائلاً :- لم يعد في العمر بقية ، لأغضب وأسيطر ، إنها أيام !

- عمر !!

قالتها سارة منزعجة ، ثم وقفت قائلة :- هلّاعدنا الآن؟

ثم سبقتهما للخارج ، فقال عمر :- بما أنها دعوتك ، انهِ الحساب والحق بنا !

عندما لحق بهما ، وجدهما يجلسان في المقعد الخلفي للسيارة وقد ابتسمت أمه فارتاحت ملامحه القلقة وهو ينظر لهما قائلاً :- أستطيع العودة وحيداً إن شئتما !

قالت أمه ضاحكة :- أكمل مهمتك ، لقد وعدتني أن تكون سائقي الخاص لهذا اليوم !

- علم وينفذ سيدتي ؛ قالها وهو يتخذ من مقعد السائق مجلساً ..

****

بعد خمسة أيام زارتها رحيق ، تتمنى لو تقتل هذا الشعور في قلبها بقدر ما تتمنى أن يبقى ، لم تخبر ياسين بشئ ، وهي تطلب منه أن يذهب بها لديانا ، رغم شعوره بخطب ما بسبب اضطرابها ، إلا أنها طمأنته بأنها زيارة عادية .

وفتحت لها بنان فعرفت أن شعورها صادق ، حيث وشى وجهها بكل شئ ، فسألت رحيق بعد السلام بقلق :- كيف حالكما ؟

- بخير!

- أين ديانا؟

سكتت بنان لثوانٍ ثم قالت :

- في غرفتها ، رحيق أنا أخشى عليها بشدة ، ولا أعرف ماذا حدث لها ؟ تحدثي معها أرجوكِ !

اتجهت لغرفتها ، ودخلت مباشرة فلا مجيب لطرقاتها ، وجدتها في وضع الجنين على فراشها ، اقتربت بتوجس منها ، ثم همست :- ديانا ، أأنتِ نائمة ؟

رفعت ديانا نظرها إليها ، ثم اعتدلت جالسة وهي تقول بصوت أبح :- تعالي رحيق!

أفسحت مكاناً لتجلس جوارها فربتت على يدها قائلة :- ماذا أصابكِ ؟

- لا شئ ، لا أعرف ماذا حدث ؟

أحاطت كتفيها بذراعها قائلة :- هل أخبركِ بخبر سعيد ؟

ابتسمت ديانا وقالت :- ليتكِ تفعلين !

- لقد تزوجت ياسين !

- ماذا ؟

ضحكت رحيق ثم قالت :

- اه .. ليس هذا ما سأقول ، بل لقد قررت أن أعمل مع ميرا .. وأعود للكاميرا مرة أخرى ..

نظرت ديانا لها ، وابتسمت ثم قالت :- مبارك لكِ ، الخبر الأول والثاني !

- أخبريني إذاً ما الذي فعل بكِ كل ذلك؟

ببساطة قالت :- لقد تزوج عامر !

- وما الذي يضايقكِ في ذلك ، أعتقد أنه أمر جيد ، لقد تخلصتِ منه أخيراً ولن يقترب منكِ أو يفرض نفسه عليكِ !

هذا شعورها ، فقالت كثيراً ، وقصت زيارة زوجته لها ، ومازال سبب انهيارها مجهولاً ، فابتسمت رحيق فجأة وهي تقول :

- لا يهمكِ شئ ، أريد أن أرى إشراقة الشمس في وجهكِ ، أم تريدنني أن أظهر غيرتي من شعرك الذهبي !

ابتسمت ديانا ببطء ، ثم قالت :- أين بنان؟

- لا أعرف.. ثم نادتها فأخذت وقتاً حتى أجابت ، وهي تتقدم نحوهما قائلة :

- كنت أستمع للبرنامج فلم أسمعكما !

لم تعلق ديانا وابتسامتها تتسع ، فمنذ ذلك اليوم وهي تتابع حلقات آدم وبراون يومياً ، بينما اقتربت منها بنان قائلة :- هل أصبحتِ بخير ؟

أومأت ديانا ، فجلست بنان تجاورها ، ثم قبضت على يدها بلطف وعيناها تبتسم ، وتحدثت معهما رحيق وقصت لهما حكايات سيف ، ومفارقات ياسين ، تكلمت عن الصيام إذ اقترب شهر رمضان ، وهنا تأهبت حاسة بنان لتستمع ولتسأل ، وشاركت ديانا في الحوار بكلمات بسيطة ، حتى عادت بنان لتقول مرة أخرى :

- ديانا ما رأيكِ في العمل مع آدم وبراون؟!

ضيقت ديانا عينيها بينما صدمت رحيق ثم هتفت قائلة :

- من ؟ وهل نفذت الوظائف حتى تعمل مع هذين ؟

ردت ديانا بابتسامة بطيئة :

- رحيق ، أنا أريد معرفة كل شئ عن آدم صالح ، كل صغيرة وكبيرة ، هل يمكنكِ ذلك ؟

- لماذا ؟

- لأمر في نفسي !

سمعْن الجرس ، فتوجست بنان وهي تتجه لتفتح ، حتى وجدت ميرا أمامها ، أدخلتها وهي ترحب بها ، وحين رأت رحيق مع ديانا صرخت بهما :

- تلتقيان دوني أيتها الخبيثتان ، قلبي لن يتحمل ذلك !

ضحكْن وضحكت ، وبدأت تحكي مغامراتها لهن ، حكت عن السيد بون وعائلته ، وعن رحلتها وزوجها لهم ، تحدثت عن مصر ، وعن تحسن علاقتها بأهلها ، تكلمت كثيراً حتى قالت :

- لقد تعبت من الحديث ، هل أصابكن صداع بسببي ؟

****

- هل اطمأن قلبكِ الآن ؟ ها أنا بخير ، ولن أموت بعد أيام معدودة .

- مالك !

ابتسم وهو يقبل رأسها قائلاً :

- آسف ، ولكن لا داعي لقلقكِ ، لقد أخبرني الطبيب أن كل شئ بخير ، ومازلتِ قلقة !

ربتت سارة رأسه قائلة :

- لا عليكَ من قلقي ، لا ترهق نفسك في التفكير أو العمل مرة أخرى..

أومأ وهو يضع رأسه على كتفها قائلاً :- لقد اقترب رمضان ما هي استعداداتكِ له ؟

- هاتِ ما عندك..

- يا إلهي ، لن أستطيع التمرد عليكِ ، ما رأيكِ أن ندعو بعض أصدقائنا لإفطار اليوم الأول ، ثم نصلي هنا ، أو مثلا نحول الجزء الخلفي من الحديقة إلى مسجد ، بالإضافة للغرفة التي حولتِها لمسجد هنا ، ومن الممكن أن نعد إفطاراً طوال الشهر لأناس لا نعرفهم ، أعتقد أن أبي قادر على ذلك ، دعكِ من هذا كله سنناقشه فيمَ بعد ، ولنتحدث عن دعوة اليوم الأول !

ابتسمت وهي تقول :- تريد دعوة من؟

تنحنح وهو يجيب :- رحيق وياسين ، محمد يوسف وزوجته ، ديانا وبنان ، وجهاد ..

- جهاد !

نظر لعينيها قائلاً :- نعم ، وما المانع ؟

قالت باستهجان :- لا امانع لدي، ولكن دعني أسهل عليكَ ما تريد، لا يجوز للأمر أن يتم بهذه الطريقة اتفقنا!

صمت لثوانٍ يفكر ثم قال :- اتفقنا !

ثم اعتدل لينام على فخذها قائلاً :- لا أعاني الصداع ولكنني أدمنت فعل ذلك !

ابتسمت ويدها تتخلل بين خصلات شعره .

****

تعددت زيارات رحيق لبيت خال ياسين، وتوطدت علاقتها ببناته، لم يكن الأمر بتلك البساطة بالنسبة للفتاة الكبرى، وهي لا تجيد التحدث مع فتاة بمثل سنها، مراهقة تدعي التمرد في بلد يدعو لحرية في كل شئ، تحاول أحياناً أن تخرجها معها، وتتجول معها، بدلاً من العزلة التي فرضها والدها عليها. لا تعلم كيف تورطت ووعدت ياسين عن ثقة أن الأمر سيحل بواسطتها، ولكن طالما وعدت عليها الوفاء، عليها الوفاء!!

****

عادت ديانا لعملها في النادي لتدريب الصغار بصحبة سيف، تشعر أنها تخلصت من ضغط عصبي بتخلصها من عامر ومسامحته، ولم يعد يقيدها شئ، حتى رغبتها في الأمومة تحاول أن تنحيها جانباً إذ ساورتها الشكوك بأنها قد تكون عاقراً، فها هي زوجته ستنجب، أما هي فلم تظهر أية بوادر لاحتمالية الإنجاب، سترضى بالأمر الواقع، وتسير في حياتها مهادنة!

وفي لقائها برحيق عرفت ما أرادت عن آدم، أخبرتها رحيق أنه تجاوز الثلاثين من عمره، هو الابن الوحيد لزوجين مسلمين، ولكنه يعيش منفصلاً عنهما، لا يعرف شكله سوى أصدقائه المقربين وفريق العمل، وبعض الناس الذين يرتادون الملهى الليلي الذي يجمعه بأصدقائه، له خطوط حمراء لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، لا يشرب الخمر وعلاقته بالنساء لا تتجاوز تهافتهن عليه الذي يرضي غروره، ومصافحة متكبرة منه، قد تتجاوز لعناق يتمنينه بالطبع، متميز جداً في عمله، وما اختفاؤه وبراون إلا لزيادة الشهرة وجذب متابعين أكثر لبرنامجهما، لم يراه أحداً يصلي، كما لم يراه أحدهم يشرب الخمر أو يقامر، الكبائر عنده حدود، تقريباً زياراته لوالديه قليلة، هو شخص غريب الأطوار في المجمل!

- أليس هذا شئ وقح منا؟!

ابتسمت ديانا وهي تنظر لها قائلة :- أن نراقبه تعني؟

أومأت رحيق قائلة :- لو عرف ياسين ما فعلت قد يطلقني للمرة الثانية!

ضحكت ديانا قائلة :- لا تقلقي، لن يستطيع فعلها، ثم أنكِ سألتِ فقط عنه، لم تراقبيه بنفسك!

- وماذا سيفيدك كل ذلك؟

- شئ في نفسي!

امتعضت رحيق ثم قالت :

- ولكنني لا أشعر براحة ، أولاً بسبب تجسسي هكذا على شخص ما ، ثانياً لأنه رجل ، ثالثاً أشعر بالذنب تجاهه ، رابعاً الأمر غامض جداً ، خاصة تفاصيل مثل أنه لا يصلي ولا يشرب الخمر ويتجنب فقط الكبائر ، تلك أشياء بينه وبين ربه ، ما شأننا نحن ؟

قالت ديانا بهدوء :

- لماذا كل هذا التوتر؟ الأمر بسيط جدا ، أريد أن أعمل معه ، ومن المفترض أن أعرف أخلاق الشخص الذي يرأس عملي.

- ولكن مال صلاته وحياته الخاصة؟!

- لا تقلقي عزيزتي، سأشرف على الثلاثين من عمري قريباً، وهذا يعني أنني أتحمل أخطاء نفسي!..ثم سكتت لبرهة وأكملت :- ولكن ألم تأتي بصورة له؟

وقفت رحيق قائلة :

- مؤكد أنكِ جننتِ، والأكثر تأكيداً أن ياسين سيعلقني من رقبتي إن علم بما فعلتُ!

ضحكت ديانا وهي تنظر لها قائلة :- منذ متى وأنتِ جبانة هكذا!

صرخت بها رحيق وهي تتركها وتغادر :- منذ عرفتكِ!

****

الصوم جنة.. اليوم الأول الذي أصوم فيه، بعد أن أشفقت ديانا عليّ كثيراً، لكنها مغامرة لطيفة، أن تحرم شخص شره للطعام مثلي مما ترغب، لأذكر نفسي بما نويتُ أولاً ..

* الصوم.. لأقوم بأحد أركان الإسلام، وأبلغ منزلة التقوى، أسأل الله أن يبلغك إياها وأنا أيضاً.

أتعلم أن صومك إن لم يصل بكَ للتقوى فما حققت صيامك! لقد بحثت في هذا الأمر كثيراً، إذ قال الله جل في علاه **((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ))**

الأمر أعجبني عندما عرفت تلك الغاية، أن تشعر بالفقراء، يا الله! هل يوجد من هو أرحم منه، لقد تأملتُ في الأمر أكثر من اللازم قد يبدو ذلك، ولكن فكرة أن تُحرم من شهواتك التي أحلها الله لك لسبب بسيط كهذا، وأسباب أخرى أجل شأناً؛ لهو الرحمة بعينها!

فأنتَ خرجت من الصيام بعدة أشياء أولها، أنك شعرت ببشر لا يملكون من المال ما تملك، وبذلك تسمو إنسانيتك فوق كل شئ، والثاني أنك علمت مدى قدرتك على كبت شهواتك – المحللة – فبالتالي أن تتخلى عن الشئ الحرام لهو في منتهى البساطة، فأنتَ في شهر كامل ربيتَ نفسك على المنع! كم هو رحيمٌ بنا!

ولا تنسَ التقوى!

* المغفرة .. علمتُ أن بصومي سيغفر الله لي ما تقدم من ذنبي، وهذا يعني أن كل ما فات قد محي تماماً أليس كذلك؟ " من صام رمضان إيماناً واحتساباً " تذكرها دائماً يا مالك!

* أن هناك بابٌ للجنة اسمه الريان يدخل منه الصائمون، وأنا الآن أعد مقاعدي في الجنة..

* الإخلاص .. وهذا ما أبحث عنه، إذ أن الصوم جزاؤه كله على الله، وهو خالصاً له!

نياتُ كثيرة نويتُها اليوم، ولكن لن أخبركَ بها كلها، فاقرأ كثيراً واعرف وحدك، ثم أخبرني عن شعوركَ وما نويتَه عن صومك!

أشكركَ على دعوتكَ، ولكن أتمنى لو تطهوَ لي بنفسكَ.

الصائمة بنان

****

حين أنهت خطابها لمالك ، خرجت مع ديانا حيث موعدها مع فريق العمل ، للقيام بمقابلة شخصية ، تمنت ديانا لو تمنعها خشية أن تمرض أو يصيبها إرهاق ، ليس بسبب الصوم كما تظن ، ولكن لأنها تخشى عليها بصورة مبالغ فيها ، كل مرة تنجذب غريزتها للأمومة نحوها، فهي أم لبنان ولا ابنة لها غيرها.

انتهى اللقاء بالطريقة التي رغبت، وفرضت شروطها كأنهم من بحاجة إليها، وليس العكس.

في طريق العودة صرخت بها بنان :- كيف فعلتِ ذلك؟

نظرت لها ديانا ثم ضحكت وقالت :- لم أفعلْ شيئاً !

- كيف ذلك ، رغم امتلاكي قدر كبير من الثقة إلا أنها لا تضاهي الثقة التي تحدثتِ بها .

- ليست بتلك الدرجة .

وقفت بنان ثم قالت :

- ولكن هذين الرجلين، هل يوجد مخلوقان هكذا؟ يملكان كل الحق في التخفي، فأنا لم أستطع أن أحيد بصري عنهما!

نظرت لها ديانا ثم قالت :- أتمنى أن ترينّ رجلاً ولا تتملقي فيه، كيف تكرهين الرجال إذاً؟

ابتسمت بنان قائلة :- قولي الحق ، هما وسيمان بالفعل، خاصة براون، أليس كذلك؟

سارت ديانا وهي تقول بابتسامة :

- بالطبع لا أعرف، فقد كنت أتحدث معهم جميعهم، ولم أدقق في وجه أحدهم حتى أحصل على الأخطاء العشر.

ثم أكملت وهي تشد يدها في كفها :

- أجلتُ الحديث في هذا الأمر حتى تتعرفي على الفروض ولكن لتأخر حالتكِ، سأخبركِ عنه.

- ما هو؟

- غض البصر! أمر للرجال والنساء سواء، قبل أن تعترضي!

ابتسمت بنان وهي تقول :

- أجليه قليلاً حتى ننهي الأركان، أكون حينها قد أعجبتُ برجال لوس أنجلوس كلهم!

ضحكت ديانا وهي تضربها على رأسها ، وعقلها مازال يعرض مقابلتها معهم ، تحب المغامرات وتعتبرها شيئاً من أولويات حياتها .

آدم وبراون، الفكرة طرقت في رأسها أثناء حديثها مع بنان عنهما، معِدٌّ جيد! فلمَ لا تكون هي؟ توقفت عن العمل في البرامج السياسية بعد أول برنامج أعدته، فقد علمت أنها لن تتحمل ما يحدث حولها، وصراخها يعلو ويعلو حتى بح صوتها دون تغيير في شئ.

ولكن ما يفعلانه أثار فيها شغفها، فما يفعلانه ليس برنامج سياسي على الإطلاق وإنما هو هزل سخيف رغم قدرتهما على فعل شئ جيد، ماذا تفعل؟ لا تستطيع أن ترى شيئاً خاطئاً وتسكت عنه.

آدم هذا ، مسلم وليس بمسلم ، تعلم أنها لا شأن لها بذلك ، ولكن ستفعل ما خططت له ، بالإضافة لهدفها في إصلاح فكرة البرنامج الهابط الذي يقدمانه .

هو تحدي أقبلت عليه ، وما اعتادت خسارة التحديات ! كل ذلك كان قبل لقائها بهما ، فهي إن أظهرت الثقة التي أقرتها بنان ، فكان ذلك لشعورها باهتزاز الأرض من تحت قدميها ، فقد اكتشفت صعوبة الأمر ، وفداحة ما أقدمت عليه ، ولم يعد للتراجع مجال !

ما الذي فعلته بنفسها ؟ هل ستغير الكون أم ماذا ؟ ولكن عليها التذكر بأنها قدمت للعمل لتحسينه ليس إلا ، رغم عدم راحتها لجمع النساء الموجود في العمل ، ولكن هي لن تختلط بهن ، بل لن تجتمع كثيراً بهن !

****

لم يتبقَّ الكثير على رفع الآذان ، وهي لم تمل من تكرار سؤالها :

- هل تشعرين بالعطش ،أو الجوع ؟ اصبري فقط !

وكل مرة تجيب بنان بنفس الكلمة :- لا أشعر بشئ صدقيني ! رحيق تنادي عليكِ !

أن تغرب الشمس بين أناسٍ كثيرين، تتوحد عبادتهم، وتهتف قلوبهم بشئ أثير، وينتظرون فرحتهم معاً، ثم تشق أصوات المؤذنين الأفق، وترتفع الله أكبر فوق كل شئ، هنا فقط تشعر بنفسها التي تاهت في الدروب طويلاً ثم استقرت على بابه موحدة، في هذه اللحظة تعلم أنها اتخذت من الصراط المستقيم طريقاً، وأنه - سبحانه - استجاب لها وهداها إليه!

نظرت للجمع حولها ، للعائلة التي إليها تنتمي ، بحبات التمر التي يتناولونها ، ثم الصلاة الجامعة التي يؤدونها ، وكأنهم يحققون أن بحبل الله اعتصموا !

اصطفوا للصلاة، ووقفت تتابعهم، وتتابع انتظامهم قبل أن تسير خلف ديانا ليصليان في الداخل، وككل مرة كأنها تصلي لأول مرة، وفي السجود تتحدث معه بكل شئ، تدعوه وترجوه، ببساطة ترتب كلماتها، ليست بحاجة لتعقيد أو تحزلق، هو يفهمها على كل حال، يراها ويعرف خفايا قلبها، تقدسه وتعظمه، تعبده وتستعين به، تدعوه وتسعى إليه، هو الله الخالق الرحيم بها.

- السلام عليكم ورحمة الله .. السلام عليكم ورحمة الله ..

قالها محمد الذي يؤم الرجال في الخارج، فسلم مالك خلفه ومن فوره انحنى ليرى أبيه الذي لم يرفع من سجوده الأخير بعد، نظر له ياسين بقلق، بينما التف محمد الذي ظهرت على وجهه حيرة عندما رأى مالك هكذا ثم قال :- هو بخير أكيد ..

لم يكمل حديثه إلا ووقع عمر على جانبه الأيسر، فارتعد مالك وهو ينظر لعينيه المغلقتين بشحوب في وجهه، ويتساءل هل أظلمت الحياة فجأة؟

٢٢

الحب دعاء

قالوا أن الفقد يطهرنا، ويمحي من قلوبنا كل ضغينة، وقالوا أن الحياة لا تحلو إلا بنار تذيب مرارتها، هكذا قالوا، وقالوا أن في الموت راحة لبعضهم، وعذاب بعدُ لآخرين.

- جلطة!

تمتم بها مالك بعد ساعات من الرعب عاشها، فخر جسده جالساً، وأيادٍ تربت على كتفه، بينما أحاط ياسين برحيق يحاول تهدئتها، وقام مالك بعدها يساند أمه، وجلس جوارها محتضناً إياها هامساً :- هو بخير ، لا تقلقي.

وحاول التبسم مكملاً :- مازال في عمره سنوات ، عجوزكِ بخير الحمد لله !

انكبت على صدره باكية وهي تقول :- لم أحتمل ما حدث ، لم أكن لأحتمل فراقه مالك ..

وتقطعت كلماتها ، فنظر لوجهها قائلاً :

- أمي بمَ تشعرين ؟ تعالي معي ، ليراكِ الطبيب ، أرجوكِ !

وقف يسندها وابتعد بها ناظراً لياسين بأن يهتم برحيق.

علم الآن أنهما أحب مخلوقان إليه وأحب الناس إلى قلبه، فها هو عمر محاط بأجهزة تحافظ على حياته، وها هي سارة معلق لها محلولٌ مغذٍ للحفاظ على صحتها، علم أن الدنيا لا تطيب دونهما، وعلم أنه قصر كثيراً في تحملهما وأباه خاصة، ماذا لو رضي منه سلوكه، وماذا لو أظهر له

الود حتى لو لم يجد منه الحب الذي تمنى، هاهو كان على حافة الموت دون أن يخبره كم يحبه، وكم يتمنى أن يصبح سبب سعادته وفخره!

أصر بكل قوته أن يكون مرافقه بعد أن اطمأن على صحة أمه، وأرسلها للبيت مع رحيق وزوجها، وذهب الجميع، وبقي مع أبيه وحيداً أليس من حقه أن يستمتع بقربه منه ، وبعطفه عليه ؟ حتى ولو غائباً عن العالم فهو أحق بأن يكون أقرب إليه من أنفاسه الآن !

يتمنى أن تنير عيناه وجهه في النظرة الأولى، وأن يكون هو أول من تقع عينه عليه، يبتسم له ويخبره أنه ينتظره ، ينتظر ابتسامته حتى وإن لم تكن له ، ينتظر صوته الحاني حتى وإن كان لغيره ، ينتظر صوته الغاضب له وأوامره الحازمة التي لا نقاش فيها، ليصحو الآن ويفعل، سيتحمل منه أي شئ ولكن ليبقَ سنده فى الدنيا!

وها هو يقف في جانبٍ بعيدٍ عن المارة يصلي ، ويدعو الله ويتضرع ، شعر بخزيٍ أمام نفسه أن أباه لم يكن في دعائه يوماً ، حتى أمه التي يحبها ويعشق وجودها لم يكن لها نصيبُ من دعائه ، عرف أنه غافلٌ عن عبادة الدعاء، غافلُ عن أشياءٍ كثيرة ، كيف يحبهما ويبكي الآن أملاً في شفائه ولم يدعُ له يوماً ، إنما الحب دعاء !!

لم يتذوق من الطعام شيئاً حتى الماء لم يطلْ فمه، وقد اقترب فجر اليوم الثاني، وبات لا يشعر بأي رغبة في طعام، لولا رسالة من أمه استحلفته بالله أن يتناول شيئاً ليقيم صلبه، ولأجلها فعل!

لم يكن حتى من المسموح لأحد بالمبيت في المشفى، لذلك جلس في استراحة بالخارج، ليكون أول من يصل إليه إذا ما استرد يقظته!

ومر اليوم الأول، وبدأ عمر بالعودة لعالمهم بعد الغيبوبة البسيطة التي تبعت الجراحة، ووجد ابتسامة مالك تنتظره، وأول شئ وقعت عليه عيناه، حتى أنه شعر أن له عمر جديد لمالك، وعاد للحياة فقط لأجل مالك، وحمد الله أنه نجا ليعوض مالك!

وفي الليلة الثانية باستماتة أيضاً أصر على البقاء، ولخروج أبيه من غرفة العناية الفائقة، سمحَ له بالمبيت معه في نفس الغرفة، وسهر على راحته لليلٍ طويل، وعندما هم بالابتعاد قليلاً لصلاة القيام قبل أن يرفع آذان الفجر همس عمر :- مالك !

جلس وهو يقول بلهفة :- أمركَ !

أكمل عمر همسه بين ضعف صوته وألمه قائلاً :

- اعتني ببنان ، هي أمانة في رقبتي ، لن أجبركَ على أن تكون أمانتكَ أنتَ أيضاً ! أعلم أنك ستفعل دون أمر مني !

انكب يلثم كفه وهو يقول :

- ستعتني بها بنفسكَ ، وترعاها ، فدائماً كنت أهلاً للأمانة !

لم يزد عمرعن قوله، ولم يثقل عليه مالك بلهفته..

صلى القيام وبرسالة حازمة من أمه توصيه أن يأكل ، تناول شيئاً بسيطاً ، ولما اطمأن لنوم أبيه بعد الفجر ، وألحت رحيق في المجئ ، ترك المشفى ليستقبلها في الخارج ، ولكنها قابلته وياسين في رواق المشفى المؤدي لغرفة أبيهما ، ابتسم مطمئناً إياها ، وجلس ياسين في الاستراحة ، بينما تركا سيفاً مع سارة !

عندما خرج من باب المشفى، تنفس نسيم الصباح بعمق وابتسامة راحة تشق شفتيه بعد أن اطمأن على والده ، ولكن لم تكتمل ابتسامته ولا راحته وهو يجدها جالسة على الرصيف كعابر سبيل ، اقترب منها غاضباً ، بل أشد ما يكون من الغضب وهو يهتف بها :- ماذا تفعلين هنا؟

وقفت وكادت تقع لولا أن تماسكت ثم قالت بضعف لم يعتاده منها :

- هل هو بخير؟ العم عمر!

لم تنم لليلتين تشكو وتتضرع أن يشفى، وكيف تنسى فضله عليها وقد حافظ عليها إلى الآن، وقد عرفها على مالك، وبسببه عرفت رحيق وديانا وميرا، وعرفت سارة، كيف تنسى أنه أعطاها عطف أب لم تنله، وأعطاها الحماية، ومنحها كل ما تحتاج إليه، ولم يبخل عليها بأمواله!

هدأ غضبه وهو يقول :

- الحمد لله ، أصبح بخير ، ولكن ما الذي أتى بكِ إلى هنا وفي هذا الوقت، وكيف سمحت لكِ ديانا بذلك؟

همست بضعف أكبر :

- جئت لأطمئن عليه ، ديانا صلت ونامت ، فخرجت مباشرة دون شعور منها !

تمالك أعصابه قائلاً :- بنان ، هيا بنا لنعود ، هو بخير صدقيني !

وانشغل تفكيره بأبيه الذي شدد في الوصية عليها ، بينما هي تأتي للاطمئنان عليه ، هل يشعر الجميع بالحب نحو والده بينما كان عاجزاً هو عن ذلك ؟ هو الوحيد الذي لم يكن له تلك المشاعر ؟

التفتت حولها بخوفٍ للحظه ثم قالت :- سأعود وحيدة ، مع السلامة !

- بنان ، انتظري !

قُبِضَ قلبُها وهي ترى رجلين يقتربان منهما، ثم قالت :- لم يكن عليكَ مناداتي باسمي !

لم يفهم رجاءها ، حتى وجدهما اقتربا ، قائلين بسخرية :

- أخيرا بنان ، لقد وجدناكِ بعد أشهر كثيرة ، وهل تظنين أننا كنا غافلين عنكِ !

أغمضت عينيها بيأس ، ثم نظرت لمالك الذي استغرق الأمر منه برهة لاستيعابه ، ثم وقف حائلاً بينهم وقبل أن يتوجه بحديث إلى الرجلين ، كانت قد أبعدته من طريقها ، وهي ترفع قدمها بحرفية لتضرب أحدهما بين قدميه ، وتستغل صراخه وانشغال الثاني به لتضربه في وجهه ، ثم

تجذب ذراع مالك لتجري به ، وهو لثوانٍ وقف عاجزاً عن الحركة ، قبل أن يستجيب لجذبها لذراعه ، ويسحبها هو راكضاً.

أفاق الرجلين من آلامهما وحاولا الركض خلفهما بكل قوتهما ، لم يتعب مالك وهو يركض ويهرول ، بينما شدت على يده توقفه وهي تقول من بين أنفاسها المتقطعة بتقصد :

- مالك .. انتظر .. ماعدت.. أستطيع ..

قاطعها بغضب :

- وهل سنقف لهما أيتها الطائشة المتهورة ، ما الذي فعلتِه بالله عليكِ، لقد كانت سيارتي قريبة منهما، كنا ركبنا وأسرعنا الهرب بها، أو حتى نادينا حارس المشفى للقبض عليهما!

كان بصرها مركزاً للخلف ، للرجلين الذين اقتربا منهما وقد بان التعب عليهما ، فقالت :

- هلا أغلقت فمك قليلاً ، قف في ظهري !

- ماذا ؟

- كما سمعت !.. ثم التفتت تواجههما ، ولم يملك إلا الإذعان لأمرها ، وأخذت هي توجه ضرباتها الدفاعية للرجلين حيث أن أحدهما ضعيف وفقد السيطرة على توازنه بينما ركزت على الدفاع عن نفسها من الآخر ، فهتف مالك :- توقفي قليلاً ، سأبلغ الشرطة !

لم تتوقف عن الضرب وهي تقول :- بلغها أنتَ !

كان يطلب الرقم وعيناه تتابع مهارتها في الضرب والمراوغة ، وقلبه يقفز بين كل ثانية وأخرى خشية أن يؤذِها أحدهما ، ولما انتهى ، حاول فعل أي شئ ، فليس من الحق أن يتركها وهي فتاة ضعيفة تضرب وحدها رجلين مثليهما ، ولكنه ما إن تدخل حتى ناله صراخها :

- ابتعد أنتَ!

حنق عليها وكاد يرد ، لولا لكمة نالت أنفه ، فضربت من ضربه وهي مازالت تصرخ :

- ابتعد أيها الأحمق !

مازال ذاهلاً ، ليس من ألم أنفه ، ولكن من قدرتها على الدفاع عن نفسها أمام رجلين كهذين، ولم يستطع أن يتخلى عنها وحميته تنتفض، ويهجم على أحدهما بعنف يتلقى ضرباته ويضربه، حتى وصلت الشرطة، لتأخذ أربعتهم!

****

هناك خرجا تاركين مطارديهما ، وهناك غضب وانفصلا ، وهناك بكت ، وهناك رأت أسوأ ما رأت ، وكأنها طفلة فبعد كل ذلك ، لم يستطع إلا أن يسلمها لديانا ، لم يتركها في الطريق ، ولم يهجرها في العلن !

وكلما تذكرت آخر حديثه انخرطت في البكاء والتعج صدرها ألماً !

- بنان ! ما هو عملكِ قبل أن تأتي إلينا ؟

ارتجفت شفتيها ورفعت يدها لتمسك أذنها قائلة :

- كما تعلم ، في استخراج الذهب..

- فقط !.. قالها مشككاً فهزت رأسها بإيجاب..

فأكمل بتصميم :- بنان ، أنا لن أسألكِ مرة ثانية ، هل كان عملكِ استخراج الذهب فقط؟!

ردت بهجوم :

- لست المسئول عن الجنة والنار ! ما حدث في الماضي انتهى ، ولم أعد أفعله ، فلماذا تريد معرفته؟

برزت عروق عينيه وهو يقول :

- يعني ما قالاه صحيحاً ؟ كنتِ سارقة ، تتحايلين وتحتالين على الرجال. ثم توهمينني أن أباكِ هو من أجبركِ على كل خطأٍ ارتكبتِه؟ هل كنتُ بالنسبة لكِ ساذجاً لتلك الدرجة؟ أم رأيتِ فيّ من الخسة ما يجعلكِ تكذبين عليّ حتى تكسبين شفقتي وتتجنبين شروري؟! أم كنتُ رجلاً سيئاً كالكثير من الرجال الذين عرفتِهم؟ أشكركِ على خداعي للمرة الثانية، أشكركِ أيضاً لأنني عرفتُ كم أنا رجلاً سيئاً ساذجاً سهل خداعه من فتاة أعطاها كل ثقته واعتبرها أختاً له!

أخفت وجهها في وسادتها تكتم شهقاتها وهي تتذكر كيف وصل بها إلى هنا؛ كيف تغير وجهه وغارت عيناه بحزنٍ تعرفه، وكيف تغيرت نظرته إليها، لن يثق فيها بعد الآن ولن يتخذها أختاً ولا صاحبة!

****

بعد أسبوع عاد عمر لبيته وقد استعاد بعض صحته، وبقي في رعاية زوجته سارة، أصبح يرى الدنيا بعينٍ جديدة ، فرأى سارة حبيبته الأولى التي تزوجته رغم ظروفه السيئة ، ولم يعبأ هو بذلك ، رأى سارة زوجته التي أسلمت لتسعده ، ورأى أم أبنائه التي تفقهت في الدين عاتبة عليه إهمالها ، شعر بقلبها الذي هجره بحثاً عن دنيا زائلة. من هنا سيبدأ معها عمره الجديد يهديها السعادة التي تمنتها معه!

وجد ابنيه مالك ورحيق، آسف على تقصيره معهما لمجرد مصابه في ابنه الأكبر وكأنه الوحيد الذي فقد ابنه!

ونظر لياسين، شعر بالخزي من ظلمه له وخذلانه، رغم أنه أوفى بوعده وحافظ على ابنته أكثر مما حافظ عليها هو!

كم كان ظالماً لنفسه ومنحه الله فرصة جديدة، وكم نحن بحاجة لتلك الفرص!

جلس على مقعد يتوسطهم وهو يفتح ذراعيه ليضم سيف، ويطمئن قلبه الملهوف عليه، ويخبره أنه بخير!

****

جلست ديانا جوارها ثم احتضنت يدها بين كفيها قائلة بحنو :

- بنان ! ألن تأتي معي لزيارة العم عمر ؟!

لم تسمع إجابتها بل ارتجفت شفتيها واحمرت عيناها منذرة ببكاء طويل، فمسدت كفها قائلة :

- لقد أخبرتكِ يوم إسلامكِ أن الإسلام يجُبُّ ما قبله ، وأن تلك اللحظة الصادقة ميلادٌ جديدٌ لكِ!

شددت على " الصادقة" وأعادتها قائلة :- ألم تكن لحظة صادقة؟

- بلى ! قالتها بنان بسرعة..

فربتت ديانا كتفها قائلة :- لا تنشغلي بما يظنه بكِ مالك طالما كنتِ واثقةٌ من نفسكِ !

نظرت لها بنان بخزي قائلة :- ألم تكرهينني بعد معرفتكِ بما كان !

ابتسمت ديانا قائلة :

- كما قلتِ بما كان ! لا داعي لتأنيب نفسكِ كثيراً طالما انتهى هذا الشئ ، ثم أن جميعنا بنا من السوء ما يجعلنا نتغافل عن عيوب غيرنا ! أنا أرى بنان الآن ، أرى قلبها الذي اغتسل من كل ما فات ، وأرى عقلها الذي بحث عن الله طويلاً ، لا أرى بنان التي انتهت وكانت ترى نفسها دائماً مظلومة مهانة تكابد الحياة لأجل أبٍ سكير لا يحميها !

ثم وقفت قائلة :- هيا لنزور العم عمر ! هل تستطيعين التحرك ؟ أم أن جسدكِ مازال يؤلمكِ ؟

- أستطيع !

فقد كانت تعاني بعض الكدمات بسبب تلك المعركة التي خاضتها !

كانت تخشى من رؤيته ، خافت أن ينظر لها بخيبة أمل أو يتجاهلها من البداية ، وحدث كما توقعت ، فلما استقبلهما في بيته وقع نظره عليها ليخيب أمله ثم يتجاهلها وهو ينادي أمه لترحب بهما ويجلس مع أبيه في غرفته !

****

مر أسبوعين لم يأتِ ديانا الرد على طلبها ، مما أثار غضبها عليهم ، لشد ما تكره تلك الصفة ، تكره الإهمال والتجاهل ، تعرف كيف تحفظ ماء وجهها ، حتى وإن تجاهلوها للأبد !

ولكن علمت أنها أوقعت نفسها في شرَك أكبر حينما تلقت مكالمتين إحداهما من آدم والأخرى من براون ، وفطنت لأن أحدهما لا يعرف بمكالمة الآخر لها.

لا تنكر أنها خافت بل وارتعش قلبها خوفاً ، مهما كانت قوية وواثقة فهي لن تحتمل أن تكون هدفاً لرجلين وقد يتراهنان عليها ، وتكون بينهما المشاحنات والمنافسات بسببها ! هي ليست تبني أوهاماً كما فعلت مع جارها البريطاني ، بل ما حدث الآن يثبت كل ذلك ، ومن قبل نظراتهما لها في المقابلة ، ومحاولة كل منهما للفوز بالحديث معها . هل ستهرب بعد أن أقحمت نفسها معهما أم ستواجه وهي أضعف ما تكون على مواجهة أحدهما !

وبرغم شروطها العديدة وافقا ، ألا يوشي كل ذلك بمصابها ؟!

ورغم ذلك كله تأهبت وذهبت ، هي لن تجبن عمَّ نوت ، وفي اجتماع آخر وضعت شروطاً لعملها ، بل وشددت عليها ، خوفها جعلها تحمي نفسها من أي محاولة منهما لا تعلمها ، وإن كانت هدفاً سهلاً لهما ، فستعرفهما كيف تكون الأهداف ؟

- إذاً فأنتِ ستبدأين معنا بموسم جديد ، نغير فيه فكرة البرنامج تماماً ! ولكن هذا يتطلب منا تحضيراً على الأقل لمدة شهر !

قالها آدم بجدية تامة فردت عليه بتهذيب :

- من قال أن فكرة البرنامج ستتغير ؟ كل ما في الأمر أنني اشترطت أن أعمل على برنامج حقيقي ، لأنني كمستمعة أرى أن برنامجكما – عفوا – ما هو إلا استعراض لانتماءاتكما والدفاع عنها دون وثائق مؤكدة، يعني لا يفيدني بأي شئ، ولا أخرج منه بخبر صحيح وتعليق مناسب!

- وماذا تريديننا أن نفعل مُعِدَّتُنا العظيمة؟

قالها براون ساخراً فتجاوزت عن ذلك قائلة :

- سنقدم برنامجاً حقيقياً ، ستكون حلقته الأولى بداية من الأسبوع القادم ! ومن الأفضل أن تقطعا حلقاتكما اليومية دون عذر حتى ظهوركما بشكل جديد !

ثم وقفت وهي تكمل :

- وأعتقد أن هذا سيجذب معجباتكما أكثر ، فالنساء يجذبها الغموض !

لم ينتبها لسخريتها المبطنة ، ولو انتبها لما تركاها تغادر بسهولة ، أو تهرب من بين أيديهما ، ولكن كل منهما أراد الحفاظ على موقفه أمام الآخر !

قد تكون شيئاً جديداً يقامران به ، فهذا هو مرحهما في الحياة وسعادتهما الكبرى ، أن تكون امرأة قوية مثلها الهدف القادم ، ليُري أحدهما الآخر من الأكثر قوة.

وهي تعلم ، تعلم أنها وليمة سهلة ، ستخرج الآن ، وتعود لسكنها ، وتبكي ، ولا تعلم إن كان بكاءها سيزيدها قوة ، أم يكسر عزيمتها.

جلست مع بنان لتأخذ من قوتها قوة، فوجدتها تقرأ القرآن، همست لها :

- ارفعي صوتكِ ، أريد أن أسمعكِ .

رفعت بنان صوتها :

((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا

فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا

إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا

إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا))

أنهت السورة وتوقفت ، حينها انشغلت ديانا بمن نهى النفس عن الهوى ، أصبح يؤرقها أن ما كانت تفعله بنفسها وتسميه عقاباً ما هو إلا هوى! وهي ما نهت نفسها عنه؛ ألم تخَفْ مقام ربها؟ أي مصيبة في دينها تكون؟

- ديانا!

نظرت لها فقالت بنان :- ماذا حدث في اجتماعكِ اليوم ؟

- خير ! ثم وقفت قائلة :

- يجب أن أبدأ الآن ، حتى يعود البرنامج بحلقة قوية ، سأنتظر رأيكِ فيها ، حتى تعرفين الفرق بين البرنامج قبل وبعد ؟

اتجهت لغرفتها فأوقفتها بنان قائلة :- أتعتقدين أن مالكاً مازال غاضباً مني ؟

التفتت ديانا لها لترى أثر الحزن على صفحة وجهها، فاقتربت لتجلس جوارها وقالت :

- حبيبتي، بالطبع هو ليس غاضباً مما كنتِ تفعلين، هو فقط غاضبٌ لأنكِ أخفيتِ عنه الأمر ، ثم إننا اتفقنا أن الله فقط هو من سيحاسبنا ، وأن ما حدث انتهى تماماً .

تمتمت بضعف :

- ولكن مالك يرى أنني خدعته، وأنا لم أكن مخادعة، كل ما في الأمر أنني لم أستطع أن أشوه صورتي أمامه أكثر مما هي عليه! كما أنني صدقته القول في كل شئ، فقط أخفيتُ عنه الأمر ولم أبدله!

احتضنتها ديانا وهي تقول مبتسمة :- لماذا تهتمين بأمر مالك لتلك الدرجة؟

أجابت بنان بسكون :

- لا أعرف ، ولكن منذ عرفته ينتابني شعور بالحنين نحوه ، كأنني أعرفه منذ زمن ، لشد ما يؤلمني حزنه ، أنتِ لا تعلمين كيف تكون حالته عندما يحزن، وما أكثر أسباب حزنه ، لم أرد أن أكون يوماً من ضمن هذه الأسباب!

نظرت لها ديانا وفاجأها خاطر غريب ، سمعت هذا الكلام من ميرا ورحيق قبل ذلك تجاه زوجيهما ، ولكن هي لم تشعر به من قبل ، فاجأها أنها إلى الآن لم تجرب شعور الحب ، ولم تحظَ بشريك روحها الذي ما فكرت فيه يوماً ، رغم الهجر الذي تعيش فيه ، والصحراء التي تعيشها ، لم يكن لها يوماً نصيب من سكن الروح ، حتى عندما تزوجت !

ثم داهمها خاطر أغرب ، بنان ومالك ، هل بنان تفكر فيه بهذه الطريقة؟ زواجهما لم يكن سوى لغرض معين ، ولكن مالك أحب ليندا ثم انفصل عنها ويفكر في خطبة جهاد، نفضت أفكارها وهي تقول :

- بنان ، لا تشغلي بالكِ كثيراً ! فكري في دراستكِ الآن ، هل قررتِ ؟

- لا أعرف ، هل سيصحبني معه بعد ما حدث ؟

- ولماذا يصحبكِ ، أنتِ قوية بنفسكِ ، قوية بالله!.. قالتها ديانا ثم وقفت حتى تعود لغرفتها...

أفضلُ شخصٍ في النصيحةِ هيَ، وأسوأُ الناسِ إذا ما فعلوا..

****

ولج ياسين منزله بعد يوم عملٍ طويل وفي نهار رمضان وجدها تنتظره في البهو بابتسامة تظهر أسنانها لشدة اتساعها، وترتدي ملابس الخروج، فهتف بإرهاق :

- لا تخبرينني أن اليوم أيضاً في بيتِ أبيكِ.

ضحكت رحيق وهي تستقبله بتناول حقيبته قائلة :- ولم لا؟ هل تعترض؟

ابتسم وهو يجلس قائلاً :

- نعم أعترض ، وهل سنتناول طعامنا طوال الشهر هناك !

جلست قريباً منه وهي تهمس :

- ياسين ! تعلم أنني أحب أن أكون قريبة من أبي أكثر من أي وقت مضى ، خاصة وأنني أخشى فقدانه ، كما يتمنى هو الأمر نفسه ، لذلك يدعونا كل يوم ، فهل ستعترض على زيارتي له !

شد على يدها قائلاً :

- لا تتحدثي بنبرة الحزن هذه مرة أخرى، ولا تقولي ياسين عندما تطلبين شيئاً، سأضيع منكِ هكذا !

ابتسمت وهي تقف قائلة :- هيا إذاً لئلا نتأخر !

- انتظريني لدقائق !

اتسعت ابتسامتها قائلة :

- سأنتظركَ حتى نهاية الدنيا ، ولكن الآن أسرع لأن هناك ما أود إخباركَ به قبل ذهابنا !

بينما كان يستعد للخروج ، كانت هي تعد بعض الأشياء ، وحين خرج اتجهت نحوه بسرعة ثم قالت :- أغمض عينيكَ وسأسحبكَ !

ابتسم وهو يطيعها قائلاً :- أقل من نصف مليون لن أقبل !

ضحكت فقال :- لا تضحكي !

أوقفته في غرفة أمام الحائط وتحدثت :

- بعد أن عدتُ للتصوير، قررتُ أن أفاجئكَ بشئ قديم إلى حد ما، قد يسعدكَ وقد لا يؤثر فيكَ..

- هل سأبقى هكذا؟

ضحكت وهي تقول :- افتح عينيكَ الآن !

فتح عيناه ونظر لابتسامتها قائلاً :- لو هذه ما سأفتح عيناي عليه كل يوم فكفى!

خفتت ابتسامتها وهي تنظر إليه ثم قالت :- انظر للحائط بسرعة!

ابتسم وهو ينظر للحائط وهي تتحدث :

- هنا كل ذكرياتنا معاً ، منذ اللقاء الأول ، فاجأتني بهم ميرا ، رأيت معها صوراً كثيرة لنا قبل أن تتقدم لزواجي ، لو كنت رأيتها حينها لما كفاني قتلها ..

ضحك قائلاً :- الحمد لله أنها ما فعلت !

- اضغط هنا! لا أحب الصور المعلقة كما تعلم !

ضغط على زر في الشاشة المعلقة أمامه ، وبدأ يشاهد تتابع الصور أمامه ، ميرا الرائعة أم الخبيثة لا يعلم .. ما تلك الصور وكيف التقطتها ؟

نظراته لرحيق، خجلها من حديثه، ابتسامته لرؤيتها، غضبه عليها، بكاءها بسببه، نظراته المحذرة، الغاضبة، والخائفة، ما ذا كانت تفعل ميرا؟ إنها تلتقط النظرات فقط!

خوفه عليها ثم لهفته ، ثم تلك الصورة ، أوقف التتابع ، وكأنه لا يريد للزمن أن يتحرك ، حينما جلس أمامها يطلبها زوجة، ولو عاد الزمن ألف مرة سيطلبها ألف مرة، بان عليها الخجل فحركت الصور فابتسم، كل شئ في صور، حتى يوم زفافهما، ها هو يرقص كالمجنون وهو يسحب يدها ليجري بها في الطرقات غير عابئ بعدم قدرتها على موازاته الجري!

ضحكت وسمعها تتمتم :- مجنون!

فابتسم، ثم بدأت ابتسامته تختفي شيئاً فشيئاً وهو يرى صوراً لأمه، وغزت سخونة وجهه، فأزعجته قائلة :

- دائماً كانت جميلة ، أليس كذلك ؟ أترى هذه الصورة ، كانت يوم خطبتنا ، أم هذه يوم الزواج، وهذه يوم أن تشاجرنا ووقفت في صفي ، وهذه ...

كانت تشغله عن التأثر بحضور أمه ، وتعلم كم سيكون تأثره مؤلماً لها ، لذلك أزعجته بثرثرتها الطويلة ، حتى وضع يده على فمها قائلاً :- توقفي !

خافت من غضبه فسكتت ، وهي تنظر إليه بطرف عينيها ، توقف أمام صورة وأخذ يتأملها ، والتمعت عيناه لتنذر بالبكاء ، ثم امتلأت بدموع حبيسة ، فمدت يدها تتحسس وجنته بأناملها ثم رفعت يده عن فمها قائلة :

- لقد اتفقنا أن تقبل بي أماً لكَ، أم أنكَ نسيت؟

حرر دموعه قائلاً :- لم أنسَ ولكنني اشتقتُ إليها!

- سندعو لها دائماً ، الحب دعاء ، أليس كذلك؟

تنهد وهو يطفئ الشاشة ، ويمسح دموعه قائلاً :- هيا بنا ! أين سيف ؟

- هناك!

- لنتحرك إذاً !

شدت ذراعه توقفه فوقف. واجهته قائلة :

- ظننتُ أن شيئاً كهذا سيسعدكَ، آسفة على نظرة الحزن التي سببتها لكَ!

ضمها إليه قائلاً :

- ليست حزن إنما اشتياق ، ولكنني سعيد بذلك الشئ ، وكلما شعرت بغربة سأشاهده ، وكلما فرحتَ سأشاهده أيضاً ! أنتِ فرحة حياتي !

****

الحلقة الأولى ، لأسبوع دام اختلاطها بهما ، وبحسن تصرفها عرفت كيف تقنن علاقتهما بها، لساعات طوال كانوا يعملون معاً ، كانت متأكدة من مهارتهما في الإذاعة، ووجدت ذلك بالفعل، بحزم غريب عليها عملت ، وبخوف لم تعتاده شعرت ، متأكدة أنهما لم يشعرا بخوفها بسبب قوتها الظاهرة دائماً.

والآن وهي تنتظر الحلقة الأولى ، وتخاف خوفها المعتاد من الفشل ، وينسيها خوفها الغريب من هذين الرجلين .

تابعت حديثهما ، وطريقتهما الناضجة المهذبة ، وهي تهتف بأعماقها :- وأخيراً!

بدأت تشعر بثقة وارتياح وهي تراقب ردود أفعال العاملين بالاستوديو ، واتسعت ابتسامتها شيئاً فشيئاً ، حين تلقت رسائل من بنان وصديقتيها بحسن عملها .

وانتهت الحلقة، لم تكن تتخيل رد فعلهم بهذه الصورة وقد فرضت شروطها عليهم، ولكنه خير، هي سعيدة بنجاحها!

اقترب منها براون بعد عناقه لأكثر من رجل وامرأة في العمل معهم، ويبدو أن دورها جاء في العناق، شعرت أن عينيها خرجت من محجريهما وهي تمد يدها أمامها تمنعه قائلة :

- ماذا تفعل؟

فتراجع بابتسامة مشاغبة وهو يقول :- سأهنئكِ على نجاحكِ معنا!

كان قلبها ينتفض وسط ضلوعها وهي تلوم نفسها على تواجدها بينهم ، لولا صوت آدم القائل بحزم :- براون ! لا تمزح بتلك الطريقة مرة أخرى !

تجاوز براون الأمر وهو يقول :- والآن لنتناول نخبنا معاً!

استعدت للمغادرة وهي تقول :- سأذهب أولاً!

أوقفها آدم قائلاً :- ألن تحتفلي معنا؟

- لدي موعد الآن؟

خرجت بسرعة، لتعبئ صدرها بشهيق راحة ، سارت خطوات قليلة ، حتى وصلت لمحطة انتظار الحافلة ، فجلست ، تعلم أن الوقت تأخر ، لكن هذه المرة اختارت سكنها في مكان أكثر أماناً حتى تستطيع الاطمئنان على بنان وحيدة فيه ، وحتى تستطيع العودة في وقت كهذا آمنة!

- لماذا هربتِ؟

انتفضت بخفة وهي ترفع نظرها لصاحب الصوت لتجده آدم ، فوقفت مجفلة ثم ابتعدت عنه وهي تقول :

- أنا خارج المكان المسموح لنا فيه بالحديث سوياً!

- ومن الذي سمح بذلك؟.. قالها بثقة، فقالت :

- لو كان السائل براون لاستطعت إجابته، ولكن أنتَ اعتقدتُ أنكَ تعرف!

ثم سارت بخطوات ثابتة نحو الحافلة، ركبت واتخذت مقعداً فجلس جوارها، فتسارعت أنفاسها قائلة :- من فضلك ابتعد من هنا!

ابتسم وهو ينظر لها قائلاً :- هل تعلمين أن عينيكِ ساحرتين !

اضطربت وهي تبتعد بنظرها عنه قائلة :

- هل تعلم أنكَ وقح جداً ، وإن لم تتحرك من هنا الآن ..

- وصوتكِ أكثر سحراً!

يجب أن تظهر قوتها فقالت :

- وهل نافسته في من يوقع بي أولاً ؟ وبدأت جولتكَ الآن ، تتغزل فيّ بمنتهى الوقاحة ليكون لك السبق، ثم أهيم أنا بكَ، في الحقيقة لا أعرف ما هو نهاية مخططكما ولا هدف مقامرتكما، لكنني لم أعرف أنكَ كمسلم قد تخدع أحداً!

آه تذكرت قد قلت قبل أن الإسلام به من السيئون كثر ولكن هذا لا يشين الإسلام في شئ ، لم أكن أعرف حينها أنك ممن يسئ إليه!

يبدو أنكَ بدأت جولتك مبكراً سيد آدم !

وقفت لتتحرك إذ أنه يحجزها في مكانها، ولكنه لم يتحرك، تسارعت أنفاسها وهي تقول :

- يؤسفني أن أخبرك بأن ما تفعله لا يمت للرجولة بصلة، وأنا في الأصل أشك في وجود رجولة أو نخوة ، فهلا ابتعدت الآن قبل أن أكتشف أشياءاً أخرى ستصيبني بالتقيؤ!

جرحته وتعلم ذلك ، يكفي أن تخبره بأنها مشمئزة منه ، ثم تهين رجولته التي يتزعمها ، أفسح لها الطريق ، فتركت الحافلة علها تلحق بأخرى لا وجود له فيها ، هل ستعيش حياتها لا تلتقي سوى بأشباه الرجال ؟ كم هي بحاجة الآن لرجل يحميها !!!

وبمجرد وصولها لسكنها أغلقته بإحكام كما كانت تفعل قبلُ خوفاً من عامر !

- رباه احمِني منهم ومن نفسي!

هتفت من أعماقها وهي ساجدة ..

****

هناك حديث طويل بيننا ، وددتُ لو أخبركَ به، ولكن لأنكَ لا تريد سماعي أو النظر في وجهي، قررتُ أكتبُ لكَ كما كنتُ أفعل! وأنا أعلم أنكَ لن تقرأ لي ..

أنت الشخص الوحيد الذي أستطيع مشاركته مشاعري، وخطواتي، كما أنكَ طلبتَ مني ذلك !

لا أستطيع أن أكتب لكَ شئ ، ولكن توقفتُ عند تلك الآيات ، سأكتبها لكَ ولن أتحدث عنها ، أعلم أن تأثيرها أقوى كثيراً من شعوري بها ..

((وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا

إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا

إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا))

الله يبدل للتائب سيئاته إلى حسنات ، وهو بيده الجنة والنار ، لا أخافكَ مالك ، ولكني لا أحب خداعكَ ، وأنتَ لست رجلاً سيئاً ولا ساذجاً !

****

- مالك !

جفل ، وهو ينظر لسارة قائلا :- هل حدث شئ ؟

ابتسمت قائلة :- لا تقلق ! جئتُ لأطمئن عليكَ فقط ، لماذا تجلس في عزلة دائمة ؟

- أبداً ، سأنام الآن !

- لا تكذب !

تنهد قائلاً :- لا أكذب !

- ما الذي يشغلك ؟

تحدث بمهادنة :- يبدو أنني سأؤجل فكرة الزواج قليلاً .

- لماذا ؟

ابتسم :- رفضتني جهاد ! يبدو أنني شخص مرفوض من جميع النساء ، ويبدو أنني سأعتزل الزواج مجبراً .

مسدت رأسه قائلة :- ألم أخبركَ أنني سأفعل ؟ لماذا غامرتَ بتلك الخطوة ؟

- أردتُ أن أعرف رأيها بنفسي ، لا عليكِ لستُ حزيناً ، ثم أنني سأنشغل جداً هذه الفترة ، فبعد تقاعد أبي سأعمل في الشركة وأدرس أيضاً ، لن تحتملني امرأة بهذه الطريقة ، ناهيك عن أنه لا توجد امرأة تحتملني من الأساس !

- تعالَ مالك !

وضعت رأسه على صدرها قائلة :

- ما الذي يتعب رأسكَ ؟ هل تعلقتَ بجهاد ؟

تنهد وهو يقول :- إنها المرة الثانية التي أحب فيها ولا أجد صدىً لمشاعري .

ثم تنهد بقوة أكبر وهو يقول :

- قد يكون هذا الأمر بسيط بالنسبة لخداعي من أقرب شخص لي ! فقد علمتُ أنني رجلٌ لا أصلح للحب أو للصداقة !

- **(سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)** .. قالتها وهي تمسد رأسه وتقربه لقلبها ..

٢٣

بداية ونهاية

((بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ

إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))

- ديانا ، هل الفردوس تستحق كل ذلك ؟ أقصد هل هي جائزة كبرى ؟ أو بهذه الروعة حتى أفعل كل ذلك لأجل الفوز بها ؟ أم أنها نجاة من النار فقط ؟

لم تجيبها ديانا إذ انشغل عقلها كالعادة بشئ مجهول ، فكررت بنان بيأس :- ديانا !

- سمعتكِ !... ثم وقفت قائلة :- أتشربين القهوة ؟

وقفت بنان تقول ضاحكة :- سأصنعها أنا !

هزت دياتا رأسها بابتسامة وهي تسير جوارها قائلة :

- اعتقدتُ أن وصف الجنة مر عليكِ أثناء قراءتكِ ..

- قد يكون مر ولم أنتبه له وانشغل عقلي حينها بشئ تافه ، أو قد يكون ما قرأته غير كافٍ لإقناعي .. آه .. ليس كذلك ، من المؤكد أنني لم أنتبه !

ضحكت ديانا ثم قالت :

- اسمعي .. قال الله عن الجنة " مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ "

وقال " مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ "

وقال أيضاً " وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "

كما قال { وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ، وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ، قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ، عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً }

وقال " وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين "

هناك آيات عديدة ستبحثين عنها بالتأكيد ..

قالت بنان بشرود :

- لم يرُى مثلها قط !

وأكملت أفكارها التي بعثت نشوى في نفسها ، أنْ تشعر أنّ ما تقوم به له جزاء كهذا ويجعلها تشعر بأنها تعيش في هذه الجنة بالفعل ، وهي تستمع كأنما رأت الأنهار والظلال ، الثمار والكؤوس من فضة ، وكأنما رأت النعيم بالفعل ، وكأن السعادة الموعودة دبت فيها فجأة !

- القهوة !

قالتها ديانا فزعة وهي تقترب لتطفئ الموقد فقالت بنان بابتسامة :

- لم أقصد !

نظرت لها ديانا حانقة :

- ألن تعتذري أبداً ! الاعتذار ليس ضعف .

ضحكت بنان وهي تقول :

- لا أعرف كيف أعتذر !

- تطيب النفوس عادة بالاعتذار الصادق !

نظرت لها بنان واجمة وهي تقول :

- وهل تطيب نفس مالك بالاعتذار ؟

تركت ديانا المطبخ قائلة :

- رباه ارحمني من حمقها .

ضحكت بنان وهي تصنع قهوة جديدة بدلاً من تلك التي فسدت ، بينما انشغل تفكيرها بدراستها التي ستبدأ بعد أسبوع !

****

مر رمضان وانتهى العيد وما شاركته مشاعرها فيهما، تمنت أن تخبره أن الصوم طهر روحها، وأن القيام والقرآن رققا قلبها ، ودت لو تخبره أن القليل الذي قرأته من القرآن وأتعبت ديانا في النقاش حوله رفعها ، بل ونقى سريرتها ، عن الخفة التي تملكت روحها كأنها طير حر ، وعن الأمل اللذيذ الذي أنعش قلبها ، عن كل التغيرات التي حدثت لها ، وهو غافلٌ عنها وزاهدٌ في معرفتها .

ذهبت إليه تزوره في بيته ، جلست مع سارة وعمر ، وأطالت في الحديث معهما علّه يصل في أي وقت يجدها ، أكثر وقتهم مر في الضحك وهي تثير التعليقات المرحة على بقاء عمر جوار سارة ومراهقتهما المتأخرة ، مازال لسانها كما هو لا تجيد التحكم في شذراته .

ولكنهما يتحملان أي شئ تقوله ، بل ويشاركانها بكلمات ككلماتها ، وطفقت تحكي لهما ما تمنت قوله لمالك ، وشاركتهما الإثارة التي عاشتها ، وكأنها تحكي لهما حكاية شيقة ، بل وتناقشت معهما في بعض الأمور التي التبس عليها الأمر فيها ، وتسرد كيف حلت أو مازالت عالقة ، ثم انتقلت فجأة إلى حديث آخر وهي تقول :

- ولكن كيف تعرف عليكِ العم عمر وأحبكِ ؟ هل أوقعتِه بعينيكِ الزرقاوتين ؟

ضحكت سارة بشدة ثم قالت :

- ولماذا أوقعه ، هو من أوقعَ بي في حبه .

نظرت بنان لعمر ثم قالت بسخرية :

- وهل كان وسيماً في الماضي ؟ أم قام بدور الفارس المغوار ؟

رد عليها عمر ضاحكاً وهو يقول :

- عندما يوقع بكِ أحدهم ، سأكون وكيلكِ في الزواج ، وسنرى حينها كم هو وسيماً !

رفعت كتفها بغرور قائلة :

- لن أقبل سوى بفارع الطول حتى يحملني ، وعريض المنكبين حتى أستطيع ضربه وأريه قوتي رغم قوته ، وأن تكون أمه كالعمة سارة حتى تتبناني !

- من المؤكد أن المقصود أصابه غضب أمه ، أو تعويذة ساحرة شريرة ..

اتسعت ابتسامة سارة وعمر بدخوله ، بينما توقف الكلام في حلقها هي ، واتجهت بنظراتها نحوه فوجدت ابتسامة تحاول الخروج وهو يمنعها ، فرفعت جانب شفتها بحنق باسم ، ثم نظرت أمامها وأخفضت ناظريها بخجل ، فجلس مالك جوار أمه بعد أن قبل رأسها ورأس أبيه وسأله عن صحته ، فشعرت بنشوى داخلية وهي ترى توطد علاقته بعمر ، ووجود تلك الألفة بينهما .

- مرحباً بنان ، هل أنتِ مستعدة للدراسة ؟ أم اتخذتِ قراراً آخر ؟

رفعت نظرها له وهي تقول بغيظ :

- وهل أخبرك أحدهم أنني هوائية متقلبة ؟

ابتسم قائلاً :

- ولماذا يخبرني أحدهم وأنا أعرف ذلك بنفسي ؟ بل أعرف ما هو أكثر من ذلك !

وقفت غاضبة وهي تنظر لسارة قائلة :

- موعد إذاعة برنامج ديانا الآن، يجب أن أغادر حتى أستمع إليه، وأنتظر عودتها، أستأذنكما، واعتني بالعم عمر جيداً . مع السلامة .

وقفت سارة وهي تنظر لمالك بعتاب ثم قالت :

- انتظري ، هل نسيتِ أننا سنتناول عشاءنا معاً !

ابتسمت بنان مجيبة :

- لقد كان مزاحاً فقط ، لن أستطيع تركَ ديانا وحدها !

وقف مالك قائلاً :

- سأوصلها ، لأن الوقت قد تأخر !

قاطعته :- لا داعي لذلك !

بحزم نظر لها قائلاً :- هيا !

استأذن من أبويه وهو يغادر معها قائلاً :

- لا تنتظراني على الطعام !

ثم غمز لأمه التي ضحكت ، وانصرفا !

ركبا سيارته متجاورين ، فانزوت في مقعدها ونظرت للطريق ، بينما سار هو على مهل حتى وصلا لمطعم ، ترك السيارة قائلاً :

- انزلي !

تركت السيارة وهي تغلق الباب بعنف فقال :

- السيارة ملك أبي ، اكسريها وسآخذ ثمنها منكِ !

لم تبالي وهي تقول :

- ماذا تفعل الآن ، هل تخطفني ؟

رد ساخراً :

- تقدمي يا فتاة أم أقول يا فتى ، أنا أخاف أن تخطفيني أنتِ ، فقدرتكِ على القتال تفوق أعتى الرجال !

اعترضت قائلة :

- لا تقول فتى مرة أخرى !

ولا تعرف لماذا اعترضت وجرحتها الكلمة رغم اعتيادها عليها منه ، فابتسم قائلاً :

- هلا دخلنا ، قبل أن تجوعي وتثيري الفضائح طلباً للطعام !

- أهذا أنا ؟

قالتها بصدمة ، فاتجه للمطعم قائلاً :

- أنا في الداخل أنتظرك!

- وقح !

تمتمت بها وهي تسير خلفه ، انتظرت حتى جلس أمام طاولة فذهبت لتجلس مقابله قائلة :

- ماذا تريد مني ؟

- لا أريد شيئاً ، فقط كنت أهيئ مكاناً للاعتذار !

استنار وجهها قائلة :

- ستعتذر !

رد ساخراً :

- ماذا ، ألن تعتذري أنتِ ؟

زفرت بضيق ثم قالت :

- وهل السرقة عندك أكبر من الإلحاد ؟ هل ترى أنني أجرمت لأنني كنت أسرق بينما كان الإلحاد شئ فوق الطبيعي ؟

تنهد وبان عليه الضيق قائلاً :

- ليست السرقة ما أزعجتني ، بل تحايلكِ على الرجال ، واختلاطكِ بهم على هذا النحو .

قالت بصدمة :

- أي نحو؟ ماذا فهمت؟ لقد كنت صادقة في كل ما قصصته عليك، ولكنني أخفيت عنك أمر السرقة، ثم أنك لم تعِش حياة كحياتي حتى تعرف كيف تضطر إلى فعل أشياء ليست من شيمك!

أسبل جفونه وهو يتحدث غير ناظرٍ لها :

- عندما عرفتكِ ، كنتُ واثقاً من أنكِ تبحثين عن الله ، حتى وإن أصابكِ كبرٌ وغرور فهذا فقط للانتصار لنفسكِ أمام ما ترينه من دلائل على وجوده، أما عن موضوع السرقة صدمتي فيه كانت لأنكِ أخفيتِ الأمر عني، ثم احتيالكِ على الرجال، أو حتى فكرة أنكِ كنتِ تتصرفين معهم بتلك السهولة ، الأمر يثير ضيقي وغضبي وخوفي عليكِ أيتها الغبية، ظننتُ أنكِ خدعتِني بالطبع ، ما فعلتِهِ ماهو إلا خداعٌ لي ، فعقلي تخيل أشياء مقززة عن مدى علاقتكِ بهم!

قالت بغضب :

- وأنا أخبرتكَ قبل ذلك ، أنني رغم كل مساوئي لم أفعل ما يتصوره عقلكَ الفاسد !

ثم وقفت وهي تقول :

- سأغادر الآن !

وقف مانعها بغضب :- اجلسي !

جلست وقد أحست أن الأمر بينهما لم يعد طبيعي ، إن كانت تدعي منذ معرفته أنه رجل مختلف وبررت اختلافه بأنه صديق جيد ، فهي الآن تقرر اختلافه بتلك المشاعر التي تهاجمها في حضرته ، حتى أنها تنذر بالبكاء الآن دون سبب .

- بنان ، لماذا تبكي ؟

خرج صوته ملهوفاً بطريقة لم يعتدْها ، وقد انشغل تفكيره بها في الفترة الماضية للبحث عن محاولة للحديث معها والاعتذار على تهوره وفهمه الخاطئ ، رغم أن ظنونه كانت لخوفه عليها وخوفه على نفسه من أن يخدع فيها وهي الأقرب له من بين الناس أجمع ، وبدأت الصورة تتشوش في قلبه وأمام عينيه ، إذ لم يتأثر برفض جهاد كما تأثر بخداعها المزعوم له ، فما حدث بينهما كان الأقوى تأثيراً عليه .

ثم خطبة جهاد التي تلت رفضها له بأسبوعين، تفاجأ من نفسه إذ لم يشعر بحزنٍ أو قهرٍ من المفترض أن يكونان في مثل حالته، بل سعد لأجلها ولأجل من خطبت له، والذي بسببه رُفضَ.

وتساءل أليست جهاد هذه التي تمنى خطبتها وظن أنه يحبها ؟ لماذا لم يتأثر ويحزن ويكتئب ، بل بقيت فكرة خداع الجالسة أمامه الآن هي المسيطرة عليه وفكرة تحايلها على الرجال بأي طريقة كانت هي التي توغر قلبه ألماً ، ولم يفهم أي شئ مما يحدث له ، ولكن وهو جالس معها الآن علم أن صداقتهما المثالية لم يعد أمرها طبيعي بأي طريقٍ كان ، وأن الأخوة الملائكية التي وصفت علاقتهما ليست كافية ؛ هناكَ شئ خاطئ ، لكنه لا يعرف ما هو ؟

صوته الملهوف حث دموعها على التحرر، إذ بدأت هي الأخرى تشعر بغرابة الأمر، وأن هناك شئ خاطئ، ولكن هي تعلمه، فمن ناحيتها بدأت تزول الغمامة عن مشاعرها شيئاً فشيئاً.

- بنان أرجوكِ توقفي عن ذلك ، أنا آسف ، لم أقصد إهانتكِ !

وضعت يدها على فمها وهي تقول :

- لا تعتذر ، أنا من عليه الاعتذار بسببب ذلكَ السوء الذي اعتدته ، أنا آسفة !

رغم جزعه لبكائها ابتسم قائلاً :

- علينا تسجيل تلكَ اللحظة في التاريخ ، فاليوم بنان اعتذرت لأول مرة .

ابتسمت وهي تمسح دموعها قائلة :

- أنا جائعة ، ستطلب لنا الطعام ، أم أعود لسكني وأعد طعاماً لنفسي ؟

ابتسم وهو يشير للنادل قائلاً :

- سأتجنب الفضائح التي ستثيرينها !

وفي داخل كل منهما قرارٌ بأنها المرة الأخيرة التي يتبسطان فيها معاً ، فبنان بعد التغيرات التي حدثت لها أخيراً ، لا تريد أن تعود بنان القديمة التي ترافق الرجال وتجاورهما جنباً إلى جنبٍ في كل شئ حتى ظنت أنها رجلاً ووصل لمالك ذلك الظن . لماذا لا ينظر لها كما نظر للبندا أو حتى لجهاد ؟ وفكرتها هذه تحثها أكثر على الابتعاد عنه ، فمن هنا بدأت تعرف أن مالك رجلاً غريباً عنها ، رغم أنها تشكره أن جعل من العم عمر أباً لها تتعامل معه بصورة طبيعية خاصة أنها تفتقد لسند أب !

وأما عن مالك فتبسطه معها بدأ يثير في نفسه شيئاً ينكره ، وشعر أنه يتعلق بها بصورة غير طبيعية ، فقرر أن تكون علاقتهما رسمية جداً .

ورغم ذلك لم يمنع نفسه من قول :

- أتعلمين أن حجابكِ هكذا أجمل؟

جف ريقها وهي تشد حجابها عليها، بعد أن تغير شكله وابتسامة خجلى تشق طريقها لشفتيها، فلم يعُد يظهر من شعرها شئ ، ولم تعد ترتدي سراويل ضيقة ، أو قمصان ذكورية الطابع ، بل جعلت ديانا من تختار ملابسها بعناية لتليق بفتاة وليس بفتى !

وبعد جملته وضع يده على عينيه هاتفاً في أعماقه :

- أي علاقة رسمية ستكون ؟!

****

لا تعرف ديانا إن كان لديها في الحياة عشق يضاهي عشقها لعملها ونجاحها فيه، وأن تبذل جهداً جهيداً ثم تخرج حلقاتٍ ناجحة بفضل إعدادها الممتاز. وهذا هو الشئ الأكثر سعادة لديها. ورغم أن عودتها لتجربة البرامج الإخبارية أو التي تختص بالتعليق على الأحداث السياسية كان أمراً مرفوضاً ، وعندما عادت كان يخيفها الفشل ، إلا أنها أحبت الأمر بعد نجاحها فيه .

وعلاقتها بالثنائي استقرت بعد ذلك الموقف الذي حدث بينها وآدم، ثم اعتذارها له في اليوم الثاني، فهي رغم يقينها من وقاحته إلا أنها فطنت لاندفاعها في الهجوم ، فاعتذرت وتجنبها بعدها، وارتاحت هي كثيراً لذلك. وبالنسبة لبراون اكتشفت أنه محض شخص خفيف الظل يتعامل مع الجميع بعفوية شديدة ، صديق حميم لآدم أكثر مما تخيلت ، لا يهاجم المسلمين كما ظننت ، بل يهاجم فئة معينة وعادة ما يخونه التعبير . ولم يعد يفرض مزاحه عليها منذ ذلك اليوم وعللت الأمر بأن آدم أخبره بما فعلت .

أصبحت تتحرك بحرية ، وتبتسم ببساطة ، وتتحدث مع زميلاتها بأريحية ، هل كان من المفترض عليها إهانته حتى تستريح من ذلك الضغط ؟

****

حياته الحرة التي اعتادها ، والانعزال الذي يعيشه ، لم يستطع أحد أن يخترقه ، أو يحاول التطفل عليه قبلها ، ولم تستطع امرأة التأثير على آدم صالح العظيم الذي تهفو حوله النساء ويهِمْنَ به عشقاً ، ويتمنين صورة واحدة له أو ظهور على الشاشة ، فيرضين غروره وثقته المبالغ فيها بنفسه ؛ إلا هي !!

منذ النظرة الأولى وقد تجاوزت كل الحدود ، واقتحمت نفسه ، وأربكته ، وترنحت ثقته واهتز عرشه . وليستعيد قوته وثقته ، اقتحمها هو ، لم يحضر كلاماً ليقوله وهو يسرع خلفها ، وفجأة وجد نفسه يتغزل عينيها وصوتها ؛ اضطربت وارتبكت وخجلت وتأثرت هو واثق من ذلك ؛ لكن إهانتها له جرحته ، وأصابت كبرياءه بشرخ لم يتوقعه .

وسريعاً ما استعاد ثقته في اليوم الثاني عندما اعتذرت ، وفرح بشدة ، هل اهتمت بأمره حقاً ؟ ولكن تفكيره ذاك يتنافى تماماً مع الثقة التي يزعمها ، فقرر يتجاهلها ؛ طريقة جيدة سهلة سريعة المفعول مع النساء ، ولكنها بقيت استثنائية ، ولم تتأثر بتجاهله لها ، صبر وصبر وصبر لمدة شهر كامل لم يشغلها الأمر ولم تتأثر ، بل أصبحت متألقة في عملها وأكثر راحة بعد أن تجنبها وكأن كلامها صحيحاً وهي تشمئز منه .

ومازاده ذلك إلا ألم في قلبه لم يشعرْ به من قبل كلما رآها ، وبعد فشل استراتيجية التجاهل قام باستيراتيجية أخرى لشفاء قلبه ، وهي إثارة غضبها .

كان جالساً في غرفته بالعمل على أريكة ماداً قدميه على طاولة مستطيلة أمامه رافعاً رأسه للسقف مغمضاً عينيه باسترخاء ، حين دخل عليه براون قائلاً :

- آدم ، أنت هنا وأنا أبحث عنك في الخارج !

لم يرد آدم فأكمل براون بمزاحٍ معتاد :

- هل مُعِدُّتنا العظيمة مازالت تشغل تفكيرك؟

ادّعى اللامبالاة رغم أن حواسه تأهبت لذكرها فأكمل براون :

- لا تنكر ذلك، مشاعرك ظاهرة بشدة!

انتفض آدم وهو يعتدل في جلوسه قائلاً :

- ماذا؟ ماذا يظهر؟

ضحك براون قائلاً :

- لا تقلق ، إنها ظاهرة لي فقط ، كما أنك تجيد اصطناع التجاهل ولا يلحظه عليكَ أحد .

نظر له آدم بحنق قائلاً :

- براون ، أنا لا يشغل بالي أية امرأة.. قالها وفي نفسها هاتف قائل إلا هي.

رن هاتفه فنظر له بلامبالاة فقال براون :- مؤكد أنها أمك، ألن تجيب؟

- ليس الآن!

تناول براون الهاتف وهو يقول :

- أكره معاملتك لوالديك، عندما تفقدهما مثلي ستعرف قيمتهما.

رد على هاتفه بود مرحبا :

- براون يتحدث .. وعليكِ السلام .. أنا بخير حال ، وابنكِ السمج بخير ..

ثم ضحك وهو يكمل :

- إنه يستعد للتسجيل الآن وهاتفه بعيد عنه ، أعتذر منكِ ، هل تودين إخباره بشئ .. ماذا دعوة عشاء اليوم .. بالطبع سآتي إليكِ هل تسمعين العراك القائم بمعدتي .. اشتقت لطعامكِ جداً .. هل من الضروري أن يأتي ؟

قالها وهو ينظر لآدم الذي أشار له بالنفي ، فحدج به براون ساخطاً ، وأشار بأن يفعل ، وقام بينهما عراك الإشارات حتى أذعن آدم بالموافقة فقال براون :

- نعم أمي أسمعكِ ، بالطبع سيأتي ، وهل يستطيع التأخر ؟

ثم فتح مكبر الصوت ليسمع آدم صوتها الضعيف قائلاً بفرحة :

- حقا براون ، سيأتي ، لقد اشتقت إليه ولم أره منذ زمن بعيد ، أكد عليه أن يأتي ولا تجعله يتحجج بشئ آخر ، أريد رؤيته فقط .

أنهى براون المكالمة ثم ألقى الهاتف جواره على الأريكة وهو يقول ساخراً :

- ليتها أمي أنا !

ثم تركه وغادر المكان .

سمعت ديانا صوت أمه وهي تمر من جوار الغرفة المفتوح بابها فاستوقفها ، وأحست بشجن غريب إذ اشتاقت لأمها وجدتها ، ثم سمعت جملة براون له فشعرت بوجع في قلبها ، ليتها أمها هي أيضاً ، وستبقى تحت قدميها لن تتحرك !

****

وانتهت محاولاتها مع ابنة خاله بفشل ذريع، لم تستطع أن تحتويها أو أن تتخذ منها صاحبة، وأكثر ما سبب ضيقها أنها أخلفت وعدها مع ياسين، ولم تكن بالقوة التي أظهرتها له. احتوى

عجزها وضعفها الذي لم يراه أبداً كذلك، واعتذر منها واستكمل هو المهمة ظناً منه أن العنف سيؤتي ثماره مع ابنة خاله المتمردة.

لا تنكر أنها شعرت بالراحة عندما سقطت عن كاهلها تلك المسئولية التي لم تكن بها طاقة لها . وركزت اهتماماتها على عملها مع ميرا ، وعلى بيتها أو مملكتها التي تؤسسها والتي يسعدها كل إنجاز فيها .

بسبب تعب فاجأها لم تحتمله استأذنت ميرا وعادت لمنزلها ، واتصلت بأمها تطلب منها أن تأتي بسيف من المدرسة وتهتم به ، فهي لا طاقة لها اليوم بالعناية به .

وصلت للمنزل ولم تهاتف ياسين لئلا تثير قلقه ، وهي تعلم أن انشغاله الشديد في العمل سيخفي شعوره بها، جلست على أريكة في غرفتها تستريح، وهي لا تعلم أتستسلم لإرهاقها، أم ترقص له فرحاً؟!

هذه المرة معها ياسين، سيشهد تعبها ووجعها، سيشهد سعادتها ويراقب تغيراتها، سيغضب حين تؤذي نفسها كعادته، ويلقي أوامره الصارمة بأن تترك عملها فتتمرد وتعاند، فيثور ويُعرض، فتتجاهله ويتجاهلها ، وعند أول ألم يداهمها ينتهي خلافهما كأن لم يكن شيئاً.

ثم ضحكت وهي تنظر لأرجاء الغرفة فقد أخذتها تخيلاتها لما هو قادم ، ونسيت كيف سيكون تأثره بالخبر؟ هل سيتهور في ردود أفعاله كعادته ؟ تتمنى أن ترى وجهه الآن وتخبره !

رنين هاتفها جذبها لتلتقطه باسمة وهي تعرف أنه المتصل، ضغطت زر الرد ولم تتحدث، ولم يتحدث هو أيضاً فقالت بابتسامة تخفي وراءها صوتها المرهق :

- ياسين!.. لم يرد فكررت :- ياسين!

اصطنع الألم مجيباً :

- يكفي واحدة، سأموت بسكتة قلبية!

قالت بغيظ :

- سأقتلك قبل أن يحدث إن رددت ذلك ثانية !

ضحك قائلا :

- لدي خمس دقائق راحة فقررت أن أعطلكِ عن عملكِ فيهم .

- ولكنني لا أعمل الآن ، لن تشغلني !

تعجب سائلاً :

- أين أنتِ ، حولكِ هدوء غريب !

- في مملكتي !

- وماذا تفعلين في مملكتكِ ؟

- شعرتُ ببعض الـ ..

وقف غاضباً وهو يقول :

- ماذا؟

تقطع صوتها وهي تسأل :

- ماذا حدث ؟ شعرت ببعض الإرهاق ، بسيط هو ..

سمعته وهو يحدث مالك قائلاً :

- مالك ، أعرني سيارتك لو سمحت !

ثم أغلق هاتفه ، فتمتمت :

- أياربي ارحمني من تهوره ..

بينما أسرع هو في القيادة ، بعض الإرهاق الذي تدعيه مؤكد أنه وصل لنهايته ، فهي تعشق عملها بطريقة تجعلها تنسى كل تعبٍ يصيبها بسببه ، وتتجاهل كل ألم يأتيها ، مجرد اعترافها بإرهاق يعني أن الأمر وصل منتهاه ، سيقوم شجار بينهما الآن دون سبب ، أو بسبب إهمالها وتهوره .

لم تتحرك من مجلسها وهي تنتظر عودته وثورته المحتومة ، سيفسد عليها الخبر هكذا ، ماذا تفعل ؟ حاولت الوقوف لتبدل ملابسها أو تغتسل فتثبت له أنها بخير ولكنها لم تستطع ، خاصة بعد ثورته ، الأمر أصبح صعباً ، فاستسلمت لسكونها حتى يعود ، يبدو أنه لا مفر من شجار ..

ارتعش قلبها وهي تسمع صفع الباب ، وصوت خطواته الراكضة لغرفتهما ، ثم وقوفه أمامها بعين غاضبة قلقة ، تماسكت قائلة :

- ياسين ، اسمعني ولا تتهور أرجوك !

جلس جوارها وقبض على يدها قائلاً :

- بمَ تشعرين ؟

ابتسمت وهي تشكر ربها أن قلقه سبق غضبه فقالت :

- هلا هدأت ، يكفي أنكَ أفسدت المفاجأة التي عدتُ من عملي لأجلها ، ما شعرتُ به ليس إرهاق بالمعنى المفهوم ، وإنما كان ...

ضغط على يدها قائلاً :

- لا تكذبي ، يداكِ باردتان جداً ..

- لأنكَ أخفتني ليس إلا ..

وبالفعل خوفها منه هو ما أثر عليها ، فهدأ قائلاً :

- أنا آسف ، ولكن أخبريني بما حدث هل أنتِ مريضة ؟

سحبت يدها من بين يديها قائلة بعتاب ممزوج بحزن :

- ياسين ، ألم نتفق على نسيان ما فات ؟

- وهل ذكرته الآن ؟

- تصرفاتك توحي بأنك لم تنساه ، تريد أن تعوضني عن كل ما حدث بكل الطرق ، حتى أنك تترك عملك وتأتي سريعاً لمجرد إرهاق طبيعي ، يتعرض له أي شخص ، من المؤكد أنني أفرح لاهتمامك بي وأتمنى أن تفعل ذلك لأجلي ، ولكن ليس كتعويض أو شعور بالندم على ما فات ، هذه الفكرة تؤلمني أكثر ؛ أن يكون ما بيننا مجرد تعويض أو ندم وشفقة !

احتضن بكفيه كفها قائلاً :

- دون شعور أفعل، أخاف عليكِ من أقل شئ، وكأنني أخشى فقدانكِ مجدداً، فلا تلومي خوفي، بل لومي نفسكِ على إهمالكِ لها.

تنهدت ببطء وهي تنظر أمامها ثم قالت :

- أريد أن أخبرك بشئ ، ولكن انتظر لدقائق !

وقفت وتحركت بتماسك ، ثم قالت :

- أغمض عينيكَ !

فعل مبتسماً دون تعليق ، تتمنى ألا يراها وهي تحضر الكاميرا حتى تستمتع بتلقائية اللحظة، كانت تفكر في إعداداتٍ كثيرة تفعلها ، ولكن طالما وصل قلقاً لن تعيده لعمله خائباً..

عادت لتقف أمامه قائلة :- لا تتهور في رد فعلكَ لو سمحت .

ابتسم وهو يفتح عينيه قائلاً :- تثيرين قلقي هكذا.

نظرت في عينيه قائلة :

- يوماً ما أخبرتني أنكَ تتمنى فتى يشبهني ، ولكن سيف يشبهكَ أنتَ .

قال بتعجب :- هل تفكرين في تغييره .

ضحكت قائلة :

- بل أفكر في الفتى الذي سيشبهني ويأخذ من الفريق الذي ستنجبه مركزاً .

زاد تعجبه وهو يسأل :

- الأحد عشر ؟ فتى يشبهكِ ؟

نفذ صبرها وهي تجلس جواره وتتناول كفه لتضعها على بطنها قائلة :

- ياسين ، هنا يتكون ابنك الثاني ، أو فتاتكَ الجميلة ، هل فهمتَ شيئاً ؟

- لا !

قالت بصدمة :- يا إلهي هل جن عقلكَ ؟

ثم وضعت يدها على رأسه قائلة :

- هل أصابكَ شئ ؟

بينما عيناه لم تفارق موضع كفه على بطنها ، وقد اتسعتا بذهول وأخرسته صدمة ما فهم ، ثم رفع ذراعه يضمها إليه بقوة حانية خشية أن يؤذيها ، وهو يقبل رأسها صامتاً ؛ فلم يعد للحديث مجالٌ الآن .

****

يوم الجمعة إجازة لنفسها ، هذا من ضمن شروطها في العمل ، فإجازتها الجمعة وليس الأحد ، ورغم إذاعة حلقة يوم الجمعة إلا أنها تعدها في اليوم الذي يسبقها وتسلمها لهم .

لذلك فوجئت بمكالمة بعد العصر ، فردت قائلة :

- ديانا تتحدث !

أتاها صوت آدم الغاضب قائلاً :

- مرحباً بالسيدة ديانا ، هل سنؤجل إذاعة الحلقة بسبب غياب سيادتكم ؟

ردت بثبات :

- الأمر لا يعنيني ، أولاً لا عمل لدي اليوم ، ثانياً ، إعداد الحلقة موجود لديكم تستطيعون مراجعته !

- لا يعجبنا ، يجب أن تأتي الآن حتى نعدل بعض النقاط !

- ولماذا يجب عليّ أن آتي ، ما لا يعجبكم غيروه ، إلى اللقاء .

وأغلقت هاتفها ، ثم زفرت في ضيق ، لم ترى في حياتها شخص غريب كآدم هذا !

رن هاتف المنزل فتمتمت :

- هل علي إغلاقه هو الآخر ؟

أجابت قائلة :

- ديانا تتحدث ، من ؟

جاءها صوت براون المهذب قائلاً :

- براون ديل يتحدث ، أنا آسف لإزعاجكِ يوم إجازتكِ ، ولكن لدينا مشكلة بالفعل تستلزم حضوركِ ، وآسف على الطريقة التي حدثكِ بها صديقي السمج ، هلا أتيتِ الآن لساعة واحدة فقط ، نحل الأمر وتعودين !

تنهدت رغماً عنها ثم قالت :

- سأصل بعد نصف ساعة إن شاء الله .

وأغلقت ، ألا يستطيع أن يتحدث الأول مثله ، هل هي جارية عنده ، أم إحدى النساء اللاتي يسعيْنَ خلفه ، حتى يتعامل معها بتلك الطريقة ، لا تعرف حين ينفذ صبرها معه ماذا ستفعل ؟ ألا يكفي عقوقه لأمه ؟ وتخبرها رحيق أنه يتجنب الكبائر ، أم أنه يرى العقوق وترك الصلاة أمر هين !

- يا إلهي كم هو شخص سمج حقاً كما يقول براون !

ثم ضحكت .

بعد نصف ساعة كانت هناك ، وأخذت معها أوراقها التي كانت مشغولة بالكتابة فيها ، فهي تعلم أنها لن تعود قبل إذاعة الحلقة ، وبالفعل عندما وصلت غرقت في اجتماعات متوالية ، وسمعت منه اقتراحات عجيبة ، وتسفيه لآرائها ، ولم تعقب ، كان ظاهر عليه تعمده لاستفزازها ككل مرة ولكنها تحملت ذلك ، فهي تعلم أنها إن ردت ستخرسه وتهينه أمام الجمع الموجود ، ولن تفعل ذلك ، الدين المعاملة ستلقنه درساً في ذلك ، ولكن ليس الآن !

ولما فاض بها أنهت تسفيهه قائلة :

- لستَ أنت من يحكم على مهارتي في العمل ، النجاح الذي حققه البرنامج بعد انضمامي لكم هو الحكم ، وأما عن ميولي وآرائي الفاسدة ، فكل منا يعبر عن رأيه بحرية ، وإن كانت آرائي ستفسد رأسك ، الأمر بسيط ، لا تستمع إليها .

ثم وقفت قائلة :

- هل أستطيع المغادرة الآن ؟ أعتقد أنني سأعطي لنفسي إجازة بدلاً من تلك .

وقف آدم قائلاً بغضب صادق هذه المرة :

- ولماذا يكون لكِ الحق في إجازة أسبوعية ؟

قالت بهدوء :- العقد الذي بيننا هو من أعطاني الحق !

- نغيره !

- ومن أعطاك الحق في تغييره ؟ تغييره يعني أنني سأترك العمل هنا !

هو بثورته وهي بهدوئها الذي يثير غضبه أكثر ، حتى وقف براون قائلاً :

- موعد الإذاعة اقترب ، يجب أن نستعد ! هيا !

ثم توجه بالحديث إلى ديانا قائلاً :

- هل تبقين لحين انتهاء الحلقة ؟ أنا آسف لتأخيركِ عن العودة ، ويمكنني توصيلكِ بنفسي .

ردت بأدب :

- لا داعي لذلك ، أستطيع الاعتناء بنفسي ، لنستعد إذاً !

ثم تركت المكان واتجهت لغرفة أخرى ، تحدثت مع بنان وأخبرتها أنها ستتأخر ، بالطبع لن يحتاجون إليها الآن ، فأكملت كتابة مقالها .

قاطعها صوته المزعج وهو يقف جوار الباب يتحدث مع أحدهم هاتفياً ، يبدو أنها امرأة من تغزله الوقح فيها ، ويبدو أيضاً أنه تعمد أن يسمعها ما يقول ، هل قصد إثارة غيرتها مثلاً أو استفزازها ، لا تعلم كيف يفكر هذا السمج، ولكنه على أي حال فاقدٌ للأخلاق .

ما أثار أعصابها حقاً حين أنهى مكالمته ودخل عليها قائلاً :

- هل عامر هذا كان صديقك وهجركِ؟

تحكمت في أعصابها وهي تقف بنية الخروج قائلة :

- ظننت أنك تعرف أن الإسلام يحفظ المرأة من اتخاذ الرجال أخداناً ، وظننت أيضاً أنك تعرف أن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده .

ثم مرت جواره قائلة :

- هذا إن كنت مسلماً بالفعل ، وليس مُسَمَّى .

بسبب عجلتها في الخروج نسيت أوراقها ، تحكم في يده حتى لا يمنعها من الخروج مكبلاً إياها في أحد أركان الغرفة ، من السهل عليه فعلها ، ولكن من الصعب أن يفعل ذلك بها ، هو حتى يحرم على نفسه لمسها ، ولو بنية إثارة استفزازها ، لا يستطيع ، هي لا تستحق منه ذلك ، إنها استثنائية بصورة تثير أعصابه.

ها هو افتعل المشكلات حتى تقطع إجازتها وتأتي ، ليس أمامه طريقة لرؤيتها سوى تلك ، حتى وإن كانت غاضبة ، فجمالها يزداد حين تغضب ، لماذا هي من تفعل به ذلك ؟

لم يمنعه فضوله من مطالعة أوراقها التي تعتني بها منذ جاءت ، وتركز في قراءتها عندما يسنح الوقت ، تقدم وجلس حيثما جلست ، أمسك أوراقها وقرأ ..

مسلم منذ الولادة

ثمة شئ يجذبني لأولئك المسلمين بالوراثة ، أولئك الذين ولدوا لأبوين مسلمين ، أغبطهم إن لم تتحول الغبطة لحسد .

فهم ولدوا وأول ما سمعوا كانت أمًّا تهتف من أعماقها " أيارب هون " ثم تلقاهم أب حنون بأيدٍ مرتعشة قائلاً " بسم الله " ثم يؤذن " الله أكبر الله أكبر فوق كل شي " .

النفس الأول الذي يدخل لرئتيهم يحمل اسم الله ، فتثبت قلوبهم ، وتتحرك خلاياهم ساجدة مقرة بوجوده وعظمته . ومن أيدٍ لأيدٍ ينتقل بـ " بسم الله " و " الله أكبر " .

وحين يمرض تسهر أمه على راحته ، يسمعها تتضرع للخالق أن اشفِهِ إلهي ، وتقرأ عليه الآيات والرقية ، ويسمع أباه يسأل فتطمئنه أمه " كما علمني الرسول فعلت " ويبدأ عقله الصغير يستوعب أن هناك رجلاً يدل أمه على الخير وتطيعه .

ويبدأ يحبو ويمشي ويقع ، وتردد أمه ماشاء الله ، اللهم احفظه ، ويتهته في الكلم ويتحدث ، فيردد أبوه على مسامعه آيات من القرآن يشفي بها صدره ، ويطلب منه أن يرددها ، فتتحفز خلايا عقله للمزيد ، ثم إن تناقش والديه في أمر من أمور الدين أو في حديث شريف ، يزداد فضوله للشخص الذي يتحدثان عنه ، ويسعدان في حضرة حديثه .

وحين يكون ابن سبع يأخذه والده للمسجد إن كان فتى ، وتصحبها أمها لمصلاها إن كانت فتاة ، ويعلمانهما الصلاة .

ويسمع تلك الكلمة المألوفة لقلبه التي استمعها حين ولد " الله أكبر " ، فيرتعد قلبه إجلالاً ، وينتبه عقله لإعجاز الكلمة ، يستفتح صلاته بفاتحة الكتاب فيرق قلبه ، يركع ويسجد فتخشع خلاياه ، ويسأل من الله ؟

هناك آباء فطنوا لأسئلة أبنائهم وأحسنوا الإجابة فأخرجوا للدنيا قادة، وهناك من سخروا بعجرفة كاذبة من أسئلة صغارهم، فأخرجوا للدنيا إما ملحدين، أو مشركين، أو جبلة متكبرين.

والآن سأغبط أولئك القادة الذين حظيوا بفطنة آبائهم ، أكثر ما أصابني بألم في أمر إسلامي وحيدة دون أهل مسلمين حولي، شهر رمضان، لم تكن لي أم توقظني للسحور، ولا أب يحثني على الصيام منذ الصغر لأعتاد الأمر، لا أنكر فضل أمي في تربيتي على الأخلاق الحميدة امتثالاً للدين الذي عرفته، وكم تمنيت أن أرد فضلها بأن أكون سبباً في دخولها الإسلام، ولكن سبق موتُها إحساني .

وكم آلمني قلبي حين أسلمت إحدى صديقاتي وأخفت الأمر عن أهلها لفترة ، واضطرت للفطر في أحد أيام رمضان حتى لا تثير شكوكهم .

بينما تلك التي أسلمت بسبب أن أبويها مسلمين ، يعني فعلت ما وجدت عليه أباءها ، تصوم في العلن بفخر ، والفطر عار عليها ، توقظها أمها للسحور وتعد لها إفطاراً لذيذاً ، تحثها على الصلاة وقراءة القرآن ، والحجاب ، وحفظ نفسها ، تحميها من شر الناس وتحذرها من شرور

الساقطين من الرجال ، في كل محنة تذكرها بالله ، أو تخبرها حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولكنهم يضيعون من بين أيديهم نعمة كبيرة ، فكفى أن الله اصطفاهم لذلك ، ولم يعرضهم لفتنة التحير بين الأديان ، ولم يعرضهم لمجتمع كل ما فيه فساد باسم الحرية ، ولم يكن لهم أبوين يحثانهم على التمادي في الشرك والنفور من الإسلام ، ولم يفتنهم إعلام شغله الشاغل محاربة الإسلام وتشويه صورته بطريقة تنفرك منه ، ولم تفكر في القتال الذي يحدث في العالم وتسمع أن الإرهاب هو الإسلام فتتساءل لماذ يفعل المسلمون ذلك ؟ ولم يكن لكَ أصدقاء في المراهقة يجملون كل فاحشة في عينيك .

يكفي نعمة الأسرة القوية المتماسكة ، فقد حظيتم بدينٍ يحض على الوحدة والتآلف وصلة الأرحام ، يكفي أنكَ حين تضيق بك الدنيا تثق أنكَ إن رفعت يدك ودعوته سيستجيب لكَ ، وأنكَ حين تذنبُ هو فقط القادر على المغفرة والرحمة ، تتيقن من أن رحمته تسبق غضبه ، وأنكَ لن تضل إن تمسكتَ بكتابه وسنة نبيه .

وأقصى أمنياتي في الدنيا أن أنجبَ طفلاً لأمنحه مالم أحظَ بهِ ، فهو سيولد ليسمعني أردد " يارب هون " ويستقبله أبوه مكبراً في أذنه فيخر قلبه ساجداً ، سأعلمه الصلاة والصوم ، وآخذه معي للكعبة ، سيراني وأنا أتصدق وأخرج الزكاة ، سأسمعه دائماً " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " ، سأحصنه بذكر الله دائماً ، سأعلمه البر وصلة الأرحام ، سأجعله طريقي للجنة وحجابي من النار .

ترك الورقات من بين يديه بإهمال ، ولا ينكر أن ضوضاء من الكلمات حشرت في صدره بعد قراءته ، أراد أن ينتقد كل ما قالت، ويعلق كثيراً كثيراً، لكن تلك الضوضاء تأبى الخروج الآن، هي فقط تصيبه بتشويش وسحابات ألم.

عندما تذكرت أوراقها عادت لتأخذها، فوجدته جالساً على مقعدها، والورق ملقى أمامه بفوضى، وعيناه مرتكزتان على موضع واحد، وهاتفه يرن دون حركة منه، فاقتربت لتأخذ أوراقها وتغادر سريعاً، لملمت الأوراق وبقيت واحدة تحت يده فقالت بثقل وكأن شيئاً يخنقها :

- لو سمحت!

نظر لها بتلاعب قائلاً :- ماذا تريدين؟

ردت بتأفف :- ارفع يدكَ عن الورقة!

رن هاتفه مرة أخرى ، فأزعجها بالإضافة لارتباكها ، بخوف كانت تنظر للباب المفتوح فقالت بسرعة غاضبة :- الورقة لو سمحت !

رفع يده بسرعة لما رأى غضبها وخوفها الذي لم تستطع إخفاءه ، ثم أجاب هاتفه قائلاً :

- كيف حالكِ أمي ؟

كانت تغادر الغرفة أثناء حديثه ، ولكن فضولها جعلها تبقى قريبة لترى كيف يتحدث مع أمه ..

- سأقضي معكِ هذا الأسبوع كاملاً ..

ثم ضحك قائلاً :

- إن شاء الله .. بعد انتهاء الحلقة مباشرة سأتحرك إليكِ .. لا تصدقيني ! .. هل أنا سئ لتلك الدرجة ؟ .. إذاً انتظريني بعد ساعات ..

وعاد ليضحك وهو يقول :

- إن شاء الله .. أعدكِ بذلك ، وإن لم أفعل ، احرميني من دفء صوتكِ !

أنهى مكالمته فابتعدت ، وهي تفكر في مقالها ، بالطبع محظوظون ، لديه أم تذكره بـ " إن شاء الله " بين كل دقيقة وأخرى ، ثم شعرت بالضيق وهي تتساءل :

- ألم يكن ما فعلته تَجَسُّساً؟

****

حياة هادئة تعيشها ميرا وزوجها، لا يكدر صفوها سوى طموحاتهما العالية والتي لا تستطيع أموالهما تحقيقها ، فيدخران ما استطاعا ، لأجل أشياءٍ عدة ، تعده ويعدها بالسعادة ، برحلة إلى مصر ومثيلتها لألمانيا ، وقبل ذلك عمرة وياحبذا لو كان حج .

في صباح هادئ، جلست ميرا تطعم ابنها قبل خروجها لعملها ، بينما يرتدي محمد ملابسه استعداداً لجامعته ، كان يبتسم كلما سمع تغزلها بابنهما ، وضحكاتها العابثة له ، وحديثها الطفولي الذي لم تمل منه .

طرقات على الباب ، ذهبت لتفتح ، فلحقها محمد قائلاً :- انتظري سأفتح أنا !

ابتسمت وهي تشير له قائلة :- عُدْ إنها امرأة !

ضحك قائلاً :- سأستغل غيرتكِ تلك يوماً ما !

فتحت لتجد امرأة بحجاب تقف أمامها فرحبت بها بابتسامة اختفت حين سألت الأولى :

- أريد الدكتور محمد يوسف !

سألت ميرا :- أخبره بِمَن؟

- زوجته !

كانت ستتجاوزها متشككة في الأمر لولا ظهور محمد قائلاً بعدم تصديق :

- ليلى ! كيف جئتِ إلى هنا ؟

شعرت ميرا بدوار وهي تنظر لمحمد ، ثم للغريبة التي تقف أمامها ، فدخلت لتحمل ابنها بسكون وتغادر الشقة وسط نداءات محمد ومحاولاته لمنعها !

٢٤

تزوجْني

هل تقصد أن يعلقها به، أم كان صادقاً فيمَ يفعل؟ لسبعة أيامٍ زعم أنه سيقيم مع والدته ، واعتذر عن الإذاعة ، وقام براون بالعمل وحيداً ، وكأنه فعل ذلك ليتفرغ لها!!

يومياً ينتظرها حين تنهي عملها، يركب معها نفس الحافلة ويجلس بعيداً عنها، لا يحدثها وكأنه لا يعرفها ، وحين تتوقف الحافلة ينزل معها ويسير وراءها بصورة طبيعية دون حديث ، وأمام بيتها ينطق بجملة واحدة يكررها كل يوم :

- ديانا.. اعتني بنفسكِ جيداً..

هل منعت نفسها من مهاجمته ؟ أم أن نفسها أبت فعل ذلك ؟ هل سيطرت على أعصابها ولم تغضب من تصرفاته ؟ أم أن الغضب لم يطرق عقلها من الأساس ؟ لماذا يفعل ذلك متعمداً ؟ هل يعلم أنها ما حظيت بهذا الاهتمام في حياتها ؟ أو يعلم أن أحداً لم يحاول الحفاظ عليها ويظهر خوفه عليها ؟ من قاموا بهذا الأمر في حياتها ياسين ومحمد ومالك ومن قبلهم أحمد ، فقط لا غير ، أشخاص لا تنتمي إليهم حتى عامر لم يفعلها .

ولكنها ليست مراهقة تبحث عن مشاعر لم تطرق باب قلبها لدى أول شخص يعرضها عليها ، كل ما في الأمر أنها تتجنب أي احتكاكٍ بينهما، لأجله هو وليس لأجلها ، لن تقبل بأن تجعل صورته سيئة بين زملاء عمله، أو أصدقائه .

حتى نهاية الأسبوع رأت أن ما تفعله ينافي أي فضيلة تعرفها ، وعند بيتها وقبل أن ينطق جملته تحركت نحوه بخطوات ثابتة قائلة :

- سيد آدم ، هل ابتعدتَ عني لو سمحت ؟

قال بصوت لم يستطع إخفاء نبرته القلقة :

- أمازال يتعرض لكِ عامر ؟

- عامر؛ من أين عرفت ذلك؟.. سألتْ باستنكار..

تحكم في صوته قائلاً :- أجيبيني !

قالت بتأفف :

- لا لم يعد يفعل ، والآن هل توقفت عن مراقبتي ؟

وفعل، لم يعد يفعل عادته الليلية تلك، ولكن فعل شيئاً أكثر حيرة في الأسبوع الذي يليه، وهو يتتبعها في النادي أثناء تدريبها للأطفال، بحجة ولي أمر واحد منهم لا تعرفه، بالطبع يريد منها أن توقفه وتثور عليه أو تهينه، لن ينال ذلك أبداً، حتى وإن تتبعها لبيتها ثانية، لن تحدثه.

وبالطبع يبدو أنه يخطط جيداً إذ فعل ذلك لأسبوع آخر، وكأنه ينتظر آخره، ذهب ليحدثها قائلاً :- لماذا اعتزلتِ؟ لقد كنتِ أقرب للعالمية!

لم ترد وهي تتجاوزه ، فوضع صورة لها أمامها قائلاً :

- أجمل ما في الأمر أنكِ تخليتِ عن ارتداء أشباه الملابس تلك !

نظرت لصورتها بغضب ، وهي ترى نفسها بتلك الملابس العارية ، من أين أتى بها ؟ وتحول غضبها لحديث قائلة :

- ماذا تريد ؟ هل تسعد بتلك الأفعال ؟ أم أن التطفل عادة لديك ؟

ابتسم وهو يقف أمامها بهدوء ينافي ثورتها وقال :

- تعلمين أنني أيضاً لا أحب الشهرة ، وبالنسبة للتطفل ، فليس أنا من عين شخصاً لمعرفة كل صغيرة وكبيرة عني قبل أن يلتقيني وكأنه يخطط لشئ ما !

احمر وجهها خجلاً وغضباً ، فابتسم وهو يقول :

- لم أشأ إحراجكِ ، فأنا معتاد على ذلك الأمر ، كل النساء يردن معرفة كل شئ عني ..

قاطعته قائلة باعتداد :

- ومن تظن نفسك؟ أنا عادة أفعل ذلك مع أي فريق عملٍ أنضم إليه، وكما عرفت عنك عرفت عن براون وفريق الإعداد والمخرج، لا أعلم إلى أي شئ وصل بكَ غرورك، من أنتَ حتى أسعى لمعرفة أي شئ عنك، حتى ما عرفته ليس بالشئ الذي تفخر به، بل عيباً يجب أن تخفيه!

ثم استغلت صدمته بحديثها، وهي تخطف الصورة من يده وتغادره..

بالطبع الأسبوع الثالث اختفى تماماً، دون خبر عنه أو اعتذار للعمل!

خدعت نفسها بأن الأمر لا يعنيها ، ولكن لم تستطع منع شعور بالقلق من حديثها الأخير معه، ولم تستطع منع شعور الافتقاد باهتمامه الذي أحاطها به رغماً عنها، ومع ذلك جسرت أمام كل شئ ، فهي ليست بحاجة إليه.

كيف تفكر بتلك الطريقة؟ اليوم الذي يشغلها رجل يكون بأخلاق آدم هذا ؟ إنه حتى ..

إنه حتى يحقق لها كل ما تحتاجه، ولشد خوفها من أن تجذبها حاجتها لرجل لأول رجل يطرق بابها!!

كل ذلك حدث قبل ذلك الصباح العاصف الذي طرقت فيه ميرا بابها وهي على وشك الانهيار، لم تكن تدري ديانا وهي تفتح لها أنها من الممكن أن ترى ميرا بهذ الشكل ولو في أبشع أحلامها، أدخلتها وأخذت علياً منها، كانت بنان تستعد للخروج فلم تشأ عطلتها وهي تصر على خروجها، وبقيت مع ميرا تحاول تهدئتها بشتى الطرق، بلا فائدة.

لم تجد حلاً أمامها سوى الاتصال بمحمد!!

****

يذرع الشقة منذ غادرتها، ثائر غاضب حانق، ولو كانت ميرا هنا لماتت رعباً منه، فهي لم ترَه غاضباً مثل هذه اللحظة، ولكنها ليست هنا ، تركته وهو في أشد احتياجه إليها ، ولا يعرف أين ذهبت ، ولا يستطيع ترك هذه المخبولة الآن !!

وفي غمرة غضبه جاءه اتصال من ديانا ، فأجابه بلهفة ستقتله ، استمع لها ومازاده الأمر إلا قلقاً عليها ، حتى قال :

- ديانا أرجوكِ ، أخبريها أنها أساءت فهم الأمور ، عليها أن تعود الآن ؛ فلا أستطيع الخروج ..

لماذا تتخلى عنه ؟ لماذا ؟

بأخواته اتصل ، وبأزواجهن ثار وغضب ، وكأن لا حيلة لهم في شئ ، فأغلق هاتفه . كل غضبه أمامها ، وهي تجلس بكل ثقة وبرود بابتسامة متشفية وكأنها ترى نجاح ما فعلت !!

وهو كل ما يشغله ميرا ، ألا تثق به لتسمعه فقط ؟ ألا يجد له في قلبها أي مستقر ؟ من كلمة واحدة قالتها تلك تركته وكأنها تنتظر الأمر !!

بعد وقت ليس بقليل كانت أمامه ..

لا يعرف كم عانت ديانا لتقنعها أن تفعل ، ولا يعرف كيف جاءته وحيدة الآن دون ديانا أو رحيق التي لحقت بهما ، لولا تحذير رحيق من أن تعود إليه بهما لفعلت ، حتى أنهما أخذا ابنها منها !!

وبالفعل انتابتها رعشة رعب عندما رأته ، فالغضب الظاهر على وجهه كان يخيفها بطريقة متوحشة ، وكأنه يريد الفتك بها ، لم تكن ترى في عينيه سوى نظرة حب يبدو أنها ماتت الآن !!

نظرت للمرأة الجالسة أمامها ، ونهشت الغيرة قلبها لتصورها لهما وحيدين في غيابها ، ولكنها رغم ذلك انتزعت نفسها من بينهما وتوجهت لغرفتها !!

دخل خلفها وبكلمات بسيطة مقتضبة قال :

- ليست زوجتي ! إنما ابنة خالتي ، ولأنني رفضت الزواج بها من قبل جاءت لتنتقم ، علي الآن شكرها ، لأنها عرفتني مدى مكانتي عند زوجتي التي لم تكلف نفسها عناء الاستماع إلي ..

وخرج ، وكأنما قلب الطاولة فوق رأسها ، وصب دلواً من الماء البارد عليها لتتشنج أطرافها وتفقد الإحساس بكل شئ إلا هو !!

ثم سمعته في الخارج يجري اتصالاتٍ أخرى وهو يصرخ متحدثاً ، لم تشعر سوى بدخول الغريبة ليلى ، حاملة في يدها شيئاً تتصاعد منه الأبخرة بابتسامة معتذرة ، فنظرت لها ميرا بترقب بائنٍ حتى اقتربت منها وجلست قائلة :

- لم أكن أقصد ذلك كنت أمزح معكِ فقط ، يبدو أنكِ تغارين عليه بشدة ، اشربي هذا سيهدئ أعصابك ..

وقبل أن تنظر لما في يدها أو تتناوله كانت تصرخ من فرط الألم الذي لحقها ، بسبب محتويات الكوب التي سكبت فوق ملابسها ..

على صرخاتها جاء محمد فزعاً ، فوجدها من الألم لا تتحدث وعيناها لشدة اتساعهما سيخرجان من مقلتيهما بأنفاس مبهورة ، نفست عن صرخة أخرى ، صرخ بالمخبولة التي حلت عليهما صبحاً فادَّعت البراءة ، وبِشَرٍّ لم يعتده في نفسه قال :

- يبدو أنني صبرت عليكِ كثيراً ..

ثم حدث ديانا هاتفياً وطلب منها أن تسرع لتأخذ زوجته للمشفى ، وبمجرد وصولها ، قبض على ليلى بعنف وهو يجري مكالمات عدة ، ثم قال بثورة :

- ووجودكِ هنا غير قانوني أيضاً ، لقد جنيتِ على نفسكِ يا ابنة خالتي .

وببلاغ بسيط للسفارة كما نصحه زوج أخته حل الأمر ، سلمها لهم وهرع لزوجته ، أي ذنب اقترفه ليحدث له ذلك؟ أي مصيبة فعل ؟ هو حتى لم يعدها بالزواج !!

أيعقل أن يصل الحقد بأناسٍ إلى تلك الدرجة ؟ في زيارته الأخيرة بمصر لم يكن مرتاحاً أبداً لتصرفاتها التي قصصنها أخواته عليه ، لم يراها وكان مطمئناً لذلك ، فلم يكن يريد أن تراها ميرا وهي تغار عليه من أخواته ، فماذا سيحدث لو عرفت بليلى ، أيخبرها أن هناك امرأة كانت تحبه؟ وفعلت المستحيل حتى يتزوجها وأنه رفض ذلك ، أم يخبرها أن أمه وأمها كانتا تخططان لذلك بكل سعادة؟ بالطبع لم يحكِ لها شيئاً ولم يكن ينوي ذلك .

سيجن ممَّ فعلت ، هل تسافر من مصر لأمريكا وبطريقة غير قانونية ، حتى تحرق زوجته وتكدر عيشه ، هل اطمأن بالها الآن ؟

****

لثلاثة أسابيع تدرس بنان الشئ الذي اختارت، تستمتع بكل دقيقة تقضي وقتها فيه، وتسعد برؤية مالك دائماً !

في اليوم الأول انتظرها أمام سكنها وذهبا معاً لمحطة الانتظار دون حديث بينهما، هل يمثلان رسمية العلاقة الآن؟ أم يحاولان ذلك؟

لم تدُم تلك الرسمية حتى وصلا لموقف الركاب سألت بفضول :

- أين سيارتك؟

أجاب بجدية :

- إنها لأبي ، سنذهب معاً بالحافلة !

لم تتحدث بعدها ولم يزِد في القول عن ذلك !

بالطبع لن يستطيع أخذها معه في السيارة ، فالمكان الضيق بها لن يحتمل وجودهما معاً ، لذلك قرر الذهاب معها بدلاً من ذلك ، يحاول أن يقلل حديثه معها بشتى الطرق ، ولا يعرف ما السبب ، لماذا لديه شعور بالغرابة الآن ؟

وكما حرضها فضولها لتسأل، حثه فضوله ليتحدث يوماً بعد يومٍ يسأل عن أخبار الدراسة معها، وهل تجد نفسها فيمَ تحب كما يجد نفسه؟ هل تشعر بتلك السعادة التي يشعر بها لاقترابه من حلمه؟ ثم يسكت فجأة!!

أحياناً يشعر أنها توأمه فيتحدث براحة غريبة عليه، وأحياناً يشعر بأنها صديقه، فيخبرها عن أشياءٍ لا يخبرها لأحدٍ قط، حتى ذلك اليوم الذي قال فيه :

- هل تعلمين أنني تقدمت لخطبة جهاد؟

نظرت له بصدمة ممزوجة بحزن، سريعاً ما تحولت لغضب مصطنع، واثق هو أنه مصطنع، وهي تسأل :

- دون أن أعرف أيها ...

قاطعها بابتسامة مضطربة :

- ورفضتْ ، والآن هي مخطوبة لآخر !

امتزجت السعادة والحزن على وجهها بطريقة لم يستطع أحدهما تفسيرها وهي تقول :

- من المؤكد أن هذا أفضل ، حتى لو أصابك الأمر بحزن وخيبة أمل ، فهذا أفضل ، كنت تقول لي دائماً قبل ذلك أنك رغم كل ما يحدث لك في حياتك ورغم التعاسة التي كنت تعيشها بسبب علاقتك بأبيك ، ورغم تقصيرك في عبادة الله ، كنت تشعر أن مفاجأة ستحدث لك في حياتكَ فتنقلب رأساً على عقب ، وأنك يوماً ما ستعبد الله كأنك لم تعبده من قبل ، وأن السعادة التي تتمناها ستصل إليها ، كل ما كنت تعرفه عن الله أنك إن أحسنت ظنك به سيكون عند ظنك ! وحدث ذلك !

أومأ مبتسماً ثم قال :- أخشى من تذكركِ لكل شئ كنت أقوله !

ابتسمت ولم تجِب !

لماذا تأتينا لحظة لا نفهم فيها مشاعرنا ؟ وغالباً تكون مع الشخص المناسب ! قد نتوهم في حب أشخاص غير مناسبين لنا إطلاقاً ، نحزن وننهار لفقدانهم ، ثم عند الشخص المناسب تقف عقولنا عن العمل ، وتعمى قلوبنا عن الحقيقة !!

هل لأنه فقد الثقة في قدرته على الحب مرة أخرى؟ أم لأنه أيقن أنه رجل لا يصلح للحب، قد يكون الأمر أعمق من فشله في علاقته بليندا، قد يكون لأنه أحب قبلها كأي شاب في سنه كان، وفي مراهقته وصباه، هل عاش تلك المراحل وما شعر سوى بحب ليندا، أم أنه بالفعل فشل في كل علاقاته السابقة، ليس الفشل بالمعنى المفهوم إذ أنه لم يكن ذلك النوع الذي تجذب الفتيات معرفته والاقتراب منه، رغم انحرافه الذي كان يراه أبوه!!

وقد يكون حاجته لوجود صديق في حياته يفهمه، ويشاركه هواياته وميوله ومهاراته هو ما يجذبه إليها، اتفاقهما الغريب في أشياءٍ كثيرة ، وتناقضهما الأغرب في تشابهاتهما.

ولكن هناك تغير ملحوظ حرصا على تواجده في علاقتهما، وأصبحت هي الأقدر على التحكم فيه، فهي بتلقائية شديدة أيقنت أنها تحب مالك، وأن مالك لا يرى فيها سوى صديق له!

وأصبح الأمر هادئاً، حتى ذلك اليوم عندما التقاها بعد انتهائهما، ثم نظر لملابسها قائلاً بسخرية اعتادها معها، ولم تعد هي تحتملها منه :

- بنان ، يجب أن تختاري ملابسكِ جيداً ، كما يجب أن تكون مهندمة ! أم أنكِ تحبين لفت الأنظار إليكِ!

شعورها بالإهانة منه، جعلها تتركه، وتركض بلا وجهة محددة، لماذا لا يحترم مشاعرها كفتاة؟ لماذا يتحدث دائماً معها كأنها صديقه الذي يشاركه قاعة الدرس؟ حتى عندما وصلت لديانا لم تتوقف عن البكاء ، وحكت لها ما حدث.

وبدأت تسألها كطفلة في أول أيام المدرسة، أو مراهقة تنتظر نظرة رضا من فتى أحلامها :

- هل أبدو بتلك البشاعة؟ هل كان شكلي مزرياً لتلك الدرجة؟ هل مازلت أتشبه بالرجال؟

أشفقت عليها ديانا وهي تحاول توضيح الأمر لها بأنه من المؤكد ما قصد ذلك ، ولكن لا فائدة ، وتجنبت الذهاب معه والحديث إليه لأيام ثلاث ، حتى جاءها في الجامعة واعتذر ، حينها فقط أشرق وجهها بابتسامتها التي غابت ، وهو يقف أمامها ببعض البالونات الملونة ، ثم قال :

- لا تبكي مرة أخرى وإلا ضربتكِ!

ومازال يحاول الحفاظ على الجدية بينهما، وفاشل هو في ذلك دائماً، وآخر حديثهما حين سألته :

- مالك ! ديانا لا تريد أن تأخذ مني أمولاً، هل هذا أمر طبيعي؟ لا تخبرني أنه طبيعي كما فعلت قبل، فهي ليست لها القدرة على الإنفاق علي، كما أنني أمتلك بعض الأموال التي أعرتني إياها، والتي أعطانيها العم عمر، أستطيع أن أعيش بها!

رد بتحكم :

- لم أعيركِ أموالاً، أخبرتكِ أنها حقكِ، وبالنسبة لديانا لا تذكري لها الأمر ثانية، فليست هي من تنفق عليكِ ! وذكركِ للأمر يحرجها بشدة، لأنها عاندت كثيراً لتكون مسئولة عن كامل احتياجاتكِ ، ولكنه رفض !

سألت باستنكار :

- ومن هو ؟

أجاب وهو يبتعد عنها :

- زوجكِ السابق !

غريبة هي الكلمة ، والأغرب طبائع النساء ، يعشقْن الانتماء إلى الكائن الذي يسكن قلوبهن ، حتى وإن أخطأن في اختياره !!

هل بذلك أصبحت امرأة كباقي النساء ؟!

ولكنها رسمت طرقاً جدية للحفاظ على كرامتها أمامه ، والحفاظ على فاصل يبعد بينهما ، سألت ديانا ذات يومٍ بينما يتناولان طعامهما :

- ماذا تقولين في امرأة تحب رجلاً لا يراها، كيف تتجنبه وهي تعمل معه وتراه جل وقتها؟

ابتسمت ديانا باضطراب ، ورغم أن الأمر لا يعنيها إلا أنها شعرت أنها هي المرأة عينها، فقالت بتماسك :

- لا تتحدث معه قدر المستطاع ، وإن لم يكن عملها ضروري تتركه ، وإن كانت مضطرة له تظهر له الجدية في التعامل ، لا تحاول التبسط معه أبداً ، للحفاظ على كبريائها ، وأن تبقى نفسها أمام نفسها .

وفعلت كلتاهما !! ..

الأمر سبب بعض الضيق لمالك، أن تستطيع هي فعل مالم يقدر عليه هو، وشغله التفكير بين عمله ودراسته وهي، حتى أصابه الصداع مرة أخرى، فلجأ إلى مسكنه!!

وعلى فخذها وضع رأسه كعادته، وراحت تدلك رأسه بحنو باسم ثم قالت :

- ما الذي يشغلك مجدداً؟

تحدث وهو يغمض عينيه بألم قائلاً :

- سأخبركِ عن شئ ، ولكن لا تنزعجي !!

سكتت كناية عن استماعها فقال :

- هناك شخص أشعر بالسعادة فقط عندما أراه سعيداً، أعشق ابتسامته ..

قاطعته بابتسامة :- ابتسامته!!

أجاب متذمراً :- نعم ابتسامته ، هو !

ثم أكمل :

- أحب الحديث معه كثيراً ، أحكي له عن كل شئ ، ورغم أنني لا أعمل برأيه في شئ إلا أنني أحب الاستماع له ، وكلما حاولت الابتعاد عنه ، لا أفتأ أن أقترب منه ، وأكون ملاصقاً له ، لا أعرف ماذا يحدث لي في وجوده ، بل أنني أتعمد أحياناً إغضابه ثم أندم فور ما أرى بكاءه ، هل تعرفين ماذا يعني كل هذا ؟

شدت سارة شعره بابتسامة حنون ثم قالت :

- بالطبع أعرف إنك تحبها .. أقصد تحبه.

انزعج وهو يعتدل جالساً ثم نظر لها قائلا : - إنه صديقي!

ضحكت ثم قالت :

- وما المانع أن تحب صديقك ! فأنا أيضاً أحب صديقتي كثيراً بل أعشقها ، أحب ابتسامتها وأعشق وجودها معي ، أتحدث معها كثيراً وأطلب نصيحتها ..

توترت ملامحه قائلاً :

- آه .. نعم ، أنا أحب صديقي ، لأنه صديقي!

ثم تنهد قائلاً :

- أمي ، أنا كنت أحب ليندا ، لم أكن أحبها بتلك الطريقة ، وهذا يعني أنني عندما أحب أي امرأة أخرى سأحبها كما أحببت قبل ، حتى جهاد توهمت أنني أحبها بنفس الطريقة ، كنت أحب رؤيتها ، أحب ..

- تحب أن تشعر أنها اختيارك أنت ، وتنتمي إليك وتفعل ما تحب فعله ، وكذلك كانت جهاد من اختيارك ، مشكلتك أنك متسرع في مشاعرك ، لذلك من السهل عليكَ تلقي الصدمات ،أنت لم تحب ليندا ورغم ذلك منحتها أجمل مشاعرك، أنت أحببت امتلاكها، وكذلك جهاد!! لكن ...

قاطعها وكأنه يخاف أن تنطق باسمها :

- لكنني مازلت عاجزاً عن فهم مشاعري، ومازلت أفعل أشياءً غريبة لا أعرفها، ولا أعرف كيف السبيل إلى تجنبها؟!..

ربتت ظهره وهي تقول :

- اعزل نفسك عن كل شئ ، حتى تستطيع الحكم على نفسك ، ولكن لا تبتعد عن مالك ، اتفقنا !!

وضع رأسه على فخذها وهو يقول :

- رأسي تؤلمني !!

فقامت بسحرها دون حديث ..

وكأنه انتظر حواره معها ، حتى يستطيع التحكم في نفسه ، يبدو أنه سفيه أبله ، يقع في حب أي فتاة ، لا يستطيع التحكم في مشاعره اللزجة المتفجرة نحو أي احتياج ، هو بحاجة للحب ، والحب إن كان احتياج مات ، فليتزن قليلاً !

خطوة بخطوة استطاع أن يجعل من بنان زميلة دراسة له ، وأختاً صغيرة يتوجب عليه حمايتها إن لزم الأمر ، لم يعد يروح ويجئ معها بحجة انشغاله في عمله وتقبلت هي الأمر إذ رفع عنها حرج الطلب ، ولم يعد يحدثها إلا في أضيق الحدود !!

****

لماذا لم يجدها عندما عاد؟ لماذا لا تشعر به؟ لقد أصبح جالباً للشفقة ويشعر أن الجميع يظهر عطفه له إلا هي ..

ذلك الترحيب الذي لاقاه من زملائه عند عودته، لم يكفِهِ وهو ينتظر وجهها هي، لم يفهم عينيه الباحثتين عنها سوى براون الذي قال ضاحكاً :

- اعتذرت عن الموعد قالت أنها ستتأخر ساعتين!!

زفر في راحة ، وهو يحاول التماسك ، فساعتان سيصبرهما حتى تشرق شمسها !!

****

بعد رعبٍ عاشه في يومه ، عاد بها للبيت وحيدين بعد إصرار ديانا على أن تُبقي علياً معها ، فلن تستطيعَ ميرا الاعتناء به بسبب حروق يديها المضمدتين ، ويكفي لمحمد الاعتناء بها !!

دخل بها لشقتهما الصغيرة دون حديث بينهما سوى كلمات بسيطة منه ليطمئن عليها خرجت وكأنها لأداء واجب ، ورد مقتضب منها ظهر وكأنه مغتصب ..

اعتذر بالطبع عمَّ فعلتْه ابنة خالته المجنونة ، ولكن حتى الاعتذار كان مؤلماً لهما ..

****

ديانا لزم عليها أن تذهب لعملها بسبب وعدها وتأخرها عن الموعد الذي حددته ، لم تكن تعلم أن هناك من ينتظرها ، وقلبه يقرع لتأخرها ، وما إن وصلت حتى وقف بلهفة لرؤيتها ، ولم يستطع التحكم في نفسه ..

ثم خاب أمله وهو يراها تحمل رضيعاً على ذراعها وتضمه إليها بحنو وابتسامة أمومية ترتسم على وجهها ، هل كانت تعلم أنه ينتظرها لذلك أسعدته بابتسامتها ؟ أم كانت تعلم أنه يموت عطشاً لرؤية وجهها ؟ هل زاد جمالها بتلك البسمة أم أن شوقه لها جملها ؟

وهي لما رأته اضطربت ، وتوترت ملامحها ، وبدا الانزعاج عليها فانكسر شئ فيه ، أن تكون هي سبب نضارته ويكون هو سبب ذبولها ، حاول تجاوز الأمر وهم يبدأون عملهم بجدية !!

تناقلت الأيدي طفلها الذي تحمله ، وكانت يداه مما وصلت إليه ، فأغدق عليه بمشاعرٍ لم يجربها قبل ، قد يكون لأنه يخصها ، أو لأنه اكتشف فجأة أنه يعشق تلك الكائنات الرقيقة ..

بينما انشغل تفكيرها بذلك الموضوع الذي كتبه تاركاً إياه لها ، رداً على ما كتبت ، منذ قرأته وهي تراه بعينٍ أخرى !!

هذا ما وجدنا عليه آباءنا

بالضبط نكون !! أعتقد أنني لو ولدت لأبوين مسيحيين أو يهوديين لما فعلت شيئاً ، وكنت سأبقى على دينهما ، ولكن الله اختار لي أن أولد لأبوين مسلمين ..

هي نعمة وفضل من الله ، ولكن هل ترين فيها أي تميز ؟ إن كان هناك من عليه أن يحسد أحداً فأولئك الذين أسلموا منذ الولادة ، يحسدونكم أنتم – حديثي الإسلام - فقد تفكرتم وبحثتم واخترتم دينكم بأنفسكم ، ولذلك تعرفون قيمة النعمة الحقيقية ..

ليس كمثلنا في أي شئ ، فها أنا أمامكِ شخص لا يصلي ، وإن صلى لا يشعر بما تشعرين به أنتِ ، لا يشعر بذلك الاتصال الروحي بينكم وبين خالقكم ، وإن قرأت القرآن لا أفهمه ، وإن صمت رمضان فلأنه عادة ، رغم أنني نعمتُ بأبٍ يحثني على الصوم وأمٍ توقظني للسحور وتعد لي أشهى الفطور !!

هل أخبركِ بشئ آخر ، نحن المسلمين لو تعرضنا لنصف ما تتعرضون له من ابتلاءات واختبارات لسقطنا مع أول صعوبة ، ولو جلدونا لترك الإسلام قد نتركه مع أول ضربة !!

نحن لا نشعر حتى بأولئك الذين يموتون في فلسطين والشيشان وبورما والعراق، ويوم أن نتذكرهم نقول بقلة حيلة " وماذا نفعل غير الدعاء "، رغم أن باستطاعتنا فعل الكثير !!

نحن المسلمين منذ الولادة، لا نشعر بلذة العبادة التي تحظون بها لأننا بكل بساطة فعلنا ما وجدنا عليه آباءنا، وهل تعلمين أية مصيبة هذه؟ نحن حتى لم نتفكر في عمق الدين ولم نجد حلاوته، ونتمنى لو نشعر بربع ما تشعرون!

أنتم قوم غيرنا ، تقرأون فاتحة الكتاب فتبكون لشدة تأثركم بها ، أما نحن فقد نكررها في اليوم والليلة مائة مرة دون أدنى تأثر ، ولا نفقه لأي آية بها سوى قول آمين في نهايتها !!

تفرحون بآيات النعيم والجنة وتخافون من آيات العذاب والنار ، ونحن نمر عليهم مرور الكرام ، تعيشون بالدين في كل شئ ونعيش به في المصائب فقط !!

صلاتنا عادة ، صيامنا عادة ، حتى قيامنا يصبح عادة ، وقراءتنا للقرآن عند المصائب عادة ، أما أنتم ... لا داعي لعقد المقارنة ، فهي شاسعة !!!

ليس لكِ أي حق في غبطتنا لأننا قوم يكاد الله ليستبدلنا بسبب أفعالنا ، ليس لكِ الحق في غبطتنا لأن ما أنتِ عليه الآن أفضل كثيراً من أن تكوني مسلمة بالوراثة !

في الحقيقة أتمنى لو كنتُ مثلكِ ، أبحث عن الله وعن الدين الحق وأصل إليه بإرادتي كاملة وأقف على بابه راجياً ، لكن كتب عليّ أن أكون من أولئكَ الذين ولدوا ليستمعوا إلى أمٍ تقول " أيارب هون " ويتلقفه أبٌ قائلاً " بسم الله " ثم يكبر ..

ليتنا مثلكِ، ننعم بما تنعمين به ونشعر بذلك السلام النفسي الذي تعيشين فيه، بعدما هداكِ الله إلى الحق وهداكِ إليه، ولأنكِ شخص مبارك لا تنسينا من دعاءكِ أن نصل لربع ما وصلتِ إليه ..

رجُلكِ المخلص .... آدم

****

- رحيق !! هل أصبحتِ بخير؟

فتحت عينيها على صوته الخافت ثم ابتسمت قائلة :

- كما ترى ، لم ألد بعد !

اتسعت ابتسامته وهو يمسح على رأسها ، منذ فزعت من نومها صباحاً ، وهي تتصل بديانا على عجل وتعرف منها ما حدث لميرا ، ثم تذهب إليهما قلقة وتبقى مع ديانا حين أوصلتا ميرا لبيتها، ثم تفزع مرة أخرى وهي تذهب معها للمشفى ..

ولما اطمأنوا عليها عاد بها للبيت ، وها هي نائمة منذ عادت ، يسألها عمّ تشعر من حين لآخر ، ويقيس حرارتها ، وكأنها زجاج يخشى على كسره ، وهذا حاله منذ علم بحملها ، لا يخلو يومها من سؤال معتاد عن صحتها وكيف تشعر واقتراح بترك عملها، وأمر آخر بالشئ الذي ترتدي، هل خوفه أمر طبيعي خاصة وهي تعلم أنه قلق بطبعه، أم أن لما حدث في الماضي دخل في ذلك؟!!

نظر إلى وجهها المرهق قائلاً :

- لو هناكَ جراحة لقتل الحاسة السادسة لأجريتها لكِ.

- سأفقد الشعور بكَ كذلك!.. قالتها مبتسمة ، فقال :

- سأتحمل الأمر ، لئلا تفزعي من نومكِ مرة أخرى!!

ثم سأل :- ألم تخبريهم بعد ؟

أشارت برأسها أن لا قائلة :

- لا أستطيع ، صدقني مهما حاولت لم أستطع ، رغم أنني أخبرتك بأن علينا تجاوز ما حدث ، ولكن تداهمني ذكرى حملي بسيف ، وخوفي من إخبار أبي ، وانهياري أنني وحيدة دونك ، كلما هممت بإخبارهم ينتابني نفس الخوف ، رغم يقيني بسعادتهم بالخبر هذه المرة .

مسح على خدها قائلاً :

- وما رأيكِ في مغامرة نجتاز بها خوفنا ؟

- أتعتقد أنني أستطيع !!

- لترين بنفسكِ !

صمتت وهي تنظر أمامها فحثها قائلاً :

- هيا رحيق ! نحن أكبر من أي خوف !

قبل أن ترد جاءها إعصار مفاجئ يقفز على السرير جوارها قائلاً :

- أمي .. السابقون السابقون !

- آه !!

- سيف !!

حمله ياسين بسرعة وهو يعنفه بغضب ، فاعتذر قائلاً :

- كنت أذكرها بالصلاة فقط ! لقد سمعت الآذان ولم تتحرك بعد !

صمت ياسين لثوان وهو يقول :

- يمكنك تذكيرها بهدوء ، هيا لنصلي نحن ، ثم نعود لها !

ثم انحنى على رحيق قائلاً بقلق :

- بم تشعرين !

حاولت الجلوس وهي تقول :

- لا تقلق ، معتادة منه على ذلك ، الحمد لله أنه لم يقفز على بطني !!

****

لم تكن تعرف أنها حين تعود بِـ"علي " لأمه ستكون قد تعلقت به لتلك الدرجة، وهي متعلقة به في الأساس وكانت تحاول منع نفسها لولا ذلك الظرف الذي اضطرها لتبقيه معها، لم تكن تعلم أنها ستبكي وتضعف كأم أخذوا منها وليدها، ولم تكن تعرف أن رحيق أخفت خبر حملها بسبب مخاوفها الماضية، وليس شفقة عليها كما وصل لعقلها، حتى بنان لم تلومها على تعلقها بعلي إلا خشية عليها، ليس شفقة بها ..

لماذا تعقدت لديها المفاهيم؟ ولماذا وصلت إلى تلك الطرق المسدودة ؟ تكره نفسها وتكره ما تسميه عقاباً وما هو إلا شيئاً أدمنته وتخاف من الاعتراف بذلك ، تكره كل شئ الآن ، تكره ذلك الشعور الذي يضعفها ويجردها من تماسكها ، وأنى لها من ملجأ؟

لماذا وقف أمامها الآن ؟ لماذا رأت تلك النظرة في عينيه ؟ لماذا هو بالذات من يشهد ضعفها ؟ لقد تركت سكنها في هذه الساعة المتأخرة لتبتعد عن وحدتها ، وتبتعد عن رؤية بنان لها بذلك الضعف ؛ لتصفي ذهنها قليلاً ، فرحيق ليست بذلك السوء ومن المؤكد أن هناك مبرر لها ، ليست رحيق السبب في حالتها ، ولكنها ضعيفة الآن ، ولشد ما يكون ضعفها ، تريد أن تختبئ من نفسها ، وتنعزل في قوقعة لا تخرج منها ، أنى لها بذلك ؟!

لم تكن تعرف أنها تبكي حتى جلس جوارها قائلاً :

- ديانا !! ما الذي يبكيكِ ؟

عاجزة بالطبع عن الوقوف والابتعاد عنه ، وعاجزة عن الرد بعنف كما اعتاد منها ..

في لحظة ستندم عليها، أو هي نادمة بالفعل وهي تتوهم الحديث الآن :

- آدم ! هل تريد الزواج بي ؟

٢٥

ديانا وآدم

- ديانا !!

أفاقت من شرودها ثم شهقت بعنف وهي تقف بسرعة قائلة :

- هل، هل حدثتك الآن؟

وقف مندهشاً من تصرفاتها ثم قال :

- لا !!

هزت رأسها وهي تبتعد عنه لتعود لسكنها، ماذا حدث لها؟ هل تتخيل أنها تطلبه للزواج الآن؟ هل جن عقلها؟ الحمد لله أنها لم تفعلْ، ستبتعد الآن قبل أن تثور عليه ككل مرة، ستبتعد لتنام وتستيقظ في اليوم الثاني كأن شيئاً لم يكن، وتستمر حياتها برتابة اعتادتها!!

لتنسى كل شئ الآن ، وتذهب في الغد لتطمئن على ميرا ثم رحيق ، لتنسى وتجلس مع بنان تساعدها فيمَ تريد ، وتتحدث معها ، لتنسى وتفني نفسها في عملها ، لتنسى كل شئ الآن ، هي ليست ضعيفة ، ولا تحتاج لأن تكون أم ، قد تكون مريضة ولا تنجب ، وهذا أفضل ، كفاها أفكاراً سوداء !

وعند الباب سمعت صوته ، هل كان يتتبعها هذه الليلة أيضاً ؟ رفعت يدها لعينيها بسرعة ، هل كانت تبكي ؟ أو ربما علا صوتها وسمعها ، وقد يكون سألته عن الزواج بها بالفعل ، ولم يشأ إحراجها ، هل أصابتها هلاوس أم ماذا حدث لها ؟

- ديانا !!

التفتت له ، فقال :

- اعتني بنفسكِ جيداً ، وإن احتجتِ مساعدتي في شئ ، لن أتأخر عنكِ !

سألت لتتأكد ممّ قالت :

- متأكد أنني لم أقل لكَ شيئاً ، لم أسألك أي سؤال الآن ؟

بان عليه الاستغراب قائلاً :

- لم تتحدثي إلي مطلقاً !

أومأت باطمئنان ، وهي تدخل لسكنها !

واجهتها بنان قلقة ، فطمأنتها بابتسامة معتذرة ، ولم تزد عن ذلك ، وهي تتجه لغرفتها !

جاءتها رسالة منه بعد أن توضأت واتجهت لتصلي ، قرأتها

" أمي تريد زيارتكِ غداً ، هل السادسة مساءاً يناسبكِ .. رجلكِ المخلص آدم "

اتجهت للصلاة ، وهي تكتم صوت هاتفها ، هي بحاجة لعزلة الآن لتصفي أفكارها ، وتكمل حياتها ، صلت كثيراً حتى شعرت بالسلام الذي تريده ، فاتجهت لفراشها مطمئنة ، هكذا ينتهي الأمر دون عقابٍ لنفسها ، ودون ندمٍ يعقبه اكتئابٌ لأيام !!

نظرت لهاتفها فوجدت منه رسالة أخرى " سأعتبر السادسة موعد مناسب .. ولكن هل يسمح لي بأن أكون معها .. رجلكِ المخلص آدم "

ألقت هاتفها جوارها ولم ترد ، ولم يطرق في ذهنها أي فكرة عن نواياه ، ولم تسأل نفسها هل يمزح أم هو صادق في زيارة أمه لها ، لا تريد أن تعرف حتى لماذا تزورها؟ ولن تشغل بالها بتوقيعه الذي يزيل رسائله به، رجلها؟ هي ليس لها رجل ولن يكون، هي تريد النوم الآن ، تريد أن تنعم بسباتٍ هادئ !!

****

في اليوم التالي تقريباً كانت نسيت كل شئ ، نسيت حتى زيارة أمه في السادسة ، ولم يذكرها سوى رؤيتها أمامها !!

كانت حينها تقرأ في كتاب وبيدها كوب القهوة باللبن الذي تفضله ، حين سمعت أن بالباب طارقاً، ذهبت لتفتح فوجدت امرأة أمامها تشبهه كثيراً بابتسامة قالت :

- لقد أخبرني أنه حدد موعداً معكِ!

اعتذرت ديانا وهي تدخلها قائلة :

- أنا آسفة ! تفضلي !

دخلت وجلست معها فرحبت بها ديانا ، ولم تعرف في أي شئ تتحدث ، حتى أنقذتها بنان وهي تأتي لتجلس معهما ، وتدخلهما في حوار لا تعرف ديانا كيف اصطنعته !

قالت أمه :

- لقد حدثني آدم عنكِ كثيراً ، في الحقيقة لم أكن أتصور أن هناك امرأة ستجعله يتنازل ويفكر في الزواج ، إنه عنيد جدا ، ولا أعرف لماذا كان يرفض الزواج قبل أن يراكِ ، ولكن عندما رأيتكِ وتحدثتُ معكِ الآن ، عرفتُ كم هو محق في اختياره !

سكتت كلتاهما تنظر إحداهما للأخرى حتى هتفت بنان :

- بالطبع ، ديانا رائعة ، ولو أقمتِ معها ستعشقينها !

ابتسمت السيدة بود قائلة :

- يبدو ذلك !

بينما سألت ديانا بجمود :

- من يتزوج من ؟

فنظرت لها بنان تسكتها ، بينما قالت السيدة :

- هذا الأمر بينكما ، لقد جئت لزيارتكِ فقط فضولاً لمعرفتكِ ، وفي الزيارة القادمة إن شاء الله إن سمحتِ لنا بذلك سيكون معي آدم ووالده ، وأتمنى أن تزوريني في بيتي !

- بالطبع ستفعل إن شاء الله ، وتفضلوا بزيارتنا في أي وقت !

قالتها بنان سعيدة ..

ماذا يحدث ؟ من الذي سيتزوج ؟ يبدو أن أمه شعرت بها وهي تتحدث في مواضيع أخرى ، هل لديه أم كهذه ولا يبرها ، أي حمق يفعله هذا الرجل؟!

ولم تشعر بشئ سوى بوداعها عند الباب ، حينها نطقت بنان بسعادة :

- ستتزوجين آدم صالح ؟ الرجل الذي تتلهف النساء لرؤيته ؟ ولكنني غازلته أمامكِ هل ستعاقبينني ؟ أم تسمحين لي بمغازلته مرة أخرى قبل زواجكما ؟

لم تملك إلا الابتسام من حديثها ثم قالت لتنهي الأمر :

- بنان ، أنا لن أوافق على الزواج به !

- لماذا ؟

- لأسباب كثيرة ، هو لا يكملني إطلاقاً !

ولم تتركها رسائله

" تزوجيني .. فكري لساعتين .. رجلكِ المخلص .. آدم "

- مغرور !

" هل قررتِ ؟ الأمر لا يحتاج وقتاً أطول .. رجل طويل وسيم تجري وراءه النساء وهو لا يرى سواكِ .. يحبكِ بجنون منذ شهرين ونصف "

" أعتقد أن الزفاف يكون بعد أسبوع ، ما رأيكِ ؟ "

" أجيبي على هاتفكِ لو سمحتِ "

" ديانا .. ردي عليّ "

" ديانا .. "

بعد أن نفذ صبرها أرسلت له " نسيت صفة هامة .. لا يصلي .. ويستمتع بحب النساء له .. وأنا لا أرضى برجل كهذا .. طلبك مرفوض "

مرت دقائق دون رسالة منه فاطمأنت بأنه سيريحها من تطفله ، ولكن خاب ظنها بعد أن أرسل لها رسالة صوتية ، خافت من أن تسمعها ، هل يعلم تأثير صوته عليها ؟ ترددت كثيراً قبل أن تسمع :

- ديانا ! وافقي ولن أستمتع سوى بحبكِ أنتِ إن منحتِه لي ، وأما عن الصلاة ، فهل ستقبلي برجلٍ يصلي لأجلكِ ، أنا لن أرضي بنفسي إن كنت كذلك ، قد أفعل الكثير لأجلكِ ، لكن الصلاة صلة بيني وبين ربي إن لم تكن خالصة له فتركها أفضل !!

وضعت رأسها بين كفيها ، لماذا يحدثها بتلك الطريقة ، وبتلك النبرة ؟ لماذا لا تستطيع أن تجزم بسوءه ؟ أو حتى تجزم بحسن خلقه ، ليس سيئاً وليس خلوقاً !!

في موقف كهذا عندما يتشتت تفكيرها ، لن ينفعها في النصيحة سوى شخص واحد ، عليها أن تذهب إليه !!

****

كان الأمر أشبه بمغامرة بريئة ، وهي تتصل بها لتحدد موعداً لزيارتها ، وكان خجلها غريباً وهي تذهب إليها في الموعد !

رحبت بها سارة في بيتها بابتسامتها المعهودة ، ودفئها المعروف ، لم تسألها عن سبب الزيارة ، ولم تشعرها بحرج أكثر من حرجها ، قالت ديانا :

- أخشى أن أسبب لكِ الإزعاج!

عاتبتها سارة قائلة :

- لا تقولي ذلك ثانية ، تعلمين كم أحبكِ ولن أنزعج منكِ أبداً ، كما أنني لست مشغولة بشئ !

ترددت ديانا قبل أن تنطق ، فسارة ناصحة جيدة ، وأم رائعة لهم جميعاً ، لكن لا تعرف ما سبب خجلها ، وأمر كهذا لن تنفعها نصيحة رحيق التي سترفض الأمر برمته ، ولا نصيحة ميرا التي لا تستطيع النصح الآن وإن نصحت ستنصحها بإعطائه فرصة جيدة ، ترى أن نصائح كلتيهما متطرفة ، وهي لا تريد ذلك التطرف !

باحمرار غزا وجنتيها قالت :

- لا أعرف كيف أخبركِ بالأمر ، ولا أعرف لماذا هو بتلك الصعوبة ؟ لقد تقدم شخص للزواج بي ، وأنا لا أجيد الحكم عليه ، هناك مسافات كبيرة بيننا ، رغم أنني أشعر ببعض الميل إليه ، أخشى من أن يكون شيئاً مؤقتا ، وأخشى أكثر من الأشياء التي لا نتفق فيها !

تحدثت سارة بموضوعية وهي تربت على يدها قائلة :

- أشياء مثل ماذا ؟

تنهدت ديانا لتتخلص من الخجل الغريب الذي اعتراها ، وهي لا تعرف أمن المفترض إخبارها بعيوبه ، أم أن هذا أمري سري بينهما !

بينهما ؟ هل انتمت إليه بالفعل ؟ قالت بتحكم :

- هو لا يصلي ، أخلاقه لا تعجبني ، ليست متدنية وليست رفيعة ، ليس باراً بوالديه !عندما رأيته في المرة الأولى ظننت أنه قد ينافس صديقه عليَّ ، لكن اتضح أن الأمر مجرد خيالات مريضة مني ، أخبرني أنه يحبني ، ورغم احتياجي لعائلة وأسرة واستقرار سيمنحني إياهم ، إلا أن كل هذا لا يكفي ، وأنا غير مقتنعة بدينه أو أخلاقه !

ابتسمت سارة قائلة :

- هل فكرتِ في رفضه ؟

- أبلغته بالرفض ، رغم أنني غير مقتنعة به تماماً ، وكذلك غير مقتنعة بالموافقة تماماً !

- ما هي فكرته عن الصلاة ؟

- يقول أنه إن صلى لأجلي فإن تركها أفضل ، وبالنسبة لأخلاقه قال أنني لم أرها بعد ، وأنه يستطيع إصلاحها ، حتى أمه التي أظن أنه عاق بها جاءت لزيارتي وحدثتني عنه بكل خير ، لا أعرف ألأنه كذلك بالفعل ؟ أم لأنها كأي أم سترى ابنها ملاكاً مهما فعل بها !

أومأت سارة ثم قالت :

- لنستخير إذا ونختبره !

- نختبره ؟ قالتها ديانا باستنكار فقالت سارة :

- نعم ! ثم لأننا عائلتكِ سنذهب لزيارة عائلته في بيتهم ، ونرى كيف يعامل أبويه ؟

قالت ديانا بخيبة أمل رغم سعادتها بعرض العائلة :

- ولكنه قد يتجمل !

- البر لا يحتمل التجمل !!

ابتسمت ديانا براحة ثم قالت :

- لا أعرف كيف أشكرك ، بالفعل أنا عاجزة عن شكركِ لأنك منحتِني بعض وقتكِ !

ابتسمت سارة وهي تعاتبها :

- بعض الوقت ليس كثيراً على ابنتي !

ثم عانقتها ، لا تعرف ديانا كم تكون مكانتها عند سارة ؟ فهي من القليلين الذين ارتبط ذكرهم بأحمد ، وترتبط سعادتهم في قلبها بسعادة أحمد !!

****

في تلك الزيارة لا تعرف كيف أسرها بحديثه، أو كيف سمحت له بأن ينفرد بها، هناك شئ تملكها لا تفقهه بأن رجلاً يريدها زوجة له، ومصر عليها، ولم يتنازل عنها رغم أنها كررت رفضها في كل رسالة يرسلها لها حتى نصحتها سارة بأن تمتنع عن ذلك لتستخير ثم يزورونهم.

وقفت معه بتوتر حيث قال :

- ديانا ، أنا أعلم سبب ترددك ، ولكن أنتِ تفهمين الأمر بصورة خاطئة ، الزواج ليس تطابق وإنما تكامل ، لن أقول لكِ دعينا نجرب ، لأنني لن أتعامل معكِ كتجربة ، ستكونين المرأة الأولى والأخيرة في حياتي !

قاطعته :

- لستُ الأولى !

بحزم قال :

- لا تقاطعيني !

خافت وهي تستمع له مكملاً :

- أنا لن أعتبركِ تجربة ، ولكن اعتبريني أنا تجربة لكِ ، وما ترينه في من نقص أستطيع إصلاحه بمساعدتكِ ، لو لم أكن أريد التغير لما فكرت في الزواج ، ولا فكرت في الزواج منكِ

أنتِ ، أنا بحاجة لوجودكِ جواري ، ولا أستطيع التنازل عنكِ ، ولا أعرف الصورة التي تريدين رسمها لأخلاقي ، لكنني متأكد من كوني الشخص المناسب لكِ كما أري أنكِ الشخص الأنسب لي من بين نساء الكون ، أعدكِ بأنكِ لن تندمي على الموافقة !

- والصلاة !

تنهد قائلاً :

- أخبرتكِ أنها صلة بيني وبين ربي ، أريد أن أسعى إلى تكوينها بنفسي ، صدقيني سأكون الشخص الذي تتمني أن يحمل ابنكِ مكبراً ، ويأخذه معه للمسجد عند سبع !

لم تكن تعرف أنها بعد عشرة أيام ستصبح زوجته ، ورغم السعادة التي تملكتها مازال ينبض فيها خوف لا تعرف سببه ، هل تهورت في الأمر ؟ هل استعجلته ؟ لا تعرف ! قد تكون اطمأنت لوعده ، معاً ستكون حياتنا أفضل ، وهذا يوشي بأنه ينوي التغير للأحسن ، وقد بدأ بالفعل في ذلك ! وحسمت الاستخارة الأمر !

اشترطت أن تعيش مع والديه ، لا تنكر أن طلبها لم يكن ملائكياً كما فهم ، لم يكن لأن أبويه وحيدان ، لم يكن الأمر كذلك إطلاقاً ، هي فقط تخشى أن يعيشان وحيدين ، فينهال عليها بالضرب كما فعل عامر مستغلاً أن لا أحد سينقذها منه ، أبواه سيحميانها منه ، حتى أنها رفضت السفر معه وحيدة ، هي تخاف من ذلك ، وعليه أن يتفهم خوفها دون الخوض فيه !

وحتى لا تخدع نفسها أو تخدعه قالت بصوت مرتجف :

- أنا غير مقتنعة أنكَ أحببتني بتلك السرعة ، ليس شكاً فيكَ ، وإنما أعرف أنني لا أستحق هذا الحب الذي أغدقته عليّ ، وأنا أيضاً لا أحبك الآن ، قد أعتاد عليكَ بعد فترة ويتحول الاعتياد إلى حب ، لم أرِد خداعك فقط ، وآسفة لو أزعجتك صراحتي !

هي خاضت المغامرة وانتهى الأمر ، في المرة الأولى تهورت وتزوجت برجلٍ كامل الدين ولكنه بغير أخلاق ، والآن تزوجت بنصف دين ونصف أخلاق ، هل تستطيع تغييره رغم أنها غير مقتنعة بالفكرة ، أم يفعل بها هو ذلك المعروف ويغيرها ، ويغسلها من كل أفكارها وتصرفاتها !

ولكنها معه تتعرف على مشاعر لأول مرة ، وتشعر بسعادة لذيذة غريبة عليها لأول مرة ، ويخفق قلبها خفقات لم تعرفها من قبل ، ولكنها تخشى من كل ذلك ، هل يحبها حقا بهذه الصورة؟ لا تصدق ذلك !

حتى أنه تقبل صراحتها اللازعة بصدر رحب وهو يقول بثقة :

- أعدك بأنكِ ستعشقينني في أسبوع !

هل هو مغرور أم واثق ؟ وها هو الشهر تلو الآخر يمر وهي لا تعترف بما يتفجر به قلبها! ما تكنه له تعدى الحب بمراحل، بسهولة أصبح كل شئ في حياتها، أصبح الصديق الذي تشكو إليه، والأب الذي تحتمي به، أصبح الركن الحامي ، ولم تعترف بكل ذلك !

سيصبح أب لابنها ، ويتحقق الحلم الذي عاشت لأجله ، فرحت ورقصت وغنت وملأت الدنيا بالخبر ، وبدأ يظهر تغيراً ملحوظاً في تصرفاته أسعدتها ، هو بالفعل يتحسن . في كل يوم وليلة يشكرها والديه على إعادة ابنهما الضال ، وجعله يعيش معهما بعد الخواء الذي ملأ حياتهما ، فتشعر بالذنب لأنها كانت أنانية في ذلك ، وهي فعلت لتحتمي بهما وليس لتسعدهما ، تعيد تفكيرها في الأمر بأن سعادتهما لن تضرها وأنها قد تفعل الأمر لسعادتهما بطبيعية ، ولكن هناك حائلاً بين نفسها وأفكارها !

أصبحت تنتمي لعائلة سعيدة بها ، وتبدأ في إنشاء أسرة تمنتها ، احتفلوا بها عندما علموا بقدوم ولي العهد والحفيد الأول لهما ، امتنت بشدة لما فعلا ، أن يخصصا من وقتهما جزءاً لأجل سعادتها ، وأهداها آدم بهدية أعجبتها ، تمنت في هذه اللحظة لو تعترف له بحبها ، أن تخبره أن حياتها تغيرت به !

ولكنها اكتشفت الكارثة التي تعيش بها ، فهو يتطور يوماً بعد يومٍ في كل شئ ، بينما هي قائمة في مكانها لا تتحرك ! مازالت تخاف وتذنب وتفكر في النسيان ومن بعده العقاب ، مازالت تائهة ضائعة ، الأمر أصبح حائلاً بينها وبينه بصورة واضحة ؛ ففهم أنه فشل في احتوائها ، وفشل في أن يكون لها كما تتمنى ، فانشغل في العمل الذي يجمعهما متناسياً وجودها معه ، ومتناسياً تأثير وجودها عليه !

يغيب عن المنزل لأيام متوالية ، دون اتصال أو خبر عنه ، لم يعد كما كان هادئاً حنوناً ، فهو شعر أنه أهدر مشاعره معها ، وهي لم تستطع أن تحبه ، اكتشف أنه سئ لدرجة لا تقبلها ، فابتعد !

حتى ذلك اليوم ، كان شعورها بالندم يأكلها مع آلام حملها ، فلجأت لتنسى كل آلامها ، واختفت في حجرتها لتفعل ، شربت كثيراً ، شربت الشئ الذي يسكرها ويغيبها عن الواقع ويريح نفسها اللوامة ، وما إن تنتهي تبكي وتبكي ، فتعاقب نفسها على الكبيرة التي اقترفتها الآن وهي تقر بأنها محض شاربة للخمر ، ويبدأ العقاب ، بأي شئ حاد قريب منها ، فإن لم تجد فشئ يحرق أو يؤلم !

أليس عقاب شارب الخمر الجلد ؟ فها هي تعاقب نفسها ، وما حداها على شرب الخمر إلا هذا العقاب ؟

لم تفعل تلك العادة السيئة منذ زواجها ، ولكنه لم يعد كما كان ، إنه يغيب عن رؤيتها لأيام وإن عاد لن يحدثها وبالتالي لن يستطيع رؤية الجروح التي ستترك أثراً في جسدها، كل ذلك بسببها، لماذا لم تنسَ بعد أن سكرت ؟ ولماذا لم ينسيها ألمها الذي عاقبت به نفسها ؟

وطالت عادته لشهور أخرى ، بعيد عنها على قدر قربه ، وقريب منها بمدى بعده ، تعاني آلام الحمل وحدها ، ولا تشعر بسعادة الحلم الذي طال انتظارها له ؟ لماذا يعاقبها على شئ لا ذنب لها فيه ، ومع طول الهجر طال العقاب !

ولكن يبدو أن العقاب هذه المرة كان بصورة أقسى من أي مرة فصرخت رغماً عنها ، وشعرت أن الألم شق قلبها ، لتفعل مرة أخرى ، لتنتقم لآدم وولده من نفسها ، فما ذنب جنينها في عقابها،

تمنته طويلاً وحين جاء لم تستطع الحفاظ عليه ، لن يراها آدم ، ولن يرى الجراح التي بدأت تزداد يوماً بعد يوم ، ولم يراها بعد أن يلعب الخمر برأسها فتنام غارقة في دمائها حتى الصباح تقوم لتضمد نفسها مرغمة حتى لا يلحظ أحد ضعفها !

وفي غمرة انشغالها بالضغط على الجرح الذي سببته لنفسها في ذراعها ، والتأوه بشدة لكبت وجعها ، وعدم القدرة على التحكم في بكائها ، سمعت صوته فرفعت رأسها إليه فزعة كمجرم قُبِضَ عليه، ولم تستطع النطق وهي تبحث عن كلماتٍ تقولها له ، لا تجد تبريراً لما تفعل ، وكؤوس الخمر تجاورها ، ماذا سيقول عنها الآن ؟ لن يفهمها بالطبع !

وكان قلبها يبتهل بذلك الدعاء الذي لازم فعلتها :

- رباه انقذني مما أفعل !

حتى وجدت أنه ليس الدعاء المناسب لهذه اللحظة فهتف قلبها :

- رباه نجني منه ومن نفسي !

علا نشيجها وهي تتذكر ضرباً مبرحاً في جسدها ، وهي لم تعد ترى آدم ، وإنما عامر من يقترب منها ، يهم بضربها فتصرخ راجية !

كما يفعل في الأشهر الأخيرة يغيب ولا يرجعه لها سوى شوقه الجارف ، خاصة بعد أن تعمد ألا يلتقي بها في العمل بأكثر من حيلة ، يعود ليجدها نائمة فيطمئن عليها ويراها دون أن تراه ، ويبقى لفترة يترقبها ثم يغادر ، أو ينام ليستيقظ عند الفجر ليراها وهي تصلي مصطنعاً النوم ، لم تعد توقظه ، فقد ضاع أملها فيه ، أو لأنها لم تعد قادرة على إظهار الحب الذي لا تشعر به ، فقد بدأ يصلي لأجل سعادتها ولم يشعر بالصلاة بعد ، ولكنه لجأ لأن تتحول العادة إلى عبادة ، قد يشعر بها عندما يعتاد الأمر !

يصلي فرضاً ويترك آخر ، في قربها منه تحثه على الصلاة فيصلي ، ولم يعد يردد جملته المكررة " إنها صلة بيني وبين ربي " ، سيؤلف الله قلبه ، ويرققه حين يُكرِه نفسه على الأمر ، ومرة تلو مرة تحول الأمر بالفعل إلى عادة ، ولكنه مازال عاجزاً عن الشعور الذي يتمناه ، عاجزاً عن الخشوع ، عن البكاء ، عاجزاً عن الصلة !

فأصبح الأمر ثقيلاً عليه ، هو حاول بالفعل وتمنى أن يثبت ولكنه ما استطاع ، ومع شعوره بالنفور الذي يراه منها تجاهه يئس من كل شئ ، وبقي حبه لها قائماً !

حين عاد تلك الليلة ، دخل ليجد سكون في البيت كعادته ، فاقترب من غرفتهما ليسمع تلك الصرخة المدوية منها ، ففتح الباب مسرعاً ، وتعلقت عيناه بالمشهد الذي يراه ، ولم يفهم شيئاً بعد ولما علا نشيجها أغلق الباب لئلا يسمع لهما أحد ، واقترب منها ، فتكومت على نفسها في حركة دفاعية وهي تحرك يدها بعيداً عن ذراعها لتحيط نفسها بها ، فرأى سيل الدم الذي كتمته يدها !

فقطع المسافة بينهما في خطوة ، وهو يجلس ليرى جرحها ، فما وجد منها سوى رجاءات لا يدري سببها ، واسم عامر يتردد !!!

****

حينما عادت ميرا من المشفى معه مضمدة حروقها ، انشغل تفكيرها بكيفية التعامل بينهما ، فكل منهما مازال يحمل في نفسه غضب يخفيه أمام مصابها . واعتنى بها محمد حق العناية ، فهي عاجزة عن فعل أي شئ ، وساعدها هو في كل ما عجزت عنه . كان يطهو لها طعامها ، أو يأتي به جاهزاً من الخارج ، يطعمها ويسقيها ويفعل معها كما يفعل مع صغيره عليّ ، يغسل لها شعرها ويمشطه ، يفعل لها كل ما تحتاجه ، ويوفر لها كل سبل الراحة !

ولكن ما المشكلة إذا ؟

المشكلة أن شعورها بذلك كأنه يكفر عمّ فعلت ابنة خالته ، وشعوره نحو امتنانها له كأنها تكفر عن ظنها السئ به !

ما بينهما ليس حديث ، وإنما كلمات رسمية ، كأن تقول له " يكفي هذا ، لقد شبعت " " أشكرك " " لا داعي لتتعب نفسك " تلك الكلمات التي تتكرر بينهما ، لا نقاش ، لا حديث ، لا عتاب !

مشفق هو بشدة على حالها ، إذ أن في الأيام الأولى كانت تتألم ليلاً محاولة كتمان الأمر ، لكن تقلباتها من الألم كانت توقظه ، ويفهم ما بها فيطلب منها الجلوس ويناولها مسكناً !

لكم يؤلمها شعور العجز في حالتهما تلك ، فحتى دواءها عاجزة عن تناوله ، وعاجزة عن حديثها إليه ، وطلب ما تريد منه ! عاجزة عن أن تكون نفسه ، وعاجز عن كونه نفسها !

يتألم لألمها وعاجز عن مداواته ، ويرى دمعها فيدمي قلبه ، يعرف أن الألم ليس هيناً عليها ، فقط في كل مرة يردد بقلق :

- ميرا تماسكي ستكونين بخير إن شاء الله !

فتهتف بانهيار :

- لم أعد أحتمل ! لا تفعل المسكنات لي شيئاً !

فيضمها إليه مهدئاً ، يوم وراء يوم خف ألمها فخفت مشاعره ، وكلما تحسنت صحتها كلما عاد لجموده معها! وكأنه يتذكر ما فعلت ، الأمر ليس غضباً منها إطلاقاً ، بل شك في مكانته عندها، ماذا يمثل لها ؟ هل تراه خائناً لتصدق الأمر بهذه السرعة؟ هل لمح لها ولو مازحاً أنه قد يتزوج عليها ودون علمها؟

حتى جاءتهم ديانا بطفلهما حين شفيت تماماً ، وأقام معهما بعد أن كان يأتي في زيارات متقطعة لرؤيته ، وانشغلا في أمر زواج ديانا بعد ذلك ، بين مؤيد ومعارض ، ولكن تم الأمر !

وبعد الزواج عادت حياتهما رتيبة مرة أخرى ، لم يعد يتحدث معها إطلاقاً ، حتى جازفت هي بتلك المهمة ، فهي لم ترى نفسها أجرمت !

- محمد !!

كان واقفاً ينظر للطريق الفارغ إلا من كلب ضال وقطة شاردة تتخفى منه ، حين سمع همسها اضطربت خلجاته ، فلم يسمع اسمه من بين شفتيها منذ أيام كثيرة مضت ، فرد دون أن يلتفت :

- نعم !

تنهدت وهي تقول :

- هل ستستمر حياتنا بهذا الشكل ، بسبب حبيبتك الماضية ؟

نعم قصدت استفزازه حتى يتكلم ، فالتفت لها قائلاً بتحكم فهو يعرف أن أخته هاتفتها وشرحت الأمر لها :

- لم تكن لي حبيبة ماضية !

وأكمل قاصداً استفزازها كما فعلت :

- بل كان من المفترض أن تصبح زوجتي عندما أنهي دراستي وأعود ، ولكن زواجنا منع حدوث ذلك .

وليحسن موقفه قبل أن تتحدث :

- لم أكن أفكر فيها كزوجة ، ولم تكن أمامي امرأة غيرها !

قالت بصوت يكتم غضبها :

- يعني وجودي في حياتك أفسد مخططاتكما !

رد ببرود :

- لم أقل ذلك !

ولم يستطع استكمال بروده وهو يهتف بألم :

- عندما أشك بمكانتي عندكِ ، فهذا يعني أن بيننا شئ مفقود !

- محمد ، ألا ترى أنك تظلمني بذلك ، لنعكس الأمر !

ضحك ساخراً وهو يقول :

- لنعكس الأمر ، عندما كنا في ألمانيا ، عند والديكِ وإخوتكِ أتذكرين من جاء لزيارتنا !

تسارعت أنفاسها فأكمل :

- من فكر بالزواج بكِ قبل أن تسلمي ، ومن هربتِ بسببه ، لم يستحيي من نظراته المسلطة عليكِ أمامي ، ولم تمنعي نفسكِ من الرد على حديثه إليكِ ! هل حدثتُكِ حينها بشئ ؟ هل علقتُ على الأمر ؟ أنا حتى لم أشك أنكِ تكنين له أية مشاعر ، لأنني أثق بكِ تمام الثقة ، ومكانتكِ عندي تتجاوز أي أشياءٍ في الماضي ، لأنني أرى أنكِ يوم أسلمتِ وكأنكِ ولدتِ على يدي !

ثم تنهد قائلاً :

- ها قد عكستُ الأمر ، غيرتُكِ ليست مبرراً لرد فعلكِ ، أنتِ حتى لم تسمعينني ، ولم تعطِني الفرصة لأفهمكِ ما حدث ، في أول مشكلة بيننا تركتِ البيت وكأنه شئ لا داعي له ، أخذتِ علياً وغادرتِ وكأن الرجل الواقف وراءك لا حاجة لكِ به ! إن كان فيمَ أقول ظلماً لكِ فسامحيني عليه ، فما زلتُ بشراً يخطئ ويخطئ !

ثم عاد ينظر للطريق من شرفته مرة أخرى ، فشعرت أنها ستبكي ، لذا غادرت المكان ، لتبكي وحدها ، لقد أصبح الأمر بينهما معقداً بصورة لم تكن تتصورها !

لما شعر بخطواتها تبتعد تنهد بألم ، فلم تحاول إثبات عكس ما قال ، إذاً فظنونه صادقة !!

بعد يومين آخرين لم تحتمل بعده جاءته قائلة :

- سأسافر لألمانيا !

قالتها كأنها تخبره بالأمر ، لا تسأله فقال :

- هل جئتِ لتخبرينني بموعد سفركِ ، أشكركِ لاهتمامك !

قالت بدموع تأبى الخروج :

- سأسافر غداً !

حاول التماسك قائلاً :

- افعلي ما ترينه صحيحاً ، فأنا أثق بكِ !

وخرج من سكنهما فحررت دموعها ، لم تكن تنوي السفر ، ولم تخبر أهلها ، ولم تحجز تذاكر سفرٍ ، ولكن بعد حديثه أصبحت في مأزق ، فيجب عليها أن تسافر في الغد ، وبسرعة أصبحت تجري اتصالات لتسأل عن أي حجز ، حتى وجدت في ساعة متأخرة ليوم غد ، أعدت حاجيات بسيطة فهي لن تطيل الإقامة ، ومحمد لن يتركها لفترة طويلة مؤكد أنه لن يتركها !

لم يعلق على شئ ، وهو يرى استعداداتها للسفر بالفعل ، ألهذه الدرجة لا تحتمله؟ وعندما اقترب موعد الطائرة ذهب لتوصيلها دون منطق، وعندما انفصلا لم يمنع نفسه من مناداتها فالتفتت له بأمل فقال :

- اعتني بنفسكِ جيداً، ولا تغيبي!

أومأت بخيبة ، وسار كل منهما في اتجاهه ، وقلبه يكاد يترك مكانه للآخر !

وعندما وصل لسكنهما ، أحس بفراغ وخواء خلفته وراءها ، فهاهو افتقد ضحكة صغيره المجلجلة عندما يفتعل حركات مجنونة له ، وابتسامتها السعيدة عندما تطهو شيئاً وينجح ، واحمرار وجهها حين تحرق الطعام الذي تحاول طهيه وقد أصبحت عادة ، هجومها عليه حين يعود من عمله مرهقاً وتهتف بسعادة مجنونة :

- لقد التقطت صوراً رائعة اليوم ، تعال لترى !

بكاءها حين يمرض ابنهما ، وبقلة حيلة تسأل :

- ماذا أفعل له ؟

وكأن العالم خالياً من الأطباء ، ثم نظر إلى ركن في غرفتهما ، كل أسبوع تترك له هدية فيه ، ولو بسيطة ، ولم تخلف عادتها حتى في الأزمة التي مرا بها ، ولكنه هذه المرة لم يكن ينظر لما أحضرت رغم فضوله، وها هو أصبح وحيداً ليرى ماذا تركت له في تلك المرات التي فوتها ، ابتسم وهو ينظر لتلك الصور التي تركتها له ، نقل بصره بينهما ليتذكر حدث كل منهم ،وفي ركن آخر كان يصنع مفاجآته ، وتقفز فرحاً عندما ترى الشئ الذي أحضره لها ، تنهد وهو يرتمي على فراشه قائلاً :

- ما الذي فعلتُه بنا ؟!

ثم وقف ليفتح دولابها ووقف أمامه متمتماً :

- لماذا سافرتِ ؟ لماذا ؟ ألم يكن عليكِ تحملي قليلاً ؟

وبعد ساعة صلى وحاول النوم بعدما أطفأ الأنوار، فشعر بشخص غيره في الغرفة ، ثم بجسد يندس في الفراش جواره ،أضاء المصباح المجاور ثم التفت ناحيتها برعب تحول لابتسامة متفاجئة وهو يقول :

- متى عدتِ ؟ كيف .. كيف ذلك ؟

ابتسمت وهي تجلس لتقول بثقة :

- ماذا أفعل ، لقد أمرني زوجي بألا أغيب ، فأشفقت عليه ، وعندما عدت وجدته نائماً كأنه تخلص مني !

جلس وهو يضحك كأن لم يحدث شيئاً وقال :

- أنتِ مجنونة ! أنا حتى لم أعرف النوم بسببكِ أيتها الشقية !

نظرت له قائلة :

- مجنونة بكَ !

عانقها باشتياق وهو يقول :

- إياكِ وتكرارها مجدداً !

ثم أبعدها عنه بفزع قائلاً :

- أين علي ؟

- في غرفته ! ثم وكزته في كتفه قائلة :

- أنا أغار عليكَ لدرجة تعميني عند رؤية أي امرأة تقترب منك ، ليس شكاً فيكَ ، بل لأنكَ تملكت كل قلبي ، لا أحتمل أن تسكن فيه سواي حتى بأن تنطق اسمها ، فما بالك وأنا أسمعك تقول بلهفة ليلى !

انزعج قائلاً :

- لا تذكري اسمها !

ثم ضغط بيده على موضع ضربتها وهو يتوجع قائلاً :

- هل كنتِ تحملين أثقالاً ؟

ضحكت بشدة وهي تضع رأسها على صدره ...

ومرت الأشهر عليهما بذلك الجنون الذي تملك حياتهما ..

****

- ياسين هل ترى أن آدم هذا شخص مناسب لها ؟

قالتها رحيق بغضب حين علمت بموافقة ديانا على الزواج ، فقال ياسين هادئاً :

- رحيق هي حياتها ، ليس لنا أن نتدخل !

تمالكت أعصابها وقالت :

- ياسين لو أختك ستقبل بآدم لها ؟ ماذا دهاك ؟ ألم تكن تعتبر ديانا أختك ؟

ابتسم وهو يقول :

- وهي بالفعل أختي ، ولكن ليس لي أن أفرض رأيي عليها ، ما أنا إلا مجرد ناصح ، ولنواجه أنفسنا ، نحن لا نعرف عن آدم أي شئ ، وما يذاع عنه مجرد شائعات ، وأنا كشخص تعرض للشائعات أعرف كيف تكون أغلبها بلا أي أساس .

جلست وهي تفكر قليلاً ثم قالت :

- وما المميزات التي يمتلكها ، والتي تنفي ما يحوم حوله من شائعات ؟

جلس جوارها وهو يمسك يدها قائلاً بتروي :

- لقد ذهبتُ إليه !

نظرت له بدهشة لتحثه على أن يكمل فقال :

- وتحدثتُ إليه ، هو بالظبط ما تحتاج ديانا لوجوده في حياتها ، وهي ما يحتاج إليه ليكتمل استقرار حياته !

نظرت له بقلة حيلة فابتسم غامزاً لها فابتسمت وقالت :

- أنت رائع لدرجة سيئة !

ومرت أشهر حملها بسعادة باقتراب الرقم الثاني في الفريق ، وتعب طبيعي بعد استقرار الأمر بمعرفة الجميع ، مالك المجنون دائماً سعادته مختلفة ، إنه يسعدها بطريقة غريبة، وكأنها زفت إليه بشرى تخصه من الدرجة الأولى، وتكثر المشاجرات بينها وبين ياسين بسبب إصراره على تركها للعمل ، وإصرارها على الاستمرار فيه حتى تشعر بالتعب ، يصل الأمر أحياناً لغضب هادر منه ، وعناد غريب منها ، وكما تتوقع عندما يداهمها ألم يحتوي الأمر !

فأصبحت تتخذ من آلامها حجة لإنهاء النقاش، ولما عرف بخدعتها لم يعد يهتم حتى لآلامها الحقيقية.

وجاء ذلك الشهر الذي سيتحدد فيه نوع المولود ، فذهبا معاً للطبيبة بشجار افتعلته ، فهي تريد أن تنجب فتى آخر ، وهو يتمنى فتاة ، ورغم أنهما يعلمان أن الأمر غيباً ، وأنهما راضيان بكلا الخيارين ، لكن أصبح الخلاف متعة بينهما ..

كان المولود بنتاً ، فطرب قلبه للخبر ، ورغم سعادتها بأنثى في رحمها إلا أنها أظهرت الضيق له فقال وهما يتجولان بعدما خرجا :

- أخيراً ستأتي تسنيم !

عارضته قائلة :

- ولماذا تسنيم ؟

نظر لها مندهشاً ثم قال :

- لأنه اختياركِ ، ألم تتمني يوماً فتاة تسمينها تسنيم ، حتى تتوافق مع اسمكِ !

ابتسمت بمشاغبة وقالت :

- لنؤجل تسنيم قليلاً ، أمامنا أحد عشر إن شاء الله نسمي تسنيم متى شئنا ، أما عن هذه فهناك اسمٌ على قلبي غالٍ أريد تسميته !

- ما هو ؟

- ستعرفه حين ألد ، والآن أريد بعضاً من " الآيس كريم" ، واستغل غياب سيف ، وادعوني لعشاء رومانسي..

ومرت بقية أشهر حملها بتعب يزداد ، حتى تركت العمل وحدها ، وأقامت في بيتها حتى هاجمها وجع الولادة..

بالطبع هذه المرة مختلفة لكليهما، فقد عاشا فيها كل لحظة معاً، كل بسمة ووجع، كل تغير وتطور، بطنها المتكورة بازدياد منتظم، وجسدها الذي تتغير انحناءاته، ووجهها الذي يزداد شحوباً وضعفاً، وتنفسها غير المنتظم أثناء نومها، وحركاتها التي تتباطأ يوماً بعد يوم، وتلك الآلام التي تداهمها فجأة دون سابق إنذار، هاهي اللحظة الأخيرة وينتهي كل شئ، ستلد فتاة جميلة تشبهها، ترث قوتها الضعيفة وعنادها القوي، ترث تهوره وسذاجتها وترث خلقه ودينها!!

وكأن يداً من حديد اعتصرت قلبه وهي تصرخ بسبب آلامها، وهو جوارها يهدئ روعها، حتى اختفت عنه، جلست سارة جواره بابتسامة مطمئنة استغربها وقالت :

- كانت هي طفلي الثاني ، وكان عمر أحمد حينها ثماني سنوات ، كان يتلو القرآن على مسامعي في اللحظة التي داهمني فيها ألم الولادة، توقف فزعاً عن القراءة وهو يجري نحو والده لينقذني، كان يقرأ حينها

((إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ))

حين انتهت ولادتي وسألني عمر عن اسمها ، احترت بين أبرار ورحيق فأخبرني بأن نسمي رحيق وإن رزقنا بفتاة أخرى سنسميها أبرار، وثالثة مسك ورابعة تسنيم، لكنني لم أنجب بعد مالك!

تنهدت بعدُ وهي تدعو لابنتها ، بينما ابتسم ياسين باطمئنان فهو يعرف تلك القصة ويحفظها عن ظهر قلب فلا تمل رحيق من تكرارها ، ومن أنها ستسمي بناتها بهذه الأسماء ، واتجه بناظريه بعمر الذي يعلق عينيه بغرفة العمليات داعياً وكذلك مالك وبنان، وابنه الجالس جواره.

فهمس لسارة :- هل تأخروا؟

هزت رأسها نافية ثم قالت :

- لا تقلق ، ستكون بخير إن شاء الله !

ثم اقترحت :

- ما رأيك أن تدخل إليها ، سترحب الطبيبة بذلك ، فوجودك جوارها أمر إيجابي !!

- حقا !!

وقفت قائلة :- تعالَ معي !!

ذهبت به للممرضة المسئولة عن العمليات فطلبت منه أن يرتدي رداء معقماً ويدخل ، دخل بوجل ليجدها منهكة القوى ، وتئن بضعف ، نظرت إليه الطبيبة لتعرف أنه زوجها فأومأت له بالتقدم ، فأمسك بيدها لتضغط على يده بشدة وتصرخ ، وهو يربت على رأسها بحنو ، ويهمس جوار أذنها باطمئنان ، ولا يعرف كم أعطاها عناق الأيدي هذا دعماً تحتاجه ، حتى خارت قواها بالفعل حين خرجت ابنتهما .

تنهد براحة وهو يشكر ربه ويهمس في أذنها :

- ستكونين بخير !!

وبقي جوارها حتى أفاقت من تعبها ، كما كان الجميع كذلك ، سألت عن ابنتها فأخبروها أنها في غرفة العناية بالأطفال ، فأطالت الأسئلة لتطمئن ، ثم غادروا ليبقيانهما معاً .

اقترب منها وقال بابتسامة :

- وما اسم الجميلة؟

قالت بضعف :- مريم!

- مريم .. ردده بشجن .

فابتسمت لتقول :

- نعم مريم ، ولن أقبل باعتراض ، لقد اتفقنا أن تسمي الفتى الأول ، وأن أسمي الفتاة الأولى ، دون أي اعتراض من طرف على اختيار الآخر !

اتسعت ابتسامته ولم يخفَ تأثره وقال :

- ولكنه شرطاً ظالما!

- وأنت من وضعته !

ضحك وهو يمسح على شعرها قائلاً :

- وهل أنتِ راضية عن اختياركِ !

- أخبرتك أنه غالٍ عليّ !

وقف ليقبل رأسها قائلاً :

- دائماً أبداً تكونين فوق ما أتمنى !

****

بعد قرار ديانا بالزواج أصبح موقف بنان معقداً ، من وجهة نظر مالك ، فهو لن يرضى لها بالبقاء وحيدة ، رغم أن الأمر لم يشغل بالها مطلقاً ، وبالطبع لن يوافقه أحد على فكرة بقائها معهم في منزل والده بسبب وجوده ، ولن يرضى لها بقرار آخر ، فعزم أمره على أن تبقى هي ويرحل هو !

لتعود لغرفتها في منزلهم التي حافظ عليها كما هي كغرفة أحمد ، ويرحل هو لينعزل بنفسه في سكن خاص ، كان هذا الحل المنطقي والأمثل لوالديه رغم جزعهما لابتعاده، فقالت سارة :

- وما رأيك أن تبقى معنا هنا ، ونؤسس لكَ بيتاً صغيراً في الحديقة !

ابتسم قائلاً :

- لن تشعر بنان بالراحة هكذا ، لا تقلقي سأستأجر شقة قريبة جداً منكما !

وافقاه إذ لا حل آخر ، ولم يكن يتصور أن بنان ستكون صعبة الإقناع هكذا ، ولم توافق سوى بمحايلة أمه .

رفضت لأنه بسببها سيبتعد عن والديه بعد إن اطمأنت علاقته بهما أخيراً ، وهاهو سيتركها بينهما . سيضحي بقرب والديه لها ويبتعد .

التقاءهما في الدراسة وحديثهما عن الدراسة ، وأي مشاريع جماعية يجب أن تكون رفيقته فيها .

بعد شهرين من وضعها الجديد ، كانت تقف معه يتحدثان عن شئ يخص دراستهما حين أقبلت عليهما ليندا ، كلاهما صدم وهو ينظر إليها ، في حين رمت نفسها على صدر مالك قائلة بغنجها المعتاد :

- حبيبي مالك ، اشتقت إليك كثيراً !

أبعدها عنه بعنف كأنما لدغه عقرب ، وهو يشعر بنفور منها قائلاً :

- وأنا لم أشتاق إليكِ !

لانت ملامحها بحزن أجادت رسمه وهي تقول :

- لقد نسيتني بكل سهولة إذاً ؟

تنهد بضيق وهو يوجه حديثه لبنان قائلاً :

- لنكمل حديثنا في مكان آخر ؟

أومأت وهمت بالانصراف تسبقه ، لولا جملة ليندا :

- ولكنني أجمل منها بكثير يا مالك ، إنها ليست جميلة إطلاقاً ولا تقارن بي حتى ، هل ستتركني لأجل هذه ؟

شعرت بنان بطعنة تلو الأخرى من حديثها ، فهي بالطبع لا ترى نفسها جميلة إطلاقاً أمام امرأة كليندا ، ولكن مالك رد بحزم قائلاً :

- وأنا أراها أجمل نساء الدنيا ، فلا يهمني رأيكِ حينها ، ولو نفذ رصيد زوجكِ في البنك ، فالمغفلون أصحاب الأموال كثيرون غيري !

ثم سار مبتعداً وبنان التي طرق قلبها بعنف من حديثه ، فقال :

- أنا آسف إن أزعجكِ حديثها ، وآسف لو ضايقكِ كلامي !

هزت رأسها أن لا ، وهي تحثه على إكمال حديثهما في العمل الذي يشتركان فيه حتى تنتهي وتغادر سريعاً ، فهي تشعر باضطراب من حديثه !

ولكنها لم تستطع التركيز فأنهت الحديث قائلة :

- مالك ، لقد فهمت هذا أول فيلم قصير سنخرجه ويجب أن يكون جيداً ، أعدك أنني سأهتم بذلك، سأذهب الآن ، أستأذنك !

وفرت من أمامه ، ولم يفهم أن كلامه هو من فعل بها ذلك ، وليس كلام ليندا !

ترددت رحيق وأمه على زيارته في شقته من حين لآخر ، وأحياناً كان يزوره ياسين ، مع تعدد زيارته لأبويه ، وفي كل مرة كانت بنان تختفي حين يأتي ، وتتعقد العلاقة بينهما بصورة أكبر ، فحتى حديث الدراسة قل ، لا ينكر افتقاده لحديثها ورسائلها ، فما كان منه إلا أن قلب في رسائل الماضي يقرأها ، يبتسم ويضحك ويبكي أحياناً ، لم تبكِه بالطبع سوى تلك الرسالة التي زفت إليه فيها بشرى إسلامها !

كانت هي أيضاً في تلك الشهور التي تَخَفَتْ منه تقرأ رسائلهما وتهتم بدراستها وتتوسع فيها أكثر، بالإضافة لشاغلٍ شغلها ، واستهواها أن تفعله .

اشتياقها لديانا من حين لآخر ، جعلها تزورها باستمرار ، حتى أنها بطبيعتها كانت تتحدث مع آدم بأريحية مرحة ، حتى لاحظت غيرة ديانا فلم تعد تفعلها ، وقلت زيارتها لها تدريجياً بمرور الأشهر وانشغالها الشديد في الدراسة والهواية التي وجدتها في نفسها ، وبدأت تتغير بصورة لم تلاحظها ، وحياتها تتحول لجدية تامة .

وجدت أنها تنتقل من صحبة مالك لديانا لسارة، وكأنها كرة تقف عند من له القدرة على التقاطها، انزعجت من الفكرة ، وهنا أدركت كم هي وحيدة ، وراودها شعور ديانا لتعرف أن ديانا لم تكن مخطئة أبداً فيمَ فعلت، ولم تتسرع في زواجها ، فها هو آدم أصبح الشخص الذي تمنت ، لقد تزوجت طموحه ، ولم تتزوج الحال الذي أتاها بها !

وصلت لحلمها وستصبح أماً وتتخلص من الوحدة التي صاحبتها ، ولكن هي متى ستتخلص من تلك الوحدة التي تعيشها بين أناسٍ يحبونها ؟ فرغم إقرارها أنها في خلواتها مع الله تذهب تلك الوحدة ليحل مكانها سكينة ويعمر قلبها باطمئنان ، لكن عند نومها يهاجمها هاجس الوحدة مرة أخرى !!

٢٦

رباط القلب

" صباح الخير أميرتي .. رجلكِ المخلص آدم "

ابتسمت ديانا وهي تلتقط الورقة المعطرة جوارها، فقد اعتادت على وجودها في أول أيام زواجهما، وكرد فعل معتاد كتبت على ظهر الورقة " صباح الخير أيها الرجل المخلص "

كان يستبدل أميرتي كل يوم بكلمة جديدة ، وهي لا توقع سوى بالرجل المخلص .

ثم تترك غرفتها لتجده جالساً مع أمه وأبيه في انتظار وصولها ليتناولوا فطورهم، وأصبحت عادة أسعدته قبلها، التفاف الأسرة كلها حول الطعام يومياً. الشئ الأول الذي كان بحاجته وهاهي قدمته له، لم يكن يتصور في أجمل أحلامه أنه قد يعود ليقيم مع والديه ولا يتضرر من الأمر.

في العمل أقام براون حفلة صغيرة لهما تضم زملائهما احتفالاً بالزواج السعيد، وبرر السبب أنه سيرتاح من خلافاتهما الدائمة ونقار الديكة الذي يصدعان رأسه به، وأصبح جلوسهما في العمل دائماً، يتحدث معها كثيراً في كل شئ، ولم يكن يتحرج من ذكر شئ أمامها، وهي كانت سعيدة بذلك، وبمرور الوقت أظهرت ودها له، وبدأت تتحدث معه كما يفعل، لكنها لم تقل كل شئ، قصت عليه حياتها قبل وبعد الإسلام، معرفتها بأصدقائها كل على حده، وحكت له كيف أسلمت، لكنها دائماً كانت تتجاوز الحديث عن زواجها بعامر، ولم يتطفل أو يلح عليها بالمعرفة، تخيل أنها قد تحكي عن الأمر وحدها وحينها سيعرف أنه أصبح أقرب إليها من أنفاسها، ويا لسعادته إن حدث، ولكن شيئاً لم يحدث.

حتى زُفَّ إليه بشرى حملها، بالطبع سعد بالأمر، إلا أنه رأى أن سعادتها غريبة، ليست كسعادة أي أنثى تحمل فطرة الأمومة، سعادتها مختلفة وكأنما طالت نجماً في السماء.

مشكلتها أنها أساءت تقدير الأمور معه، فبعد ذلك الخبر بدأت تهتم بجنينها وتهتم بتربية أب صالح لابنها، لأجل ابنها فقط، هو يرى أنها ما فعلت سوى لأجل الطفل الذي تنتظره ، أصبحت تحثه على الصلاة بطريقة لطيفة ، تطلب منه أن يتلو القرآن لأنها تحب صوته ، أيتمنى أن تخبره بحبها ، ثم تأتي بكل بساطة تخبره أنها تحب صوته ، لأجل ابنها فقط ؟! تريده أباً صالحاً أكثر من كونه زوجاً صالحاً ، ورغم شعوره المؤلم ذاك إلا أنه حاول بالفعل ، وسعد بالفعل من حرصها عليه حتى وإن لم يكن لأجله ، واستمتع بتلك الوريقات التي أدمن البحث عنها في جيبه كل يوم تاركة له رسالة ، وكل مرة يمني نفسه بأن تترك له رسالة تقول فيه أحبك ، فقط تقولها، ولم يحدث !

لا يعرف هل هو يئس سريعاً أم صبر طويلاً ، فستة أشهر يحاول أن يكسب قلبها ولم يحدث ذلك ، فقرر أن يبتعد ، لعله يريح نفسه من عذابها !

حتى ذلك اليوم الذي فاجأه ما رأى، صراخها بعامر عندما اقترب منها، جعل قلبه يذوي رعباً، ليس غبياً ليشعر بالغيرة الآن لأنها لم تكن تستنجد بعامر ، بل كانت ترجوه ليبتعد ، يعني هي ليست واعية ، انشغل بجرحها ووضع يده عليه يكتم تدفق الدم حتى سحب أقرب شئٍ جواره وأسعفها به؛ كان مفرش للطاولة القريبة منه ، وضمها لصدره في محاولة لإقناعها أنه آدم ، طال حديثه الهادئ الذي تحول لغضب عندما أطالت بكاءها ، صراخه عليها أسكتها ، وبقيت ترتعش فقال بصوت حاول أن يعود لهدوءه :

- سأضمد جرحكِ أولاً !

وابتعد ليأتي بصندوق الأدوات الطبية ، عاد إليها وحاول تطهير جرحها وربطه ومازالت ترتعش ، وحين انتهى قال :

- ماذا حدث ؟ كيف أُصِبْتِ هكذا ؟

ثم لفت انتباهه زجاجة يعرف شكلها وكؤوس جوارها فقال متغاضياً :

- هل كسر هذا الزجاج ؟

لم يجد إجابة منها وعبراتها تسيل فأكملت عيناه بحثها حتى وقعت على مشرط طبي قريب منها ملطخ بالدماء ، فجحظت عيناه وقال ناظراً إليها :

- أأنتِ من فعلتِ بنفسكِ ذلك ؟

أومأت برأسها ، فنظر للزجاجة التي لابد أن يلتفت إليها الآن ، مازالت محتوياتها تملأها إلا القليل في كأس مجاور ، فابتلع ريقه بصعوبة وقال :

- لماذا ؟ لماذا تؤذين نفسكِ ؟

- لأنني أستحق ذلك !

أغمض عينيه بقوة ، وهو يعلم أنه لن يستطيع التحكم في نفسه الآن ، فقال بصعوبة :

- ديانا لتنامي الآن ونتحدث في الصباح .

زاد بكاءها فحاول التحكم في نفسه بقدر أكبر قائلاً :

- ديانا لو سمحتِ ، لتنامي الآن ، ثم وقف ماداً إليها يده مكملاً :- هيا !

رأت أن لا فائدة من الحديث الآن فوقفت مستندة على ذراعه إذ لا قوة لديها ، واشتعل غضبه أكثر وهو يرى ضعفها وبطنها المتكورة أمامها واتجه نظره تلقائياً لما كانت تشرب ، فتحكم في نفسه ، هي لم ترى غضبه إلى الآن ، لم تراه قط !

بالطبع دخلت في سبات سريع عميق ، فقد لعبت الخمر برأسها ، وبقي هو ساهراً يذرع الغرفة بغضب وضيق ، ويتخلص من تلك الأشياء التي أثارت اشمئزازه ، في كيس أسود وضعها

ورماها في صندوق خارج البيت حتى لا يراها والديه ، وبالطبع سيظنان أنها لابنهما الفاسق ، وليست لذلك الملاك النائم .

لا يعلم أي قسوة أصابت قلبه ، فهي قسوة تساوي شفقته ، لم تمر لحظة إلا وشعر بغموضها ، وشعر بأن حائل بينهما لم يهدم قط ، مهما تبسطت معه ، إلا أنها لم تستطع تجاوز الخط الذي ارتسم بينهما . فكر طويلاً ، عليه أن يهدأ حتى يسمعها ، آلمته رأسه لكثرة التفكير ، حتى استيقظت .

فتحت عينيها عليه ، تذكرت كل ما حدث فجأة ورغم خوفها إلا أنها تماسكت وهي تتحرك أمامه لتخرج ملابسها ، وتهرب إلى الحمام ، ستغتسل أولاً قبل كل شئ ، فلم يعد من البوح مهرب . توضأت وصلت ، أطالت في الصلاة كما تفعل بعد كل مرة ، معتذرة بـ" وأَتْبِع السيئة الحسنة تمحُها " ، تنهد وهو يخرج للجلوس في شرفتهما ، أنهت صلاتها وذهبت إليه ، وهي تضع يدها على بطنها بتحكم فقد أصبحت في آخر شهرها السابع ، جلست جواره ثم تنهدت ، وتحدثت ، فالاعتذار قوة ، وهو رأى ما فعلت وانتهى الأمر ، عليه أن يعرف كل شئ :

- في الفترة التي عشتها مترددة بين الأديان ، عكفت على الكحول فأدمنته ، حتى أسلمت فامتنعت عنه بنفسي وبالقوة التي حباني الله إياها ، وبعد أن أسلمت بشهر ظهر عامر في حياتي، وتقدم للزواج بي متعللاً بأنني حديثة عهد بإسلام بحاجة لمن يفقهني في الدين ويرشدني للصواب، فوافقت ، وتم الزواج ، لم أكن أفعل أي شئ سوى باقتناع تام مني ، وكان حجابي حينها مجرد شئ أضعه على شعري فيخفي آخره ، وكان هذا الشئ يضايقه كأشياء أخرى كنت أفعلها ، أمرني بألا أفعل ولكنني عاندت وقلت أن شيئاً كهذا بيني وبين ربي !

ابتسم ساخراً ولم يرُد فأكملت :

- فلم يجد طريقة لرضخي أنسب من الضرب !

عقد جبينه ، وهو يستمع لها :

- متعللاً بقول الله " واضربوهن " ولكن ضربه كان مبرحاً ، وفي كل مرة كنت أرقد في فراشي لأيام حتى أستطيع الوقوف على قدمي ، لم أتحمل الأمر ومن أول مرة طلبت الطلاق ولكنه لم يفعل وفي كل مرة أرفع صوتي عليه مطالبة إياه بالانفصال كان ضربه لي يزداد ، حتى كسر عظامي ورقدت في المشفى نافية أي دخل له بالأمر، وهددته إن لم يطلقني سأبلغ الشرطة عنه، وفعلها.

ولكن في كل مرة كان يضربني ، كنت أنتقم منه أو من نفسي ، لا أعرف ممن أنتقم ، وأحيانا كنت أفعلها لأخفف ألمي إذ كان يحتجزني في بيته بلا دواء حتى ، بعد أن خفت آلام المرة الأولى خرجت متلصصة وابتعت زجاجات خمر كثيرة ، فضربني لأنني خرجت دون إذنه فوجدت حجة للشرب ، في الحقيقة كنت في أشد الحاجة لذلك حتى تخف آلامي التي لم أتحملها ، وكأن الخمر هي العلاج الوحيد ولا توجد في العالم مسكنات ، وما إن فعلت استيقظت في اليوم الثاني لأعاقب نفسي على كبيرة اقترفتها بأن أجرح نفسي بشئ حاد ، وأصبحت عادة طوال أشهر زواجنا .

تسارعت أنفاسها ويدها تضغط على بطنها بقوة، بينما ظهر في عينيه جزع وشفقة ناظراً إليها، ولكنها لم تعبأ وهي تكمل :

- لم أخبر أحداً بما فَعَلَه ، وبدأت من جديد بعد الطلاق كأنني سأُسْلِمُ للمرة الأولى ، لأن الإسلام يمحو ما قبله ، فلن يحاسبني الله على ما اقترفت .

ورغم اعتذاره الذي طال وإرسال أناس لي حتى أوافق على العودة ، بالطبع كان هو الطرف القوي إذ لا سبب لدي ، تماسكت ونسيت كل شئ ، ولم أعُد لتلك العادة ، حتى وقت قريب ، قبل زواجنا بأشهر ، فكرت في فكرة شاذة وكدت أفعلها لولا أن الله هداني لما يمنعني من ذلك، فوجدت نفسي أريد نسيان ما فعلت ، ولم أجد سوى تلك العادة ففعلتها في لحظة غضب وانتقام من نفسي لم أكن أشعر بما أفعل ولا كيف ، وكالعادة شربت حتى نمت ، وحين استيقظت عاقبت نفسي ، وتطور الأمر لعقاب دون شرب ، فكلما انحرفت أفكاري أجدني أحرق أصابعي ، أمزق نفسي ألماً وكان هذا أكثر راحة لي من الشرب .

- ولماذا عدتِ إلى ذلك الآن ؟

أمسكت يده بقوة لتصارع آلامها ، لن تُظْهِرُها قبل أن تقول له كل ما أرادت :

- لأنتقم لكَ ولابنك من نفسي ، أردت أن أنسى ما أفعله فيكَ كل يوم ، لقد ابتعدت عن والديك بسببي ، أغدقت علي بمشاعرك ولم أستطع أن أعبر عن مدى حبي لكَ ، صدقت في وعدك وكنت دائماً عند حسن ظني ولكنني لم أكن لك كذلك ، عقدتُ حياتكَ وبنيت حدوداً بيننا.

ثم ضغطت على أسنانها لتقاوم وهي تكمل :

- صدقني يا آدم ، أنا أفعل تلك العادة كأنني مسيرة لفعلها ، دون إرادة أقع في ذلك وفي كل مرة أقول ستكون الأخيرة ولكنني أكررها ، رغماً عني عندما أكون وحيدة أفعلها ، حاولت وفعلت كل شئ لأمنع نفسي ولكن عند أول يأس أقع ، الله يعلم أنني صادقة ، ويعلم أنني لا أعصيه حباً في المعصية ، ويعلم أنني لم أجعله أهون الناظرين إليه إذ أتخفى من الجميع فيراني هو فقط ، صليت كثيراً ودعوته أن يخلصني من ذلك الفعل ولكن يبدو أن ذنوبي حجبت عني الاستجابة ، أنا لم أكن أعايرك بتركك للصلاة، فقط لم أرد لكَ أن تكون مثلي، كلانا يفعل كبيرة من الكبائر، أردت أن تكون الأفضل، ولكنكَ لم تفهم ذلك!

هو يشعر بأنها تتألم منذ ضغطت على كفه بشدة ، ولكنه عاجز عن أي شئ ، وهو يراها تتحدث بتلك الطريقة ، عاجز حتى عن إيقافها عندما صكت أسنانها ، عاجز عن مد يده لمسح شلال الدموع الذي يتساقط من عينيها ، ولكن عجزه تحول لفزع عندما صرخت ، عندما استنجدت ، مازالت في السابع ، بالتأكيد لن تلد الآن ، ولكنه انتفض عندما قالت :

- آدم .. سألد الآن ، لا أحتمل !

توقف ليحملها بسرعة ، مازالت برداء الصلاة فحمد ربه على ذلك ، وإلا أوقفته مطالبة إياه بحجابها ، في طريقه قابله والديه ، فلحقا به بسيارة أبيه عندما استوعبا ما يحدث .

وضعها على المقعد الذي يجاوره ولم تترك يده يدها طوال الطريق بينما كانت تتحدث بين أنفاسها المتلاحقة بألم :

- كن لها أب جيد ، لا تكن مثلي .

بعرق يتصبب على وجهه لفرط توتره قال :

- اهدئي ديانا اهدئي ..

ولكنها أكملت :

- إن لم تستطع فاتركها لوالديك ، أو أرسلها لرحيق ستعتني بتربيتها !

لم يكن فهم حديثها الأول ولكنها عندما أكملت فهم ما تقصد فقال برعب :

- ديانا ستعتني بها بنفسك !

بصوت متقطع كأنها لا تسمعه أكملت :

- صلي كثيراً لأجلي ، واطلب من الله أن يغفر لي !

- اسكتي الآن ، لا تتحدثي !

رغم صراخه ورغم آلامها لم تسكت وهي تقول :

- آدم ، أنا كنت زوجة فاشلة لك ، وأنتَ أسأت اختياري ، أنا أحببتك كثيراً ولكن لم أفعل لكَ أي شئ إزاء ذلك الحب ، أرجوك سامحني !

- اسكتي أرجوكِ !

كتمت صرخة ألم أرادت الخروج منها وهي تقول :

- أريد أن أدفن ويصلى عليّ كالمسلمين ، لا تتركني في المشفى ميتة !

- لا تتحدثي الآن ، ستكونين بخير أيتها الغبية ، اسكتي أرجوكِ !

تلك المرة لم تسكتها صرخاته ، بل الألم الذي لم يعد يحتمل ، وصل للمشفى وأوقف سيارته كيفما اتفق ، والتف يخرجها من السيارة ، حملها فوق ذراعيه وأسرع بها للداخل، وأدخلها غرفة الطوارئ ثم خرج عنوة ! وصل أبواه ، ووقفا جواره يسانداه .

كان يبكي بل علا نشيجه والتعج صدره ، هو يشعر بكل ما قالت ، كان يعلم أنها غير طبيعية مذ رآها في المرة الأولى ، ليست ضعيفة ولكن هناك ما يضعفها ، كان متأكد أنها لا تحب نفسها ، وأراد أن ينفي ذلك كثيراً وما استطاع ، كاد أن يعنفها يوم أخبرته أنها لا تستحق حبه ، ولكن لم يعد ينفع الندم الآن ، هل ستموت بالفعل وتتركه ؟ وأي حياة ستكون بعدها ؟ وهي تتحدث معه كان واثقاً من أن تغييراً سيحدث في حياتهما ، ولكن ما مصيره لا يدري !!

يبدو أن حديثاً طويلاً دار بين أبيه والطبيبة أثناء جلوسه لاهياً في عالم خاص بهما ، انتبه لها وهي تحاول أن توضح لأبيه قائلة :

- إما أن نضحي بالأم أو بالجنين ، ويجب أن يكون قراركم سريعاً ، هل نقوم بعملية الولادة معرضين حياة الأم للخطر ، يوجد احتمالية لنجاتها لكن ضعيفة ، أو نحافظ على حياتها وهذا الطريق الأضمن وفي هذا الحالة لن نستطيع إنقاذ الجنين !

نظر له أبوه فوجده ذاهلاً! هل سيضحي بها؟ أم يضحي بالحلم الذي عاشت لأجله طويلاً؟ كان يعلم أنه مجرد وسيلة لتصبح أم، وكان يعلم أنها حين تنجب لن تهتم به لأنها لا تريده، ورغم ذلك لا يستطيع أن يقتل بيده حلمها ويوافق، ولا يستطيع أن يضحي بها، يستحيل ذلك! وأخيراً بعد أن أخبرته بحبها، وأقرت أنها تُكِنُّ له أية مشاعر، ستسامحه حين تعرف أنه حافظ على حياتها، ستسامحه بالتأكيد! وأخذ قراره، وهو يرجو أن تكون حياتهما اثنتيهما باقية، الله كريم!!

وهاهي سجدة خاشعة لأول مرة في حياته، وأجمل ما في المصيبة أننا نصبح كأقرب ما يكون من خالقنا ، كان يرجو ويتضرع إليه أن ينجيهما ، ويلقي الوعود أنه سيفعل ويفعل إن بقيتا معه على قيد الحياة ، طال الوقت ومرت ساعات وقد ذابت أعصابه من الرعب والتوتر ، حتى خرجت الطبيبة وبدا من إنهاكها أن الأمر جلل ، لم يتحرك وأوقفته الصدمة ، قلبه توقف وهو يتخيل من فيهما المفقودة ، في الحالتين فمصيبته كبيرة ، وها قد علم أنها ابنته ، لم ينطق ولم يبدُ تعبيراً على وجهه وأمه تبكي وأبوه يواسيه ، لا يعرف بأي قدرة أنهى الإجراءات حتى يأخذها ليدفنها ، ترك أمه مع ديانا وأخذ أباه معه ، وبمجرد رؤية ابنته بكى ، وبدأ يشعر أنه أب الآن، وأنه فقد ابنته ، وشعر بوجعٍ في قلبه وكأنه يتقطع بسكينٍ حاد ، وارتجفت يداه وهو يحملها ، ثم ضمها إليه بشدة وهو لا يريد مفارقتها ، لا يعلم إن لم يكن والده معه ماذا سيكون فعله ؟ ولا يتخيل أنه قد يحدث في حياته مصيبة أكبر من هذه ، راح يضمها كثيراً ، ولم يتركها حتى بمحايلات أبيه له ، يريد أن يقبل كل شئ فيها ، يريد أن يحفظ صورتها في ذهنه ، وكأن ألماً في صدره يقطعه ، وكأن روحه تسحب منه ، لم يتصور أنه قد يحزن يوماً لهذه الدرجة بسبب فقد أحد ، فكيف بشخص يراه لأول مرة ، لم يعِش معه ، ولم يشعر به قبل الآن .

- آدم يجبْ أن تكون جوار زوجتكَ الآن !

كيف ذلك ؟ لن يستطيع ! لن يقدر على رؤيتها منهارة ضعيفة ، يعرفها قوية دائماً ، حتى حين تضعف تظهر له قوتها ، ولكن هذه المرة لن تكون قوية أبداً ستبقى أضعف من رضيع غض ، وهو لن يتحمل !!

بين انهياره وضياعه دفن ابنته ، وجلس عند قبرها يبكي ولم يطِع أباه في الذهاب لديانا فتركه وحيداً ، أنهى بكاءه ثم اختفى !!!

****

قالت لرحيق ذات مرة " الحياة ليست رجل " ، وبالفعل تقوم بتلك النصيحة ، شغلت وقتها كثيراً بين دروس لتتعلم الكتابة إذ اكتشفت أنها تمتلك موهبة تستطيع تنميتها ، وعملت في محل قهوة ، بجانب دراستها ، ولم تعد تنفق من أموال مالك ولا العم عمر الذي خصص لها مصروفاً شهرياً

منه ، قررت أن تنفق على نفسها ولم تخبر أحداً بالأمر ، وبسبب تعدد زيارات مالك لأمه كانت تحتمي بغرفتها في وقت فراغها ، وفي الجامعة لو رأته تتجاهل رؤيته قاصدة .

الأمر ليس سوءاً في مالك ، ولكنها شعرت لفترة أن حياتها تتمحور حول أشخاص لا تنكر فضلهم عليها ، وفي وحدتها وجدت أنها تستطيع أن تملأ الفراغ الذي تركوه لها بأن تتخلى عن كل شخص اعتبرته المحور، ومن بينهم مالك خاصة أنه كان محوراً مميزاً.

سارة تطل عليها من حينٍ لآخر رافضة انعزالها ، بلا فائدة ، حتى أصرت على معرفة ما تفعل، فقصت عليها عملها وانشغالها بدروس الكتابة بجانب دراستها وخشيت أن تغضب منها أو يحزنها الأمر ، ولكنها وجدت في وجهها فرحة وتشجيع أسعداها ، وهمست لها ذات مرة :

- هكذا تكونين قوية ، ولستِ بحاجة لأحد ، كوني نفسكِ دائماً ! ولكن لا ينسيكِ ذلك أنكِ ابنتي مهما اعترضتِ على الأمر.

كانت تعلم أن مالكاً بدأ يشك في أمرها ، حتى وجدته في المحل الذي تعمل به ، وفوجئت وهو يقف أمامها أثناء صناعتها للقهوة قائلاً بحزم :

- أريد التحدث معكِ !

خافت من نبرته ، ثم عاندت قائلة :

- أنا في عملي الآن ، لا أستطيع تركه وإلا طُرِدْتُ ، عندما أنتهي تستطيع التحدث إلي !

- بنان !

- هلا غادرتَ المكان الآن !

حين أنهت عملها ، خرجت وجدته أمامها ، أظهرت الانزعاج ، وهي تنظر في ساعتها فقال :

- ماذا ؟ هل تأخرتِ عن دروس الكتابة ؟

زفرت قائلة :- وماذا تعرف أيضاً ؟ هل تراقبني ؟

تنهد بضيق ثم قال :- لنتحدث في مكانٍ أفضل من الشارع !

- هل هو شئ مهم ؟

- نعم !

- لنمشي حتى الدرس !

سارا متجاورين ثم قال :- لماذا تعملين هنا ؟

- لأنني بحاجة إلى العمل كي أنفق على نفسي ودراستي !

قالتها ببساطة ، فقال :

- ولكنكِ لستِ بحاجة لتنفقي على نفسكِ !

توقفت ثم قالت :

- أنت تعمل أيضاً لأجل أن تنفق على نفسكَ ، ما الفارق بيننا إذاً ، رغم أنكَ أيضاً تمتلك أموالاً في البنك تركها لك العم عمر !

تنهد وقال :

- ولكنني رجل !

- ماذا ؟ قالتها صارخة ثم أكملت :

- يبدو أن فيكَ عرق شرقي لم تخفيه حياتكَ في أمريكا !

كتم غضبه وهو يقول :

- لم أقصد ذلك ، وإلا ما شجعتكِ على الدراسة ، وليس عندي مانع أن تعملي عندما تنهين دراستكِ ، لكن لماذا تتعبين نفسكِ في عمل شاق كهذا ، وأنتِ لستِ بحاجةٍ له ، صدقيني والله لا أتفضل عليكِ بالأموال ، هي حقكِ بالفعل !

توقف عقلها عند منتصف الكلام فلم تستوعب آخره ووجهها ينكمش مستغرباً قائلة :

- وبأي حق تعترض أو توافق على عملي عندما أنهي دراستي ؟

وكأنه بوغت بحديثها ففتح فمه بحثاً عن جوابٍ ، ولكن لا خروج لأي كلمة ، فأكملت بشبه ضيق تكتمه :

- لهذا السبب أنا أعمل يا مالك ، حتى لا تأتي يوماً وتخبرني أنكَ صاحب المشورة في دراستي، وأن لكَ الفضل فيمَ أغدقتُه علي من أموال ، أنا أريد أن أكون نفسي بنفسي ، لا أنتظر صدقةً من أحد !

- صدقة ! قالها بصدمة ، ثم سكت يبحث عن كلمات متناثرة وقال :

- هل ترين أن ما نفعله صدقة ؟ هل أتفضل عليكِ بشئ ، أنتِ حتى لا تحدثينني إطلاقاً حتى في الأمور التي تربطنا في الدراسة ، هل تطفلتُ عليكِ بالحديث ؟ ..

قاطعته وقد زاد ضيقها قائلة :

- مالك ، لا تكبر الأمر ، لو شعرت بصدقتكم لما لبثت في بيتكم حتى الآن ، ولكن اعذرني فأنا مشغولة بأشياء كثيرة هذه الفترة ، ولا أرى أنني أفعل شيئاً خاطئاً حتى تتبعني وتعاتبني عليه ، بالإضافة لمصيبة ديانا ، فلا تضغط عليّ بأي حديث ، لأنني قد أخطئ أكثر من ذلك .

ثم نظرت لساعتها قائلة :

- أستأذنكَ الآن لئلا أتأخر .

ثم تحركت مبتعدة عنه ، وهي تتمتم :

- لن يعارض عملي؟ يبدو أنني سأبطحه حتى يفيق من خدره، يا له من أحمق متهور! كان الأولى أن يقول تزوجيني، ولن أوفق بالطبع، هل جُنَّ عقله؟ أأتزوجه هو؟ يالها من مفارقة!!

****

وعندما فتحت ديانا عينيها أبلغوها بالخبر فبقيت على حالتها ساكنة في فراشها لا تتحرك ، لا تبكي ، لا تدمع ، فأحياناً تكون المصيبة أكبر من البكاء ، ولكن عندما يتركوها وتبقى وحيدة يدمي قلبها للخبر ، وينشق صدرها عن ألمٍ لا طاقة لها به، ها هي صعدت للسماء ولم تطل شيئاً، ماتت ابنتها واختفى آدم ، يومان ويطلقها !

ومر يومان ، على نفس الحال كانت ، امرأة ساكنة لا حول لها ولا قوة ، وحين تبقى وحيدة يبكي قلبها قبل عينيها ، لا تحدثهم ولا ترد عليهم رغم محاولاتهم المستميتة .

تشعر بوجع في أنحاء جسدها ، ولا شئ يقر عينها بتحمله ، لم تراها وواروها في التراب دون أن تحتفظ عيناها بملامحها ، لم تسمع صراخها كأي أم فتتلهف لإرضاعها ، لم تنعم برؤية ملائكيتها وهي نائمة ، ولم تتوجع وهي تتحسس حرارتها ، ولم يتعبها الوقوف وهي تحاول تهدئتها ، ولم يصيبها إرهاق بسبب انشغالها الدائم بها . لم يحدث من ذلك أي شئ ! ولم تصبح أم بل أصبحت ثكلى !!!

قريباً سيطلقها آدم أيضاً فبعد أن كشف سترها أمامه لن يتحمل امرأة مدمنة للخمر تشتهي العقاب كلما أجرمت ، لن يتحمل امرأة متقلبة الطباع منافقة مثلها ، لن يتحمل امرأة أظهرت أنها صِدّيقة وهي محض مجرمة ليس من حقها الحياة ولا حتى نعيم الجنة !!!

تناوب الجميع في التخفيف عنها وفشلوا ، حتى حين تتألم لا تخبر أحداً ولا تخبر الطبيبة بألمها ، فهو كافٍ لتعذيبها وهي لا تريد الراحة ، تقبض على بطنها بشدة عله يخف ولكن ما إن تفطن لمحاولتها حتى تبعد يدها ، فهي لا تريد له أن يخف ، ليبقى غائراً يؤلمها ويقطع أمعائها ، فهي تستحق عقاباً أقوى ، ولم ينتبهوا سوى لدماءٍ حول جرحها تسيل ، ولم تكن تشكو حينها ، أسعفوها سريعاً وشكت الطبيبة في أمرها وطلبت رؤية زوجها ، ولكن لا مجيب ، فهم لا يعرفون أين زوجها من الأساس.

رافقتها ممرضة لأربعٍ وعشرين ساعة لتتابعها إذ أصبح أمرها مشكوكاً فيه ، مر أسبوع وأسبوع آخر حتى خرجت ، ولم تستسلم لمحاولات والدي آدم بالعودة معهما لبيتهما ، وأصرت على البقاء في سكنها ، فهي لن تستطيع العودة لذلك المكان ، كما أن لديها بعض من الكرامة يمنعها ، كيف تعيش معهما وهو لا يريد النظر في وجهها !

أصرت بنان على العودة والبقاء معها ، ولم يعارضها أحد في ذلك فقد رأوا أن هذا هو الأفضل ليطمئنوا على ديانا التي لا تنطق .

وأصبحت تتوالى عليها الزيارت وعبارات المواساة التي تزيد ألمها وتنحر روحها ، وتمثال الشمع أمامهم لم يتحرك ، حتى خرجت سارة عن صمتها ، جاءتها وجلست إليها تحدثت معها طويلاً عارفة أنها لن ترد ، قالت في حديثها :

- لقد حملت فيه تسعة أشهر ، وأرضعته لعامين ، وسهرت على راحته ثمانية وعشرين عاماً ، فرحت لفرحه ، مت في وجعه ، حتى مات هو ليتركني وحيدة بعده ، حينها تمنيت لو مات عند الولادة ، ولما تعلقت به هكذا ، لكن عوضني الله بكم جميعاً ، وأصبحتم من بعده جميعكم أبنائي، ويعلم الله أنني أشعر بكم كما أشعر بأبنائي الذين حملتهم وتربوا على يدي ، استعيني بالصبر والصلاة ، لن أمنعكِ من حزنكِ ، أعلم كم هو صعب شعوركِ ، ولكن يجب أن تهتمي بأبنائكِ القادمين ، فلهم حق عليكِ !

أي أبناءٍ سيأتون لمجرمة مثلها ؟ هي لم تعُد تريد الإنجاب ، ها هي أنجبت وفقدت ، أليس ما كانت فيه هو الخير ؟ ولكن متى سيطلقها آدم ؟ وأين هو ؟ ألم يأتِ بعد ؟

****

حبيبتي ديانا /

أختي الكبرى وأم الجميع ..

أتعرفين أن الكتابة لشخص غير الطويل مالك أمر صعب علي ، ولكن لا مفر من ذلك ، فقد يريحكِ حديثي ..

بعد فضل من الله أن رزقني بشخص مثلك يساعدني، توصلت لأشياء قوية في القرآن، أردت أن أناقشكِ فيها على قدر علمي الضعيف، كنت أقرأ سورة طه ووجدت فيها أشياءاً هزت قلبي!!

((بسم الله الرحمن الرحيم

طه

مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى

إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى

تَنزِيلا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى))

أولاً فكرة أن الله لم يشقينا بكتابه ..

كيف أن هناك أناسٍ يدّعون ذلك ؟ من أين اعتنقوا فكرة أن التمسك بالقرآن شقاء لا نهاية له ، وأن تركه هو النعيم الأبدي ؟ فكرتُ كثيراً لأجد أنهم قد يكونون يسمعون عن الله ولا يسمعون منه ، كما كنت أنا !!

وأعتقد أن الطريق الأمثل للوصول لله ، هو معرفته من كتابه ، هو أن نستمع إليه سبحانه ، لو فتحنا المصحف وقرأنا وعرفنا ماذا يقول الله لهُدينا لصراطه المستقيم ، سنعرف حينها حقاً أن القرآن تذكرة لمن يخشى !!

إن لم تدمع عيناكِ ويرق قلبكِ هنا في هذه الآيات فهناك شئ خطأ ، يجب أن تبحثي عنه وتصححيه !

((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى

وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى))

يكفي أن أقرأ الرحمــــــن على العرش استوى !!

أتعلمين الشئ الرائع هنا ؟ قصة النبي موسى ، دعوت الله أن يرزقكِ يقيناً كيقين أمه ، ويربط على قلبكِ كما ربط على قلبها !!

أنا لا أعرف كيف تحملت أن تلقي ابنها في النهر ولديها يقين أنه سيعود إليها سالماً ، كيف تمكن اليقين من قلبها ، إنها رحمة الله صدقيني !

((وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي))

وقال أيضاً في سورة القصص

((وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ))

عند واصطنعتك لنفسي سأتوقف ، عندما تكونين بخير ، سأكمل معكِ قصته مع فرعون مصر !!

أنهت بنان كتابة الورقة وطوتها ، وذهبت بها إلى ديانا في الغرفة المجاورة ، وقفت أمامها معاندة كعناد الأطفال وهي تنظر للطعام الذي لم تمسه وقالت :

- ألن تأكلي هذا أيضاً ، في المشفى كنا نوصلكِ بمغذيات ، لكن ماذا سنفعل هنا ؟ إن لم تأكلي سأضطر لاستخدام طرقٍ لا تحبينها ، واقرئي هذه الورقة لو سمحتِ ، ولا تردي عليّ !

****

مر أسبوع آخر على بنان في سكنها مع ديانا التي بدأت ترد عليها بالكاد فقد زهدت كل شئ من طعام وحديث ، ولكن شعرت ببعض الشفقة على بنان . أصبحت تستجيب لحديث ميرا ورحيق ، وزيارات سارة وأم آدم وأبيه، ولكن في الشكل العام مازالوا يرونها ميتة !!

أخبرت بنان مالكاً بأن يعود للإقامة مع والديه ، ولكنه رفض معتقداً أنها ستعود مرة أخرى ، وقد كانت تحتاج بعض الأشياء من غرفتها تخص دراستها في أوقات غريبة من الليل ، لم تكن تقصد أبداً أن تفاجأ بحاجتها لها في هذا الوقت ، وهي لم تأتِ بكل شئ معتقدة أن ديانا ستعود لبيتها سريعاً ، وكانت تخجل من أن تطلب من سارة ذلك ، أو حتى أن تذهب لهم في وقت متأخر كهذا ، وبالطبع فكرة أن تلجأ لمالك بعيدة كل البعد ، كانت في كل مرة تؤجلها متحججة بأنها ستتذكر في اليوم التالي وتذهب لتأتي بها ، لكن لم يحدث ذلك وها هو اختبارها غداً ولم تنهي عدة أشياء بسبب نسيانها ، فلم يكن أمامها بد من التصرف !

خرجت دون إخبار ديانا متعللة بأنها ستعود سريعاً ، وحتى ترفع الحرج عن نفسها هاتفت مالك وأخبرته بما تريد ، ولو يستطيع مساعدتها وإحضاره لها ، استجاب لطلبها سريعاً وذهب لبيت أبيه ، ولم تخبره بعد أنها في الطريق إليه !

حتى يتجنب إزعاج والديه ، ذهب في الخفاء وحاول الخروج سريعاً في الخفاء ولكن فكرة أنه في غرفتها سيطرت عليه لدقيقة لم يفعلْ شيئاً، ثم لفت انتباهه ورقة معلقة فوق سريرها، ابتسم وهو يقترب منها ببطء، وملأت فرحته وجهه وهو يرى رسمه لها معلقاً، تلك التي رسمها لها في المشفى، أمازالت تحتفظ بها؟ رن هاتفه مرة أخرى فتذكر سبب مجيئه فأخذه وخرج سريعاً! عندما وصل للشارع وجدها أمامه فاحمرت عيناه من الغضب وهو يقول بصوتٍ حاول كتمانه :

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا ؟

قالت ببساطة :

- يكفي أنني جعلتكَ تترك سكنكَ في هذا الوقت، هل ستأتي به إلي أيضاً؟ لم أشأ أن أثقل عليك !

- تعلمين إذا أن الوقت متأخر !

ثم تماسك وهو يطلب منها أن تتحرك ليوصلها ، ولم تعاند إذ شعرت أنه قد يضربها لفرط غضبه !

في اليوم التالي بعد أن أنهت اختبارها ، وجدته ينتظرها ، حاولت أن تتجاهله كما تفعل كل مرة ولكنه هتف باسمها فاتجهت له على مضض ، وقفت أمامه ناظرة للأرض وهي تحرك مشط قدمها بتوتر ، وتقرب بين إبهام يدها وسبابتها وتبعدهما بطريقة اعتادها منها عند التوتر فقال بقلق :- ماذا فعلتِ ؟

ردت عليه ناظرة للأرض كما هي وقالت :

- إلى حد ما كان جيداً !

لم تفته نبرة الحزن في صوتها فقال :

- وما الذي يحزنكِ ؟

- لا شئ !

تنهد بقوة ثم قال :

- انظري إليّ !

رفعت نظرها إليه ، لتجد ملامحه غاضبة مضطربة كأنما يزعجه شئ ، ولم يمهلها وهو يقول بطريقة وصلتها فظة :

- تزوجيني ، ولكن هل ترضين برجلٍ مشاعره مهدرة ؟

رفعت جانب شفتها ، رغم ما أثار طلبه في نفسها إلا أن الطريقة استفزتها فقالت بنفس فظاظته :

- لو مر جانبنا شخص الآن ؟ من المؤكد أنه يظن أنكَ تعاتبني لأنني لم أغششك في الاختبار !

ضحك وهو يبعد ناظريه عنها ثم عدل لهجته قائلاً :

- بنان ، تزوجيني ! كنت أتمنى أن تكون مشاعري كلها لكِ ، ولكنني أهدرت مشاعري قبلكِ ، ولو كنتُ أعلم أنني سألقاكِ يوماً لما فعلت !

فظ ، متهور ، أحمق ، تنهدت وهي تغالب خجلها وقالت :

- سأوافق بشروط !

أشرق وجهه ، ثم اكفهر قائلاً :

- شروط !

قالت مستهجنة وهي تزدرد لعابها :

- بالطبع ، وهل هناك امرأة تقبل برجل أهدر مشاعره هكذا بهذه البساطة ؟

يجرحها دون قصد ، فتجرحه قاصدة عله ينتبه ، فتنهد قائلاً :

- وما هي شروطكِ ؟

تمالكت نفسها قائلة :

- الشرط الأول ألا يمر يوم علينا دون أن تربط لي حجابي بنفسكَ !

الفكرة نغزت قلبه ، فهو لا يريد أن يتذكر أي شئ كان سيفعله مع ليندا فاعترض قائلاً :

- آسف لا أستطيع !

كسى الجمود وجهها حتى لا تظهر خيبتها وقالت :

- إذاً فطلبك مرفوض ، أستأذنكَ الآن !

- انتظري ! ... موافق !

قالها بتردد ، وبعد فترة من السكوت ، فابتسمت بسعادة وقالت :

- الشرط الثاني ، أن تفقهني في الدين ، فما زلت لا أعرف الكثير عنه !

ابتسم قائلاً :

- أعتقد أنني لا أفقه شيئاً أمامكِ فلتكون هذه المهمة لكِ وتعرفينني ديني !

أغمضت عينيها بشدة وسحبت شهيقاً طويلاً وقالت :

- شرطي أن تفقهني أنتَ في ديني !

- موافق !

صك على أسنانه وهو يقولها ، فتجاوزت خجلها الذي يزداد بشدة ولا تدري سببه وهي تكمل :

- الشرط الثالث .. أن تختار لي ثيابي ، حتى أعرف كيف تكون ملابس الفتيات ، التي تدل على مظهر جيد !

كانت غاضبة بالفعل وهي تقول ذلك ولاحظ هو غضبها فقال :

- يا إلهي إنكِ لا تنسي شيئاً ، صدقيني لم أكن أقصد إهانتكِ أبداً ، لم أجيد اختيار كلماتي فقط !

لم ترد عليه ، فقال :

- موافق ، هل من شروط أخرى ؟

نظرت للأرض ثانية رغم أنها تمنت أن تنظر لعينيه أثناء قول ذلك :

- الشرط الرابع والأخير .. حين تشعر بأن مشاعرك كلها لي ، ولم تعد مهدرة تخبرني !

صوتها ساكناً يكتم وجعاً وصله ، فشعر بعجزٍ إذ لم يكن الأمر بيده ، ورغم أنه على يقين أن هذا الشعور سيبقى ملازماً له إلا أنه قال :

- سأفعل !

فمنحت صوتها بعض القوة قائلة :

- بالطبع لن أوصيكَ على الدين والأخلاق لأنني أعتقد أنها فيكَ ، ودعني أفكر لأسبوعين ، وسأبلغ العمة سارة بردي ، ولا تحاول الاتصال بي أو استعجال رأيي ، لأنني كما تعلم مشغولة بأشياء عدة ، بالإضافة لوجودي مع ديانا و ...

قاطعها بجزع قائلا :

- انتظري ، ألم تخبريني أنكِ ستوافقين إن وافقت على شروطك ، هل ستتركينني معلقاً لأسبوعين أنتظر رأيك !

- أليس من حقي ذلك ؟

- بل لكِ كل الحق ، ولكن .. ولكن .. أنا .. أنا كنت أريد ..

ثم تنهد بقوة وقال :

- سأنتظركِ حتى النهاية !

- سأغادر الآن !

سارت خطوتين ثم عادت قائلة :

- أنت أيها الطويل ! في المرة القادمة عندما تتقدم للزواج من فتاة ، ابتسم !

وتركته وابتعدت !

بينما ضحك وقلبه يخفق من السعادة ، لا يصدق أنه اتخذ قراره أخيراً ، رغم ذلك الشئ الذي يعكر صفو مشاعره ، تمنى أن يتخلص من ذلك الشعور ؛ فكأن مشاعره انتهت مع غيرها ، ويعجز عن البوح بحبه لها !!

****

انعزل مع نفسه أياماً ، ولم يعرف أحد بمكانه ، وقد بحث عنه والده في كل الأماكن التي يتوقع وجوده فيها ، وطلب من براون أن يساعده ، وقام ياسين ومحمد ومالك بالبحث معهما ، ولكن باءت كل محاولاتهم بالفشل ، ولم يعثروا عليه ، لم يفعل شيئاً سوى البكاء الذي أنهكه ، وكما أخبرها قبل " نحن قوم لا نتذكر وجود الخالق إلا عند المصائبِ " ، وفعل !

أمسك مصحفه وبدأ يتلو ، قرأ كثيراً حتى تهدأ نفسه ، وصلى كثيراً حتى يربط الله على قلبه ، ولم يستطع المواجهة بعد ، لم يظن نفسه أبداً بهذا الضعف ، فإن كان يستمد منها قوته ، فكيف

سيواجه ضعفها ، حتى قرر أخيراً الخروج من صومعته ، وقد مر حينها ثلاثة أسابيع على الخبر ، اتجه لمنزل والديه ، ليفاجئهما مظهره المزري ، والعصا التي يستند عليها لتساعده على المشي ولم يخبرهما سببها .

عندما بحث عنها أبلغاه أنها رفضت العودة معهما، هاهي انتفت حاجتها منه، وقررت أن تبتعد، ورغم أن الحقيقة آلمته، إلا أنه أراد الاطمئنان عليها قبل كل شئ، ذهب لطبيبتها عندما أخبرته أمه بطلبها له؛ وبعد حديثه معها اتخذ قراره بأنه لن يتركها ، حتى وإن رفضته ، حتى وإن أجبرها على البقاء معه ، كفاه ضعفاً حتى الآن!

حين وقف أمام بابها وطرقه كانت بنان جالسة معها تحاول أن تشركها في حديث طويل ولكن ديانا لا تجيب سوى بكلمات مقتضبة ، وعندما سمعتا صوت طرقاته ، اتجهت بنان لتفتح ، بمجرد رؤيته أمامها ، لا تنكر صدمتها ، ولم تستطع إخفاء غضبها منه ، وهي تقول بضيق واضح على صوتها :

- مرحبا بكَ سيد أدم ، طال غيابك !

ابتسم وهو ينظر لها قائلاً :

- مرحباً بالصغيرة المشاغبة ، هل أتعبتِ زوجتي ؟

أمام ضعف صوته ، والهزال الوضح عليه ، ثم تلك العصا التي يستند عليها ، لم تستطع أن تكمل ضيقها وهي تقول بلطف :

- يكفي تعبها ، فلا ينقصها أنا أيضاً ، ادخل لها ، هي في أول غرفة ستقابلك !

أومأ وهو يتقدم بخطواته نحو الغرفة التي أشارت له بها ..

وجد الباب مفتوحاً وهي نائمة في وضع الجنين ، هكذا تفعل دائماً عندما تحزن ، ضيق عينيه عندما نظر لوجهها الذابل ، وعينيها الدامعتين ، وتقدم نحوها .

رفعت نظرها نحو الجسد الطويل المقترب منها ، فهي تستطيع رؤية وجه بنان لو سارت أمامها وهي نائمة ، لكن هذا الظل الطويل ليس لها ، اتسعت عيناها عندما رأته يتحرك نحوها ، وتحولت للعصا التي يقبض عليها بسرعة وهي تعتدل لتقول بفزع :

- ماذا حدث لك ؟ هل أنتَ بخير ؟

ابتسم وهو يجلس جوارها، وصدرت منه أنة ضعيفة بسبب ألم في قدمه فأخفاها بابتسامة وقال :

- كيف حالكِ الآن ؟

أومأت برأسها وعيناها معلقتان بقدمه ، ثم ارتفعت لتلاحظ الهيئة التي هو عليها ولحيته النامية بغير تهذيب ، وشعره الطويل ، والهزال الواضح جلياً على وجهه ، فقالت :

- أين كنت ؟ لماذا ابتعدت عني وأنا أحتاجكَ جواري ؟

أخفض بصره وقال :

- أنا آسف ، لم أقصد الابتعاد عنكِ مطلقاً ، ولكنني لم أحتمل أن أراكِ بهذا الشكل .

همست بسؤال طال كتمانها له :

- هل رأيتها ؟ كيف كانت ؟ لماذا لم تنتظر حتى أراها ؟

تنهد ليهدئ ضربات قلبه وقال :

- كانت كمن لا تستحقها الأرض ، وكأنها خلقت لأجل الحياة في الجنة ! انظري إلي كانت تشبهني !

قالها مازحاً ليخفف عنها ، ولكن فاضت عيناها وهي تسأله :

- أي اسم اخترته لها ؟

ابتسم وهو لا ينظر إليها حتى لا يرى دموعها قائلاً :

- جنة ، حتى تليق بالمكان الذاهبة إليه .

خرجت أنفاسها مبتورة مقطعة وهي تكتم بكاءها ، فأخذ رأسها إلى صدره وهو يربت عليها دون حديث ، عاجز عن النطق بأي شئ ، وهو يعلم أن كل الكلام لن يخفف شيئاً .

نسيت أمر الطلاق التي ظنته سيفعله ، ونسي أمر الابتعاد الذي ظنها اختارته ، وهو يبعد رأسها عنه ، ليقول بجدية بدت وكأنها مزاحاً :

- سأبيت الليلة هنا !

- ماذا ؟ لن يحدث ذلك ، بنان هنا ! سيحرجها هذا الأمر !

استند على عصاه وهو يقف متألماً واتجه للخارج فلحقته قائلة :

- ماذا ستفعل ؟

نادى على بنان فجاءته وقد ارتدت ملابس لتخرج فعاجلتها ديانا قائلة :

- إلى أين ؟

ضحكت بنان ثم قالت :

- ما هذا ؟ ليتَك جئتَ منذ زمن ! إنها لأول مرة تسألني إلى أين ، ويكأنني لا أعني لها شيئاً ، هل يرضيكَ ما تفعل بي؟

ابتسم آدم وهز رأسه نافياً فقالت :

- اعتني بها جيداً ، ولا تتركها حتى أعود !

- لا تقلقي سأقضي الليلة هنا ، لأننا سنسافر في الصباح إن شاء الله .

اعترضت ديانا :- من سيسافر ؟

لم يجِب سؤالها بينما قالت بنان :

- هذا رائع ! العمة سارة طلبت مني أن أذهب إليها وأبقى عندها الليلة ، ولكنني لم أستطع ترك ديانا وحيدة ، أشكرك أنك ستفعل !

وهمت بالمغادرة ، فأوقفتها ديانا قائلة :

- لا تكذبي ! هل ستذهبي إليها قائلة دعيني أبيت الليلة هنا ؟ هي لم تطلب منكِ شيئاً ، وهو لن يبقَ هنا .

ثم وجهت حديثها لآدم قائلة :

- اذهب وعُدْ في الصباح !

فابتسمت بنان بحرج وقالت :

- نعم أنا أكذب ، الحقيقة أنني أخبرت مالك بظهور السيد آدم ، فـ ...

ثم سكتت وهي تنظر لديانا تنقذها ، ولكن ديانا كانت غاضبة ولم تفهم نظرتها ، فقال آدم باسماً :

- فأخبركِ أن تعودي إلى بيته في الحال ، رجلكِ يغار عليكِ بشدة !

سعلت بنان لشدة حرجها ، ثم نظرت لديانا بخجل ، ظناً منها أنها أخبرته بطلب مالك ، واتجهت للباب قائلة :

- يا إلهي أنتَ وزوجتُكَ مخيفان ، وتستمتعان بإحراج العامة أمثالنا ! رحلتكما سعيدة ، اهتم بها جيداً وإياكَ أن تتركها أو تغضبها ، واجعلها تأكل ، لأنها تعذبني حتى تتذوق شيئاً !

ثم خطر في ذهنها شيئاً ، فتساءلت لمَ لا تنتقم من ديانا التي لم تراعي حرجها ولم تنقذها من زوجها فالتفتت ناظرة لها وهي تخبر آدم :

- لم يصبح رجلي بعد ، ثم أن امرأتكَ تغار عليكَ بشدة ، حتى أنها تغار الآن لأنك تتحدث معي وتضحك بتلك الطريقة ، وليس بعيداً أن تقتلكَ حالما أغادر !

بالطبع هي مزحة من بنان ، فديانا لم تظهر له غيرتها هذه قبل ، كما لم تظهر له أي مشاعر قبل ذلك اليوم الذي لا يريد تذكره ، ولكن عندما نظر ليديها التي احمرتا بسبب قوة انقباضهما وانبساطهما ، ووجهها الذي ينظر لبنان متوعداً ، شعر بشئ من السعادة يخالطه ، تحول إلى ضحكة وهو يرى بنان تفتح الباب بسرعة هرباً من وعيد ديانا !

نظرت له ديانا بغيظ وحرج، تنوي قتل بنان على ما قالت ، فاحتوى يدها بيده الحرة قائلاً :

- تعالي أيتها الغيورة ، لو كنت تزوجت في الثامنة عشر لأنجبت فتاة تقارب عمرها !

انتشلت نفسها من حرجها قائلة :

- لماذا نسافر ، وإلى أين ؟

- غداً إن شاء الله ستعرفين كل شئ .

٢٧

حائرة

في اليوم التالي عندما استيقظت وجدت رأسها على صدره ، أخذت وقتاً حتى استوعبت ، ثم لم تمنع نفسها من الالتصاق به، بل تشبثت بجيبه لتثبت حاجتها لوجوده ، ودار حديثهما قبل نومهما في عقلها مرة أخرى ، وتذكرت كيف أصرت عليه أن يقص لها كيف انتهى الأمر بابنتها ، وأين اختفى ؟ وماذا حدث له ؟

أخبرها أنه تعرض لحادثٍ بسيط أثناء عودته إليها ولم تقتنع بالأمر ، رغم ذلك لم تلح في السؤال إذ أظهر لها ضيقه من الحديث عمَّ فات . ولم يبُح بفكرة السفر ، ولم يتحدث عنها .

تنهدت بقوة وهي تستمد حناناً منه ، وانسابت يدها بتلقائية معتادة على بطنها ، لتملك الفراغ .
تذكرت أنها لم تعد تحمل شئ ، استغفرت وحوقلت لتثبت قلبها ، ولكن عيناها أبت إلا البكاء .
نشجت بخفوت فرفعت يدها لفمها تكتمه ، فامتد ذراعه يحيطها وربت على رأسها مهدئاً .
فزعت في أول الأمر خوفاً من كونها أيقظته ولكنها استسلمت لسكينة أتتها باحتوائه !

ابتسم آدم ومازال مغمضاً عينيه قائلاً :

- لم تنامي إلا بعد الفجر ، ما الذي أيقظكِ مبكراً !

لم ترد عليه ، فاعتدل جالساً ورفعها إليه ثم ربت على ظهرها قائلاً :

- ما رأيكِ؟ لنستعد الآن طالما استيقظتِ ؟!

وافقته وهي تعتدل لتبتعد عنه، أمسك كفها فنظرت إليه فقال :

- ديانا أنا أحبكِ ، وأي شئ أفعله يكون بهذا الدافع فقط ، أريد أن نبقى معاً إلى الأبد ، لا تنسي ذلك !

ابتسمت وأومأت ، إذ فطنت أن سفرهما ما هو إلا غطاء لأمر سيتعسر عليها تحمله !

استعدا وخرجا ، ووقفا أمام سيارته فقال :

- تجيدين القيادة ، أليس كذلك؟

- من أين عرفت الأمر ؟ فأنا لا أمتلك سيارة ، ولم تراني أقود !

ابتسم وهو يعطيها مفاتيحه قائلاً :

- قدمي تؤلمني ، ووصلت الأمس بصعوبة ، فهلا ساعدتْني أميرتي ؟

ابتسمت وهي تلتف لتجلس على مقعد السائق وجلس هو جوارها ، دائماً يأسرها حديثه ويمنعها من كثرة الأسئلة والجدال ، شغلت السيارة ثم نظرت له قائلة :

- إلى أين ؟

- لن أستطيع إخباركِ بمبتغانا ، فقط تقدمي وعند كل منعطفٍ سأخبركِ !

نظرت له باستنكار ثم قالت :

- طالما تعرف أنني أقود ، فمن المؤكد أنكَ تعرف أنني جيدة في الأمر .

ضحك قائلاً :

- لا ليس شكاً في قدراتك ، بل لأنني لا أريد لكِ أن تعرفي بالفعل .

استجابت له واتخذت من الطريق سبيلاً مستعينة بتوجيهاته ، ولم تكرر سؤالها عن معرفته بالأمر ، كما لم تسأل من أين عرف بأمر مالك وبنان وهي لم تخبره ، حتى وصلا لمكان يملأه اللون الأخضر متعاكساً مع لون السماء ، في لوحة لم ترى مثلها في حياتها ، توقفت دون طلب منه وتركت السيارة فتركها خلفها ، تأملت الطبيعة حولها ثم نظرت له وابتسمت لتقول :

- كيف عرفت هذا المكان ؟ إنه رائع !

تنهد بتوتر وابتسم قائلاً :

- الرائع أنه أعجبكِ !.. ثم تقدم يأخذ بيدها قائلاً :- تعالي معي !

لفت انتباهها المبنى الكبير المتجهين إليه ، فقالت :- هل سنقيم هنا ؟

لم يرد عليها وتوتره يزداد ، حتى وصلا ، واتجه لفتاة تقف خلف مكتب في استقبال القادمين وسألها عن حجرة باسمها ، فوصفتها له ، واتجه بها إليها .

دخلت الغرفة معه ، وتأملتها قبل أن تقول :- أنا لا أفهم شيئاً !

أغلق الباب ، وتحرك ليجلس على السرير الوحيد في الغرفة ، وأشار لمكان يجاوره قائلاً :

- تعاليْ ديانا!

اقتربت منه بوجل وجلست جواره فربت ظهرها بحنو قائلاً :

- تريدين التخلص من تلك العادة التي تكدر عيشكِ ؟

نظرت له بعينين تشعان قلقاً فأكمل :

- وأنا أريد مساعدتكِ في ذلك ! هنا أطباء يستطيعون حل المشكلة ، بل ويمتاز المكان بطبيبات مسلمات ستجدينهنَّ خير عونٍ لكِ .

- أطباء؟!.. قالتها متسائلة بخوف ، فقال :

- ديانا الأمر تملككِ بشكل مرضي ، يجب أن نعترف بذلك ، ويجب أن تخضعي للعلاج .

فتحت فمها عن فراغ كلمات ، وزاغ بصرها ثم قالت :- ولكن .. ولكن ..

أحاط كتفيها بذراعه قائلاً :

- لا شئ يدعو للقلق ، إن كان الخمر أصبح إدمان لديكِ ، فيمكنكِ التخلص من ذلك ، ولكن المشكلة الأكبر أن تحبي نفسكِ وتتوقفي عن عقابها !

ثم تنهد قائلاً بألم :

- ديانا ! الله رحيم ، ولا يرضى لعباده أن يعيشوا في عسرٍ دائم بسبب أمر خارج عن إرادتهم ، بل دائماً ييسر عليهم ويوفقهم ليجدوا طرقاً للنجاة! لمَ لا تستجيبين لِسُنّته؟

أجابت بضياع :- ولكنني خائفة !

- لا تخافي من شئ، الأمر جد بسيط، ستقيمين هنا لفترة وجيزة، ثم تخرجين لننعم بحياتنا معاً!

- ستتركني وحيدة؟

حاول طمأنتها وقال :

- رغماً عني سأفعل! ولكنني سأكون دائم الزيارات لكِ ، أعدكِ !

ثم وقف مستندا على عصاه قائلاً :

- أرجوكِ كوني قوية ! سينتهي الأمر سريعاً ولن تشعري به ، وكلما خانكِ الحزن تذكري السعادة التي سنعيش بها حين تخرجين من هنا!

طفلة في وسط الطريق ضاعت في زحم الحياة، بعد أن كان أبوها ممسكاً بيدها متشبثاً، ضاعت منه يدها، وتركها كالغريق تبحث عن منجى، بعين حائرة وقلب تائه.

جلس ثانية وضمها إليه بشدة ثم قال :

- أرجوكِ ، لا تفعلي بي ذلك ، لن أتخلى عنكِ أبداً !

تعلقت بجيبه منتحبة ، فقبل رأسها وراح يمرر يده على ظهرها بحنو ، ورجاءاته لها تزيد علها تتوقف عن البكاء ، حتى استجابت ، فقبل رأسها لمرة ثانية ثم قال :

- لن أستطيع تركك هكذا ، عديني أنكِ ستكونين قوية ، حتى أستطيع الاطمئنان عليكِ !

أومأت برأسها ، وتشبثت بيده بقوة ، فوقف وهو يسحب يده قائلاً :

- تمنيت ألا أترككِ أبداً ، ولكن القوانين هنا لا تسمح بذلك !

همست باختناق :- لا تتأخر !

- أعدك !

ثم خرج سريعاً فهو لن يتحمل رؤية ضعفها لفترة أطول ، بمجرد خروجه دخلت طبيبة ، ابتسمت وعرفتها بنفسها ، تحدثت معها في مواضيع عامة ، وطلبت منها أن تبدل ملابسها حتى تخرج للجلوس معها في الحديقة الرائعة التي رأتها خارجاً ، واستجابت لها !

بينما استقل آدم سيارته ليقودها بصعوبة راغماً نفسه على ذلك ، ليقيم في فندق قريب منها ، فهو أخبر والديه وبنان التي ستخبر الجميع أنهما مسافران معاً ، لم ولن يخبرهم بأمر علاجها ؛ فهم لا يعرفون بالمرض حتى يعرفون عن شفاءه !

****

مالك /

المصيبة أنني أدمنت الكتابة لك ، ولكن هذه المرة لن أرسل لك ما أكتبه ، حتى بعد زواجنا ..

منذ سافرت ديانا وأنا أشعر بفراغ غريب لم أستشعره بزواجها ، قد يكون لأنني كنت دائمة الزيارة لها ، أو لأنني لا أعرف أين سافرت بالضبط .

أَتذكر حين هاتفتني يوم جاءنا آدم وأخبرتك بألا تتصل بي مرة أخرى حتى أخبركَ بردي وأخبرتني حينها أنك متعجل لمعرفته، شعرت بسعادة غريبة ما لبثت أن انطفأت عندما تذكرت حديثك معي، للمرة التي لا أذكر عددها تشعرني كأنني امرأة تتزوجها لسترها أو لكسب الأجر بزواجك منها، وكأنك تخبرني أنه من الصعب عليّ أن أمتلك مشاعرك.

رغم أنني أحبك لأنك تمثل لي كل شئ، إلا أنني لن أتنازل عن كبريائي يوماً لأجل عشقٍ أحمق، وما وافقت عليكَ إلا لأجلك، لأجل أن أخوض التجربة معك وإما أن أنجح وأغير أفكارك الشاذة أو أفشل فأكون قد فعلت الشئ الذي أريد ثم ننفصل غير نادمة على ما فعلت، فأحياناً نحتاج لخوض تجارب لا نعرف نتائجها حتى تعلمنا أشياءاً ستفيد حياتنا حتى النهاية.

وحين غضبت غضبك الأعمى بأن أعود لمنزلكم طالما جاء آدم، كنت سأعاند أمرك إلا أنني وجدت أن هذا هو الأفضل لأتركهما معاً ، ليس لأجلكَ بالطبع ، لكن لماذا تخبر آدم بطلبك بمجرد رؤيته؟ ألا تراعي مشاعري أبداً؟ متى تفهم أنني كأي أنثى ينتابني ذات الخجل الذي ينتابهن؟ يبدو أنكَ ستجرحني طويلاً حتى تفهم، وها قد أشرف الأسبوعان على الانتهاء ولم أحدد رأيي بعد، لشد خوفي من تلك التجربة، ليتك خدعتني وأخبرتني أنكَ تهيم بي عشقاً، كنت متصورة أن حبي لكَ كافٍ لموافقتي، ولكن لا يبدو ذلك!

وكم سعيدة أنا بشخصي ، إذ اتضح أن لدي أولويات أهم من الزواج ، والسعي وراء كسب قلب رجل لا ينوي أن يعطيني إياه !!

يوماً ما حين تتخلص من عقدك لن تجدني ألهث وراءك ، لأنك تأخرت كثيراً في ماضيكَ مع ليندا، أنت إلى الآن تحبها يا مالك، إن لم تكن تعشقها وما جهاد إلا خطوة اتخذتها لتنسيك ليندا، لذلك تأثرت برفضها لك، لأنها بتلك الطريقة قطعت الطريق إلى نسيانك، وطال تفكيرك لتطلب مني أنا أن أكون هذا الدواء.

أنا لم أنسَ كيف نظرت إليها عندما أوقفتنا يوماً في الجامعة، وكيف زاغ بصرك عندما همَّتْ بعناقكَ، أنت ترفض الاعتراف بأن تأثيرها عليكَ مازال قائماً، بالطبع موجوع قلبكَ منها، وتشعر أنها خانتك وغدرت بك، لكن القلب الذي يحب لا يستطيع أن يكره، كقلبي تماماً، فنحن متشابهان لدرجة مضنية!

إلى الآن لا أستطيع اتخاذ القرار، هل سأقبل أن أكون لك دواءاً، وتستخدمني كوسيلة للنسيان وقد تتبدل مشاعرك لي يوماً؟ أو سأرفض الأمر برمته ضاربةً بمشاعري عرض الحائط، لا أعرف!

الموجوع قلبها /

بنان

وحين حدثها طلبت أسبوعاً آخر، كيف ستقبل به وهي موقنة أن قلبه ينبض لغيرها حتى وإن كان يريد التخلص من ذلك، حتى وإن زعم عكس ذلك!

بعد الأسبوع الثاني ؛ زارها في منزله وطلب رؤيتها . وعندما خرجت له بالطبع لم تبُح بما تشعر إذ وجدت أن في الأمر إهانة لنفسها لن تحتملها . ولكن الأمر عرف بين أهله ووجدت نفسها في وضعٍ حرج لا تستطيع أن ترفض وتبقى بينهم ، أو تقبل وهي غير مقتنعة تمام الاقتناع . مالك مازال مشتتاً بينها وبين غيرها ، واعترف لها بنفسه أن مشاعره مهدرة ، حتى حين طلب الزواج منها لم يستطع أن يتجمل فقد قال تزوجيني كأنه يقول خلصيني من تلك الحيرة !!

طوال الأسبوعين لم يستجِب لطلبها بأن ينقطع عن الاتصال بها، بل لم يتأخر يوماً يستعجل ردها كأنه عاشق متيم، واليوم وجدت رحيق وياسين مدعوان للعشاء وكذلك محمد وميرا، عندما نظرت لهم شعرت بافتقاد قوي لوجود ديانا، ولم تفطن لسبب دعوتهم، إذ استجابت للجلوس معهم دون مشاركة في الحديث، ولم توجه نظرها لمالك، حتى همست لها سارة بأن تلحق به ليحدثها في أمر ما، فعلت على مضض، وحين ابتعدا خطوات وقفت مقابلة له حيث قال :

- إن لم تعطيني ردكِ الآن ، سأتخلى عن أصلي الشرقي وأعاملكِ كشاب أمريكي لا يقيده شئ!

توترت ولم تفهم قصده فقالت :

- مالك ، يجب أن تحترم رأيي ، أنا لا أستطيع أن أتخذ قراراً في الأمر !

تنهد وهو يعود للجمع الجالس بعيداً فسارت خلفه ، وقد ظنت أنه استجاب لطلبها ، حتى وجدته يقف فتجاهلت الأمر وجلست جوار سارة فنظر لها قائلاً للجميع :

- أنا قررت الزواج ، واستقر قلبي على فتاة ما زالت ترفضني !

احمرت وجنتاها بشدة وجف حلقها وتصاعدت دقات قلبها بقوة وهي تقبض وتبسط بين إبهامها وسبابتها ، بينما ضحك ياسين قائلاً :

- إنها محقة ، لو كنت أعرفها لشجعتها على الرفض !

وأكمل محمد ضاحكاً :

- أحسنَتِ القرار !

بالطبع يعرفان بالأمر ويعرفان من يقصد بقوله ، فنظر لهما بغيظٍ ، حتى أنقذه والده وهو يقول :

- ستندم إن أصرت على رفضها !

تحولت نظرته لهما إلى نظرة شامتة وهو يذهب ليقبل رأس أبيه ويقول مازحاً :

- أخبرها إذاً ، لن تجد من هو أفضل مني !

فقال عمر :

- أنا أكره الكذب يا مالك ، إن قلنا الحق فهي تستحق من هو أفضل منكَ !

اصطنع الصدمة قائلاً :

- حتى أنتَ يا أبي !

تحول خجلها لابتسامة محاولة في الشعور بالانتقام منه ، بينما اختفت ميرا ورحيق ، فبحثت عنهما بعينيها لم تجدهما وقد تركتا أبنائهما مع زوجيهما ، قبل أن تشع السماء بنور براق وأصوات بعض المفرقعات فرفعت نظرها كما فعل الجميع ، لتجد كلمة " تزوجيني بنان " تتوسط الأضواء ، فاقترب منها ضاحكاً لخجلها وهو يقول :

- ستتزوجينني ؟؟

نظرت لسارة وكأنها تستنجد بها فلم تجد منها سوى ابتسامة ، نظرت لعمر فغمز لها قائلاً :

- طويل وسيم للأسف، وأمه سارة!

ضحكت وهي تنظر في الأرض، ثم أغمضت عينيها بشدة وهزت رأسها إيجاباً ، فربتت سارة على رأسها هاتفة :- بارك الله لكما !

فقال مالك لإغاظتها :

- يبدو أن فكرة ميرا جاءت بنتائج مبهرة !

فنظرت له بغيظ ثم وقفت تواجهه قائلة :

- تظاهر أنها فكرتك أيها الجلف ، لقد سحبت موافقتي ، وابحث عن أخرى ترضى بكَ ، واطلب من ميرا أن تصمم لكَ فكرة أخرى مغايرة !

ثم تركته واتجهت لغرفتها ، متمنية أن تكون أحرجته أمامهم ، كما أحرجها ، هل ستتأثر نفسه إن قال أنه فعل ذلك لأجلها ؟ حتى لم يظهر فرحته بموافقتها ، وكأن الأمر طبيعي بالنسبة إليه ، تعلم أنه لن ينطق إلا بما يشعر مثلها تماماً ، ولا يستطيع أن يجمل مشاعره أو يقول شيئاً لأجل إرضاء الغير فقط ، وهذا الأكثر إيلاماً لها ، أنه لا يشعر بها كما يجب أن يكون !

بالطبع استحق لومهم جميعهم على ما فعل ، وشعر بضيقٍ شديد من نفسه إذ دائماً يسبب لها حزن لا يقصده ، بالطبع لا يقصده أبداً !

ورغم قراراتها الحاسمة إلا أنها لا تعرف لما بكت ، وبدا أنه لن يكون البكاء الأخير بينهما !

رسالة أتتها منه لا تعرف كيف رسمت البسمة على وجهها وهي تقرأها " والله لا أقصد أبداً أن أؤذي مشاعركِ حتى وإن حدث ، المشكلة أنني لا أتعامل بطبيعتي هكذا سوى معكِ أنتِ .. أنتِ فقط "

****

مرتبط ياسين بابنته بطريقة أصبحت تثير أعصابها أحياناً . وتتساءل ألأنها فتاة تمناها ، أم لأنها سَمِية أمه ، أم لأنه شهد وجودها ؟ وأحياناً أخرى تسعد بذلك إذ تجده معاوناً جيداً لها ولا يظهر ضيق الرجال المعتاد من عادات الأطفال . ولكن سيف ؛ أهمله بشدة دون قصد منه . تحدثت معه مرة ومرة ومرة ، وبلا فائدة ، وكأنه لم ينجب سوى مريم . فكرة أن تتكرر مأساة مالك في بيتها أغضبتها بشدة وأوغرت قلبها . وكما تفعل حين يصيبها الضيق منه ، تتجنبه ، لم يهتم لذلك ، أو لم يلحظ الأمر ؛ فبجانب مريم يشغله العمل الذي رمي فوق عاتقه عنوة بسبب تقاعد أبيها ودراسة مالك .

ذات نهارٍ جاءتها صديقة لزيارتها في بيتها ، رحبت بها وتحدثت معها قليلاً ، وبدا أن لديها مشكلة بدأت تقصها عليها . عجزت عن النصح ولا تعرف السبب ، فقط كانت مستمعة ولم تعرف ماذا تقول ، خاصة وهي تستشهد بديانا في قصتها وبها مرة أخرى ، لم توافقها الرأي بالطبع ولكن بلا حجة لديها . اعتصرت عقلها لتقول أي دليل لكلامها ولكنها لم تجد .

غادرت المرأة بعد أن فاضت بحديثها، وجلست رحيق مكانها شاردة حتى عاد ياسين من عمله، كان متعجلاً للخروج مرة أخرى، بدل ملابسه ودخل غرفة ابنته وجدها نائمة فقبلها، ثم اتجه للخروج وهو يلقي عليها سلاماً بارداً وقال :

- ساعتين وأعود إن شاء الله!

تماسكت وهي تحاول أن تمسك بزمام الأمور، وتفكر جيداً خاصة وأن كلام صديقتها ما زال يعمل تأثيره في عقلها، اتجهت لغرفتها وهي تتمتم :

- ياسين ! سامحك الله.

انتظرت حتى عاد ، ليجدها مستعدة للخروج ، بالطبع بلغ منه التعب مبلغه ، ولكنها قالت بابتسامة لم تكن إلا هادئة :

- أنتَ مدعو للغداء والعشاء معاً الآن !

ابتسم بإرهاق قائلاً :

- من الذي دعانا دون أن أعرف ، أنا حتى لا أستطيع الوصول لغرفتي !

مدت كفها فناولها كفه تحثه على الوقوف فوقف ، فقالت :

- إنه شخص مهم للغاية وليس من الذوق أن تجعله ينتظر ، سأخبرك بالتفاصيل في الطريق ، ولكن استعد الآن ، هيا !

تنهد بتكاسل فحثته على الفعل بنظرات مستعطفة ، فاتجه لغرفته وهو يقول :

- أنائمة مريم ؟

قالت بغضب :

- سيف مريض !

التفت لها بفزع قائلاً :

- ماذا ؟

حاولت الهدوء وهي تقول :

- هل يجب أن يمرض حتى تشعر به ، أنت أهملته كثيراً والأمر يحزنه وتجنبكَ بالفعل وأنتَ لا فائدة منكَ ! هو ليس بمريض .

شعر بالأسى تجاهه ، وسأل ناسياً إرهاقه :

- أين هو؟

- تركته مع مريم في غرفتهما ، ننتظر عودتك حتى نخرج معاً..

استعد للخروج ، ثم دخل غرفة ولديه ، جالسهما قليلاً ، قبل أن يأخذ بيد سيف ويحمل مريم متجهاً إليها ، شعرت ببعض راحة من ابتسامة سيف ، حتى وإن شابها بعض القلق ، خرجوا جميعهم ، وتحولت راحتها لسعادة عندما شعرت بسعادة سيف وفرحه ، وضحكة ابنتها التي تطرب قلبها ، وأثناء عودتهم تحدثت عن المشكلة التي تشغلها ، وقالت في نهاية الأمر :

- أتعلم ماذا يزعجني ؟ أنني أشعر أن كلامها يؤثر عليّ ، خاصة حين قالت أن ديانا رغم أنها متمسكة بالدين شعرتْ بالتعاسة حينما فقدتْ ابنتها وأنا وأنتَ تدمرتْ حياتُنا رغم أننا كنا متمسكين بديننا ، شعرتُ أن ما أرادتْ قوله قد يكون صحيحاً ، أن من يتمسك بدينه تدمر حياته بينما اللاهين في الدنيا يشعرون بالسعادة ، وبالطبع هذا الشعور أزعجني لأنه غير صحيح

بالمرة ، ورغم ذلك لم أستطع أن أغير فكرتها عن الأمر ولم أستطع نفيه. بالطبع فكرة خاطئة ، لكن ما تصحيحها ؟! عاجزة أنا بالفعل عن تصحيح الأمر !

انتهتْ ونظرتْ له منتظرة جوابه ، فابتسم قائلاً بتروٍ :

- قال الله - تعالى - : **" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى "** .. ثم أكمل :

- السعادة ليست مظهر خارجي يظهره الناس ، قد تكون ديانا شعرت بانهيار وقد يكون آدم أصابه ضعف ، ولكن سيرزقهم الله بالصبر والرضا لا محالة ، أما عنا فلا أعتقد أننا كنا متمسكين بديننا بالشكل الكافي ، يكفي أن كلاً منا أصابه يأس قاتل في استحالة الحياة ، وقد قال الله **" وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ "**

يا رحيق حياتي الدين يجب أن يعمر القلب، قبل أن يملأ أفعالنا، لأن بلا قلب سليم، لا دين ولا حياة .. ستكون ضنكاً بالرغم من أن المظهر الخارجي والأفعال الظاهرة كلها دينية بحتة..

شعرت براحة ثم قالت :

- يا إلهي كيف لم أتذكر تلكَ الآيات ، سأخبرها غداً إن شاء الله .

- قبل أن تخبريها ، أخبري نفسكِ !

نظرت له بامتنانٍ قائلة :

- عليكَ تذكيري بالأمر دائماً ..

****

مر أسبوعان لم يزورها آدم ، وكل ما يفعله أن يقترب من المكان يجدها جالسة وحيدة في الحديقة ، يطمئن لرؤيتها من بعيد ثم يغادر ، حتى سُمِحَ له بالزيارة . ذهب إليها بقلب تكاد خفقاته أن تصيبه بالجنون . دخل غرفتها بعد أن استأذن ليجدها في وضع الجنين ، لكم يمزق قلبه رؤيتها بهذا الشكل ! اقترب منها ولم ترفع نظرها نحوه ، ثم جلس على مقعد يجاور فراشها، فانتبهت للرجل الذي وُجِدَ معها، فانتفضتْ جالسة لتراه هو! نظرتْ له بعينٍ مكسورة وكأنها تسأل " أهذا وعدكَ ؟ ". رد نظرتها بأخرى نادمة كأنه يقول " الأمر ليس بيدي ! ". ولم يكن ليُسْمَحَ له بهذه الزيارة سوى أن أخبرته الطبيبة أنها لا تستجيب لشئ، وليس عندها أي رغبة في الشفاء ، تحتاج إلى دافع لا يتوفر لديهم.

تحرك ليجاورها على السرير وقال :- كيف حالك ؟

- بخير !

احتوى كفها القريب منه قائلاً :

- تعلمين أنهم يفتقدون وجودكِ في العمل بشدة، براون أخبرني أن خطابات بعثت إليهم بأن مستوى البرنامج يقل منذ أن انقطعتِ عن العمل.

لم ترد ولم تنظر إليه فاستطرد :

- أنا اقترحت عليه أن تقومين بالإعداد وتراسلينهم بالحلقات من هنا ، ما رأيكِ ؟

دون أن تنظر له قالت :

- ليست لدي رغبة في شئ ، لن أستطيع !

ثم أكملت في استكانة :

- ولا تحدثني بتلك النبرة لأنني لستُ في حاجة للشفقة ، أنا ضعيفة وأعلم ذلك ، من الطبيعي أن يمر كل إنسان بفترة يشعر فيها بضعفه ، لن تقتله ؛ وليتها تفعل .

انفعل قائلاً :

- ديانا لا تفعلي بي ذلك ، أرجوكِ لن أتحمل رؤيتكِ هكذا !

ازدردت لعابها وأكملت كأن لم يقُل شيئاً :

- هل بعتَ سيارتكَ وشقتكَ؟ رغم أنني أخبرتك بأن لدي أموال قد تكفي لعلاجي!

زفر في ضيق ، لم يكن يريد أن تعرف بالأمر ، ورغم انعزالها عن العالم إلا أنها عرفت ، لأنه فقط أخبرها ذات يومٍ أن الشئ الوحيد الذي يجعله يبيعهما هو حاجتها لأموالهما ، ولما وجد هذا المكان تكاليفه باهظة تفوق أمواله لم يجد بداً من بيعهم، وقالت الأمر بثقة كأنها على يقين من ذلك. رغم أن أمر ثقتها في حديثه أسعده، إلا أن تلك الثقة الآن تزعجه، وهو يعرف أن أموالها لن تكفي الإقامة هنا لأسبوعين فقط.

شد على يدها قائلاً :

- أنتِ أنا ، وأنا أنتِ ، عندما تخرجين من هنا ، أنفقي أموالكِ على علاج قدمي !

انتبهت له وهي تنظر لقدمه بجزع قائلة :

- أمازالت كما هي؟

ابتسم قائلاً :- بل تحسنت عن ذي قبل !

تحدث معها لقليلٍ من الوقت ، وجاءها في اليوم التالي بمفاجأة عرف كم ستسعدها ، وقد تكون هي الدافع لها ..

حين طلبت منها الطبيبة أن تخرج لرؤية زائرٍ سيسعدها، لم تتوقع أبداً أنها سترى سيف، ابتسمت لما رأته، ولكنها نظرت لآدم بعتاب، فلم تكن تريد أن يراها سيف هنا، فاقترب منها مطمئناً :

- هو لا يعرف أين نحن ! تعالي معي !

دخلا إلى صالة مغطاة ، لم تراها قبل ، ثم وجدت طاولة تنس فوجه سيف حديثه إليها قائلاً :

- أميرتي ، زوجكِ يقول بأنه سيهديني بمُهرٍ صغير إن فزتِ عليه في هذه المباراة ، وإن فاز هو فلا شئ لي ، أرجوكِ كوني الفائزة !

ابتسمت وهي تربت على رأسه ، وتشعر بعجزٍ عن طلبه ، فهي لن تستطيع فعل شئ ، ولن تستطيع اللعب إلا أنها تعلم أن آدم ليس بماهرٍ في التنس ، وقد طلب منها قبل ذلك أن تدربه وأثبت فشله الذريع ، إذاً يسهل الفوز عليه دون تعب .

وبدأت المباراة ، كانت بعباءتها وحجابها الذين ارتدتهما حينما خرجت مع الطبيبة ، لعبت مع علمها بأن الأمر سيصعب وملابسها تقيدها ، لم تكن متحمسة بشدة فهي بالفعل لا تملك أي طاقة. فوجئت بإجادته للعب، فاتسعت عيناها وهي تحاول أن تجاريه، ولكن انتباهها تشتت بما ترى منه فقالت :

- متى أصبحتَ بتلك المهارة؟

ضحك وهو يرى انفعال حقيقي منبهر على وجهها وقال :

- استعنت بمدربة جيدة !

- لم تكن كذلك ، بل أثبتَّ أن لا فائدة منكَ !

- كنت أخدعكِ حتى أبقى معكِ دائماً !

استفزها ويعلم ذلك ، وأحرز فيها أهدافاً ، وهي كما هي بنفس الرتابة ، وبدأ سيف ييأس ، ثم جلس على أحد مقاعد المشاهدين وهو يهتف بحزن :

- يبدو أنني لن أحصل على المُهْرِ !

توقفا ونظرت له ديانا عاجزة ، فهي تعلم كم يعشق الخيل ! ثم لفت انتباهها حقيبة تجاوره فقالت لآدم :

- ماذا تحوي ؟

ابتسم وعيناه تلمع قائلاً :

- ما تريدين تماماً !

- هل من الممكن لأحد أن يدخل هنا !

اتسعت ابتسامته قائلاً :

- قد تدخل الطبيبة فقط ، لن يقترب رجل من هنا !

ثم ناولها الحقيبة وهو يتحرك على قدمه بصعوبة ، فقد أتعبها كثرة حركته ، ولكنه سيتصرف في الأمر حين يعود ، انتظرها تبدل ملابسها في إحدى الغرف الملحقة بالمكان ، وارتدت زي اللعبة ، ثم خرجت له وهي تنظر لسيف بابتسامة قائلة :

- أعدكَ أنك ستأخذ ما تريد ! ولكن ابتسم واهتف باسمي !

سعد بوعدها ونفذ طلبها ، ولم يمل من هتافه الذي أشعل حماستها بينما استفزها آدم وهو ينظر لها ساخراً متحدياً فقالت :

- لا تفعل ذلك لأنكَ الخاسر في النهاية!

ضحك وهو يقول :

- ألم تجدي من تفوق على معلمه من قبل !

- عندما يكون معلمه شخص غيري !

تحولت المباراة لصالحها ، وتحول هو لمنتقمٍ لنفسه بالفعل أمامها ، ولكن أعجزه ألم قدمه ، وأعجزته تلك الابتسامة التي أشرقت وجهها ، ولم يُرِد إفسادها ، وهي تحقق فوزاً عليه يسعدها، وحين انتهيا جلس على أقرب مقعدٍ له يسترِحْ وهو يضغط على قدمه بيديه يهدئ ألمها ، بينما قفز سيف نحو ديانا وعانقها بشدة هاتفاً :

- أميرتي أنا أحبكِ كثيراً !

- وأنا أيضاً يا نبض قلب الأميرة !

نظر لهما آدم هاتفاً ببعض غيرة :

- هو فقط !

ابتسمت ناظرة له :

- ليس هو فقط !

ثم انتبهت للألم المرتسم على وجهه ، فاقتربت منه قائلة :

- هل آلمتكَ قدمك ؟ لم يكن عليكَ فعل ذلك !

وقف قائلاً :

- بدلي ملابسكِ الآن هيا ! سأكون بخير صدقيني !

قامت لتفعل بينما بحث عن مسكنٍ في الحقيبة وتناوله ، ثم راح ينتظرها فجاوره سيف قائلاً :

- هل سنذهب الآن ؟

أومأ آدم ، فقال سيف :

- لا أريد أن أترك ديانا !

- وأنا أيضاً !

- لنبقى معها !

- أبوكَ ينتظر عودتك !

حين انتهت ودعاها بعناق طويل وغادرا ، لتعود لوحدتها مرة أخرى ، ولكن هذه المرة قد أسعدت سيف ، أصبح لها فائدة ولو بسيطة في الحياة ، بينما عاد سيف لأبيه على وعد بأن يكون المُهْر أمام بيته صباحاً وقد كان !

****

أخبرته أمه أن بنان صغيرة على الزواج ، ويجب أن ينتظر لحين انتهاء دراستها وكذلك كان رأي بنان ، ورغم محاولاته في إقناعها لم توافق ، مازال على انتهاء دراستهما ثلاث سنوات ، هل سينتظر كل ذلك ؟ طلب أن يتملكا ، ولم توافق أيضاً . كان رأيها أن الخطبة تكفي ، فهي إلى الآن تعتقد أنها لن تكمل الطريق معه .

ولكن خوف عمر الدائم من أن يموت وتبقى وحيدة ، جعله يعارضهما الرأي ، ويقنع زوجته بحجج واهية علها توافق ، ويقنع بنان التي رأت ضغطاً مبالغاً فيه عليها لن تحتمله ، حتى استقر رأيها على عقد فقط بعد عودة ديانا .

قرارها أسعد مالك بشدة ، إذ بدا أن إقناعها مستحيل ، ولم يسأل نفسه إلى الآن ، ما هو شعوره بالتحديد نحوها ؟ لا يجد له مسمى . الأقرب له من بين الناس ، صديقة وأخت ، أن يسعدها لهو شئ يسعى إليه دائماً ، وأن يستفزها لهو الشئ الأكثر إثارة لديه . لكن أيحبها ويعشقها ويراها زوجته وأم أبنائه ؟ ليس متأكداً من ذلك ، هو اكتفى فقط بشعوره بالراحة قربها .

****

ديانا /

أنتِ الوحيدة التي سأطلعكِ على هذا الأمر ، ولكنني لا أشعر براحة أبدا لاقتراب زواجي بمالك. أردت أن أطيل فترة الخطبة لأقصى حد ، ولكن العم عمر تحدث إلي طالباً موافقتي إذ أنه سيشعر باطمئنانٍ أكثر ولم أستطع خذلانه .

إنها المرة الأولى التي أخفي فيها أمراً يزعجني عن مالك ، وهذا يخيفني أكثر أن تبدأ حياتنا معاً بهذا الشكل . ديانا أكثر شئ أتمناه الآن وجودكِ جواري . الكل لاهٍ عني أو يهنئني بالزواج السعيد ، ولكن مالك لا يشعر بي إطلاقاً ، تصرفاته معي يراها كل من يرى كأنها عشق ، ولكنها مجرد حب أخوي ، واهتمام يلحقه بصديقته ليس إلا !

وككل خطاب أصبحت أعبر فيه عن مشاعري وتضمه أوراقي ، فأنا لن أرسله لكِ ولن ترينه ، سأكمل حديثي معكِ الآن عن سورة طه ، منتظرة مناقشتكِ لي فيمَ فهمتُ.

أول ما جذبني أن قصة النبي موسى هي الأكثر ذكراً في القرآن ، وقصته مع فرعون تحديداً .

هنا قال الله :

((اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى))

لقد أسرني القول ، هل لاحظتِ قوله طغى ثم قولا ليناً ، فقابل الله طغيان فرعون بالقول اللين ، يعني هو - سبحانه - لا يُنزِلُ عقابه على قوم لا يعرفونه ، ونصح النبي موسى لفرعون وتوجيه خطاباته له ولقومه كانت عديدة جداً ، وفي كل مرة كان يزداد طغياناً بينما يزداد النبي موسى ليناً في القول .

لعله يتذكر أو يخشى ، فالقول اللين هو السبيل للوصول إلى القلب ، وليس أبداً أولئكَ المنفرين من الدين المكفرين لكل البشر سواهم . من المؤكد أن أولئكَ الإسلام منهم براء .

((قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى

قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى))

ارتبطت معية الله هنا بالأمان وليس بالخوف والترهيب، الله معنا يسمعنا ويرانا فلم الخوف إذاً، هكذا كانت، لن يستطيع فرعون ولا من هو أكثر منه عدواناً وظلماً إيذائنا. يا الله كن معنا دائماً.

الجدال الذي حدث بينهما كان في سورة أخرى، انتظري سأبحث عنها، آه كانت سورة الشعراء.

حين قال الله أيضاً :

((قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ))

كان أيضاً تثبيته - سبحانه - لهما بقوله " إنَّا معكم " ، ثم بدأ عرض الجدال :

((فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ))

لشد ما أعجبني هذا الاعتراف، لم يقل له مثلاً أنت أيها الكافر من تحاسبني، وكذلك لم يهابه بسبب جبروته إذ تيقن بمعية الله له..

((فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ))

الشئ الأول هنا مرونة النبي موسى في الجدال، إذ تعمد فرعون السخرية منه وإهانته ثم تهديده وفي الحالات الثلاثة لم يلتفت له النبي موسى بل أكمل إقناعه له بالأدلة على وجود الله

إذ يقول القرآن على لسان فرعون مثلا

((قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ))

فيرد النبي

((قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ))

رد طبيعي على سؤاله ، لم يستمر بعدها فرعون في استطراد أسئلته بل انتقل للسخرية مباشرة وهو يحدث الملأ

((قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ))

ورغم ذلك أكمل النبي موسى أدلته

((قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ))

وهكذا لنهاية الجدال ، لا أعرف لماذا شعرت بضعف موقف فرعون حتى النهاية وما هو إلا رجلاً يحتمي بحاشيته ، وشعرت بغبائه حين احتمى بالسحرة ، حتى لو كان المصريون القدماء مؤمنون بقوة السحر ، أليس حري على إله ألا يؤذِه شيئاً ؟ أو أليس حريٌّ على رجل يدَّعي الألوهية أن يجيد ادّعاء الأمر ؟ شعرت بغباء قومه إذ لم يفكروا في ذلك الأمر .

ولكنني لم ألبث أن أجد الجواب هنا !

((فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ))

تقريباً إلى عصرنا هذا ، يتصرف الطغاة بمثل هذه الطريقة .

سأكتفي بهذا الآن ، إذ غلبني نعاس شديد ، وأدعو أن يصلكِ هذا الخطاب يوماً ما ، وأكون حينها قد تدبرت في القرآن كله ، وشعرت بالراحة التي أبحث عنها مع مالك .

ولأنني شخص متواضع سأسامحكِ إن اقتبستِ بعض كتاباتي في برنامجكِ السياسي شريطة أن يتحدث به زوجكِ الوسيم ، يا إلهي لقد خفت وأنا أكتبها الآن ، أنتِ شخص غيور بشدة عليه .

تعلمين أنها صفة مشتركة بينكِ وبين صديقتيكِ . هما أيضاً يبدوان دائماً عاشقتين بنظرة غيورة .

إلى اللقاء لأنني بدأت أثرثر بكلام فارغ ...

مزعجتكِ اللذيذة /

بنان .. أنا ..

أنهت الكتابة ثم اتجهت لفراشها وغطت في نومٍ سريع عميق ..

٢٨

زواج سعيد

حمل ياسين ابنه فوق كتفيه، ووضع سيف ذقنه فوق رأس أبيه محيطاً عنقه بذراعيه، وسار ياسين به قريباً من البيت يتجولان حين قال :

- هل كنت غاضباً مني؟

عبس سيف قائلاً :

- نعم لأنك كنتَ مهتماً بمريم وتلعب معها أكثر مني ، وكذلك أمي كانت تفعل .

ابتسم ياسين وهو يشد بيديه على قدمي ابنه المدلاة فوق صدره . كان يعلم أن رحيق هولت الأمر ، إذ كان منشغلاً بالفعل في الفترة الماضية ، وكان مكوثه في البيت لا يتجاوز ساعات قليلة في اليوم ، فبالتالي يطمئن على صغيرته التي يشتاقها بشدة ، والتي دائماً تكون مستيقظة في ساعات الليل عكس سيف النائم . هل يوقظه حتى يلعب معه ؟ إنه اهتمام طبيعي بالأصغر . وها هو سيف جمع رحيق في الأمر ، يعني أن المشكلة لم تتعدَّ غيرة أطفال ، فقال :

- ولماذا لم تخبرني ؟ الرجل يتحدث مع رجلٍ مثله ، ولا يجري على أمه باكياً كالأطفال .

لم يرد سيف ، فأكمل ياسين :

- أما زلتَ غاضباً ؟

- لا ، ولكن لا تقل علي طفل يجري على أمه ، أنا رجل !

ضحك ياسين قائلاً :

- أنتَ رجل ولكن عدني أنك ستخبرني إذا ما شعرت بالحزن بسببي .

- سأفعل ، والآن ستأتي معي لترى المهر و نذهب للنادي ..

أنزله ياسين ووضعه على الأرض وهبط لمستواه قائلاً :

- سأفعل ، اليوم كله لك ، ولكن لم تخبرني أين ذهبتَ ولماذا أعطاكَ آدم هذا المهر ؟

زاغ بصره ثم قال :

- لقد قال لي أن أحافظ على الأمر سراً ، وهو أعطانيه كهدية فقط ، لكن لا يجب أن أخبرك بسبب الهدية لأنه سر ، أم عليَّ إخبارك ؟

ابتسم ياسين وهو يقرب رأسه إليه يقبلها قائلاً :

- طالما هو سر بينكما ، فلا يجب أن يعرف بالأمر أحد سواكما ، حتى أنا ، هكذا يكون المسلم ، يحفظ وعده ، ويؤتمن على السر ، أنا فخور بكَ .

- حقا !! قالها سيف بسعادة ..

- حقا ! ، ولكَ مني هدية أيضاً وسأترك لكَ حرية اختيارها .

- إذاً دعني أفكر .

وقف ياسين ثم سار ممسكاً بيده قائلاً :

- فكر كما تشاء ..

ولكن بعد خطواتٍ قليلة قال سيف بتردد :

- أبي، هل يجب أن أكون فخوراً لأنني مسلم؟

توقف ياسين عن سيره، ثم نظر لعيني ابنه متسائلاً، كانتا بريئتين تبحثان عن إجابة شافية لسؤاله، فجلس به وقال :

- بالطبع، يجب أن تكون فخوراً لأن الله اختارك لتولد مسلماً..

- ولكن في المدرسة، ضربني أحدهم، وقال لي أنني أستحق ذلك لأنني مسلم، ولأن المسلمين يرهبون كل العالم وينشرون الجرائم، وعندما عرف أنك عربي، قال أن العرب أيضاً يستحقون ذلك، لم أخبر أمي لأنها ستأتي إلى المدير وتهاجمه، ولم أعرف ماذا أقول لمن ضربني..

نظر ياسين بقوة لعينيه ثم قال :

- يجب أن تعلم الناس لأن الإسلام ليس كذلك، يجب أن تفخر بكونك مسلماً، ولا تجعل لأحدٍ أن يهز ثقتك في هذا الأمر، كما أنكَ لست بحاجة لأن تخبر أمك وأنا موجود هنا، هل فهمت؟

هز رأسه موافقاً ثم قال :

- ولكن هذه ليست المرة الأولى التي يهاجمني فيها أحد زملائي لأنني مسلم..

ربت ياسين على رأسه وقال :

- بثقتكَ ستكون الأخيرة، أنت تعرف الكثير من المسلمين هنا، هل تجد فيهم ذلك السوء الذي يزعمه هؤلاء؟

- لا..

- هل تجده في ديانا ؟

- لا ..

- إذاً لتثق بأنكَ على حق! ولا تكن وجبة سهلة أبداً لمن يرى في نفسه نقصاً، اتفقنا..

ابتسم موافقاً، ثم قال :

- ستكون المرة الأخيرة التي أسمح لأحدٍ أن يعترض طريقي..

ضمه ياسين إليه، وقد تملكه القلق، كان يعرف أن شيئاً كهذا سيحدث لا محالة، يبدو أنه سيفكر في الانتقال لمدرسة أخرى، ولكنه مع ذلك لا يريد أن يربي ابنه على الهروب من المواجهة، ليس كمثله أبداً..

****

- أتعلمين يا بنان ؟ لقد تزوجت محمداً وأنا أذوب له عشقاً ، وهو لم يكن يرى فيّ سوى مجرد امرأة تغني عنها أخرى . لا يميزني أي شئ ، بل ينقصني أشياء ، فيكفي أنه اضطر للزواج بي وليس باختياره ، ويكفي أنني لم أكن أمتلك المواصفات التي تمناها في زوجته .

نظرت لها بنان متفاجئة من تحول حديثهما على هذا النحو ، خاصة وأن ميرا لأول مرة تتحدث معها في أمر شخصي كهذا ، ودائماً لقاءاتهما تكون في وجود رحيق وديانا . فنظرت لها ميرا وأكملت كأنما تحادث نفسها :

- ولكنه قال لي كلمة جعلتني أتغاضى عن كل ذلك ، وأكملت حياتي معه منتظرة أن يشعر يوماً أنني له حبيبة ولست مجرد شئ اعتاد وجوده في حياته ، أو مجرد زوجة بديلاتها كثر .

انتبهت لها بنان فأكملت :

- في أول حوارٍ بيننا بعد خوف وتردد من الحياة بتلك الطريقة قال واطمأنت حياتي بوجودكِ ، شعرتُ حينها أنني مستعدة لخوض الحرب العالمية الثالثة لأجله .

ضحكت بنان ثم علقت :

- ولكن من المؤكد أنكِ لم تكوني لتقبلي بالأمر ، لو قال أنه يعتبركِ صديقة ، أو يشعر بالراحة وهو يتحدث معكِ ، يعني مجرد دواء لقلبه فقط .

ابتسمت ميرا وأكملت كأن لم تسمعها :

- كان صريحاً معي منذ البداية ، ولم يقل لي أحبكِ وهو لا يشعر بها ، وكذلك أنا أخفيت عنه أنني أحبه منذ سنوات وكنت أتتبعه حتى يبادرني هو باعتراف .

وفي هذه الفترة كنت أسلمت ، فاتخَذَتْ حياتنا منحنى آخر ، إذ كنت متلهفة لمعرفة المزيد والمزيد عن الدين الذي لتوي اعتنقته ، وكلما عرفت شيئاً يزداد عطشي للمزيد . كان هو معلمي في ذلك الأمر ، فأصبحت العلاقة صداقة جيدة ، ومن ثم كنا نتحدث عن كل شئ ، ويخبر أحدنا الآخر عن كل ماضيه .

مرت ستة أشهر على زواجنا ، وبدأت حينها أشعر ببعض يأس ، إذ داهمني شعور مفاجئ بأنني مجرد شخصٍ يسري عنه في غربته وأن امرأة أخرى كانت لتحل مكاني ، وأن معاملته لي مجرد امتنان من الممكن أن تحظى به أي امرأة أخرى تزوجها .

وصلت لدرجة مزرية من اليأس وأنا أراني أعشقه بطريقة أصبحت لا أتحكم في إظهارها ، وهو مجرد شخص يعاملني بالحسنى ، لطيف معي مهذب يقف إلى جواري في أزماتي لأنني امرأة مسكينة ضعيفة رفضها أهلها بعد أن تركت دينهم .

كل ذلك أثار غضبي من نفسي بشدة ولكنني لم أتهور أو أفعل أي شئ ضده ، إذ خفت أن أوتر أعصابه أو أسبب له أي إزعاج خاصة وقد اقتربت اختباراته في هذا الوقت ، وهذا الشهر بالذات كنت أشعر بضغطٍ لا أتحمله من كل ناحية ، إذ بدأت عملي بمشروع صغير ، وبدأ اختلاطي بالناس كمصورة محجبة وبدا الأمر غريباً عليهم وبدأت أتلقى تعليقاتٍ ساخرة لم أتحملها في البداية ولم أشكُ له أبداً ، حتى انتهت اختباراته أخيراً وقد أوشكتُ على الانفجار .

إلى الآن رغم استمتاعها بما تسمع، لا تعرفُ لمَ تقص لها ميرا تلك الأشياء ولمَ اختارتها هي بالذات؟ ولم تستطع أن تمنع فضولها لأكثر من ذلك ، فقالت :

- ما الذي ذكركِ بذلك؟

ابتسمت ميرا ابتسامة شقية وهي تنظر لها مستطردة :

- بعد أن انتهت تلك الضغوط جاء محمد إلي ذات ليلة وأهداني فستاناً أبيض بحجابه مع قلادة رقيقة وطلب مني ارتدائهم . لم أفهم شيئاً خاصة وأنه تحدث معي لأول مرة بنبرة كادت تصيبيني بالجنون وتوقف قلبي عن النبض .

فعلت ما طلب مني، ثم خرجنا معاً متأبطة ذراعه، وأشعر بسعادة غريبة، حتى لم أعترض على شكل الفستان الذي يقارب فساتين الزفاف، إذ كنت أتوق لارتدائه يوماً وللأسف لم يحدث!

جئنا هنا وفي هذا المنزل قابلتني العمة سارة ورحبت بنا بشدة ، ثم رأيت المكان الذي يبدو أنه معد لاحتفال كبير ، وبعدها أجلسوني على مقعد وحيد وأنا لا أفهم أي شئ . جاءت رحيق وديانا لأول مرة مبتسمتين في آن واحد ، ثم عم صمت غريب على المكان تلاه اقتراب محمد مني وجلس على ركبته أمامي قائلاً بصوت عاشقٍ لا أعرف كيف أتى به " أحبكِ .. تزوجيني " .

ثم ضحكت بشدة وعيناها تلتمع مستأنفة :

- المجنون طلب مني الزواج ونحن متزوجان بالفعل ، وكان الحفل بتخطيطٍ من رحيق وديانا معه . ومنذ ذلك الحين ونحن عاشقان كما ترين . وفي تلك الليلة أخبرته بمصائبي كلها بسبب حبي له لثلاث سنوات .

ابتسمت بنان سعيدة لها وقالت :

- سأحسدكِ هكذا !

نظرت لها ميرا وقالت :

- بعد تلك الثرثرة الطويلة كل ما أردت أن أخبرك به ، أن أسباب الزواج لا تتوقف عند الحب ، فالمودة والرحمة رباطهما أقوى بكثير ، وبهما يأتي الحب ، ولا يأتي بدونهما . أنا أعلم أنكِ

تحبين مالك منذ ارتباطكما الأول ، ليس تطفلاً مني ، بل لأن هناك نظرات تفضح صاحبتها ولا تفسر بشئ آخر سوى الحب !

ارتبكت بنان بشدة فأكملت ميرا :

- لا بأس إن أحببتِه وهو لم يبادلكِ مشاعركِ ، فطالما تقدم للزواج منكِ إذاً فهو يشعر بشئ تجاهكِ ، هذا الشئ سيكبر وينمو ويتجاوز كل معاني الحب والعشق .

نظرت لها بنان وهي ترمش بتوتر وقالت :

- كيف عرفتِ ذلك ؟ أنا لم أخبر به أحداً .

- أنا آسفة لو أزعجكِ تطفلي ، ولكنني لم أتحمل رؤية حيرتكِ هكذا . ثم أن الأمر كان ظاهراً جداً في تلك الليلة التي اجتمعنا فيها هنا ، بالإضافة لملاحظتي للأمر منذ زمن . فرتبت الأفكار في رأسي وجئتُ للحديث معكِ .

وكأنها استسلمت لمعرفتها بالأمر ، ووجدت منها منجى فقالت :

- ولكن كلامكِ هذا سيكون جائزاً إن لم يكن يعشق أخرى ، ويراني مجرد صديقة .

- تقصدين ليندا ؟

أومأت بنان فقالت ميرا :

- أحياناً يتصور أي شخص منا أنه يحب شخصاً ما ، ويفعل الكثير لأجله ، ويتصرف على هذا الأساس ، ثم يفاجأ أن هذا الشخص لا يستحق هذا الحب فيصدم وتتشوش لديه المفاهيم. مالك هيئ له أنه واقع في غرام ليندا، لذلك يرى أنه إن أحب مرة أخرى فعليه أن يحب بذات الطريقة، وأن يشعر بما شعر معها. قد يتأخر في فهم الأمور، وقد يصل للبر سريعاً. هو مجرد تائه لا تتركيه، مشكلته أن مشاعره إلى الآن مبهمة، لا يستطيع إيضاحها، قد يحتاج إلى صدمة.

ابتسمت بنان وقالت ساخرة :

- مشكلته أن كل الناس تفهمه إلا نفسه.

ضحكت ميرا قائلة :

- ظننتكِ تعرفين!

- أي شئ أعرفه.

- أننا كنا صديقين، أنا وهو، لذلك فهمت تردده.

ببعض غيرة نطقت بنان :

- ولكنه دائماً يقول أنه لم يكن له أصدقاء.

- لأنني كنت صديقة متطفلة.. ثم أكملت بإيضاح :

- قبل أن أكون مسلمة ، كنت أحب أن أكون صداقات مع الرجال ، فكنت متطفلة على ياسين ، وكذلك مالك ، خاصة أن لهما أصل عربي ، أو تستطيعين القول بأنني كنت أعوض حاجتي لمحمد بهما . أياً كان فأنا أفهم مالك جيداً بسبب تلك الصداقة ، ولكن لا تقلقي لا توجد تلك الصداقة الآن؛ أصبحتُ مسلمة.

ابتسمت بنان ثم قالت :

- لذلك تطوعتِ لفض حيرتي.

- بنان ! نحن هنا عائلة كبيرة ، لا يربطنا النسب ، ولكن يربطنا الحب . وبالتالي فأنا أعتبر مالكاً أخي الصغير كما هو بالنسبة لرحيق . وبالطبع هو لم ولن يعلم ما دار بيننا من حديث الآن. وبالنسبة لفكرة الحفل الذي أحرجتما بعضكما فيه أمامنا؛ هو فكرتي ولكنه من طلب أن يفعل لكِ شئ يسعدكِ متعللاً بأنكِ تعشقين الهدايا والمفاجآت. هل ترين أن رجلاً يفكر في الشئ الذي يسعدكِ ويفعله لكِ يفكر في غيركِ؟

- قد يكون! لا تقلقي سأحسن التصرف في الأمر.

- أتمنى ذلك!

****

- سيد آدم ! شُفِيَتْ قدمكَ أخيراً ، هل لي أن أعرف السبب ؟ ولا تقول حادثة بسيطة .

فوجئ آدم بهجوم الطبيبة عندما دعته إلى مكتبها ، بعد أسبوعين آخرين منعت فيهما الزيارة، فقال بثبات :

- بالفعل هي حادثة ، ولكنني أهملت علاجها فقط ، ورفضت تجبيرها أو الراحة وعدم إجهادها، لأنني كنت متعجل للاهتمام بعلاج ديانا.

- وهي تعرف ذلك!

- تعرف أنها حادثة فقط.

- يبدو أنها تفهمك جيداً.. قالتها الطبيبة ساخرة وهي تقلب في أوراقٍ أمامها، ثم رفعت نظرها إليه قائلة بينما كان مستنكراً نبرتها :

- أقصد أنها فهمت أن الأمر بسببها، وأنكَ أهملت علاجك بسببها. بدا لي أنك ستكون معاوناً جيداً في علاجها.

قالت الجملة الأخيرة بانزعاج، ثم وقفت وهي تقول :

- أنتَ تعلم أن شعورها بالذنب يجعلها تلجأ للعقاب، ونحن لم نبدأ العلاج بعد؛ فلماذا تشعرها أنها السبب في أي مصيبة تحدث لك؟

- أنا ؟ قالها بصدمة ، فقالت :- نعم أنت ، حتى لو بغير قصد .

ثم تنهدت وقالت :

- ديانا لا تعرف العرفان بالجميل، هي تشعر بالذنب فقط فتعاقب نفسها . زوجتك تهدف لأن تعيش كملاك على الأرض؛ لا يخطئ ، لا يسبب مشاكل لأي شخصٍ كان . ولو أخطأت تعاقب نفسها كمجرمة تستحق العقاب. كل يومٍ يتم تفتيش غرفتها كاملة للاطمئنان أنها لا تملك أي شئ حاد، ومع ذلك إن أصرت على عقاب نفسها تعاقبها حتى ولو بضرب رأسها في الحائط . فأصبحت تلازمها ممرضة حتى في دخولها للحمام ، وبالتالي تحول العقاب ..

لم تكد تكمل كلامها إلا وجاءتها ممرضة صارخة :

- د. إيلين ، إنها تصرخ وتنتفض بطريقة غريبة ، ألا تسمعينها ؟

ركضت الطبيبة معها مخلفة آدم وراءها كالمصعوق .

كان يسمعها أثناء حديثها بعينين مذهولتين، وقلب فزع. لا يفهم أي شئ، كيف ساءت حالتها بتلك الطريقة، وقد تركها آخر مرة سعيدة هادئة. ولماذا يكون هو السبب؟

لم يمنع نفسه من الذهاب خلف الطبيبة ، وهو على يقين من أن المقصودة زوجته . قلبه كان يحترق حتى اقترب من غرفتها وسمع صراخها . دخل بسرعة ليجدها كما قالت ؛ تصرخ منتفضة ، محاولات تهدئتها باءت بالفشل . اقترب منها ونظر إليها بعينين جزعتين ، ورغم رؤيتها له وندائه الحاني لها لم تستجب ، اقترب منها مثبتاً ذراعيها جوارها وراح يهتف باسمها أن تهدأ ، فتحول صراخها لانتفاضات مزقت قلبه ، فغرست الطبيبة فذراعها محقناً فنامت على صدره .

تركها بإشارة من الطبيبة وخرج وراءها فسارا متجاورين وقالت :

- هذا ما تفعله ، عندما تبوء وسائل عقابها لنفسها بالفشل . تمنيت ألا أعطيها مهدئاً وأترك لك مجالاً للحديث معها ، لكنني خشيت أن تفسد الأمور دون قصدٍ كما في السابق ، يجب أن تفهم ما الذي تقوله أولاً ؟

خرجا للحديقة فجلسا حول طاولة مستديرة وقالت :

- المشكلة أنني لا أفهم سبب تدهور حالتها ، لقد كانت جيدة وتأملتُ أن ينتهي علاجها في ثلاثة أشهر فقط ، ولكن كل شئ حدث فجأة . من حديثي معها عرفت أنكَ فعلت أشياء كثيرة لأجلها وأنكَ تعرضت لمصائب بسببها ، أنا لا أفهم أية مصائب تعرضت لها سوى قدمك وفقد ابنتكما وهذا الأمر مشترك بينكما.

غمغم بصدمة :

- هل عرفت بالأمر؟

استشفت صدمته فقالت :

- أنا أعزلها تماماً عن العالم الخارجي ، لولا أنني عرفت أنها تتحدث مع الممرضة لمعرفة أخبار البرنامج الذي كانت تعمل على إعداده .

قال وقد فهم ما الذي أصابها :

- أنا آدم صالح مقدم البرنامج مع براون ديل .

قالت بصدمة :

- أنتَ ؟ هكذا إذاً ، الآن فهمت ما حدث لها . وهل استبعادك من البرنامج كان بسببها ؟

- بسبب انشغالي .. معها ، ولم أعد أهتم .. بالعمل . المشكلة أنهم شهروا بالأمر بطريقة مؤذية لها.

تنهد بألم ، وقد كان مطمئناً لعدم معرفتها بالخبر ، وقفت الطبيبة قائلة فجأة :

- إن كان يهمكَ أمرها بالفعل، حاول أن تنجح! وحاول أن تظهر لها سعادتك في المرة القادمة. أهم شئ تفعله الآن أن تعود للبرنامج وبقوة، وأتمنى أن تكون لاحظت سيرك بصورة طبيعية.

وقف بدوره قائلاً بلهفة :

- هل يمكنني انتظارها حتى تصحو، وأتحدث قليلاً معها، لن أخبرها بأي شئ يضايقها، أعدكِ.

تنهدت ثم قالت :

- موافقة

واقترب عجوز منها فقالت :

- من الأفضل أن تتحدث مع مارك هو أقرب الناس لها هنا!

ثم أضافت بابتسامة :- وقد يفهمها أكثر مني أنا !!

وتركتهما معاً ..

عجوز رأته يهذب الأشجار ، تجاوز من العمر الثمانين ، باسم المحيا طيب المعشر ، أقبلت عليه تعرض المساعدة إذ عطفت عليه وشعرت بالود نحوه . وافق بابتسامة فسيشاركه شخص في العمل ، ويتحدث إليه ويمازحه . وبالفعل راح يتحدث معها وسمعته دون اعتراض، وبدأ يشكو لها هجر زوجته وأولاده له فأشفقت عليه. ثم تحول حديثهما ذات يومٍ لمنحنى آخر قائلاً :

- أأنتِ مسلمة إذاً؟

أومأت ديانا بابتسامة فقال ببساطة :

- أكره المسلمين ، ولكنني لا أكرهكِ ، سأتغاضى عن كونكِ مسلمة !

ضحكت فأشرقت الشمس في عينيه . كانت ترى نفسها في تلك الفترة أسوأ من يتحدث عن الإسلام ، وأسوأ من يدعو له فلم تفعل . ودون قصدٍ منها وبطريقة اعتادتها كانت تتحدث مع الجميع بلطفٍ معتادٍ منها ، وهو كان ينتظر رؤيتها كل يومٍ صباحاً حتى يشعر بأن الدنيا أزهرت بقدومها ، وأن الورد تفتح برؤيتها ، وأن شمسه ابتسمت . كل ذلك كان قبل تدهورها المفاجئ إذ كانت تتحدث معه بشأن عملها وزوجها وأنه فعل الكثير لأجلها وخسر أمواله وعمله وترك والديه .

استمع له آدم وهو يشتعل من الغيرة ، ورغم أنه في عمر جده إلا أن هذا لم يمنعه من الشعور بالغضب منه ومن تغزله الصريح في زوجته حتى قال :

- ألا ترى أنك أطلتَ التغزل في زوجتي ؟

هاجمه مارك قائلاً :

- وألا ترى أنكَ أطلت ظلمها ؟

- أنا ؟

- بالطبع أنتَ ، لماذا استبعدوك من عملك ؟ ولماذا لم تهتم بعلاج قدمك ؟ وكأنكَ تشعرها أنها السبب في كل مصيبة !

استغرب آدم صراخه عليه مما زود غيرته ثم هتف :

- أهي من قالت لك ذلك ؟

قال مارك بضيق :

- تقول ذلك ! بالطبع لا أنا من فهمت أن الأمر كذلك ، إنها تعشقك ، لا تلتمع عيناها ولا تبتسم إلا لذكرك .

هتف آدم :

- ولماذا يسبب ذلك ضيقك ؟

ابتسم العجوز فجأة وانفرجت تجاعيد وجهه قائلاً :

- أنتقم لها منكَ ، ها قد اشتعلت غيرتك ! هكذا أفضل ..

ثم تنهد مستطرداً :

- ليتني حظيت بابنة مثلها ، عندما تخرج من هنا ، إياكَ وأن تسبب لها أي حزنٍ أو غضب ..

ثم وقف ونظر له قائلاً باستهانة :

- أأنت مسلم ؟

أومأ آدم مجيباً ، فابتعد العجوز وهو يقول ساخراً :

- أكره المسلمين !

حرك آدم رأسه يمنة ويسرة ، وهو يتنهد ناظراً للسماء ، وانشغل تفكيره بكيفية العودة لعمله ..

****

بنانُ مالك /

إنها تملكية فقط وليست للنسب ، بدلاً من أن أقول زوجة مالك .. دعكِ منها إنها مجرد تخاريف آخر الليل ..

أول شئ أنني ترددتُ كثيراً في أن أرسل هذا الكلام لكِ ، وخفتُ أكثر أن تسيئي فهمي ، ولكن ما دفعني لكتابته أنني على يقين من كونكِ الوحيدة التي تستطيعين فهم أفكاري ومشاعري ..

لا أعرف من أين أبدأ ، ولكن البداية لا تهم بقدر ما تهمني النهاية . لقد تصورتُ أن زواجنا سيسعدكِ كما هو الحال معي ، لذلك لا أعرف السبب في غضبكِ في كل مرة . هل هو عجرفتي في الحديث وإن كانت مزاحاً ؟ أم أن هناكَ شيئاً يزعجكِ في شخصي ؟ أم اعترافي بأن مشاعري مهدرة ؟

أتعلمين السبب في قول ذلك ؟ السبب هو ضيقي من نفسي ؛ فقد كنت أتمنى أن تكوني أنتِ أنثاي الأولى وامرأتي الأولى . وكم تمنيت ألا أعرف الحب قبل معرفتكِ . ولكن هذا ما حدث أنني أهدرت مشاعري مع شخصٍ لا يستحقها .

سأكذب عليكِ إن جئت لأخبركِ أنني أحبكِ حب رجلٍ لامرأة ، ولكن الشئ الذي سأصدقكِ فيه أنكِ الشخص الأقرب إلى روحي وليست المرة الأولى التي أقول فيها ذلك .

أنا لا أريد أن أضغط عليكِ أو يكون الأمر بيننا مجرد مجاملات لا طائل منها . لقد اتحدت أحلامنا واتحدت أهدافنا ، وبالنسبة إلي لن تناسبني امرأة سواكِ ، ولكِ مطلق الحرية في الاختيار ..

مالكُ بنان .. زوجكِ رغماً عنكِ

****

قرأت رسالته ، وردت مباشرة

" سأتغاضى عن كل ما قلت وأرتضيكَ زوجاً إن فعلت شيئاً واحداً "

" ما هو ؟ "

" أن تتزوج ليندا "

لم يأتيها الرد سريعاً كالذي قبله ، فضاقت الغرفة حولها وشعرت باختناق ؛ أيفكر في الأمر ؟ لقد قالت ذلك ، لأنها شعرت أنه لو تزوج ليندا حينها فقط ستكون مشاعره واضحة ، سيعرف حينها أنه موهوم في حبه ..

بعد فترة من الوقت انتظرت رده فيها ، شعرت بيأس ولم تستطع تخمين رد فعله ، فسمعت طرقات على باب غرفتها لم تعتد سماعها هنا ، وقفزت صورته في ذهنها فجأة ، أيكون هو ؟ لا ليس بهذا التهور والطيش ! كيف يأتي إلى هنا ويصعد لغرفتها دون أي وازعٍ في نفسه .

اقتربت من الباب وفتحته بسرعة لتنفي أفكارها، ولكنه صعقت وهي تراه واقفاً مولياً لها ظهره، وقبل أن تستوعب أو تنطق قال :

- أنتظركِ في الحديقة ، لا تتأخري !

بدا صوته مكتوماً من الغضب فارتعدت فرائصها ، وهي ترتدي شيئاً وتنزل خلفه ، وجدت المنزل خالياً ، من المؤكد أنهما ناما ، فالوقت متأخراً .

خرجت وجدته يصارع غضبه ، فعاجلته بصوت معترض قبل أن ينطق :

- ألا تمتلك هاتفاً ، كان من الممكن أن ترسل لي برسالة تخبرني فيها بأنكَ هنا ، ثم لماذا تريد رؤيتي في هذا الوقت ؟ وكيف تتجرأ وتصعد إلي هكذا ؟ كيف أأتمن على نفسي هنا ؟

خرج غضبه هادراً وهو يريها هاتفه قائلاً :

- جئت أتأكد أنكِ من أرسلتِ هذه ؟

أومأت بثقة قائلة :

- نعم أنا من أرسل هذه ، ما الخطأ فيها ؟

- الخطأ أنني خائناً نذلاً في نظركِ ، الخطأ أنكِ تثبتين أن ليندا ستبقى نقطة سوداء في حياتي !

لم تهتم لغضبه قائلة :

- مالك فكر بمشاعرك جيداً ، رغم أنكَ تراها خائنة مخادعة إلا أنك مازلت تحبها بل تعشقها ، لا تنكر ذلك .

لم يستطع التحكم في غضبه قائلاً :

- ولماذا طلبت الزواج منكِ إذاً ؟

بثبات قالت :

- لأنكَ تريد أن تنساها ، لا تقنعني أنكَ انتقلت من حب ليندا إلى حب جهاد ثم تقدمت للزواج بي بهذه السرعة ، وكأن قلبكَ محطة انتظار!

- وأنا لم أحبكِ !

قالها من فرط غضبه ولم يندم ، ثم أكمل :

- ولم أحب جهاد ، ولكن لماذا أستخدكما لنسيان امرأة مثلها ؟ لماذا في كل مرة تتحدثين إلي فيها تثبتين أن فيَّ من الخسة ما يغرق العالم أجمع . أنا لم أخدعكِ وطلبت منكِ الزواج معترفاً لكِ بكل شئ وتركتُ لكِ حرية الرأي . لم أجبركِ ، ولم أرسم لكِ حياة وردية معي ، وعدتكِ أن يوماً ما سآتي إليكِ وأُمَلِّكَكِ قلبي كله . لماذا تفعلين بي ذلك ؟

أنا أكره ليندا ، أكرهها بطريقة لا تتخيلينها ، مجرد أن تعرضي علي الزواج بها يعني أنكِ لا تثقي بي ، وللأسف لم تفهمي ما أشعر به. يعني مشاعرنا متبادلة ، لا أعرف إن كان هذا أمر جيد لإتمام الزواج أم لا ! ولكن شعرت ببعض راحة إذ خشيت أن تقعين في حب رجلٍ مثلي لا يضمن قلبه ، وكان سيؤذي قلبكِ إن كان يحبني كثيراً . الحمد لله أن هذا لن يحدث .

ثم انصرف غاضباً وقد ضاقت الأرض حوله بما رحبت ، وتركها شاعرة بخواء من بعده ..

****

استمر انتظاره طويلاً حتى جن الليل عليه ، وبدأ يشعر ببرودة النسمات الليلية القادمة بسهولة في هذا المتسع. ينتظر خبراً عنها أو أي شخصٍ يطمأنه عليها. أثناء انتظاره هاتف براون، وتحدث معه في حلٍ لمشكلته الواقع فيها ، كيف يعود للعمل ؟ بدا أن الأمر صعباً خاصة وأنه تم تهديده لمرة واثنتين وهو لم يهتم حتى تم استبعاده نهائياً، بل ويفكرون باستعاضته بآخر. ولولا ديانا لما اهتم بذلك ، فقد كان يخطط لشئ آخر بمساعدتها حين تشفى !

أثناء جلوسه وحيداً جاءه العجوز مرة أخرى ، وجلس قبالته قائلاً :

- لماذا تجلس وحيداً ؟

- لم أجد من يجلس معي .

- هي أيضاً كانت تجلس هنا وحيدة .

ثم مد يده له بكوب قائلاً :

- تفضل !

تناوله آدم منه قائلاً :

- ما هذا ؟

- كما ترى بيرة .

وضعها آدم أمامه قائلاً :

- لا أشربها .

أومأ العجوز برأسه وهو يتناول كأسه لمرة واحدة ثم قال:

- آه تذكرت أنت مسلم !

تفاجأ آدم بخاطرٍ مرعب ، ثم نظر له قائلاً :

- هل .. هل كنت .. هل كنت تعطي ديانا من ذلك ؟

- لم تقبل !

هتف :

- ماذا ؟

ابتسم العجوز قائلاً :

- إنها مسلمة لا تشرب الخمر ، ولم تقبل به ، مثلك أيضاً ..

ثم اقترب منه هامساً :

- لا أحد هنا يعرف أنني أشربه ، إذ يقيم هنا بعض مدمني الكحوليات ووجود هذا الشئ هنا قد يفسد علاجهم ويتسبب في طردي .

قال آدم منتقماً :

- ألا تخاف أن أبلغ عنك ؟

رد العجوز ببساطة :

- وما الغريب في ذلك ؟ فأنت مسلم !

ثم أكمل :

- أعتقد أنها ستستيقظ الآن ! اذهب إليها ، أو ائْتِ بها هنا في هذا النسيم العليل ! سيعجبها تنظيم الأشجار الذي حرصت عليه في غيابها !

نظر آدم أمامه لما هو خلف ظهر العجوز وقال :

- اخفِ هذا الشئ سريعاً وإلا طردوك من هنا ، امرأة قادمة !

- حقاً !.. قالها بصوت مهتز وعينٍ رامشة ثم أخفى الزجاجة والكؤوس أسفل الطاولة ، في حين قدمت المرأة المقصودة ووجهت حديثها لآدم قائلة :

- زوجتك استيقظت منذ نصف ساعة ، ود.إيلين تسمح لكَ بالذهاب إليها وإن شئت أخرجتها للحديقة ، وتخبركَ أنها المرة الأخيرة التي ستسمح فيها بذلك ..

وقف آدم بينما قالت هي للعجوز :

- مارك ! أمازلت مستيقظا ؟ سأجلس معكَ قليلاً .

نظر لها بخوف متردد وحول نظراته لآدم الذي فهم خوفه ، فقال لها :

- من فضلكِ ! أريد أن ترشديني لمكان الحمام !

- ماذا ؟

- أرجوكِ !

سارت أمامه ، فانحنى آدم لأذن مارك هامساً :

- إنها المرة الأخيرة التي سأفعل فيها ذلك ، وإن عرفت أنكَ أدخلت هذا الشئ هنا لمرة أخرى سأبلغ عنكَ بنفسي !

ثم سار خلفها ، فغمغم مارك :

- أكره المسلمين !

فهتف آدم :

- وهو يحبونك !

دلته على ما أراد وانصرفت ، بينما اتجه هو لغرفة زوجته ، بمجرد دخوله هتف بمرح :

- وضع الجنين مرة أخرى !

نظرت له وشعرت بخذلانها له وخيبتها ، فاتجهت بناظريها للأرض مرة أخرى ، فاقترب منها هامساً :

- ألم تفرحي لرؤية قدمي سليمة ، أم أنكِ تفضلين الرجل الأعرج.

نظرت له بلا عصا، فانتبهت لشفاءه ثم حادت بنظرها عنه. جلس جوارها وقال ممسداً رأسها :

- كيف حال أميرتي الآن ؟

- تجلب لكَ المصائب !

- من قال ذلك ؟ ألم يخبركِ أحدهم أنكِ فرحة حياتي ؟

قالت بسكون :

- لم أكن فرحة في حياة أحد ، لم أكن سوى جلابة للمصائب .

أحاط كفها بكفيه وقال حانياً :

- هل أخبركِ بشئ يسركِ ؟

بدا أنها لم تنتبه فقال :

- ستسمعين صوتي في الإذاعة غداً .

رفعت نظرها إليه فابتسم مكملاً حديثه :

- وسأبلغكِ رسالة أمام كل العالم !

- أي رسالة !

- ستسمعينها غداً .

لم يكن واثقاً مما يقول، خاصة وأن براون أخبره بأن ينتظر لبعض الوقت حتى يستطيع العودة، ولكنه لما رآها، لم يفكر سوى في حلٍ سريع لإسعادها. من المؤكد أن هناك حل، حتى وإن لم يجد، ستسمعه ستسمعه !

مد كفه إليها قائلاً :

- ما رأيكِ أن نجلس في الخارج قليلاً ؟

تباطأت في القيام ، ولكنها أرادت أن تستمتع بقربه فقامت . بحث عن ملابسها وأخرج لها وشاحاً وضعه على رأسها . سارت جواره ممسكاً بذراعها ، وفي الطريق قال :

- أغيب عنكِ لفترة ، أعود لأجدكِ تتسكعين مع هذا العجوز ؟

نظرت له لثوانٍ ثم ابتسمت وكأنها تذكرته ، فقال حانقاً :

- وتبتسمين بسببه أيضاً ؟

لم تجيبه وهما يتجهان للخارج حتى جلسا على الطاولة ذاتها ، فقال هادئاً :

- ديانا !

نظرت إليه فقال :

- أتعلمين أنني أصبحتُ مواظباً على الصلاة ؟ وفي كل سجودٍ أدعو لكِ لأنكِ السبب في ذلك .

هربت الكلمات منها وتشتت حالها حتى وجدتها فقالت :

- بل اشكرِ الله لأنه هداكَ لذلك ، أنا لا أستحق لأن أكون سبباً في شئ ، أنا مجرد منافقة ، لا تنسَ ذلك !

إنها تثير جنونه ولولا حالتها لانتفض غاضباً ، ولكنه تماسكَ قائلا :

- لا منافق يعترف بنفاقه ، ديانا سأطلب منكِ شيئاً ، ستتوقف عليه حياتي !

- ما هو ؟

قالتها بسرعة فابتسمت عيناه ، ورق قلبه قائلاً :

- أن تخرجي من هنا بسرعة ، أرجوكِ حاولي أن تستجيبي للطبيبة ، هي تريد نفعكِ ! وأعدكِ أنني لن أوقف حياتي مرة أخرى ، بل سأستمر في العمل وانتظاركِ حتى تعودين إلي مشرقة .

- وهل هذا سيجعلكَ سعيداً ؟

- بشدة ، سأكون أسعد أهل الأرض .

طأطأت رأسها وقالت بتردد :

- ولكن .. ولكن .. كيف ستقبل بزوجة مثلي أن تكمل حياتكَ معها ؟ كيف ستقبل بــ....

قاطعها بانفعال أخافها قائلاً :

- أنا لن أقبل بزوجةٍ أقل منكِ ، أنا تزوجت ديانا الواثقة القوية ، ليست الضعيفة التي تجلس أمامي الآن ، ولن أتنازل عن عودة القوية ، لن أتنازل أبداً ! وأنتِ تعرفين جيداً أنني لا أتنازل عن شئ أريده ، وخاصة إن كنت أحبه .

التمعت عيناها وخفق قلبها ثم قالت :

- آدم .. أنا .. رغم أنني مازلت لا أتحكم في نفسي ، وأعلم أن طريق العلاج طويلة ، وأخشى أن تمل من انتظاري ..

قاطعها ثانيةً :

- لقد انتظرتني سنة كاملة وأنا لا أصلي ، رغم أن هذا سبب رفضكِ للزواج ، فلماذا تستكثرين عليَّ ما قمتِ أنتِ به .. ديانا أنا أحبكِ ولن أتنازل عنكِ أبداً !

- أنا أيضاً أحبك، وكل ما فعلته كان بهذا الدافع، ليس لأنك الرجل الذي سيمنحني حق الأمومة.

توقفت مسامعه عند الكلمة التي قالتها لتوها ومست شغاف قلبه، وبرقت عيناه وهو يقول :

- ماذا قلتِ الآن؟

قالت بتردد أكبر :

- قلت أنني أحبكَ، ولم أحب سواك أحداً! كنت أظن أنكَ تعرف ذلك.

هم بالرد لولا صوت يعرفه اقترب قائلاً :

- وهل تشرق الشمس في المساء ؟!

نظر للسماء ثم أغمض عينيه بشدة وهو يتحول لينظر للعجوز قائلاً :

- بل ستحرق شمس الصباح رأسك الأصلع؟

- آدم ! قالتها ديانا هامسة .

بينما اقترب العجوز وجلس على مقعدٍ بينهما مبتسماً ثم قال :

- كيف حالكِ الآن ؟

- الحمد لله ، بخير !

- هذا المغرور قلق عليكِ بشدة ، إنه ينتظركِ منذ الصباح .

ابتسمت ديانا وهي تنظر لآدم ، فالتفت له العجوز غامزاً :

- أرأيت لا تبتسم لسواك !

قال آدم حانقاً :

- وهل تريدها أن تبتسم لك مثلاً .

اتسعت ابتسامة ديانا له ، ثم قالت :

- لا تغضب هكذا ، إنه يحب أن يثير غضب من حوله فقط .

نظر لها العجوز قائلاً :

- أهكذا تخبريه بسري ؟

- إنه زوجي ، لا أحب أن أراه غاضباً بهذا الشكل ، لأنك تمازحه فقط !

وقف آدم منتشياً واقترب منها فقالت بريبة :

- ماذا تفعل ؟

أمسك ذراعها بيده يوقفها ثم قال :

- اشتقتُ لعناقكِ فقط !

ولم يعطها فرصة الاعتراض وهو يسمع صيحتها ، وقد كانت قريبة من قلبه .

****

مالك الأحمق /

ولن أقول سوى ذلك ، لقد أرسلت إلي ديانا وقالت أن سفرها قد يطول لستة أشهر .

افهم ما تريد !!

زوجتكَ البائسة بنان .. رغماً عنكَ .. وستندم على كل شئ ! أعدكَ !

ابتسم وهو يقرأ رسالتها ، ورويداً رويداً اتسعت ابتسامته حتى تحولت إلى ضحكة عالية ، فقد انقطعت علاقتهما تماماً منذ ذلك الشجار الذي نشب في بيته . وتجنب الذهاب إلى أمه أياماً وراح يؤنب نفسه على اقتحامه للمنزل وصعوده لغرفتها بكل سهولة . وشعر أنها السبب فتحول ضيقه إليها .

لكنه الآن سعيداً بدرجة لم يكن يتصورها، فأرسل لها سريعاً

" لم تصبحي زوجتي بعد ، قد تصبحين غداً أو بعد غد ، من يعلم ؟! أعدك ببؤس دائم عزيزتي - ولم تصبحي بعد - ، وبالنسبة للندم فأنا أتوق إليه بشدة

زوجكِ البارد مالك .. وسأنتظر ترويضكِ لي .. وأعدكِ أنني سأحاسبكِ على طيشكِ "

قرأت رسالته وقفزت على فراشها بسعادة ، فهي الآن موافقة بإرادتها دون ضغطٍ من أحد . وافقت وهي تعلم مشاعر مالك جيداً ، ليست متشككة فيها ولا مترددة . هي الآن واثقة في نفسها ولم تتنازلْ ، حافظت على كيانها كما أرادت .

نامت ناظرة للسقف بابتسامة تشرق وجهها وهي تتمتم :

- وغداً ستعلم يا مالك أي مصيبة أوقعتَ نفسك فيها ؟

فاجأتها رسالة أخرى منه " سأحضر الآن لأخبر أمي وأبي بموعد العقد ، بالطبع ستكونين في انتظاري متلهفة لرؤيتي "

ضحكت متمتمة :

- فاشل في التصنع !

أرسل رسالة أخرى " لقد وصلت ، لماذا لا تكونين هنا ؟ ألست خطيبكِ ومن حقي رؤيتكِ حتى إذا ما وجدت مايعيبكِ أتراجع "

كانت ارتدت ملابسها بالفعل ، فنزلت إليهم ، ولما رآها ابتسم فحولت نظرها عنه وهي تقترب جالسة جوار عمر ، حيث يجلس مالك جوار سارة وقالت منتقمة :

- لقد فكرت في الأمر بجدية ، ورأيت أنه من الضروري أن أجلس مع من يريد الزواج بي حتى أسأله عدة أشياء ، فقد لا يتوافق معي وأرفضه .

جعدت سارة جبينها بينما نظر عمر إليها وهمس :

- بنان ، لقد كدتِ تبكين وهو لا يأتي إلى هنا ، أنا لا أضمن لسان سارة ، ومن الممكن أن تفشي بسرك إلى ابنها حبيب قلبها .

لم تبالي وهي تنظر إلى مالك متحدية ثم قالت :

- أريده أن يكون حافظاً للقرآن كاملاً ، وحج البيت سبع مرات .

كتم عمر ضحكته ، وشدت سارة على يد مالك الذي وقف قائلاً :

- أبي ، أمامك خيارن إما أن تحضر مأذوناً في الحال ، أو نذهب للسفارة ، أو للمحامي !

وقفت بنان قائلة بنفس عنادها :

- إنهم ثلاثة حلول وليس اثنان !

- بنان لا تستفزيني أكثر من ذلك !

- وماذا ستفعل ؟

- سأتزوجكِ الآن !

- لا تستطيع !

- بل أستطيع !

وقف عمر قائلاً بحزم :

- ألا يوجد أي احترام لوجودنا ، الحل الأمثل لتأديبكما هو الزواج .

وقفت سارة بنفس حزمه قائلة :

- ولو كان الآن لكان أفضل .

نظرت إليهما بنان وقالت بابتسامة متوترة :

- ماذا ؟ هكذا سيفوز هو بتلك الجولة ؟ هل هنت عليكما ؟

كان مالك منتشياً بينما مال أبوه على أذنها هامساً :

- أنتِ الفائزة بتلكَ الجولة أيتها الغبية ، حتى أنكِ تستطيعين الانتقام منه في عدم وجودنا ، وإكمال انتقامكِ الذي لا أعرفه .

ورغم أنها لم تقتنع إلا أنها ابتسمت فقط لإغاظة مالك والذي هتف بدوره :

- والله لأتزوجها الليلة !

فقالت ببرود :

- لم أكن أعرف أنك متلهف لتلك الدرجة ، إن وافق العم عمر فأنا موافقة .

زاد غضبه إذ لم يستطع إغضابها ، ومال عمر على أذنها للمرة الثالثة هامساً :

- أيتها الخبيثة !

ابتسمت رغم أن ما داخلها يشتعل خجلاً وخوفاً ، ولكن سعادتها سادت الموقف ..

وتم الزواج ...

٢٩

عودة الروح

فتحت رحيق الباب لترى مالك أمامها عانقته بسعادة، ثم ضربته في صدره وهي تدخله لمنزلها عنوة ثم قالت :- أهلا بكَ أيها الخائن ، تتزوج من غير خبر!

ضحكَ مالك قائلاً :- هداكِ الله ، ليس زواجاً !! ساعديني لإقناعها بالزواج ..

ضحكت رحيق وهي تشير له بالجلوس قائلة :

- يكفي العقد بينكما الآن، اصبر قليلاً وتخلى عن تسرعك هذا! هيا أخبرني بما لديك لأنك أقلقتني كثيراً .

تحدث مالك بجدية مباشرة، ليخبرها بالأمر الذي أثقله حتى قرر أخيراً أن يخبرها:

- ياسين !!

قالها فتقلصت أحشاءها، زوجها يخفي عنها هماً منذ وقتٍ ليس بقليل، كلما سألته قال أنه بخيرٍ كاذباً، سمعت لمالك الذي قال :

- هو الآن يدير الشركة معي بعد تقاعد أبيكِ، وبالتالي فمن المفترض أن يزيد راتبه، وتعلمين أن أباكِ يعطي نسبة من الأرباح السنوية لكل موظف، أما عن زوجكِ فرفض نسبة الأرباح، ورفض زيادة راتبه، أنا لا أفهمه، خاله مر بضائقة مالية فأقرضه بعضاً من أمواله، وزادت نفقاتكم بمدرسة سيف وعلاجه والرياضات التي تهتمين بها له، أخبرته أن يقبل بزيادة راتبه ونسبته ولكنه رفض بشدة، هي حقه وليست تمييزاً له، لا أعرف لماذا يأخذ الأمر على محمل الكرامة؟ يبدو أنه لم يتخطَّ اتهام أبيكِ له بالسرقة في الماضي؟ أبي اعتذر له مرة أخرى وطلب منه أن يقبل الزيادة ولكنه رفض. على العموم وضعنا تلك النفقات في حسابٍ خاص، حالما يوافق تكون له، حاولي إقناعه بالأمر.

هاهي مأساتها معه تتكرر، ماذا تفعل له؟ كيف تتحدث إليه في هذا الأمر؟ غادرها مالك سريعاً وبقيت هي في انتظار زوجها ضائعة، عندما يعود هل تتحدث إليه بسرعة، أم تؤجل الأمر لوقتٍ آخر. بعد أن ساعد ابنة خاله في التخلي عن عاداتها السيئة، وارتبطت بنات خاله به وبوجوده معهن، حاولت أن توطد العلاقات بينهم وحافظت على تكوين علاقة طيبة مع زوجة خاله وبناته.

عندما تعرض خاله لأزمة مالية عرضت عليه أموالها حتى يساعده، ولكنه رفض الأمر، أسرت حزناً في نفسها ولم تعقب، لا تعرف إلى متى سيُبقي هذا الحاجز قائماً بينهما؟

انتظرت عودته، وتركت اليوم يمر بهدوء، حتى إذا ما حل الليل وشعرت بأنه أهلاً للحديث، جلست قريباً منه وراقبت ابنتهما التي يلاطفها ثم قالت :

- ياسين ، ألا تود إخباري بشئ؟

ابتسم وهو ينظر لها قائلاً :

- أحبكِ!

لم تبتسم وقالت :

- أنتَ تعرف ماذا أقصد؟

انشغل بابنته قائلاً :

- لا أفهم !

- لماذا تحافظ على تلك المسافة بيننا؟ هل تريد تكرار الأمر؟ أم أنني لا أهمك منذ البداية؟ .. قالتها منفعلة فالتفت لها قائلاً :

- رحيق لا داعي لذلك، الأمر بسيط، مشاكل في العمل لا داعي لشغلكِ بها!

- ولكنكَ لا تخفي شيئاً عني !

أخبرها بما يمر به وعرفه لها مالك، ولكنها استمعت له حتى النهاية، لم تقاطعه ولم تظهر النصح له، فهذا شئ يزعجه، ولما انتهى قالت :

- لماذا تفعل ذلك ؟

- لأنني لم أعود لأعمل مع والدكِ مرة أخرى، لم أبتعد لخمس سنواتِ حتى أعود إليه، أنا لا أقصد بالطبع اتهامه لي وخروجي من الشركة بفضيحة لأنني قد نسيت هذا الأمر، أنا أقصد أنني أمتلك طموحاً وهدفاً أريد تحقيقه، هل سأبقى في شركة أبيكِ لنهاية عمري.

تنهدت قائلة :

- أخبرتكَ من قبل أنني سأبقى معكَ في أي قرار ستتخذه ، وما قلته الآن ليس مبرراً لرفضكَ لراتبكَ ونسبتك التي تتساوى فيها مع غيركَ ليس تمييزاً لكَ.

عقد حاجبيه قائلاً :

- لا أعرف، لم أشأ أن يتم الأمر بهذه الصورة، قد يكون لأنني نويت أن أساعد مالك في الإدارة فقط ، وبالتالي لن أقبل مقابلاً لمساعدتي، وقد يكون لأنني شعرت أن أباكِ سيعود، وهذا أيضاً لا يبرر أن أتقاضى راتباً على مساعدة ..

ابتسمت قائلة :

- أنتَ لا فائدة من الحديث معك.. ثم وقفت مقررة انتهاء الحوار فأمسك ذراعها يوقفها قائلاً :

- اجلسي فقط، ما الذي أزعجكِ الآن؟

نظرت له قائلة:

- كل حديثي لن تقبله، فلماذا أتحدث؟

جذبها لتجلس قائلاً :

- وأنا أريد سماعكِ !

تحدثت إليه قائلة :

- لو أخبرتكَ بأن تأخذ كل ما أملك وتبدأ به ، هل ستقبل؟ بالطبع لا !! رغم أن بيننا عهد بأن هذا البيت سيبنى بكلينا معاً، وأن لا فرق بيننا، وأننا شخصٌ واحد بنفْسٍ واحدة، بدا لي الآن أن كلها شعارات نرفعها، فأنتَ لن تقبل سوى أن تكون سيد المملكة المسئول الأول والأخير عنها، لن تقبل بأن أشاركَ الحكم أو السيادة.

وتركته، لم يمنعها هذه المرة لأنها محقة، ولكن أن يعلم أنها تخاف من تكرار ما حدث، تخاف من أن يخذلها لمرة ثانية، لهو الجحيم بعينه! ويبدو أنه سيفعل!!

لم يتحدثا في الأمر طوال الأسبوع حيث انشغلت رحيق في التحضير لحفل خطبة مالك وبنان..

في اليوم التالي للحفل اصطحبها لمكانٍ يعرفه، وأخبرها أنه كان يقرر تأسيس شركته هنا، ولكنه لا يملك ما يساعده على ذلك الآن، لم تكرر عرضها إذ بدا أنه غير مناسب الآن أن تفعل.
خرجت معه وامتطيا سيارتها التي اتخذها اليوم دون عناءٍ منها كالعادة. بقيت واجمة طوال الطريق، حتى وصلا لمقر عملها فقالت بسكون :

- لا عمل لدي اليوم!

حرك السيارة في اتجاه منزلهما وحين وصلا قال :

- رحيق! انظري إلي!

نظرت إليه قائلة :

- ياسين أنتَ لا تحبني، ولا ترى فيَّ شريكة لكَ، لا تقبل بأن أشاركَ حلمكَ، كما لم تقبل من قبل أن أشاركَ حياتكَ، نحن زوجانِ على ورق، لا يوجد امتزاج الروح الذي تدعو إليه، لأنكَ بالفعل لا تسعى إليه!

- رحيق، الأمرليس بهذه الصورة!

- ليس بهذه الصورة، لا تقبل مني أن أقرضكَ حتى ، وتقول ليس بهذه الصورة؟ لماذا تعقد كل شئ وتضخمه؟ هل الأمر يستدعي منكَ كل ذلك؟ ياسين لا تكذب، أنتَ لم تستطع أن تنسى أي شئ!! وإن أردت تكرار فعلكَ لتنهي هذا الهزل فلتفعل!!

نظر لها معاتباً، ومنعه من الرد صوت هاتفه، نظر إلى شاشته وجده محمد، فقرر أن يكتم الصوت ويحدثه فيمَ بعد ، ولكنها منعته قائلة بصوتٍ قلق :

- أجِبْ عليه!!

تنهد وهو يرد على الهاتف، فتقلصت ملامحه سريعاً وهو يقول بصوتٍ مضطرب:

- سنكون أمامكما في الحال إن شاء الله !

وأسرع متجهاً لمسكن محمد وميرا بينما تلح رحيق عليه بأن يخبرها بما جرى !!

****

راحت ميرا تلملم بعض الورقات المالية أمامها وهي تعيد حسابهم في كل مرة علهم يزيدوا، تنظر لزوجها النائم أمامها بحنق واضح، وهي تفكر بصوت مسموع :- لن نستطيع هذه المرة أيضاً ..

ثم وقفت لتقترب منه، تأكدت أنه نائم، فتمتمت وهي تبتعد :

- هل أقتله وأذهب أنا؟!

بدا لها أن فكرتها سخيفة فنهرت نفسها قائلة :

- لا، إن مات لا أستطيع الذهاب وحيدة ..

ثم تنهدت وهي تغادر غرفتهما قائلة :- لم يكتبها الله لنا بعد!!

بمجرد خروجها فتح محمد عينيه بصدمة، لا يعرف أمن المفترض أن يضحك أم أن يخاف؟ تفكر في قتله حتى تستطيع الذهاب وحدها؛ لقد جنت زوجته لا محالة.

لفترة طويلة يدخران بعض المال الذي يؤهلهما للذهاب لعمرة أو حج، ولكن ينتهي بهما الحال في كل مرة بأن أموالهما لا تكفي، إذ تفاجئهما ضائقات مالية تهدر أموالهما. وبعد فوات موسم الحج طمأنها بأن باستطاعتهما الذهاب لعمرة حين يعود الحجاج ، ولكن كالعادة اضطرا لإنفاق بعض ما ادخرا في مواقف متتالية؛ فلم تعد أموالهما كافية .

فضل أن يكمل تظاهره بالنوم، فهو إن خرج إليها قد يضحك فيثير ضيقها لأن الأمر يزعجها بالفعل، وقد يتجاهل الأمر فيسبب حزنها لأنه لا يهتم، النوم أفضل الآن.

سمع رنين هاتفها فشعر بالراحة، قد يشغلها أمر من بالهاتف ويخفف حزنها، هو بالفعل يتوق لهذه الرحلة ، وفعل كل ما استطاع لتدبيرها، ولكن إما أن يمنعهم الوقت غير المناسب أو نقص ما يملكانه، لم يكتبها الله لهما بعد!!

سمع صرختها فهب واقفاً، وركض نحوها، وجدها كتمثال أصم لا يتحرك، نظر للهاتف الملقي أمامها فتلقاه وهو يرى من يهاتفها، كان أخاها فازداد قلقه وهو يجيبه، بكلمات مقتضبة أخبره بوفاة أبيه، ثم بلهفة سأله أن يهتم بميرا، وأنهى الاتصال.

مازالت ساكنة؛ فجلس جوارها وضم جسدها الجليدي إليه، لا تعرف هل ما سمعت صحيح أم تصورات من عقلها؟

- ميرا، حبيبتي ..

قاطعته بصوت أبح :

- هل ما قاله صحيح؟ أبي مات؟

عاجز عن الحديث بالفعل، عاجز عن رؤية صدمتها وانهيارها، ولكنه قال :

- نعم، صحيح، ميرا أنتِ قوية و ..

- أبي مات .. قالتها صارخة وهي تبتعد عنه، ثم راحت تهذي بكلمات بعضها مفهوم وبعضها مبهم، وتساقطت من عينيها عبراتٍ لا تشعر سوى بملوحتها في فمها، وحرقتها في قلبها، كيف مات؟ لماذا قبل أن تراه لمرة أخيرة؟ لماذا تركها ومات؟ فقدته إلى الأبد؟

- ميرا اهدئي أرجوكِ !

لم يعد للحديث مجال وهي تنخرط في بكاءٍ حاد، أجلسها قسراً وجلس جوارها يحتويها، يعلم صعوبة الأمر عليها، لقد حدثها أبوها مساء أمس وأخبرها باشتياقه إليها، وأنه سيأتي ليزورها قريباً، لم يخبرها أنه مريض، ولم يبلغها أحد من عائلتها. هاهي فقدته قبل أن تراه!

بدأت تبعثر أشياءها وهي تهذي استعداداً لسفرها، لم يستطع محمد أن يحجز لسفرهما في وقتٍ قريب، قرر الذهاب للمطار ، ولكن كيف يتركها وحيدة، لم يجد بداً من أن يهاتف ياسين حتى يأتي برحيق إليها !!

****

عندما حل المساء كان قد انتهى كل شئ واستطاع محمد أن يجد مقاعداً لهما على إحدى الطائرات، وسافرا معاً. لقد مر وقت طويل منذ الصباح حتى الآن وهي تحاول تهدئة ميرا والعناية بابنها الذي يبكي مؤازرة لأمه، كلمات ميرا مازالت تمزقها وتترك أثراً في روحها؛ العمر ينتهي دون أن نشعر، مات أبوها ولم تحدثه عن الإسلام بعد، إلى متى كان حديثها سيتأخر؟ وماذا عن أمها وإخوتها؟ كيف حالهم الآن؟ تمنت لو تراه لمرة أخيرة قبل موته؟ أن تتحدث معه وتجالسه. لقد فقدته لسنواتٍ ثلاثة، وحين عفا عنها لم يمكنها العمر من أن تنعم بقربه.

عندما وصلت رحيق لمنزلها مع ياسين بعد أن عرجت على أمها لتأخذ طفليها، اتجهت لغرفتهما واهتمت بهما وبقيت معهما حتى ناما. ذهبت لغرفتها وأخرجت من حقيبتها دفتراً، ذهبت لياسين به قائلة:

- وَقِّعْ هنا!!

- علامَ أوقع؟.. قالها مستنكراً؛ فقالت:

- لا تقلق، إنه وصل أمانة، يجب أن أضمن حقي، سأقرضكَ كل ما عندي ويبقى ديْناً عليكَ! وتذهب غداً لتأخذ مستحقاتك من شركة أبي، وتبدأ مشروعكَ الخاص!

ابتسم وهو يجذب ذراعها يجلسها جواره ثم قال:

- لدي فكرة أخرى**!!**

لم ترد وبقيت على وجومها تشعر بانكسارٍ بسببه، ولكنه أكمل معتذراً :

- ما رأيكِ أن تكوني شريكتي؟ وبدلاً من أن أقترض منكِ وأرده إليكِ، تناصفينني النجاح والأرباح..

نظرت له بشك فقال بجدية :

- أنا لا أمزح، وإن كان هذا ما سيثبت لكِ أنني أحبكِ فلن أتأخر عن فعله..

- وتأخذ حقكَ من الرواتب والأرباح، ولا تخفي عني أمراً يحزنكَ مرة أخرى، في المرة القادمة سأقتلكَ**!**

ابتسم وهو يقبض على ذراعها بشدة مقرباً إياها إليه وقال مهدداً :

- بل أنا من سيفعل أولاً إن كررتِ ما قلتِه اليوم**!!**

ابتسمت وهي تبعد ذراعها، وكلاهما يعلم أن الأمر لم ينتهِ هكذا، فكلاهما تظاهر بأن المشكلة قد حلت. ياسين مازال غير مقتنعٍ بما فعل، وهي كذلك تعلم بعقم تفكيره.

****

منذ آخر مرة زارها آدم وإرادتها تقوى، تحولت مشاعرها ورغباتها لكلمات مكتوبة ، وفَّى بوعده معها وسمعت صوته في اليوم التالي يقدم البرنامج مع براون، سمعت رسالته التي حفظتها عن ظهر قلب، حيث أهداها سعادة مغلفة بشوق. كل يومٍ قبل نومها تتمتم مرددة تلك الرسالة ..

" قد يؤجل الله سعادتك ليومٍ يفاجئك فيه بأكثر مما تريد.. قد يهديكَ بموقف تفهم منه رسالة معينة .. جملة تقرأها في إحدى الصحف أو المجلات .. قد تقرأ في كتاب مقولة لكاتب .. وقد تكون السعادة شخص في حياتك .. روح تسكن إليها .. قد تكون السعادة ديانا .. ديانا .. أنا أحبكِ "

تغمض عينيها كل ليلة ممنية نفسها برؤيته في أحلامها، فهو لن يزورها قبل شهر . تعد الأيام والليالي التي تمر، تكتب كل ما تريد قوله له أو لصديقاتها . والآن حانت زيارته وحان لقاءه ..

لم تتأنقْ قبل اليوم لأجل رجل، ولم تهتم بمظهرها من قبل سوى لأجل نفسها، إنها المرة الأولى التي تقف أمام مرآتها وهي تسأل نفسها كيف سيراها؟ هل ستكون جميلة في عينيه؟ أم أن شكلها قد تغير؟ أو أن يكون أثر عليها هزالٌ أصابها..

خرجت تنتظره في الحديقة ، فلن تحتمل الوقت الذي يمر في سيره من الحديقة لغرفتها، مبتسمة مترقبة لقدومه على غير العادة. أتاها مارك وجلس يحدثها لم تنتبه لمعظم حديثه، حتى رأت

طيفه، وقفت وعيناها تلتمع في وجهٍ متورد، وابتسامة سعيدة ترتسم على وجهها وتنتشر رويداً حتى ملأته، وقف مارك ينظر لما تنظر إليه، وهو يلقي تعليقاته المازحة والتي لم تنتبه هي إليها فعيناها معلقتان بهذا الذي يقترب وبعينيه التي لم تحِدْ عنها، لم يعد سوى خطواتٍ لم تحتمل بعدها وهي تقترب منه بسرعة ففتح ذراعيه لها معانقاً، هنا فقط سينتهي الكلم، ويسمو عشق الروح ليعم المكان، هنا ستستمع لدقات قلبه التي تهتف باسمها، وتسكن بين ذراعيه بعد شهرٍ عاشت في جدبٍ بغيابه. لم يشأ أن يبعدها عنه، ولم تستطع أن تتركه بسهولة، ولكنها فعلت مرغمة، فانفصلت عنه هامسة :

- اشتقتُ إليكَ!

نظر لعينيها مجيباً:

- وأنا كدتُ أموت في غيابكِ، كيف حالك؟

- بخير !!

أهداها باقة الزهور التي يحملها وهو يقول مبتسماً :

- لم أهدكِ ورد من قبل!

ابتسمت وهي تتناولها، ثم التقط يدها واقتربا من الطاولة ليجلسا، وجدت مارك مازال في مكانه فضحكت. نظر له آدم ومد يده له قائلاً :- مارك!! كيف حالك؟

ابتسم مارك وهو يلتقط يده حانقاً ثم قال على مضض :- بخير!!

نظر آدم لباقة الورد التي تحملها ديانا والتقط منها واحدة وهو يقول :- أستأذنكِ!

أومأت موافقة ، فأعطاها لمارك قائلاً :- هذه لكَ، من مسلم تكرهه!!

ابتسم مارك وهو يأخذها منه قائلاً :- تريدُ أن تبعدني عن هنا؟!!

ضحك آدم قائلا:- والله ماقصدتُ ذلك! ولكن لا بأس إن فعلت!!

تركهما مارك بعد أن ألقى تعليقاته التي اعتادتها ديانا، وجلست مع آدم ليطول حديثهما ، أخبرها عن كل شئ حدث، خطبة بنان ومالك، أمور عمله، ما أخبر به والديه وصديقاتها أنها في رحلة خاصة بالعمل، وتدريب سيفيدها في الإعداد، أخبرها عن قلق رحيق وسؤالها المستمر عنها.

قصت له حكايتها هنا وكيف مرت أيامها، وراقب ملامحها التي تبتسم تارة وتعبس تارة أخرى، ها قد مرت ثلاثة أشهر منذ قدمت إلى هنا، تبقى ثلاثة أخرى سيهونها الله وتمر كما مرت السابقة. لم يعرف أيخبرها عن ميرا أم يؤجل ذلك؟ تردد كثيراً حتى حسم أمره وقال :

- ميرا.. مات والدها!!

خرجت منها صيحة صدمة وهي تتمتم :

- يا إلهي!! كيف حالها الآن؟

تناول كفها بين كفيه قائلاً :

- سافرت لألمانيا مع زوجها ..

- أريد أن أتحدث إليها، ألا تعرف كيف أتوصل إليها؟

كان مهيأ لطلبها، لذلك طلب من رحيق رقم ميرا ، ناولها هاتفه قائلاً :

- تستطيعين الحديث إليها الآن!!

- حقا؟؟.. سألت بدهشة ، فأومأ باسماً، تحدثت إلى ميرا، وحاولت أن تخفف عنها، ولم تطل مكالمتهما، وقبل أن تناوله هاتفه قال :

- تحدثي إلى رحيق أيضاً، علها تخف من توترها وقلقها ..

ابتسمت وهي تبحث عن رقم رحيق، هاتفتها فسمعت صوتها الملهوف، طمأنتها وبث فيها صوتها الهادئ راحة تقبلتها رحيق فلم تكثر السؤال ولم تتطفل، يكفيها صوتها المطمئن.

ناولته هاتفه فابتسم قائلاً :

- لا بأس إن تحدثتِ إلى بنان، علها تريح رأسي قليلاً..

ثم تذكر شيئاً، فأخرجه من جيبه قائلاً:

- كل هذه الخطابات لكِ منها ..

تناولتهم منه، وهاتفت بنان، لم تفتأ أن علت ضحكاتها طوال المكالمة، ولم تعرف كيف تنهيها، بدايةً من صيحة بنان المتفاجئة، ثم ثرثرتها التي قررت أن تقول فيها ما حدث لثلاثة أشهر، لولا إشارة آدم لها بأن تنهي الحديث لما انتهت، أعطته هاتفه شاكرة فقال :

- سأعرف كيف أؤدب تلك القصيرة عندما أعود ، هل جئتُ لأجلسَ معكِ أم لتتحدثي إليها؟

زادت ضحكاتها وهي ترى غيظه، ثم طلبت منه أن يشتري هدية لبنان تهنئة منها على الخطبة، فأخبرها أنه فعل، أعطته الأوراق التي كتبتها له قائلة :

- اقرأها عندما تغادر، ليس الآن!! كل ليلة تقرأ واحداً، وليس جميعهم !!

ابتسم قائلاً :- أمركِ ..

ثم أكملا حديثهما حتى رحل!!

وما سيهون عليها سوى أنه سيأتيها كل أسبوع مرة أو مرتين، ستصبر إذاً!!!

****

كان جالساً في مكتبه يتذكر حديث رحيق إليه ، ويتساءل أمحقة هي؟ هل بالفعل هول الأمر بلا داعٍ، لا يعرف!! كل مرة يرن حديثها في أذنيه **" نحن كيان واحد، وإن أخفق أحدنا على الآخر أن يسانده حتى ينهض.. أما إن بدأت في بناء ذلك الحاجز فلن تنتهي قبل أن تنهي علاقتنا.. أنا باقية على عهدنا.. ولكن يبدو أنكَ تبحث عن فرصة حتى تتخلف "**

هل بالفعل لم يعد يهمه أمرها؟ هل يتمسك بأفكارٍ عقيمة تبعدها عنه؟ لا يعرف ، هو لا يعرف أي شئ. أحياناً تسيطر عليه أفكار حمقاء لأسباب واهية ولا يعرف الطريق لحلها..

أتاه خبرٌ بأن أحدهم يريد رؤيته، أذن له فدخل، وقف ليستقبله ثم مد يده ليلتقط يد الآخر مرحباً، بينما لم تفارق عيناه وجهه، خيل إليه أنه يعرفه، ليس غريباً عليه أبداً، بل هذا الوجه قريبٌ منه جداً. وكأن الغريب لاحظ نظراته فأنهى حيرته قائلاً :

- أنا أحمد عمر .. المهندس أحمد عمر !!

حملق فيه ياسين، نعم عرف الآن إنه يشبه أحمد، فهو لا يعرفه سوى من صورٍ له مع رحيق، مع تغيراتٍ ظاهرة عليه، ولكنه مازال يشبهه، واسمه كاسمه أيضاً فسأل أحمد مرة أخرى :

- ما الأمر؟

لاحظ ياسين أن نظراته ازدادت غرابة بالفعل فتمالك نفسه قائلاً بابتسامة :

- أنا آسف ، ولكنك تشبه شخصاً أعرفه! حتى إنك تحمل نفس اسمه!!

قال أحمد بابتسامة هادئة :- أنا لا أشبهه .. أنا هو !!

- نعم !!.. قالها ياسين ببلاهة فكرر أحمد :

- أنا أحمد عمر عبد الحليم والدي صاحب هذا المكان المهندس عمر عبد الحليم ، أختي رحيق عمر زوجتك ، وأخي مالك عمر ، أنا صهركَ أحمد عمر .. أنا لم أمُت، مازلتُ حياً أرزق!!

عندما حدجه ياسين بنظرة قاسية، لم يكن يعرف أحمد أن ياسين نفسه سيتحول بعد ساعتين فقط لأول الداعمين له ، وأنه سيبقى مسانداً له في كل مواجهاته، وأنه الوحيد الذي لن يلومه أو يتخلى عنه.. عرف حينها أنه أحسن الاختيار، وأحسن القرار بأن يبدأ بياسين الذي لم يلتقيه قبل أن يغيب ...

****

توقفت بنان عن العمل في المقهى بعد شجارٍ عنيف بينها ومالك، دام لثلاثة أيام، في كل مرة يبدأ بجدال ناضج ينتهي بتراشق لكلمات وألفاظ لا يقبلها أحدهما بينما يتمتع الآخر بالتشدق بها. في النهاية امتنع عن المعارضة ، وأظهر عدم اهتمامه، وما كان منها إلا أن تركت العمل وحيدة، حينها عرض عليها عملاً آخر بأن تكون سكرتيرة له في الشركة، قبلت بالأمر فهي بذلك ستحافظ على كيانها بالعمل والإنفاق على نفسها، وفي نفس الوقت ستقل مساحة الخلاف بينهما.

لتتجنب لفظ القصيرة الذي ينعتها به، دأبت على ارتداء حذاء بكعبٍ عالٍ لم تجنِ منه سوى آلام في ظهرها وقدميها، ولكنها استمرت، هو الطويل، هي ليست قصيرة!!

بعد خطبتهما كانت ترافقه دائماً في كل مكان، كانا ظلين متطابقين، حتى شعرت أنه سيسأم منها أو تمل هي منه، فتركت تلك العادة. بدآا عامهما الثاني في الجامعة منذ شهرين، بعد أن حصلت على نسبة أعلى من نسبته، مازالت إلى الآن تغيظه بها، وتسعد بإشعال غضبه. كان كل شئ يسير بينهما بلطف ناسية مخاوفها تجاهه وتجاه مشاعره حتى ذلك اليوم ..

فهي مازالت دءوبة على الكعب العالي، وتظن أنه لم يلحظ ذلك، ولم يعلق، فأصابها ذلك الشئ بحنق تجاهه، ألم يلحظ أنها لم تعد قصيرة؟ كانت تسير معه في الشركة حين انتهى عملهما، وبالطبع انتشرت آلام نهاية اليوم في جسدها، فتباطأت خطواتها، لكنه التفت لها قائلاً:

- أسرعي!!..أومأت فعاد إليها قائلاً بقلق :

- هل أنتِ متعبة؟ هل تشعرين بشئ؟

نفت سؤاله، فالتقط يدها لتسير جواره، ولكن مع أول خطوة منها آلت لأن تنكفئ على وجهها بسبب حذاءِها؛ فتحول قلقه لغضب أحمر وهو يجذب ذراعها لتقف فحاولت أن تتزن وهي تخفض ناظريها متجنبة الغضب الذي انتشر على وجهه، والذي كتمه كله وهو يقول بصوتٍ خرج في هدوءه مرعباً :

- إنها المرة الأخيرة التي ترتدي فيها هذا، أنا إلى الآن لم أعلق عليه، وفضلت أن تتركيه بنفسكِ حين تهلككِ آلام ظهركِ وقدميكِ التي تخفيها، لكن لا فائدة منكِ .. لا فائدة ..

جفلت وتراجعت خائفة، وبقي ممسكاً بيدها وهو يتحرك في الأروقة حتى وصلا لسيارته تركها، التفَّتْ لتركب ولم تتحدث ، وأكملا طريقهما دون كلِم، حتى أوصلها لمنزله ، تركت السيارة ولم يدخل معها ليزور والديه ككل يوم، بل أكمل طريقه لمسكنه.

كانت المرة الأولى التي يعنف معها في الحديث هكذا بعد خطبتهما، حتى في شجاراتهما بشأن العمل كان الأمر لا يتعدى إثارة غيظ وانتصارٍ للنفس، لم تكن بهذه الجدية أبداً.

وبقيت في غرفتها منزوية حتى جاءتها رسالته بعد ساعات..

" لم أقصد أن أغضب هكذا أيتها القصيرة، هذا الشئ لن يطيل قامتكِ، بل سيقصف عمركِ، لا ترتديه مرة أخرى لئلا يؤذيكِ، ثم أنني لا أشعر بالراحة إلا إذا رأيتكِ قصيرة .. الرجل الطويل يتحدث .. "

ابتسمت وهي تضع هاتفها جوارها، ثم التقطته بعد ثوانٍ وكتبت ..

" أيها الرجل الطويل.. لقد أخفتني اليوم .. لا تفعل ذلك مرة أخرى "

ثم تنهدت براحة، لم تعتَدْ أن تخفي عنه مشاعرها حتى ولو خوف، وبالفعل أصابها برعبٍ اليوم..

لم يمر وقتٌ طويل حتى أرسلت سارة في طلبها، نزلت إليها فوجدت مالكاً جالساً معها فابتسمت لرؤيته، تركتهما سارة فاقترب منها وبعثر شعرها قائلاً :

- لماذا خفتِ؟ هل حقاً كنتِ خائفة مني؟

أومأت وشفتاها تنقلبان بتلقائية، فابتسم قائلاً:

- لا تفعلي ذلك مجدداً، لستُ وحشاً مرعباً، أنا مالك!!

ابتسمت وهي تقول :

- أعرف أنكَ مالك للأسف !!

وقف والتقط يدها قائلاً :

- تعالي لنجلس في الحديقة أفضل!!

سارت جواره وهي تقول بسعادة :

- هل اشتريتَ آيس كريم ؟

ضحك موافقاً، فخرجا يستلذان به..

في اليوم التالي مباشرة ذهبت للجامعة بينما ذهب هو للشركة ينهي بعض الأعمال قبل موعد محاضراته، في غمرة استعجاله ذهب لمكتب ياسين قبل أن يرحل، طرق ودخل مباشرة فوجده يجلس مع شخصٍ يوجه ظهره إليه فاعتذر قائلاً :

- أنا آسف! لم يكن أحدٌ في الخارج، فلم أعرف أن شخصاً معكَ!

ابتسم ياسين وهو يقف بتوتر يتحدث إلى مالك الذي سلمه العمل الذي لديه قبل أن يرحل. فلتت منه نظرة فضولية للرجل الذي لم يلتفت إليه إلى الآن، شعره الكستنائي جعله يبتسم، دائماً الشعر الكستنائي يذكره بأحمد، تتعلق عيناه بأي رجلٍ يتميز بشعرٍ كستنائي ووجه مشرب بحمرة، بل إنه أحياناً يذهب للحديث معه أو التعرف عليه، لأنه قريب الشبه بأحمد..

وكأنه شعر به فالتفت، توتر ياسين أكثر وتظاهر بالانشغال بأشياءٍ ليست معه، فكر في الخروج الآن وأن يتركهما وحيدين في هذه اللحظة، ولكنه خشي من رد فعل مالك، سيحتوي أحمد الأمر لا محالة، ولكن خوفه أعجزه عن الحركة وهو يتابع ما يحدث.

تعلقت نظرات مالك بأخيه، يريد أن يغادر المكان ولكن هناك ما يمنعه، هاتفٌ في عقله نادى " لقد مر ٩ سنوات على موته " ومازال واقفاً لا يتحرك ، سؤال يلح في نفسه " من هذا؟ " .. أخرجه أحمد من حيرته وهو ينطق بابتسامة شغوفة متلهفة :

- كيف حالكَ يا مالك؟ أصبحتَ رجلاً ناضجاً ..

" يوماً ما عندما تصبح رجلاً ناضجاً وتتحمل مسئولية رحيق وأمكَ ، حينها فقط لن تشعر بأن أباكَ يظلمكَ ، حينها ستعرف أنكَ قوي بنفسكَ ، وأن هناكَ أشخاصاً أنت سبب في سعادتهم ومدعىً لفخرهم، وهذا ما يجعلكَ رجلاً ناضجاً " .. هذه كلمات أحمد له .. وهذا صوته .. الذي يوافق الصوت في عقله ..

بوازعٍ في قلبه لم يسأل كيف ولا متى؟ بشعورٍ لا متناهي يخبره دائماً أن أخاه حيٌّ؛ فهو لم يرى جثته، إذاً لم يمُت، لم يجادل أفكاره ولم يمنعها ، وصوته يخرج مصدقاً عليها محشرجاً :

- أحمد !! أنتَ أحمد أخي ؟؟

أومأ أحمد بتردد، ثم قال بابتسامة دافئة :

- نعم أنا أحمد أخوكَ!! .. وودَّ لو قال أنا أحمد أبوكَ ..

لم يتخذ الأمر منه ثوانٍ حتى كان بين ذراعي أخيه يعانقه، لن يسأل كيف؟ لن يتأكد إن كان الأمر حلماً أم حقيقة؟ ففي الحالتين يريد للأمر أن يستمر للنهاية!! لن يمنع دموعه التي فاضت تأثراً ممتزجة بدموع أخيه الذي يضمه إليه مطمئناً..

نظر لهما ياسين وابتسامة راحة تشق شفتيه، كان يخشى من مالك بشدة، ولكن يبدو أنه سيكون الداعم الثاني لأحمد، وبقي السؤال في عقله يتردد " كيف ستتقبل رحيق الأمر؟ وكيف سيتقبله والديه؟ " .. لم يئِن الأوان لراحتكَ بعدُ يا أحمد!!!

٣٠

ذاكرة سوداء

لوس أنجلوس ٢٠٠٥

كانت المرة الأولى التي يرفع أحمد صوته على أبيه فيها، ويشير بيديه هازئاً، لم يعد أحمد المثالي حينها، بل تحول لابن عاق، تحول لرجلٍ نفذ صبره وقلت حيلته، أنهى شجاره الأول مع أبيه وخرج، ولم يرى مالك الذي استمع لحوارهما كله بقلبٍ منكسر، وغيرة ستبدأ في نخر روحه، لولا حالة أحمد لاحتلت روحه بأكملها ..

سمع أباه وهو يبلغ أحمد بأن ثروته كلها ستكون له، ولن يترك لمالك أو رحيق شيئاً، سمع أباه يمنعه من حقه في كل شئ، وسمع ثورة أحمد عليه، سمع أحمد ينهر أباه للمرة الأولى، ويتركه صافعاً الباب خلفه منهياً لذلك النقاش ..

الأمر ليس أبداً لسوء أخلاقه أو طيشه كما ادَّعى أبوه، أيحرمه من ميراثه كما حرمه من عطفه لسوء أخلاقه؟ هل أراد أبناءه كلهم ملائكة؟ وماذا عن رحيق؟ سيحرمها لأنها ستتزوج؟ هذا الرجل قدِمَ من القرون الوسطى؟ ليس أباه من يفعل!! محقٌّ أحمد في رده وغضبه؟ وقد كان من الممكن أن يطيع أباه في هذا النعيم الذي يعطيه له ..

خرج أحمد وهو يشعر بغضبٍ لا حدود له، غضبٍ لم يجربه من قبل، تحمل من أبيه أي شئ وكل شئ متعللاً ببِرِّهِ، إلا أن يظلم أخويه. ومازال هو نفسٌ بشرية قد تطمع وتجشع، خاف على نفسه من عرض أبيه، خاف أن يفتنه المال ويحوله لشخصٍ لا يعرفه. خاف أن يكرهه مالك أو رحيق، خاف من نفسه ومن شيطانه، هو مجرد بشر يخطئ ويصيب، ليس ذلك الملاك الذي يراه أبوه لمجرد أن يطيعه .

في طريقه للخارج قابلته رحيق، تلك الرقيقة التي تمحي عنه أي هم، لم يستطع أن يواجهها بغضبه؛ فخاف أن يؤذيها غير متعمدٍ، فسحب شهيقاً قوياً يكتم شعوره به، وهو يقابلها بابتسامة تخفي كربه، فوقفت أمامه تشاكسه كالعادة وقالت :

- إلى أين؟ هل نسيت أننا على موعدٍ الآن؟

فقال بابتسامته :

- أريد الخروج وحيداً لبعض الوقت، انهِ بعض الأعمال لديكِ ريثما أعود!!

- لستَ بخير! .. قالتها وهي تربت على وجهه واجمة، فهز رأسه نافياً وهو يقول :

- مشغولٌ تفكيري بعمار، لأنه سيرحل الليلة فقط !! ..

ثم أكمل مغيراً لحديثه :

- ما رأيكِ في بعض الحلوى والشيكولاتة التي تفضلينها؟!

استجابت لدعابته وقالت :- على الرحب !!

قبل رأسها وابتعد لخطوتين ثم عاد لها قائلاً :

- رحيق، اعتني بنفسكِ جيداً، وكوني دائماً على ثقة بأنكِ الأقرب إلى قلبي!!

تجاوزت ما قاله بمزاحٍ قائلة :- أقرب من ديانا ؟

ابتسم وهو يقول :

- أقرب من ديانا!! اعتني بها جيداً، ولا تتركيها أبداً في منتصف الطريق! اتفقنا!

أومأت قائلة:- اتفقنا!! أعدكَ أنني لن أتركها حتى تطمئن!!

- ولا تخبريها بأي شئ مما قلتُه لكِ، عديني بذلك!

- أعدكَ !..ثم قالت عابسة :

- ماذا أصابكَ ، كل مرة تخرج فيها تخبرني بتلك الأشياء، ثم تعود ليكون أحد مقالبكَ، ستعود لتسخر مني ككل مرة، اذهب هيا اذهب!!

ابتسم وهو يبتلع غصته ثم اقترب منها معانقاً إياها وقال :

- إياكِ أن تكرهينني في أي يومٍ، إياكِ، لن أتحمل أن أرى نظرة كرهٍ في عينيكِ!

نظرت لعينيه اليائستين قائلة:

- أحمد! ماذا بكَ؟ لا تخرج!! أرجوكَ لا تخرج ، وأخبرني ما الذي يحزنكَ هكذا؟

ابتعد عنها وهو يقول باسماً :

- سأعود لا تقلقي ، يجب أن أزعجكِ قبل أن تنامي ككل ليلة!!

لم تكن تعرف أنه صادقٌ في وعده الثاني، وأنه سيزعجها بالفعل قبل أن تنام، ولكن إزعاجٌ من نوع آخر، سيزعجها أن تعرف أن هذا كان آخر لقاءٍ وحديثٍ بينهما..

تركها أحمد وقبل أن ينطلق بسيارته اعترض طريقه مالك، ترك سيارته وذهب نحوه، فلم ينطق مالك، لم يعرف ما الذي يقوله؟ ووقف أحمد ينتظر حديثه. دائماً علاقته بمالك متوترة، يخشى دائماً من أن يحفظ في نفسه غيرةً نحوه، يخشى من أن يحقد عليه ذات يوم ، أو يملأ قلبه الكره له، نطق مالك بعد تردد :- أحمد، لا تذهب!!

ابتسم أحمد مجيباً :- غريبٌ أمركَ! دائماً تتمنى أن أختفي من أمام عينيكَ!

كرر مالك بصوتٍ مختنق :- أحمد أرجوك، لا تذهب!

اقترب منه أحمد قائلاً:

- ماذا بكَ؟ أنتَ تعرف أن عمار سيرحل الليلة، ويجب أن أودعه، إنه صديقي!

لم يستطع مالك الاعتراض، ولم يفهم أحمد ما الذي يجول بخاطره؟ لكنه فعل معه كما فعل مع رحيق وهو يعانقه قائلاً:

- مالك! قد أكون آذيتُكَ كثيراً بغير قصد، فسامحني أرجوكَ، أنتَ تعلم جيداً كم أحبكَ، ويعلم الله أنني لستُ راضٍ عن تفرقة أبي بيننا، وأنتَ ستبقى أخي سندي في الدنيا ورفيقي حتى الآخرة!! أرجوكَ لا يأتي عليكَ يوم وتكرهني فيه، يعلم الله كم أحبكَ!!

وعلى عكس رحيق بكى مالك بشدة، وبصورة أذهلت أحمد الذي اعتاد منه الجفاء والنفور في معظم الأحيان، ربت على رأسه وظهره يهدئه حتى هدأ وبقيت نهنهات خافتة وهو يردد :

- سأنتظركَ يا أحمد، سأنتظركَ حتى تأتي، سأتغير لأجلكَ ..

ابتسم أحمد وهو يقول :

- لن أتأخر إن شاء الله، فقط لأجلي أنا اعتني برحيق، وكف عن شجاركَ معها، تعلم أنها فتاة رقيقة لا تتحمل جلفٌ مثلكَ!

قالها وضربه على رأسه فابتسم ثم ودعه وعينه لا تفارقه..

ذهب أحمد إلى صديقه عمار الذي يفضي له بكل شئ، وعنده فقط يتحدث أحمد ويقول كل ما لديه، يتخلى عن صفة الأخ الحكيم العاقل، ويكون أحمد الشاب الذي يمتلك طموحاً وأحلاماً، الرجل الذي يخطئ ويزل، يكون كما هو نفسه، يتجرد من أي صفة أمام عمار، وهاهو عمار سيرحل الليلة ويعود إلى أهله، ويتركه هنا وحيداً، بعدما شكا إليه حاله وأخبره عن فعل والده قال عمار مازحاً :

- ما رأيكَ أن تعيرني أباكَ؟ وأكون أنا صاحب المال، إنها فكرة رائعة تروقني!!

ابتسم أحمد قائلاً:

- لستُ في حاجة إلى مزاحكَ الآن، الأمر يؤذيني بشدة، أبي يراني ملاكاً رائعاً، وأنا أسوأ من شيطانٍ..

هدأ عمار قائلاً :

- أتعرف أن مالك أقوى منكَ!! يستطيع أن يقول لأبيكَ لا ، يفعل ما يروق له في كل وقت، عكسكَ أنتَ لا تقول لأبيكَ سوى حاضر ونعم ، أمرك يطاع ولو على رقبتي..

- إنه أبي!! .. قالها أحمد معترضاً، فأكمل عمار :

- ألانه أبوكَ تطيعه في الحلال والحرام؟

- لم أطِعهُ في أي حرامٍ وإلا ما رفضت عرضه!!

قال عمار :

- طاعتكَ الدائمة له هي التي شجعته على ذلك!! أنا لا ألومكَ يا أحمد ، ولكن بركَ له جعله يرى من مالك ابن عاق، لمجرد أن مالك لا يوافقه على أشياءٍ لا يرغبها!!

- ويجبر على فعلها في النهاية!!.. رددها أحمد منزعجاً.. ثم وضع رأسه بين كفيه قائلاً :

- عمار.. أنت لا تفهم، أنا أخشى بشدة على مالك ورحيق، أشعر بالرعب عليهما، أبي لا يهتم بمالك، وأمي لا تهتم برحيق، وأنا أحاول أن أعوضهما، وأخشى من تعلقهما بي، وفي نفس الوقت أخاف عليهما من نفسي، أخاف أن أتحول بفعل الضغط الذي أتعرض له، أخاف أن يغريني المال، أو تغريني السلطة التي يملكها أبي إياي..

- هون على نفسكَ يا صديقي، الأمر ليس بذلك السوء.. بالنسبة لمالك، عندما ينضج سيعتمد على نفسه، ولن يحتاج إليكَ أو إلى أبيكَ، أما عن رحيق عندما تتزوج سينتهي كل شئ، وتعيش حياتكَ أنت وتتزوج وتنجب!! كنت أود الزواج من أختك ولكنك تعلم أن زوجاتي ٧٠ من الحور العين لن يقبلن بامرأة من أهل الأرض..

ابتسم أحمد وهو يقول :

- ومن قال أنني سأوافق على أن أزوجكَ أختي؟!.. ألا ترى أن ٧٠ من الحور عدد ..

قاطعه عمار قائلاً :

- نعم عدد قليل جداً.. ثم أنني فقط لا أريد لأختكَ أن تترمل إن تزوجتها، سأموت شهيداً قريباً..

تذمر أحمد وقد نسي همه قائلاً :

- أنا أيضاً لن أوافق أيها الشهيد، متى ستكون طائرتك؟

- في منتصف الليل، باقي من الزمن ست ساعات ستثقل عليَّ فيهم وسأتحملك!!

ضحك أحمد ثم قال بشجن :

- سأشتاق إليكَ يا صديقي!

سخر عمار قائلاً:

- لا أريد دراما الآن، انتظر حتى تمر خمس ساعات، هيا أخبرني متى ستقرر الزواج؟

- ليس بعد..

ضحك عمار :

- لقد تركتُ لكَ نساء الدنيا جميعهن، لأعيش مع حور الجنة، عندما تنجب سمي ابنتكَ حور وحدثها عن صديق أبيها الشهيد، واجعلها تدعو لي كثيراً، وقبل أن تتذمر، قم معي لنصلي المغرب!!

قام معه أحمد وهو منزعج بالفعل ثم قال :

- عمار!! لا تردد هذا الكلام مرة أخرى أرجوكَ، أنا بالفعل متأثر من رحيلك لبلدٍ آخر، فلا تزود الأمر عليَّ وتحدثني عن موتك، لن أتحمل ذلك!!

- هون على نفسكَ يا صديقي، ثم أنكَ تذهب إلى تركيا باستمرار، المسافة قريبة بيننا، وقد أقنع جدي ليأتي ليعيش معي هنا، وأعود لأكدر عيشكَ مرة أخرى لا تقلق !!

- ليتكَ تفعل!.. قالها أحمد بجزع..

بقيا معاً، حتى اقترب موعد الطائرة .. حينها قال أحمد وهو يخلع معطفه :

- عمار خذ هذا وناولني معطفك !!

نظر له عمار متوعداً فقد اعتاد على مقالبه ومزاحه الدائم في كل شئ ثم قال :

- أخبرني ماذا يحوي معطفك حتى يمنعني من السفر!

ضحك أحمد عالياً ثم هدأ رويداً وهو يقول :

- أنا أتمنى بالفعل أن يمنعوكَ من السفر، وتحتجز هنا جواري، لكن صدقني هذه المرة ليست سوى احتفاظٍ بشئ يخصكَ!!

صدقه عمار وهو يستبدل معطفه معه ثم قال :

- سأصدقك، ولكن حالما أكتشف أي مؤامرة من مؤامراتك سأبلغ عنكَ يا صديقي!

ضحك أحمد وهو يجيبه:

- ما أحلاها من حياة معكَ في زنزانة واحدة، لقد اعتدتُ معكَ على ذلك!

قام أحمد بتوصيله بسيارته وتفكيره مشغول بذلك المقلب الذي يدبره لعمار. أول مرة يشعر بالخوف من عاقبة مقالبه، ولا يعلم السبب. ومر الوقت في صمت، حتى بدأ عمار يحدثه ويسري عنه قليلاً، حتى أوقفه على جانب الطريق قائلاً :

- أحمد دعني أكمل أنا، لن نصل بهذه الطريقة، أعلم أنكَ تريد أن تفوتني الطائرة!

ابتسم أحمد بوهن، وهو يستبدل مقعده مع معه، ثم انطلق عمار بالسيارة مسرعاً، وهو يتحدث عن جده وجدته الذاهب إليهما، حتى توقف على جانب الطريق مرة أخرى قريباً من متجرٍ قائلاً:

- أحمد انزل اشتري لي طعاماً من هنا!

حملق فيه أحمد قائلاً :- ماذا؟ ولماذا لا تفعل أنت؟

ضحك عمار قائلاً:- لا أعرف، أريد أن أحركك من هنا قليلاً لأغازل جدتي، هل تمانع؟

ضحك أحمد وهو يترك السيارة قائلاً:- حججكَ واهية..

بعد خطوتين ناداه عمار :- مزاحك سخيف، خذ هاتفك، وناولني هاتفي أيها الوقح!

أشار له أحمد بأن لا ثم أكمل سيره، بينما عمار يبتسم بحنق، وهو ينتظره في السيارة. لا يعرف لماذا أرسله؟ لن يحدث جدته الآن، وهاتفه ليس معه، ثم تذكر أنه يحفظ الرقم فقرر أن يحدثها من هاتف أحمد للمرة الأولى.هي المرة الأولى التي سيزور جديه فيها، والمرة الأولى التي سيريانه فيها، والمرة الأولى التي سيسمعان فيها صوته الآن!!

ثم تركَ السيارة وأتبعه يناديه :

- أحمد، أريد أن أحدث جدتي، ناولني هاتفي!

التفت أحمد له مبتسماً وقبل أن ينطق كانت سيارة قد صدمت صديقه لتدفعه بعنفٍ لأمتارٍ أمامها ثم تكمل سيرها غير عابئة بما جرى؟؟

وكأن الزمن قد توقف، والعالم قد انتهى، وهو يركض نحو صديقه الذي سكن، وضع رأسه على قدميه، وأخذ يحدثه، ففتح عمار عينيه في وهن قائلاً :

- أتعتقد أنها شهادة؟

- عمار! أنتَ بخير؟ أليس كذلك؟ لا تتركني أرجوك!

ابتسم عمار بوجع قائلاً :

- لا تقلق سأحجز لكَ مقعداً في الجنة، وأجعلكَ من السبعين الذين أشفع لهم!

- عمار، ستأتي الإسعاف الآن! تماسك أرجوك!

- يبدو أنكَ ستكمل الطريق وحيداً يا صديقي! فقط اهتم بجدي وجدتي، كانا متلهفان لرؤيتي، سأراهم في الجنة إن شاء الله!!

- عمار، أرجوكَ لا تقل ذلك، ستكمل معي، مازالت أشياء كثيرة لم نفعلها معاً، عمار .. عمار ..

صعدت روحه حينها، ولم يعد في الجسد شئ، وفقد أحمد صوابه، لقد رحل رفيق دربه، وتوأم روحه، رحل عن الدنيا، لا حياة له بعده، لا حياة!!

لم يحركْ ساكناً بينما الإسعاف تنقل صديقه، ثم تابع الموقف عن بعد ليجد مقالبه تنقلب فوق رأسه، فقد بدل الأوراق الرسمية لصديقه ووضع صورته على اسم عمار حتى يمنعوه من السفر، كان تزويره محكماً حينها. فقد نعي صديقه باسمه، ولم يستطع أبوه أن يرى ابنه ميتاً فلم ينظر إلى وجهه، وعجل أمر الدفن دون أن تراه أمه أو أخواه. إذاً الآن من مات أحمد وليس عمار، لم يكلف نفسه عناء إثبات العكس، لأنه بالفعل كان يفكر منذ وقتٍ قريب في شئ مثل هذا، أن يهجر عائلته، فيعلم أباه درساً أنه يوماً سيفنى، فتتحول مشاعره إلى مالك، وأمه تتأثر بغيابه فتتحول مشاعرها لرحيق، وهو يؤدب نفسه التي ستفخر يوماً بكونها مدللة مقدسة.

هذه الفكرة شغلته كثيراً وحدث عمار عنها، ولكنه نصحه بأن يعيشَ معه لفترة بسيطة، ولا داعي للهروب، أما الآن فعمار مات، وفكرته مازالت طازجة، فليرحل عنهم لينعم كل منهم بعيشه الذي يكدره، ليرحل كما رحل عمار، مالِ الدنيا أصبحت سوداء، ومالِ الناس أصبحوا بؤساء! أين عمار؟ كيف سيعيش من بعده؟ إلى من سيفرغ ما لديه؟ وإلى من سيشكو أباه؟ إلى من سيضحك ويبتسم؟ وفيمن سيحيك مقالبه التي لا تنتهي؟ من سيكون سبب سعادتِه بعد الآن؟ ومن سيكون سبب راحته وأمله؟ من سيكون عونه في الدنيا وساعده الذي به يقوى؟ مات عمار ولا حياة بعده!!

كل شئ مر بسرعة ليجلس هو أمام قبر صديقه ويبكي كل ما فيه، لينتحب وينشج وحيداً فقد ذهبت اليد التي كانت تربت عليه وتواسيه!! وهاهو مات معه لأنه لن يستطيع الحياة بعده، ترى هل فطن أبوه لذلك الدرس؟ هل علم أن الدنيا فانية، وأن ابنه الذي كان على وشك تقديسه رحل؟ ساعده القدر على تدبيره، فهو لم يفكر أبداً أن أباه قد يدفنه دون النظر إلى وجهه؛ ألهذه الدرجة لم يصدق أن ابنه قد يموت يوماً؟ ليت رحيق ومالك يصبرا، يحتاج هو الآخر الصبر لفراقهم ، والصبر لفراق نفسه التي دفنت الآن.

وقرر حينها أن يعيش بروح عمار ، ويذهب لجديه باسمه، فهما لن يعرفانه لأنهما لم يريا عمار من قبل. وفي أيام ثلاثة كان قد أنهى كل شئ ودبر تحويل أوراق عمار له، كما فعل من قبل

وسافر إلى اسطنبول، سيعيش مع جديه ، وينفذ وصية صديقه، سيهتم بهما ويرعاهما، فهما عجوزان بحاجة إلى رعاية هذا ما أراد عمار فعله.

فوجئ بجدٍ قعيد وجدة عمياء فكرس تلك السنوات لرعايتهما، وكلمات عمار لا تفارق رأسه ..

" أتعرف يا أحمد، أنا أعيش وحيداً منذ خمس سنواتٍ ولم أفكر في العودة إلى جدي وجدتي لأبي من قبل، ظننتُ أنهما لا يعرفاني، ولكن لما توصلتُ إليهما وطلبا رؤيتي لم أستطع التأخر عنهما، خاصة بعدما عرفت كيف حالتهما تكون؟ ثم أن تركيا بلد جميل إن لم أطمئن هناك سأعود إلى هنا بهما، ولكنني سأبقى معهما براً بهما وبأبي رحمه الله.. لا أعرف كيف لم أفعل من قبل.. "

" أتعرف يا أحمد يقولون على الخليفة عمر أنه أتعب الخلفاء من بعده ، لشدة إخلاصه وعدله، أتساءل هل من الممكن أن يأتي اليوم الذي يقولون عني ذلك؟ ليس اهتماماً برأيهم ، ولكن أقصد هل سأكون مخلصاً لتلك الدرجة؟ "

يتذكرها ثم يهتف " أتعبتني أنا من بعدكَ يا عمار، فلم تعد الحياة حياة .."

تمر السنون الواحدة تلو الأخرى ويرعى للجد عمله في الزراعة حتى مات، فبقي مع الجدة يرعاها لعامين بعده حتى رحلت هي الأخرى عن الدنيا.

تبرع بالأرض التي ورثها باسم عمار لتكون صدقة على الثلاثة، عرفت الجدة منذ اللحظة الأولى أنه ليس حفيدها، ولكن لأجل زوجها لم تتحدث، وحين أخبرت أحمد راوغ وعاند، ولكنها أكدت حدسها وهي تشكره على صنيعه معهما.

والآن هل سيعود لأهله؟ وماذا سيخبرهم؟ كيف حال أبيه الآن؟ وماذا عن مالك ورحيق وأمه؟ هل تغيرت حياتهم للأحسن كما تمنى؟ أم أن غيابه لم يؤثر عليهم؟ كان على يقين دائم بأن وجوده سبب لتعاستهم ومالك خاصة، ويعلم أن تعلق رحيق به غير طبيعي، يجب أن يغيب عنهما، وقبل وفاة عمار مباشرة كان يتحدث معه في هذا الأمر، وترجم عقله مباشرة، ويسر القدر ما نوى، قد يكون نصيب العجوزين أن يحظيا باهتمامٍ في آخر حياتهما، وقد يكون نصيب أخويه أن يعوضهما الله بشئ لن ينالاه إلا إذا غاب.

لكم اشتاق إليهم جميعاً، اشتاق لوجوده بينهم، ولكن هناك شئ في نفسه تغير!! مازال إلى الآن بعد هذه السنوات يؤثر عليه موت عمار أمام عينيه، يرفع عينيه للسماء ويتساءل هل هو سعيد الآن؟ هل نال ما تمنى؟ هل يجالس الحور الآن؟ يجلس يراقب القمر طوال الشهر حتى يغيب، ثم يعود يراقبه إذا ما ابتدأ هلالاً مرة أخرى.

قرار العودة أخذ منه وقتاً طويلاً حتى قرره، عاد وكله أمل أن يجد كل شئ تغير، أن يجد حياتهم تسير بخيرٍ في غيابه، وأن يجد مالكَ خاصة نال ما يستحق من تقدير!! قبل أن يصل إليهم عرف عن حياتهم وعرف عن ياسين، في المرة الأولى التي رآه فيه شعر بالراحة تجاهه، وأكثر السؤال عنه حتى اطمأن له. أكثر ما كان يشغله أن تتزوج رحيق شخص يسعدها، يكملها، ومما

عرفه عن ياسين شعر أنه هو! لم يستطع أن يسأل أكثر عن تفاصيل حياتهم، فاتجه إلى ياسين متأملاً فيه الخير يعرفه بنفسه.

لياسين قص الحكاية منذ البداية، حكى له من جانبه وأكمل له ياسين من الجانب الآخر، فأخبره عن رحيق ومالك. أقر أحمد حين عاد أنه مخطئ في قراره السريع المتهور، مع إصراره في نفس الوقت أن هذا ما كان يجب أن يحدث، ولو عاد به الزمن لفعل وما تخلى عن عائلة عمار، أو أهمل وصيته. لم يكن أحدٌ ليشعر به أو بحياته مع أبيه، الوحيد الذي كان يخفف عنه رحل، وهو لن يتحمل معاملة أبيه له، ولم يكن ليبقى لتتحول مشاعر أخويه له إلى كرهٍ خالص. كان في هذا اليوم وصل بالفعل إلى ذروة تحمله، أشياءٌ كثيرة تراكمت في ذاكرته منذ البداية جعلته يتخذ قراره المفاجئ ويفعل كل ما فعل!!

وها هو يحكي الحكاية للمرة الثانية لمالك، وكأنه ينتظر حكماً انتظر رأي مالك فيمَ استمع ، ولكن مالك ابتسم قائلاً :

- كنت أتمنى أن تعود فقط لتسامح أبي، هو تغير كثيراً بالفعل!! لقد استمعت لحديثكما في ذلك اليوم، وحين منعتك من الخروج كنت أعلم أنك خارجٌ بلا عودة.

فقال أحمد مدافعاً عن أبيه :

- لا يا مالك ، هو لم يكن يكرهك صدقني، هو فقط فعل ذلك لأنه يعرف أنني مسئول عنكما ، لا ليأكل أموالكما!

ضحك مالك قائلاً :

- مازلتَ تدافع عنه، ولكن لا تقلق هو بالفعل تغير كثيراً وتغيرت مشاعري نحوه، صحيح أن خبر موتك أثر عليه طويلاً، واستمر كما هو في معاملتي، ولكن الآن لم يعد كذلك!

- ورحيق وأمكَ؟ .. سأل أحمد، فتنهد مالك ثم قال :

- لا أعرف ، صدقني يا أحمد أنا ألتمس لكَ كل العذر فيمَ فعلت، أنا أيضاً تركتُ المنزل لفترة تقرب من السنة لولا أمك ورحيق ما عدت أبداً، أعرف جيداً كيف ينفرنا أبونا، ولكن أمكَ لن تتحمل فكرة أنكَ هجرتها لتهتم بامرأة غيرها، وأما عن رحيق ..

زم مالك شفتيه ولم يكمل، فهتف أحمد بقلق:

- ماذا؟ ما المشكلة؟ هل بها شئ؟

نظر مالك لياسين بتوتر فأخفض الثاني ناظريه، وأحمد يحول أنظاره بينهما وهو يهتف مرة أخرى :- ما الأمر؟ رحيق بخير، أليس كذلك؟

ربت مالك على قدمه قائلاً :

- بخير يا أحمد، ولكن من الصعب أن تتقبل حكايتكَ، من الصعب أن تسامحكَ، عليكَ أن تتحملها كما السابق، رحيق تأثرت كثيراً بعدك، تأثرت لدرجة لن تتخيلها!!

حينها وقف ياسين فجأة هاتفاً :

- يجب أن أذهب الآن!

نظر كلاهما إليه وهو يتجه نحو الباب فأوقفه مالك قائلاً :

- ما الأمر؟ ألن نذهب لرحيق الآن ؟

صعق ياسين وهو يلتفت لهما قائلاً :

- لا، رحيق، ليس اليوم إطلاقاً، قد يكون غداً، يجب أن أمهد لها الأمر، ولكن الآن سامحاني، عليَّ المغادرة .

خرج بسرعة ومالك يبتسم بينما قلق أحمد قائلاً :

- ماذا حدث؟

رد مالك :

- هكذا يكون مع زوجته، ربما تشعر أختك بضيق الآن، أو أصابها أي شئ، وربما شعرت بكَ ودخلت في نوبة انهيار يجب أن يكون معها الآن؟

- أمازالت تفعل؟.. قالها أحمد مندهشاً فأومأ مالك قائلاً :

- بل أصبحت أكثر حساسية تجاه هذه الأمور!

في هذا الوقت علا صوت هاتف مالك، فنظر له وابتسم ثم قال لأحمد :

- إنها بنان زوجتي، يجب أن أعرفك عليها! أستأذنكَ سأجيبها!

ابتسم أحمد مندهشاً، مالك قد تزوج، لقد كبر هذا الفتى، راقبَ حديثه معها مستغرباً، لقد ظن في البداية أنه سيبتعد بهاتفه، لن يحدثها أمامه بهذه الصورة كأنما يحادث زميل دراسة، أنهى مالك حديثه قائلاً :

- أغلقي الآن أيتها البلهاء، سأخبركِ بأخبارٍ سعيدة عندما أراكِ، قد أزوركم اليوم لتخبرينني بما فاتني!

قال أحمد :- متى تزوجت؟

ابتسم مالك ثم قال:

- منذ أكثر من شهر، لم نتزوج بعد عقدنا قراننا فقط! وأنتَ لم تتزوج؟

أشار أحمد برأسه نافياً، فقال مالك مستغلاً غياب ياسين :

- أمازلتَ تفكر في ديانا؟

تبعثرت تعبيرات وجهه نظراً لبعثرة مشاعره، لقد ضحى بعائلته، ألن يضحي بها وهي محض حلمُ لم يكتمل..

قال هادئاً:

- لا لقد تجاوزتُ الأمر، كانت مجرد مشاعر أخوة ليس أكثر!! لقد تزوجت الآن أليس كذلك؟

قالها ليؤكد مشاعره له ، فقال مالك :

- نعم، هي متزوجة الآن!!

أخرج أحمد ابتسامة بسيطة وهو يقول :

- باركَ الله لها!

- وأسلمت أيضاً!! قالها مالك ببساطة، فاتسعت عينا أحمد بفرحة وهو يقول :

- حقاً!! الحمد لله، هذا أجمل خبر!

لم يثقل عليه مالك ، ولم يسأل أحمد كثيراً، هذا شئ توقعه، هو حتى إلى الآن لا يعرف لماذا عاد؟ كانت حياتهم مستقرة، أخرجه مالك من أفكاره هو يبلغه بانتهاء ساعات العمل، وأن عليهم المغادرة الآن، وذهب به إلى سكنه!!

لم يفكر مالك كثيراً، أحمد عاد إذاً فبها ومرحا، إنه أمر رائع!! لماذا يزعجه بتفاصيلٍ ليس له يد فيها؟ لم يعرف كم قاسى أحمد وعانى في حياته حتى قرأ مذكراته، عرف حينها أنه دفع ضريبة التدليل التي حظي بها من أبيه من عمره ونفسه، عرف كم فعل أحمد لأجل أن يبعد مالك ورحيق عن قسوة أبيهم، وعن إهمال أمهم، عرف كيف كان يتفنن في تعويضهما؟ عرف أنه يوماً كان مثلهما ونالته قسوة أبيه وإهمال أمه، فحرص أن يبعدهما عن ذلك، استطاع أن يكيف نفسه على حياة أبيه وأمه ويكسبهما، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك لأخويه !! فعوضهما !!

****

عندما خرج ياسين ذهب إلى بيته سريعاً فوجد زوجته متكومة على نفسها في فراشها، اتجه ناحيتها هاتفاً :

- رحيق!!

كان جسدها يهتز بخفة ووضح أنها تنشج منذ زمن، جلس جوارها وهو يحركها تجاهه قائلاً بجزع :

- رحيق! ماذا أصابكِ؟

لم تشأ أن يراها، فانتفضت مبتعدة عنه ، ثم اتجهت لغرفة الحمام، وبقيت هناكَ لمدة تحاول استعادة هدوءها، بيتها ينهار وهي لا تعرف كيف تنقذه، بالطبع هو لا يفهم أي شئ، ولا يشعر بأي شئ، يعقد الأمور، ويعند ويكابر، إنها خطواته التي سار عليها في السابق، إنها هي تماماً،

نفسها ، لم يغير شيئاً ، وطالما سار على نفس الحال فهل تنتظر نتيجة مغايرة، لا نتيجة أخرى سوى تلك التي عاشتها، تلك النهاية السوداء. ولكن هذه المرة لن تتركه يحرك الزمام الذي يمسكه كما يشاء لن تتركه يهدم البيت الذي حرصت على بنائه من أجل نفسها أولاً لا من أجله!

استعادت بعض هدوءها فقررت الخروج متجاهلة إياه كما تفعل منذ مدة، ولازمها ذلك الشعور بالخوف ولجهلها بسببه ترجعه لياسين.

جلست أمام شرفتها تقبض يدها وتبسطها لتتخلص من تلك الرعشة التي تسري بها وبجسدها كله، فاقترب ياسين يجلس جوارها، ثم قبض على يدها التي لاحظ ارتعاشها بلطفٍ قائلاً:

- رحيق، لقد فكرتُ في حديثكَ!

لم تنظر إليه فأكمل :

- لقد أخطأتُ بالفعل، أنا بحاجة إلى الأموال كي أبدأ، ولكي أحصل عليها يجب أن أعمل، وطالما أنا أعمل بالفعل في شركة أبيكِ فعليَّ أن أتقاضى راتباً مقابلاً لعملي!!

نظرت إليه بشك فابتسم قائلاً :

- سنكمل طموحنا معاً، ويجب أن أصعد السلم من أوله، وأنتِ معي ولن تفارق يدي يداكِ أبداً، أبداً مهما حدث!

ابتسمت عيناها اللامعة من أثر بكاء وهي تقول بتشكك :

- أمقتنعُ بما تقول؟ أم أشفقتَ عليَّ لأنني أبكي؟ أنا لا أبكي بسببكَ !

- أعرف أنكِ لا تبكي بسببي، لأنني لا أستحق ذلك، وبالفعل أنا مقتنع بما أقول، لا أستطيع أن أتخلى عنكِ أبداً، ولا أستطيع أن أكمل طريقي بدونكِ، أنت لا تعرفين ما فعله بي تلميحكِ للطلاق، لقد ذبحني، ذبحني أنكِ فقدتِ شعور الأمان معي، وأنا إن لم أكن أمانكِ فمن سيفعل؟ لا تكرري الأمر رجاءً! عندما أضعف أنتِ الوحيدة التي باستطاعتكِ أن تسنديني لأقوى؛ اتفقنا!!

أومأت بإيجابٍ مصدقة على حديثه، ثم تنهدت لتطرد الخوف الذي يتملك قلبها، وبدأت أنفاسها تضيق بسببه فلاحظه قائلاً :

- ما الذي أصابكِ؟

وقفت مبتعدة وهي تقول :

- لا أعرف، قد أستريح قليلاً لو نمتُ، أستأذنكَ!

وبالفعل دخلت غرفتها لتنام، منذ خرج ياسين صبحاً ومعه سيف ومريم، وهي تحاول النوم فتبكي، كلما حاولت كلما زاد بكاءها، تتذكر سبباً لبكاءها فلا تجد سوى مشاحناتها مع ياسين، فترى أن الأمر ليس بذلك السوء قد تحتويه، ولكنها تشعر بيأس وتبكي، ولكن هذه المرة نامت بالفعل.

بمجرد أن صفى ياسين ما بينهما شعر بالراحة، وتحدث إلى مالك يسأله عن العمل وعن أحمد، فكر في أن ينهي القلق الذي تشعر به رحيق ويخبرها اليوم، ولكنه خاف من رد فعلها . رغم تسامحها وحنانها اللا نهائي إلا أنه على يقين من أنها ستتحول إلى امرأة قاسية إن عرفت بحكاية أحمد، وقد تنقلب الطاولة عليه مرة أخرى.

لم يمر وقتُ طويل قبل أن يدخل لغرفتهما ليستبدل ملابسه، ألقى عليها نظرة فلاحظ حركة رأسها المتتالية يمنة ويسرة،اقترب منها ببطء لا يعرف أنائمة أم مستيقظة؟ بلطفٍ هز كتفها إذ لاحظ حبات العرق تتلألأ فوق جبينها؛ فانتفضت بعنف تشهق كأنما رأت كابوساً، ناولها كوباً من الماء تجرعته كله، ثم أخذت تتنفس بسرعة ، فجلس جوارها يمسد رأسها بلطفٍ قائلاً :

- اهدئي حبيبتي! مجرد حلم! أنتِ بخيرٍ!

وضعت رأسها بين يديها مخللة أصابعها في شعرها وهي تقول بألم :

- ماذا يحدث لي؟ أشعر بشئ غريب، أنا لم أعد أنام، لم أعد أستطيع النوم، يا إلهي ما الذي يحدث؟ أبنائي بخير، أليس كذلك؟

- هما بخير، لا تقلقي! قومي معي لنتحدث قليلاً!

قامت معه فأخذ يتحدث طويلاً ويمازحها، حتى خرج منها بابتسامة، فاتجه بها إلى المطبخ وأجلسها أمام طاولة وهو يقول :

- لم أرِدْ أن أصدمكِ من قبل، ولكن يجب أن أخبركِ بالحقيقة وهي أنكِ لا تجيدي الطهي، سأعلمكِ اليوم كيف يكون؟

ضحكت ولم ترد، فأكمل :

- أشعر بسخرية ، سأريكِ إذاً..

بدأ يعمل وهي تراقبه ، ثم تحدث قائلاً :

- كنت أفكر لو أن الله منحني فرصة بأن أرى شخصاً مات، كنت سأتمنى رؤية أمي مباشرة!!

- رحمها الله وغفر الله وأسكنها الجنة !

- آمين! وأنتِ من الشخص الذي تتمنين لو أنه لم يمت أو تتمني أن ترينه مرة أخرى؟

سكتت لقليلٍ من الوقت ثم قالت :

- لا أعرف، لو كنت سألتني هذا السؤال بعد موت أحمد لأخبرتك أنه هو، ولو كنت سألتني بعد موت أمي مريم لأخبرتكَ أنها هي ، لكن الآن لا أعرف، طالما قدر لهما الموت في هذا الوقت إذاً فهو خير!!

زم ياسين شفتيه بيأس ثم قال :

- يعني لا تتمنين رؤية أحمد؟!

ابتسمت قائلة :

- ماذا؟ هل تشعر بي وبأحلامي أيضاً؟ وتعرف أنه زائري الدائم هذه الأيام ؟؟

بهت وهو ينظر لها قائلاً :- وبأي شئ تحلمين؟

هزت كتفيها بلا مبالاة قائلة :

- لا شئ، أراه فقط، يبدو أنه يريد تعذيبي بفراقه مرة أخرى!

ترك ما في يده وجلس أمامها قائلاً :

- يعني لو اكتشفتِ أن أحمد لم يمت، ماذا سيكون رد فعلكِ؟

ابتسمت قائلة :

- رأيتك تقرأ في كتاب عن القوى الخارقة منذ يومين !!

ضحك قائلاً :

- لم يلعب بعقلي لا تقلقي!

- وإذاً؟؟

- أحمد حي لم يمت، رأيته بأم عيني وتحدثتُ إليه !!.. قالها ببساطة وهو ينظر في عينيها؛ فوقفت لتتركه وتجلس في مكانٍ آخر وهي تقول :

- أحمد مات ودفن منذ ما يقرب لعشر سنوات ، ثم أنكَ لا تعرف شكله سوى من صور، من المؤكد أنكَ رأيت شبيهاً له!!

قبل أن يبدأ بالحديث معها، هاتف مالك بأن يأتي بأحمد إلى منزله، وأن ينتظراه أمام الباب حتى يفتح لهما. اتجه خلفها وهو يقول بجدية :

- أحمد سيأتي إلى هنا الآن يا رحيق، أنا لا أمزح!! أخوكِ حي يرزق، لم يمت ولم يدفن ، أنتِ لم ترينه ميت؛ فكيف تقولين ذلك عن ثقة؟

التفتت تنظر إليه بقسوة فقال :

- افتحي الباب، إنه ينتظركِ في الخارج!!

بآلية اتجهت نحو الباب تفتحه، وجدت رجلين يقفان أمام سيارة أحدهما مالك، والآخر غريب عنها، فعادت سريعاً لترتدي حجابها وسط دهشة أخويها وياسين، ثم اتجهت نحو الباب مرة أخرى تنظر إليهما، أومأت لهما بأن يتقدما ففعلا، جاءها مالك مبتسماً فردت ابتسامته بابتسامة وهي تسلم عليه وتعانقه، وبقي الآخر.وقف أمامها فنظرت في عينيه، لقد شابَتْ عيناه كما شابَ

قلبه، هل هو أحمد بالفعل؟ كيف ومتى؟ وهل يحيا الميتون مرة أخرى؟ أين كان طوال هذه المدة؟ لم تتغير نظرتها القاسية نحوه، كانت تلومه، تنهره، تجلده وتحرقه..

- تفضلا بالدخول!.. قالتها بجمود وهي تشير لهما بيدها مرحبة..

" أهكذا أصبحتِ صغيرتي؟لن ألومكِ، لكِ كل الحق في ذلك، ولكنني ما تخليتُ عنكِ إلا لأجلكِ "

تقدم بصدمة كست محياه، وبدأ يحكي حكايته للمرة الثالثة، وهذه المرة شعر بثقلها على نفسه، فأخته لا تظهر له الترحيب أو اللهفة بما تسمع، وإنما تجاهل تام! اشتاق لعناقها وحديثها الدافئ، اشتاق بالفعل لوجودها حوله، لماذا قست عليه قبل أن تسمعه، ولم يعرف أن قسوتها ستزداد بعد سماعه، وهي تقف أمام ثلاثتهم بعد انتهائه بابتسامة ساخرة لاذعة ، وأخذت تصفق بيديها قائلة :

- جيد جداً، لطالما كنت بطلاً حقيقياً،وماذا إن لم يموتا؟ كنت ستبقى معهما؟ لا يهم قلبٌ مكلومٌ خلفته وراءك؟ لا يهم عين لم ينضب دمعها؟ ولماذا عدتَ؟ بالله عليكَ لماذا؟ أتعرف خطأنا أننا لم نفكر في عمار بالفعل؟ لم نبحث عنه ظناً منا أنه رحل قبل أن تموت، رحمه الله ورحم أخي الذي مات معه في نفس الليلة!!

أكملت حديثها ولم تشعر بصوتها الذي تهدج وانقطع حسه، ودمعها الذي جرى دون توقف :

- لماذا فعلتَ ذلك؟ بسبب أبي؟ بسبب مالك؟ أم بسببي؟ وإن كنت تنوي الرحيل لماذا تعلقنا بكَ؟ لماذا تكون لنا الماء والهواء ثم ترحل؟ كيف تخبرني أنني الأقرب إليك وتتخلى عني؟

ثم انقطع صوتها وهي تكمل جاهدة :

- بالله عليكَ كيف تتخلى عن نفسكَ؟ عن أحلامك وآمالك؟ كيف رميت كل شئ وراء ظهرك؟ كيف تحملت أن تبتعد وتعيش وحيداً؟ كيف تحملت مكاناً ليس بمكانك، ووظيفة ليست لك، كيف عشتَ باسمٍ ليس اسمك، وحياة لا تخصك؟ كيف طاوعتك نفسك بأن تفعل؟

هم ياسين بالحديث يؤازره، فالتفتت إليه صارخة:

- لا تدافع عنه، أنتَ مثله تماماً، عندما ضاقت بك الدنيا هربت غير عابئ بأي أحد، غير عابئ بي، كلاكما علقتماني بكما ثم هربتما، نعم أنا أنانية، فلا داعي لترديد ذلك ، ولكن أنتما أكثر أنانية مني، أنتما من علمني كيف تكون الأنانية!!

ثم تركتهم جميعاً، واتجهت لغرفتها، وقف ياسين ليتجه خلفها ، فمنعه مالك قائلاً :

- اتركها الآن! اسمح لي بأن أذهب إليها أنا!

أومأ ياسين وهو يجلس، بينما اتجه مالك لغرفتها ووقف أمام الباب طويلاً، حتى هتف قائلاً :

- رحيق، أنا مالك، سأدخل الآن!!

انتظر لدقيقة لم تجبيه فيها فدخل!!

وأحمد في مكانه ساكناً يشعر بانهيارٍ كامل في كل خلايا عقله، لم يحسب لما رأى الآن حساباً أبداً، إلا رحيق، سيتحمل أي نفور وغضب إلاها. أشفق عليه ياسين كما يشفق على زوجته، فابتسم مهوناً ثم قال :

- أختك تمتلك صفة مميزة، كلما زاد حبها لشخص كلما زادت قسوتها عليه، لا تقبل بخطأه أبداً، إنها ساعاتٍ قبل أن تأتي لترتمي على صدرك، ناسية كل شئ!!

نظر له أحمد فأكمل ياسين بابتسامة :

- أعدكَ بذلك، لا تقلق عليها، لقد عرفت الآن لمَ كنت الأقرب دائماً لها، عن نفسي لم أكن لأتحمل أبداً أن تفعل معي ذلك، أن تراني بعد غيابٍ ولا تسلم علي، لكنكَ تحملتها، أنتَ الذي دللتها فعليكَ أن تتحمل نتيجة فعلك؟

ابتسم أحمد بوهن زاد على وهنه الذي يتراكم عليه منذ عاد..

****

" وهل نسيتِ يومَ أقام لكِ حفلاً هائلاً ليحتفل بعيد ميلادكِ رغم صراخ أبيكِ بأنه مشغول ولن يفعل؟ نسيتِ يوم ضربتكِ فضربني لأجلكِ رغم أنكِ من أخطأتِ حينها؟ نسيتِ يوم مرضتِ وسهر هو جواركِ وليست أمكِ من فعلت؟ نسيتِ أنه كان يترك أصدقائه ويجلس معكِ في المنزل حين تكونين وحيدة في غياب أبي وأمي وخروجي مع زملاء المدرسة؟ نسيتِ كيف عرفكِ إلى ديانا وميرا لتجدي أناساً يشاركونكِ حلمكِ وطموحكِ؟ نسيتِ شجاراتنا التي لا تنتهي بسببكِ لأنه لا يريدني أن أمسكِ بسوء؟

أليس من حقه أن يخطئ كأي بشر؟ كما أخطأنا نحن كثيراً؟ أليس من حقه أن يزل ويقع؟ أليس من حقه أن يلجأ إلينا حتى نسامحه؟ ولطالما لجأنا إليه؟ أليس من حقه أن يحزن على صديقه الذي مات أمام عينيه؟ أليس من حقه أن يبكي ويمرض ويبتعد ويهجر وتضيق به الدنيا فتغلبه؟ ماذا دهاكِ رحيق؟ هل أحمد بالنسبة إليكِ أصبح أخ تحت الطلب؟ إن لم تكوني بحاجته فليرحل "

- اسكت يا مالك اسكت !!

ضم جسدها الذي ينتفض بعنف إليه، وبعد فترة لحقه ياسين الذي لم يصبر على ابتعاده عنها، تركه معها مالك، فلم يفعل لها الكثير. شعر أن مالك قام بالفعل بما يجب، نظرت إليه بصوتٍ متهدج من أثر البكاء وقالت :

- أحمد مازال بالخارج؟

أومأ بناظريه ثم قال :

- لم أكن أعرف أنني أسبب لكِ كل هذا الألم !

- لا تشغل بالك، أنا أهلوس فقط!! ليس من السهل أن أرى شخصاً ميتاً!

ابتسم وهو يقول :

- والشخص الميت سيموت لمرة أخرى وهو ينتظر رؤيتكِ بخير؛ هل ستمنحينه الحياة ، أم ستحكمي عليه بالموت؟

تنهدت وهي تقول :

- سأخرج له، أنا آسفة لم أقصد أن أهينكما أو أثير خوفكما هكذا!

وضع كفها بين كفيه قائلاً :

- فقط كوني بخير حتى أطمئن، أعرف أن الأمر ليس بهين، وأعرف أنكِ ابتليتِ بي، لكن أخوكِ بالفعل ليس له ذنب، لا تحمليه ذنبي أرجوكِ، هو بحاجة لدعم عائلته وأنتِ أولهم!

مازالت عيناها ذاهلة ووجهها جامد، فهزت رأسها بتتابع ثم وقفت معه، واتجها للخارج، كيف لم ترتمي في حضنه إلى الآن؟ كيف قست عليه وهو لا يتحمل؟ ذلك الأناني كم تحبه!! ذلك الأثير المعطاء ستعاقبه!!

بمجرد أن أشرقت وقف معلقاً عينيه بها، فتركت يد ياسين واقتربت منه، مدت يدها إليه بتوتر فشدها إليه يعانقها بقوة، فعادت للبكاء مرة أخرى، وهي تهذي :

- اشتقتُ إليكَ أيها الخائن، أيها الغبي النذل ، اشتقت إليكَ، كيف تتركني هكذا؟ كيف لم تفكر في نفسك وفيها؟ لقد ضاعت منكَ أيها الأخرق!!

-همس إليها :

- رويدكِ! لا تقلقي، يكفي أنني رأيتكِ مرة أخرى، لا يهم أي شئ آخر، طالما رضيتِ عني!

تنهد ياسين براحة، وابتسم مالك، بقي والداه، كيف سينتهي الأمر بهما؟؟

بينما ابتعدت رحيق عنه قائلة :

- ستبيت هنا الليلة!

والتفتت إلى مالك :

- وأنتَ أيضاً!

وأردفتْ تقول لأحمد:

- أمي تذهب إلى مالك باستمرار، لا يجب أن تراكَ فجأة دون أي مقدمات، لقد تغيرت كثيراً يا أحمد، ولم تعد تلك المرأة التي كانت تهملنا! وأبي أيضاً، يجب أن تضع الأمر في اعتبارك!

ابتسم ببعض سعادة متفهماً بينما هتف مالك :

- والآن لأدمر معدة أحمد بطعامي!!

ضحك ياسين وهو ينظر لهم، هكذا ستكتمل اللوحة !

٣١

صبر جميل

بعد يوم كامل كان الحال هكذا؛ ينكب ياسين على عمله باسماً، بينما مالك يجلس وحده مراقباً، ومحور الجلسة رحيق التي تهتم بإطعام أحمد كأمه، ترمق ياسين ومالك الباسمين بين حينٍ وآخر بنظرة غضب ساخطة تمنع انفجارهما في الضحك.

عندما نام في إحدى الغرف ليلة أمس ونام مقابله مالك، اتخذت مقعداً جوارهما وراحت تتأمله، وتحفر ملامحه في قلبها وعقلها، رآها مالك ابتسم وتظاهر بالنوم، ولاحظ ياسين غيابها بحث عنها حتى وجدها هكذا وقف بعيداً يراقبها بشفقة على حالها، شعر أن خلايا قلبه تصرخ بحبها، يريد أن يفعل أي شئ لأجلها، يتمنى لو يستطيع إسعادها طوال عمره، وألا يبكيها أبداً. انسحب لغرفتهما لينام متظاهراً حتى إذا عادت لا يزعجها، ومرت الليلة دون أن تأتي!

في اليوم الثاني انضمت لهم بنان بعد أن أخبرها مالك بكل شئ، رأى أنها أحكمهم عقلاً، وأصفاهم بالاً، عمل برأيها دون جدال، وطلب مساعدتها لتنقذ تورطهم جميعهم!

وقبل أن يذهب مالك إليهم بها قالت :

- مالك! أخوكَ عاش ما يقرب من العشر سنواتِ في كذبة، فما المشكلة في أن يكملها؟

- وهل سيصدق أبي وأمي؟

- أعتقد ذلك، الموضوع منتشر هذه الأيام ، فقدان ذاكرة ، أسر، ضياع، أي شئ، خاصة وأن أخاك كان كثير السفر إلى بلدان ليست آمنة!

وافقها مالك قائلاً :

- أنا أيضاً فكرتُ في ذلك، من الصعب أن أخبر أمي أن ابنها الأثير تركها ليرعى امرأة غيرها ورجل عجوز، قد تتقبل الأمر وتفخر به لو ظل إلى جوارها مع ذلك! والمشكلة أنني لا أستطيع مواجهتهما، لا أستطيع أن أخبر أبي أبداً أو أمي بما حدث، أخاف أن يمرض أبي أو تصدم أمي، لا أعرف!!

ابتسمت بنان قائلة :

- أستطيع إخبارهما..

- حقاً!.. قالها فرحاً، فأومأت قائلة بمشاغبة :

- حقاً، ولكن لن أفعل شيئاً دون مقابل!

ضحك وهو يلتقط كفيها بسرعة مقبلاً ثم قال :

- أنتِ أجمل امرأة في الدنيا!!

كست الدهشة وجهها، وبردت أطرافها وهي تسحب يديها من بين يديه. لا يفهم ما الذي تفعله بها عفويته تلك؟ بينما ابتسم وهو يلاحظ خجلها الغريب، ثم مد يده ليلتقط يدها وهما يسيران متجهين إلى منزل رحيق، وأمام الباب توقفا، ولف وجهها إليه بيده وقال :

- ستخبرينهم بفكرتكِ العبقرية، ثم نذهب سوياً لوالديَّ إن وافقا!.

ابتلعت ريقها وهي تبعد يده عن وجهها وقالت :

- إن شاء الله، وكف عن تطاولكَ هذا وإلا ضربتُكَ أيها الطويل !!

ابتسم وهو يرن الجرس، بينما قلبها مازال يتحرك بعنفٍ فيها! وحتى تستطيع أن تفرغ المشاعر التي تملكتها ضربته بقبضتها على كتفه قائلة :- لوح ثلج!!

- ذائبٌ فيكِ!.. قالها بولهٍ، فقالت: لا تنطق!!

أسكته الباب الذي فتح، وابتسامة ياسين التي قابلهما بها، فتقدما معاً للداخل، وجدا أحمد إلى جوار رحيق تتحدث معه ، فنظر مالك إلى ياسين وهو يقول :

- ياسين أُشفِقُ عليكَ بشدة!!

ضحك ياسين قائلا :

- لنا الله!! يبدو أنني سأقتل أحمد حتى أتخلص منه!!

التفتت رحيق ومعها أحمد على صوت ضحكاتهما، ثم وقف أحمد عندما أقبل عليه مالك ممسكاً بيد بنان، عرفهما ثم جلسوا جميعاً ومالك يطرح عليهم فكرة بنان التي لاقت ترحيب من ياسين ورحيق، ولكن اعترض أحمد قائلاً :

- لا أستطيع ذلك! سأخدعهما تقصدون؟ طالما عدت يجب أن أعترف بخطأي، ليس استكمالاً للكذبة التي عشت فيها، حتى وإن كان لي الحق في ذلك؟!

تحدثت بنان بإقناع :

- أنا لا أعرف العمة سارة التي كانت والتي لا تعرف أنت سواها، أنا أعرفها الآن، أعرف المرأة التي فاضت بحبها على الجميع، والتي اعتبرتنا جميعاً أبناءها، لا بأس إن أخفيت الحقيقة عنها لئلا تؤذيها، لم أقصد أن تكذب، وكذلك العم عمر، ليس بهذه القسوة، كما أنه مرض من قبل، وقد تقتله الصدمة!!

عم الصمت المكان، وسجد أحمد ببصره ثم دفن وجهه بين كفيه، لماذا عاد؟ سيموت أبوه بسببه؟ نظرت إليه رحيق ثم قالت :

- أحمد!! لتفعل ذلك! فقدان الذاكرة أمر وارد، ومن السهل تصديقه، خاصة أن الوحيد الذي اهتم بأمر الحادثة كان أبي، وهو الوحيد الذي كان يعرف عمار وما سأل عنه، سيكون الأمر مقنع بالنسبة له، وأعتقد أن أمي لن يهمها أين كنت طالما عدت إليها! ستذهب بنان الآن، اتفقنا!!

بقي لدقائق ساكناً، ثم هز رأسه بعدها علامة الإيجاب!

****

أمام منزل عمر، وقفت بنان مع مالك تخبره بما يفعل منافية تماماً لما عزمت عليه، وهو كان يطيعها كالطفل الصغير، لا يعرف هل ما تدبيرها صحيحاً أم لا؟ ولكن لجهله بما يجب كان يطيع من ستنقذه، دخلا ووجدا عمر وسارة جالسين قريباً من المدفأة فاقتربا منهما، وصاح مالك كما أخبرته :

- أبي أمي، لقد رأيتُ أحمد!!

ثم سكت ينتظر أي شئ، التفت له عمر باسماً، والتفتت سارة بلمعة في عينيها ولهفة، ثم نطق عمر :

- مالك!! هل جننتَ؟

هنا سينتهي دور مالك فقالت بنان :

- لا يا عماه ، لقد عرفه أحمد ، هو من جاء إلينا وتحدث إلى مالك!!

وقفت سارة بقلبٍ يخفق، وعينٍ رامشة، وجزعٍ ارتسم على محياها، فوقف عمر تبعاً لها ، وأمسك يدها ليخفف عنها ثم قال :

- قد يكون شبيهاً له، مالك!! ألا ترى أمك؟ هل تفعل بها ذلك؟ ونكتشف في النهاية أنها محض خيالاتٍ منكَ؟

- صدقني يا عماه هو أحمد، هل رأيته عندما مات؟ هل رأيت وجهه؟ هل تلمسته كأي أب يموت ابنه ويخطف منه النظرة الأخيرة؟ هل سمحت لأمه وأخويه أن يودعانه؟

بهت عمر وهو يزدرد لعابه، وتعلقت عينا مالك به، وسارة مازالت ساكنة تنتظر إجابة شافية لكل ما تسمع، فقال عمر :

- لم أستطع أن أنظر إليه، لكنه هو، ملابسه، وشكل جسده، وأوراقه ،وهاتفه

- عمار.. هتف بها مالك، وأكمل :

- إنه عمار، الذي دفنته ليس أحمد، أنت الوحيد الذي عرفت عمار، وكنت تعرف كم هو شبيهاً لأحمد في كل شئ، عمار كان معه في السيارة ، وهو من مات، أما أحمد ..

كان سيكمل ويقول الحقيقة، لولا بنان قاطعته قائلة :

- أحمد أصيب في رأسه، وفقد الذاكرة، ولم يعرف أي شئ عن نفسه ، عمل عند شخصٍ ما وسافر معه إلى تركيا.. ولم يكن من السهل أن تعود ذاكرته وهو بعيد عن أهله، لذلك أخذت منه بعض الوقت!!

شعر عمر بألمٍ في قلبه، وخفقان يعلو مع تصبب العرق من جبينه وسخونة في جسده، وضع يده على قلبه يسكت ألمه، بينما يده مازالت تقبض على يد سارة التي أصبحت باردة كالثلج، تجاوز كل آلامه، وتحولت لهفته إلى زوجته التي خارت قواها جانبه!!

وقف مالك بصدمة، يتابع ما يحدث لوالديه عاجزاً، حتى رأى أمه يهوي جسدها، فهرول نحوها وحملها لغرفتها، بينما اهتمت بنان بعمر، وهي تبحث عن دوائه تعطيه له، أسندته حتى الغرفة، فدخل إلى سارة ومالك الذي يحاول جاهداً إفاقتها وقال :

- أين أخوكَ يا مالك؟ أين هو؟ ائتِ بهِ، ائتِ به لأمكَ!!

أجلسته بنان، واتصلت برحيق التي تنتظرهما في سيارتها مع ياسين وأحمد، ولما عرفتْ بالخبر، هرولت داخلة وهي تخبر رفيقيها، فلحق بها أحمد وسبقها قاتلاً تردده الذي منعه!!

****

اقتربت احتفالات عيد الميلاد، اشتد برد الشتاء في ديسمبر، وقد مر أسبوعان ولم يأتِها آدم، أو تسمع عنه خبر. في ديسمبر السابق كان يتركها ليسهر مع أصدقائه، وسافر معهم إلى نيويورك حيث تزدهر الاحتفالات هناك، ويلمع نجمها في السماء تاركاً إياها وحيدة كما اعتاد، كانت حينها مشغولة بجنينها.

وقفت أمام مرآتها، ونظرت إلى صورتها المنعكسة، ثم انحدرت يدها تتحسس بطنها، وابتسمت، هنا كانت تتحرك ابنتها في سلامٍ، وهنا كانت تشعر بها، كان بطنها منتفخاً قليلاً، كلما نظرت لها حينها ابتسمت، أما الآن؛ فلم يعد انتفاخ ولم تعد ابتسامة، ولم يظهر آدم بعد!

مرت أربعة أشهر لها هنا، عرفت متى يأتيها، متى يمنع نفسه عنها؟ من المؤكد أنه يمر بظروفٍ صعبة، خاصة وأن برنامجه الإذاعي متوقف منذ أسبوعين، قد يكون هذا هو السبب!! قد يأتيها في وقتٍ لاحق حين تتيسر أموره، رغم أن الأمر بات يزعجها، لماذا لا يشركها في همومه؟ ستحدثه في ذلك حين يأتيها، ولكن متى سيفعل؟

طرق بابها ودخلت الطبيبة، ابتسمت لها مرحبة، فاقتربت الطبيبة منها قائلاً :

- كيف حالكِ ديانا؟

أومأت ديانا :- بخير!!

- ما رأيكِ أن تشاركينا في تحضير شجرة عيد الميلاد؟

- لا أستمتع بذلك، أفضل الجلوس وحيدة!!

اقتربت منها إيلين وناولتها الكاميرا قائلاً :

- نريد مصوراً محترفاً لتلك اللحظات، ولن نجد أفضل منكِ، هل يمكنكِ ذلك؟ لا تشاركينا في التزيين إن كان الأمر يزعجكِ!!

التقطتها ديانا ونظرت إليها بشجن، مرت سنواتٍ لم تفعل، حثتها إيلين للخروج، فاستأذنتها في تبديل ملابسها. مرت دقائق حتى خرجت لها، واتجهتا للحديقة!!

كان الكثيرون هنا، يلعبون ويمرحون، دارت بعينيها فيهم تبحث عنه، قد يكون هنا ويفاجئها، لكن لم يحدث ذلك، انشغلت في التصوير، وجذبها شغفها للآلة التي تحتضنها بيديها. هكذا عندما تفقد الحياة لونها، تزهد في كل شئ فيها، تزهد في سرقة لحظة سعيدة، لأن اللحظات السعيدة دفنت!! تلك السنوات التي كسى السواد حياتها فيها لم تعد تتعامل مع الكاميرا، شعرت أنها آلة مزيّفة، لا تأخذ سوى الجميل لتوهمنا أن الحياة جميلة، وليست هي كذلك!!

منذ عرفت بنان وبدأت الدنيا تتلون بالخير والجمال مرة أخرى، بدأت حينها تشعر أنها تود سرقة كل اللحظات التي عاشتاها معاً. ليس من الضروري أن تكون رفيقتها من نفس سنها، فبنان استطاعت أن تخرجها من الوحدة التي تشعر بها بكل سهولة.

ظهر مارك، ووقف أمامها سعيداً يضحك فتظهر آثار نواجزه الفانية، يحاول أن يستقيم ليرفع قامته المنحنية للأمام بعض الشئ! اتخذ بعض الأوضاع لتلتقط له صوراً، ففعلت مبتسمة، تقدم منها وأهداها وردة قائلاً :

- عوضاً عن تلك التي سرقها منكِ زوجكِ!

قبلتها وقد أثار ذكره في نفسها قلقاً، وواصل مارك حديثه قائلاً :

- أنا أكره مسلمين اليوم فقط!! أردتُ أن أوضح وجهة نظري!!

انتبهت له إذ لم تفهم ما يرمي إليه فأكمل :

- زوجكِ هذا!! قالها وهو يشير عابثاً، ثم أردف:

- أهداني كتاباً في آخر مرة، يحكي عن النبي محمد، بدا لي أنه رجل جيد عظيم !! آه .. أعتقد أنني أحببتُ هذا الرجل !!

- ومن لا يحبه؟!..

علقت ديانا، وانشغل عقلها بزوجها، أحقاً فعل؟!.. يبدو أنه تغير كثيراً هذه الفترة، ولكن أين هو الآن؟ انتبهت لمارك الذي يتحدث، وقد جذبها حديثه، واندهاشه بما يروي، وراحت تصدق على حديثه وتعلق قلبها بما يقول منشغلة بعظمة المذكور عن آدم!!!

****

كالعادة منذ شهر مضى، ينهي محمد عمله في الجامعة فيعود إلى مسكنه وحيداً، يدخل لتفاجئه وحشة غريبة لا يطيقها لساعة كاملة فيغادر، يأخذ ما يحتاج إليه ويجلس في أي مقهى قريبٍ كان أو بعيد ليؤنس وحشته، يذهب إلى المسجد في أوقات الصلاة، وقد يجلس في مكتبة الجامعة.

هذا قبل أن يملأ ياسين فراغه، ويصطحبه في معظم الأوقات، وعرفه على مقهي له طابع شرقي أصبح لقاءهما الدائم فيه، ومذ ظهر أحمد وانقطعت اتصالاتهما سوى من مكالمة هاتفية أخبره فيه ياسين بمستجداته!

مكالمة يومية بينه وبين زوجته يخفف عنها، ويبثها شوقه، يستحثها على العودة فتعجز عن إجابة طلبه إذ يتعلق بوجودها إخوتها وأمها، وممزقة مشاعرها بينهم. عندما سافر معها مكث لأيامٍ ثلاثة قبل أن يعود وحيداً تاركاً إياها معهم، لم يكن يود ذلك لولا عمله.

وقبل نهاية كل يوم يبدأ حديثه معها بانزعاجٍ قائلاً :

- اشتقتُ إليكِ أيتها القاسية!!

تنخر كلماته روحها، ويجيبه صوتها الواهن بقلة حيلة :

- وأنا اشتقتُ إليكَ أكثر مما تتخيل! ولكن ليس بيدي حيلة صدقني!

ويطيلوا في الحديث في كل شئ، حتى يناما، ولكن هذه المرة قالت :

- قد أفاجئكَ بشئ يسعدكَ قريباً إن شاء الله، انتظر ذلك!

ابتسم قائلاً :

- لا شئ يسعدني الآن سوى عودتكِ!.. ثم قال بسرعة :

- أخبريني هل تحدث ابني الألمانية؟ أم مازال على عهده!.

ضحكت قائلة :

- مازال على عهده لا تقلق!.. وأردفت :

- عندما أعود إن شاء الله، أريد أن يكون المكان جنة معداً لاستقبالي، فقد يأتِ ضيفٌ معي، ماذا سيقول؟

ابتسم معقباً :- سأفعل لأجل الضيف فقط! فليشرفنا في أي وقت!!

وأنهيا حوارهما على أمل!

****

دخل أحمد للمنزل الذي يعرفه ويحفظ وجهته فيه، مازال كما هو لم يتغير به شيئاً، تجاوز الردهة لغرفة والديه حيث توقع وجود أمه، واتجه لفراشها مباشرة غير منتبهٍ للرجل القريب من الباب والذي تعلقت عيناه به بلهفةٍ قاتلة. هرول نحو أمه وخر جسده جوارها جالساً يتحسس جهها ويلثم يديها ورأسها.

حينها كان مالك ساهم في إفاقتها بشكلٍ كبير ولكنها لم تردْ أن يعيَ عقلها لما يحدث؛ خافت أن تستيقظ من حلمٍ جميلٍ عاشته وأملٍ جذاب ناداها! ولكنها لما اشتمت رائحته لم تخطئها، هو ابنها

تعرفه! فتحت عينيها ببطءٍ ليهيم في بحرها الأزرق، وتبتسم عيناه بخجلٍ نادماً على ما فعل فيها. أغرقه حنانها الذي عانى جفافه لسنوات، وأغرقتها دموعه التي سالت كنهرٍ فاض ماؤه، فتحت ذراعيها تضمه باشتياق، تضم الحلم الذي لابد وأن تستيقظ منه يائسة! يلثمها وتشمه، يضمها وتحنو عليه، عانى هجر ضمتها لسنواتٍ، ولسنواتٍ غيرها قبل رحيله. هي الوحيدة التي لم يودعها، هي الوحيدة التي لم يحفظ صورتها في ذاكرته قبل أن يرحل، لم يضمها إليه، لم يتشاجر معها حتى كما فعل مع أبيه؛ ظناً منه أنها غير مهتمة بذلك، ولن يضيرها رحيله!!

عم الصمت المكان ولم يسمع سوى صوت اشتياقهما، حتى أشفقت بنان على عمر المتلهف لابنه فهتفت بمرح قائلة :

- سيدة سارة !! هلا تركتِ ابنكِ لعجوزكِ قليلاً!!

أليس بحلمٍ ستصحو منه؟ أم أن الحلم يطول لتستيقظ أكثر ألماً. فكت أسر ابنها، لتتابعه عيناها وهو يمسح وجهه بكفيه، ويلتفت في أرجاء الغرفة يبحث عن أبيه، فيريحه مالك من تيهه ويرشده إليه. كل ما جاء في ذاكرته هو ذلك الشجار الأخير بينهما، ورؤيته لأبيه ظالماً متجبراً، لم يتحرك من مكانه بسرعة كما فعل مع أمه، خانته قدماه، وتسارعت أنفاسه بخوفٍ كطفلٍ مذنب، لم يحركه سوى رؤيته لأبيه يتحرك نحوه، فأسرع إليه مستجيباً للهفة عينيه بضمه، لم يجد في لسانه شئ سوى الاعتذار عما بدر منه، وكأن السنوات لم تمر، وكأنه نهر أبيه أمس، فاعتذر منه اليوم، وكأنه أحمد ابن الثمانية وعشرين عاماً، يفتح للدنيا ذراعيه ينتظر فرحةً تأتيه، ليس ابن اليوم الرجل الذي تجاوز الخامس والثلاثين من عمره.

تعلقت الأنظار بهما، ياسين لدى الباب يحتضن كف رحيق التي تبكي بصمتٍ، ومالك يجلس جوار أمه يسندها، وبنان تبتسم لما ترى، وتحمد الله أن الأمر انتهى هكذا دون خسائر!!

بالنسبة لمالك، فلقد بدأت الخسائر، أمه بالطبع لن تطيق ابتعاد أحمد عنها وكذلك أبوه، وبالتالي لن يتركَ بنان هنا وحيدة، وعندما عرض الأمر عليها ألقت باقتراحها الوحيد بالعودة لسكنها، وهو أدلى باقتراحه الوحيد بالزواج!!رغم أن أحمد أنقذهما، واقترح الإقامة مع مالك، إلا أن بنان رفضت بشدة، فهي رافضة لابتعاد مالك عن والديه، ستبعد مالك وأحمد!!!

حتى استقر الأمر في النهاية على إقامة مالك وأحمد في غرفة بالطابق الأرضي تاركين الطابق العلوي كله لبنان!! كانت مفاجأة لأحمد عندما رأى غرفته كما هي، لم يمسها شخص، حافظ عليها مالك كما هي، مازالت بروحها التي تركها بها، عبقها وخصوصيتها، سوى من استعارة مالك لبعض أشياءه، واحتفاظ رحيق ببعضٍ آخر!

عندما استقر بهم الحال في المنزل، كان جالساً في برد الحديقة مع مالك كما كان يفعل وحيداً قبل رحيله، وقد نام أبواهما الآن. بعد مداومة أحمد على العمل في شركة أبيه، حل الصمت على حياته مجدداً، لم يعد يتحدث مع أحد، تكفيه كلمات قليلة يجيب بها على أي سؤال، وإن لم يوجه إليه حديث فلا يتحدث، الأمر كان طبيعي بالنسبة إليه وغير مفتعل، ولكنه جعل من والديه مصدقين لحكاية فقدان الذاكرة!

هل فقد معنى الحياة؟ هل انتهت الدنيا بالنسبة إليه؟ لا تلازمه سوى عادته في مراقبة السماء في الليالي القمرية، يحظى باهتمام طبيعي من أمه وأبيه ولكنه عاجزٌ عن التجاوبِ معهما، عاجزٌ عن إظهار مشاعره الودودة لهما. يرافق ياسين في العمل عله يستعيد نشاطه فيه وشغفه به، ومع محاولات ياسين لتكوين صداقة معه إلا أن استجابته للأمر ضعيفة، يود أن يعتذر له، فهو بالفعل عاجز عن الحياة بينهم كأنهم عائلته كما كان!!

وها هو الآن جالس مع مالك يحاول التحدث معه ، وكم هي صعبة المحاولة، لا يفعلها سوى مع مالك فقط! وبينما هما كذلك أقبلت بنان، لمحها مالك فابتسم، تقدمت نحو الطاولة التي يلتفان حولها وقالت :

- هل يمكنني الجلوس؟

أومأ أحمد موافقاً، ورد مالك قائلاً :

- ولمَ لا أيتها القصيرة، اجلسي أوجعي رأسينا بثرثرتكِ!

رمقته بنظرة غاضبة لمحها أخوه، وابتلعت ألمها وهي تتحدث إلى أحمد متجاهلة إياه، تنحنحت ثم قالت :

- أنا جئت لأعتذر إليكَ!!

استنكر أحمد اعتذارها، فأكملت :

- عندما كنتَ ميتاً.. أقصد..

ابتسم أحمد لتتجاوز حرجها فأكملت :

- لقد دخلت غرفتكَ وقرأت مذكراتكَ، أنا آسفة بشدة، ولكن مالك وضع عليها حراسة مشددة جلبت فضولي لأدخل المكان، خاصة أردت أن أكتشف العالم الذي منه الرجل الذي غير مالك وديانا وأثر في رحيق هكذا! وكانت تلك الآية التي تضعها على باب غرفتكَ تجعلني أفر هاربة من أمامها بسرعة خائفة..كنت كاتباً **" وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى "**.. أحياناً أخرى كنت أبقى واقفة أتأملها، حتى قررت الاقتحام..

قاطعهما مالك :

- بالطبع معتادة على اقتحام غرف الرجال..

الإهانة الثانية في جلسة واحدة وأمام أخيه، ابتلعت غصتها للمرة الثانية وهي تكمل حديثها لأحمد الذي غضب بالفعل من مالك، وآثر السكوت لحين تغادرهما، وأكملت هي :

- عرفت مشاعركَ تجاه ديانا!!

فتغيرت ملامحه للارتباك من أمره الذي أصبح مفضوحاً وقد كان لا يعرفه سواه ورحيق وعمار، وأكملت هي:

- كنت سأقع في خطأٍ كبير، وأخبرها بذلك!!

- ماذا؟.. نطق بها أحمد مصعوقاً، فاستدركت:

- لم أفعل، لأنني أدركتُ شيئين؛ الأول: أنها لا تعرف بمشاعركَ أصلاً، والثاني: أن مشاعركَ نحوها أنتَ أجدتَ وصفها تماماً وقليلون هم من يفهمون مشاعرهم..

أنتَ بالفعل لم تحبها ذلك الحب الذي يجعلك تسعى إلى الزواج بها، ولذلك كنت تؤجل الأمر دون مبرر. أنت كما قلت أعجبت بتفكيرها، بشخصيتها القوية ،وتعاطفت معها بسبب الأحداث التي مرت بها حينها، وكنت تجاري رحيق في حديثها عن الأمر، لئلا تصدمها، وكذلك عمار حديثه معكَ عنها كان يشعركَ أنها الفتاة التي تبحث عنها، ولكنكَ في لحظةٍ ما اكتشفت أن مشاعركَ نحوها ما هي إلا أخوة صادقة لتعلق رحيق الأقرب إليكَ بها! وأيضاً لم تخبر عمار أو رحيق بهذا الشئ!

ابتسم أحمد، وأسدل ناظريه، إنها المرة الأولى التي يحدثه شخص ما عن مشاعره هكذا ويفسرها له بهذه الطريقة، ديانا لم تكن سوى امرأة سعى لتحويلها لتلك التي يريدها، لم تكن هي، لم يحبها على حالها، رغم أنه كان يدافع في كل مرة أمام عمار هاتفاً بأنه أحبها منذ النظرة الأولى. الحب أن تعشق مساوئ الآخر قبل عيوبه وهو مع ديانا لم يفعل.

تأثر بالفعل من كل شئ، تأثر من غيابه الذي قضم من عمره الكثير، ولكن ديانا لم تكن في أولوياته. عندما عاد فكر في عائلته فقط، ذكره بها مالك، فأشعلت مشاعر كثيرة داخله، حينها لم يعرف تفسيرها سوى بأنه فقد أحد أحلامه، تأثير زواجها عليه كان تأثير لحظي بالفعل، شغله أكثر حالة رحيق، وتأثرها مسبقاً بخبر موته!

بينما ظهر الانزعاج جلياً على مالك، وعقد ذراعيه أمام صدره حانقاً، وهو يرى زوجته تتحدث مع أحمد بتلك البساطة، والأخير الذي يعجز عن أي انفعال يبتسم، وطور غيرته تلك بحديثه قائلاً :

- أصبحتَ محللاً سياسياً سيد بنان!

قصد أن يحدثها بصيغة المذكر ناهياً لذلك النقاش الذي لم تبدأه بنان مع أحمد بعد، فلم تتحمل لأكثر من ذلك إهاناته ففارقتهما! بمجرد ابتعادها عن مرمى أبصارهما، انتفض أحمد وانقض عليه يمسكه من مجمع قميصه قائلاً :

- ماذا فعلتَ أيها الغبي؟ أي شئ تقوله لها لا يكون أمامي، أتفهم؟! كيف تتلفظ بتلك الأشياء؟ معتادة على غرف الرجال، وثرثارة، ورجل أيضاً، ماذا تبقى لم تهينها به؟ أنا صابرٌ على لسانك السليط مذ عدتُ علكَ تنضج وتتأدب، ولكن يبدو أن لا فائدة منكَ!

أزاح مالك يده ببطء، هو بالفعل لا فائدة منه، مذ رأى دمعها وهي تهرب من أمامه وهو فاقدٌ لصوابه، في كل مرة يعتذر متعللاً أنه لا يقصد، ولكن هذه المرة فعلها عمداً. ابتعد أحمد وجلس كما كان ثم قال :

- اذهب إليها، أم أنكَ ستتركها هكذا تنام الليل باكية بسببك؟

تحرك مالك نحوها وتنهد أحمد ليخرج ما بقي فيه من غضب، لم يتغير مالك، هكذا كان يفعل مع رحيق، وهكذا كان يثور عليه. تنهد وهو ينظر للسماء يبحث بها عن وجهٍ يعرفه، لماذا عاد إليهم؟ كانت حياتهم تسير بشكلٍ أفضل، ما جلب لوالديه سوى الهم!

لِحَظِّهَا العَثِر وجدت بنان أن الباب قد أغلقَ ولم تستطع الدخول، كتمت شهقاتها التي لم تنتهي منذ عرفته، وهي تبحث عن طريقةٍ تدخل بها فما وجدت. ابتعدت لأقصى ركنٍ في الحديقة لا يراها فيه، ورغم أنها ستتجمد من شدة البرودة إلا أنها ما اهتمت! أراحت ظهرها للحائط وأخذت تبكي بشدة، ظنته يوماً سينسى ولكنه لا يفعل، وظنته يوماً سيحبها وقد فقدت الأمل، ألا يستطيع أن يحترمها أمام أخيه فقط؟!

ولما أتبع خطاها ووجد الباب مغلقاً، عاد حيث كان جالساً مع أحمد ينظر إلى شرفتها فرأى الغرفة مظلمة، حاول الاتصال بها لم تجِب، لن يفكر في أمر الصعود لغرفتها وإلا لأفسد قوانين إقامتها هنا، وتركت المنزل بلا رجعة. عجز عن التصرف الصحيح، فعاد إلى باب المنزل مرة أخرى محاولاً، ثم للباب الخلفي لسوء حظه وجده مغلقاً. هل هي في المنزل بالفعل أم لم تدخله؟ جالت عيناه في مجال بصره فلم يجدها، بحث عنها في أنحاء الحديقة، حتى وجدها تتلمس الدفء من ذراعيها، وتبكي بشدة، للوهلة الأولى كان سيثور عليها، ولكنه تذكر إفساده للأمر كله.

ذهب نحوها ثم سحب يدها ين يديه يبث فيهما دفئاً وهو يقول :- لنتحرك من هنا!

سحبت يديها بعنفٍ وأخفت وجهها فيهما، وشهقاتها تمنعها من سيل الشتائم التي حضرتها له، ولكنه سحبها عنوة، حتى جلسا في مكانٍ ظن أنه أكثر دفئاً. وضع يديها بين يديه، ومنعها من سحبهما، وأكثر الاعتذرات التي أثقلت الأمر على نفسها، برر موقفه أنه مزاح كالعادة مرة، وأنه ما قصد مرة أخرى، وكل حديثه يثير انزعاجها منه أكثر، يثير نفورها ! تحدثت حين تمالكت نفسها بعض الشئ وقالت :

- افتح لي الباب!

حاول أن يتحدث ثانية، منعته وهي تصر على طلبها مهددة :

- ستدخلني أم أذهب لمكانٍ آخر أعيش فيه؟

عاد إلى أحمد يسأله عن مفتاحٍ للباب، فأعطاه الخاص به، فتح لها فصعدت بسرعة تاركة إياه يأكل الندم قلبه. ومع أحمد جلس مرة أخرى واجماً مهموماً، نظر له أخوه ثم قال :

- تحدث!!

وكأنه انتظرها فباح بما يحمل، بكل شئ، مذ رأى بنان في المرة الأولى، كل مشاعره التي تبعثرت، كل الألم الذي سببه لها، قص له طريقها حتى أسلمت وبعدُ ما فعلت، خطاباتهما التي يداومان عليها إلى الآن، مزاحه السخيف الدائم معها وتحملها له، اعتذاراته التي لا تنتهي،

ودموعها التي لا تنضب.. وبتلقائية عبر عن مشاعره نحوها، كيف يعشق رؤية ابتسامتها، كيف يحب رؤية وجهها الغاضب، كيف يتعلق ناظريه بها وهو ينعتها بقصر قامتها، كيف تبحث عيناه عن أي شئ يفاجئها به حتى يرى بريق عينيها عندما تفرح!! حكى عن مدى ضيقه من نفسه الآن وهو يعلم أنها تبكي بسببه!..

أنهى حديثه بتنهيدة قوية تبعتها زفرة ضيق، ونظر بعيداً عن وجه أخيه، نظر تجاه شرفتها..

ابتسم أحمد وهو يسمعه حتى اتسعت تلك الابتسامة عند وصوله للنهاية، فوقف وربت على كتفه قائلاً :

- أنتَ تعشقها يا فتى!! لا تترك الأمر معلقاً هكذا، أخبرها بمشاعركَ لئلا تندم بعد فوات الأوان!!

ورحل، عندما أفاق مالك من أثر حديثه كان أخوه قد ابتعد، فصاح :

- إلى أين؟

لوح له أحمد وهو يرد على صيحته بأخرى :

- سأراكَ غداً في العمل إن شاء الله!

ألا يعرف أن أخاه كائنٌ ليلي، وأن هذا الحديث الطويل الذي قاله واستمعه أثقل على نفسه التي اعتادت السكوت، سيذهب إلى مكانٍ يبحث فيه عن هدوءٍ ينظر إلى القمر بلا إزعاج. يعرف أن احتفالات عيد الميلاد قائمة، ومن الصعب أن يجد مكاناً قريباً هادئاً، أو قد يكون من السهل وهو لطول بعده لا يعرف!

سار طويلاً، حتى وقع بصره على مكانٍ مغطى بالثلوج، اقترب منه وجلس رافعاً بصره للسماء مراقباً كما اعتاد!

****

عندما استعادت هدوءها، وانتهت عاصفة البكاء التي أصابتها، جلست تكتب، لملمت أوراقها وأمسكت قلمها، ثم لم تكتب. حاولت فلم تستطع، قبضت يديها وبسطتهما، ثم تمتمت :

- سامحكَ الله يا مالك!

قطع نقاشها الذي انتوته مع أحمد، وهي التي انتظرت وجوده معه لئلا تذهب إليه وحيدة، وعرضت بفهمه لمشاعره حتى يفهم هو الآخر مشاعره، ذلك المتهور!! ستخاصمه شهراً ولن تقبل اعتذاره بسهولة، ذلك الوغد الذي أحبته ستكرهه غداً، ولن تتأثر بأي شئ منه. عقدت عزمها وبدأت تكتب، وهي تعرف أن معظم ما تريد قوله ستنساه بسببه.

{ الصبر..

عندما ذكر في قصة النبي يوسف وأبيه يعقوب، ذكر مرتين لم أفطن لمعنيهما، ولا إلى الفارق بينهما..

في المرة الأولى قال الله عنه ..

((وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ))

هذه المرة الأولى .. ورغم ما قال أنه صبر جميل ، إلا أنه مرت سنوات قبل أن يرد إليه ابنه، واشتد الأمر به حتى أنه فقد بصره .. شعرتُ هنا بتناقض في الأمر ، لأن الله بشرنا بعاقبة الصبر .. حين قال للنبي محمد **((وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ))** .. هذا يعني أن في الصبر راحة وفرج... فكيف يصبر النبي يعقوب ويشتد به الكرب رغم أن ابنه حي لم يمت...

فهمت الأمر في صبره الثاني .. حين قال الله عنه ..

((قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)) ..

هنا صبر وهو على يقين بفرج الله، صبر وهو يسلم الأمر كله لربه، واثق في تدبيره.. أما في المرة الأولى لم يكن صبراً بل كان شعور بالقهر من فعل أبناءه ، شعور بضياع ابنه واستحالة عودته، شعور بالضياع التام ، وأخذ يبكي سنين حتى ابيضت عيناه.. لكنه لما صبر بحق .. جاءه الفرج..

كذلك النبي أيوب .. ولكن الفارق هنا أن النبي أيوب صبر لأعوامٍ كثيرة على ابتلاءه ليثبت لنفسه أنه عبدٌ مخلصٌ لله في جميع أحواله، عند الصحة والمرض، العجز والقدرة، الغنى والفقر، ولما اشتد به المرض دعا ربه ..**((وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ ...))** فأجيبَ له بالفرج .. ولكنه لم يشعر بالقهر كما شعر سيدنا يعقوب، لأنه ارتضى الصبر طريقاً!!!

لا أعرف إن كان تفكيري صحيحاً أم خاطئاً، وقد انتويتُ أن أناقش فيه أحمد، لأنه تعرض لتجربةٍ كتلك، لكن سامحكَ الله يا مالك أنتَ السبب. يوماً ما سأعرضها عليه، أو قد أعرضها على ياسين أو محمد، لن أعرض عليكَ أنتَ شيئاً آخر.. لتذهب إلى الجحيمِ وحدكَ ..

لن أكتب في النهاية إلى مالك، أنتَ لا تستحق أن أوجه حديثي إليكَ، فأنا لم أعد أحبكَ بكل بساطة ...

****

أُدخل النور إلى عينيه، ليفاجأ بوجهٍ أمامه لا يعرفه، يتحدث ولا يفقه حديثه، أغمض عينيه مرة أخرى يستوعب ماحدث..

تذكر بعد دقائق حد السكين الذي شعر به ملاصقاً لرقبته، تذكر استسلامه للأمر في غير وعيه، انتفاضة صدرت منه جعلت مهاجمه يضربه في ذراعه فيجرحه، ولانشغاله بالألم كان قد سرق منه كل شئ، هاتفه وحافظة نقوده، ثم ضربه في رأسه ليقع فاقداً للوعي على الثلج المحيط به!

٣٢

شفاء وتوبة

بعدما سار أحمد إلى جوار مالك خارجين من المشفى وثالثتهما بنان قال :

- كيف عرفت أنني هنا؟

ابتسم مالك مجيباً :

- لدي أخت يصدق حدسها، اتصلت بي فجراً لتسأل عنكَ، وكذلك أمك أمرتني بأن أخرج للبحث عنك؟ تصرفت كأنني أبحث عن تائهٍ وسألت في قسم شرطة الحي، ثم في المستشفى، والحمد لله أنكَ كنت في مشفى قريب!

أومأ أحمد متفهماً، بينما هو مشغولٌ بألم ذراعه، لم ينتبه لوجود بنان، ولما رآها همس إلى مالك :- هل تراضيتما؟

ظهر العبوس على وجه مالك وهو يغمغم :

- ليس بعد، لقد قلقت أمي بشدة، فأرادت أن تطمئنها لذلك خرجت معي..

أومأ أحمد وهو يقول لبنان :

- لم يكن من الضروري أن تخرجي الآن، كان يكفي هذا الطويل ليأتي!

ابتسمت بنان قائلة :- لا بأس! الحمد لله أنكَ بخير!

نظر أحمد للسماء ليجد نور الصباح أشرق فبدد ظلمة الليل، ثم شعر بحركة أخيه الغريبة جواره، نظر إليه فوجد علامات الغضب مرتسمة على وجهه، ابتسم وهو يثير غضبه أكثر قائلاً :- أعتقد أنني لا أستطيع الذهاب لعملي اليوم يا بنان، لم نكمل حديثنا البارحة، إن لم يكن لديكِ شئ نستطيع إكماله!

رد مالك بسرعة :- سنذهب للجامعة، لدينا يومٌ طويل!

لم تعبأ بنان له وهي تبتسم مجيبة :

- من المؤكد أننا سنكمل في وقتٍ لاحق، ولا أعتقد أن العمة سارة ستتركك اليوم في حالتكَ هذه، اعتني بنفسكَ جيداً لأجلها، كاد يقتلها القلق!!

أومأ منشغلاً بحالة أمه، ثم انتبه مرة أخرى لحركة أخيه الغريبة، نظر إليه ثم كتم ضحكته، يقبض ويبسط في يديه كأنه يريد ضرب أحدهما، لتتحمل إذاً يا مالك، سيثير غيرتكَ حتى تنفجر!! لولا أنه بالفعل يكره طول الحديث لتحدث إلى بنان أكثر، ولكن أمر الحوار يرهقه، لذلك سكت! سيحدثها في وجوده في يومٍ آخر، حتى يقتل أخاه الأحمق ويعرف قيمتها!

وفي المنزل، أقبلت عليه سارة بلهفة تحولت لخوف وهي ترى رباط رأسه وذراعه، طمأنها بابتسامة وقبل رأسها هادئاً ثم جلس إلى جوارها، وهربت بنان إلى غرفتها، وكذلك فعل مالك حتى خروجهما كلٌ إلى عمله.

****

- براون لا تحدثني الآن لو سمحت !!

قالها آدم غاضباً من نفسه ناقماً عليها، ما الذي دفعه لأن يأتي معهم؟ ماالذي رماه على ذلك؟ يتذكر وعده لها بألا يعود لحياته السابقة وهو غارق فيها الآن، فيشعر بالخجل والعري أمام نفسه.

بينما تتعذب هي وتقاوم حتى تتخلص من داء تملكها، يفعل هو تلك الأشياء بلا مراعاة لعهدٍ أو لوعدٍ قطعه على نفسه. وقف عانفاً ليتخلص من آثار ما اقترف، نظر للمكان الخالي حوله وقد كان يعج منذ قليلٍ بأصدقائه من الرجال والنساء في احتفالٍ ماجن من احتفالاتهم تلك. ماذا سيفيده الندم الآن؟ لن يفيده في شئ.

ترك المكان وخرج مولياً عازماً بألا يعود وكم من مرة عزم وعاد!! شوقه إليها يقتله، ولا تكفيه تلك الجلسة التي يتحدث إليها فيها، شوقه تجاوز النظر والحديث. امتنع عنها ولكي ينسى ما يلم بهِ ذهب مع أصدقائه في رحلة عواقبها فاسدة، تراجع عن عهوده ووعوده، وأقسم بألا يفعل وفعل. ها هو يعيد حياته المزرية بين النساء والخمر، ضارباً بكل شعاراته عرض الحائط، وبعدها لم يستطع أن يواجهها، شعر أنها ستنظر إلى عينيه فتكشفه، أو يتوسل إليها بنظراتٍ تفضحه، وتعريه أمامها.

لم يكن له يوماً صاحب يعينه ويشده إلى الخير، كانت هي الطريق الوحيد لصلاحه، وهاهو ابتعد عنها، أخذته قدماه نحو سكنها القديم، وقف أمامه يتذكر ما كان يفعل لأجل الظفر بها، ليت الأيام تعود كما كانت، يراقبها ولا يقترب منها، يسعى خلفها ولا ينالها، لم يجنِ سوى الألم.

تحرك في الطرقات بغير هدى أو دليل، هو فقد نفسه الليلة، فقد نفسه تماماً. وصل إلى بيت والديه الذي هجره منذ مدة، واتجه إلى غرفته مباشرة، كانت أمامه تلك الخطابات التي كتبتها له، توقف عندها للحظات قبل أن يدفن نفسه في فراشه يغط في نومٍ يتمنى ألا يصحو منه أبداً!!

****

مر شهرين، في أولهما عادت ميرا، ومعها عائلتها التي قررت سلفاً قبل موت أبيها الاستقرار في لوس أنجلوس جوارها، الأمر الذي سبب لها السعادة والألم مناصفين؛ فأخيراً سيهدأ شوقها لعائلتها، وأبوها كان يفكر فيها وهي لم تفعل!!

ولما كانت طالبة من محمد أن يبحث لهم عن مسكن قريب يجمعهم، واستعان بياسين في الأمر، كان استقرارهم حين أتوا أسهل. اعتقد زوجها أن المفاجأة التي أخبرته بها حضور عائلتها، لكنه لم يتوقع أبداً أن تسلم أمها، ومشكلتها أنها لم تستطع أن تكمل الطريق معها دون مرافقته، هكذا دائماً يفعلان؛ ينتصفان الأجر!!

وفي بداية الشهر الثاني، كان ياسين قد فاجأ زوجته برحلة عمرة تاركين ابنيهما مع والديها. قرر أن يسعدها بشئ بسيط فتيسر له هذا الأمر، لم يكن يعلم أنه سيسبب لها كل تلك الفرحة، ولم يكن يعلم أنها عدوى ستنتقل إليه. كفاه ظلماً لها، وكفاه تكبراً عليها، لكم يعشق ابتسامتها واطمئنانها. عادا بعد أسبوعين، تغير فيهما الكثير، وشعرت أخيراً بأمانها فيه ومنه، شعرت بأنه سبب سعادتها وسكنها؛ هي منه وهو منها!!

ومر آخر أسبوعين في هذه المدة بتناغم دقات قلبين، بين لهفة وخوف، تطلع وألم، حنين وعتاب، لم يستطع آدم مواجهتها إلى الآن، ولم يذهب إليها، عكف على تغيير نفسه، والتخلص من آثار العفن الذي يعيش فيه .

وهي لما يئستْ من مجيئه كتبت له خطاباتٍ أخرى، عادة عرفتها من بنان فأرسلت تلك الخطابات على بريدها وطلبت منها أن تطبعهم على ورقٍ تسلمه لآدم، وفعلت بنان. لم تعرف أثر كلماتها على نفسه، أو مدى حاجته إليها، أَشَعرت ببؤسه وضنكه؟ أَشَعرت بيأسه وألمه؟ لو تعلم كم هونت عليه خطاباتها لأرسلت منها المزيد !!

وجاءت اللحظة التي ستغادر فيها، بعد أيامٍ من الأرق والقلق، أعدت حقيبتها التي سبقتها هنا يوم جاءت، وهي تتوقع مجيئه إليها بين لحظة وأخرى ولكنه ما فعل! هل هانت عليه لشهرين ونصف؟ هل تحمل بعدها عنه طوال هذه المدة؟ أنسيها أم سئم أمرها؟ جلست على فراشها تنظر للفراغ، وقد حان موعد خروجها، ولا تعرف ما الذي يبقيها؟ قد يكون أمل كذاب بظهوره؟ وقد يكون فرصة له عله يأتي بعذرٍ إليها تقبله؟.. سمحت لطارقِ الباب بالدخول وقد تطلعت عيناها ثم خابت رجاءاتها وهي تنظر لإيلين طبيبتها.

أقبلت عليها إيلين باسمة، ثم جلست جوارها سائلة :- ستغادرين؟

أومأت ديانا بإيجاب، فاسترسلت إيلين واجمة :

- سأشتاق إليكِ، لم أفعل ذلك مع شخصٍ قبلكِ، عادة يأتي إلينا أناس ويغادرون دون أن يتركوا في نفسي ذلك الأثر الذي تركتيه!

ابتسمت ديانا قائلة :

- أنا أيضاً سأشتاق إليكِ، لقد جمعتنا أحاديثٌ طويلة.. ثم أكملت مازحة :

- تعلمين أنني شخصٌ مؤثر أيضاً!

ابتسمت إيلين ثم قالت :

- سأنتظر مشاهدة برنامج خاص بكِ، تكونين راضية عن فكرته بالكامل، ليس لأجل شخصٍ ما.

هزت ديانا رأسها موافقة، وأكملت إيلين :

- لا تتركي شغفكِ بالكاميرا، سأحتفظ بالصور التي التقطتِها لي كأجمل صورٍ لي على الإطلاق!

ثم وهي تعطيها الشئ المغلف اللامع الذي تحمله قالت :

- واقبلي هذه الهدية مني! لتبقى ذكرى بيننا! إنها كاميرا، التقطي بها أسعد اللحظات في حياتكِ!

ابتسمت ديانا بامتنان وقالت :- أشكركِ إيلين، أشكركِ بشدة على كل شئ!

ردت إيلين بهدوء :- لا تشكريني أنا ، اشكري الله أن وفقكِ لما أنتِ فيه الآن!

اتسعت ابتسامة ديانا وهي تسمع قولها من شخصٍ آخر، بينما أردفت إيلين :

- أكملي حياتكِ كما تشاءين ولا تخافي من أي شئ، لا تخافي من الشهرة، وأكملي طريقكِ في التنس، أنا الآن أستطيع اللعب مع زوجي دون خسارة فقد دربتني محترفة مثلك!

ضحكت ديانا برقة وقالت :- ليس بتلك الدرجة !

- بل أكثر!!.. اعتني بنفسكِ جيداً، واعرفي قيمة نفسكِ، سنكون على اتصال دائم؟؟

- إن شاء الله!!

ابتسمت إيلين وعانقتها ديانا مودعة، لحظات الفراق دائماً مؤلمة، رغم توقعنا السابق واستعدادنا لها، إلا أن لحظتها تطبع فينا وجعاً!!

أمسكت إيلين يدها وخرجتا معاً، وديانا تجر حقيبتها خلفها، وعند اقترابهما من الحديقة قالت ديانا :- ألم تخبري آدم بموعد خروجي؟؟

تنهدت إيلين ثم نظرت إليها بيأس وقالت :

- لقد أخبرته، وقال أنه سيأتي!! قد يكون منعه شئ خارج عن إرادته!

زمت ديانا شفتيها وأكملا سيرهما معاً، طالما قال أنه سيأتي إذاً سيأتي، هي واثقة من ذلك!! قطع تفكيرها ما رأت، ابتسمت وهي ترى الاحتفال المعد لها، نظرت لإيلين بامتنان كبير، وردت إيلين نظرتها بحب. أعادت نظرها للحديقة المزينة، لزملائها الذين يصفقون لها، لمارك الواقف وحيداً ينظر إليها بحزن، للأطباء المتواجدين، والممرضات، والعاملين. أشرقت ابتسامتها وأضاء وجهها، أقبل عليها مارك بآخر باقة وردٍ سيجمعها من الحديقة لأجلها، ابتسمت له قائلة :

- تعرف عنواني وأرقام هاتفي!! سأنتظر زيارتكَ لنكمل أحاديثنا!!

هز رأسه مستاءاً من رحيلها ثم قال :

- وأنتِ تعرفين مكاني هنا!!.. ثم أشار للكوخ الذي يعيش فيه، ابتسمت وهي تنظر إلى موضع يده على خصره بعطفٍ قائلة :

- تخلى عن الكحول قليلاً أرجوك إنه يؤذي كَبِدَكَ!

زم شفتيه قائلاً :

- سأحاول!!.. ثم أشار بيده في اتجاهات متفرقة وقال :

- وهذا الرجل، زوجكِ! ألم يأتِ بعدُ؟

تبسمت وأشارت برأسها أن لا، فانزعج وتركها مبتعداً، فتحسرت!!

مر الوقت تستمتع بوداعهم الراقي لها، تشكرهم على الفرحة التي أهدوها لها، ثم رحلت. رحلت وعيونٌ تتابعها بعطفٍ واشتياق، عاملة النظافة المختصة بغرفتها، والتي دائماً ما منعتها ديانا عن التنظيف فاعلةٌ الأمر بنفسها، الممرضة التي رافقتها في أشد لحظات حياتها صعوبة، طبيبتها التي نشأت بينهما صداقة، موظفة الاستقبال التي كانت تلقي عليها التحية كل يوم، قاطنات الغرف المجاورة لها، والممرضات، ومارك!!

تجاوزت الحديقة لخارجها حيث الحرية أخيراً، لم يظهر طيفه بعد، هل هي وحيدة لهذه الدرجة؟ لماذا لم يخبر حتى بنان وصديقتيها يأتين إليها، هي لا تتحرج من أن تخبرهن.

كان قائماً بمنأى منها، يراقب نظراتها التي تتطلع إليه، سيقتله شوقه إليها لامحالة، ولكنه ليس أهلاً لها. اقترب منها ببطء ينافي سرعة دقات قلبه. التمعت عيناها برؤيته ككل مرة، الغريب أن هذه المرة كانت تحوي دمعات محبوسة، أسرع نحوها حتى وصل، وقف ناظراً إلى عينيها، محيطاً ذراعيها بيديه وقال بصوتٍ متهدج لاهث من فرط حنينه :

- اشتقتُ إليكِ!! أنا آسف.. سامحيني .. لم أبقَ على العهد الذي بيننا.. لم أستطع مواجهتكِ، لم أستطع أن أقترب منكِ..

وضعت أناملها على شفتيه تسكته وقد فهمت ما اكترث وقالت :

- هون على نفسك!!.. كيف حالكَ الآن؟

- الآن؟؟ .. قالها متشككاً فأكدت :- نعم الآن!!

- بخير، أنا الآن بخير.. صدقيني لم أعُدْ..

أسكتته مرة أخرى باسمة :

- وأنا أيضاً اشتقتُ إليكَ.. اشتقتُ إليكَ كثيراً.. لا تغيب مرة أخرى، لن أستطيع أن أبقى جواركَ وأنت بعيد!!

تنهد براحة أزالت كل همه، ثم ضمها بشدة إليه، أحاطت ظهره بيديها قائلة :

- لا تفعل شيئاً من أجل ديانا!! افعله لله فقط، حينها ستسير حياتك بشكل أفضل!!

- أحبكِ وأحبكِ وأحبكِ وأحبك!!

تمنت هذه المرة بصدق أن تكون توبته خالصة لأجل آدم، لا لأجل ديانا، أو أبناء ديانا!!

أخذ منها حقيبتها واتجه نحو سيارته، فتح لها الباب فجلست مندهشة، متى اشترى سيارة أخرى؟ وعندما التف ليجلس جوارها سألت :- لمَنْ هذه ؟

- لي لقد اشتريتها ، ما رأيكِ فيها؟

- رائعة، مباركة عليكَ!

شق طريقه معها، وقد احتضن كفها بيده معاهداً بأنها البداية!!

وصلا ليقابلها ترحيب والديه، وعرفت من نظراتهما أن آدم قصر في حقهما، لن يتغير بين يومٍ وليلة، ردت عليهما بنظراتٍ معتذرة، وكأنها تعدهما بأنه من اليوم أصبح لهما!

لم يطيلا عليها فقد دخلت غرفتها معه، لكم اشتاقت لوجودها هنا واحتماءها فيها، تاقت كثيراً لذلك المكان الذي احتواها في كل حالاتها، رغم أنها خافت من أن تنفر منه بسبب ما اقترفت فيه، ولكن زوجها فعل بها خيراً بسبب تغييره لترتيب الغرفة وألوانها، وكأنها غريبة عنها. زفرت براحة لذلك، فشد على يدها مطمئناً!!

لم يخبرها أنه في اليوم الثاني لوصولها أعد احتفالاً لها ليضم أصدقائهما، ورغم أنه ما أراد ذلك أبداً حتى لا يبعدها عنه شئ بعدما وجدها، إلا أن الأمر سيسعد قلبها، وبالفعل حدث!! رؤيتها لميرا ورحيق وبنان، وعائلاتهما، أشعرها أنها تنتمي إلى أفرادٍ كثيرين. فرحتهن بوجودها معهن كانت الأمر الذي أدهشها، لم تكن تعرف أنها قد تؤثر فيهما بهذه الصورة.

أحمد!! معرفتها بعودة أحمد هيجت مشاعرها لسنواتٍ خلت، وكأنها تشعر بذلك الضياع والتيه، تشعر باليد التي امتدت إليها تنقذها فعاندت وابتعدت، تشعر أنها ديانا الأمس، تلك الفتاة التي انحرفت أفكارها حتى تصل، وكسرت القوانين والتشاريع لأنها لا تريدها، تلك الفتاة التي هربت من الحق لأنه صفعها، تلك التي لجأت إليه فبدد حيرتها، وأرشدها للطريق. ذلك الذي أجرم في حق عائلته ورحيق، وما المشكلة؟ هي أيضاً أجرمت!

أصابتها رعشة، انتقلت لآدم الذي لم يترك يدها، فنظر إليها مستفهماً، فقالت :

- لم يتسنَّ لي شكره في الماضي، هلا أتيتَ معي!!

- تقصدين أحمد؟.. سألَ!

أومأت موافقة، هو يعرف كل شئ فعله معها أحمد، ولم يعرفان أن أحمد جاء اليوم ليثبت لأخته المشفقة عليه أنه لا يشعر نحو ديانا بشئ، وأنه ليس بمتحسرٍ ولا نادم!

تقدما منه حيث تجاوره رحيق، والتي تقلصت عضلات بطنها خوفاً على أخيها فسخر منها، وقفا أمامه وتعرف عليه آدم، ثم قالت ديانا :

- جئتُ فقط لأشكركَ، إذ لم يمهلنا الوقت لأفعل في الماضي!

رد بنفس الجملة التي ترددها والتي تعلمتها منه:

- الله هو الذي أراد لكِ ذلك وأعانكِ عليه، ليس أنا!

ابتسم آدم وهو يشد يدها إليه قائلاً :

- وأنا أيضاً، أشكركَ كثيراً! ليتني عرفتُها منذ زمن!

- بارك الله لكما! .. قالها أحمد ناظراً إليه، ثم انصرفا فنظرت إليه رحيق قائلة :

- أنت بخير؟ أحقاً ذلك؟

ضحكَ وهو يشير إلى ياسين قائلاً :

- اذهبي إلى زوجكِ هيا! لدي موعد الآن، سأغادر!

- ماذا؟ ستغادر وحيداً!

- يا إلهي! يا فتاتي الجميلة لستُ زوجكِ! فما المشكلة في أن أغادر وحيداً؟ لقد جئتُ كما رغبتِ، وتحدثتُ معها أيضاً، ماذا تريدينني أن أفعل حتى تصدقي أنني كنت مخطئاً في مشاعري؟!

التوت شفتيها عن غير رضا، وشعرت بثقلها عليه فقالت :

- أنا آسفة! لم أقصد أن أزعجكَ، أنا أيضاً سأغادر الآن! اعتني بنفسكَ جيداً!

والتفتت عنه فاصطدمت بياسين الذي نظر إلى عينيها ثم إلى أحمد قائلاً :

- ماذا فعلتَ بها يا أحمد؟

ابتسم أحمد وهو يشير لهما مغادراً، فنظر إليها ياسين وقال :

- لا تكترثي له، أخوكِ غريب الأطوار ويجب أن تعتادي الأمر! ابتسمي الآن!

- أخاف عليه!

- لا تقلقي!..

****

حينما أخبرها آدم أن في الحفل أصدقاءه وضح أنهم رجال فقط، ولم يعد له علاقة بالنساء، وصدقته، أو أظهرت له ذلك، فهي لم تشأ أن تجعله في خانة المذنب دائماً الذي لا توبة له!

ولكنها منذ اللحظة الأولى وهي ترَاهُنَّ في كل مكان، هذه وهذه وهذه تعرفهن جميعهن، زميلاتٌ له في العمل، وصديقات له في مكان اجتماعهم الليلي! تغاضت عن الأمر وقلبها يحترق، وهو لصدمته من وجودهن لم ينطق! لم يبرر! لم يقل شيئاً! حتى أنه عجز عن الاعتذار لها!

ولكن أن تأتي إحداهن لتعانقه كما اعتادت قبل، فهذا ما لم يحسب له حساباً، هو أخبرهن قبل أنه لن يفعل، وأكد على براون أن يخبرهن بذلك! رأتها ديانا فانشغلت بالحديث مع صديقاتها متغاضية، فقد كانت تخبرهن برحلتها وبأي مكانٍ كانت! لم تراه وهو يرفع يده معترضاً، ولم ترى الذراعين التي التفت حول عنقه، والتي أزالها خائفاً، لم ترى براون الذي اقترب منهما ينقذه. لن تتحمل رؤية ذلك، في المرة التي تليها جذبها إليه، وأبقى على وقوفها جواره، وعند مجئ الثانية دفع ديانا للأمام لتعانقها هي! كلتاهما كتمت غضبها منه إلا أن الغريبة ابتعدت عن

ديانا بازدراء وقد وصلتها رسالة آدم. وحتى لا تثير المشكلات ولفت الأنظار إليهما، ابتعدت ديانا عنه بهدوء لتجالس صديقاتها مرة أخرى كاتمة غضبها وألمها! كيف يعرضها لموقف كهذا؟ وانزوى هو في ركنٍ ينعي حظه البائس معها، ألن تطيب حياتهما يوماً؟

ورحل الناس عنهما، وبقيت معه، نظرت إليه معاتبة ثم دخلت غرفتهما. في أحد أركان الغرفة جلست وضمت ركبتيها إلى صدرها وأسندت رأسها عليهما، هو اختيارها، وعليها أن تكمل الطريق معه حتى النهاية، تحملها وصبر طويلاً حتى تقوى، جاء الدور عليها لتفعل، ولكن شعور الضيق من كم النساء حوله والغيرة لم يكن بيدها، مشاعرها طبيعية كأي امرأة مثلها!!

دخل وجلس مقابلها ثم قال بصوتٍ هادئ يوافق سكون الغرفة :

- لن يعتدْنَ على تحولي بهذه السرعة!!

سئ حتى في استخدام الأعذار، لم تجيبه فأكمل :

- أعرف أنني أسأت تقدير الموقف، لكن ستصدقينني إن قلت أنني لم أعد أذهب لتلك الأماكن التي تجمعني بهن، وأنني تركت العمل لنفس السبب، لأنني أردت أن أبدأ حياة جديدة معكِ في مكان جديد!

نظرت إلى عينيه، إلى صدقهما، ثم قالت :

- أنا أصدقكَ يا آدم! لكن لا تضعني في هذا الموقف مرة أخرى، لا تعرضني لذلك الحرج ثانية!

- أنا آسف!!

وقفت ومدت يدها له فسلم يده لها ووقف، فقالت :

- لنبدأ الآن !!

- ماذا سنفعل؟

- أولاً سنصلي العشاء، ثانياً سنبدأ عهداً جديداً، ثالثاً سنتناقش في أمر العمل!!

ابتسم قائلاً :

- لنبدأ إذاً!!

ومن هنا ستكون الخطوة الأولى، لن تتركه ولن تخذله!

****

هاهما يعيشان في بيتٍ واحد كالغريبين، منذ شهرين والحال لا يتغير، حديثهما الوحيد شجار حتى ولو أمام الجميع. يستفزها فقط حتى يجتلب الحديث منها، ولا ترد لتغضبه. وبات لهما اجتماع في كل ليلة مع والديه وأحمد، طوال الجلسة تتحدث فقط مع أحمد، إنها الشخص الأكثر استفادة من عودته، تختفي في غرفتها طوال اليوم تبحث في كل شئ، وتتدبر وتتأمل، ثم في

النهاية تجتمع بأحمد لتناقشه وتسأله، هو الآخر في تسع سنوات كان لا يفعل شيئاً سوى التأمل، كان يكمل ما بدأه في هذا الأمر. ثم أنها تحدثه في وجود أبوه والمدعو زوجها!

ولكن أحمد الهادئ كان يتعمد إثارة استفزاز أخيه، إذ يشعر بالغضب منه بالفعل أن يتركها هكذا لشهرين دون محاولاتٍ كافية لإصلاح ما أفسد. عرف أنه يغار فليشعل غيرته تلك، حاول أن يحركه ليتحدث معها ولكنه لا يفعل، فإن علق على الحديث الدائر علق عليها ساخراً، وهي لم تعد تبكِ منه ولا بسببه، فهو لم يعد يشكل لها شئ، مصيبتها أنها فكرت بجدية في أمر الانفصال، فها هي تجربتها معه فشلت.

أحمد الكائن الليلي، سيغادر المنزل هذه الليلة عند الثانية عشر كعادته، يجب أن تلحق به قبل أن يغادر، ولكن مازال الوقت باكراً، الساعة الآن الثامنة، وأحمد لم يأتِ من الخارج بعدُ. جلست مع سارة يتحدثان وثالثهما مالك لا ينطق، حتى جاء أحمد فتنفست الصعداء، يجب أن تخبره بما تريد الآن قبل رحيله. لاحظ مالك الراحة التي ارتسمت على ملامحها حين ظهر أحمد فاشتعل قلبه ألماً قبل أن تكون غيرة، فيمَ تفكر بنان؟ لم تمهله لتفكيرٍ أطول وهو توجه حديثها لأحمد قائلة:

- هل تسمح لي بالحديث معكَ وحدنا؟

عم التوتر في المكان، واختنق الجو، وارتبكَ أحمد، إذ لم يعرف كيف سيفسر أخوه الأخرق هذا الأمر، ولكن أنهت سارة هذه الحيرة قائلة :

- لتتحدثا في الحديقة يا أحمد!

خرج أحمد ولحقته بنان، تاركين فرداً يكاد يحترق في جلسته، سيدمر أي شئ أمامه الآن، فقالت سارة تنقذه :

- الأمر أبسط من كل تصوراتك، وأنت من أبعدتها عنك وجعلتها تلجأ لغيرك في شدتها! لا تندم الآن!

وقف أحمد ينتظر حديث بنان التي قالت مباشرة :

- أريد أن أنفصل عن مالك، لم أشأ أن أخبر العم عمر لأنه سيرفض ويحاول إقناعي بالاستمرار معه، والعمة سارة لن تعترض ولكنها ستحزن، فهلا ساعدتني لإنهاء الأمر بهدوء!!

صدم أحمد من حديثها وقال :

- رويدكِ!! ما الذي رماكِ إلى ذلك؟ تعرفين أن مالكَ هكذا مع الجميع، وأن العند الذي تمارسانه شئ مشترك بينكما، لا تعقدي الأمر بنان، أنتِ الوحيدة التي تستطيعين تحمله، وأنتِ الوحيدة التي تعطينه مشاعركِ بلا مقابل!

- أنا لا أحبه!!.. قالتها نافية تهمة عنها، فابتسم مكملاً :

- أنا لم أقل أنكِ تحبينه، ادخلي الآن، وفكري جيداً في الأمر، وإن كان هذا قراركِ النهائي بعد تفكير لن يجبركِ أحد على شئ!!

وجمت ملامحها وهي تطيعه وتدخل، ثم مرت من أمام مالك وسارة واتجهت لغرفتها كأن لم تراهما، دخل أحمد ونظر إلى مالك بغضب، أشار له بأن يلحقه للخارج، أتبعه حتى وصلا إلى جلستهما، التفت له أحمد ثم دفعه ليلقيه إلى أحد المقاعد ،ومال عليه يمسكه من مجمع قميصه وقال :

- هل تريدها زوجة لكَ؟ أم تنهي هذه المهزلة الآن وتطلقها؟

انتفض مالك بعد نوبة غضب تملكته واختفت في لحظة وقال :

- أطلق من؟

- أمتزوج من امرأة أخرى؟

اعتدل مالك، وابتعد عنه أخيه وهدأ، ثم سأل بعد توازن :

- أهي من طلبت ذلك؟

- أنا أسألك، ليس لي دخل بينكما، بالطبع لن تحدثني عن أمر يخصكما، أرادت أن تسألني عن شئ لصديقتها ولن تسألني أمامكما!!

ثم جلس ضائقاً من كذبه، بينما سكت مالك ولم يحرِ جواباً، فأكمل أحمد :

- ما جوابكَ؟ لشهرين دون اعتذار من سيادتكَ؟ هل هي جارية عندك؟ ألا تمثل لكَ أي شئ؟ هل أجبرك أحدهم على الزواج بها لمرة ثانية؟

أسكته مالك بانفعال :

- أحمد !! لقد اعتذرت بالفعل لأكثر من مرة، ماذا تريدني أن أفعل؟ هي لا تثق فيَّ ولا تثق في حديثي، ولا تريد مني أي شئ، ماذا أفعل أكثر من ذلك؟

- وكيف تثق بأنك لن تفعل ،وأنت كل يوم تفعل، كف عن مزاحكَ السخيف طالما هي لا تقبله، كف عن نعتها بأنها فتى، كف عن السخرية منها أمامنا، كف عن التظاهر بأن كل ما تفعله لأن شخصاً أملى عليكَ ذلك، أهي لا تستحق أن تفعل شيئاً لأجلها لأجل أنها بنان، ألا تستطيع أن تخبرها أن مشاعركَ لها وحدها ولن تستطيع امرأة أخرى أن تحل محلها في قلبكَ!!

تنهد مالك ثم رحل عنه، وتتبعته عينا أحمد حتى خرج، فاتجه هو إلى أمه، جلس معها متردداً حتى قال :

- أردتُ أن أخبركِ بشئ، لكن سامحيني قبل أن تعرفيه!

ابتسمت سارة وهي تشير للمكان المجاور لها قائلة :

- تعالَ يا أحمد!!

أطاعها، وقلبه يخفق من نتيجة فعله، فقالت :

- لقد شعرتُ أن الأمر مجرد كذبة لتخفون بها الحقيقة عني..

سقط قلبه من مصارحتها فأكملت :

- وأنا لا يهمني معرفة أين كنت، أو ماذا حدث؟ أنا أثق بكَ على كل حال، كل ما أردتُ معرفته، أنكَ كنت بخير في هذه الفترة، أريد أن يهدأ قلبي أنكَ كنت بخير فقط، لم يؤذكَ شئ !!

وأكملت بصوتٍ يئن :

- كنت بخير!! لم يصيبكَ أذى!!

انكب على يدها يلثمها وقال :

- كنتُ بخير، والله كنتُ بخير!!

مسحت على رأسه مبتسمة ثم قالت :

- لا داعي لأن تخبر أباكَ! الحمد لله أنكَ بيننا الآن!!

وعند انتصاف الليل خرج، لم يعد مالك، فقرر أن يتركه مع نفسه، وسار هو في طريقه إلى ذلك المكان الواسع، حيث مجلسه والقمر.

****

وقف تحت شرفتها وبعث برسالة هاتفية إليها، فنزلت إليه ولم يتوقع ذلك، نظرت إليه فوجدت وجهه كئيباً فنبض قلبها ووجم وجهها، قال بصوتٍ خاوٍ :

- هل تريدين الطلاق؟!!..

نظرت للأرض، فكرر سؤاله بنبرة أكثر خواءً :

- أجيبيني بنان، هل تريدين الانفصال عني؟ تريدين أن تتركينني!!

عضت شفتيها بألم ثم قالت :

- أنتَ لا تريدني مالك!! ولا ترى فيَّ امرأة تخصكَ، ما أنا إلا مجرد شخصٌ يستطيع تحملك، وتحمل لسانك، وأهوائك ومزاجك، وأنتَ لم تعيرني أي اهتمام، لم تتحملني ، ولم تتقبلني كما أنا بماضيَّ وحاضري..

- لم يحدث ذلك!!.. قاطعها بانفعال قضى على فراغ صوته، ثم أكمل :

- كيف تفكرين بتلك الطريقة؟ كيف لي ألا أريدكِ؟ وكيف أطلب منكِ أن تتحمليني وأنا لا أريدكِ!!.. بنان .. أنتِ لا تفهمي.. أنا أحبكِ أنتِ.. ولا أريد امرأة سواكِ!!.. والله أحبكِ أنتِ!!

توقف قلبها عن العمل، واتسعت عيناها، وفتح فمها عن فراغ كلمات، ولم ترفع نظرها الساجد أرضاً إليه.. فردد بخوف :

- بنان.. ألا تصدقيني ؟؟

ازدردت لعابها، وتحشرج صوتها وقالت بتيهٍ :

- ماذا قلتَ؟

ابتسم ناظراً إليها ثم قال :

- أخبركِ أنني أملكِكِ قلبي في بداية فجرٍ جديد!! أخبركِ أنني لم أعرف ما هو الحب قبلكِ؟.. قلتُ أنني أحبكِ بنان، أحبكِ أنتِ!! كما أنتِ هكذا!! أحبكِ قصيرة، وأحبكِ فتى!!

كانت تغمض عينيها وتفتحها بشكل تلقائي، واندفع الدم لوجهها ليحيله لأحمر اللون، فاتسعت ابتسامته قائلاً :- ولكن أحبكِ أكثر وأنتِ فتاة!!

ضمت قبضتيها إحداهما للأخرى، تفركهما بتوتر، وهي تشد أكمامها لتغطي كفيها ، ثم رفعتها وضربته بها لتهرب من أمامه ، ولكنه أمسك قبضتها قائلاً :- هل فقدتِ النطق الآن؟؟

قالت بخفوت :- اتركني..

- لن أتركَكِ، لم تجيبيني بعد!!

- أجيبكَ على ماذا؟

- هل تريدين الانفصال عني؟

غضت طرفها لمرة أخرى، وسكتت، فاستحثها ، فهزت رأسها نافية، فسألها :

- لماذا؟

ازدردت لعابها بصعوبة وقالت :

- لأنني.. لأنني.. هو كذلك.. سأظل معكَ حتى لا أؤذي مشاعركَ!!

اتسعت عيناه ثم ضحك وقال :

- لا تقلقي لن أموت بعدكِ!!

- اتركني إذاً!!

قاطعهما صوت الكائن الليلي الذي عاد قائلاً بمرح :

- اثبتا مكانكما، لقد قبضتُ عليكما أخيراً، هل كنتما تخدعانني؟

سحبت بنان يدها سريعاً، بينما ابتسم مالك براحة فاطمأن أحمد، وقال الأول :

- ماذا تريد حتى تتستر علينا؟

- تطعماني من صنع يديكما، أنتما معاً!!

نظر مالك للسماء ثم قال :

- ألا ترى أن الوقت مازال مبكراً على الإفطار؟ لم يأتِ الشروق بعد!!

- إنه شرطي حتى أحفظ سركما!!

ضحك مالك قائلاً :

- لنفعل إذاً.. هيا بنا زوجتي العزيزة!! وتناول كفها فسارت معه دون اعتراض، فقد تمنت أن تختفي منذ وصل أحمد.

نظر لهما أحمد مبتسماً، ثم رفع للسماء بصره، مازالت خيوط النور تداعب الظلام...لينام ساعتين قبل أن ينهي الزوجان شغبهما ويخربا المطبخ كالمعتاد..

٣٣

بداية النهاية

بدأت المأساة بالفعل حين دخل أحمد عليهما ذات نهار ليجد أخاه واضعاً رأسه على فخذ أمه تمسدها له، ابتسم وتخلى عن صمته مازحاً مع أخيه، لولا تعبيرات الألم التي وجدها تتملك وجه مالك. تقبل مالك مزاحه وجاراه فيه، وبعد وقتٍ قال :

- ما الذي يزعجكَ أخي؟ أنا شخصُ مدلل، وأحب أن تدللني أمي!!

ابتسم أحمد رغم أن الألم الذي يراه على وجه أخيه يقلقه بشدة ثم قال :

- ما الذي أصابكَ؟ هل يؤلمكَ رأسك؟ أم عينكَ؟

- إنه مجرد إجهاد في العمل، والدراسة، لا تشغل بالكَ به!!.. قالها مالك وهو يتجه لغرفته مواصلاً :- سأنام لبعض الوقتِ! أستأذنكما!

نظر أحمد لأمه القلقة بريبة، ثم اتجه إليها مطمئناً :

- يبدو أنكِ أفرطتِ في دلاله!!

ابتسمت وهي تربتُ على كتفه فقبل يدها ثم رأسها قائلاً :

- سأستريحُ أنا أيضاً لبعض الوقتِ، أستأذنكِ!

أومأت موافقة، بينما اتجه هو للغرفة المشتركة مع أخيه عله يلحق به قبل نومه. دخل بعد استئذانه، ثم اتجه إلى أخيه الملقي على سريره، يضغط على إحدى عينيه بيدٍ، ويضع الأخرى على رأسه. جلس جواره قائلاً بقلق :

- مالك!! هل تؤلمك لهذه الدرجة؟ هل نذهب لمشفى؟

رد مالك وهو يجز على أسنانه :

- لا أعرف! لم تؤلمني هكذا منذ وقت طويل، كما أنني أجريتُ فحصاً من قبل، وأخبرني الطبيب أنه مجرد إجهاد، كنت أفكر في عمل فحوصاتٍ أخرى!

- لنفعلها الآن! قم معي!!

أخذ مالك وقتاً حتى يرد، وقال :- أنا لا أريد أن تعرف أمي أو بنان!!

وقف أحمد قائلاً :- لن يعرفا، هيا انهض!!

- انتظر قليلاً حتى يزول الألم...

ثم أسكته الألم بالفعل متأوهاً، فجلس أحمد إلى جواره عاجزاً عن فعل شئ له. وطال الألم الذي يهلكُ رأسه وعينيه، حتى هدأ فجأة، ففتح عينيه ببطء ليجد أحمد جالساً أمامه، فابتسم قائلاً :

- أتعتقد أنه لن يعود؟

رد أحمد بعطف :- إن شاء الله! هيا بنا!

لم يعترض مالك وهو ينهض بالفعل ويخرج معه؛ إذ أن الألم هذه المرة لم يحتمل!

وفي المشفى انتظرا في غرفة الكشف ليأتي لهما طبيب، ولم يطيلا انتظارهما، إذ طُرِقَ الباب ودخلت طبيبة مبتسمة تحدثت معه أخبرها بشكواه، وبفحصه السابق، قامت بعمل فحوصات له، وتركته لبعض الوقت ثم عادت بوجهٍ متغير وسألت :

- هل يمكنني رؤية الفحص السابق الذي قمت به؟

ناوله إياها أحمد، إذ أصر أن يأتي به معهما، ازدردت لعابها وهي تخرجه وتذهب لأحد أركان الغرفة تعلقه على لوحة ناظرة إليه، تنفست بعمق ثم اتجهت نحوهما وهي ترسم ابتسامة قوية هذه المرة بدا اصطناعها من شدة اتساعها، وقالت :

- ما رأيكَ أن تبقى معنا هذه الليلة؟ تريح غرفتكَ قليلاً منكَ؟

- ماالمشكلة في الآشعة؟ لا تقلقي أنا متوقع الأسوأ!

- لا لا .. ليس الأسوأ إن شاء الله! الأمر أبسط من ذلك، فقط سنتأكد من شئ ما!.. ثم خرجتْ!

خرج أحمد وراءها، ونادى :- من فضلكِ!

وقفت ولم تلتفت إليه فتقدم قائلاً :- أخي! ماذا به؟

التفتت له وقالت بمهنية تخفي قلقها :

- أخوكَ مصاب بورم في المخ، الشئ الجيد أنه ورم حميد، والشئ السئ على الإطلاق أنه يضغط على العصب البصري، لا أعرف كيف أخبره الطبيب أنه بخير، والفحوصات التي أجراها يظهر فيها الورم بالفعل، على العموم الحمد لله أن نموه بطيئاً وإلا كان في عداد الأمواِت الآن! والحل جراحة لاستئصال الورم، وبها خطورة أن يصاب بالعمى في حالة إصابة العصب البصري، عليكَ أن تخبره الآن! أستأذنكَ!!

وتحركت مبتعدة عنه، فوقف ضائعاً تائهاً، شعر أن الأرض دارت به، وأن رأسه تنفصل عن جسده فتماسك وهو يجلس على مقعد قريب، أخذ وقتاً حتى استوعب الأمر، فذهب إليها وسأل :

- هل الأمر خطير؟

تخلت عن مهنيتها، وتحدثت بلطف قائلة :

- أخبرتك أنه ورم حميد، ستتم الجراحة بخير وبلا خسائر، الأمر ليس خطيراً، لا داعي للقلق!

أومأ، واتجه لأخيه، تردد قبل أن يدخل، وتردد أكثر وهو يخبره بحديث الطبيبة مهوناً عليه الأمر، فتقبله مالك مبتسماً وقال :

- لماذا أنتَ عابس هكذا؟ لا تقلق، أعرف رجلاً أصيب بسرطان أخبره الطبيب أنه لن يحيا فوق خمس سنوات، ولكنه مات قبل الخمس بحادث سيارة!!

نظر أحمد له ولابتسامته ثم قال :

- ستكون بخير!!

ابتسم مالك ثم أغمض عينيه منهياً الحديث، وجلس أحمد واضعاً رأسه بين كفيه. رن هاتف مالك فاتجه أحمد يسكته حتى لا يزعج أخاه، سبقه مالك وهو يفتح عينيه قائلاً :

- إنها بنان! سأجيب عليها!

أجابها، وأخبرها أنه وأحمد ساهران في مكانٍ ما، وأنهى حديثه، ثم عاد لسكونه، مر الليل عليهما بطئ، لا يتحدثان، حتى في صلاتهما كانا وحيدين، كل منهما يصلي منفرداً.

راح عقل مالك يفكر في كل الاحتمالات، ما الذي سيحدث؟ هل سيموت؟ كيف سينتهي به الأمر؟ أعمى أم ميت؟ كيف سيخبرهم بمرضه؟ وماذا عن بنان؟ هل سيخفي أمره عنها؟ إنها تعرف عنه كل شئ! تستطيع كشف أسراره دون مجهودٍ يذكر!! هل سيظلمها إن أخبرها وأبقى عليها؟ أم سيظلمها إن أخفى عنها؟ ماذا ستفعل إذا ما مات هو؟ يجب أن تعرف بمرضه ويترك لها حرية الاختيار! هي الوحيدة التي لم يفعل شيئاً لها! سيقضى ما تبقى معها ولأجلها!

حين طلع النهار قال مالك :- ومتى سيتم إجراء الجراحة؟

- لا أعرف!

- ليس من الضروري أن نخبر والديك قبل وقتها!

وافقه أحمد فسأل مالك :- ألن نعود الآن؟

- انتظر حتى تأتي الطبيبة، وتقرر!.. قالها أحمد في حين سمح للطارق بالدخول، وجدها أمامه، فاتجهت هي إلى مالك باسمة، فعاجلها :

- هل يمكنني تأخير الجراحة لشهر؟

- لماذا؟

- أرجوكِ، شهر واحد فقط!

- كلما أسرعنا كلما كان أفضل!..

رجتها عيناه فتنهدت قائلة :- أسبوعين!!

- شهر!! لن أموت قبل أجلي!

- لماذا يا مالك؟ الجراحة ستنهي كل ألمك، وتستطيع أن تفعل ما تريد بعد الجراحة!

- وقد ينتهي أجلي في الجراحة أو أصبح أعمى! هو شهر واحد أعدكِ بذلك!

وافقت مضطرة، وكتبت له أدويته، وودعته، ولم يسأله عمَّ ينوي، وقد استنبطه من لقائه ببنان بعدما عاد وانفراده بها، فتركهما ودخل إلى غرفته متحاشياً أبويه!

****

على النجيل الأخضر في حديقته جلس معها، أمسك يدها وتحدث عن مرضه كأنه لشخصٍ آخر ثم قال :

- ما رأيكِ هل يخفي الأمر عن زوجته، ويطلقها لأنها قد تترمل، أو قد تكمل مع أعمى، أم يخبرها ويترك لها الاختيار؟

لم تهتم بكل ما قاله وسألت :

- من صديقكَ هذا يا مالك؟ أنت أخبرتني عن كل من تعرفهم؟ هل هو شخصٌ جديد؟

ابتسم قائلاً :- نعم!..

تعرف كل شئ عن حياته، كل تفاصيلها، كيف سيخفي عنها، سيؤذيها الأمر هكذا!

فهتفت بحنق :

- إنه أحمقٌ مثلكَ، ماهذا؟ إنه فيلم هندي هابط! سيضحي لأجلها، ويظهر لها أنه شخص سئ، ويطلقها حتى تكرهه ويموت مطمئن؟ هل سيموت مطمئن وهي تكرهه يا مالك!

ابتسم مرة أخرى وقد آلمه سؤالها، إذ أن هذا أكثر ما يرهقه ويؤذي نفسه؛ فقال :

- في الواقع لا، أنا أخبرته بذلك!.. فأكملت :

- ثم لنفترض أنني من أصبتُ بذلك، هل ستتقبل أن أقصيكَ من حياتي؟ أم تبقى معي لآخر لحظة في عمري؟ أن أموت وآخر ما أراه في الدنيا هو ابتسامتكَ!

انقبض قلبه من تخيل الأذى الذي يلحق به فيها، وقال :

- بالفعل، أنا أريد أن يكون آخر شئ أراه هو ابتسامتكِ!.. ثم تنهد مواصلاً :

- لا تعيدي الأمر ثانية، لا أتحمل ذكر ذلك!

ابتسمت ناظرة لعينيه وقالت :

- ما الذي يقلقكَ إذاً؟

كيف تشعر به لتلك الدرجة؟ ألا يخبرها أفضل ؟!.. قال بعد صمتٍ قصير :

- هل تقبلين زواجنا في الغد أو بعد غد؟

- ماذا؟.. قالتها مصعوقة!!.. فربت على يدها قائلاً :

- لا تفزعي هكذا؟ .. جاءت لي فرصة جيدة بالسفر لعدة أماكن، ستبدأ الرحلة بعد يومين إن شاء الله، سنسافر كصديقين وانسي أمر الزواج، ولكن يجب أن نقيم زفاف حتى نستطيع السفر معاً!

- ما الأمر مالك؟.. انسَ أنني زوجتكَ الآن، وأخبرني بما لديكَ كصديقتكَ، بل أخبرني كصديقكَ!!

تنهد بقوة، لماذا تصعب الأمر عليه؟ هاهي تنازلت عن كبرياءها، وأقرت برؤيته لها كصديق وليس صديقة، ولكنه صدقاً لم يعد يرَى فيها سوى السكن! سوى الأنثى التي ستكمل حياته! سوى اللمسة اللطيفة في كل شئ! .. قال :

- إنه أنا!! المريض أنا وليس صديقي! أردتُ أن يكون آخر شهر لي قبل معرفة مصيري معكِ، فكرتُ في تلك الحماقات أن أضحي وننفصل، ولكنكِ ستكشفينني على كل حال، هل ستقبلين مرافقتي في آخر شهر في حياتي؟ وصدقيني أنا لا أضعكِ هكذا أمام الأمر الواقع، ولا أفرض عليكِ أن تكملي معي، لكِ حرية الاختيار، ولن يؤذيني قراركِ أياً كان!

- لماذا أجلتَ الجراحة لشهر يا مالك؟ لا شأن لكَ بي، سأنتظركَ!.. قالتها بصوتٍ أبح متغاضية عن كل ما قال!

- لا أضمن نتيجتها، لا أعرف هل سأعود كما كنت أم لا؟ أنا لكِ هذا الشهر، وأنا مالك! هل ستوافقين؟.. قالها بيأسٍ غريبٍ عليه!

أمسكت بيده راجية وقالت :

- أنتَ تقلقني هكذا؟ سأموت من القلق عليكَ! أنا سعيدة لأنني معكَ، لأنكَ مالك على أي حال! لتجري الجراحة، أرجوكَ!

ضغط على يدها برجاءٍ أكبر ويأسٍ خالص :

- أرجوكِ أنتِ لتوافقي على الأمر! أو لا توافقي إن رأيتِ أنني لا أستطيع تقديم شئ لكِ!

هدأت قليلاً ثم قالت :

- ستكون بخير يا مالك، أليس كذلك؟

ابتسم وقد برق في عينيه خيط أمل لأجلها قائلاً :

- سأكون! إن شاء الله سأكون!

فقالت بسرعة :

- موافقة! أوافق إن كان في الأمر راحتك!

لحق حديثها بقوله :

- لا !! أنا أريد راحتكِ أنتِ!

تهدج صوتها ناطقة :

- راحتي أنا في شفائكَ!

التمعت عيناه بحماس يبثه إليها ثم قال :

- هيا إذاً لنخبر أحمد، يستطيع تدبير الأمر دون إزعاج أبي وأمي، يجب أن نستغل كل دقيقة في هذا الشهر، ثم وقف جاذباً ذراعها يوقفها قائلاً :

- لن نستطيع تفصيل فستان زفاف، لنذهب لشرائه الآن! وسنترك تنظيم الحفل لميرا، ما رأيكِ يكون بعد يومين؟

ثم تحرك للخارج وهو يسحبها خلفه ذاهلة، وقد بلغ قلبها حنجرتها من الرعب، وفتح لها سيارته فجلست، والتف يقود فقالت :

- مالك، أرجوكَ! لتجري الجراحة أولاً!

نظر لها قائلاً في محاولة لإقناعها :

- بنان! لنفترض أن عمري انتهى وأنا أجري الجراحة، أعرف أنه قد ينتهي قبلها أو بعدها، ولكن هناك احتمال أن ينتهي في الجراحة، هل سأموت هكذا، دون أن أقدم لكِ أي شئ!

- أنت فعلت الكثير لي، أرجوكَ أنا لا أريد شيئاً سواك!

- وأنا لا أريد شيئاً سوى ابتسامتك، الشئ الأجمل على الإطلاق! وأريد أن تكون آخر ما أراه!

- كف عن هذا!!.. قالتها صارخة به، وأخذت تبكي، فتنهد ثم التف بجسده إليها، واحتضن وجهها بحنو قائلاً :

- بنان! لم أشأ أن أخبركِ حتى لا أرى بكاءكِ أو حزنكِ، أرجوكِ أنا أريد سعادتكِ فقط، وإن كانت هذه عاقبة الأمر؛ لأجري الجراحة ، هل هذا سيسعدكِ؟ ولكن ...

كتمت نحيبها ثم قالت :

- لا أريد أن أجبركَ على الأمر!.. ثم انتحبت مرة أخرى وقالت :- أنا أيضاً خائفة!

ضم رأسها إلى صدره يلملم خوفها لخوفه قائلاً :

- لا تقلقي! سنموت معاً! ونكمل حياتنا لآخرها معاً، سيكون لدينا أحفاد كثر، وامبراطورية كبيرة يرأسها مالك وبنان! ولكن دعينا في هذه اللحظة، لنسعى لسعادتنا الآن قبل أي ألم. لقد تمنيت أن أتحمله وحدي، ولكن لن تستقيم حياتنا هكذا!

تنهدت وابتعدت عنه متظاهرة ببعض طمأنينة وقالت :

- لنفعل! لأقدم أنا أيضاً لكَ كل ما يسعدكَ!

ابتسم وهو يمسح آخر ما تبقى من دموعها ويحتضن كفها، ثم قاد سيارته حيث يريدان!

****

لم يستطع أحمد معارضته، وبالفعل حاول إقناع أبويه بفكرة الزواج خلال يومين، إذ أن هذه الرحلة المزعومة فكرة جيدة لشهر العسل، كما أن بنان لا تشعر بالراحة هكذا في بيت به رجلان غريبان، فالزواج أفضل لهما، وكثرت الحجج والبراهين التي لم يكن أبوه بحاجة إليها كي يقتنع، وأما عن سارة فقام عمر بمهمة إقناعها إذ وجد قبول من بنان!!

المشكلة كانت تكمن في رحيق التي تواجدت في هذا الوقت مع زوجها بطلبٍ من مالك، وبينما يحاول أحمد إقناعهم، اعتذرت وخرجت لتجلس في الهواء الطلق؛ إذ شعرت باختناق حاد كتم صوتها وتنفسها، وفي الخارج راحت تبكي بشدة، لحق بها ياسين متعللاً بأن نقاشهم أصبح شخصي ليس له بأن يتدخل فيه. بحث عنها بعينيه حتى وجدها فاقترب منها وسمع بكاءها غير المبرر فسأل :

- رحيق! ماذا أصابكِ؟

جلس جوارها يهدئها حتى لملمت هي شتات نفسها، وبقي ذلك الشئ الذي يعصر قلبها، وضعت يدها على قلبها تهدئ دقاته المتصارعة فأعاد سؤاله :- ماذا أصابكِ رحيق؟

- لا أعرف! أنا لا أعرف ما الذي أصابني!

ضغط بخفة على يدها مطمئناً، ماذا يفعل لها حتى تحيا دون خوفٍ أو قلق؟ لماذا يخفون عنها ما يزعجهم وهم يعلمون ما بها؟ ألا ينتهون؟

جاء مالك إليها قائلاً :- هل انتهيتِ؟

نظرت إليه هاتفة :- أخبرني أنتَ ! هل أنتَ بخير؟ لماذا لا أطمئن لهذا الزواج؟

جلس على ركبتيه أمامها وقد استعد لطمأنتها قائلاً :

- أنا بخير! كفي أنتِ عن شعوركِ الذي يفضحنا! من المفترض أن أجري جراحة بسيطة في رأسي! ولكنني أؤجلها لحين عودتي!

اتسعت عيناها في دهشة مرعبة، فابتسم مربتاً على يديها قائلاً :- إنها جراحة بسيطة!

- لا تكذب!

زم شفتيه ثم نظر إلى ياسين، الذي شعر بالقلق هو الآخر، فقال مالك :- ورم !

- ماذا!..صرخت بها، فأمسك ياسين ذراعيها مهدئاً وقد أخرسته الصدمة هو الآخر فقال مالك :

- أرجوكما، أبي وأمي لا يعرفان!.. يجب أن تساعديني رحيق فيمَ أريد!

ثم تركها ودخل، لم يعد يحتمل أن يرى حزن أي أحد، لم يعد يحتمل العطف أو الشفقة، أراد فقط أن يطمئن قلب رحيق، وهو يعلم كم سيكون مؤذٍ لها أن تعيش في قلق لا تدري له سبباً..

هو مطمئنٌ عليها مع ياسين، يثق أنه سيحتوي قلقها!

تركها تائهة ضائعة، فقدت الطريق وتشتتت فكرها، إلا مالك! لن تحتمل فيه شيئاً، لن تطيق أذاه أو وجعه! ليس مالك من تنزل به النازلة، ليس مالك بمن تفقده! هو الذي أبقى عليها حين خذلها الجميع! هو الذي احتوى ألمها ومرضها، احتوى سذاجتها وضحالة أفكارها، هو الذي ربى ابنها وكان له أباً، به كانت تعيش، ولسعادته كانت دائماً تأمل! مالك من به الأذى هذه المرة، لماذا مالك؟ أيا إلهي هون!!

الصدمة أسكتت ياسين، وأبقى على يدِ زوجته بين يديه، لم يحرك صمته سوى رعشة سرت بجسدها، وبرودة تملكت يديها. نظر إلى وجهها يحدثها فوجد دمعها عالقاً على أجفانها يأبى الهطول، وجهها محتقناً، وشفتيها ترتجفان!! ربتَ وجنتيها بيده ليلفت انتباهها، وهو يحدثها بحسرة :- رحيق! رحيق!

لم تتبس ببنت شفه، ولم يتغير حالها، فأصابه رعب أعجزه، ولكنه خاف من خروج أحد والديها أو كليهما، حاول أن ينبهها لتقوم معه للسيارة، فلم تستجب، فحملها وقد أصابته حالتها برعبٍ لم يعرفه من قبل!

حين عادا لمنزلهما، أخذ وقتاً حتى يخرجها من حالتها، بانفجارٍ في البكاء أشد من ذي قبل، حينها فقط اطمأن باله، لتبكي، لتبكي كثيراً ولا تعود لحالة الموت التي عاشتها وأحيته فيها ثانية!!

****

على كل حال، إن مات أو عاش ستتم سعادته بسعادتها، بتلك البسمة التي ترتسم على وجهها فتنيره وتجعله وضاءً، سيمحي تلك الدموع التي تتعلق بأهدابها ويأبى كبرياءها أن تسقط. بما فعل سيحافظ على قلبها حتى وإن مات، فهي مؤهلة للأمر من قبل، بدلاً من أن يصدمها موته، وتعيش كارهة له بسبب إخفائه لألمه. وإن أخفى ألمه عن بنان فمن سيتحمل أساه ووجعه؟! من سيدعو له بالشفاء أو بالرحمة؟ ومن سيجلس فوق رأسه كل ليلة يخفف من وجعها؟

سيشتاق لأيدي أمه التي تحنو وتتهادى فوق رأسه ماحية أي ألم، وفي ذات اللحظة لا يستطيع أبداً أن يرى دمعها أو وجعها مما يؤذيه. سيحافظ على اطمئنانهم جميعهم، وسعادتهم بزواجه، ويتألم وحيداً، فهو لم يسبب لهم سوى الألم طيلة حياته، لم يكن سبباً لفخر أبيه، ولا أملاً لراحة أمه! يريد أن يموت الآن راضيان عنه تمام الرضا!!

كلما طرق في رأسه ذلك الشئ الذي يخبره بأن ما به ليس بالمرض المميت القاتل، وأنه مجرد شئ سينتهي بجراحة طمأنته الطبيبة من نتيجتها، يخبره خوفه أن لا فرار من الموت، لطالما شعر أنه سيموتُ شاباً، ولطالما خاف من الموتِ، والموتِ الفجأة، ولطالما انقبض قلبه لذكر الموت، وهو الآن ميتٌ لا محالة، فليحاول في شهر إن لم يلحقه الموت فيه أن يؤهل نفسه لاستقباله، وأن يعوض بنان عن كل ما عانت، فبسعادتها سيطمئن قلبه! قلبه الذي حين أقر بعشقها، قرُب موته!!

وفي يومين قامت رحيق بكل شئ لأجل الزفاف، ساعدت بنان في كل ما احتاجت، وبقيت تطمئن قلبها، وهي بحاجة ليدٍ توضع على قلبها تطمئنه. تردد دائماً في نفسها " كل شئ سيصبح بخير "، مالك سينجو، وسيلقى السعادة، سيحيا ولن يصيبه أذى، تصيبها رعشة في يدها كلما ظهرت فكرة الموت في رأسها وتتساءل ما الذي يخيفها منه؟ هي لا تخاف منه بقدر خوفها من الفقد، إن أصاب الموت عائلتها فليبدأ بها، فهي لا تخشاه، ولكن تخشى فراقهم.

وفي يومين يحاول مالك أن يطمئن بنان المضغوطة من كل ناحية، والتي ألقي حمله كله عليها، وأصبحت في مواجهة رحيق وأحمد تسمع توصياتهما مشفقين عليها، تختفي في غرفتها ليلاً تبكي وتتضرع إلى الله، راجية الفرج، يحدثها باستمرار مهوناً عليها، مازحاً وأحياناً فظاً باصطناع ليشعرها أن الأمر بسيط، وما يزدها ذلك إلا يقيناً بأن الأمر جلل!!

وتخلى أحمد عن صمته ووحدته التي ألفها، وتحول إلى شخص يحترق، بقلب يذوي لأجل ما يحدث حوله، لا يعرف ما الذي أصاب أخيه، وملأه باليأس هكذا؟ **ولكن في الكون لحظاتٍ لا**

تفيد فيها النصيحة أو المواساة، ولشد ما تكره أن يأتيكَ أحدهم زامّاً شفتيه بشفقة قائلاً " اصبر واحتسب " تكره أن يعطف عليكَ، أو يظهر حبه وحنانه إليكَ، تكره ذلك الأمل الذي يبثه إليكَ متشدقاً به فوه، ناسياً إياه قلبه. لن يشعر بألمكَ سواكَ، مهما قرب الشخص إلى قلبكَ ولكن سيبقى ألمك لنفسك، كذلك لن يخلصك منه سواكَ.

تم له ما أراد، وأقيم الزفاف بأحسن مما تمنى، فعجز عن شكر أخويه فيمَ فعلا، وعجز عن رد صنيعهم، لو بقي في عمره وقت سيفعل! استقبل معشوقته بابتسامة صافية، متناسياً لكل أفكاره السوداء، وقد أعد لها بالفعل عدة رحلات لأماكن تفضلها، حرص على أن يعيشا جنونهما الذي خططا له كثيراً، سيعطلهما الأمر عن دراستهما، لا بأس بالنسبة إليه، يزعجه أن يؤخرها!

كملاكٍ أبيض نزل إليه يتأبط ذراع أبيه، بعينين لامعتين لم تعد تفارقهما لمعتهما من أثر خوفٍ أو بكاء، وجسد يشعركَ حزنه أنه نَحُلَ ويخفي نحولته في رداءٍ أبيض لم يصنع إلا له! لم تحزن هكذا حين مات والدها، ولم يرهقها تفكيرها في البحث عن أمها التي لم تكن تعلم أميتةٌ هي، أم حية لا داعي للبحث عنها؟ كما أرهقها التفكير فيمَ ستئولُ إليه حياتهما وحالته! لم تطمئن إلا بحديثها مع الطبيبة التي بثت فيها طمأنينة صدقتها، فهي في عملها لا تكذب ولا تجامل!

مدت أناملها لتعانق أنامله في وعدٍ بالوفاء، ورسمت ابتسامه تبثه أملٌ بالبقاء، وكلاهما حاول مستميتاً أن يكون الزفاف سعيداً بهما ولمن حولهما!

وحين انتهيا أثقل عليها أحمد ورحيق بالوصايا، أثقلا دون قصدٍ بذلك، ولكن هي التي سترافقه في جنونه وموافقة عليه!!

****

وبدأت رحلتهما في الطائرة إلى مكة، التفتَ لها يشد على يدها بابتسامة حانية وقال :

- منذ هذه اللحظة سننسى كل شئ، سننسى كل همومنا، نحن زوجين فقط في شهر العسل، اتفقنا!

- اتفقنا! .. ثم سألت :- هذه المرة الأولى لكَ، أليس كذلك؟

- في الزواج؟ .. سأل!

ضربته قائلة :- لا في زيارة بيت الله الحرام!

أومأ برأسه مجيباً فقالت :- هذا شئ جيد!.. ليسجل التاريخ أن المرة الأولى لكَ كانت معي!

- ليسجلَ إذاً، ولا تنسي أنني سأفقهكِ في الدين!.. لنفعل بداية من هنا!..

ابتسمت قائلة :

- جيد أنكَ تتذكر، لنفعل! ..

كلاهما يخفي وجعاً بابتسامة عاجزة عن قتله، لم تقبل السكوت الذي يرهق رأسيهما بالتفكير فأخذت تحدثه عن الزفاف وعن كل أحداثه وتجاوب معها، ثم قالت فجأة :

- مالك!! ستحلق رأسكَ؟

ابتسم وقال :- هل سأخيفكِ؟

- لا، ولكن لم أركَ حليق الرأس من قبل!.. ستكون غريباً!

ضحكَ ثم قال :- سأحلقها على كل حال!

وجمت وقد فهمت أنه يشير للجراحة، فقالت :

- ألا ترى أننا نعقد الأمر بشدة؟ إنه ورم حميد الحمد لله، يمكن إزالته، لا داعي لتلك المأساة التي نعيشها، لنفرح !! نحن زوجان جديدان ومن المفترض علينا ذلك!

اعتصر قلبه بشدة، وآلمته عيناه لتذكر الألم فقط، ولا يدري لذلك سبباً، فحديثها منطقي جداً، فقال :- معكِ حق، لنفرح!!

هل كانا يشعران بنهاية المأساة بالفعل؟ هل نبأهما حدسهما بمرارة الفقد القادمة؟ .. تنهد بقوة قائلاً :

- الله كريم.. الله كريم، لا داعي لما نفعله!!

حينها نبض قلبها وأعلنت دقاته تضرعها .. **" رباه آمنتُ بكَ وبأقداركَ فاكفنا شَرَّهَا، وأَلْهِمْنَا الصَّبْرَ والرِّضَا.. رباه إن كان مَرَضُهُ لتكفيرِ ذَنْبٍ ارتكبَهُ فاغفرْهُ لَهُ، واعْفُ عنه وعني.. رباه.. يا من سَعَيْتُ إليه، ولم أشْعُرْ بالسَّكِينَةِ والاطْمِئْنانِ إلا في قُربِهِ، ارزقنا فَيْضاً من رحمتكَ، واشرحْ صُدورَنا لقضائكَ، وابعد عنا شرَّه.. ابعد عنا شرَّه يا الله .. يا من أعنْتَني على الوصولِ إليكَ والتسليمِ لكَ بعدما عِثْتُ في الأرضِ فساداً.. ابعِدْ عنه ذلك الدَّاءَ واشفِهِ منهُ شِفاءاً لا يُغَادِرُ سقْمَا.. يا مجيبَ ياربِ .. يا من لا تخيبُ رجاءَنا فيكَ ياربِ .. "**

٣٤

النهاية

وقع نظرها عليها فارتج جسدها بعنفٍ ثم غشي عليها!! اهتزتْ الأرض به وفزع.. حين استفاقت نظر إلى عينيها بلهفة قائلاً :

- ماذا أفعل بكِ الآن؟ على العموم أسرعي في الموتِ، أريد أن أتزوج بأخرى طويلة!

ابتسمتْ بنان وهي تقول : - يا إلهي! ما الفارق بينكَ وبين الرجال الذين أكرههم إذاً!

- هل تستطيعين تأدية المناسكِ الآن، أم نؤجلها للغد؟ .. قالها بحنو، فاستندت عليه لتقف ثم قالت:- أستطيع! أنا فقط لم أتخيل أن الأمر مهيب هكذا!

ابتسم وهو يسندها بذراعه قائلاً :- كما أخبرتكِ قبل، أنتِ من سيفقهني في الدين !!

تنهدت وهي تضغط على ذراعه استعداداً لرؤيتها مرة أخرى، وقلبها يرتجف ويئن، وعند اقترابهما سألها هامساً :- تستطيعين ذلك؟

أومأت برأسها، وسكنت خلاياها حين وقع نظرها عليها للمرة الثانية، وابتسمت بدمعاتٍ تلألأت على جفنيها، فسار معها معانقاً يدها، وأخذت تتأمل في ذات الرداء الأسواد التي تسببت في إغماءها، تلك التي كتب عليها آياتٌ بالذهبِ تقشعر منها أكثر كلما اقتربت ..

مذ أحرما معاً وعقدا نيتهما، وهي تشعر بالخدرِ يسري في جسدها، والخشوع يملكُ قلبها. طافتْ حولها معه، ولسانها يلهجُ بذكرِ الله والدعاءِ الذي مزق نياط قلبها، وكلما زاد بكاءها كلما اشتدت يده على يدها..

لقد نسيا كل شئ، نسيا ما أهمهما ليومين فاتا، ونسيا أوجاعهما وتطلعهما للقادم، رزقا بفيضٍ من السعادة والأمان، أتما المناسك في فرحٍ وبهجة، وعند زمزم همس لها :

- ماء زمزم لما شرب له.. فهمت رسالته وابتسمت، هو يطمئن نفسه بها!

حالة الانتشاء التي غمرتهما أضافتْ لحياتهما معنى فقداه منذ زمن، شعرا بنفسٍ مستقرة، وقلبٍ حي. تحركا لبلدٍ آخر وقد انشرح صدريهما، وملأهما تفاؤلاً عذب..

****

إنهما بخير الآن، وبالفعلِ عروسان، عادت ابتسامتها تنير وجهها مرة أخرى إذ بقيا لأسبوعٍ معاً دون أن يهاجمه ذلك الصداع، أو يشعر بشئ في عينيه.

وفي البرازيل حيث كانت حياتها في مدينة قريبة ذهبا، أراد أن ينهي ذكرياتها السيئة هنا، ويتخلص من ذلك الرعب الذي يطاردها من أثر ذكرياتها التي تكرهها، ورغم خوفها حين وصلا كأنها عار، إلا أنها في سويعات تجنبت ذلك الخوف!

لم يتركا مكاناً دون التقاط صورٍ كثيرة فيه، والضحك على أي شئ يريانه كأنه بهجة، لم يضيعا تلك الفرصة التي لربما لن تتكرر، وحين يهلكهما الضحك وكثرة الحركة يجلسان في أحد المطاعم ليتناولا طعامهما. في اليوم الأخير جلسا في أحد المنتزهات حيث الأطفال يلهون ويلعبون أمامهما، فهتفت بحنق :

- يا إلهي، لكم أكره الأطفال!

- ماذا؟ إنهم الكائنات التي تستحق العشق !!.. نطق بها معترضاً.. فقالت بإصرار :

- إنهم الكائنات الأكثر إزعاجاً على الإطلاق!

ضحك قائلاً :- بنان! لا تنكري عشقكِ لهم، إنكِ لا تتركين مريم إذا ما جاءت عندنا، ودائمة اللعب مع سيف!

ابتسمت قائلة:- لأنهم أبناء رحيق فقط!!

- كاذبة!! لا تنكري شوقكِ لإنجاب الكثير من الأطفال!!

- لا إطلاقاً!.. وبينما تنهي جملتها إذ اقترب طفلٌ منها، وتحدث بلطفٍ إليها طالباً منها مشاركتهم اللعب، لم تتردد، ولم تلتفتْ إلى مالك، وهي تمسكُ يد الصغير تقبلها وتذهب معه، فنظر نحوها مالك ببلاهة وهو يضرب إحدى يديه بالأخرى باسماً، وبعد قليلٍ عادت إليه تجذبه ليلعب معهم، قام معها متمتماً :

- أنتِ مجنونة!

ضحكت قائلة :

- وأنتَ العاقل حتى نزن المعادلة، التقط لي صوراً كثيرة معهم، هيا!

فعل ما أرادتْ ضاحكاً، حتى شعرت بالتعب فانفصلتْ عنهم وعادتْ إليه فقال :

- لكم تكرهينهم عزيزتي!

ضحكت بشدة وقالت :- إنهم مزعجون!!

- صادقة!

- هيا لنعود الآن ! سأنام للغد، ولا توقظني ككل مرة، أنتَ مزعج مثلهم!

ابتسم قائلاً :- وأنتِ الكائن الهادئ على الإطلاق!

تأبطت ذراعه وسارا ساندة رأسها عليه، وفي الطريق للفندق أوقفته قائلة :

- أريد بعض الحلوى من هنا..

مشيرة إلى متجر يقابلهما، فدخلا واشتريا بعض المثلجات، وجلسا يتناولانها، ولم يكف أثناء ذلك عن تلطيخ وجهها، وهي كذلك تفعل ناسين من حولهما، وناسية إرهاقها طوال اليوم..

وحين عادا فاجأه ألم رأسه فصدرت منه صرخة مباغتة أفزعتها، فالتفتت له بسرعة تمسك ذراعه وهو يحيط رأسه بيديه، وتوقف الكلام في حلقها، وهي تراه يستند على الحائط بجسده، ويغطي عينيه بشدة تكاد تعصرهما، فحاولت أن تسنده حتى وصلت للسرير وأجلسته عليه، محاولة أن تخرج ما حشر في حلقها من كلمات فعجزت. جلست جواره وبيدٍ مرتعشة أخذت رأسه نحوها تمسدها له، وحين استطاع النطق طلب دواءه فقامت بلهفة تحضره له وهي تسب نفسها فكيف نسيت ذلك؟ ناولته إياه ولم تنطق، وهو تناوله واعتدل للنوم. قبضت على يده وجلست فوق رأسه منتصبة، خائفة من أن يصاب بشئ ولا تسمعه، أو يئن ولا تشعر به، أطفأت أنوار الغرفة وعادت لتجلس كما كانت فهمس:

- لا بأس إن تركتِها مضاءة، أنتِ تخافين من الظلام.

تشبثت بيده قائلة :

- لا عليكَ! الضوء سيتعب عينيكَ، لا شأن لكَ بي، أنا مطمئنة جوارك!

همس مرة أخرى قائلاً:

- اذهبي لفراشكِ ونامي، أنا بخير الآن!

- لا أستطيع أن أتركَكَ!

لم يزدْ عن ذلك وسكن، تمسكت بيده، وهي تمسح على شعره بيدها الأخرى، أنساها قلقها عليه خوفها من الظلام، وحين شعرت بانتظام أنفاسه سرت راحة في جسدها جعلتها تنام دون شعورٍ منها ملقية رأسها على صدره..

ما أيقظها سوى صوت هاتفها المزعج، فانتفضت بسرعة محاولة تذكر ما حدث، ولكن صوت هاتفها أزعجها ثانية، فأغلقته متمتمة:

- اسكت أيها المزعج!!

ثم تذكرت مالك، وتعبه، فنظرت إلى ملامحه المسترخية براحة، مازالا بملابسهما، عبست واتجهت لتغتسل وتبدل ملابسها، وحين عادت وجدته مستيقظاً وقد أضاء الغرفة فذهبت نحوه بلهفة قائلة :

- هل أصبحت بخير؟ كيف تشعر الآن؟

ابتسم قائلاً :- كما ترين، أنا بخير حال!

فقالت برجاء:

- ألا يكفي أسبوعين، لنعود يا مالك، أرجوك!!

تناول كفيها مقبلاً ثم قال:- بقي أسبوعين، سنسافر اليوم إلى بلدٍ آخر!

- مالك أرجوك! عندما تشفى سأهلكك في السفر، ولكن لنعود الآن، إن كنت تحبني بالفعل، لنعود!!

ضحك قائلاً :

- لن تفلح محاولاتك فوفريها!..واتجه للحمام يغتسل تاركاً إياها في ألمها وحيرتها!

انتهى وعاد ليجدها جالسة كما كانت، فجلس مقابلها وأمسك المشط قائلاً :

- لم يكن من شروطكِ أن أمشط لكِ شعركِ، ولكن لأنني شخص كريم سأفعل!

وقفت واجمة وقالت:

- لا أريد منكَ شيئاً!!.. وابتعدت خطوتين ثم توقفت قائلة :

- نحن في وقت الفجر، فإن توضأت، هيا لنصلي!!

رد مشاغباً :

- ألم تقولي أنكِ لا تريدي شيئاً مني!!

اتجهت لتصلي تاركة إياه، فاقترب ووقف أمامها، ثم استدار وقال مازحاً:

- ألا ترين أنها عنصرية أن يقف الرجل أمام المرأة؟!

خرجت منها ابتسامة أفسدت وجومها ونظرت للأرض، فاعتدل يصلي وهي وراءه، وأطالا دعاءهما كما اعتادا، ولما انتهيا استند للحائط، رافعاً رأسه مغمضاً عينيه، نظرت إليه وفتحت فمها، وقبل أن تنطق قال:

- والله لم تعد تؤلمني، أنا بخير صدقيني..

تنهدت واحتضنت ذراعه وأسندت رأسها إليه ثم قالت:

- لا داعي للسفر إلى مكانٍ آخر، لنبقى هنا، أو نعود..

ابتسم وهو ينتشل ذراعه من بين يديها يحيطها به وقال:- وإن لم أنفذ!!

- سأعود وحيدة!!.. قالتها بتصميم فضحك وقال:- عودي، وأتزوج أنا امرأة أخرى ترافقني!!

- لن تستطيع فعل ذلك، وشئ كهذا لا يثير غيرتي فلا تستخدمه، لأنه سينقلب ضدك!!

شعر ببوادر ألم، فوقف قائلاً:

- لا!! سأفعل ما تريدين، هيا لننام الآن، حتى نستطيع الخروج صباحاً!!

وقفت بسرعة ثم قالت:- بمَ شعرتَ؟ لماذا وقفت هكذا؟

اتجه لفراشه وتظاهر بالنعاس قائلاً :- بنان حبيبتي! قريباً ستنالين لقب الزوجة العبوس التي تكدر عيش زوجها، اتركيني أنام!!

عتَّمتْ الغرفة ثانية، وجلست جوار فراشه على الأرض متشبثة بيديه فهمس :

- نامي أيتها المجنونة!

- لا شأن لكَ بي!

لم يستطع جدالها، لم يعد له قدرة على الجدال!! فثبتا على وضعهما هو على السرير وهي تقابله على الأرض! وناما هكذا، استيقظ هو هذه المرة بعد وقتٍ ليس بقصير، فجذبها للأعلى، وأطاعته دون مقاومة، ثم دفنت رأسها في عنقه، فقال :

- أرجوكِ كفاكِ خوفاً!

من المؤكد أن لكل هذا الألم نهاية، كل معاناة حتماً ستنتهي!!

****

كان يشعر أن هذا اليوم الأخير ففعل كل ما يستطيع فعله، وبدأ هذا اليوم الغريب بجلسة بعد الفجر استفاضا فيها في النقاش والحديث لتنفيذ الرغبة الأولى "أن تفقهني في الدين " ..

ولأنه يعرف أنها حرمت من أبيها حياً قبل أن يكون ميتاً، فاتخذ دور الأب لها تارة، والأخ تارة، والحبيب تارة ثالثة.. وقبل خروجهما اختار ملابسها كرغبة ثانية، ثم ربط لها حجابها بنفسه، وأثناء فعل ذلك، كانت تعدل وراءه، ثم تمتمت:

- هل جن عقلي حين طلبت ذلك! ألا تتعلم أبداً!

ضحك وهو يدخل شعرها تحت حجابها عنوة فتأوهت قائلة :

- ستقطعه، ويحكَ ماذا تفعل؟

كتم ضحكاته ثم قال:

- هكذا يفعل الطغاة بشعبٍ ثائر متمرد!!

- وهل ترى أن شعري ثائر متمرد!! ليتني ما تركته يطول!!

- بل هكذا أجمل.. أم أحلقه لكِ مثلما فعلتُ أنا!

صكت أسنانها قائلة :

- دعني سأكمل لنفسي!

- انتظري فقط!!

انتظرت ثم هتفت فجأة :

- مالك! ما رأيكَ؟

- في ماذا؟

قالت بحماس:

- نخرج فيلماً قصيراً ساخراً! يمثل فعل الطغاة بالشعب المتمرد، ونشبهه بالشعر وما تفعله أنتَ به؟

- عبس سائلاً:

- بشعركِ؟

- بالطبع لا!!

فكر قليلاً ثم قال:

- فكرة مجنونة!

ابتسمت وقالت :

- لنفعلها إذاً!

- لنفعلها إذاً.. قالها وهو ينهي ما يفعله، فابتعدت تنظر للمرآة ثم قالت:

- تحسن أداؤكَ، ولكنها المرة الأخيرة!

- أخيراً!

خرجا وذهبا لأماكن جديدة، وطال حديثهما بأكثر من المعتاد، وقفا أمام متجر للحلي فقال لها:

- أريد أن أشتري لكِ شيئاً! لتختاري ما يعجبكِ!

نظرت للمعروضاتِ وقالت بعد برهة مشيرة إلى قلادة يتوسطها قلب مصمت يحيط به آخر مفرغ وقالت :- أترى هذه؟

أومأ فقالت:- هكذا تملكتُ قلبكَ!

دخلا ليشتريها مبتسماً ثم قال:- إذاً لا تخلعينها وإلا مات قلبي!

ابتسمت وهي تنظر للقلبين الذين توسطا كفها، وأبعدتْ أحدهما عن الآخر قائلة :

- أترى! حين يبتعد قلبي، سيكون قلبكَ فارغاً، ويكون قلبي ميتاً!

تناول كفها في كفه وقال:

- دعكِ من هذه الخرافات، لنكمل طريقنا! لا تفكري بتلك الطريقة فهي تَطَيُّر!

- سأفعل!.. ثم قالت :

- أتعرف يا مالك ماذا أتمنى؟

انتبه لها فواصلتْ :

- أتمنى أن نصبح عجوزين معاً، وتبقي على حبكَ لي، نكون إمبراطورية كبيرة، وينتمي إلينا أحفاد كثر، وأطبع كتباً تحمل اسمي، وألقي المحاضراتِ في كل مكانٍ في الدنيا أعرف الناس بالإسلام، وأتناقش معهم وأجادلهم بالحق..

ابتسم وهو يكمل:

- وأنا أتمنى أن أجوب العالم بالكاميرا، وأخرج الكثير من الأفلام القصيرة التي تحمل فكرة، وتدعو إلى فضيلة، أتمنى أن أكون مرآة لكل فقير وبائس، وأوصل حياته لأولئك الذين يتشدقون بالكلم دون فعل، وأخبرهم أننا لسنا بحاجتهم، أتمنى أن أخدم أولئك الفقراء والمظلومين والمطاردين ظلماً، أن أكون رسالتهم!!

بعد ذهابنا للغابات المطيرة بالبرازيل، أريد أن نذهب في العام القادم إن شاء الله لشلالات فيكتوريا، وعندما نعود لكاليفورنيا سأريكِ بحيرات راي في حديقة كينج كانيونز، ونذهب لقلعة سكوتني في المملكة المتحدة، هل رأيتِها مع ديانا؟

- نعم.. قالتها تغيظه، فضحك وأكمل :

- ونذهب إلى باريس، و جيرولدسي في ألمانيا، و شلالات ملتنوما في كولومبيا، و ..

قاطعته ضاحكة :

- سنفعل إن شاء الله.. قالتها ببريق سعادة!

أكملا نزهتهما، وطلب العودة حين شعر ببعض تعب، عادت معه ولم تسأله فقد فهمت..

لم يعد للمسكنِ فائدة، ولا للضغطِ نتيجة، زاغ بصره وتشوشت الرؤية لديه، ارتمى على فراشه صارخاً من الألم، وقبل أن تستجيب لصراخه أو تتحرك كان قد انتفض جالساً وقد اندفع قئ من فمه لمسافة أمامه بطريقة أرعبته، فنظرتْ بنان لما حدث بصدمة وقد فهمتْ أنها النهاية!

****

في لوس أنجلوس وفي غرفة العمليات كان هو، بينما بنان منزوية في ركنٍ تبكي وتدعو، بعدما اتصلت بالإسعاف، ووصلا للمشفى، تحدثتْ إلى الطبيبة، والتي قامتْ بكل شئ عن طريق اتصالها بالطبيب المعالج، ووصلت معه حيث يكون الآن. قريبٌ منها تقف عائلته بين صابرٍ وعاجزٍ، وهي كمن ألقي عليه قنبلة موقوتة، تنتظر انفجارها، كمن ينتظر الموت أو أشد وطأة، فقدت إحساسها بكل ما حولها، كانت ضائعة، الضياع هو الوصف الماثل لحالتها، ترجو وتناجي وتبتهل بقلبها، لسانها لا يتحرك كما عينها، لم تحِدْ عن النقطة المسلطة عليها، تمر الساعات وهي واجمة، جريحة، ومقهورة، ليتها ما أطاعته، ليتها ما فعلت به ذلك!

خرجتْ الطبيبة التي شخصت حالته وجدتها أمامها، لم تكن هي الطبيب الذي يجري الجراحة، كانت مساعدة فقط، وخرجت بعد انتهاءهم لكي تطمئنها وعائلته، وإذ بها أمامها فضمتها إليها بشدة فهمت منها بنان كل شئ، ولكن أنقذتها هامسة:

- سيكون بخير! لقد انتهى الألم والمعاناة!!

ضخ الدم إلى وجهها وتورد وابتعدت عنها قائلة بصوتٍ أبح :

- تقولين الصدق؟

- وليس سواه!!

لحق بها عائلته فطمأنتهم كذلك، انتشرت الراحة بينهم، وتماسك عمر بعد صدمته تلك، وازداد بكاء سارة شاكرة، وانتظروا لساعاتٍ أخرى كثيرة حتى يستطيعون الحديث إليه..

ومكثت قريبة منه، تنظر إليه من خلال نافذة زجاجية، تتمتم بالدعاء والشكر، ودموعها تهطل أنهاراً.. كانت الأولى التي دخلت إليه، جلست ملتصقة به واحتضنت كفه ناظرة للعصابة التي تحيط عينيه قائلة :

- لقد انتهى كل شئ، أليس كذلك؟

وضع كفه الآخر على كفها وقال :

- بلى!!.. سنكمل رحلاتنا حين أخرج من هنا إن شاء الله!!

- أنا المجنونة التي أطعتُكَ، ليتني ما فعلتُ!

ابتسم قائلاً :

- لا تلومي نفسكِ! ستبقى ذكرى رائعة بيننا!

- أتعتقد ذلك! أنا مجنونة بالفعل أن أحببتُ رجلاً مثلكَ!

- دمتِ لي مجنونتي!

- دمتَ لي مالكاً، كما أنتَ!

ثم وضعتْ رأسها على صدره وانتحبتْ قائلة :

- كدتُ أموتَ!!

وضع يده على رأسها متمتماً:

- أنا آسف.. حقاً لم أقصد أن يحدث لكِ كل ذلك!

- أحبكَ!

- أعشقكِ!

مرَّتْ تلك الفترة في تحسن صحته صعبة مريحة، لم يخرجْ من الجراحة بأذى، وعوفي منها تماماً، وعادا ليكملا دراستهما مع العمل، وليكملا حياتهما كزوجين طبيعيين، بلا ألم أو معاناة..

****

اشرأبت الأعناق واتسعت الأعين بمزيج من الإثارة والدهشة ؛ وكأن على رءوسهم الطير رغم أن جميعهم يريد أن يستحث الجدة لتكمل ، ولكن أحداً لم يفعل وتركوا المهمة لأصغرهم التي تسكن في حضن جدتهم حيث قالت :

- جدتي ، ماذا حدث بعد الزواج ؟

ابتسمت الجدة وهي تتناول كف الصغيرة تقبلها ثم قالت برقة تضاهي رقة الصغيرة :

- انتهى مجلس اليوم عزيزتي ، لنكمل في المرة القادمة إن شاء الله .

تحدث الجميع في وقت واحد :

- ولكن جدتي نريد أن نعرف ..

- أرجوكِ جدتي ، أكملي فقط ، كيف تزوجتِه بهذه السرعة ..

- جدتي لن نستطيع الانتظار للأسبوع القادم ..

وقفت الجدة بحزم باسم وقالت :

- لدي محاضرة في الغد يجب أن أستعد لها ، ولديكم دراسة ، سنكمل في نفس الموعد الأسبوع القادم إن شاء الله ..

ثم تحركت لتتجاوزهم وتتركهم خلفها في غرفة المعيشة جالسين أرضاً ، حيث تحركت رءوسهم تتبعها ، وحين وصلت للباب التفتت قائلة :

- من المحتمل أن يلغى المجلس القادم لأنني سأسافر مع جدكم إلى بعض الدول ، لم نحدد موعد السفر بعد ولكنني لم أرد أن أفاجئكما بالخبر ، وإن استطعت سنحدد موعداً آخر يناسبنا جميعاً .

ثم ابتسمت بحنان وهي تنظر لأحفادها الكثر وأحفاد صديقاتها وبعض جيرانهم وهم يشهقون في صدمة ، واعتذرت عن ذلك ، فهي مرتبطة بسفر دائم ومحاضرات في دول عدة ، بالإضافة لمغامرات زوجها التي يتوجب عليها مرافقته هو والكاميرا ، والذي يساعدها أيضاً في إعداد المحاضرات التي تلقيها والكتب التي تؤلفها ..

- ماذا ؟ هل انتهى المجلس ؟ يبدو أنني تأخرت كالعادة !

نظرت بنان للمتحدث الذي لتوه جاء وقالت بلوم :

- هذه عادتك !

ابتسم لها بينما قالت إحدى الفتيات الجالسات :

- لقد فاتك الكثير يا جدي ، لم نكن نعرف أنك مشاغباً هكذا ، لقد أجبرتها على الزواج في ليلة واحدة !

ضحك مالك، وقد فهم أن زوجته كانت تقص عليهم كيف تزوجا؟.. بينما اعترضت بنان قائلة :

- أخبرتكم أنه مجرد عقد ، وأننا اتفقنا يومها على تأجيل الزفاف لبعد انتهاء دراستي !

ضحك الجميع على اعتراضها ، بينما تناول مالك كفها ووضعها على قلبه بطريقة تمثيلية قائلاً :

- آه عزيزتي ، هل أخبرتِهم بذلك حقاً ! لقد فاتني الكثير بالفعل !

سحبت بنان يدها وهي تنظر لأحفادها الضاحكين ثم قالت :

- طابت ليلتكم أحبابي ، وفي المجلس القادم إن شاء الله ، لا يأتِ من لم يصلِّ الفجر !

ثم أشار لهم مالك باسماً وهو يلاحظ ارتباك البعض منهم وتناول كف زوجته وغادرا ..

انشغلا بقية الأسبوع في العمل بين محاضراتها التي تلقيها والإعداد لها ، وبين عمله في إخراج الأفلام القصيرة التي عشقها وأبدع فيها ..

تساعده في عمله وتسمع لاستشاراته في عملها ، فلا يفوت لها محاضرة ولا يتركها تسافر وحدها لبلدٍ أخرى ، وأي كتابٍ تكتبه يكون الناقد الأول والقارئ الأول له ..

عمرهما الحقيقي لا يصدق بالنسبة لمظهرهما الشبابي، لا تصدق أن هذين لهما من الأحفاد الكثير، على اعتبار أن أبناء الجميع أبنائهما وكذلك أحفادهم لهما.

بعد أن اكتمل الأسبوع وجاء موعد المجلس في الجمعة التالية ؛ اجتمع الأحفاد وآبائهم إذ أثاروا فضولهم بمعرفة الحكاية التي تحكيها لهم جدتهم ، وعلى الموعد بعد أن صلوا العشاء ، وتناولوا طعامهم الذي يعده جدهم كعادته معهم كل جمعة ، التفوا حول جدتهم التي يجاورها الجد هذه المرة لتكمل لهم الحكاية ، فبدأت بابتسامة هادئة وهي تقول :

- سنسافر في الغد إن شاء الله ، لم أستطع أن أؤجل اليوم حتى لا أثير غضبكم أو يصيب أحدكم ضيق مني !

سمعت ردودهم المودعة والحزينة كما في كل مرة يسافران فيها ، ثم قطع مالك هذا الجو الذي شحن بالقلق قائلاً :

- سأكمل لكم أنا حكاية اليوم ، ولكن أخبروني هل قصت عليكم قوتها وكيف تعرضت للخطر من رجلين يطاردانها!

- نعم أخبرتنا !!

- وهل أخبرتكم بحكايتنا مع المرض؟!..

- مالك .. قالتها بنان معترضة فشد على يدها ولكن اعتراضها زاد مع شعورهم بالتشويق وحثهم له بأن يقص ، بينما همست له :

- لم أكن لأحكي لهم ذلك !

فهمس مثلها :

- أعرف ، لذلك ورطتك !

- أنتَ تفعل هكذا دائماً !

- وأنتِ تحبينني هكذا !

- مالك !

- اعترفي !

ضحكت وهي تنظر للوجوه المحدقة بهما في حرج ، أخرجها منه مالك قائلاً :

- بعد تلك الليلة التي تملكنا فيها، عادت هي لغرفتها في بيت أبي ، وعدت وحيداً لشقتي التي استأجرتها ، ولم أتركها هادئة البال ، سهرت طوال الليل أرسل لها تارة وأحدثها على الهاتف تارة أخرى ، كنت سعيداً جداً ، وبالطبع هي لم تفهم الأمر كذلك ، وهي أيضاً كانت سعيدة ، ولأول مرة كنت أشعر بخجلها ..

ثم ابتسم وابتسمت ، وتركها تكمل لهم الحكاية ويده تعانق يدها ..

تمثل الجدة سيدة هذه الإمبراطورية بحكاياتها المثيرة، وحكاياتِ زوجها، ولم تكن كذلك سوى بدعمه لها في كل شئ، ومساندته لها، مالك كان دائماً ومازال عند ظن قلبها، لم يخذلها يوماً، ولم ينتقص منها..

.

تـــمـــت

.

تنهدتْ الرَّاوِيَة، ووضعتْ قلمها جانباً، ثم قالت بصوتٍ مسموع:

- ولمَ لا؟ النهايات السعيدة ممكنة!!

خرج صوته غاضباً وقال :

- وهل تصدقين نفسكِ؟ هل تصدقينَ أن النهايات السعيدة ممكنة؟؟ انظري حولكِ! انظري كيف يكون الواقع؟ ما أنتِ إلا شخصٌ حالم لن ينال شيئاً سوى زيادة بؤسه!

ثم تحرك بمقعدِه نحو فراشه، واستند على ذراعيه يرفع نصف جسده العلوي بصعوبة، ثم يرفع قدميه بيديه للفراش، واستلقى على ظهره مغمضاً عينيه متغاضياً عن كل ما قال!! .. نهايات سعيدة!!.. إنها عبث!!

٣٥

ما بعد النهاية

نظرتْ نحوه حين اضطجع وتنهدتْ تنهيدة بحجم ما تحمل من الهموم جبالاً، يصمتُ دهراً وينطق كفراً، ولكنه محق، أي نهاية سعيدة في هذا الحال؟! فهو قعيدٌ ،وأخوه أعرج، وأبوهما ميت!! نظرتْ لآخر جملة كتبتها " مالك كان دائماً ومازال عند ظن قلبها " تمتمت بوجع :

- كاذبة!!

اتجهت للسرير، واندست تحت أغطيتها بنفسٍ متقطع لفرط انفعالها الذي تكتمه ليالٍ؛ ما الذي يحدث لهم؟ كل شئ أصبح حالك السواد، غامتْ الدنيا وضاقتْ عليهم، لا طاقة لأي شئ، لا طاقة، اعتدلتْ جالسة، ثم طرقت بسبابتها كتفه وهتفتْ :

- أنتَ! استيقظ وتحدث إليَّ!

كالعادة لم يجيبها،إذ أن كلماته تستطيع عدها على أصابع اليد الواحدة في الأسبوع، ما قاله الآن أطول جملة نطق بها، كررت فعلتها هاتفة بغضب:

- تحدث إليَّ، لستُ جماداً في الغرفة، أنا بشر يشعر وليس فاقداً للمشاعر مثلكَ!

نظر إليها ولم ينطق، هذه إشارة أنه سيتفضل عليها ويسمعها فصرختْ به :

- لديكَ كل الحق!! النهايات السعيدة في الروايات فقط! ولكن الواقع شئ بأيدينا، لنا الحق في تغييره أو الاستسلام لأذاه!

رفع جانب شفته العليا بسخرية ثم قال :

- أحقّا ما قلتِ؟.. وماذا عن موت أبي؟ هل بيدي تغييره؟ ماذا عن أخي الأعرج بسببي؟ هل بيدي شفاؤه؟

تهدج صوتها قائلة :

- وماذا عني أنا؟ لماذا لا تشعر بي؟ لقد مرت سنة على كل ذلك!

هرب بنظراته من أسر عينيها وقال :

- أنا لم أجبركِ على شئ! لقد تركتُ لكِ حرية الاختيار، وأخبرتكِ أنني سأطلقكِ في أي وقتٍ تريدين، لستِ مضطرة للبقاء مع عاجزٍ مثلي!

ضربته على صدره بكلا قبضتيها هاتفة بدموعٍ تساقطتْ من عينيها :

- أنتَ بالفعل عاجز، ولكن العجز في عقلكَ، والنقص في عقلكَ! ليس بقدميكَ! سامحكَ الله على كل شئ، سامحكَ على ما تسببه لي من أذى كل يوم!

وككل ليلة، تركتْ له الغرفة لتبكي حالها في مكانٍ آخر! كل شيءٍ تغير منذ تلك الليلة، وكأن الحياة لا تريد أن تستقيم لهما، وكأن العالم بأسره ضاق عليهما، بعد أن اطمأن من مرضه وعوفي منه تماماً، مر شهرين كأسعد ما يكون، وانتهيا بذلك الحادث!!

في تلك الليلة عاد مالك وأحمد من العمل وكان والدهما معهما، فرقهم حادث أليم، مات عمر سريعاً بسبب مرضه، وأصيب أحمد ومالك، وبقي اثنتاهما في غيبوبة لمدة شهرين استفاق أحمد وخرج من ذلك الحادث بعرج في قدمه اليمنى! وبقي زوجها مغيباً لشهرٍ آخر، إنه شبح الموت يحيطهم من كل ناحية، وذاقوا مرارة الحياة بموتِ أبيهم، وتلتها صدمة الغائبين عن الدنيا بين الموت والحياة يصارعان. وحين عاد أحمد برق فيهم أمل عذب، وفي انتظار مالك كانت قلوبهم وجلة، وحين نهض من غيابه عرف بعجز قدميه!

تلك المصائب التي انهالت عليهم صبروا عليها واحتسبوا رغم مرارتها، وتجاوزوا الألم جميعهم! إلا هو !! لم يستطع تجاوز كونه السائق في ذلك الحادث!! كلما رأى حزن أمه، أو عرج أخيه شعر بقهرٍ لا يعرف سببه، بالإضافه لكونه الآن مقعداً، كل شئ تغير، واسود لونه!!

وبدأت بنان دورها معه منذ غيبوبته، بدأت تحدثه تحثه على النهوض، تذكره بكل شئ بيينهما، وحين نهض قصت له حكايتهما منذ اللقاء الأول في المطار، حاولت أن تظهر له كل الأحداث السعيدة، واختلقت حكاية الجد والجدة والنهاية السعيدة لتخفف عنه خبر موت أبيه..

مر عام كامل بعد ما حدث، لم تمل من محاولاتها لإخراجه من حالته، ولم يمل هو من التشبث بحالته، كل شئ انتهى، الحياة تتحرك حولهما وتتلون وهما ثابتان، لا يتغيران، الحزن ساكن وعشش في غرفتهما لا يتركها، والقلب مات منذ زمن ولم يعد له حياة ولا حتى محاولاتٍ لإنعاش!

كالعادة ستقف أمام مرآتها تعنف نفسها ناهرة " لا تبكي " فتصدم من مظهرها ، ليست فتاة في الخامس والعشرين دخلت هذا المنزل منذ خمس سنوات في عنفوان فتاة مسترجلة تنبض الحياة منها حتى وإن لم تظهر ذلك، إنما هي امرأة عجوز، شاب قلبها، وظهر الشيب على وجهها، يحيط عينيها تجاعيد، وتملأهما حمرة من لم تكف عن البكاء، وقد حفرت الدموع على خديها خندقاً لمجراها، بشفتين متشققتين عجزت عن بسطهما لابتسامة، وعظمتي وجهها تحت عينيها تظهران معبرتان عن نحولة أصابتها حتى تكاد لم ترى كزوجها القعيد!!

هي بشر ونفذت طاقته في استعادة مالك كما كان، لم تعد لديها القدرة لفعل المزيد، حتى أنه لا يوافق على جراحة لعودة قدميه، وكأنه يعاقب نفسه على ما فعل بأخيه وأبيه، ذلك المجنون يحمل نفسه فوق طاقته، عمر أبيه انتهى ولم يكن له يد في ذلك، وأخوه تجاوز عجزه بالفعل، بل ويحاول أن يخرجه هو الآخر من حالته بلا فائدة!!

هم لا يفهمون أن مالكاً مات بالفعل!!!

عادت إليه ووقفت عند رأسه صارخة :

- لتعلم يا مالك أن واقعي بيدي، وسأجعله سعيداً، بل سعيداً جداً.. بكَ أو من غيركَ، أنا لم أعد خادمة منذ هذه اللحظة!!

لتجرب القسوة قليلاً، فإن اللين أفسده...

****

تركته ونزلت لدى سارة، طرقت بابها ودخلت، حاولت رسم ابتسامة فبدا لها أن المحاولة صعبة فتراجعت عنها، اقتربت من سارة وقالت :

- هل يمكنني النوم عندكِ؟

ابتسمت لها سارة قائلة :

- تعاليْ بنان!

وأشارت لها بالجلوس جوارها، جلستْ بنان ثم نظرت إلى عينيها، مازالت تحمل الأمل، هي الشخص الوحيد الذي يمدها بالأمل في هذا البيت، رغم مصابها في زوجها وولديها، إلا أنها مازالت مصرة على أملها النقي!!

- هل نام مالك؟.. نطقت بها سارة، فأومأت بإيجاب ثم قالت :

- هل تريدينه في شئ؟

- لا!! ولكنها المرة الأولى التي تتركينه وتأتي إليَّ، هل فعل بكِ شيئاً؟

- لا! هو لا يفعل شيئاً على الإطلاق!!.. قالتها بصوتٍ منكسر؛ فليته يفعل أي شئ!

ضمتها سارة وربتت ظهرها قائلة:

- هوني على نفسكِ بنان! أنتِ ترهقينها كثيراً معه، لا تقلقي، كل شئ سيسير بخير!! أعدكِ بذلك!!

- لا تعديني بما لا تستطيعي! سأكون بخير، لا تقلقي!

ثم اعتدلت للنوم قائلة :

- طابت ليلتكِ!!

مسحتْ سارة على رأسها بعطف وقالت :

- عوضكِ الله بكل خير!!

ثم تنهدت وهي تدعو الله لها ولولديها مخلصة، ونامت جوارها..

****

في اليوم التالي ذهبت لبيتِ رحيق تتحدث إليها يفكران في حل لإخراج مالك من عزلته، جلست معها وأحمد بينما ياسين يعمل أمامهما في رسم يخططه معطياً ظهره لهم، ويستمع لحديثهم!!

ابتسم أحمد قائلاً:

- مابالكِ بنان! وكأنكِ امرأة فقدت زوجها، سيعود مالك بأفضل مما كان.

انفرجت شفتيها في محاولة للتبسم ساخرة، في حين هتفت رحيق :

- ذلك الشقي سأنتصف لكِ منه..

تنهد أحمد ناظراً لرحيق وهو يقول :

- وما العمل الآن؟ لقد انتهى كل شئ! ومالك كما هو، رافض الخروج من غرفته حتى!

- لنفكر في شئ آخر، لقد غضب بالفعل كما تقول بنان، وهذا شئ جيد، يكفي أنه عبر عمَّ بداخله أياً كان بالسلب أو بالإيجاب!.. قالتها رحيق ..

قال ياسين وظهره إليهم :

- ولكن عليه أن يراعي مشاعر من حوله، لا أن يعيش في دور الطفل غير المسئول، ومن المفترض أن نتحمله لأنه مريض، مالك ليس بمريض!!

ازدردت بنان لعابها ونظرت لأصابع يدها التي تفركهم بتوتر مع التفات أحمد ورحيق إليها لكونها المقصودة من حديث ياسين، والتفت أحمد عنها سريعاً وهو يقول :

- معكَ حق! أنا أيضاً أشعر أننا أفرطنا في تدليله!.. ثم فرد قدمه أمامه بألم مكملاً :

- هو لا يفهم أنني حتى وإن لم أتجاوز إعاقتي فلن ألقي عليه اللوم أبداً!.. لو كان أبي حياً لتجاوز أمره بصورة أسرع من ذلك!!

عم الصمت المكان يلملم كلٌ أحزانه، ووقفت بنان لتنهي هذا اللقاء الذي أنهك قلبها وقالت :

- أستأذنكم الآن! لدي موعد..

قال أحمد مشجعاً :

- سيعود مالك كما كان قريباً، لا تكترثي للسانه السليط..

همست بضعف :

- يجب أن تفهموا أنه من الصعب إحياء الأموات، بل إنه مستحيل!!

ثم اتجهتْ للباب .. لحقتْ بها رحيق لدى الباب وعانقتها قائلة :

- " سيجعل الله بعد عسر يسرا " .. هوني على نفسكِ ولا تقلقي من شئ، سيكافئكِ الله، وتشرق ابتسامتك، أنتِ رائعة بحق بنان، لولاكِ بعد الله ما شفي مالك ووصل لتلكَ المرحلة، ثقي أنني لن أنسى لكِ هذا الشئ!

- إنه زوجي، ولن أتخلى عنه مهما حدث!.. قالتها بنان واجمة وأردفتْ :

- دمتِ لي ساحرة للكلمة!

شاغبتها رحيق :

- وصلي سلامي لصديقتي، لا أستطيع ترك هذين الرجلين أثناء عملهما، لن يستطيعا التركيز في غيابي..

ابتسمت بنان قائلة :

- سأحفظ ذلك سراً بيننا..

ضحكت رحيق ثم قالت :

- كثرت أسرارنا هكذا، فكري في نشر كتابكِ، لا تنتظري مالك!

سجدت بنان ببصرها ثم قالت :

- سأحاول فعل ذلك!!.. ثم ودعتها..

ذلك الكتاب الذي قصت فيه كيف تحول فكرها، كيف آمنت ولم تحكِ لمالك كل ماعانت، ولا كل الإشكالات التي وجدتها..

وذهبت لتلتقي بديانا وميرا، قادرتان هما على التخفيف عنها ..

عادت رحيق لتجد ياسين جلس جوار أحمد وقال :

- وأنتَ يا أحمد متى تتجاوز الأمر؟

- أنا تجاوزته بالفعل، لست في حاجة لأحد! لا أريد مساعدة من أي شخص، لست عاجزاً!

ارتفع صوت ياسين قائلاً :

- لا يا أحمد، أنتَ لم تستطع تجاوز ما حدث، حتى وإن كنت لا تحمل مالك الذنب، أنت تحمله لنفسك كأخيك، نادم على أنكَ غبت لسنواتٍ عنا، وحين عدت مات أبوك!

تنهد أحمد ثم وقف ليخرج، فوقف ياسين مانعه:

- بعد ذلك الحادث جميعكم سارت حياته بشكل طبيعي، إلا بنان ومالك، اجلس يا أحمد!! الحق لا يُغضِب ..

جلس أحمد بيأس، وعاد ياسين ليكمل عمله، وبعد دقائق قال الأول :

- هناك أشياء يصعب تحملها، الأمر ليس كما تفهمان، نعم تجاوزت موت أبي، وتجاوزت الحادث الذي لم أفكر فيه بطريقة أخي الغبية، ولكن كيف أتجاوز شعوري بالانكسار، أنا إلى الآن لم أستطع مساعدة مالك في الخروج من حالته، هل تفهمون ماذا يعني ذلك؟ مالك يشعر أنني أوجه الاتهام إليه، كلما رآني، نظر إلى نفسه كمجرم، كلما رأى نظرة الحزن في عيني أمي احتقر نفسه.. مالك يحتاج لمعجزة حتى يعود مثلما كان ويتجاوز الأمر، لا حديث ولا طعام إلا بالكاد، رباه ..لقد برزت عظامه..

التفت له ياسين وقال:

- لا توجه اللوم إلى بنان إذاً، أخوكَ رفض العلاج ورغم ذلك ساعدته، وأعتقد أن الحل المثالي الآن هو تغيير الاستراتيجية ..

قالت رحيق بشرود :

- هذا ما أفكر فيه بالفعل!

****

في ذلك الحين، انتقلتْ ميرا وزوجها لبيتٍ آخر يجمعهما بعائلتها، وبعد سنواتٍ من الزواج في تلك الشقة الصغيرة المتواضعة، فتح الله عليهما برزقٍ وفير، و كانت تحمل طفلهما الثاني!

دخلتْ ميرا إلى زوجها في المطبخ لتجده يغسل الأطباق، فابتسمتْ قائلة :

- هل اعتدتَ الأمر؟

نظر لها مبتسماً وقال :- يبدو أنكِ من اعتدتِ التدليل!

اقتربتْ منه وقالتْ :- دعني أكمل أنا، واذهب لعملكَ، أو اذهب للجلوس مع أمي!!

قالتها وهي تجز أسنانها فقال ضاحكاً :

- ولماذا أمكِ؟ سأذهب مع الثلاثي المرح أخواتكِ؟

- محمد!! لا تستفزني!! وهؤلاء المتشردات سأقتلهن إن حدثتكَ مرة أخرى!!

أنهى عمله وخرج ضاحكاً وهو يقول :- لنرى إذاً أيتها الغيورة، واستعدي لاستقبال صديقتيكِ سأخرج الآن !!

صرخت به مغتاظة :

- نعم اخرج!!

أكمل ضحكاته، وهو يبتعد عنها، بينما دخلت أمها، تحدثتا قليلا قبل أن تأتيها ديانا وبنان..

وصلت بنان مع ديانا وكالعادة كلما جاءت لزيارة ميرا التف حولها أخواتها الثلاثة، وأهلكوا رأسها من الحديث، ولكن ميرا رحمتها منهن وهي ترسلهن لأمها، ثم جلست بنان معهما .. فسألت ديانا وهي تنظر لبطنها باسمة :

- طمأنيني عليكِ، كيف حال جنينكِ؟

ابتسمت ميرا وهي تحرك يدها على بطنها بحنو قائلة :

- بخير، ولكنني أشكرها كثيراً، إذ تسبب لي التعب وتجلب شفقة محمد عليَّ، ويساعدني في كل شئ، وهذا شئ جيد!

- أنتِ شريرة.. هتفت بها ديانا باسمة، فقالت ميرا :

- لا أنا امرأة عاشقة، لا شأنَ لكِ بي!.. ثم نظرت إلى بنان قائلة :

- وأختنا العجوز كيف حالها ؟

- بخير .. همست بها بنان، فقالت ميرا :

- يا إلهي، أصبحتِ أكثر شبهاً بأم جلجل..

ضحكت ديانا بشدة وهي تحاول نطق الكلمة خلفها، وابتسمت بنان قائلة :

- أنتِ الوحيدة التي تضحكينني، ولكن من أم جلجل؟

ابتسمت ميرا ملوحة :

- لا أعرف إنها امرأة يشبهني بها محمد عندما أغار..

تنهدت بنان وهي تقف قائلة :

- الحمد لله أنكِ بخير، جئتُ مع ديانا لأطمئن عليكِ فقط، ولكن لا أستطيع ترك مالك أكثر من ذلك؟

سألت ميرا مبتسمة :

- ألم تتحسن حالته؟

أشارت بنان برأسها نافية، فهتفت ميرا بحنق :

- سأقتل زوجكِ هذا!

ابتسمت بنان ساخرة وقالت :

- هو ميت بالفعل، أستأذنكما..

ودعتهما وغادرت، بينما نظرت لها ديانا بشفقة حزينة..

ديانا وآدم رغم أنهما لم يرزقا بأطفالٍ إلا أن سعادتهما تزداد لا تنقص، وآدم يتغير للأحسن بالفعل، حتى وإن كان التغير بطيئاً، وعادت لديانا نفسها هادئة!

****

عادت إليه، وفعلت الشئ المعتاد ناسية وعيدها له بأنها لن تفعل، بدأت تقص له أين كانت؟ ومع من؟ وماذا فعلت؟ وبالطبع كما هي معتادة لا يجيبها كأنها في الغرفة وحيدة، لن تطلب منه الحديث لأنها اعتادت الأمر، تخرج من مكان وتدخل آخر وهي تتحدث، استأذنته لتصلي، ثم حين انتهت أكملت حديثها الذي أصبحت تجيد إضافة النكهات إليه حتى تلفت انتباهه أو تجعله يتحدث، بلا فائدة!!

نظرت إليه وسألت بعدما شعرت أن الحديث أرهقها :

- هل جاءتكَ العمة سارة؟

نظر إليها بوجهٍ جامد لفترة، وقد ظنت أنه لن يجيب كالمعتاد، ثم أومأ برأسه مجيباً، تنهدت بقوة، ثم وقفت قائلة:

- لم تكن لتخسر شيئاً إن قلت نعم.. واتجهت لغرفة أخرى كالعادة، قد تبكي، وقد لا .. ولكن صوته أوقفها قائلاً :

- لا تبكي!!

صدمت، ثم نظرت إليه وقالت :

- وهل يهمك الأمر؟

بالطبع لم ولن يجيب، فتركته وانصرفتْ، وفي وقت النوم عادت، وجدته رفع نفسه إلى فراشه، فاندست جواره ولم تنطق. يرفض مساعدتها ويفعل كل شئ لنفسه متحدياً عجزه، واعتادت هي الأمر..

- بنان..

لم تصدق أذنيها، وهي تسمع صوته الهادئ، أرهفت السمع وانتبهت ولم تشعره بذلك فأكمل :

- لا تربطي نفسكِ برجلٍ عاجز!.. أقصد أن ..

لم يكمل حديثه وفهمت ما يريد فقالت :

- لا شأن لكَ بي ..

- ولكنني قد أطلقكِ دون أن أخبركِ!

اعتدلت جالسة ثم اقتربت منه وقالت ببرود :

- لتفعلها يا مالك، ولكن قبل ذلك ترد إلي كل تعبي وهمي، تدفع ثمن بكائي وسهري..

أسكتها شعورها بسخونة أنفاسه فنظرت إليه برعب، ثم وضعت يدها على رأسه تتحسسها وهتفت بخوف :

- مالك! أنتَ مريض! بمَ تشعر؟

عبس وهو يقول :

- أنا بخير!..

ابتعدت عنه وهي تبحث في أرجاء الغرفة عن أي دواءٍ له ولكنها لا تعرف ما الذي يجب عليها إعطاءه؟ اتصلت بالطبيبة والتي أخبرتها بأدوية له، ارتدت ملابسها واتجهت للصيدلية لشراءها. كل ذلك تحت أنظاره، لم ينبس ببنت شفه، وشعوره بالعجز يتضخم أمامه حتى كاد أن يخنقه، شعوره بالاختناق والقهر، بالمرارة والألم، لماذا تبقي عليه؟ ما الذي يضطرها لذلك؟ وما الذي فعله فيها؟.. لقد كره نفسه أكثر، حتى بنان لن تسلم من أذاه ...

عادت بعد الشراء فقابلها أحمد قائلاً بقلق :

- بنان! أين كنتِ الآن؟

قالت وهي تصعد :

- إنه مالك! مريض! كنت أشتري بعض الأدوية له!

- هل يمكنني الصعود إليه؟.. سأل فتوقفت، وهي تلوم نفسها لماذا أخبرته؟ كيف سيصعد الآن؟ الأمر صعب عليه!.. ولكنها قالت :

- نعم يمكنك!

ثم اتجهت لتصعد سريعاً، وهي تعلم أنه سيأخذ وقتاً حتى يلحق بها، هو كأخيه ليس بحاجة للمساعدة ..

كانت تتحرك في الغرفة بسرعة، تناوله دواءه وتحضر له بعض الماء البارد، وتعد له شيئاً يشربه، حتى صرخ بها وقد أشفق عليها :

- كفاكِ!! أنا لا أريد منكِ شيئاً، دعيني أموت..

توقفت عن فعل كل شئ، ولم تتحرك، ألن يفعل شيئاً سوى الصراخ بها؟ اقترب أحمد من غرفتهما حين أكمل مالك صراخه وقال :

- اذهبي من هنا!! .. أستطيع الاعتناء بنفسي!!.. ما الذي يبقيكِ معي، أنا لا فائدة مني أو من عودتي كما كنت.. ارحلي الآن!! اتركي المنزل واذهبي لمكانٍ آخر، لن تجدي هنا سوى خدمة عاجز مثلي .. اذهبي أنتِ ...

- مالك .. صرخ بها أحمد وهو ينظر لأخيه بقسوة، ولم تتحرك بنان من موضعها حتى الآن، فالتفت لها أحمد قائلاً :

- بنان!! لو سمحتِ اذهبي لأمي، وابقي معها، لا تخافي هذا الشخص لن يموت بسهولة..

أطاعته بنان وقد كستها الصدمة، بينما اتجه أحمد لأخيه وهو يضرب بعصاه أرضاً كأنما يريد تحطيمها ثم قال :

- لتعلم يا مالك أنني لن أفوت لك ما قلته الآن! ولتعلم أنك إن طلقتها فلن تراها عمرك كله، وقد أفعل الشئ الأبعد على الإطلاق عن خيالك! قد أفعل شيئاً يجعلك تعض أصابعك من الندم !!

ثم ألقى أدويته جواره وقال :

- تستطيع تناولها فأنت لست بعاجز.. لن يميتك المرض لا تقلق! فلم يميتك ورم أو حتى حادث..

****

ذهب أحمد إلى مكان اختلاءه في الليل، وجلس ناظراً للقمر، اليوم لم يعد يفتقد عمار فقط، بل يفتقد أباه أيضاً، الآن هو يشعر بوحدة غريبة عليه، يشعر بذلك الخواء الذي يعيش فيه، يملأ وقته ويزحمه حتى يبعد التفكير عن رأسه، ولكن يأتي الليل عليه، ليزحم رأسه بأفكاره..

منذ استفاق من غيبوبته وعلم بموت أبيه وحالة أخيه، والدنيا تحولت عنده من قاسية لأقسى، وكأن جسده انتقل من وحلٍ لوحلٍ أعمق.. مرارة في كل شئ، يهون على أمه، وهو في أمس الحاجة ليدٍ تساعده على النهوض، يكثر الجلوس مع رحيق في بيتها أو مع ياسين في العمل، ويتقبل منهما كلمات المواساة والتخفيف، لم يكن يعرف أنه في أشد الحاجة لذلك، يلعب مع طفليهما وكأنهما له، وفاجأه ذلك الشعور بالأبوة نحوهما، يملأ فراغه بهما..

هناك علقم في حلقه، لا يعرف سببه، أهو حالة مالك؟ أم حالته هو؟ لم يؤذهِ كونه رجلاً أعرج بقدر أن آذاه موت أبيه، هو بالفعل رجل بائس ورافض للحياة، فلم يهمه كيف يكون شكله، حتى آلامه، اعتادها وكأنها أصبحت رفيقة وحدته..

الألم .. كيف يكون؟.. يبحث عن تفسير له.. هل هو في نفسه أم في جسده؟ أم تكالبا كلاهما عليه؟.. هناك في حياته شئ يفتقده.. ما هو ؟؟

- اصبر يا أحمد! كل ما يصيبنا لا يمثل الألم لأناسٍ آخرين، لديهم من المعاناة أضعاف ما لدينا، لنصبر ونتوكل على ربنا، هو حسبنا وبيده تخفيف كل ما نحمل.. هو الكريم، وبذكره تطيب النفوس..

أخته ساحرة الكلمة، قادرة بطريقة غريبة على قول ما هو بحاجة إليه، قادرة على جعله ينظر إليها بحنان ويبتسم، هي فقط من تستطيع فعل ذلك!!

٣٦

السعادة اختيار

رتبت أوراقها أمامها وتنهدت ثم بدأت في الكتابة .. هي الآن في منزلها القديم الذي تقاسمته مع ديانا، بعد أن طردها مالك، ولم تستجب لأحمد بالبقاء مع سارة، كفاها إهداراً لكرامتها حتى الآن، زوجها ليس بحاجة للمساعدة، حتى أنها أرسلت إليه في طلب الطلاق بالفعل ..

{{ ذات يومٍ قرأتُ قول الله

((فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ،

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ،

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ))

كل ما جاء في بالي حينها أنني سأنشئ بيتاً من هذه البيوت، سأكون المقصودة بقول الله، هنالك شعرت بالجنة حولي، شعرت بحسن الجزاء وأنا لم أكن بعد، ولكن الله صادق الوعد، وأنا أصدق قوله وأؤمن به، نويت أشياء كثيرة، وكانت في نياتي كلها صورته - صورة مالك - تشاركني فعلي قبل قولي .. ولكننا لم نفعل شيئاً، ولم أكن من أصحاب تلك البيوت..

شعوري الآن يكمن في قوله - تعالى-

((وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ، لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)) ..

" كره الله انبعاثهم فثبطهم " .. لشد ذلك القول على قلبكَ، أن تشعر أن الله يكره طاعتك، ويكره سعيكَ إليه، لأنه يعلمُ أنكَ لستَ بصادقٍ، وأن ما تفعله رياء، وأنكَ لا تريد الفعل، لم يرَ منكَ الإخلاص فثبطكَ.. حياتي الآن تدور حول هذه الآية.. " وقيل اقعدوا مع القاعدين " ..

ذات يومٍ قرأتُ، وذات يومٍ نويتُ، وشغلتْني الدنيا عن كل شئ، شغلتني عن السعي الذي أصبح لي هدفاً.. ولكنني لن أقف هاهنا أنتظر .. سأفرُّ إليه، حتى وإن وقعت لمراتٍ سأقف وأحاول حتى الموت ...

((فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ))

عندما ينهار جسدكَ لا تتخلى عن إنقاذ روحكَ بشتى الطرق، حارب لأجل ذلك ولا تتوقف، فإذا ما ضاعت روحك، لم تعد وسيلة لإنقاذ الجسد ... }}

انتهت وذهبت حيث رحيق، أصبحت تخشى أفكار ذلك الثلاثي، وتخشى من اجتماعهم؛ لأنه في الغالب يكون ضد زوجها، جلست في مكانها المعتاد، فتحدث أحمد معاتباً :

- لم يكن هذا ما اتفقنا عليه بنان!! ولكن صدقيني سنكون جميعنا في صفك، إن تمسكتِ بطلبكِ!!

ازدردت لعابها ولم ترد، فقالت رحيق بمرح :

- قررنا تأديب ذلك الطويل !

نظرت لها بنان فوقفت رحيق قائلة :

- تعالي معي!!

نهضت معها فانفردتا في إحدى الغرف تاركتين أحمد وياسين في انتظار قرارها. جلست بنان تقابلها رحيق والتي بدأت :

- أولاً سأسألكِ أنا هذا السؤال وليس مالك، لماذا أبقيتِ عليه إلى الآن؟ هو لا يستحق ذلك!

فكرت بنان لبرهة من الوقت ثم قالت :

- في بادئ الأمر عندما دخل في غيبوبة، وأخبرتني الطبيبة أن علي محادثته، كنت أفعل بدافع الحب الذي جمعنا والرباط المتين، بدافع أنه مالك وليس سواه، وسأبقي عليه حتى أموت..

عندما نهض من مرضه، تحملت حالته تلك ظناً مني أنها لن تطول، وتمر الشهور وهو لا يتغير.. ولكن استماعه لحديثي بصبر، أعطاني بعض الأمل، حتى أنه لم يسخر مني أو مم أفعله، في المرات القليلة التي تحدث فيها أو طلب مني المساعدة كدت أطير فرحاً..

مالك يحبني أنا واثقة من ذلك، فعل الكثير لأجل سعادتي فقط، ما يؤلمني أكثر أنني من ضمن أولئك الذين كلما رآهم شعر بعجزه أكثر، لذلك لم يكن بداً من البعد..

تنهدت رحيق ثم قالت :

- وهذا ما أردتُ قوله لكِ لقد دللناه كثيراً، فلا مانع من بعض القسوة.

- كيف؟؟

زمت رحيق شفتيها وسألت :

- في الحقيقة أنا أريد مساعدة الاثنين؛ أحمد ومالك.. هل يمكنكِ مساعدتي؟

- ولكن .. ولكنني لن أعود لمالك!!

- حتى وإن جاء إليكِ واعتذر بنفسه؟.. قالتها رحيق بحماس، فعقدت بنان جبينها وقالت :

- أخوكِ الذي لم يخرج من غرفته، سيأتي إليَّ؟

- لأنه يحبكِ!

- بالله عليكِ لا تراهني بتلك الكلمة، فأنا لست بحاجة لجرحٍ آخر!!

أمسكت رحيق يديها وقالت :

- اسمعيني بنان!! أنتِ ستعودين لمالك، وهذه المرة لن تعودي لينة مرة أخرى، مالك بحاجة لبعض القسوة، وأنتِ القادرة على ذلك، حتى وإن لم تعودي فهذه وحدها قسوة..

- ثم .. قالتها بنان وأردفت :- وإذا عدتُ إليه، كيف تكون القسوة؟

- التجاهل التام، وكأنه شخص غير متواجد في الغرفة، ونحن سنتوقف عن زيارته، مالك أراد أن يوصل لنا أنه شخص ميت، نحن سنوصل له أننا نعتبره ميت بالفعل، ولأنكِ الشخص الأكثر اختلاطاً بهِ، فيجب أن تكوني أول من يشعره أنه غير موجود بالفعل !!

اتسعت عينا بنان وقالت بحماسٍ :

- سأعود الآن!! مع احترامي لكِ، ولكن يجب أن أنتقم من أخيكِ!

ضحكت رحيق قائلة :

- إنه زوجكِ افعلي فيه ما تريدين! ولكن أولاً يجب أن تهتمي بنفسكِ، يجب أن تبتسمي، وأكملي حياتكِ كما كنتِ تخططين، دروس الكتابة والعمل، والحمد لله أنكِ ستنهين دراستكِ هذا العام،

وما تركتيها، يجب أن تعودي بنان القوية، بنان التي ذهبت لناسا تطلع لقوانين الكون، ولجأت لأبحاث الأجنة وما أوقفها أي شئ، حتى تقتنع بوجود الله، هل عاجزة الآن عن رد روحكِ إليكِ؟

- لا !! لستُ عاجزة!! غداً سترين كيف يكون مالك؟.. قالتها بنان بتصميم، فابتسمت رحيق وقالت :

- لنبدأ إذاً، وسأتصرف أنا مع أخي الآخر، لقد رزقت بعاهتين..

ابتسمت بنان وقد نفذ بعض الألم لقلبها بعد اختراق جداره، وقالت :

- أستطيع مساعدتكِ أيضاً!

عانقتها رحيق وأخذت كل منهما عهداً على الوفاء!!

****

عبرت الطريق سريعاً تحمل حقيبتها بيد، وباليد الأخرى تتناول شطيرة تقضمها، تبحث بعينيها عن شئ ما في حقيبتها غير منتبهة للطريق، ولم تعير سيل الشتائم الذي نالها أو النهر الذي ألقي عليها من قائدي السيارات أي اهتمام، حتى وصلت للجانب الآخر، وضعت حقيبتها على أريكة وصلت إليها، وأخذت تقلب في محتواها بيدٍ واحدة مستخدمة الأخرى في الطعام، وحين عجزت عن إيجاد ما تبحث عنه، فرغت محتوياتها كاملة بكل ما تحمله من أشياءٍ خاصة بها أو معتادة، حتى وجدت ضالتها، تناولت المناديل الورقية، ثم مسحت بها فمها ويديها، وأعادت ترتيب حقيبتها مرة أخرى، وجلست ثم طلبت رقماً ووضعت هاتفها على أذنها تنتظر الرد، وبعد الإجابة هتفت بحبور :

- حبيب قلبي!!

قالتها بالعربية وسرعان ما تحول حديثها إلى لكنة أمريكية خالصة، أنهت المكالمة ونظرت جوارها كأنها لمحت أخيراً أن هناك من يشاركها ذلك المكان فابتسمت له ومدت يدها بشطيرة أخرى قائلة :

- يبدو أنكَ جائع، تفضل!

وكأنه لم يسمعها فقالت :

- أعلم أن رائحة البرجر تثير الشهية، تناولها هيا، إنه لذيذ وساخن أيضاً!

كررت :- هل تحب بعض الكاتشب؟

- أشكركِ! لستُ جائعاً!!

حين سمعت صوته دققت النظر فيه وقالت :

- المهندس أحمد! أنت المهندس أحمد عمر! ظننتك فقيراً بائساً، لا عليكَ، تقبلها مني إذاً، ولكن ليس كفقير!

- أشكركِ!.. أومأ أحمد برأسه ناظراً أمامه، ولم ينظر نحوها قط فقالت :

- كيف حال مالك؟

- بخير!!

عادت لتتلذذ بقضم شطيرتها وهي تقول :

- ستخسر الكثير لأنكَ لم تأكل من هذه!!

بعد برهة من الوقت سألت بصوتٍ مغايرٍ تماماً لذلك الذي تحدثت به منذ البداية، بدا صوتها يحمل من الغم الكثير وهي تقول :

- لماذا تجلس وحيداً هنا؟!.. منذ عدتَ إلى لوس أنجلوس وأنتَ تفعلها، نصيحة من امرأة فعلت قبلُ ما تفعله أنتَ الآن!! الوحدة بين أهلكَ شئ قاسي، فلا تشجع نفسكَ عليه، اندمج بينهم حتى ولو مكرهاً، قد يحميكَ صخبهم من وحدة في القلب تميته!!

- رؤية!!.. سمعا كلاهما نفس الصوت، فانتبه أحمد، والتفتت هي، ثم عادت الحيوية لصوتها مرة أخرى وهي تقف هاتفة :

- حبيبي!! .. لقد تأخرتَ أيها الكسول!

ثم اتجهت إليه وعانقته قائلة :

- إن كررتها ستدفع غرامة على ذلك، ثم أنني جائعة بشدة هيا لتدعوني في مطعم فاخر!!

عقد أحمد حاجبيه، وانفلتت منه ابتسامة عندما قالت بأنها جائعة، لقد أنهت شطيرتين لتوها، مازال ناظراً أمامه، ولم يلتفت أو يرى الشخص الذي تحدثه، من المؤكد أنه زوجها. عادت إليه وهي تتأبط ذراع الغريب، ووقفت أمامه قائلة :

- أعرفكَ يا عمر، المهندس أحمد عمر..

مد عمر يده مرحباً، فسلم عليه أحمد وهو يقف، بينما تقول رؤية :

- هذا عمر زوجي!!

حاول عمر الحديث فوضعت رؤية يدها على فمه سريعاً وقالت :

- حبيبي لا داعي للمزاح الآن!!

بينما يقول أحمد الذي استنكر فعلها :

- سعيدٌ برؤيتكَ!

رد عمر بضيق بدا جلياً من فعل رؤية وهو يقول :

- سعيدٌ لرؤيتكَ أنا أيضاً..

ثم سحبته رؤية مبتعدين، ويتابعهما أحمد بعينيه مشاهداً تناحرهما بالأيدي والحديث مستنكراً ذلك، ولكنه عاد لتأمله مرة أخرى، وكلماتها ترن في عقله.. لم تؤثر فيه كلماتها كتأثير صوتها، إنه يعرفه، يعرف هذا الصوت جيداً، هل هو ما يبحث عنه؟ اتسعت عيناه دهشة عندما فاجأه هذا الخاطر، هل هي تلك المرأة؟ أيعقل هذا؟ ليتحرى الأمر أولاً..

****

عادت بنان للمنزل بعد يومين عازمة على تغيير مالك، أو قتل بروده، وتدعو ربها أن تستطيع ذلك، هي تعاني من كل شئ، تعاني حين تراه يحاول ارتداء ملابسه، ثم يعنف عليها ويرميها، حين يحاول الصعود والانتقال لفراشه ويعجز مرات عن ذلك، حين يرفض مساعدتها له ويصر على جلب الأذى لنفسه، ولكنها ستغيره، ما الذي يبقيها عليه بالفعل؟ هل ما أجابت به رحيق؟ هي تحب مالك، وواثقة من أنه يحبها ولا يتحمل لها الأذى، ولكن إلى متى ستتركه هكذا؟

دخلت الغرفة فوجدته ساكناً في مقعده كما يفعل دائماً، ألقى عليها نظرة سريعة ثم عاد لحالته ولم يتحدث، هي أيضاً لم تكن تنوي التحدث أو فعل ما اعتادت عليه، ستعامله بالمثل بل أقسى.

لم تعرف ما الذي أصابه في بعدها، نعم هو يكابر ويعاند، ولكنه يعشقها، يعشق صوتها الذي يحيي جموده، يعشق التفاصيل التي تخبره بها، يعشق لمساتها التي يرفضها في كل شئ، يعشق الحركة والجلبة التي تسببهما في الغرفة، هي الحياة!!

حين دخلت رفع نظره إليها فارتعد قلبه، ونبض بعنف، أمازال حيا؟ غض بصره عنها سريعاً حتى لا يظهر شوق في عينيه يفضحه، أو تظهر سعادته بعودة الحياة إليه، ولم يكن يعرف أنها عادت لتريه ما هو أقسى من الغياب..

اندهش بالفعل، حين دخلت دون حديث، ثم تذكر أنه من عليه الاعتذار، ورغم ثقله عليه تجرأ للنطق، فلم يكن يعرف أبداً أنها ستغادر البيت بعدما طلب منها أحمد الذهاب لأمهما..

- بنان!!...أنا آسف!!

ارتعشت حين سمعت صوته بتلك النبرة التي تجردت من جموده، وكادت ترمي بكل خططها، ولكنها تماسكت، ولم تعيره أي انتباه، ودلفت إلى الحمام لتبدل ملابسها تاركة إياه يسب نفسه أن نطق وتحدث إليها. انتهت وعادت لم تنظر إليه وتحركت لمكتبها وجلست عليه، جاءتها مكالمة من رحيق فابتسمت وهي تجيب قاصدة أن يسمع وقالت :

- رحيق! كيف حالكِ؟.... نعم، عدتُ الآن! لقد أرهقني البحث عن عمل!....أفكر في الذهاب لذلك المقهى الذي كنت أعمل فيه، ولكنني أكره صاحبه، إنه يحب النساء، وليس لديه أية أخلاق.... لا، لن أعمل في الشركة، أنتِ تعرفين أنني لا أفهم أي شئ في عملكم، أفكر في البحث عن عمل في مجالي.... بالتأكيد سأخبركِ حين أجد...لا ، لا داعي لطلب المساعدة من أحد، سأعتني بنفسي جيداً، إلى اللقاء!!

ثم ضحكت كثيراً حين تهامستا عليه، وأغلقت، لم يتحدث أو يعلق على ما سمع رغم أنه يحترق منذ ذكرت صاحب العمل!

رن هاتفها مرة أخرى، فشعر بالضيق الشديد، لم تكن كثيرة الحديث على الهاتف، بل إنها أحياناً كانت تغلق هاتفها لتتحدث إليه، وتكمل له أحداث يومها، سمعها وهي ترحب بديانا فأرهف السمع ليعرف ماذا تريد هي الأخرى؟ ولكن لماذا لم تسأل رحيق عنه أو تطلب الحديث إليه؟ صحيح أنه لم يكن يجيبها سوى بكلمة واحدة " بخير " ولكنها لم تمل من السؤال عنه، ولم تمل زوجته من قولها في كل مرة " رحيق كانت تسأل عنكَ " ..

- ديانا الرائعة!!.. ماذا؟ من أخبركِ أنني أبحث عن عمل؟... رحيق كلمتني الآن، لماذا لم تخبرني؟... مع آدم وبراون؟ .... مخرجة؟؟ .. أنا !!!

ثم ضحكت بشدة وقالت :

- لا أصدق !!

أنهت ديانا المكالمة بسرعة وهي تقول باسمة :

- المقابلة الشخصية غداً، واعلمي أننا لن نجامل أحداً! إن وجدنا من هو أفضلَ منكِ سنعينه على الفور، يجب أن تعدي العدة وتحضري نفسكِ جيداً!!

أنهت بنان اتصالها ثم اتصلت برحيق سريعاً وقالت بلهفة :

- رحيق !! أخبريني ماذا أرتدي في الغد؟

ناسية إياه تماماً! ألن تسأله هو؟ يا إلهي ماذا تفعل؟ ليست بحاجة إليه، حتى إنها لم توجه إليه كلمة واحدة منذ عادت، أنهت اتصالها، ثم أجرت اتصالاً آخر بميرا تسألها عن دروس الكتابة.. ماذا يحدث حوله؟ هل تخلصت منه؟ أين هو من هؤلاء؟ .. ورغم ذلك كله أظهر عدم اهتمامه واتجه لفراشه يرفع نفسه عليه ويتظاهر بالنوم، تاركاً إياها تشعر ببعض انتصار.. فمهما أخفى تستطيع فهمه من عينيه..

****

أثناء جلوسه مع والدتها يحتسيان القهوة، ويدور بينهما حديث طويل، دخلت ميرا عليهما لتجد ابتسامة زوجها الواسعة، وأمها تحتضن كفه داعية، وكأنما ضبطتهما متلبسيْن عندما رأت محمداً يقبل يد أمها. ستعمل عقلها وتبث فيه كلماتٍ تهدئها، إنما هي مثل أمه، لا تغاري من أمكِ، هو ليس لكِ فقط، وحين تنهي تحذيراتها تتصرف بعفوية شديدة، كما فعلت الآن، وهي تضع يدها أسفل بطنها والأخرى وراء ظهرها، وأنت بضعف، وتباطأت مشيتها، فالتفتا لها، ونهض محمد نحوها سريعاً يسندها، فابتسمت ولكن في نفسها شئ خجل، لماذا تفعل ذلك؟

أجلسها جوار أمها التي نظرت لها بعطف وربتت بطنها فنطقت ميرا :

- أنا آسفة، لم اقصد!

- لماذا تعتذرين؟.. سألت أمها، فقال محمد وقد فهم ما قصدت :

- تقبلنا اعتذاركِ، أهم شئ أن تثقي بنا! يا أم جلجل!!

ابتسمت عيناها وهي تنظر له بخجل أكبر، وقد عرفت أنه فهم ما افتعلت، ثم أكملت جلوسها معهما لا تتحدث، ولا تشارك إلا إذا وجه حديث إليها، ناظرة لزوجها تارة، ولأمها تارة أخرى بابتسامة حنون. ماذا لو لم تأتِ أمها إلى هنا؟ كيف حياتهما ستكون؟ وكيف ابتعدتْ عنهم لسنوات؟ حتى أخواتها الشقيات، لا تعرف كيف حياتها ستكون دون الضوضاء التي يسببنها..

قاطع أفكارها أصواتهن، فهتفت :

- ها قد عدْنَ من المدرسة! لنبدأ وجع الرأس إذاً!

ضحك محمد قائلاً :

- إن سمعنكِ لن يمر يومكِ على خير!

****

خرج ياسين من غرفة ولديه فقابلته رحيق بابتسامة وقالت :

- لماذا تطيل في حكايتكَ؟ عندما أكون معهم لا أصل لمنتصف الحكاية فأجدهما ناما..

ابتسم ياسين وقال :

- هذا لأنكِ تضعين لهما منوماً في حكاياتك، أما أنا أثير عقليهما..

ضحكت ثم قالت :

- حسناً، أريد أن أخبركَ بشئ، ولكن خمنه أولاً!

رفع للسقف رأسه مبتسماً ثم أغمض عينيه، مصدراً صوتاً دلالة على التفكير، وبعد ثوانٍ هتف :

- هل تحسن مالك؟

- لا

- هل انفكت عقدة أحمد ؟

ضحكت وكررت :- لا ..

- هل وجدت بنان عملاً؟

- لا

- هل نشرت كتابها؟

- لا .. أنهت ضحكها ثم همست :

- ياسين ما سأخبركَ به يخصني أنا وأنتَ فقط!

سكت لهنيهة ثم ابتسم، فقالت :

- شئ تريده، سيسعدكَ بشدة، سيمنعني من العمل أحياناً!

برقت عيناه وصاح بها ضاحكاً :

- أنتِ حامل؟!!

هزت رأسها بابتسامة واسعة، فشرق بشدة مردداً :

- يارب توأم!!

- حرام عليكَ!

عانقها وهو مازال يضحك ثم قال :

- دعيني أفرح بعد عام الحزن هذا!

وأي عام، أن تخفي حزنكَ لأن هناك من بحاجة إليكَ، يحتاج لابتسامتك، وطيب وجودكَ، أن تلملم شتات نفسكَ المبعثرة، وتخفي ألمكَ، وتتظاهر بالصبر والرضا بينما يحترق صدركَ، ويخنقكَ بكاءكَ المكتوم! كلاهما فعل ذلك، هي لأهلها وأبنائها، وهو لها، يطيب أحدهما جراح الآخر بنفسٍ راضية، لم يعد هناكَ وقتٌ لإثارة الخلاف بينهما، أو ليتمسك كل منهما بأفكاره متناسياً مشاعر زوجه. هكذا المصائب تجردنا من القوة المتسربلين بها، وتعري ضعفنا!

****

بدأت يومها بالخروج للقاء رحيق، وشراء ملابس مناسبة، ثم ذهبتا إلى استكمال دروس الكتابة، وبعدها ذهبت للقاء ديانا، أتمت المقابلة ثم رحلت مودعة ديانا والتي طمأنتها قائلة :

- على كل حال أنا أريدكِ معي بالفعل! قد أستغل سلطاتي إن اعترض عليكِ أحد، ولكن لا أعتقد أن هذا سيحدث!

عادت فوجدت سارة وحيدة، جلست معها ثم تناولتا غداءهما معاً، وبعدُ صعدت لمالك الذي علمتْ مسبقاً أن طعامه وصل إليه. دخلت الغرفة بعدما طرقت، سلمت ولم تنطق بشئ بعدها، لم تخبره بتفاصيل يومها، ولم تسأله هل تناول طعامه أم لا؟ لم تنظر إليه حتى، أنهت ما تفعله وأراحت إرهاقها بالنوم!!

نظر إليها متسائلاً لماذا تفعل به ذلك؟ لماذا لم تطلب الطلاق؟ ما الذي يجبرها على البقاء؟ وإلى متى ستبقى حياتهما كئيبة هكذا؟

بالطبع لم يصبر على صمت يوم، بينما صبرت هي لعام كامل!

وانقلبت الآية، عندما انتظمت في العمل مع ديانا بالإضافة لدراستها ودروس الكتابة، باتت تتأخر عنه، وعندما تعود تنام. لم يعد يتحمل ذلك الصمت المثقل الذي يعيش فيه وقد هجره الجميع، ولم يعد يزوره أحد متعللين بمشاغلهم، أحياناً يتحدث إليها فيسألها :

- ماذا فعلتِ في عملكِ؟

- بخير..

تجيب بجمود كما كان يفعل مرة، أو لا تجيب كأنها لا تسمعه مرة أخرى. يكتم غيظه متعللاً بأنه كذلك كان يفعل ولم تكن تشكو، أصبحت مواعيدها بالنسبة إليه شيئاً ثابتاً، وعندما تأخرت يوماً سألها :

- أين كنتِ حتى الآن؟

لم تجيبه، فكرر كاظماً غيظه :

- لماذا تأخرتِ؟

- لا شأن لكَ بي!.. قالتها ببرود، فصاح غاضباً :

- ماذا تعني؟ هل أنا جمادٌ معكِ في الغرفة؟..

ضحكت على سؤاله باستهتار، إذ سألته له قبل، ولكن بعد أن طفح بها الكيل، هو لم يتحمل لأكثر من أسبوع، ثم قالت بسخرية آلمتها :

- وهل حلالٌ لي أن أكون جماداً معكَ في الغرفة، بينما هو حرامٌ لكَ، لقد كنت جماداً قبلكَ وعندما شكوت عرضت علي الطلاق لأنني لا أهمكَ في شئ، لا أشكل لكَ أي فارق، مجرد سد خانة، زينة، لا مشاعر ولا احترام حتى لوجودي، والآن تريد أن تعرف أين كنت؟ هل بالفعل يهمك أمري لتلك الدرجة؟ أنا لو مت يا مالك لن تكلف نفسك عناء الدعاء لي؟

وخلفته وراءها، وخرجت، ولم تبِتْ ليلتها معه!!

****

أثناء سيرها مندفعة كالعادة، وبيدها شطيرتها التي تقضمها كأنها لا تتوقف عن الطعام رغم أن جسدها النحيل لا يظهر عليه أثر ذلك، وتتحدث في ذات اللحظة في الهاتف، اصطدمت به!!

إنها المثال الحي للاستهتار كما ينظر إليها الرائي، فهاهي للمرة الثانية بنفس الهيئة، تحمل حقيبتها المفتوحة باحثة عن شئ فيها، تأكل وتتحدث حتى أنكَ تشفق على محدثها من صوت مضغ الطعام الذي يخترق أذنه، وتصاب بالاشمئزاز حين تتخيل، متزوجة من رجل غريب الأطوار مثلها، أو هي من جعلته غريباً!

هذه المرة كانت أمام منزلها ذاهبة لعملها! ما الذي أتى به إلى هنا؟ أوقعت حقيبتها من يدها، وأنزلت هاتفها بصدمة، ثم نظرت لقميص الواقف أمامها الذي تلطخ بلون الكاتشب الأحمر فخضبت أبيضه وقالت بأسف:

- أعتذر، لا أعرف كيف أتصرف؟ ما الشئ الذي يرضيكَ؟

رد كاظماً غيظه :

- الشئ الذي يرضيني ألا ألتقي بكِ ثانية، وأن تنظري أمامكِ أثنا سيركِ، وأن تتوقفي عن الطعام!!

رفعت نظرها إليه، ثم ابتسمت وهي تهتف :

- أحمد!! الحمد لله لم يكن غريباً، وإلا لقاضاني!

ثم تناولت حقيبتها المرمية، وجذبت ذراعه قائلة :

- هذا بيتي، تعالى سأعطيكَ أحد قمصان عمر تبدله، واخلع عنكَ هذا لغسله!

سحب ذراعه كالملسوع وهو يحملق بها، كأنما يريد التأكد مما قالت، ولكنها أكملت منادية :

- عمر!! يا عمر!!

نظر تجاه ما تنظر إليه فوجد زوجها قادماً نحوهما، ثم وجد نفسه فجأة في بيتهما، ولا يعرف كيف خلع قميصه، إنه زوجها من فعل، وهي تقدمت له بقميصٍ آخر، كأن ما حدث أمر طبيعي، ثم لملمت أشياءها وخرجت بسرعة قائلة :

- أستأذنكما، لقد تأخرت عن عملي!!

ماذا يحدث؟ إنهما مجنونان لا محالة! ثم عاد ليتذكر ما الذي أتى به في هذا الشارع؟ إنه القدر، هو مؤمن بالقدر خيره وشره، وهذا هو شره، لا محالة من ذلك!!

٣٧

أنتَ قدري

أكبر خطأهم أنهم لجأوا إلى بنان في استخدام القسوة، لأنها أضعف مِن أنْ تفعل، ومع مالك. قبل أن تخرج لدراستها صباحاً، ذهبت إليه، ستتحدث إليه مرة أخرى، لقد حدثته في هذا الأمر لعام كامل، لم تمل من ذلك، وكل مرة تردد " المرة الأخيرة " وتكررها، وهاهي تردد " المرة الأخيرة ولن أفعل بعدها "، إنها تدعو الله لعامٍ أن يستجيب لها، وتستغفر وما ملت، سيستجيب هذه المرة، إنه مالك الذي يعشقها، كيف بأن يردها هذه المرة أيضاً؟ راحت تتمتم بالدعاء راجية ربها، وهي تقترب منه حتى أنه شعر بالريبة منها. جلست على ركبتيها أمامه، وسحبت يده تحتضنها، ثم تنهدت وقالت :

- مالك!! أرجوكَ لا تردني هذه المرة!

اخترق نظرة اليأس في عينيها بلهيب نظراته، واكتوى قلبه من لين صوتها، ولمستها، وقال بصوتٍ أجش :

- بنان! أنتِ تعرفين رأيي في هذا الأمر! فرجاءً لا ..

قاطعته وهي تضع أناملها على شفتيه وقالت :

- لأجلي يا مالك! أنتَ الذي دللتني، وعودتني على تلبية رغباتي كلها، كل ما يسعدني كنت تفعله، لا تحرمني من شئ أريده، أرجوكَ يا مالك، أرجوكَ!

ارتد بمقعده للخلف، حتى يهرب من أسر عينيها ولمساتها، يهرب من احتجازها له في مسار سطوتها، هو يخاف من الجراحة، هكذا ببساطة يجب أن يفهموا ذلك، لا يريد أن يجرب أو يغامر، نعم يائس خائف، ولكن آمن. هي لم تنوي التراجع هذه المرة فاقتربت منه مرة أخرى وقالت :

- أهكذا إذاً؟ لم تعد تحبني، ولم يعد بيننا عهد..

قاطعها بانفعال قائلاً :

- بنان!! أرجوكِ أنتِ!! لا تعرفين كيف يكون الألم؟ كيف تكون المعاناة أو العذاب؟ ..

- وما أنتَ به يؤمنكَ من الألم والمعاناة؟ ألست تعاني؟ .. تنهدت ثم أكملت :

- لا تفعل الجراحة، ولكن لتتعايش مع حياتكَ بطبيعية هكذا، وتعتاد الأمر، أنتَ غير متقبل للشفاء، وغير متقبل لحالك، ما الحل إذاً؟

لم يجيبها فأكملت بإقناعٍ أكثر :

- يا مالك حياتنا نستطيع أن نحيلها جنة بأيدينا، انظر حولكَ، الكل سعيد، يعيشون وسط مرارة الواقع المؤلم، ولكن من داخلهم سعداء، وسعادتهم تنتشر حولهم فتنتهي الجحيم إلى جنة، لماذا لا نكون مثلهم، لماذا لا نبحث عن سعادتنا؟ حتى وإن أكملت حياتكَ هكذا، لا يهم، يكفي أنكَ بخير ولستَ عاجزاً كما تظن، غيركَ فعل الكثير وحالته كانت أسوأ!

ثم تحدث الصمت ليعبر عن حالهما، هل سينتهي الأمر هكذا ككل مرة؟ هل تراجعت عما انتوت وتنازلت عن كبريائها الذي رسمته أمامه بلا فائدة؟ لن تستسلم أبداً؛ ماذا تفعل وقد عودته على البكاء فلن يجدي الآن نفعاً؟ هل ستتركه لنفسه؟

اقتربت منه مرة أخرى، ووضعت يداها على مقعده تحيطه، كأنما تحاصره فلا مهرب، وقالت :

- افعل ما تراه صحيحاً يا مالك، رحيق تجاوزت كل شئ، وتعيش مع زوجها وطفليها بسعادة، وحامل أيضاً، وأحمد ستسمع عنه أخبار سعيدة قريباً، أمكَ أيضاً بخير، تجالس أبناء رحيق، أو تخالط صديقاتها، لم يعد غيرك يحبس نفسه عن العالم!.. وأنا عندما أكون بالخارج وأتعرض لأي أذى لا أستطيع أن أخبركَ به، وكيف أخبرك؟ أنا أريد أن يحميني رجلي، عندما أتعرض لشئ، أجري عليه وأخبره!

ثم لان صوتها وأردفت :

- مالك أنا أحبكَ على أي حال وكما أنتَ، فلا تحمل همي، أو تشعر نفسكَ أنكَ تحتجزني معكَ..

نظر للقلادة التي تحيط عنقها ولم يتحدث، فنظرت إليها ثم قالت :- ولن أهجر قلبكَ أبداً!

وقررت أن ترحمه وهي تبتعد عنه بقولها:- سأبدل ملابسي لأرحل ..

- سأفكر في الأمر!.. وازدرد لعابه الجاف بعدها، فعادت نحوه بخطوة واحدة ثم جثت على ركبتيها أمامه قائلة :- ماذا قلت؟

بلل شفتيه الجافتين وردد :

- سأفكر في الأمر!!.. مازلتُ متردداً!

اتسعت عيناها بشدة، وكأنما عادت الحياة إليها بعد موتها وقالت :

- احلف!

وكأن الابتسامة قفزت إلى وجهه وارتسمت، فداعب شعرها قائلاً :

- والله!

ردت بتصميم :

- لا! قل والله سأفكر في الجراحة!!

- والله سأفكر في الجراحة !

وقفت وضمت رأسه إليها مرددة:

- مالك أنا أحبك بشدة، أنا أعشقكَ، إن أغضبتني مرة أخرى أو نكثت بحلفكَ صدقني سأوجعكَ ضرباً!

أبعدها عنه برفق، وابتسامته البسيطة مازالت تنير وجهه وقال :

- أعدكِ ألا أفعل! هيا اذهبي ! ستتأخرين هكذا!

ابتعدت عنه وقبلت عينيه قائلة :

- أخشى أن تغير رأيك عندما أذهب!!

- لا لن أفعل!... ثم أبعدها بيديه؛ تلك المجنونة لا تعرف ما الذي تفعله به؟!

أنهت استعدادها للخروج، والتفتت إليه قائلة :

- لن أتأخر إن شاء الله، وعندما أعود ستخبرني أنكَ مستعد، أليس كذلك؟

- بنان! لا تضغطي عليَّ، الأمر ليس بهذه السهولة!

أومأت وأشارت له وغادرت، يكفي أنه تحدث معها طوال هذه المدة، ستعيش هذه الساعات القادمة والتي تليها على صوته، إنه تحدث بالفعل وابتسم لا تصدق، يا إلهي إنه فعل! فكرت في أن تعود لتتأكد من ذلك ولكن خوفها من تراجعه عمَّ قال منعها!

****

تركته في صراعٍ لم ينتهِ، وحيرة ليست غريبة عليه، أتخبره أنه غير قادر على حمايتها وعاجز عن احتوائها هكذا بسهولة؟ إنما هو رجل فقد نفسه..

ولكنه بالفعل عاجز عن كل فعل ، عجزه في نفسه، لم يعد قادراً على تقبل الحياة ، صمته عنها كان خوفاً من أن يتلفظ بكلمة تجرحها ، وهو ما يفعله حين يتحدث . دأب على الاستماع إلى حديثها عن تفاصيل يومها حتى يتعايش مجدداً ويقبل بالمصيبة التي مر بها ، ولكنه ما استطاع...

رفض مراراً محاولاتها معه في الذهاب لطبيب نفسي، أو اللجوء لجراحة لإنهاء عجزه، وهنا عجز عن التفاعل معها حتى بنظرة، كان يعرف جيداً أنه قد يكون الحل، وأنه يعاقب نفسه على ما اقترف، ولكن لا يريد أن ينهي عقابه، ولا يريد أن يخضع للقانون الثابت ما حدث ليس إلا قدراً!

دائماً تذكره بأحمد وما فعل لأجلهم، ولكن أحمد نفسه لم يتجاوز فعله، هل قالت بأنه سيسمع عنه ما يسعده؟ وما ذلك؟ تمنى بصدق أن يحدث ما قالت، وتمنى بلهفة أن يهاتف رحيق يبارك لها حملها، ولكن يدٌ قوية تقبض على ذراعه وتعيق حركته..

دار في الغرفة يفكر، هل يتعلم من رحيق القوية والتي خارت قوتها بالفعل مع أول صدمة حدثت لها؟ يذكر جيداً تلك الليالي التي هاجمها فيها بكاءها العنيف، وكلها كانت لنفس السبب شعورها المفرط بياسين وبأن هناك دائماً ما يؤذي نفسه، قد تكون في إحدى المرات بكت لأجل أحمد ولكن لأنه ميت في نظرهم لم تفسره كذلك، يذكر جلوسه معها وتهوين الأمر عليها، يذكر عودة ياسين وطلبه المتكرر للزواج منها، وكيف عاندت رحيق، ورفضت وحين تفضلت عليه بالقبول لم تهبه السماح بسهولة، قاسية رحيق حين تصر على تأديب شخصٍ ما، وأحن من يكون حين تساند، إنها المزيج الدائم من الحنان المفرط والقوة المسيطرة، ولم يتحمل هذا المزيج شخصٌ كما تحمل ياسين باختلاط مشاعره بين اليأس حين يضعف والاحتواء حين يقوى!

فتح باب غرفته وخرج لردهة الطابق العلوي لمنزله يحرر نفسه من أساره ومن حصون الغرفة التي تحتجزه وتقيد حريته، تحرك حتى الشرفة وأطلق نظره خلالها، وجد أمه جالسة في الحديقة تلاطف الصغيرة مريم، ستصعد إليه بعد قليل، كيف حالها الآن؟ هل تتحمل الحياة أم أن الحزن شيب قلبها؟ ها هي تبتسم وتحيي الصغيرة فيها أملاً نابضاً!

هل هنالك فرصة أخرى لحياته كما كان، لقد صحَّ من مرضه بعدما رأى الموتَ قريباً، عاش مع زوجته حياة هادئة تثيرها جنونهما، تمنيا أن يملأ المنزل أطفالاً وما حدث، تمنيا أن يجوبا العالم ترحالاً وما حدث، العجز في عقله يكمن، والخوف في قلبه يمنعه من كل محاولة..

عاد أدراجه لغرفته يبحث عن كتابٍ يمضي فيه وقته حتى تعود هي بصخبها فتملأ صمته قبل أن يقتل فرحتها برفضه للأمر ككل مرة ..

****

حين وصل أحمد لعمله، راح يعنف نفسه بلا مبرر، ولكن رؤية هذه أثارت اشمئزازه بشكلٍ غريب، نظر للقميص الذي يرتديه بشبه نفور، ولبقية اليوم كان مزاجه سيئاً وظهرت عصبيته الغريبة على من حوله حتى سأله ياسين :

- ماذا دهاكَ يا غريب الأطوار؟

بعصبية شديدة أشار أحمد لقميصه قائلاً :

- ألا ترى؟

نظر ياسين إلى قميصه ثم ابتسم قائلاً :

- لم أعلق عليه منذ الصباح، لماذا ترتدي شيئاً واسعاً كهذا؟!

زفر أحمد قائلاً :

- كنتُ مضطراً.. ولم يقول ما حدث إذ رأى أن ذكره سيشعل غضبه أكثر مما هو عليه، بينما ضحكَ ياسين قائلاً :

- هون على نفسكَ، الأمر لا يستحق كل الغضب الذي تملككَ، سينتهي العمل الآن، وستبدله، أرأيتَ أن الأمر بسيط؟!

- انتقلت إليكَ عدوى زوجتكَ! قالها أحمد بضيق، فرد ياسين كأنما يراها أمامه :

- وهل هذا شئ يستدعي ضيقكَ؟ إنها تهون كل صعبٍ، وتبشر بكل جميل، لماذا لا أقبل بعدواها، وهل هناك أجمل منها؟

- وفر تغزلكَ بها حين تراها!!

نظر إليه ياسين وقال ضاحكاً :

- أنتَ وأخوكَ الشئ الأسوأ في حياتها، كن على ثقة من ذلك!

ابتسم أحمد وهو يقف قائلاً :

- للأسف أعرف ذلك!!..

وعاد كل منهما لمنزله، ولكن تأخرت بنان، تأخرت كثيراً على غير العادة، هاتفها مالك حتى نفذ شحن هاتفه دون إجابة، خرج من غرفته، وتوقف أعلى الدرج وهتف :

- أحمد .. أمي ..

كرر نداءه لمرات ولا مجيب، هل سيلعن عجزه الآن؟ إنهم يثيرون قلقه أكثر، عاد لهاتفه الذي وصله بشاحنه، وتحدث إلى رحيق والتي أجابته سريعاً وأخبرته أنها لا تعرف عنهم شئ، ماذا سيفعل الآن؟ طمأنته بقدومها إليه، ولم تكن به طاقة لانتظارها، هاتف أحمد لمرتين لم يرد وأجاب في الثالثة تحدث ولكنه لم يسمع حديثه جوار ذلك الصراخ الذي يعرفه، ابتعد الصوت دلالة على ابتعاد محدثه، فصاح :

- بنان!! أحمد!! أين أنتما؟ لماذا تصرخ؟

حاول أحمد أن يهون الأمر عليه ولكنه ما استطاع أمام إصرار أخيه فقال :

- مالك! اهدأ! الأمر بسيط! بنان فقط أصيبت، ولكنها بخير!

لم يستمع لشئ أو تفاصيل، وذكرى بعيدة تتجسد أمام عينيه جلية، بنان تطعن، تكاد تموت، وهو عاجز!! لم يفكر في شئ وهو يندفع خارجاً من غرفته نحو السلم، وقف أعلاه عاجزاً، ثم تخلى عن مقعده مستنداً على الحائط وجلس أرضاً، بيديه دفع بالمقعد نحو السلم ليصل للطابق الأرضي، وبدأ هو يتحرك بالنزول مستنداً على ذراعيه في وضع الجلوس فما ساعده الأمر، فحاول أن ينقلب على بطنه ساحباً قدميه خلفه، فلح الأمر في درجتين ثم فلت ذراعه فانزلق جسده حتى آخر الدرج، وارتطمت رأسه بالأرض، تماسكَ وحاول أن يوازن نفسه وهو يعتدل جالساً، متغاضياً عن المجهود الذي بذله، وبقيت مشكلة نهوضه لمقعده، كيف سيفعلها؟ لا أحد هنا يساعده!

بقي لدقائق يحاول أن يرفع نفسه بشتى الطرق فما استطاع، حتى وصلت رحيق فشكر ربه أن معها مفتاحها، ونظر إليها بلهفة لتنقذه. دخلت ووقع نظرها عليه فتوقفت لثوانٍ لفرط دهشتها مم ترى ثم حركها سيل الدم الرفيع الذي ينحدر من رأس أخيها فهرولت إليه فزعة خائفة، وجلست أمامه تحيط رأسه بيديها وقالت :

- ماذا فعلتَ بنفسكَ؟

قال بسرعة وضعف :- ساعديني! أرجوكِ!

وقفت وراء ظهره وأحاطت جزعه بذراعيها ترفعه لمقعده، بسبب هزاله من السهل عليها إعانته، ثم أجلسته قائلة :

- انتظر سأوقف الدم هذا!

حرك مقعده تجاه الباب قائلاً :

- لا داعي!!

أتت بقطنٍ لتوقف به الدم وعادت إليه لتلحق به لدى الباب ومنعته قائلة :

- انتظر فقط! إلى أين ذاهب أنت؟

أجابها بسرعة تناسب سرعة أنفاسه :

- ابتعدي عني رحيق! بنان في المشفى!

لم تزد عن أسئلتها، وهي تكتم دمه وتسير جواره متجهين إلى مشفى لا يعرفانها.. واجهتهما مشكلة أخرى في ركوب السيارة، وكالعادة رفض مساعدتها، إنما ما حدث منذ قليل أمر طارئ، تركته يحاول بنفسه حتى تخلى عن مقعده مستنداً على ذراعيه الذين أنهكا بفعل انزلاقه على الدرج، اعتدل في المقعد الخلفي، ووضعت مقعده في السيارة من الخلف، ثم اتخذت وضع القيادة واتصلت بأحمد الذي أخبرها بمكانهم..

هو ليس على طبيعته إطلاقاً، وكأنما أصابته حالة من الاختلال أفقدته توازنه، في المرة السابقة أيضاً، قالوا بنان أصيبت، كيف حدث ولماذا؟ لم يعرف إجابة لسؤاله، هل تعاني مرة أخرى؟ هل ستموت ويفقدها؟ كرجلٍ محبط فقد نفسه فلم يعد يملك أملاً!

عند وصولهما ساعده أحمد بصعوبة على التحرك من السيارة لمقعده الذي أحضرته له رحيق، أعرج يساعد مقعد، إنها المأساة التي تجسدت في أخويها، لم يمل أحمد من تعنيفه إذ أن إصابة زوجته لا تستدعي كل ذلك، ولكنه لم يسمع، كيف تكون بسيطة وقد رآها تعاني الموت أمام عينيه قبل الآن، خوفه وإن كان مبالغ فيه فهو لتلك الذكرى السيئة التي لا تريد التزحزح من رأسه قيد أنملة..

دله أحمد على غرفتها فدخل ومعه رحيق، جاءتهم رؤية بعد وصولهم، وهتفت حالما رأتهم :

- هل بنيت هذه المشفى لأجلكم؟ من المصاب هذه المرة، ولماذا أرسلتم إليَّ؟

نظر الجميع نحوها بدهشة، وخاصة رحيق التي أرسلت إليها، لم تتوقع أن يكون رد فعلها هكذا، رغم اعتيادها على لامبالاتها، ولكنها تحدثت بهدوء :

- أعتذر رؤية، ولكن بنان أصيبت وتصرخ الآن رافضة أي علاج، هلا ساعدتِها في الأمر؟

- حقاً؟ بنان هي المصابة؟ يا إلهي!! .. قالتها وقد تحول إهمالها إلى جدية تامة، إذ أن بنان هي الأقرب لها، وجمعت بينهما علاقة طيبة أثناء مرض مالك، فدخلت إليها ثم هتفت بها :

- لمَ تصرخين أيتها المتشردة؟ هل تريدين الموت الآن؟ يجب أن تعالجي!

ثم نظرت إلى مالك القريب منها يحتضن كفها بيديه وقالت بدهشة :

- مالك!! أخيراً تخليتَ عن عجرفتكَ، وجئتَ إلينا! كان يجب أن تموت زوجتك حتى تخرج!!.. ثم أكملت بجدية :

- اخرجوا جميعكم لو سمحتم، إنها مشفى وليست متجراً.. وأنتِ يا فتاة كفي عن دلالكِ هذا، لا وقت لدينا!

خرج الجميع، وبقي مالك معها لم يتحرك متحدياً، فتجاهلته وحدثت بنان قائلة :

- ماذا حدث لكِ؟ ولماذا لا يوجد طبيب هنا؟

- طردته!! قالتها بنان وهي تبكي، ثم أكملت :

- وقعت على ذراعي ويبدو أنه انكسر، ولا أريد لأحدٍ أن يقترب منه، سأبقى هكذا!!

نظرت إليها رؤية باستهانة وقالت :

- حقاً! يبدو أنها عادة في العائلة، وماذا تريدين مني إذاً طالما لا تريدين علاجاً، فلتغادرا لمنزلكما وتريحوني من وجع الرأس هذا، لدي عمل تعطلونني عنه!

صرخ بها مالك :

- رؤية اخرجي من هنا !

ابتسمت رؤية بسخرية ثم مالت على أذن بنان هامسة :

- أجدتِ! ولكنكِ لن تحتملي ألم الكسر طويلاً، فلا تعاندي لأكثر من ذلك، سأرسل طبيباً إليكِ، واستجيبي له!

نظرت لها بنان راسمة العبوس ثم صرخت، فابتعدت رؤية تبعاً لصراخ مالك الذي لان قلبه لزوجته، وخرجت تتمتم ضاحكة :

- مكانكما مصحة نفسية، أو محمية طبيعية..

ثم ألقت نظرة على رحيق وسارة مبتسمة بود كأن لم تفعل شيئاً، ورحلت لتكمل عملها تاركة مالك مع بنان يسألها :

- ماذا حدث؟ كيف وقعتِ؟

أجابت بضعف :- في المنزل!.. ثم سألت بلهفة :

- كيف جئتَ إلى هنا!

- المهم أنني هنا!.. ستكونين بخير!

أرجعت رأسها للخلف متجنبة تحريك ذراعها المصاب، عندما وقعت أمام المنزل رآها أحمد، ونادى لسارة سريعاً، ولم تطق أن تمنع صراخها من فرط الألم، فأخذاها للمشفى دون معرفة أخيه، ثم فجأة ظهرت في ذهنها معاقبة مالك بما يعاقبها به، تثير قلقه، وترفض العلاج، وكما قالت رؤية التي كشفت أمرها هي بالفعل لا تتحمل الألم، تعمدت الصراخ حين سمعت أحمد

يحدثه رغم أن ألمها لم يتوقف، ولم يكن في حسبانها أبداً أن يأتي إليها، ويبدو أنه آذى نفسه لما رأت من آثار كدمة في رأسه؛ فشعرت ببعض ندم..

عاد إليهما الطبيب فرفضت مرة أخرى دافعة زوجها لإقناعها، وفعل، تحدث كما لم يتحدث من قبل :

- أنتِ أيتها الغبية! هل ستتحملين ألمكِ، سيحدث مضاعفاتٍ لها، كيف تفكرين؟

تحاملت على نفسها وقالت :

- إن حاول الاقتراب منها ستؤلمني أكثر!.. قالتها بضعف وقد ازداد الألم بالفعل، فقال :

- وما المشكلة؟ ألم ساعة سيريحكِ للأبد!

تأوهت بشدة وقالت :

- قل لنفسكَ! لماذا تخبرني بذلك؟

نظر لها وسكت، وفي وحدتهما في الغرفة بعدما تركها الطبيب للمرة الثانية ران الصمت عليهما سوى من أناتها وبكائها الخافت الذي أحرق قلبه، فقال :

- وماذا تريدين الآن؟ ألم أخبركِ أنني سأفكر في الأمر!

- نعم وحلفت أيضاً، ولكنكَ سترفض ككل مرة، وها أنا هنا، أحضرني أخوكَ، ليس أنتَ.. ثم ستجبر يدي وتشفى، وستبقى كما أنتَ، لن تتغير!!

سمحا للصمت أن يحتل الغرفة مرة أخرى قبل أن يقول :

- موافق! سأفعل ما تريدين بنان!

- يجب أن يكون الأمر بإرادتكَ حتى تتحمل للنهاية!

- بإرادتي!!

حاولت الحركة فصرخت، فهتف بها :

- أنتِ أيتها الغبية، إياكِ أن ترفضي مرة أخرى، ثم حركَ مقعده ليخرج طالباً الطبيب الذي رفض القدوم إليهما، وأرسل إليها بطبيبة أخرى.. أنهت عملها وغادرت، فعادت إليها رؤية باسمة وقالت :

- أخيراً، هيا غادري الآن ولا تعودي، ولا يعود أي من عائلتكم إلى هنا، رجاءً، أريد أن أستريح منكم قليلاً..

خرجت بنان جوار مالك الذي يحرك مقعده ليستقبلهما من بالخارج، فقال مالك :

- حتى وإن كنت أريد حجز غرفة لي هنا!

نظرت رؤية لبنان بدهشة ثم قالت :

- هل جننتَ يا مالك؟ أم أن ما تقوله صحيح؟

فكت بنان شفرات الدهشة على وجوههم وقالت مؤكدة :

- سيفعل يا رؤية، فلا تحبطيه رجاءاً، لقد أخبرتني عن الطبيب الذ سيجري الجراحة، حددي لنا موعداً!

ابتسمت رؤية ثم قالت :

- أنتِ يا فتاة! لستُ خادمة لأحد، إن عزم على ذلك بالفعل، فليفعل بنفسه!!

- رؤية!!.. اعترضتْ بنان..

فقالت رؤية طاردة :

- هيا اخرجوا من هنا، هيا!! .. سأحدثكِ فيمَ بعد..

سيطرت عليهم فرحتهم بقرار مالك متجاهلين معاملة رؤية، التي يبدو أنهم سيعتادونها، وبعد خطوتين عادت رحيق قائلة :

- دكتورة رؤية، أنا آسفة على ما فعلت! وأشكركِ بشدة!

أومأت رؤية قائلة :

- لا داعي للأسف، ولكن لا تكرريها! أستأذنكِ!

أولتها ظهرها، فتابعتها رحيق بعينيها مستنكرة، ثم التفتت لأحمد الذي ينتظرها، وسبرته بنظرة، قبل أن تلقي مثلها على رؤية وتغادر...

- من هذه؟ ماذا تعمل هنا؟.. سأل أحمد مستنكراً ومندهشاً من رؤيتها هنا؛ فأجابته رحيق :

- إنها رؤية! طبيبة مالك..

تشوش أحمد، ثم سأل :

- رحيق، هل تعلمين أن شخصاً تحدث إلي كثيراً ظناً منه أنني في غيبوبة، ولكنني كنت قد نهضت؟

وقفت ثم نظرت إليه متسائلة :

- شخصٌ غيري؟ لقد كنت أتحدث إليك كثيراً، وأمي أيضاً كانت تطيل الجلوس معكَ..

- نعم! شخص غيركما.. ثم تحرك مواصلاً :

- ولكن أليس للطبيب أن يعرف عن حالتي؟

سارت جواره ثم قالت :

- قد تكون لأنها ليست طبيبتك لم تعرف مثلا، أو كانت تعرف أنك نهضت وتسمعها، لا أعرف الحقيقة..

نظر إليها وابتسم ثم قال :

- تعرفين من أقصد إذاً؟

ابتسمت :

- نعم أعرف، في الحقيقة أنني رأيتها أكثر من مرة تتسلل لغرفتك، ظننت أنكما التقيتما قبل الحادث، نشأ بينكما أي نوع من المشاعر حتى لو من طرفها فقط، وهذا ما جعلها تسعى للاطمئنان عليك، والتسلل لغرفتك..

توقف أحمد مستغرباً، ثم ابتسم لأفكار أخته، وقال بصدق :

- لم أكن أعرفها من قبل، فقط رأيتها منذ فترة قريبة، عرفتني ولم أتعرف عليها بسهولة، إنها تحيرني بطريقة ما..

تنهدت رحيق :

- إنها تحير الجميع..

****

أنهت رؤية عملها عند الثامنة مساءً في اليوم التالي لإصابة بنان، فخرجت ونظرت للقمر، رأته مكتملاً فتأكدت من وجوده في نفس المكان، أخرجت قميصه من حقيبتها وذهبت إليه، وقفت أمامه مادة يدها به قائلة :

- خذ! هذا لكَ!

انتبه أحمد، فرفع نظره لمحدثه، ثم أخفضه للقميص وأخذه قائلاً :

- أشكركِ!

جلست في طرف الأريكة الجالس عليها ولم تتحدث بعدها، جاءتها مكالمة، فأجابت بصوتٍ كئيب هذه المرة يخالف المرح الذي امتلكته قبل، أنهت المكالمة سريعاً بصوتٍ بدا أنه اختنق، ثم صرخت في أحمد :

- لماذا تجلس هنا؟

لم يجيبها، إذ يرى أن تجنب المجانين خيرٌ كثير، فسألت مرة أخرى :

- أنتَ!! لماذا تجلس هنا قريب من امرأة متزوجة؟

فلتت منه ابتسامة استفزتها، وأثارت غضبها وهو لم ينطق، فأردفت :

- من المفترض أن تترك المكان لي حين أجئ!

تنهد ثم قال هادئاً :

- فلتذهبي للجلوس على مقعدٍ آخر سيدتي!

سكتت، وزفرت بضيق، ثم تنهدت، كمن يغالب اختناق، وضيق في التنفس، سألته :

- هل مات صديقك في ليلة قمرية؟

- نعم!

- أمي أيضاً! ماتت في ليلة اكتمل فيها البدر..

ارتعش صوتها فسكتت، وقبضت يده على عصاه يريد الرحيل، هو لم تعد به قدرة للاستماع ، ولا يريد الجلوس مع امرأة لتكوين صداقة مثلاً، ويا حبذا غريبة الأطوار مثلها، واصلت حديثها كمن تحدث نفسها وقالت :

- كنت في السابعة عشر، في عامي الجامعي الأول، كنت انطوائية ولا أعرف أحداً غيرها، كانت كل عائلتي، ولم أتخذ صديقة غيرها، لم أستطع استكمال دراستي، وتوقفت عنها لثلاث سنوات حتى استطعت العودة لها، وقبلت محاولات أبي للسفر، ثم اختار هذا الحي لأن به مصريين وقد يخالطون عالمي ..

سكتت قليلاً وكأنها فطنت لما أفصحت، فزمت شفتيها ومسحت دمعة انحدرت على خدها، وقالت كالذي يدفع عن نفسه تهمة :

- أعتقد أنني تجاوزت كل ذلك عندما تزوجت!

وكأنها أرادت أن تمسح من ذاكرته كل ما قالت، وتنفي ألمها الذي فضح، فأخرجت شطيرة تقضمها بتلذذ اعتادته، وقالت :

- ألستَ جائعاً؟

صمته هذه المرة لم يكن تجاهلاً، وإنما لملمة لجرحه الذي ضغطت عليه فانفتأ، هو كذلك كما قالت، فقد حياته ونفسه بعدما فقد عمار، هكذا يكون القلب عندما يفقد ساكنه، يتوه في الدنيا بلا مأوى أو مستقر، ألأنه علق قلبه بغير الله، أو اتخذ مع الله شريكاً في قلبه؟ أم هو سباق للخلاص من الدنيا؟

وكأنها لم تتحدث في شئ جرح قلبها منذ ثوانٍ، وكأن صوتها لم يخنقه البكاء، وكأنها تعرفه منذ زمن، فسألت :

- لماذا تجيد الصمت؟

- أنا لا أجيده، أنا مضطر إليه!.. قالها ووقف لينهي ليلته، فلحقته بقولها :

- نعيش في الدنيا اضطراراً، أليس من حقنا أن نختار كيف نعيش؟

التفت إليها وقد أثارت سكونه الذي اختاره وقال :

- لماذا تتحدثي إلى شخصٍ لا تعرفينه؟

- لأنه لا يعرف نفسه.. قالتها ببساطة ناظرة أمامها، فسأل بشئ يدور في عقله :

- ألا ترين أن حديثك بذلك التبسط إلى رجلٍ غريب قد يثير غضب زوجكِ؟

- لا يهمني أمره! هو أيضاً لا يهمه أمري!

كمنقار دجاجة ضرب بعصاه في الأرض مغادراً، ليذهب إلى أمه يؤنس وحدتها في هذا المساء، هما الاثنان الأجدر على احتواء فراغ وحدتهما!

وتركها شاردة، فقدت شهيتها للطعام، فوضعته جانباً، وأكملت جلوسها لمنتصف الليل، حتى قررت الرحيل، وفي قلبها غصة، تحولت إلى ابتسامة واسعة قابلت بها عمر، كأنها قضت أمسيتها في حفلٍ أسعدها..

****

بينما هم جلوس في بيت ميرا؛ لزيارتها بعدما ولدت، حملت ديانا طفلتها وجلست ملاصقة لآدم يتأملاها، وقد شعرت بذلك الحنين الجارف للأطفال والذي حاولت منعه بتجنبها لهم، داعبت شفتيها برقة، ومررت إصبعها على وجنتيها، فأحاطته الطفلة بيديها متملكة كأنه لها، ابتسمت ديانا مراقبة ثم نظرت إلى آدم بصورة مفاجئة وقالت :

- ما رأيكَ بزراعة الأجنة؟

وعادت بنظراتها للصغيرة فجأة كما رفعت عنها، وهي تلوم نفسها على ما نطقت. لم تكن تعرف حينها أن بداية جنين يتخلق في رحمها الآن!

تناول آدم الرضيعة منها وقال :

- إن كان هذا ما سيسعدكِ، فلا بأس، لنذهب للطبيبة الآن إن رغبتِ ذلك، ولكن أنا فقط أخاف عليكِ، أمتأكدة من رغبتكِ؟

أومأت بتأكيد، فتنهد قائلاً :

- لنفعلها إذاً!

****

وحين قرر مالك الذهاب للعلاج أخيراً، خرج تجاوره بنان بينما ينتظره أمام السيارة رحيق ومعها ياسين الذي قال :

- جل ما خشيته أن تفعل بنان كما فعلتِ أنتِ في السابق وتطلب منه الطلاق، بنية حثه على التمسك بها!

ازدردت لعابها، ثم قالت بابتسامة :

- لا تنكر أنكَ كنت تستحق، ومالك أيضاً يستحق!

- لم تتغيري رحيق، لم تفهمي كيف يكون رجلٌ يائس عاجز حتى عن التخلي عن امرأته أو التمسك بها، ينتظر منها فلتة لسان لتنطقها هي فينفذ، مالك أيضاً كان ينتظر فرصة، ولم تنولها له بنان!

قابلته رحيق ونظرت في عينيه قائلة :

- أولاً حين تشعر بأن روحكَ تموت فما عليكَ سوى محاولة إحياءها بشتى الطرق، ثانياً قد تخونكَ الطريقة ولكن سيبقى القلب نابضاً لهدفٍ واحد، ثالثاً لماذا تتذكر شيئاً كهذا؟ هيا ساعد مالك قبل أن يتعنت ويرفض!

انفرجت شفتيه عن ابتسامة واسعة وهي تبتعد عنه ليستقبلا مالك تجاوره بنان التي وكأنما عادت الدماء تضخ في عروقها!!

٣٨

قلبُها

- إن فقدتَ إيمانكَ بالله مرة أخرى، ستفقدني للأبد!!

كان هذا آخر همسها قبل أن يفارقها ويستسلم لمصيره، وانعزلت في جانب وحدها كما فعلت قبل، بينما التفت عائلته حول بعضها البعض. بعد أن أجل الأمر لحين يشفى ذراعها، أخيراً سلم للمكتوب ويخضع للجراحة الآن ..

أسندت للحائطِ رأسها وتساءلتْ في أي عام هم؟.. لا تذكر، هل مرت السنون بسرعة؟ منذ المرة الأولى التي رأته فيها؟ خمس سنواتٍ خلت، جاءتهم لقيطة بالمعنى المفهوم، تبحث عن أمها، فوجدتها ميتة، طاردها من كانت تعمل معهم فلحقوها بطعنة لم تميتها، وقد كان مالك معها حينها، وبقي سنداً لها ..

وبينما هم جلوسٌ في استراحة الانتظار الذي سيطول ويعلمون، قرر أحمد أن يهون عليهم ويخرجهم من حالة الحزن التي لازمتهم، تذكر أنه لم يفاجئ رحيق بأحد مقالبه منذ عاد، خشي

عليها بسبب حملها حين توصل لفكرة ما، ولكنه نفذ على أي حال، اختفى عنهم لبعض الوقت ثم عاد مبتسماً، واقترب من رحيق قائلاً :

- غاليتي! أجمل وردة لأجمل وردة في حياتي!

- نحن هنا! .. هتف بها ياسين متصنعاً الغضب، فقال أحمد :- عفواً لم أركَ!

ثم نظر إلى رحيق الباسمة باندهاش، فأكمل :- حبيبتي ألن تقبليها؟

التقطتها منه، فعاد إلى مقعده وهو يقول :

- مر زمنٌ دون أن أفاجئكِ بمزحة!

استنشقت عبقها، باندهاش مسيطرٍ عليها، ولم تنتبه لما قال، فاحمرت عيناها فجأة، وفتحت فمها، ثم عطست، فابتسم أحمد وقال :- واحدة!

ثم حاولت أن تتمالك نفسها فعطست مرة ثانية، نظر ياسين إلى أحمد وقال مستنكراً :

- ماذا فعلت؟

- انتظر حتى تنتهي.. فعطست رحيق لمرة ثالثة، ثم هدأت فضحك أحمد قائلاً:

- الثالثة أخيراً..

وضعت سارة يدها على ظهرها مربتة، وهي تنظر إلى أحمد بلوم قائلة :

- ظننتكَ نضجت!

وضحك ياسين مكملاً :

- لقد قال أنه مقلب، ومع ذلك صدقتِه!

نظرت إليه متوعدة وهي تضع يدها على أنفها، أخوها غريب هذه الأيام، مقلب مرة واحدة، إنه غريب فعلاً، لقد ترك عزلته وأصبح يندمج معهم أكثر من ذي قبل، لم تنتبه لذلك الهجوم المفاجئ الذي قطع مزاحهم، إلا حينما سمعت صوتها صوت رؤية :

- أنتم في مشفى، يجب أن تحترموا ذلك! هل تمزحون وبينكم مريض !

- أليس من المفترض للطبيب أن يهون على أهل المريض؟.. قالها أحمد وهو يستند برأسه على عصاه ناظراً للأرض، وقد رآها تراقبهم، فنظرت إليه بوجهٍ أحمر وقالت :

- وما شأنك أنتَ؟

حينها قال ياسين ضاحكاً:

- رؤية ، ليست المرة الأولى التي تطردينا من هنا، وكأن المشفى ملككِ، نحن أبناء وطنٍ واحد!

- وهذا لا يجعلك ترفع التكليف بيننا، اسمي الدكتورة رؤية!

نظرت له رحيق وفلتت منها ضحكة كتمتها سريعاً، حين اقتربت منها رؤية بلهفة وقالت :

- بما تشعرين؟ هل أنتِ بخير؟

ردت رحيق بتهذيب قائلة :

- نعم بخير الحمد لله.. لم أصب بأذى!

أومأت رؤية، وكأنها لا تريد الانصراف نظرت إلى سارة وقالت :

- لا تقلقي سيكون بخير!

أومأت سارة بابتسامة بسيطة، فوقف أحمد متجاهلاً رؤية، واقترب من أمه، حدثها بلطفٍ قائلاً :

- أمي! ما رأيكِ أن نتجول قليلاً، ريثما يخرج سيهاتفنا ياسين، لن تستطيعي البقاء هكذا!

رفضت في البداية، ولكنها وافقت بعد إصراره مع شعورها أن هذا هو الأفضل، فتناول يدها مقبلاً، ثم سارا متعانقي الأيدي كحبيبين تتبعهما نظرات رؤية التي جف حلقها فنظرت إلى رحيق بخجل ثم رحلت.

جلس ياسين جوار زوجته بعد أن كان مقابلاً لها، وعانق كفها فأسندت رأسها لكتفه، وعقلها مشغول برؤية، كانت تظن أن أخاها هو الأغرب على الإطلاق، قبل أن تعرفها!

قال كأنما يحدث نفسه :

- أريد أن أخرجَ اعترافاً!

- هاتِ ما عندك!.. قالتها مبتسمة وأردفت :

- إن تزوجتَ بأخرى فقد قضي الأمر، وإن تخفي شيئاً قضي الأمر أيضاً، في الحالتين ستموت الليلة بعد أن أطمئن على مالك..

- لا .. سأحافظ على حياة بناتِ الناس، وأسحب اعترافي.. قالها بجدية!

فأجابت وجفناها مسترخيان على عينيها، لا ترى أمامها سوى مالك :

- اختر ميتة جيدة إذاً! لتنال حسن الخاتمة، لا سينال كل جزء منك خاتمة مختلفة..

- أصبحتِ دموية..

- اعترف هيا!

شد على يدها متنهداً وقال :

- فخورٌ بكِ فقط!

ابتسمت، وسرى في جسدها تيار اطمئنان وسكينة، وانفرجت شفتاها عن حديث وهي تشد على يده :

- وما السبب؟

- مالك وأحمد، لم يتقبلا ما هما فيه بسهولة، أعرف أن الأمر صعب، ومن الصعب علي تقبله لو كنت مكان أحدهما، ولكن أتعرفين أنني لم أشعر بالشئ ذاته تجاه سيف، لم يشكو لمرة واحدة، لم يرى في نفسه نقصاً، بل أسمعه يتمتم "الحمد لله الذي عافانا" حين يرى مقعداً أو فاقداً لقدميه، أنا فخور بكِ لأنكِ فهمتيه أن العجز في العقل وليس في شكل الجسد..

تنفست بعمق لتربت على وجع قلبها فيهدأ وقالت :

- الحمد لله، ليس عاجزاً، ابني قوي وبخير!..

ثم أتبعت بنفسٍ أقوى، إن كان ابنها قوي وبخير، فهي ليست قوية وليست بخير تجاه هذه النقطة، رؤيتها لأنينه ولو لمرة واحدة كفيل بفتح جرحها مرة أخرى ومن الصعب التئامه.. ولكنها على أي حال صابرة راضية، سيعوضه الله لا محالة ..

- كل شئ سَيَمُرّ ... قالها وقد احتوى يدها في يديه، فطمأن قلبها المشتت بين ابنها وأخويها ..

****

عادت رؤية إلى حجرة، وأغلقت على نفسها الباب، في حلقها أشواكٌ تدميها، وفي عينيها نغزات دموع لن تسيل أبداً، وعلى شفتيها حروف هاربة، لماذا تراقبهم؟ ولماذا تحاول التقرب إليهم فيطالهم لسانها المنحل؟ تتمنى أن تكون منهم أو مثلهم، مبتسمون هم راضون دائماً، تختلس منهم نظرت الغبطة في كل مرة يأتون إلى هنا، تحاول أن تشاركهم الحديث، فلا يخرج منها سوى جمرات غير مسئولة عنها، ولكنها على أي حال سترحل قريباً، تعتقد أنها اقتربت على إنهاء مهمتها!!

وهذا الأحمد، الذي فلت لسانها أمامه بما لا يهمه، هو الوحيد الآن الذي يعرف عنها شيئاً تخفيه، شتمته وطردته من مقعدها وما تحرك، هي مجنونة وغريبة الطبائع تعرف ذلك، ولم تطلب من شخصٍ أن يتحملها، أو يقبل بها على طبائعها، ومن يوم هذيانها ذاك مر شهر، تحاول فيه أن تعاقبه على ما سمع، بالطبع الذنب ذنبه! لماذا يستمع إلى مهووسة مثلها؟

ولكن قبل الشهر، وقبل أن تهذي إليه بشئ مكرر، فقد استرسلت في الحديث معه حين غاب وحين نهض من غيبوبته، تدخل إليه كل يومٍ متسللة، تحدثه بكل شئ في عقلها، وكأنه المثال الحي أمامها لتشكو إليه أفكارها..

نظرت إلى هاتفها الذي يرن باسم عمر، فأغلقته وخرجت لتكمل عملها!

****

استيقظ آدم صبحاً فلم تكن جواره، باتت تثير تساؤلاته؛ فمنذ أن رفضت إجراء ما طلبته خائفة وهي مريضة لا يعرف ما بها، خرج من غرفته، وبحث عنها حتى وجدها جليسة أمه كعادتها في الفترة الأخيرة، اقترب منهما، وقبل رأس والدته، ثم نزل لمستوى زوجته حيث تنام رأسها على فخذ أمه، ومسح على شعرها برفق قائلاً :

- هل تشعرين بتعب اليوم أيضاً؟

دمعات تجمعت في عينيها كأنها انتظرت إثارته لها، وانحدرت كسيلٍ من جانبها لحقته بأصابعها سريعاً تخفيه كما تحاول إخفاء ألمها، واعتدلت جالسة ثم قالت :

- أنا بخير، أستأذنكما!

وهربت لغرفتها، تنهد واعتدل جالساً، ومسح رأسه بيديه، ثم لحقها بعد وقتٍ ليس بقليل، وجدها تتحدث إلى إيلين، انتظرها حتى انتهت جلست جواره دون دعوة فبادرها :

- ديانا! لماذا لا نذهب إلى طبيبة؟ مر شهر وأنتِ على هذه الحالة..

أخفت وجهها بيديها وقالت :

- أنتَ لا تفهم ما الذي يحدث لي؟ منذ تلك اللحظة التي حدثتك فيها بالأمر، وأنا أشعر بأشياءٍ غريبة، أنا أتوهم، وأشعر بأعراضٍ تبعاً لذلك الوهم، هل تفهم ماذا يعني؟ أنا أعاني دون سبب لأنني فقط أريد شيئاً! أنا حتى لا أفهم!

أزال يديها عن وجهها وقال :

- ولأننا لا نفهم، سنذهب إلى طبيبة!

- تقول مثلما قالت إيلين، وماذا ستقول الطبيبة؟ ستقول أنني أوهم نفسي، وهذا ما أعرفه، فلماذا أذهب إليها؟ وأنا لست مريضة!

- كمحاولة فقط!.. لماذا رفضتِ أن نذهب إليها قبل شهر بعدما أردتِ ذلك!

حاولت أن تقول هادئة :

- اذهب إلى عملكَ آدم، ولا تشغل بالك بأمري، سأكون بخير، صدقني!

ثم استلقت على سريرها وأولته ظهرها، تحيط بطنها بيدها، هناك شئ غريب بها، إنها أعراض حملٍ تعرفها وليست بحامل، وهذا ما يشتتها، ويهيج فيها مشاعراً ترهقها، تخاف بالفعل من ذهابها لطبيبة تخبرها بما تعرفه ، لا تريد أن تسمعها، أو يخبرها شخص بها، ليست بحاجة لأن تصدم بما فيها، أو أن يواجهونها بما لا تتحمل!

التف لها آدم وجلس أمامها قائلاً :

- أرجوكِ حبيبتي! لأطمئن عليكِ فقط! نحن نعرف أنه ليس حمل، لنطمئن ما هو إذاً!

لماذا ينطقها؟ لماذا؟ ألم تخبره أنها لا تريد ذلك، لا تريد سماع هذه الكلمة! شد على يدها يجلسها قائلاً :

- هيا! أنتِ أهم عندي من أي طفل، هيا!

حاولت التحدث قائلة :

- آدم، أنا خائفة! هل تعرف ماذا أعني؟

أصر قائلاً :

- لنلغي هذا الخوف، هيا!

استجابت له على مضض، الإنسان عادة يعرف بعيوبه ولكن يكره من يواجهه بها، كذلك المرض، يعرفه ويخفيه كأنه بذلك سيشفى منه، ريثما تواجهه به يبدأ بالشكوى! وهي لا تحب أن تبدأ شكواها أبداً!

في غرفة الطبيبة بعد تحاليل طلبتها منهما، استلقت ديانا على ظهرها مستسلمة لما تفعله بها، مغمضة عينيها وكأنها تستعد لما ستلقيه عليها، أنهت الطبيبة عملها وعادت لمكتبها قائلة :

- كما توقعت، أنتِ حامل بالفعل ولا تتوهمين!

هكذا قالتها بسهولة وكأن الأمر اعتيادي، فتحت ديانا عينيها لتقع على آدم الذي تبتسم عيناه وتلتمع، فتأكدت مم سمعت، بقيت جامدة ملامحها، وهي تتحرك معه بآلية، هو من استمع لما قالته الطبيبة وهو من أجاب أسئلتها، هي لم تفعل شيئاً. خرجا وجلسا في السيارة، وحدثها فلم تجِب، وصلا للمنزل، ودخل هاتفاً لوالديه الذين باركا فرحتهما، وهي على حالها، فأخذها لغرفتهما وحاول أن يحدثها، أن يوصل إليها أن ما تخشاه ليس صحيحاً، لم تكن فائدة مم يفعل!

هاتف إيلين فقالت ببساطة :

- اتركها تستوعب الأمر، وستكون بخير، لا تقلق! ومباركٌ لكما..

أحقاً لا يقلق؟ إنها ساهمة شاردة، لا تنطق، ولا تتأثر!

بعد ساعة نظرت إليه فجأة وقالت واضعة يدها على بطنها كمن تحمي جنينها :

- آدم!! هل سمعت ما قالته الطبيبة؟ أنا حامل، يعني سأكون أم وأنت ستصبح أب، هل قالت أنني أحمل طفلاً!

تنهد كمن عادت إليه الحياة ثم حرك رأسه يمنة ويسرة باسماً ثم قال :

- الحمد لله، هذا ما حدث بالفعل، وأنتِ السبب في ذلك، كيف لا تعرفين أنه حقيقة وليس وهم!

نظرت إليه مبهورة الأنفاس وكأنها لم تسمعه ثم قالت :

- يعني صحيح، أنا أحمل طفلاً!

أومأ بعينيه، وابتسم، فقالت مغتاظة :

- لماذا لا تعانقني مهنئاً؟ أليس هذا خبر مفرح؟

- أنتِ مجنونة.. قالها ضاحكاً وهو يقترب منها، ثم عانقها فسكنت على كتفه، وأغمضت عينيها تعيش في الحلم..

هكذا نحن نكون، نحلم ونأمل ونتمنى، يارب يحدث ، ثم يحدث، ونتوه في فرحتنا غير مصدقين، وكأننا في حلم نخاف الاستيقاظ فيضيع منا، ونخاف أن نلمسه فيختفي، ونبقى جامدين نخاف من فرحتنا ونخشى تصديقها..

****

- متى كانت المرة الأولى؟ وماذا قلتِ له؟

نطق بها أحمد مبتسماً ناظراً لعيني أمه، ثم أعطاها الفرصة لتتحدث، عاد بها لسنواتٍ مضت، تحكي له عن أبيه، يلهيها عن قلقها لأجل مالك، وقد تجاوبت معه وأخذها الحنين لتتحدث وتسرد، يقاطعها القلق فتسأل عن مالك، فيطمئنها ويشغلها مرة أخرى، يضحك في بعض المواقف فيرفع ذراعه يحيط كتفيها به ويضمها إليه. قد يكون هذا الشئ الإيجابي الوحيد الذي يفعله منذ مات والده، مجالسته لأمه، وإطالة الحديث معها، وذلك لم يمنعه من عادته الليلية التي كان أحياناً يؤجلها لبعد نومها.

ولأن أمه ما استطاعت السير لفرط قلقها فجلس بها أمام المشفى في تلك الحديقة ضامة وحدته، نظر تجاه المشفى خلفهما فوجدها واقفة تراقبهما كما اعتاد منها، ليست المرة الأولى ولا الثانية، بل كثيراً منذ شهر يحدث هذا، منذ تلك الليلة التي حدثته فيها، بعدها جاء مالك ودامت زيارته له، وما فوتت مرة دون مراقبته وعائلته. هربت بنظراتها حين رآها، ثم اختفت.

لم يشغل باله كثيراً بها إذ أن غرابتها هي الشئ المعتاد بينما لو تصرفت بطبيعية ستكون الحيرة حينها، وأعطى عقله لأمه فهي أحق بكله الآن، ينظر في ساعته بين الحين والآخر يستعجل الوقت ليمر، حتى أن أمه التي لم يهدأ قلبها بدأت تلاحظه فقالت :

- لنذهب إليهم الآن!

رحم قلبها الضعيف ووافقها، وصلا وأجلسها جوار رحيق التي مازالت يدها على اتصال بيد ياسين تطمئن إحداهما الأخرى، ثم ذهب أحمد للبحث عن بنان مشفقاً، لتكون جوارهم أفضل من وحدتها، ابتدأ بغرفة مالك الموارب بابها فرفع يده ليطرقه فمنعه صوتٌ يتحدث، توقفت يداه متراجعاً عمَّ نوى. لم يعرف من صاحبة الصوت التي تبكي فخمنه بنان، واقترح لأن يذهب ليأتي لها برحيق، قبل أن تتضح الكلمات ، ويتضح صوتها، ويمنع حديثُها حركتَه فوقف مستمعاً.. إنها رؤية..

- أنا أحب الله بشدة، ولكن ليس مثلكم، أنتم تفعلون أشياءً لا أقدر عليها ، في الحقيقة أنا رغم حبي لربي لا أفعل ما يرضيه، بل لا أفعل أي شئ، أعرف جيداً أن الجميع يكرهني بسبب

أسلوبي في التعامل، وشئ كهذا لا يزعجني، بل يريحني لأبعد حد، وفي نفس الوقت أكره أن أكون هكذا.

هل تفهمين ما أقول؟ هل تعرفين كيف تحبينه ويخفق قلبكِ لذكره، وتشعرين في صلاتكِ أنكِ في حضرته، ثم في وقتٍ ما تجعلينه أهون الناظرين إليكِ، وتقابلينه بالذنب العظيم؟

هو ليس ذنباً عظيماً أتخفى به، أنا أجاهر بها، أنا لا أؤمن بالقدر، هكذا أكون ولا أعرف كيف السبيل للتغير؟ أريد أن أقرر قدري ومصيري بنفسي لا أن يكتبه عليّ..

ثم سكتت وتنهدت لأنها كالعادة حين فتحت فمها تحدثت في الوقت غير المناسب، وقد يكون الشخص غير المناسب، مسحت وجهها ثم قالت شاعرة بالأسف :

- أعتذر إليكِ بشدة، لا أعرف كيف تسحبين الكلام مني؟ لقد جئتُ لأهون عليكِ الانتظار وليس للشكوى والله!

ثم عقدت رؤية حاجبيها مردفة بهجوم :

- أنتِ المخطئة! لماذا تسألينني عمَّ يزعجني؟ لماذا تطلبين مني الحديث؟ أنتِ، أنتِ ماذا أفعل بكِ؟

ثم وقفت وقد شعرت بالحنق أكثر :

- أرأيتِ؟ ها أنتِ تعرضتِ للساني! بنان انتظري زوجكِ وحيدة سيكون بخير!

ثم اندفعت من أمامها مغادرة، فلحقت بها بنان لدى الباب وقالت :

- أنتِ بالفعل هونتِ عليَّ الكثير، أنتِ كائن خارق يا رؤية صدقيني..

ثم ابتسمت وأكملت هادئة :

- أنا سعيدة جداً لأنني عرفتكِ، وسعيدة أكثر لأنني من بين الناس أجمع الوحيدة التي نلت شرف صداقتكِ، والوحيدة التي تتحدثين إليها..

رن هاتف رؤية في هذه اللحظة، فنظرت لشاشته ثم هتفت بغضب :

- الله يحرقِك " بلكنة مصرية " .. وألغت الاتصال، فنظرت لها بنان باستنكار قائلة :

- ألن تكفي عن ترديد تلك الكلمة؟ يا إلهي تصبحين شريرة جداً في أوقاتٍ كثيرة!

ابتسمت رؤية وهي تخرج قائلة :

- أنا شريرة طوال الوقت!

ثم خرجت، لتجد صاحب العصا جالساً أمام الغرفة مستنداً برأسه عليها، لم تعره التفاتاً لحرجها منه أو خوفاً من أن تعيره ألفاظاً هو في غنى عن سماعها، تحركت بسرعة من أمامه جاهلة بأنه استمع لحديثها. قاطعت بنان أفكاره وهي تقف عند باب الغرفة تسأل :

- هل تريدني في شئ؟

وقف ينظر لعصاه التي استند عليها وقال :

- لا تجلسي وحيدة، تعالِ لأمي أفضل!

- لا تقلق، أنا بخير، لن أستطيع إلا البقاء هنا!

أومأ متفهماً، وانصرف فعقله منشغل بما سمع من غريبة الأطوار تلك، لم يظن أنها قد تفكر يوماً بهذه الطريقة، أو أنها تعاني من غرابتها، لم يعتقد أنها قد تمتلك عقلاً من الأساس، حين جاءت تحدثه في غيبوبته وبعدما استفاق، لم يكن يفهم شيئاً، تردد كلاماً لم يكن مفهوماً بالنسبة إليه، أي قدرٍ كانت ومازالت تتحدث عنه لا يعرف..

خرج مالك، وقد اطمأنوا لأمره، وهدأ بعض بالهم آملين بسعادة قد يعيش فيها أبداً! وتركز الدور الأكبر على بنان، إن كان سيصبر على ما تبقى، فعليها أن تكون مداده للصبر ..

ارتاحت الأجساد وهدأت العقول، استرخت خلاياهم وسجدت جباههم شاكرة، يعتقدون أنهم تجاوزوا تلك الأزمة الآن، سيعود مالك كما كان، مرحهم وسبب ابتسامتهم، وتشعر بنان بما تستحق من سعادة، وتحقق ما تمنت من أحلامها، وتكمل طريقها في السعي الذي توقف بسببه. أخيراً سيشعر أحمد أنه بخير، وقد تتركز أفكاره في نفسه وألمه، وينعزل لمرة أخرى في ملكوت غير الذي يحيون فيه ويموتون.

قالت بنان وهي تجلس على مقعدٍ جوار فراش زوجها وتحتضن كفه بين كفيها :

- ما شعوركَ الآن؟

ابتسم ونظر إليها ثم قال :

- طالما بدأنا، لنكمل حتى النهاية، قد تصدقين وتكون النهايات السعيدة ممكنة..

- لن تتغير أبداً..

- يكفي أنكِ جواري، قد يكون هذا سبباً في تغييري لأجلكِ..

- إنه وعد الله لنا، **((إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ))** ، **((وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ))**..

رفع كفها لشفتيه يقبله، ثم قال :

- ذكريني دائماً..

****

خرجت رؤية من عملها ثم ذهبت إليه عندما رأته، وقفت أمامه هذه المرة غاضبة ثم هتفت :

- أنتَ .. إياكَ أن تتذكر ما قلته لك يوماً، هل فهمت؟

تنهد أحمد بقوة، ثم تنهد بعمق، وكأنه يكتم انفجاراً حتى إنها خافت فتراجعت لخطوتين، أغمض عينيه بشدة ثم قال :

- أنا لا أعرفكِ أصلاً، وبالتالي لن أذكر ما قلتِه، ولن أذكر أنني رأيتكِ يوماً، هل تأمرينني بشئ آخر؟

- لا.. قالتها بترفع، ثم رحلت، فزفر في انزعاجٍ حقيقي وهو يتمنى ألا تعود في ليلة أخرى، تلك المزعجة التي تملأ وحدته بصخب وضوضاء ينفرانه،سيذهب لمالك بعد قليل ليطمئن عليه، وينسى تلك المرأة التي جاءتهم من مجرة نافرة في الكون....

وعادت رؤية لمنزلها، دخلت لغرفتها مباشرة، وأغلقت بابها، وقفت أمام مرآتها تفك حجابها ونثرت شعرها الغجري خلف ظهرها، ونظرت لعينيها وخطوط الزمن التي بدأت ترتسم حولهما، ثم مسحت تحتهما، وقد شعرت ببعض راحة حين أنهت حوارها مع أحمد هذا!

اتجهت لصندوقٍ تحت ملابسها في خزانتها وأخرجته وجلست به على سريرها، أخرجت ما يحويه من صورٍ وأوراق، ثم أخرجت بعض الملابس منها ما يخص رضيعاً والأخرى لرجل، نثرتهم حولها على السرير وتحدثت إليهم كمن تحدث أشخاصاً يتنفسون ويحيون حولها :

- مرت سنوات كثيرة منذ رحلتما ..

أغمضت عينيها، واستلقت على فراشها، اقشعر جسدها، ونغزتها دموع في عينيها أوقفتها على جفنيها قسراً، ارتعشت شفتيها فزمتهما، وصكت أسنانها..

- ما اسمكِ؟

- رؤية!

- رقية؟ .. سألها.. فأثبتت :

- رؤية .. VISION ..

ضحك، وضحكت، ومنذ ذلك اليوم أصبحت الرؤية التي نورت حياته ..

- سنتزوج أخيراً، لو كنتُ صبرتُ لأكثر من ذلك كنتُ مِتُّ محسوراً!

- إنهما عامين فقط انتظرتهما..

مسحت على شعره وقالت بصوتٍ مرتعش :

- تعرف أنكَ ستكون بخير؟ وتنهض لتربي ابنكَ، سيكون مجنوناً مثلكَ!

ردد بضعف :

- لا تخدعي نفسكِ! أعرف أن النهاية قد اقتربت.. المرض قضى عليَّ..

- لا تقلق! أتقلق وأنا طبيبتكَ؟.. وغص حلقها فسكتت.. أجابها :

- لستُ خائفاً من الموتِ أو حزيناً، فقط كوني قوية، ولا تنهاري كما فعلتِ في موتِ أمك،أثق أنكِ ستربي ابني كأحسن ما يكون..

مسحت دمعاتها المتمردة وقالت باختناق :

- كف عن قول ذلك أرجوك!.. ثم حاولت التبسم قائلة :

- لم يمر على زواجنا سوى ثلاثة أشهر، هل ترضى بأن تتركني بهذه السرعة؟ ستعيش معي إلى نهاية العمر!

- أعدكِ أنني سأبقى معكِ إلى نهاية عمري!

وفى بوعده وانتهى عمره معها، أجبرها أبوها على السفر معه ففعلت، ووضعت ابنها في لوس أنجلوس، وحين تبسمت لها الحياة في وجوده، مرض بعد ستة أشهر ومات فجأة.. وكأن حياتها سلسلة من المآسي، تنتهي واحدة فتتبعها بأخرى، أمها ثم زوجها ثم ابنها..

اعتدلت على فراشها، ونظرت للملابس الملقاة حولها وقالت :

- أتعرف أين أعيش الآن؟ وماذا أعمل؟ أتعرف أنني لم أعد أعطي الأمل في الحياة لأي مريض؟ وأخبره صراحة ابتسم ستموت قريباً. أتعرف أن أخلاقي ساءت كثيراً حتى أنكَ لو عرفتني بها لكرهتني؟ أتعرف أنني لم أعد أرق فتاةٍ في الكون، ولا أعرف عن الرقة شئ؟

عرفت أناساً هنا تفرقت بينهم معاناتي، وعوضهم الله جميعهم، ويعيشون الآن سعداء، ومازلت أنا كما أنا..

رحيق امرأة فقدت زوجها، وكادت تنهار في غيابه مثلي، لكن الله عوضها بعودته إليها وعوضها بالذرية، أتعرف أن ابنها أصابه مثلما أصاب ابننا ونجاه الله، وعافاه لها، ومات ابننا..

أنتَ شريرٌ جداً كالعادة، تجلس الآن مع أمي وابنكَ سعيداً بينما تتركني أعاني وحيدة مع أبي الذي يعيش في حياة عابثة كالعادة، سأكرهك يوماً ما..

المأساة الثانية ديانا التي فقدت جنينها وعوضها الله، والثالثة ميرا التي قاطعها والدها وانتهى خلافهما قبل موته، ثم بنان.. أنقذت لها زوجها حتى لا تلقى نفس مصيري..

هل تتخيل أن لا واحدة منهن تحملت أياً من ذلك؟ بينما أنا تحملت كل ذلك، لا تقلق عليَّ لم أعد أبكِ، ولم أنهار بعدكَ!

ثم تنهدت، ودفنت وجهها في الملابس التي بين يديها، وحررت دموعها من أسرها مرددة :

- لم أعد أبكِ، لا تقلق!

أكملت وهي تنظر للصور المتفرقة حولها :

- لم أخبركَ عن أحمد بعد، أنا أكرهه، لماذا يعود من موته ولم تعُدْ أنتَ؟ أنا لم أتركه في حاله أبداً، أحاول أن أكدر عيشه بكل السبل، وفي نفس الوقت أسعى لمساعدته حتى لا يعاني الوحدة بعد صديقه مثلي أنا، أنا أبحث له عن زوجة حتى، أمري غريب أليس كذلك؟

ثم ضحكت وأكملت :

- ولكنه كذاب، أتصدق أنه غاب لعشر سنواتٍ بحجة واهية، أنا واثقة من كونه يخفي أمراً، سبب اختفائه لم يخبر به أحداً، هذا الرجل يشبهني في صفاتٍ كثيرة، وهذه الصفة أهمها، إلا أنني أختلف معه رغم ذلك في كل شئ، سأنهي مهمتي معه وأرحل من هنا، يظنون أن الواقع مؤلم، ألا يفهمون أن لا فرحة تكتمل في هذه الدنيا.. لا تخبرني أن احسني ظنكِ بالله.. لا أريد سماع نصائحكَ.. وفرها لنفسكَ..

اشتقتُ إليكَ بشدة، ومازال سؤال يراودني، لماذا حرم الله قتل النفس؟ ألم يكن هذا الأمر لينهي ألمي وألحق بكم سريعاً!.. سأسكت لأن أفكاري حمقاء كما تدعي أنتَ دائماً.. ولكنني تعرفت إلى بنان حتى أتخلص من حماقات فكري! فلا تقلق..

ثم لملمت ذكرياتها في صندوق وقالت :

- مازلت أخبركَ أن عيبك الوحيد أن اسمك مثل اسم هذا الرجل المدعو أبي، ومازلت أخبر الناس جميعاً أنه زوجي .. وهم يصدقون ذلك!.. اعتني بابننا جيداً..

أنهت عادتها اليومية، وارتمت على فراشها واضعة رأسها على وسادتها تغط في نومٍ سريع تملأه تخاريف مزعجة...

****

بعد أسبوعٍ زاره أحمد في المشفى، لم يرى طيفها طوال هذه المدة فارتاح باله، دخل إلى مالك الذي تطعمه زوجته ثم هتف باسماً :

- ستبقى طوال عمرك تتدلل..

ابتسمت بنان وتراجعت عمَّ تفعل، وقال مالك ضاحكاً :

- ألا تلاحظ أنكَ تكثر الحسد هذه الأيام؟

أخيراً مالك يضحك، إنها معجزة، جلس أحمد على مقعدٍ بعيد وقال :

- ما المشكلة في ذلك؟ أنتَ تستحق ..

ثم وجه حديثه غير المخطط لبنان قائلاً :

- أين تلك الطبيبة؟ صديقتكِ غريبة الأطوار؟

- لا أعرف! قد تكون ذهبت في أي مكان فيه حرب في العالم، إنها تعمل مع لجان الإغاثة، وتسعى باستماتة لأن تموت .. لذلك تعمل تحت أي خطر!

قالتها بضيق يجثم على صدرها فخنق صوتها، وبدا انزعاجها واضحاً..

- **" نعيش في الدنيا اضطراراً، أليس من حقنا أن نختار كيف نعيش؟ "** ..

إنه حديثها تذكره أحمد سريعاً، فسأل بنان :

- وزوجها ؟

- لا أعرف، أعتقد أنه لا يمنعها من شئ! .. قالتها مرتبكة، فهي تعرف أنه أبوها وليس زوجها..

لا يعرفون إن عادت حية من سفرها، كيف حالتها ستكون؟ كيف ستصبح أكثر غضباً؟ وكيف ستكون أخلاقها أكثر سوءاً؟ وكيف ستكون حطاماً كأن زوجها مات اليوم؟ هذا إن عادت !!!

٣٩

بركان خامد

عاد مالك لمنزله ليكمل شفاءه بعد فترة من العلاج الطبيعي تؤهله للسير على قدميه ثانية، واستقرت نفوسهم مستعدة لبداية جديدة، فمالك يبتسم ويشاركهم أمور حياتهم ببساطة غير متكلفة. لا نعرف عادة قيمة الحياة إلا حينما نفقدها، أو نرى الموت يتجسد أمامنا ويهاجمنا، وهو لم يعد أمامه فرصة لليأس والخنوع، ولم يعد يستطيع أن يؤذي بنان، أو يحملها فوق طاقتها، عليه الصبر حتى يتم شفاءه.

وواظب أحمد وياسين في عملهما، بعدما أصبح ياسين يدير نصيب زوجته وشارك بأمواله في الشركة حتى يكون له الحق في البقاء غير متطفلٍ أو متفضل عليه أحد، عادته لن يستطع التخلي عنها، وكالعادة فإن أيامهما تزدحم بالعمل مرة، وتخف أخرى.

وأصبحت عادة اجتماعهم كل ليلة في بيت أبيهم لمجالسة أمهم، وعند انتصاف الليل يخرج أحمد بعد خلودهم للنوم، ويجلس في مستقره، مرت ثلاثة أسابيع منذ اختفت رؤية، يبدو أنه اعتاد عليها، كانت تشغل وحدته، وتؤنسه في لياليه، تشغله بهمومٍ تخفيها عن همومه، وتملأ رأسه بخرافاتها واستفزازها فتنسيه أفكاره..

غريبة هي بالفعل وتثير فضوله، لم تدُم أفكاره طويلاً، ففي اليوم التالي اصطحبته رحيق للمشفى لتفحص ابنتها، ذهب معها لانشغال ياسين، وفي قسم الأطفال رآها واقفة تراقب الرُضَّع، غض بصره عنها عندما التقت نظراتهما، وسؤال يحيره طرأ في رأسه، أين كانت؟

عندما اقتربا منها، بادرتها رحيق قائلة :

- دكتورة رؤية!!

نظرت لها رؤية بلمعة في عينيها، واندهاشٍ لا تدري كلتاهما سببه فأكملت رحيق وقد خافت من رد فعلها :

- لقد جئتُ لفحص ابنتي فقط، لم نأتِ لمريض هذه المرة!

نظرت رؤية لابنتها مباشرة، ثم ابتسمت وهبطت لمستواها قبلت يدها ومسحت على شعرها قائلة :- ما اسم الجميلة ؟

نظرت لها رحيق متفاجئة ، وقد هاجمتها صورة ديانا وتساءلت أهي ديانا أخرى؟ إنها نفس النظرة؟ نفس الابتسامة والعطف الذين يتضحان بقوة في نبراتهما، لم تجِب ابنتها خجلة، فنطقت هي :

- مريم! اسمها مريم!

وقفت رؤية وقالت :

- يبارك الله لكِ فيها، لو رأيتها من قبل لزوجتها ليحيى مباشرة..

استنبطت رحيق أنه ابنها، وتذكر أحمد المجاور لأخته أنها متزوجة فعنف نفسه على تفكيره، وقالت رحيق باسمة :

- لم أكن أعرف أن لديكِ ولد، كم عمره؟

شحب لونها، وغارت عيناها إذ انتبهت لزلة لسانها، ولكنها رغم ذلك ردت :

- ثماني سنوات.. ثم لتغير الحوار قالت ناظرة لمريم :

- أهي مريضة؟ ماذا بها؟

التقت نظرات أحمد ورحيق باندهاش مبهم، إذ أنها أخبرتها للتو فقالت :

- ليست مريضة، ولكنني أواظب على فحصها فقط..

أومأت رؤية، وسمحت لهما بالانصراف تتبع الصغيرة بنظراتها، وحين حادت عنها، تابعت الرُّضَّع مرة أخرى..

لم تمُتْ هذه المرة أيضاً، سيصل بها الحال يوماً للانتحار وهذا ما تخاف منه، أخرجت هاتفها وتحدثت إلى إيلين صديقتها " طبيبة ديانا "، لحسن حظها كانت قريبة منها، فجاءتها سريعاً، تعانقتا في سلامٍ وجلسا في استراحة المشفى، حيث جلس هناكَ أحمد ينتظر أخته ولم يرياه رغم قربه..

تنهدت رؤية ثم سكتت فضحكت إيلين قائلة :

- هل تركتُ زوجي لأسمع صمتكِ؟ هاتِ ما عندكِ، مريضٌ آخر غير ديانا؟.. ثم استرسلت :

- إنها الشئ الرائع الوحيد الذي فعلتِه معي، أنكِ أرسلتِ إلي امرأة مثلها، ألن تعرفيها عليكِ؟ ستسعد بمعرفتكِ حين تعلم أنكِ ساعدتِها.. يا إلهي صمتُكِ غريب هذه المرة، ألن تتعرفي إلى ميرا حتى، تعرفي إلى رحيق مثلاً .. كَوِّني صداقات يا رؤية، حبيبتي أنتِ لا تعرفين غيري مذ جئتِ إلى هنا؟.. والله لا تزعجني معرفتكِ بقدر ما يؤلمني حالك ..

قالت وكأن الكلام ثقيل على لسانها ويجهد قلبها :

- اسمه أحمد .. أحمد عمر!!

- ومن هذا؟ سألت إيلين مستنكرة فقالت رؤية :

- المريض الآخر غير ديانا ..

- وما مشكلته هذه المرة؟

- لا أعرف!.. أنتِ تعرفين أن ما جمعني بديانا كانت مجرد صدفة لولا غياب طبيبتها ودخولي أنا عليها واستنباطي لما تفعل بنفسها ومحادثتي لزوجها لما حدث أي شئ .. لكن أحمد هذا صعب الدخول إليه.. لكنني واثقة من حاجته لمساعدة حتى يتجاوز ما به ..

وضعت إيلين قبضة يدها تحت ذقنها وقالت :

- أتعرفين يا رؤية أنتِ أكثر الناس حاجة إلى طبيب نفسي؟ .. ثم أكملت بغرور مصطنع :

- ولن تجدي من هو أفضل مني!.. رؤية ركزي في حالكِ أنتِ فقط، يجب أن تعرفي أنه من المستحيل أن تمنعي قدر أحد من الوصول إليه، فكفي عن محاولاتكِ!

- ولكنني فعلتُ بالفعل! ألم أدل آدم على علاج ديانا والآن سعيدان هما، ألم أنقذ مالك من الموت كما مات زوجي، وأنقذ حياته من حادثٍ كاد يميته، لم يتبقَّ سوى أحمد.. لأنقذه من مصيره وأرحل!

مسحت إيلين وجهها بإرهاقٍ ثم قالت :

- لا يا رؤية، أنتِ لم تفعلي أي شئ، أنتِ مجرد سبب في الكون، كل مساعداتكِ لهم والتي لا يعلمون شيئاً عنها، كانت مقدرة قبل الخلق، فقط كنتِ سبباً في حدوثها، أنتِ تخافين عليهم، تخافين من أن يواجه أحدهم مصيرٌ كمصيركِ، ولكن مالا تفهميه، أن ما حدث لكِ أبسط كثيراً مما حدث لأناسٍ غيركِ، يجب أن تعرفي أن في العالم بشرٌ يفقدون عوائلهم كاملة، يفقدون سكنهم ووطنهم، يفقدون أمنهم، يفقدون حياتهم رغم أنهم أحياء، بينما أنتِ كل ما فقدتِه يمكنكِ تعويضه إن لجأتِ لله، يمكنكِ تكوين أسرة وإنجاب أطفال يعوضونكِ كل ما فقدتِ.. رؤية لا تظني نفسكِ ملاك الخير الذي يحمي الناس من أقدارٍ عليهم كتبت ..

- ألن تخبريني كيف أقنع أحمد بالمجئ إليكم؟ .. قالتها رؤية لتنهي الحوار فقالت إيلين :

- لا أعتقد أنه بحاجة لأن يأتي.. ثم وقفت مواصلة :

- سأغادر الآن، وألتقيكِ حين يكون بكِ بعض عقل..

سارت خطوتين ثم عادت على عقبهما قائلة :

- لم تخبريني أين كنتِ هذه المرة؟ وماذا حدث لكِ؟

بتذمر قالت رؤية :

- كما ترين لم أتأثر بأي شئ، كان الرصاص والقتلى حولي في كل مكان، ورغم ذلك لم تصيبني رصاصة واحدة، تخيلي أنني لم أجرح حتى، لم تصيبني أي عدوى، لا أعرف ما هذا الشؤم الذي يلاحقني؟

حركت إيلين رأسها يمنة ويسرة ثم قالت :

- هداكِ الله يا رؤية .. هداكِ الله!

ورحلت تشعر بكآبة تملأ صدرها، وانصرفت رؤية لعملها جاهلة بالغضب الأعمى الذي ملأ صدر أحمد، لا يعرف سببه بالضبط، هل هو اهتمامها بشئ يخصه؟ هل هو تدخلها في شئونه؟ لا يدري سبب الغضب بالضبط، ولكن رحيلها عنه هو خير ما فعلت.. هي التي تتحدى القدر إذاً؟

حين انتهت رحيق عاد معها في صمت مطبق، حتى أنه لم يهتم بالسؤال عن ابنتها، وخشيت أن تسأله عن حاله، وخافت أكثر من أن يكون قد عاد لصمته مرة أخرى..

وفي الليل بعد انشغاله ليومٍ طويل بما سمع، جاء إلى مقعده يفكر ويحاول أن يدبر أمره، هو ليس بالشخص الغريب على الإطلاق، هو فقط رجل رفض أن يعامل كالملاك، غيابه لعشر سنوات في عذابٍ رآه، كان كفيل بأن يخفيه في وحدته، ويقمع صوته ومشاركته معهم، ما الغريب به؟

ثم اشتعل غضبه حين قبض على نفسه متلبساً يفكر في قولها، آهٍ لو رآها أمامه، سيحرقها غضبه، وليست متزوجة أيضاً، ما قصة هذا الرجل إذاً، صدم عقله من هول ما توصل إليه، فازداد نشاط بركانه الذي سيثور لا محالة، ولكن في من سيثور، آهٍ لو رآها وألف آهٍ من غضبه الخامد لسنواتٍ وأشعلته هي في يومٍ واحد..

بينما تشتد قبضاته على عصاه، وتصطك أسنانه ببعضها مع ازدياد أفكاره السوداء وتراكمها، وجدها أمامه فجأة، سائلة بكل بساطة فجرت غضبه :

- أنتَ لم تكن تخدم جدي صديقك لعشر سنوات؟ كنت في السجن، لعشر سنواتٍ، لا الخمس سنوات الأخيرة بعد موت الجدين فكرت في العودة، ولكن بالطبع اكتشف تزويرك وسجنت وهذا ما منعك، وحين أفرج عنكَ فكرت في العودة مرة أخرى، لكن كان عليكَ أن تبرر موقفكَ بعيداً عن أي شئ يثير خوفهم أو قلقهم عليكَ، عادتك القيادية التي لم تتخلَّ عنها، ولشدة شوقهم إليكَ لم يهمهم سلامة حبكتك، ولو كنت أخبرتهم أنكَ مت بالفعل وعدت لصدقوكَ، أليس كذلك؟

ما الإثارة فيمَ فعلت؟ وكيف عرفت بسره؟

وقف فجأة وقبضت يده على عصاه بقوة أبرزت عروقه، وزم شفتيه ضاغطاً على أسنانه بقوة كادت تدمرهم فنفرت عضلة في جانب فكه، واحمرت عيناه، فتراجعت لخطوتين بسبب رعبٍ أصابها، رفع عيناه لعينيها وتقدم منها لا يمنعه شئ ثم قال متحكماً :

- ومن أنتِ حتى تتدخلين في شئوني؟

- لأساعدكَ.. قالتهات ببساطة ظاهرة تخفي خوفاً يفتت خلاياها، فأغلظ صوته المحتقن قائلاً :

- ومن سمح لكِ بمساعدتي؟ ومن طلب منكِ ذلك؟

فتحت فمها لتجيبه ولكنه بقي مفتوحاً دون حديثٍ فاسترسل هو بقسوة وشيطانه يغلبه بكل أفكاره، ويذكره بكل ما قالت لصديقتها :

- أنت امرأة مات زوجها فاستباحت الحرام، وعاشت مع رجلٍ تقدمه للناس كزوجٍ لها، رغم أنها تعيش في مجتمع لن يلومها، فهمتُ الآن لماذا تتقربين لعائلتي؟ ولماذا تنظرين إليهم دائماً؟ وهل تعتقدين أن بأفعالكِ وخيركِ الذي يغرقهم نجوتِ من خطيئاتكِ؟

ولا تكتفين برجلٍ واحد، تقتحمين حياة رجلٍ آخر وتقومين بإغوائه، غير عابئة بالأول، ولماذا تعبأين به أو بغيره؟ تظهرين الخير للناس، وتذهبين لأماكن يرجو غيركِ منها الشهادة، وأنت ترجين الموت بأسرع وسيلة، ليت عملكِ بنية خالصة لله، ليت ما تفعلين يكون كما يظهر وليس لنواياكِ الخبيثة منها شئ.. أنا .. أنا .. أنا أشعر بالاشمئزاز لمجرد تذكري لأنكِ جلستِ جواري يوماً وسمحتُ لكِ بالحديث إليَّ، إياكِ والاقتراب مني، وإياكِ والتدخل في شئوني مرة أخرى، أنتِ من بحاجة لطبيب وليس أنا .. شفا الله عقلكِ!

ثم رفع عصاه عن الأرض ليغرسها بعد خطوة تجاوره في مشيه لمكانٍ لا يعرفه حتى الآن..

وتركها حطام امرأة، هاربة كلماتها، نافرة حروفها، جاحظة عيناها، مرتعشة يداها تبعاً لارتعاش خلايا جسدها واحدة واحدة، لها قلب يتباطأ نبضه حتى شعرت أنه سيتوقف في لحظة ما، وعقل أبيض ليس فيه أي ذكرى، ليس فيه أي شئ..

هي لا تعرف كيف وصلت إلى بيتها، وكيف وضعت رأسها على وسادتها؟ وكيف راحت في النوم؟

****

وبينما تحاول بنان مع مالك صبحاً لمساعدته في استخدام الأجهزة الرياضية التي سيستعين بها على عجزه لحين وصول الطبيب، يتضاحكان حيناً، ويعتصر رأسه حيناً آخر في محاولة للتغلب على ضعفه، فتهونها عليه بابتسامة مشجعة.. خرج أحمد ونظر إليهما بادياً عليه بقوة أرق الأمس، وتفكير لم ينتهِ.. التفتا إليه واستغل مالك وجوده ليجلس مستريحاً هارباً من ضغط بنان وقال :

- صباح الخير أيها الأخ الكبير ، تعالَ لتنقذ أخاكَ من زوجته ...

حاول التبسم واتجه إليهما، ثم قال :

- كيف حالكَ اليوم؟

ضحك مالك ورد :

- لم أستطع الوقوف وحدي بعد.. عندما يمشي صغيركم عليكم بذبح الذبائح وإطعام المساكين..

اتسعت ابتسامة أحمد في محاولة فاشلة للضحك، أخوه متقلب الطباع تغير بسرعة، وجم مالك وقال بجدية :

- ماذا بكَ يا أحمد؟

هز أحمد رأسه في حيرة آسفة، وزم شفتيه ثم قال :

- فعلتُ أقبح شئ في حياتي ليلة أمس، لقد أجرمتُ جريمة لن تغتفر..

اتسعت عينا مالك ثم قال :

- هل تزوجتَ؟.. آه .. أقصد ..

ضحك أحمد ثم تركهما بعدما رأى بنان تضرب مالك على كتفه فأخرسته، ولكن مالك أوقفه قائلاً :

- انتظر.. لا تترك أخاكَ وحيداً ..أخبرني ماذا فعلت؟

عاد إليهما بالفعل، ولكن لأن ذهنه الذي أرهقه، وشعور الجريمة التي ارتكبها مسيطر عليه منذ عاد إلى غرفته ليلة أمس، ذهب ناحية بنان وتنهد ناظراً موضع قدمه على الأرض وقال :

- بنان .. هل تستطيعين خدمة أخيكِ؟

أمسك مالك يدها وشدها إليه بحنق قائلاً :

- بنان ليس لها إخوة..

ابتسم أحمد وردد :

- كف عن مزاحكَ الآن يا مالك، ألا تريد أنتَ مساعدة أخيكَ؟

- بالطبع أريد، مرني!!

وجه حديثه لبنان وقال :

- ماذا تعرفين عن تلك المرأة؟ .. رؤية .. هل هي متزوجة بالفعل؟

- أنا لا أعرف عنها شيئاً أكثر مما تعرفونه، فقط هي لا تقصد طريقتها الجافة في التعامل..

- وهل عمر هذا زوجها؟

- ماذا؟..

- أرجوكِ بنان، أريد الصدق ولن أخبر أحداً..

- إنه أبوها..

أخرسته الصدمة لثوانٍ لم تمنعه من أن يسأل :

- وماذا عن أخلاقها؟ ماذا تعرفين عنها؟

- أشهد لها بحسن الخلق..

- وماذا عن مالك؟ كيف أنقذت حياته من الحادث؟

- هي التي دلتني على التركيز على أحداثٍ بإمكانها إخراج مالك من غيبوبته، والتحكم في أفكاره التي تحولت للموت والاستسلام له..

- وماذا عن قذف المحصنات؟ .. همس بها لنفسه ثم غادرهما ولم يعقب، فنظر مالك وبنان أحدهما للآخر باستنكارٍ مبهم، قطعته بنان قائلة :

- لنعود لما كنا نفعله.. هيا ولا تتكاسل..

ضحك وقال :

- بنان اذهبي للجامعة..

جلست على مقعد مقابله وقالت :

- سننتظر الطبيب فقط ..

وافقها، وذهب بعقله إلى أحمد..

****

وفي عمله جلس أحمد على مكتبه يخنقه تفكيره، وتكاد رأسه تنفجر، ماذا فعل ليلة أمس؟ كيف أودى به غضبه لما فعل؟ لمعظم اليوم جالساً وحيداً سانداً برأسه على مكتبه، وكأنه يسكن أفكاره ويبحث عن مخرج لما فعل، ما شأنه هو بحياتها؟ تصاحب رجلاً، أو تدعي البراءة، ما الذي يضره؟ ولكن لماذا تتدخل في حياته؟

- أحمد .. أنت ليس بخير اليوم أبداً.. ماذا بك؟

رفع نظره إلى ياسين ، ثم قال بوهن وغم :

- لقد ارتكبتُ جريمة حمقاء ليلة أمس، ولا أعرف المخرج منها حتى الآن؟ بربك ما هو الحل؟

قال ياسين بجدية :

- قل لي ماذا فعلت؟ لعله خير ..

- لقد أهنتُ امرأة، ولعنتها وشتمتها، وقذفتها أيضاً.. قالها باندفاع تناسب مع اتساع عيني ياسين المصدوم مردداً :

- أنتَ .. أنتَ من فعلت ذلك؟؟

أومأ أحمد بأسف ثم قال منفعلاً :

- هي السبب.. والله هي السبب..

- اهدأ، وفهمني ماذا حدث بالضبط؟

قص عليه كل شئ، فاندفع ياسين قائلاً:

- إنه أبوها وليس زوجها..

- كيف عرفت ذلك؟ .. قالها أحمد مشدوهاً فأجابه ياسين :

- أبوكَ كان يعرفه، لقد تم عملٌ بينهما، وأخبرنا أنها ابنته..

- ماذا أفعل الآن؟ لقد أشعلت غضبي نحوها أكثر، لماذا تتصرف هي هكذا؟

- أنتَ الآن تتدخل في شئونها.. قالها ياسين مثبتاً بلوم، وأردف :

- أحمد أنا لم أخبر شخصاً بما عرفت حتى رحيق تظن أنه زوجها، وذلك لأنها تسعى لإخفاء أمرها عن الجميع وليس من شأني أن أكشفه حتى لزوجتي..

نظر إليه أحمد وقال :

- ماذا عليَّ أن أفعل لإصلاح جريمتي؟

- رغم أنه لن يصلحها، ولكنه المتاح لكَ! .. اذهب إليها واعتذر، ولا تتحدث عن تفاصيل.. أنتَ أفسدتَ كل شئ بالفعل يا أحمد .. كل شئ..

وقف أحمد مردداً بضيق :

- أعرف .. ولكن لماذا تبحث ورائي ولماذا تقول إنها متزوجة؟

- مثلما أخفيتَ أنتَ أمر السجن.. قالها ياسين ببساطة .. فانصرف أحمد يائساً ..

لم يفعل، وليومين يشغله أمرها، يضيق صدره كلما تذكر ذنبه، وينقبض قلبه كلما تخيل قسوة كلماته عليها، كيف أهانها ونطق بما قال؟ كيف وصلت بغضبه إلى هذه النقطة؟

ثم ذهب لمنزلها، لا يعرف ما الذي سيقوله، وهي يتخيل رد والدها إن علم بالأمر، والدها؟ إنها تتحكم فيه بدرجة كبيرة، لم يتفاجأ من ترحيبه به حين وصل، فقد علم أن امرأة مثلها لن تخبر أحداً عن إهانتها، كما لم تخبر أحدهم عن مصائبها، جلس يتحدث إلى والدها لبعض الوقت قبل أن يطلب منه مقابلتها لأمر ضروري، فاستجاب لمطلبه وذهب إليها ..

لم يعرف أنها ليومين لم تغادر غرفتها، لا تنطق، جالسة بين ذكرياتٍ ماتت وهو بشيطنته أحياها..

لا تمتلك سوى ماضٍ يؤلمها، ولأن لا حاضر لديها، فماضيها هو الشاغل لرأسها ..

لم يخرجها من عزلتها سوى سماع اسمه " أحمد " .. لقد جاء إلى مصيره، اندفعت حيث يكون، ولم تنتبه لملابسها المكشوفة، وقفت أمامه ناظرة إليه بغضب، نفس النظرة التي رماها بها منذ يومين، وقف عندما رأى هجومها، اتسعت عيناه عندما رأى ما رأى فغض بصره شاعراً بغضب ألجمه بقوله:

- جئتُ لأعتذر عمَّ بدر مني، أنا آسف ..

ثم خطا خطوة بنية الرحيل في أسرع فرصة، ولكن لا مفر من غضبها الذي كتمته ليومين، لا إنه غضب كتمته لسنواتٍ، غضبها دائماً مدفونٌ في خبايا قلبها، وكذلك حزنها ينهش في جدار القلب فيميته، يشيخ قلبها وتشيب رأسها، وتدور حول عينيها علامات الزمن، وتبقى كالصخر الصلد، ثابت لا يتحرك، وإذ به يشعل بركاناً تحته يفتته، وينثر شظاياه حوله، ولقربه منها سينفجر في وجهه هو، وأول من يقتل سيكون هو..

هل رأى حطام امرأة من قبل؟ هل رأى انفجار بركان أو انهيار جبل؟ إنه الفتات الذي يراه، إنها خلاياها المتناثرة، ووجهها المحتقن، وشعرها الغجري المنثور حولها متمرداً، إن ما يسمعه شذرات لسانها، وهواجس خوفٍ لازمتها، يداها اللتان تشيران إليه بعنف، وقدماها المتشبثتان في الأرض تحفظ ثباتها.. وكأن حدود وجهها الأحمر أسرته ولم يستطع أن يحيد عن عينيها اللتين فاض دمعها أو شفتيها اللتين تنثران الكلام غير منتظمٍ، صوتها المتهدج الذي بحت نبرته..

علمت الآن أنها لم تصرخ لموت زوجها، لم تعبر عن حزنها سوى بدموع قهرٍ مكتومة، ودموع عجز مدفونة بقلبها، لم تنتحب حين مات ابنها وحين رأته يواريه التراب أمام عينيها، بقي حزنها ساكناً لقلبها، مرت السنوات تشغل نفسها بكل شئ، وتمنع الحزن من ظهوره، تعيش في لا مبالاة وترى الموت حولها ولا تتأثر، تجرح من حولها حتى لا يجرحها أحد، السنوات تمر وتقترب من أَجَلِها وهو لا يدنو منها، يبقى بعيداً بعيداً جداً عنها..

ثم تحول حديثها لنقطة لشد ما خافت من الوصول إليها، ولشد ما تراكم رعبها منها، وكأن هو السبب في كل الشئ، أو هو من سيجيب أسئلتها :

- لماذا أنا ؟ لماذا يعاقبني؟ ألا يعرف أنني أحبه؟ لماذا يأخذ مني كل الناس؟ لماذا يتركني في الدنيا وحيدة؟ لماذا يطلب مني الرضا والصبر على شئ لا أطيقه؟ لماذا؟ لماذا يكتب عليَّ

الشقاء؟ رغم أنني أطيعه وأعمل ما يرضيه إلا أنه لا يحبني ويكتب علي المصائب دائماً؟ لماذا أنا ؟

ثم تركته في ذهوله مع أبيها وعادت لغرفتها تائهة، وصلت لفراشها، وضعت رأسها على وسادتها وراحت في نوم لا تعرف متى سينتهي؟

وخرج هو من بيتها يكاد يجزم أن من سيراه سيظنه ثملاً، هي بالفعل أسكرته وأسقاه حديثها خمراً من قوته لم يعد يرى أمامه، وسيصل إلى بيته بحالٍ أسوأ من حالها ..

في يومها التالي استيقظت كأن لم يحدث شيئاً، استعدت لعملها الذي تركته منذ يومين، وذهبت لتعد شيئاً تأكله، فمعدتها تتضور جوعاً لصومها ليومين، لا شهية لديها رغم جوعها، ولكنها أعدت الشطائر التي تفضلها وجلست تقضم منها حتى تقيم صلبها..

خرج أبوها وجدها أمامه تأكل، الآن عرف أن ابنته لا تأكل سوى للتخفي من نظرات من حولها، الآن عرف أن ابنته لا تأكل الطعام لأنها تشتهيه بل ليحول نظرات الجميع عنها، يعرف أنه إن لم يتحرك ستظل تأكل حتى تنتفخ معدتها، الآن فهم سبب تقيؤها الدائم، تأكل ما يفوق طاقتها على الطعام، تأكل دون شهية، وحين يرفض جسدها يعبر عن رفضه بلفظ ما أكلت..

رحمها مما تفعل وسأل :

- هل ستذهبين إلى عملكِ اليوم؟

أومأت وفمها ممتلئ بالطعام، فأكمل :

- انتظريني بعد انتهائكِ سأمر عليكِ لنتناول طعامنا معاً..

هزت رأسها نفياً ثم قالت :

- لا، تناوله مع زوجتكَ أفضل، فقد أتأخر ..

وانسحبت بسرعة، وصلت للطريق، سمعت رنين هاتفها لتبدأ معاناتها في البحث عنه في مكانٍ ما في حقيبتها، تمر بين السيارات غير عابئة علَّ سائق سكير يصدمها فتموت، ولكنه ما حدث، أكملت سيرها لشارعين حتى وصلت للمشفى، تمنت لو يأتيهم مريضٌ مصاب بعدوى لا علاج لها، فتنتقل إليها وتموت سريعاً، دخلت فعلمت أنها ستجازى على انقطاعها عن العمل ليومين؛ فتمنت لو كان الجزاء القتل رمياً بالرصاص أو الحرق حياً، فتموت، التقت بزميلها العابس دائماً فتساءلت لماذا لا يخرج غضبه فيها ويغرس في قلبها نصلاً بارداً يميتها..

ملت من أفكارها السوداء التي لا تنتهي، والتي تأتيها كل يوم، ثم بدلت ملابسها بزي المشفى، وارتدت معطفها الأبيض، وتسللت إلى قسم الأطفال، وهناك وقفت تنظر إليهم تبحث عن ابنها فيهم، تحاول باستماتة مساعدة أي أم ترى الدمع في عينيها، أو ترى جزعاً وخوفاً من الفقد في قلوبهن ..

سيأتيها إنذار يطلبها في غرفة مريض لها نسيته، أو في غرفة الكشف، وقد يكون موعد جراحة لها خلفته .. إنه الروتين الذي تحيا فيه ..

تكرر الاتصال الذي تجاهلته صبحاً، أخرجت هاتفها من معطفها فهذه المرة أسهل، أجابت مباشرة حين وجدت المتصل إيلين، ثم قصت عليها كل ما حدث بغير مقدمات، أو سؤال عن حال.. تحمد الله أن لها شخصاً كإيلين تحكي له عن كل شئ دون حرج، وأوقفت حكاياتها حين تذكرت شيئاً، ماذا كانت ترتدي حين انفجرت في وجهه؟ من المؤكد أنها ارتدت جلباباً خرجت إليه به أو غطت شعرها حتى، ولكنها لا تذكر أنها فعلت. هل يعقل أنها خرجت له بما ترتدي؟ لن تكون المشكلة في شعرها أبداً، لقد كشفت ملابسها عن ساقيها وذراعيها، ليت شعرها هو الظاهر فقط!! تعتصر رأسها علها تتذكر أنها تسترت عن عينيه حين خرجت، لا فائدة، ويحها ماذا فعلت؟

صوت إيلين أخرجها من مصيبتها، والتي تلتها المصيبة الأخرى التي تلفظت بها، هل اعترضت على أقدار الله؟ هل كفر لسانها تبعاً لكفر قلبها؟.. ولكنها بالفعل معترضة على القدر، وتجهر بذلك!!

- رؤية، لأنني الوحيدة التي ترى قلبكِ، فلن أتركك هكذا، أنتِ بحاجة لصلحٍ مع النفس، سأمر عليكِ اليوم إن شاء الله عند الخامسة، هل سيناسبكِ؟

أومأت رؤية بعينيها كأنها تراها ثم أخرجت صوتها بصعوبة قائلة :

- سأنتظركِ!!

****

فتحت بالكاد عينيها ، فوجدته ساجداً، ارتسمت ابتسامة تلقائية على وجهها، هل هناك سعادة أكثر من ذلك؟ أحاطت بطنها بذراعيها تحمي جنينها كما اعتادت، ثم انقلبت على ظهرها ناظرة للسقف، فوجدت اشتياقاً يجرف نظراتها لهذا الساجد فتحولت إليه بابتسامة متسعة، وقلب يرقص في مكانه فرحاً. آدم يصلي أخيراً ويعبد الله كما تمنى، أصبح المسلم الذي يطمح، لا نساء ولا عبث، لقد كان متجاوزاً للمصافحة، يعانق مباشرة، ضحكت بصوتٍ مسموع حين تذكرت زوجها معانق النساء مصاحبهن، ثم سكنت تسمح لعينيها بالمراقبة، ولقلبها بالخفقان ..

حين أنهى صلاته، نظر إليها مندهشاً وسأل :

- ما الذي يضحككِ؟ أنتِ لستِ طبيعية منذ علمتِ بالحمل..

ضحكت ديانا مرة أخرى وقالت :

- دعكَ مني الآن، لماذا لم تذهب إلى براون، لقد سمعتك تحدثه وأنا نائمة ..

- حقاً .. قالها ساخراً وأردف:

- لقد تأخرتِ في نومكِ، حتى أنكِ لم تسمعي هاتفكِ الذي رن لأكثر من مرة، كانت إيلين..

ابتسمت وهي تمد ذراعها لهاتفها، وقالت :

- أنتَ تظلمني يا آدم، ما المشكلة في النوم ..

تحرك من مكانه منتقلاً لخزانته يخرج ملابسه، وهو يقول :

- اتركي هذا السرير قليلاً، لن يؤذى ابنكِ إن حركتِه..

اعتدلت جالسة وهي تحاول الاتصال بإيلين ثم تصنعت الغضب قائلة :

- أخاف عليه آدم، أخاف أن تؤذيه حركتي..

تنهد وهز رأسه يمنة ويسرة ثم قال :

- ولكن حركتكِ مفيدة له، ثم أن الله حافظه وليس أنتِ ..

تحدثت إلى إيلين، أثناء تبديله لملابسه وحين انتهت قالت :

- ها أنا سأخرج اليوم للقائها، هل ارتاح بالك الآن؟

ضحك بشدة حيث أن خروجها أصبح في أضيق الحدود ، حتى عملها تؤجله أحيانا وتعتزله أحياناً ثم قال :

- أشعر بكل الراحة .. وخرج مخلفاً إياها وراءه مغتاظة سعيدة، تضع يدها على بطنها تطمئن جنينها، وتخبره بما ستفعله اليوم..

****

في تلك الغرفة الخاصة في منزلهما، والتي يخطط كل منهما فيها أحلاماً لأبنائهما، وقفت رحيق تضع ورقاتٍ مطوية كتبتها، في أظرف معلقة على الحائط حين دخل ياسين واتجه نحوها قائلاً :

- إنها الرسالة الثانية دون أن أرها..

التفتت إليه وقالت :

- أنا أيضاً لا أرى ماذا تكتب، متعادلان ..

- كاذبة، لقد رأيتك تتسللين للدخول هنا ليلة أمس، وتقرأين ما كتبتُ ..

فتحت فمها في صدمة ثم قالت :

- لقد رأيتني.. يا إلهي، لا مفر من ذلك.. سأخبرك إذاً .. إنها رسالة إلى أبنائي بعد عشرين سنة، في حال موتي، أو حياتي، أو لا قدر الله موت أحد منهم.. أياً كان رسالة هذه المرة، ليست بالشئ الجيد أن تراه .. وعليَّ الخروج الآن للقاء صديقاتي، سأتركك تتسلل للقراءة ..

ضحك وهو يودعها قائلاً :

- أنا أيضاً سأخرج، خذي مريم معكِ واتركي سيف سيكون معي ..

وافقته وافترقا..

****

التقتها إيلين وذهبت بها للقائهن، ولم تخبرها إلى أين هما ذاهبتان؟ فقط عند الوصول نطقت :

- الآن سترين فرحة ميرا، وسعادة ديانا، وراحة رحيق، ورضا بنان، وتعرفين أن القدر لا يؤذي أحداً..

كالمسحورة استجابت بلا إرادة، وحينما رأتهما ديانا، اتجهت نحو إيلين عانقتها بشوقٍ ظاهر، حينها تمنت رؤية لو لها مثل هذا العناق، أقبلت عليها بنان فصافحتها، ولتحفظ رؤية الظاهر دائماً خافت من أن تندفع نحوها معانقة ..

رحبت بهما رحيق وميرا، وعرفتها إيلين لمن لا يعرفْنها، بأنها صديقتها الطبيبة المصرية التي تعرفها منذ سنواتٍ. لم تزد عن ذلك وتركتْ لديانا قوة الملاحظة إنها تعرفها ورأتها قبل ذلك، رأتها في مكانٍ ما غير اجتماعها بعلاج مالك، لقد تغيرت مشاعرها حين رأتها، وارتبطت صورتها في ذهنها بتلك المشاعر التي كانت تهاجمها حين كانت تعاقب نفسها..

تريد رؤية منهن صحبة تنجيها من أفكارها التي تنحدر وتنحرف يوماً تلو الآخر، ولا تعرف متى ستتوقف؟.. هل ستجد النجاة معهن؟؟

٤٠

رؤيةُ بنان

لم تصدق إيلين نفسها، عندما أطاعتها رؤية وأعطتها ذلك الصندوق الذي تحبس نفسها فيه، ولم تصدق وعدها لها بأن تتقبل حياتها، وتعيش خالية البال مطمئنة. فقد انتهى ذلك اللقاء الذي جمعهما بالنسوة بأسوأ مما توقعت وقد خربته رؤية بشذرات لسانها، وبعد عودتها لمنزلها عرضت نفسها للومٍ لم تفعله قبل، كرهت نفسها بوحشية، وكرهت كل ما حولها، وفجأة رمت اللوم كله على صندوق ذكراها بما فيه، وبمجرد أن طلبت منها إيلين أخذه، أعطتها إياه، وكأنها رافضة لوجوده، ابنها إن كان حياً فلن يفخر بأمٍ مثلها، وكذلك زوجها، فوجئت أن جزعها على ابنها كان أكبر بدرجة أنستها حزنها على زوجها سريعاً.. قد يكون!! فهي الآن عاجزة عن فهم مشاعرها، فطنت فقط أنها وصلت لدرجة من اليأس جعلتها تعترض على أقدار الله، وأنها أصبحت من القانطين.. ورغم كل ذلك لم يصل يقينٌ لقلبها بالإيمان الكامل بالقدر..

قد يكون ذلك اللقاء هو الذي قصم ظهرها، بعدما تمنت صحبة تغنيها عن آلامها، ضيعها لسانها ولامبالاتها، عادت لبعض رشدها، وشعرت أنها بحاجة لربها، لتطمئن به، وإليه، تحتاج لأن تفر

إليه مستغفرة، حياتها الآن مختلة، فإن كانت تريد الموت، ألم تسأل نفسها يوماً وماذا بعده؟ هل تعتقد أنها بموتها ستجد سعادتها الضائعة، قد يكون زوجها وابنها ينعمان في جنة الخلد، وهي بأفعالها تذهب إلى نارٍ وبئس المصير، وعندها سيصبح الفراق أبداً.

لينعم مفارقوها بالجنان، ولتحيا هي ما كتب لها سعيدة حتى يكتب الله لها اللحاق بهم، لن تتعدى على حدوده – سبحانه - مرة ثانية، لكم تشعر بالكره لذاتها الآن، ولكم تكره شعور الكره هذا!

واختارت العزلة، لكي تعيد التوازن الذي تبغيه لا بد لها من عزلة عن الناس وعن العمل وعن كل ما يشغل بالها أو فكرها، لأسبوع أقامت بمسكنٍ قرب المحيط وحدها فيه، تخرج صبحاً تجلس على شاطئه، وتعود عند الغروب، وكأنها تخرج كل طاقات اليأس التي تحملها، تخرج العشر سنوات الفائتة من ذاكرتها، وما قبلها، نفس عميق ثم تزفره ومعه تزفر كل ألم أصابها، إنها إرادة لا أكثر..

وبعدُ اندمجت في عملها محاولة التبسط مع الناس، زملاؤها الجانب الأكثر تعرضاً لفظاظتها، رأت الاندهاش في عيونهم من تصرفها المهذب لأول مرة، ولو يعلمون كم ضغطت على نفسها لتفعل ذلك ويمر يومها دون أن يفلت لسانها لأشفقوا عليها، فهم لا يختلطون بها بصورة كبيرة في الأصل، ومع ذلك ففي المرات القليلة التي يلتقون فيها تطالهم سماجتها غير المبررة.

شغلت يومها كله وزاحمته حتى تهرب من فراغها أو النوم، معظمه في عملها، وما تبقى تبحث عن شئ تفعله، حتى يهلكها التعب فتنام بلا تفكيرٍ مسبق أو شعورٍ بالأرق، ومر شهر وهي تروض نفسها تتحكم فيها، حتى ذلك اليوم الذي شعرت فيه أنها تمتلك القدرة التامة على إصلاح ما أفسدت، فطلبت من إيلين أن تحدد موعداً معهن لتعتذر أو تذهب لبيوتهن، ولكن الموعد قد تحدد..

التقت بهن بعينٍ منكسرة، وكيف لا تنكسر وقد رأت أثر كلماتها عليهن مسبقاً، خاصة ميرا التي أشاحت بوجهها عنها، فهي أكثرهن مرحاً وأكثرهن حساسية تجاه أي فعلٍ كفعل رؤية التي لا تذكر الآن ماذا فعلت بالضبط، سوى أنه الأمر الطبيعي الذي كانته. وقفت معتذرة طالبة عفوهن ولم تنتظر إجابة وهمت بالمغادرة، فأوقفتها ديانا :

- انتظري!!

نظرت لها رؤية' لعينيها ' ليست كالبريطانيين الذين تعرفهم، تشعر ببرودة مشاعرهم، وكبريائهم الظاهر الذي لا يقبل بتطاول امرأة مثلها، بينما ديانا غير، وتعرف أنها غير منذ النظرة الأولى التي جمعتهما. تبع أمر ديانا قول ميرا المرِح والذي يناقض نظرتها الأولى لها :

- اجلسي، عادة اللقاء الأول الذي يجمعني بأي شخص يكون الأسوأ على الإطلاق، يبدو أن الخطأ يكمن في شخصي..

نظرت لها رؤية آسفة، في حين استحكم الصمت على رحيق وبنان التي تملكتهما شفقة غريبة بها، ومر اللقاء الثاني معهن في صمتٍ تام منها، فهي لم تأتي سوى لتعتذر فقط، وخافت بشدة من فتح فمها فيخرج ما لم تقصده..

وكأنه كتب عليها أن تدفع ثمن ما فعلت بكل من قابلتهن، أو أن تتغرم لأجل ما اقترفت لسنوات، حين جاءتها إيلين بابنتيها وقالت :

- المعذرة يا رؤية، ولكن عليَّ السفر في رحلة مع زوجي، ولن أستطيع الاستمتاع بصحبة هاتين، هل تخدمينني فيهما؟

بحسن نية وبحب للأطفال كلهم قبلت الأمر بصدر رحب، ولم تفطن حتى لتحذير إيلين حين قالت :

- أعرف أنهما شقيتان وسيتعباكِ، سامحيني، أسبوع واحد فقط..

قبلت بالأمر، وعلى غرة منها فوجئت بوجود فتاتين من عالمٍ آخر، إحداهما في الثامنة من عمرها والأخرى في الخامسة، لا يعرفان للهدوء والاستقرارمعنى، يعبثان في كل شئ، ويغيران معالم كل جميل، حرمت النوم مرغمة ليومين، حرمت الطعام وراحة البال، لم تستطع الذهاب لعملها لأن لا طاقة لأبيها بهما، وبالطبع لن تستطيع زوجته الحسناء الاهتمام بهما.

بعد يومين فعل بها أبوها خيراً، احتوى شغبهما وتحمل مشاكستهما فصاحبتاه ولاطفهما، واستطاعت العودة لعملها، وحين تنتهي تعود إليهما لتواصل مهمته. لن تنكر أن الصخب اللذيذ ملأ حياتها فرحة، وأن الضوضاء التي ملأتا بها البيت أحيته، وأحيت قلبها من رعونته..

توصلهما للمدرسة وتنتظر عودتهما، تهتم بطعامهما ولباسهما وموعد نومهما ودراستهما كأم حقيقية اشتاقتها، ولم تفطن يوماً لعينٍ مراقبة تعلقت برؤيتها وهالة الضوء التي تمد يومه بها فيستنير!!

وعادت إيلين لتأخذ ابنتيها آسفة على شغب متيقنة من حدوثه، وسعيدة بامرأة غير تلك التي تركتها!

****

إلى مَن خلقني الله منه .. إلى مالك ..

ليس بالأمر السهل أو الهين أن أمسك قلمي لأكتب عن الله، أو أسبح في عمق معاني كتابه، وليس هو بالأمر اليسير أن أترك العنان لقلمي لكي ينهل منه ويستفيض..

ولكن .. لكي تصل لعمق المعنى، وبلاغة الكلم، ويتشرب قلبك بخشوع عذب يحيله رقاً، فعليك بتدبر قوله وتأمله ..

بسم الله أبدأ ..

((بسم الله الرحمن الرحيم

الم

أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ))

منذ مرضك الأول يا مالك وقد فطنت لابتلاءٍ أصبت به، ولم أفطن لذنبٍ يطهرني الله منه، قلت الصبر والرضا هو الحل، وصبرتُ ورضيتُ وشفيتَ أنتَ.. ثم مرضتَ ثانية وكان الابتلاء أعتى من الأول، فقلت سأصبر وأرضى ليختبر الله صدقي في السعي إليه، ويجري بي الزمن وأثبت نفسي وأشد على يدي، جاهدي نفسكِ يا فتاة فإن الصبر بعده فرج، وغاب الفرج، واسودت السماء والأرض، وضاق الكون بي، وتشتت عقلي وحار قلبي، ما الذي يحدث؟ لماذا أنا؟ هل الله يختبر صدقي الذي يعلمه حقاً؟ لماذا يفعل بي ذلك وهو عليم بحبي له؟

وخارت قواي وعجزت، هناك سراً لا أعلمه، كما تعلم عكفت على البحث عن سببٍ لما نحن فيه، وأنار ذهني بشئ غاب عني بعد تعبٍ طال، عرفتُ أنني سعيتُ إليكَ أكثر ممَّ سعيتُ إليه، حرصتُ على كسب قلبكَ وحبكَ وابتعدتُ عن الله كثيراً، مر وقتٌ طويل لم أعبد الله بحق، لم أحافظ على عادتي الخاصة معه، لم أتدبر، لم أتأمل كونه، ولم يخر عقلي ساجداً لعظمته، عرفتُ أنني أذنبتُ!!.. الله يريد أن يردني إليه.. يا لفرحتي بها ..

لو تعلم أنكَ النقطة الأضعف في قلعتي القوية، لو تعلم أن غزوكَ كافٍ بهدم القلعة وحصونها، لو تعلم أنكَ حجر الأساس الذي لو اهتز لانهدمت القوة وسويت بالأرض، أتعلم يا مالك أنني وضعتك في المكان الخطأ؟

فأنتَ اهتززت وغُزيتَ وانهدمت قلعتي فوق رأسي..

وكأنها ترى رؤية التي سكنت إلى نفسها في أحد أركان غرفتها تقرأ ..

((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ))

أتعرف يا مالك أولئك القوم الذين يعبدون الله على حرف، لقد كنا منهم أو كدنا، أردنا أن نعبد الله مشترطين السعادة والهناء، فإذا ما انتكس الحال بنا خنعنا ..

وأكملت كأنها تهمس كلماتها في أذن رؤية ..

ولكن على كل حال كنتُ أعرف أنه لن يردني إلى طريقه سوى كتابه، أليس هو من قال

((وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ...))

لذلك عدتُ إلى طريقه أشد نفسي إليه، وأُقَيّمُ خطايَ لتستقيم، طمأنني بآخر السورة التي فتحت السبيل أمامي..

((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)) ..

وجهاد النفس أشد وأقوى.. فجاهد نفسك حتى تصل !!

وسأنهي كتابتي بتلك الآية ..

قبل أن تكمل سحبت نفساً عميقاً كأنها ملأت صدرها بهواء الحديقة الجالسة في أحد أركانها، وأغمضت عينيها وقبضت يدها ثم بسطتها لتكمل كأنما رؤية التي تنطق وليست هي ..

((وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ))

في كل مأزقٍ وكل كرب، في كل سوادٍ اشتد بكَ وفي كل ظلمة سجنتكَ، في كل ضيق وكل عسر، في كل اختناق وكره لذاتك ولحياتكَ .. في كل نعمة، في كل أمل ، في كل لحظة فرحة، في كل فرج ، في كل نشوى وسعادة ونجاح ..

الله قريبٌ منكَ، أقرب إليكَ من حبل الوريد، لا تبخل على نفسكَ أو تحرمها من قربه..

وفي خضم تفكيركَ الشارد، وبعدك عنه وهجرك لطريقه تجد قوله ذاك يدعوك إليه ويرفق بقلبك .. أيها التائه رفقاً بنفسكَ ..

تستشعر رؤية الآية وبرداً يسري في قلبها وطمأنينة، يلف عقلها راحة واستجابة، وتحمد الله أن انتقلت حالتها ووصلت لتلك الآية بعد أن أوشكت على أن تكون من أولئك الذين وجهت إليهم هذه ..

((وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) ..

لقد أنقذها الله ..

تتلاقى الأرواح بغير جسد في ملكوتٍ سرمدي، فتتنافس فيمَ بينها، وتتآلف، وتسكن بعضها إلى بعض ...

أنهت بنان خطابها بمشاكسة لم تستطع التخلي عنها ..

لقد آلمتني يدي، وقد نويتُ أن أتحدث عن سورة العنكبوت، لا بأس، في وقتٍ لاحق حين أجدُ وقتاً سأخبركَ إن شاء الله..

زوجي المسكين لقد اشتقتُ للكتابة إليكَ أيها اليائس الأخرق .. بالطبع ستسامحني هذه المرة، لقد عذبتني طويلاً ..

حبيبتك المشاكسة /

بنان قلبكَ

...

تركتْ قلمها، وأغلقت حافظة أوراقها، وهي تحول بصرها تجاه صوته القادم من بعيد، ثم ابتسمت عيناها لمرآه قادماً جوار أحمد مستنداً بذراعيه على عكازين يساعدانه في الحركة، ثم افترقا ودخل أحمد للمنزل بينما اتجه هو نحوها، تابعت خطواته الثقيلة حتى وصل إليها وجلس مرهقاً ثم قال بشبه ابتسامة :

- ألم تستطيعي الجلوس قريباً من الباب؟ ..

ضحكت قائلة :

- تخلى عن كسلكَ أرجوكَ، وأخبرني ماذا فعلت اليوم؟

- أنا جائع! ألن نأكل؟

نظرت له بلومٍ ووقفت، اعتادت أن يتهرب من سؤالها عن حالته أو علاجه منذ اتخذ من أحمد رفيقاً بدلاً منها، تجاورا في خطواتهما حتى دخلا للمنزل، تناولا طعامهما الذي تعده سارة لمالك خصيصاً حتى يغذي بدنه، ويعوض نقص وزنه، ولا تعرف بعزيمته التي تزداد في ذلك..

ثم تركها جليسة أمه، ودخل غرفتهما، بحث في أغراضها، ثم انتقل إلى الكتب التي أدمنت قراءتها، ثم بحث عن أوراقها حتى وجد ذلك الكتاب الذي انتهت من كتابته منذ وقتٍ ليس بقليل، قرأته عليه، وقرأه هو بعدها، وتناقشا في معظمه قبل حادثته، قرأ عليه " جاهز للطباعة " فابتسم وهو يجري اتصالاً هاتفياً أنهاه حين دخلت، وابتسم لها قائلاً :

- ستتخرجين قريباً، ألن تريني فيلمكِ الأخير؟

التوت شفتيها ببعض ضيق وقالت :

- وهل تهتم؟

وصلت ابتسامته لعينيه وقال معتذراً :

- أنا آسف! لم أقصد إهمالكِ، انتظرتُ فقط لحين انتهائكِ منه.

- وماذا لو كنتُ بحاجة إلى مساعدتك؟

- أنتَ الآن تفوقين خبرتي، ولستِ في حاجة إليَّ. هيا أريد أن أرى.

لم تكن لتفعل لولا حماسة صوته، والتماع عينيه مشجعاً ثم بدأت تقص ماذا فعلت، وتحكي عن المجهود الذي بذلته تفصيلياً، مغرمة هي دائماً بذكر التفاصيل، وجعلته يدمن تفاصيلها تلك .. وحين شغلت العرض، سكتت سامحة له بالتركيز على ما يرى، وسامحة لنفسها بالانتباه لتعليقاته وملاحظاته التي تأخذها منه دائماً كأنه معلمها..

وبينما يتحدثا هتفت فجأة بجملة مغايرة لحديثهما :

- لم يتبقَّ سوى شهر واحد، أتعتقد أن يحدث فيه ما أتمنى!!

اضطربت كل خلجاته وهو يقول :

- إن شاء الله، سيحقق الله لكِ كل ما تتمني، إن شاء الله ..

ثم احتوى عجزه وهو ينهض متجهاً للخارج قائلاً :

- سأذهب لأحمد..

تابعته بناظريها، ولم تتابع حديث نفسه الذي يتردد " إنه شهر واحد، شهر واحد فقط، هل ستستطيع أن تصل فيه " ..

ولجهلها بما ينوي، أسرت في نفسها حزناً لا تعلم كيف سينقلب الضد لضده بين عشية وضحاها..

****

- ولكن كيف تقول أنكَ تحبني وأنتَ لا تعرف عني شيئاً، ما جمعنا سوى أحاديثٍ بسيطة في معظمها تسخر مني وتشكك في كوني مسلمة!

ارتعش صوتها، تعبيراً عن ارتعاش أوتاره ودقات قلبها، وهي عاجزة عن رسم ابتسامة أو وجوم على وجهها، فبدت بعثرة مشاعرها جلية في صورة التقطتها ميرا لها في أول حديثٍ جمعها بياسين.. ابتسمت رحيق وهي ترى الصورة بشرود أعاد ذكراها لذلك اليوم، كم تبدو البراءة والعجز في عينيها يكسران نظرتها..

ثم ضغطت على بطنها وهي تمدد قدميها أمامها وتابعت مشاهدة الصور، تحن لتلك الفترة من حياتها بشدة، كانت كمن يولد من جديد، كمن يرزق بحياة أخرى، ويتنفس هواءً نقياً للمرة الأولى..

- الحب لا يحتاج لأسبابٍ أو وقت، يكفي أنني وجدتكِ حتى أحبكِ، منذ وعيتُ وأنا أبحث عن رحيق حياتي، وعندما رأيتكِ عرفتُ أنكِ أنتِ هي!!

- بالله عليكَ، ألم يكن الأمر سوى نبل أخلاقٍ منكَ، أن ترتبط بشخصٍ مثلي؟

- اسألي قلبكِ!

تركت هذه الغرفة وتركت وراءها ذكرياتها، وخرجت تبحث عن ابنيها.. في غرفتهما وجدتهما جالسين، فجلست معهما، ولم يفت الكثير من الوقت قبل أن تطعمهما، فقد تأخر ياسين على غير عادته، لم تلبث أن تعرف الوقت بين حينٍ وآخر، وتتصل به فلا يجيب..

- يارب هَوِّنْ .. تمتمت بها، وهي تذرع الردهة بعد أن نام ولداها، ترفع يدها لشعرها، وتتخلله أصابعها، تخشى من سؤال مالك أو أحمد، وتحاول الاتصال مراراً، حتى عاد زوجها المنتظر بعد ساعة من اتصالاتها..

دخل وسلم بوجهٍ عابس، فقتلت لهفتها وانفعالها لمرآه، دخل لغرفته مباشرة وارتمى على سريره مخفياً عينيه بذراعه، دخلت خلفه وعلمت من مظهره أن الأمر جلل..

جلست جواره بخفة، وربتت على ذراعه قائلة برقة :

- ياسين .. ماذا حدث؟ لا تقلق، طالما أنتَ بخير فكل شئ يمكن تعويضه!

همس بهمٍ جليّ :

- لقد تسببت في خسارة الشركة لصفقة مهمة...

ارتاحت ملامحها وهدأ قلبها وهي تردد :

- الحمد لله، وما المشكلة في ذلك؟ أي خسارة يمكن تعويضها، هون على نفسكَ!

أسكته همه عن الرد، فخسارة الأموال لا تهمه بقدر ما يهمه أنه المسئول عنها، وأنه المتسبب في حدوث ذلك، يغمه فشله في مسئولية ألقت عليه.. ولكن صوتها العذب كالأثير في أذنيه سرى:

- لا تفعل بنفسكَ ذلك، الخطأ وارد، أنتَ لم تقصده، لا تقلق، **" لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً "**

قامت وقبضت على يديه بلطفٍ قائلة :

- انهض معي!

- اتركيني الآن رحيق، أريد أن أبقى وحيداً..

صوته المنكسر فتت قلبها فهمست :

- سأتركك ولكن قم الآن! أرجوك!

أطاعها، وترك طريقه بين يديها حتى قالت :

- توضأ وصلِّ، وادعو الله أن يفرج عنكَ، سأتركك الآن، ولكن لن أنساكَ طويلاً، عندما أعود يجب أن تكون أنهيت عزلتكَ!.. اتفقنا!

أومأ بعينيه فتركته، وذهبت لتنفصل في غرفة أخرى..

ساعات قليلة ويطيب ، هي واثقة ..

****

تقلب أحمد في فراشه كأنه نائم على جمر وتمتم من بين أسنانه :

- سيقتلني تفكيري بكِ ذات ليلة!

الأمر أصبح فوق احتماله، الساعة تدق الثانية عشر في منتصف الليل وهو راقد في فراشه، تحوم حوله نظرات أهل بيته فيجيب بابتسامة مصطنعة :

- كل ما في الأمر أنني لم أعد أتحمل برد الشتاء..

كطفل مذنب يهرب من عقاب معلمته، ويهرب من تلميحات عائلته، ماذا يخبرهم؟ أيقول أنه يتتبع امرأة كظلها، يفكر فيها ليل نهار، أيخبرهم أنه حرم النوم بسببها..

منذ سمع منطقها في الحوار ذات يومٍ غريب، وكأنها امتلكت قلبه، وأيده عقله، لم يكتفِ من كلماتها، ووقف مبهوراً ينهل من حديثها، ثم مرة ومرة ومرة، وتعددت أحاديثها التي تروقه وتناسب عقله، هادمة كل صورها المهترأة فيه، من أين أتت امرأة مثلها بمنطق لسانها وحكمة عقلها؟ كيف تحتوي من حولها وكأنها أمهم؟ وكيف تتحول من النقيض لنقيضه في وقتٍ محدود؟ كيف تعطي دون أخذ؟ وتحب دون مقابل؟ كيف هي مجنونة عاقلة؟ وكيف تكون حكيمة طائشة؟ كيف تمتلك خليطاً من الأمزجة، وتسير بأنفة وكبرياء يناقض عشوائيتها المقصودة؟

ولكنه منذ رأى كامل حسنها وهو واثق من تطابق صورتها في عقله مع صورة أخرى، بعيدة، ولها تفاصيل كثيرة، ولكنه لا يذكرها، لو تحدث إليها لمرة واحدة فقط لاتضحت ذاكرته، ويبدو أنه ما حدث، متى وكيف رآها؟ سيبقى سؤال دون إجابة!!

ثمة أهدافاً جلية أمامنا، واضحة وسهلة النيل، ولكن إغراؤها لا يبدأ إلا حينما تبتعد، وكأن البعد يزيدها ألقاً وتوهجاً، تثير في نفوسنا شيئاً لا ندريه، ولكنه يلح علينا بالظفر بتلك الأهداف، وكأنما لم تكن سهلة ذات يوم!

لم يستطع أبداً كبح جماح فضوله، وذهب في اليوم التالي مباشرة لعملها، طلب رؤيتها فجاءت إليه، وقد ارتسمت الدهشة على ملامحها، لم يراوغ وهو يسأل مباشرة :

- لقد التقينا من قبل، أليس كذلك؟ أقصد قبل أن أعود من سفري، عندما رأيتُكِ هنا لم تكنِ المرة الأولى، صحيح؟

وكأن دقات قلبها وصلت إليه، وكأن اهتزاز صوتها يعبر عن اهتزاز ذاكرتها، أجابت رؤية :

- نعم، قبل أن ترحل! قبل اثني عشر عاماً!

- متى؟ كيف حدث ذلك؟ أنا لم أكن أذكر ..

ثم قطع حديثه، وقد خاف أن يسترسل مذكراً بشجارهما، تنفست رؤية بعمق ثم قالت :

- الفتاة التي اتهمت بالسرقة، واحتجزت في قسم الشرطة لأسبوع، حين أبلغك أحد زملائكَ بأمرها ظناً منهم أنها أختك بسبب تشابه الأسماء الذي يجمعنا، الفتاة التي ساعدتها حتى تعود لبلدها أنتَ وصديقك عمار بعدما تخلى أبوها عنها، رغم أنكَ تأكدت من كونها ليست أختك، ساعدتها ولم تتخليا عنها دون مقابل! هل تذكرتها؟

أغمض أحمد عينيه بقوة وكأنه يتشبث بخيط أمل ليستعيد الذكرى، ثم ضغط بأصابع يساره على مقدمة رأسه وأصواتٌ تتردد في عقله ..

- اسمها رحيق عمر، أليست أختك؟

- انتظر يا أحمد، ليست رحيق، اسمها رقية عمر ومن مصر، يبدو أنه تشابه في اسميهما، لم يتحقق جون من الأمر، تعرفه جيداً!

- ولكن يقولون أنها لم تسرق، هل سنتركها؟

- لقد جاءت في زيارة لأبيها الذي يقطن هذا الحي، ولكنه غير متواجد الآن، ولم تستطع الوصول إليه، اتهمتها امرأة بسرقة أموالها، في حين شهد أحدهم أنها لم تفعل..

- ستترحل إلى مصر!! عمار ما رأيك أن ندفع الأموال لتلك السيدة، ونطلب منها التنازل!

- لو رقية هذه بريئة، لنثبت براءتها، بدلاً من أن يبقى الأمر مشيناً لها..

- ولكن التنازل أسهل، ثم إثبات البراءة فيم بعد!

وهل وضعهما الله في طريقها لتخليصها من تلك الورطة ؟

فتح أحمد عينيه ثم قال :

- كيف تعرفين بذلك الأمر؟

- كنتُ أنا هذه الفتاة!

اتسعت عيناه بصدمة، ثم أغمضهما ثانية متذكراً رؤيتها من قبل ..

- عمار! الفتاة ستخرج الآن، ولكن أباها لم يعود، ماذا سنفعل؟

- المحامي يقول أنها طلبت العودة لمصر.. لنعود لعملنا نحن، لقد انتهى دورنا الآن..

أوقفهما صوت المحامي، فاتجهت نظراتهما إليه، حتى اقترب وقال :

- الآنسة تريد شكركما!

غض كلاهما الطرف عنها، وتمتما بأدبٍ :

- لا داعي لذلك!..

فاستفزتهما جملة قالتها ورفع أحمد نظره إليها غاضباً، بشعر غجري معقوص فوق رأسها بكبرياء، تنسدل منه خصلتين على وجهها، رافعة أنفها للسماء، يكشف لباسها عن ذراعيها، وهي تكمل :

- كم دفع لكم حتى تفعلان معي ذلك؟ تورطانني في السرقة، ثم تنقذانني منها؟

رد عمار بأدبٍ ولم يرفع ناظريه إليها :

- يبدو أن بينكِ وأبيكِ مشاكل لا دخل لنا بها! نستأذنكِ الآن! مع السلامة..

قالها وهو يشد ذراع أحمد الذي سار معه مزمجراً..

فتح أحمد عينيه، وابتسامة تملأ وجهه، وفرحة ظهرت في عينيه لانتهاء حيرته ثم قال :

- ومازلتِ كما أنتِ!

ثم انصرف، كيف لم يتذكرها وقد دار بينهما حديث كهذا؟ وكيف يتذكرها ولم يراها سوى لمرة واحدة؟ ضحك أثناء سيره، لم يتذكرها إلا بعد رؤيتها دون حجابها، في ذلك الشجار، لم يعاقبها على ما فعلت بعد، إذاً سيعاقبها على المرتين، حتى حينها لم تصحح لهم خطأ اسمها، لو فعلت لتذكرها في فورها، فهو لم يعرف برؤية من قبل!

اسمها رؤية...

اسمه أحمد ...

٤١

هي الوطن

وأصبح ثلاثتهم – أحمد، مالك، وياسين – يعيشون في عوالم مختلفة ومنعزلة، أولهم يضنيه تفكيره في امرأة بغير سبب يراه، وثانيهم ترهقه محاولاته في تجاوز عجزه والتخلي عن عكازيه، وثالثهم يحاول باستماتة أن يعوض الخسارة التي سببها..

أحمد.. كيف بدأ تفكيره بها؟ منذ المرة الأولى التي تطفلت عليه؟ أو قبلها أثناء غيبوبته، أو قبل اثني عشر سنة حينما هاجمته .. لا .. منذ سمعها تحدث بنان .. قد يكون، أم عندما تحدثت لإيلين، بعد شجاره معها، أم بعد تقريعها له، بعد انطفاء شعلة تمردها، أم قبلها؟ بعد الرزانة التي هبطت عليها من السماء بين ليلة وضحاها؟ بعد رؤيته لها سافرة مثلاً كما كانت قبل؟.. مصيبته

أن لا سبب محدد، هكذا بين ليلة وضحاها أيضاً وجدها في عقله تحيره، وتأخذ جانباً من تفكيره. إلامَ سينتهي هذا التفكير؟ وإلى أي شئ سيؤدي؟ لا يعرف!! وماذا يعني التفكير في امرأة لرجلٍ عازفٍ مثله عن النساء زاهد فيهن؟..

وبينما يسير في طرقات الحي شارداً، لا يعرف إلى أي اتجاهٍ يذهب بعدما فقد متكأه، وإذ به يقف أمام ذلك المقهى الذي يجمعه عادة بياسين ومحمد؛ فهما على أي حال الأقرب إليه، لم يخترْهما، ولكنهما اختاراه.. إنهما ينتميان لذلك المقهى أكثر من أي شئ، فهنا يشعران بريحٍ من مصر، مكان يجمع عرب مصريين، يسمعان في مذياعه صوت وطنهم وتراثه، يبتسمان لأناس حولهما ينتمون إليهما، يفهمونهما ويحيطان بهما رعاية وحفظاً..

دخله وانضم لطاولة وحيدة شاردة مثله في منأى عن الجميع، وجلس ساهماً، دقائق قبل أن يسمع طرقاتٍ بفعل أصابع الواقف أمامه، رفع نظره إليه فإذ به محمد، ابتسم وأشار برأسه سامحاً له بالجلوس، فجلس محمد وقال :

- كنت أجلس هنا وحيداً، أنتظركما.. أين ياسين؟

- أعتقد أنه لن يتأخر في الشركة عن ذلك، هل قال أنه قادم؟..

- نعم!!

خيم الصمت إذ لم يجد أحدهما ما يكمل به حديثه، بيد أن محمد سأل :

- حالك لا يعجبني هذه الأيام، بعيداً عن أنك غريب الأطوار.. ثم ضحك؛ فنظر له أحمد وقال :

- ولا يعجبني!.. يبدو أنها أزمة منتصف العمر.

- وما الذي فعل بكَ ذلك؟

تنهد أحمد ثم قال :

- ماذا لو شغل عقلك التفكير في امرأة؟

صدم محمد وقال :

- يا للهول! ستقتلني ميرا لا محالة..

ضم أحمد حاجبيه بعدم فهم، فأوضح محمد :

- هل تريدني أن أفكر في امرأة غير زوجتي؟

- وهل يكون التفكير في امرأة على هذا النحو فقط؟ أن تكون زوجتك مثلاً.. قالها أحمد ليوصل وجهة نظره فسكت محمد، ثم قال :

- في أغلب الأحيان يكون الأمر كذلك..

وقطع حديثه ناظراً لعيني أحمد متعمقاً فيمَ يخفيانه، ولكن أحمد عاجله بقوله :

- كيف تزوجتَ ميرا؟

ضحك محمد للذكرى ثم قال :

- أنا من شواذ القاعدة، فلا تربط نفسكَ بي!

وكأنما يدفع عنه تهمة قال أحمد :

- ولماذا أربط نفسي بكَ؟ فقط أسألك هل أكثرت التفكير فيها قبل زواجك؟

- أنا فعلت!

قالها ياسين بصوته المرح وهو يقترب ليجلس مكملاً الثلاثي، فابتسم محمد مرحباً به، وقال أحمد لائماً :- أخيراً انتهيت! لن تتوقف حتى تعوض، لا فائدة منكَ!

- ماذا تفعل بشخص يرهبه الفشل؟ .. قالها ياسين ضاحكاً، ثم أكمل ليغير دفة الحوار وقال :- أخبراني إذاً، مَن يفكر بِمَن؟

نظر محمد لأحمد الذي تنهد، ثم شرد بناظريه بعيداً عنهما، فنظر أحدهما للآخر في استفهامٍ قطعه أحمد وقال :- كنت أسأله عن كيفية التخلص من تفكيركَ بشخصٍ ما..

أعيدتْ النظرات المستفهمة مرة أخرى، قبل أن يسأل ياسين :- تفكر في عمار مثلا؟

- لا، أفكر في شخص حي يرزق يتواجد أمامي في كل لحظة، أقابله في كل خطوة..

- اذهب إليه في الحال، وسينتهي تفكيرك به، اطمئن عليه.. قالها ياسين بسرعة، فضحك محمد وقال :- ليس بالضروري أن يفكر الناس جميعهم بمثل تفكيرك!

- أتعتقد ذلك؟ .. سأل ياسين، فأجاب محمد: بالتأكيد، ثم وجه حديثه لأحمد وقال :

- ولكنني أتفق مع ياسين على كل حال، تحدث إلى الشخص الذي يشغلك، قد يكون رجلاً تتمنى صداقته مثلاً!.. قالها وهو يعرف أنها امرأة..

- مستحيل، إنها امرأة .. قالها أحمد منزعجاً.. فسمع صوتاً بترددين مختلفين ينطق بنفس الكلمة :- تزوجها إذاً..

نظر محمد إلى ياسين، كما فعل الثاني وضحكا، بينما صعق أحمد وتراجع بمقعده للخلف وكاد أن يقع على ظهره لولا يديهما التي امتدت إليه تثبته، وكتما ضحكهما، منتبهين للألم الذي ارتسم على وجه ثالثهم، فسأل ياسين بحكمة :

- ما مشكلتك يا أحمد؟ لم تتعود الحديث إلينا صحيح، ولكن لتحاول مرة، إن لم نستطع المساعدة سنسكت..

زم شفتيه، ونطقت خلاياه بأنواع الألم، وكأن شريط حياته يُستعرض أمامه، طفولته وتعلقه بجدته لأمه التي ماتت قبل ولادة رحيق، صباه وشبابه وعلاقته بأبيه وأمه، ثم أخويه، تحمله

لمسئولية ليس أهلاً لها، تجنب مالك له بغير ذنب، تعلق رحيق برقبته كأنه أبوها، دراسته وعمله، وفوق كلهم عمار؛ موته وتشرده من بعده، غربته وسجنه، عودته لأهله وشروده عنهم، ورؤية ...

وقف معتذراً ثم قال :- أستأذنكما! آسف للإزعاج..

قبض ياسين على يده وقال :- اجلس، لا تؤخذ الدنيا هكذا..

أغمض عينيه على شوكٍ فيهما، وبقي واقفاً يشد ياسين على يده، ولكنه في النهاية لم يستطع إلا الجلوس، احتوته عينا محمد، وحثه ياسين على الحديث فلم يقل إلا النذر اليسير مما يحمل، أخبرهم عن تفكيره في امرأة، معاناته في الأمر، وعم الصمت، يريان أن الأمر بسيط، هو لا يعرف مشاعره فقط، سأل محمد مستهجناً :

- وكيف تشعر عندما تفكر فيها؟

- أنزعج، وأشعر بالاختناق!.. قالها بغضب فحملقا فيه، ثم سأل ياسين متشككاً :- أمتأكد من ذلك؟ .. ونظر لعينيه يبحث عن إجابة فيها فزاغتا عنه، وقلق بؤبؤيهما، فانفلتت منه ضحكة ثم سأل :- هل تفكر في الزواج يا أحمد؟

- لا..

- لو تزوجت يوماً، هل يمكنك التفكير في هذه المرأة كزوجة لك؟

سكت وضم شفتيه، وانعقد حاجباه، وضاقت عيناه بتردد واضح، ثم هتف :- لا أعتقد ذلك!

- إذاً، اشغل نفسكَ بشئ آخر، ابتعد عن أماكن تواجدها، اهلك نفسكَ في العمل يا أحمد.. قالها ياسين بلؤم، وتتبعت عيناه تعبيرات وجهه، وابتسم محمد مراقباً، ثم قال :

- إن طلبت نصيحتي يا أحمد، فابحث عن سكنٍ ترسو روحك على شاطئه، اتخذ رفيقاً، وإن عزفتَ عن الزواج فلا بأس، ولكن من يعلم، فقد تكون سكنك زوجة!

انتهى اللقاء الذي زاده هماً فوق همه، رجلٌ في الأربعين من عمره، ولا يعرف ماهية مشاعره، يا لبؤسه!

ولكنه ملزمٌ بالذهاب مع مالك إلى تدريباته العلاجية، يتركه في الغرفة التي يعالج فيها، ويجوب في المشفى بلا هدى، حتى يجدها، يسترق نظراتٍ إليها، ثم تلومه نفسه فيعود عازماً ألا يفعل، ولكن المرة القادمة لا تأتيه إلا فاعلاً!

يراقب أخيه الذي تعلو همته يوماً بعد يوم محارباً يأسه وبؤسه، يهلك نفسه في علاج قدميه حتى تخور قواه، ويعود ليلقي بجسده على فراشه ويدخل في نوم عميق تحتار بنان في سببه... يحسب الأيام التي تمر، يجب أن يسير على قدميه قبل مرور هذا الشهر، وإن لم يحدث سيموت قهراً على زوجةٍ جنبها كل معاناته وألمه بلا حصاد ناتج..

تراقبه بنان في صمتٍ مطبق، تشعر به وتعجز عن فعل شئ له، في الأسبوع الأول من الشهر انعدم الحديث بينهما، ولكنه لم يشأ أن يكرر خطأه معها، ففتح الأحاديث والحوارات، ورفق بقلبها وقلبه، بينما في المشفى يزأر ويجأر، يغرق في عرقه، وتتيبس يداه من فرط إجهادهما، وتتقطع أنفاسه اللاهثة، ويرتعد قلبه، ويؤلمه جسده..

وتعجز بنان عن سؤاله، لماذا لم يمشِ إلى الآن؟ لماذا طال عجزه؟ هو نفسه لا يدري السبب، ولكنه يستميت في المحاولة متشبثاً بخيط الأمل ..

في أسبوعٍ ثالث، يسيطر على أحمد شعور بالعجز والإرهاق، مجهودٌ مضني يبذله في قطع أفكاره التي لا تنتهي، حتى اتخذ قراره أخيراً، ليفعل ما يريد غير مجبرٍ ولو لمرة واحدة في حياته.. في الحقيقة لم يكن ينوي تتبعها أبداً، ولكنه قدره، خرجت من بيتها واتجهت للمتجر المقابل فدخل بعدها، أخذ يدور في المكان حتى لا تراه منتظراً خروجها، وفي هذه اللحظة كان مطمئن البال مرتاحاً. تبحث عن أشياءٍ تريدها وتتحدث في الهاتف إلى عمر ضاحكة تلقي تعليقات ساخرة له ولزوجته، وأطالت في الشراء وأكثرت فيه، ولم تتوقف عن الحديث، حتى ذهبت لقسم ملابس الأطفال أثناء حديثها إلى أبيها وقالت :

- سأشتري شيئاً لابنكما، أتعرف لم أكن لأحب زوجتك هذه قبل أن أعرف بحملها، ستصبح أماً لأخي إذاً وعليَّ تحملها.. ثم دخلت في نوبة ضحك وهي تواصل :

- لا تغضب هكذا، أخبرها أنني سأحبها، وسأهتم بابنها أيضاً.. سأغلق الآن، حتى أدفع الفاتورة..

انتهت فظهر أحمد أمامها على حين غرة منها، كأنما رماه قدرها عليها، أربكها حضوره المفاجئ، وشعرت بالخجل يغزوها، فهو الآن فهم سبب تطفلها عليه ومحاولتها لمساعدته، ومن قبل تقربها لعائلته، عرف أنها ترد إليه جميلاً فعله لها.. لم يعرف أنها ترفض وجوده المقدر عليها، نعم إنه قدرها أن تلاقيه وترفض هي ذلك..

رفع يساره لرأسه يحكها، ثم قال بثبات :

- أهلاً دكتورة رؤية! جئتُ لشراء ألعاب لسيف ومريم!

- لم أسألك!.. ردت مبتسمة فأصابته بحرجٍ غطاه بقوله :- أردتُ مساعدتكِ في الأمر، أنا أعلم خيركِ يفيض على من حولكِ!.. وكأنه رد الكرَّة إليها وأحرجها كما فعلت.. ولتحافظ على ثباتها قالت :- على الرحب!

تنفست بعمق، واختارت له ما أراد، ثم زادت على حاجته لعبتين قدمتهما له قائلة :- وهذه مني لهما..

وكأنها فرصة جاءت إليه ساعية فقال بسرعة :- سيأتيان لزيارتكِ، هل تسمحين بذلك؟

- ماذا؟

- لكي تعطينهما هديتكِ بنفسكِ، أم أنكِ رافضة للزيارة؟

أشارت برأسها أن لا وقالت بسرعة :- بالطبع لا أرفض، ننتظركم في أي وقت، تحدث إلى عمر وعرفه بالزيارة، أستأذنك!

ثم تركته بسرعة هاربة، وأصابته بشعور لم يجربه من قبل، التمعت عيناه وطاب قلبه بعد عناء طال..

وفي زيارته لأبيها اختفت عن الظهور بعدما اختطفت الطفلين منه، جلس مع أبيها يتحدث في أمور عامة، قبل أن تواتيه الجرأة التي لن تتكرر وهو يطلب منه أن يزوجه إياها، بشائر الفرحة التي ظهرت على وجهه زادته خوفاً؛ فهو يعلم اختلافهما الدائم، لم يستطع أن يطيل الجلوس بعد ذلك ورحل بالطفلين، يصيبه وجل مما تفوه به ونطق، وها هو قرر الزواج إذ فجأة بسببها..

حاول في هذا الأسبوع ألا يراها مطلقاً، حاول أن يلغي تفكيره الذي يخنقه، وأن يجد أسباباً منطقية لطلبه، لماذا يريد الزواج بها؟ ولماذا هي فقط؟ ما الذي يميزها؟ تمردها؟ جنونها؟ مأساتها التي تشبهه؟ أم شعوره بأنها السكن ذاك؟

لم يخبر أحداً بفعلته، وذهب لزيارة أخته كما اعتاد، جلس مع ياسين يتحدثان في أمور العمل بينما جلست هي تتوسط ابنيها تساعدهما في دراستهما، منشغلٌ عقلها بما يفعلان حتى سمعت ذكر اسمها فانتبهت لأخيها وزوجها..

سأل أحمد فجأة :- ياسين.. لماذا تزوجت رحيق؟ لماذا اخترتها هي بالذات؟

ابتسم ياسين ونظر إلى رحيق مجيباً :

- لأنها هي!..لقد جئت هنا عازماً على تحقيق طموحي والاجتهاد في عملي، ناسياً أمر الزواج أو حتى الارتباط بأي فتاة، حتى رأيتها!.. انزعجت لأنها عرقلت طموحي وجعلتني أنشغل بها، لم يكن لها ذنب في ذلك، ولكنني أخرجت غيظي فيها.. وفي النهاية لم أستطع الهروب من قدري!

سأل أحمد :- من المؤكد أن بها شئ يميزها جعلك تغير تخطيطكَ؟

أجاب ياسين بإصرار:

- بالطبع! وهذه الميزة كانت هي! لأنها رحيق وفقط! ليس لأسبابٍ أخرى.. كالتائه في الدنيا يبحث عن مستقر وملتجأ حتى وجدها، فكانت هي الحياة!

لم تشأ أن تقاطع حديثهما، وتصنعت الانهماك مع طفليها، وقد أصاب وجهها سخونة، وفرح قلبها، ولم يمنعها ذلك من التفكير في حال أخيها، هو مرهق هذه الأيام، يشغله شئ لا تدريه..

لم يكن يعرف أحمد أن رفضها سيؤلمه بهذه الطريقة رغم أنه توقعه، ولم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال وإعادة المحاولة، ذهب إليها فقد أصبح طريقها سهلاً، سألها عن السبب فلم تفصح عنه، وتحدثت بتهذيب غير معتاد، فقتلت آخر أمل لديه، ثم قضت على ما تبقى له وهي ترحل من المدينة كلها..

قبل رحيلها ودعت والدها وعانقته وهي تقول :

- سأشتاق إليك عمر! أنا آسفة على سوء معاملتي لكَ! أعرف أنني كنت دائماً ابنة عاقة، سامحني!

شدد عناقه لها وقال :

- تعلمين أنني لم أغضب منكِ قط، ولكن فكري مرة أخرى قبل رحيلك، أو حتى ارحلي لمدينة أكثر أمناً!

ابتسمت وردت :

- لم أسعَ للسفر لشيكاغو، صدقني لم أعد أسعَ لمناطق خطرة بحثاً عن الموت، هذه المرة لم يكن لي دخل والله.. لن يصيبني سوى قدري لا تقلق!..

قدرها الذي قصدته هي من ترسمه وليس سواها، لماذا تنتظر القدر وما يفعله بها، أليس حرياً أن تقدم عليه بنفسها ولترى إذاً من سيبقى منهما..

ثم ابتعدت عنه، وقالت :

- سأشتاق إليكَ، وعندما تسنح الفرصة سآتي لزيارتك! اعتني بزوجتك جيداً..

وتعانقا مجدداً، لقد مر وقت طويل، طويل جداً لم يتعانقا فيه هكذا!.. ودعت زوجته، وقابلتها بوجهٍ باسم لم تعتده معها، وكأنها توثق في عقليهما أن رؤية لم تعد تلك الكريهة، أو لتبقى الذكرى الأخيرة بينهما جيدة!!

واتجهت حيث حياة جديدة لا تدري إلى أي اتجاهٍ ستئول سواء كان منها أو مجبرة عليه لقدرها، وتركت خطاباً لأحمد تخبره فيه بأسبابٍ لم تبدُ جيدة، ولم يقتنع بها..

وبقي أسبوع على انتهاء الشهر الذي سينتظره الجميع، يتابع مالك العمل في كل اتجاه، تحسين قدميه حتى تستطيع السير ببساطة، الانتهاء من طباعة كتاب بنان، وتحضيره لكم المفاجآت التي أعدها لها، لم يجد بداً من فعل ذلك، لقد شيبها وأطفأ حيويتها معه، إما أن يستعيد رونقها بأفضل مما كان وإلا يكون قد خسرها.. يعزز التواصل معها بأحسن من ذي قبل، ولكنه يخفي عنها معاناته، وتحسن حالته، يريد فرحتها كاملة غير منقوصة برؤيتها له يتألم، أو يجاهد نفسه ليقدر..

يتابع أحمد علاجه، فهو الوحيد العالم بأمره، لم يكتفِ أحدهما بقدرته على الوقوف دون مساعديه، رغم فرحتهما التي نشرت البهجة بالمحيطين بهما في المشفى، وتابعا العلاج حتى فعلها أخيراً، وسار على قدميه، حينها لم يشغلا عقليهما بسبب تأخره في الحركة الطبيعية، ولم يتبقَّ سوى يومين على حفل بنان، كتما فرحتهما ولم يظهراها لأحد، يريد أن تكون بنان الأولى، أن تراه وهو يتقدم نحوها متخلياً عن عكازيه، ولم يستطع أحمد رغم ما يحمل إلا التبسم في وجهه كلما رآه، سعيد لأجله ولأجل فرحته التي عادت..

وذهب أحمد لرؤية قبل اليوم الأخير في الشهر، بعدما عرف عنوانها من أبيها، سافر إليها، وعندما وصل هاله المكان الذي تعمل به، ألا يكفي شيكاغو سوءاً لتختار أكثر أحيائها خطراً، متمردة كما عرفها ولم تتغير كما ظن، بحث عنها في المشفى وسأل عنها حتى دلوه على مكتبها، ذهب نحوه، طرق ودخل بعد سماعه لصوتها الذي حرك ركوده الكامن في داخله، رفعت نظرها للطارق، رأته فأفصح وجهها عن ابتسامة واسعة، ثم وقفت مرحبة بقدومه، وسمحت له بالجلوس فجلس، وقد أصابته ابتسامتها في مقتل فغض الطرف عنها لئلا يلقى حتفه، لم يتحدث مباشرة وأحكم الصمت عليهما، ووقف الكلام في حلقه، ولم تستحث قوله إذ تعرف سبب مجيئه، ولكنه خلف توقعاتها وهو يقول :

- هل ستأتي لحفل بنان غداً؟

- لا أستطيع التأخر عنها!

دارت عيناه في الغرفة بغير هدف وهو يقول :- ألم تجدي سوى هذا الحي؟

- لم يكن باختياري، ثم أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..

ها هي تتحدث كالمؤمنين بالقدر، وبين عشية وضحاها ينقلب حالها وتقول أنها لا تؤمن به، وتقف متحدية، إلى متى ستبقى هكذا؟ بين الثبوت والتردد يتأرجح حالها؟ تكاد تجن من نفسها وأفكارها..

- ولكنكِ تبحثين عن الموت أينما وجد تذهبين إليه، فتأتي إلى حي يكفي تجار المخدرات الذين يعيشون فيه والمجرمين، و..

قاطعته بابتسامة قضت على صوته الموجع :

- كنتُ كذلك، ولكنني لم أعد أفعل!

إنهما الغريبان على الإطلاق، هو لا يعرف كيف تحول حديثه إليها على هذا النحو، لماذا يتحدث إليها بعد تجاهلٍ دام طويلاً تحدثه وتثير فيه غضباً لم يحركه؟ وهي لا تعرف ما سر ابتسامتها التي تحدثه بها، هل إثباتاً آخر بأنها تغير حالها، أم أنها غريبة مثله وقد تحولت بين ليلة وضحاها بالفعل؟ لماذا لا تثور عليه وتطرده من هنا وبهذه الطريقة تضمن عدم عودته؟ لماذا ادَّعتْ بأن أباها هو زوجها لسنوات؟ وها هي بمجرد أن انكشف سرها تقدم للزواج بها!

- لماذا رفضتِ؟ من حقي أن أعرف أسبابكِ الحقيقية على الأقل!

انتبهت على صوته فأجابت :- لقد تركتُ لكَ..

قاطعها :- لم تكن كافية، ولم تكن صادقة!

يبدو أنه لا مفر من الحوار، بدأ صوته يغضب، لا تريد مشاحنة هنا يشاهدها زملاؤها، وتصبح نقطة سوداء في ملفها، خاصة وإن سمحت له بالغضب فلن تسكت إزاء ذلك، بل سترفع صوتها وتقرعه وتعود رؤية القديمة التي تخفيها في أعماقها تحافظ على سكونها..

قالت بصوتٍ ساكن كسكون حالها، وهي تنظر لنقطة غير مرئية أمامها :

- لأنني امرأة على هامش الحياة، لم أعد أصلح لبداية جديدة، صدقني أنتَ لم يسبق لكَ الزواج فلماذا تربط نفسكَ بامرأة مثلي؟ أعرف أن في مجتمعكم لا تهمكم هذه المظاهر، ولكنني لم أقصد معني ظاهرياً، بل قصدتُ أنني امرأة مثقلة بالهموم حتى وإن تظاهرت بالتخلي عنها، فلم تفلح أسابيع في دفن عشر سنوات من عمري، لا أستطيع أن أقدم لكَ شيئاً تريده من امرأة، ليست لدي أي قدرة على تكوين أسرة، واستقرار، لا أستطيع البناء بأي حالٍ من الأحوال!

- ولكنني لا أريد امرأة كأي امرأة، أنا أريد رؤية! ثم أن تلك العشر سنواتٍ لم يضافوا إلى عمركِ بقدر ما انتقصوا منه، أنتِ مازلتِ صغيرة، مازلتِ تمتلكين عمركِ منذ عشرسنوات!

ارتجف نفسها الخارج منها، مع ارتجاف قلبها، لشد ما تكره أن يعبر أحدٌ عن حالتها، أو يتشدق بفهم ما تخفيه ويصدق، كما فعل هو الآن. قالت :

- على كل حال أنا أرفض الفكرة، لا أرفضكَ!.. أنا آسفة..

قد يجمعهما القدر كما اعتادا مرة أخرى، قد تجمعهما غرابتهما المشتركة، عشر سنواتٍ لاقى كلٌ منهما ما لاقى، لم ينضج عقلها بمرور السنوات، بل أصبح كما هو عند نفس النقطة كما قال، فتاة في الخامس والعشرين من عمرها، فقدت زوجها ثم ابنها، بينما زادته العشر سنوات عمراً يضاف إلى عمره، ليس رجلٌ أربعيني ، ولكن كأنما في الخمسين من عمره، تثقلهما أحزانٌ لا طاقة لهما بها، لم يفرغها أحدهما، وكأنهما انتظرا لقاءهما حتى يفيض كلاهما بما يحمل، فيخف قلبه، وتطير روحه محلقة، وتنتهي آلامهما باجتماعٍ لم يخططا له..

وقف واتجه للباب ثم قال :- أعتذر على إزعاجكِ!.. إلى اللقاء!

وقفت تودعه بعينيها، وقد ظنت أنه خف حملها، ثم تهدج نفس خارج من أعماقها، وكأنها تزفر كل همها...

وجاء اليوم، أيقظ مالك صبحاً بنان، فنهضت تصيح :

- أنتَ مزعج هذه الأيام ماذا تريد؟

حافظ على التمسك بعكازيه لئلا ينسى، ثم اتجه إلى خزانة ملابسها وقال :

- تعالِ انظري!

نفضت فراشها بعنفٍ معترضة على أفعاله، واتجهت خلفه ثم قالت :

- ها أنا جئت! ماذا تريد؟

أخرج فستاناً معلقاً، ثم قال ناظراً لعينيها :

- ما رأيكِ؟

اتسعت عيناها انبهاراً ثم ضاقتا بسرعة وهي تقول :- جيد! لمن؟

بعثر شعرها قائلاً :

- لسيادتكِ أيتها الغبية!

أزالت يده برفق وقالت برجاء :- ستأتي معي؟

استعاد عصاه وابتعد وجلس، فتتبعته وجلست جواره ممسكة بيده، ناظرة لعينيه راجية فقال:

- صدقيني، كنتُ أتمنى! ولكن تعرفين أنني لدي موعدٌ لن أستطيع تأخيره؟

انتكس رأسها وقالت :

- وموعدك هذا أهم مني؟

- لا والله.. لم يشأ أن يخبرها ستفسد مخططاته كلها، وأيضاً لم يتحمل رؤية انكسارها فهمس :

- سأخبركِ سراً!

- لم تعد تخبرني بأسراركِ منذ فترة، واستغنيتَ عني!.. قالتها بلوم، فقبل رأسها معتذراً ثم ضمها لصدره قائلاً:

- أعدكِ من الليلة سيختفي كل غموضي، وأعدكِ أيضاً أنني سآتي للحفل إن شاء الله، ولكن سأتأخر عنكِ قليلاً..

- سأنتظركَ..

- لن أطيل..

ثم نظر لعينيها قائلاً:

- عودي للنومِ الآن، يومكِ طويل، والوقت مبكر الآن!

- لتوكَ انتبهت.. قالتها بغيظ، ثم اتجهت لمكتبها وأخرجت كتابها قائلة :

- هل قرأته؟

ابتسم وقال:- وفعلتُ أكثر من القراءة..

ثم وقف حتى لا تطلب تفسيراً لقوله، وخرج تاركاً إياها في حيرة من أفعاله..

عند الظهر، انتظرته رحيق مع ميرا وديانا في قاعة مغلقة استأجرنها، لإعداد ما طلب، كنَّ قد انتهين حين هتفت ميرا :

- عليَّ شكر مالك أن جمعنا في عمل واحد، مر زمن دون أن نفعل..

ابتسمت رحيق وهي تجلس مرهقة وقالت :- سأقتله على ما فعله ببنان..

ضحكت ديانا وهي تجاورها الجلوس وقالت :

- لن يتحمله غيرها..

أنهت ميرا آخر ما تبقى في التنظيم وجلست فقالت ديانا :

- هاتفي أخيكِ رحيق، لا أريد أن أتأخر على بنان اليوم!

سمعْنَ صياح مالك وهو يتحرك نحوهن بعكازيه الذيْن ضاق بهما ذرعا- ولكن يجب أن تكون بنان هي الأولى – تحرك نحوهن ليكمل صياحه :

- آسف جداً، ولكنها السبب في تأخيري، سنبدأ مباشرة، عليكن تحمل مخرج مبتدئ مثلي لم يكمل دراسته، وحين أتخرج سأكون فريقاً ضخماً وأضمكن إليه..

ثم سكتَ انبهاراً بما فعلنه وهو ينظر للجدران والصور المعلقة عليها، صور بنان وصوره معها، وزعت بشكل رائع، لاحت ابتسامات على وجوههن، وقامت ميرا تعد الإضاءة، بينما يشغل هو الفيلم الذي أعده، قالت ميرا وهي تنظر لهم :

- ما رأيكم؟

أومأ مالك موافقاً وشاكراً، ثم جلسن وجلس أمامهن يشاهدون العرض، وبعد ثانيتين هب فجأة وقال

لا ليس هذا ما ستريَنَّه، إنه لها فقط!!

واتجه يخرجه من موضعه بسرعة بين ابتسامتهن وضحك رحيق التي لحقته بقولها :

- أريد أن أراه..

أبعدها عنه قائلاً بابتسامة :

- بالطبع لا! وإن أصررتِ سأفسد عليكِ كل شئ..

كتمت غيظها وهي تعاود الجلوس جوار ديانا التي قالت :

- أصبحتِ فضولية أكثر من اللازم ..

وعرض مالك الفيلم الآخر الذي ساعداه في تصويره، جلس وقد حل صمتٌ غريب أطبق عليهن، وحبس الانبهار أنفسهن لآخر الفيلم، إنها صور فقط التقطنها لبنان في حالات مختلفة كما طلب، وبعض الأفلام التي صورنها، وأجاد هو استخدامها لصناعة فيلم كالذي يشاهدْنه الآن، حين انتهى هتف :

- بِرَبِّكُنَّ قلنَ الحق..

قاطعه صياح ميرا :

- يا إلهي لستَ بحاجة لإكمال دراستكَ يا مالك، أنتَ أحسنتَ، إنني أرى فيلماً لمخرج متمكن وليس مجرد هاوٍ لم يكمل دراسته..

في حين ابتسمت رحيق وهي ترد عليها :

- لولا أن بنان كانت تدرس جواره، وتعرفه بما تدرس لَما فعل، أليس كذلك مالك؟

ووقفت ديانا وقالت :

- هي تستحق أكثر من ذلك، أجدتَ يا مالك، ابذل ما في وسعكَ الليلة، وتقبل ردود أفعالها المزعجة، أنت تعرف زوجتك وتعرف لسانها، هيا بنا ..

وأشارت لميرا ورحيق اللتين قامتا معها، واتجهت رحيق نحو مالك قائلة :

- أنا فخورة بكَ جداً، بارك الله لكما! .. ثم انحنت تقبل رأسه وغادرت معهما..

وتركنه في القاعة الفسيحة مستمتع بما فعلنَ فيها، قاطعه صوت ديانا وهي تسأل :

- مالك! هل طبع الكتاب؟

استند ووقف وقال :

- نعم، ستصلكِ نسخة إلى بيتِكَ غداً إن شاء الله!

- حسناً سأنتظرها.. ثم أكملت سيرها..

انشغلن ببنان وتجهيزها، وإلهاء عقلها عن التفكير في مالك، أو الانشغال بغيابه عنها، حتى حان الموعد، ذهب جميعهم، لم تكن تعرف أن الفيلم الذي قدمته سينال جائزة، وحين علمت زفت البشرى لمالك، وتمنت أن يأتي معها، يراها وهي تتسلم التكريم يوم تخرجها، ولكنه لم يفعل، سمعت اسمها ينادى، فاتجهت نحو بقعة الضوء بعد أن تلفتت حولها تبحث عنه، شعرت بأسفٍ على حالها، ولم تعرف التبسم حتى، وشرد ذهنها في أين يكون؟..

ولم تنتبه سوى لصمتٍ عم المكان، نظرت للحضور لتجد أنظارهم كلهم في اتجاهٍ واحد، نظرت إليه، كان هو، ببطء حدقت فيه، سلطت بصرها على وجهه لتتأكد من كونه هو وليست هلاوس بصرية، يتقدم نحوها بثباتٍ سائراً على قدميه، بلا شئ يستند عليه، بلا عرج، أو عكازين، بلا وجع يرتسم على وجهه، صدمتها كانت كافية لخرسها، كافية لانتفاض قلبها، متى فعل كل ذلك؟ وهي تشاركه غرفة واحدة، لا تعلم! أقرب إليه من أنفاسه كما يزعم ولا يخبرها، هل خبأ لها ذلك ليفاجئها اليوم؟ هل تحمل كل الألم وحيداً؟ ..

وقف أمامها، وسكتت أصوات الحضور في عقلها، وخلا المكان إلا منهما، لم تعد تسمع أو ترى غيره، وكأن مجال بصرها انحصر فيه، واتخذه مركزه، احتوتها عيناه، واستبشر وجهه، فقالت :- فعلتَها إذاً!

- لم أفعلها لسواكِ! ولم أخبر أحداً قبلكِ!

هناك أناسٌ يشاهدون ولم يشعرا بهما، هناك عيونٌ مراقبة وقلوب هائمة، وعقول تعي، لم يلتفتا، وكأنهما لم يكونا معاً في الصباح، ولم يتحدثا كثيراً طوال الأيام الماضية، كأنها لحظة الصمت، جذب ذراعها بسرعة، وسار خارجاً عن هذا الجمع الذين يسلطون أنظارهم عليهما، ولم يُعِرْهم اهتماماً..

في الخارج أوقفته قائلة :- لا أصدق!

فالتفت لها وقال:- هل أحملكِ وأجري الآن؟

- افعلها!

ضحك وهو يحيطها بذراعيه معانقاً، فأحاطتْ ظهره بذراعيها غير مصدقة كما قالت، إنه يتحرك بلا ألم، ويبتسم بلا تصنع، ويتحدث دون تحفظ، ولكن صوته أخرجها من حالتها قائلاً :

- بنان! أرجوكِ! كفي عن اندهاشكِ الآن! مازالت ليلتنا طويلة!

ابتعدت وأومأت مستجيبة، فأحاطها بذراعه وسارا متجاورين، ثم اتخذا سيارة وكان هو سائقها، لم تكف طوال الطريق عن مراقبته، حتى هتفت فجأة :

- مالك أنتَ جميل جداً اليوم!

ارتفعت ضحكاته ثم قال هائماً في عينيها :

- لم أرَ أجملَ منكِ..

وعاد ينظر للطريق ثم التقط يدها لتعانق يده، وأكملا طريقهما في سماع صمتهما، حتى وصلا للقاعة المعدة لها.. دخل مغمضاً عينيها، وسار بها وضبط الإضاءة كما علمته ميرا، ثم قال :

- الآن انظري ..

ببطءٍ فتحت عينيها سامحة للضوء بالنفاذ إليهما، وجال بصرها في المكان تنظر لصورهما، وذكرياتهما معاً، هنا بسمتها، وهنا بكاءها، على صدره هنا، وتجافيه هناك، عروسين يحتفلان، مريض ومرافقته، تائهة وراشدها، رجل وصديقه، أنثى ورجلها، تضحك، تضربه، يشتمها، يبعثر شعرها، تنزعج، تهذبه، تنظر لطوله، ينظر لقصرها..

نظرت إليه بعينٍ لامعة، فابتسم قائلاً :

- لم ننتهِ بعد..

شغل العرض، وجلسا يشاهدان، هذا الفيلم الذي منعهن رؤيته، هو بطله، لا يجيد التمثيل، ولكنه فعل لأجلها، واقفٌ فيه يعرفها بنفسه، يرجوها أن تسامحه، يقول حديثاً غير مرتباً ثم يعتذر عنه، يختفي عن الشاشة، وفي مشهدٍ آخر يكون، يجلس على طاولته، لا تظهر سوى يده، يرسم، مر زمان لم يفعلها، تتابع تحركات يده، ماذا يرسم؟ بدأت الصورة تتضح، نعم إنها هي، مازالت تحتفظ بتلك الصورة التي رسمها لها من قبل في المشفى، وهاهي واحدة أخرى، أتبعها بثالثة ثم

رابعة، تعبيرات وجهها مختلفة في كل مرة، تعبس وتتبسم، بحجابها ومن غيره، تتابع كل ذلك وهو جالسٌ جوارها، تشاهد الشاشة وهو ينظر لعينيها يرى رأيها فيهما.. تشد على يده منفعله، فيطمئن يدها ساكناً، ينتهي الفيلم، تنظر إليه، لا يسمح لها بالنطق، يشغل الآخر، ذلك المملوء بصورها المختارة بعناية، مرتبة بدقة منذ دخلت بيتهم مسترجلة حتى هذه الأيام.. تتابع بمزيجٍ من الدهشة والسعادة، تشد على يده أكثر، ويرفق بها أكثر، ينتهي الفيلم، تزداد الإضاءة توهجاً، فيضئ وجهه مرة ثانية، تلتفت إليه، تحيطها عيناه، تقول لاهثة :

- أفعلتَ ذلكَ لأجلي؟

- تستحقين ما هو أكثر! كنت أسخف رجلٍ في العالم..

يطول المقام بهما، يتحدثان كثيراً، في جانب القاعة طعام معد لهما، جلسة ملكية تليق بهما، بزيها الذي اختاره وزيه المختار بعناية، تشعر أنها ملكة ولا تمنع نفسها من ذلك، لا يعودان للمنزل هذه الليلة، يسافران لسكنٍ هادئ، هناكَ يفاجئها بكتابها، وضعه أمامها وقال :

- هذا الشئ الأخير، أتمنى ألا أخذلكِ فيه!

تناولته، قلبت فيه، قرأت " إهداء / إلى سكني ووطني في هذا العالم .. إلى مالك "

رفعت نظرها إليه وقالت :

- إنه إهدائي، من الذي وضعه على كتابٍ آخر؟

انضم حاجباه، ثم رفع أحدهما وصاح :

- أيتها الحمقاء، إنه كتابكِ أنتِ ولم يزد أحدهم حرفاً عليه..

قالت :- ولكن من راجعه؟

- كما أردتِ، ديانا ومحمد وأحمد..

- وأنتَ؟ .. سألتْ، فأجابها :

- أنا قارئ أقل من العادي، ثم يكفيني هذا الإهداء شرفاً!

- واخترتَ اسمه كما وعدتني أيضاً، أنتَ رائع..

قالتها وهي تنظر للغلاف، ولاسم الكتاب عليه " وَإليكَ أسعى " .. ثم تركته جانباً واقتربت منه أحاطت عنقه بذراعيها وعانقته بشدة، كأنه مسافر وطال غيابه، هو بالفعل كذلك، اليوم فقط تشهد أن مالكاً قد عاد..

بمجرد اختفائهما من الحفل، خرجت رؤية، تتبعها أحمد الذي لمحها، يعرف أن اليوم سيكون حديثه الأخير معها، نادى :

- رؤية!

التفتت إليه، فلمحها طرفه قبل أن يغضه، لو تعلم كم يقاوم ليفعل ذلك، نظرته إليها لم تعد طبيعية، لم تعد بلا سبب، نظرة واحدة تجعله يلتقط تفاصيلها كلها، نظرته هذه تعد من أكبر الكبائر، لم تعد نظرة عابرة أبداً لا تحمل أي شئ، بل تحمل كل شئ ..

اقتربت منه خطوتين وسألت :

- لماذا تغض طرفكَ عني دائماً، أنتَ الآن تريد الزواج بي..

تنهد ناظراً للأرض، هل تسأله عن نقطة ضعفه الآن؟..

قال :

- لستُ بحاجة لإطالة النظر،قال أحدهم ذات يومٍ ..

إذا نَظَرَتْ نَحْوِي تَكَلَّمَ طَرْفُهَا * وجَاوَبَها طَرْفِي ونَحْنُ سُكُوتُ**

غضت طرفها سريعاً، دائماً يتحدث بلسانها، وقالت بابتسامة اصطنعتها :

- مجنون ليلى..

- ليس غريباً عني..

ازدردت لعابها ثم استدارت لتبتعد قائلة :

- إلى اللقاء، لدي سفر غداً..

- اعتني بنفسكِ جيداً، لا توجعي قلب أبيكِ، إنه قلق دائماً بسببك!..

أوقفها صوته، فرددت وهي تبتعد :- إن شاء الله!

- رؤية!.. نادى ثانية بصوتٍ أقوى أرعدها، فوقفت بوجل، قال :

- هل يمكنكِ تغيير تلك المشفى، لا تعودي إلى هنا إن كان يزعجكِ وجودي، ولكن انتقلي إلى مكانٍ أكثر أمناً!

شدت على حقيبتها وقالت:- سأحاول فعل ذلك..

- عديني بالفعل!

تنهدت ثم التفتت بقوة وقالت :

- لا تعرف كيف أحبس لساني، وكيف أتحكم فيه، فلا تضطرني لإطلاق عقاله، ماذا دهاكَ؟ أصبحت تتحدث إلى امرأة غريبة عنكَ هكذا بكل سهولة؟ كنت أرى أنكَ أتقاهم وأحسنهم خلقاً، الآن تعترض طريق امرأة..

ثم شعرت أنها قست عليه، وسمحت لرؤية الرابضة بداخلها بالنهوض، فقالت برفق :

- لو كنا في زمنٍ آخر، في مكانٍ آخر، لو لم أكن امرأة تفقد كل من يقترب منها لوافقتُ على طلبكَ، ولكن أمكَ وعائلتكَ تحتاج إليكَ..

وأكملت طريقها، خطوتين قبل أن يقول بقوة تُخضع قوتها :

- مازلتِ تعترضين على القدرِ رؤية، مازلتِ تتطيرين!

أجابت بوجع :

- أحاول ألا أفعل، ولكنني لا ألبث أن أقع في ذلك!.. ابتعد عن امرأة مثلي..

وواصلت المسير، مبتعدة لأقصى نقطة تستطيعها، تلملم وجعاً فتحه وصعب التئامه مجدداً..

مع أول خيوط النهار رحلت..

ونهضت بنان من نومها، لم تنم في ليلتها، عادة ألفتها تنهاها سعادتها عن النوم، نظرتْ إلى مالك، إلى وجهه الهادئ، ثم وضعتْ رأسها على صدره ثانية، وأحاطت جزعه بذراعيها تتملكه، تتأكد أن كل ما حدث حقيقة ثابتة، مالك يتحرك، انتهت المعاناة ولم تشهد آخرها، رفعت نظرها إليه، ووضعت سبابتها على عينه، ثم حركتها على حاجبه، واعتدلت جالسة فجأة، هزت كتفه بعنف وقالت :

- مالك.. انهض بسرعة.. مالك .. مالك .. ضربت كتفه كثيراً، وحركته ليصحو وما فعل..

ثم تذمرت قائلة :

- عدتَ لنومِ البطريق مرة أخرى..

فتح عينيه ببطء وصعوبة ثم قال :

- وهل تعرفين كيف ينام البطريق!

ابتسمت وقالت :- لا .. ولكنكَ تشبهه..

- كم الساعة؟.. سأل، فأجابت :- لم يمر الكثير على الفجر، إنها ساعة واحدة..

- ظالمة! لم أنم سوى هذه الساعة..

نفضت غطاءهما ثم وقفت فوق رأسه قائلة :

- انهض حالاً..

- لماذا؟

- جائعة، أريد طعاماً!

ثم شدت يده قائلة :- هيا.. الآن!

تريد أكثر من دليلٍ للحقيقة الواقعة، راقبته وهو ينهض ثم يتحرك أمامها، تنظر إلى قدميه كما تفعل منذ ليلة أمس، تلتصق به وهو يسير كأنها تخاف أن يتألم فتلحقه، أنهى إثباته لها، ثم استعدا للذهاب لأمه ورحيق، فأمه لم تشبع عينيها بعد برؤيته معافىً، وكذلك رحيق..

لم يعاتباه، ولم يلوماه، شاركهما فرحتهما، وعاد بامرأته ثانيةً لذلك المكان النائي عن العالم، في عزلة عن الدنيا...

مرت الأشهر، ووضعتْ رحيق ثم ديانا.. اختلف الأمر كل الاختلاف بينهما، فشتان بمن تزيد القصيدة بيتاً، وبمن تبدأ بناءها لتوها..

رزقت رحيق بتسنيم، بهجة أضيفت لحياتهم وفرحة، ووضعت ديانا بعدها ..

نحن نخاف بشدة، نتخذ برهاناً وآية من كل شئ حولنا، رحيق ولدت قبلها، أمر طبيعي، ولكنه نفس ما حدث في السابق، رحيق وضعت فتاة، علامة أخرى، هي شعرت بتعبٍ مضاعف في الشهر الأخير، أمر طبيعي لأي امرأة في وضعها، ولكنه نفس ما حدث مسبقاً، الأحداث نفسها تتكرر بصورة مخيفة، حتى اليوم الذي وضعت فيه، فاجأها الألم، وفر بها آدم إلى المشفى، غابت عنه، ولكن فجأة صرخت تناديه، فدخل معها، الأمر يخيفه هو الآخر، تجربتهما السابقة كانت كأقسى ما يكون، لماذا نادته؟ ألا تعرف كم هو ضعيف أمام ألمها؟ ألا تعرف أنه يستمد قوته منها وليس العكس، كانت تشد على يده فيمسح على رأسها، يقبل يدها تارة، ورأسها تارة، وكأنه يهرب من عينيها المتألمتين..

رأفة بحالهما لم يطل الأمر، بل انتهى بأسرع ما يكون، ولم يصدق عينيه وهو يرى ابنته حية أمامه، حملها على ذراعه، وضمها لصدره برفق خشية أذيتها، سمَّى وكبر، ثم انحنى يريها لزوجته التي فاضت عيناها بفرحتها.. لم يطُل الألم، ولم يستمر كثيراً، انتهى كل شئ بسرعة، وكأن الفرحة استعجلت الدخول لحياتهما بدخول عائشة ..

طوال هذه الشهور لم يراها أحمد، ولم يعرف أخبارها، ظن المسكين أنه سينسى ومازاده البعد إلا اشتياقاً، قبل أن ترحل سلبت روحه منه، فكيف يردها إليه؟.. ثم عادت ولم يراها، فلم تخرج من بيتها..

وفي نومه جاءت، استنجدت به، رجته أن ينقذها، كانت ضعيفة ضائعة، تشتت حاله، وارتعد قلبه، وأصابت رجفة جسده، ذهب إليها، لم يتأخرْ، أقسم أنه لم يتأخر! هي التي تأخرت في طلبه، تأخرت كثيراً..

أمام بيتها وقف، ينظر للإسعاف الذي يحملها، لم يفهم شيئاً، رأى أباها فذهب نحوه بلهفة مرعبة، قال له :

- لقد فعلتها، انتحرت رؤية..

لماذا سعيتِ إلى موتكِ رؤية؟ هل هان عليكِ أحمد المسكين إلى هذا الحد؟... هل ستنتصرين على قدركِ هكذا؟...

٤٢

البداية

مع خيوط الفجر الأولى، عاد مالك من الصلاة وحيداً، تساءل أين يكون أحمد؟ عرج عليه قبل خروجه وجد حجرته فارغة، وعند عودته صعد لغرفته مباشرة بعد اطمئنانه على أمه، ومازالت حيرته نحو أحمد متواجدة، فحتى هاتفه لا يجيبه..

وجد بنان جالسة في مصلاها تنتظره، جلس عندها، واقتربت منه تسكن على صدره دون حديث. أكمل كل منهما أذكاره، وسرت سكينة في الجو لفتهما، وانحدر سيل من الاطمئنان عليهما، وحين انتهت تناولت مصحفها وقالت :

- ما الذي يشغلك؟

ضمها إليه وكأنه يطمئن نفسه بها ثم قال :

- لم أجد أحمد في غرفته، ولم يكن معي في الصلاة.

- قد يكون ذهب للشركة مثلاً بعد سهره في مكانٍ ما وصلى هناك.. قالتها مطمئنة، فابتسم وهو يسحبُ بعضاً من هواء الغرفة المفعم بالهدوء، ثم قال متردداً :- أمي قلقة عليه هي الأخرى!

ربتت وجنته برقة وهي تقول :

- أنتَ تعرف أخاكَ، يتصرف كأنه يعيش وحيداً في بعض الأحيان، قد يكون ذهب إلى أي مكانٍ لعملٍ ما وسيعود إن شاء الله لا محالة، ليست المرة الأولى التي يفعل بها ذلك.

أومأ موافقاً على حديثها، فقالت:- اليوم العنكبوت..

ابتسم وقال :- لتبدئي!

ابتعدت عنه، وجلسا متقابلين، تناول مصحفه وفتحه على السورة المقصودة، بدأت في القراءة، وهي تهتز للأمام والخلف بحركاتٍ متواترة، كأن ذرات الهواء امتزجت بصوتها فأصبحوا وحدة واحدة، خشع الجماد وترنم نسيم الفجر، ورتلت، وترنم صوتها، حتى وصلت لهذه الآية

((وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ))

وقفت ها هنا، ولم ترفع ناظريها عن الكتاب الذي تحمله، نظر إليها منتظراً حديثها، كانت كمن يجاهد صوته، ويكظم تنفسه المتهدج، لم يستحثها، وسكت آملاً في تحرير كلماتها من معتقلها، فقالت بعد سكوتٍ طال :

- لقد سامحتهما! لم أخبركَ من قبل، أو لم أستطع أن أفعل ذلك بسهولة، ولكن على كل حال أنا الآن سامحتهما...

فهم أنها تشير لوالديها، فلم يحرِ جواباً على ما قالت، كان ينتظر ذلك منها طويلاً، تناول كفها في كفه، وشد عليها مؤازراً، ثم همس:

- لا يسامح إلا القوي، وأنتِ قوية بما يكفي لتنسي ما فعلاه فيكِ وتسامحينهما..

أومأت مصدقة على حديثه، ثم أكملت قراءتها، وأكمل استماعه لها..

((وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ))

- يارب .. يارب اجعلنا منهم .. وأكملتْ :

((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ))

توقفت ونظرت إليه فقال :- كنتُ هكذا، أليس كذلك؟

ابتسمت وقالت :

- ولكنك لم تترك الدين.. ثم أردفت :- أولئك قوم من المنافقين ادعوا الإيمان، وفي أول فتنة تركوه، ثم عند أول نصر زعموا أنهم مؤمنون مرة أخرى، عافانا الله من النفاق، وأبعدنا عن هذه الصفة.. أكمل أنت..

أكمل بصوتٍ رخيم :

((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ

الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ))

أوقفته بإشارة من يدها وقالت :

- كنت أعبد أوثان فكري من قبل، وكنت أكابر وأعاند لأجلها، لم أكن أفهم أن الأوثان ليست مجرد تماثيل حجرية مصنوعة بأيدينا، فقد تكون تماثيل في عقولنا من صنعنا أيضاً، نعبدها من دون الله وننحني لها، أحياناً ننسى أن مرجعنا إلى الله.. قالتها بشرود ثم همست :- أكمل..

شد على يدها وأكمل ..

((أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))

تأمل كل منهما القول الحق، تأملت الإعجاز الذي تاهت عن معرفته لسنوات، بدء الخلق كيف يكون؟ تدبر آياته في الأرض! رحمته بها، الولي والنصير لها، ويتأمل هو **قوله ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))** .. هل يئس وكفر بلقائه وآياته، هل فعلها حقا؟ هو الآن تائب عن كل ما فعل، تائب عن يأسه وعجزه، وقنوطه من رحمة الله..

ثم أخذت الآيات تنتقل بهما لحكايات أنبياء ورسل مع أقوامهم، معاناتهم، ابتلاءاتهم، صبرهم.. العذاب المنزل على قومٍ عصوا وعاثوا في الأرض فساداً، تجبروا وأفسدوا، ظلموا وتكبروا ..

((مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ))

توقف فقالت :

- كنت أحسب الوهن في ضعف البناء الشكلي لبيت العنكبوت، وشغلني الأمر كثيراً، فالمعنى لم يتفق مع ما فهمت، فهم اتخذوا من دون الله أولياء، يعني تغيرت قلوبهم، فكيف يشبههم الله بضعف شكلي، حتى فهمت كيف تكون بيوت العنكبوت أوهن البيوت..

سأل مستفهماً :- كيف؟

فقالت :

- البيت واهنٌ من القلب كما فهمت تماماً، بيت العنكبوت أوهن البيوت لأن أنثى العنكبوت تقتل ذكرها بعد أن يلقحها وتأكله، والأبناء يأكلون بعضهم بعضاً بعد الخروج من البيض، ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه ولا يحاول أن يضع قدمه في بيتها.

وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً ومقتلاً لكل حشرة صغيرة تفكر أن تقترب منه وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يقتل.

لذلك كان التشبيه، إن من يتخذ من دون الله أولياء، أو يطيع من يفعل ذلك فإنه يقع في بيت واهن، سيكون فيه هلاكهم في الدنيا والآخرة.. البيت ضعيف من القلب .. هل فهمت؟

ابتسم وهز رأسه فاهماً، ثم وقف على ركبتيه فرفعت رأسها إليه مستفهمة ورفعت حاجبها استنكاراً، فانحنى يقبل رأسها وقال :

- سلمتْ رأسكِ وبوركتْ ..

ضحكت وهي تدفعه ليجلس ثم قالت :

- أكمل السورة يا مالك، أنت مخادع دائماً..

((خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ * وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ))

قاطعته بيدها ثم قالت :

- أفكر أن يكون كتابي القادم عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، لقد أوذي من قومه كثيراً..

قال مشجعاً :- توكلي على الله وادرسي الأمر.. ثم ابتسم مكملاً :

- ستسعى دور النشر خلفكِ بعد نجاح كتابكِ السابق، وهذا لن يمنع سفركِ معي..

قالها معترضاً، فضحكت وقالت :

- الفضل بعد الله في ذلك يعود إليك، هذا أولاً، وأما عن ثانياً فأنت تعرف أنني عشقت السفر بسببك، ولكن لن يشغلني السفر عن الكتابة، لنتفق قبل كل شئ..

نظر لها وأغمض عينيه مسترخياً، ثم قال :- هذا يعني أن عشقكِ للكتابة فاق عشقكِ للإخراج ولصاحبه..

ضحكت ثم قالت :

- لا توقع لساني في الخطأ، هيا أكمل..

وصل لقوله

((وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))

تمتمت :

- يارب اجعلنا منهم .. يا إلهي اقبلنا ..وأكمل مالك السورة حتى نهايتها..

أنهيا وردهما لهذا اليوم، فهتفت :

- أشعر بالجوع، هيا لنحضر طعاماً..

ابتسم وقال:

- أنتِ دائماً جائعة، أحضري لنفسكِ، سأنام الآن..

- ماذا؟ تنام؟ لم يعد وقتاً للنوم، ستذهب لعملكَ بعد ساعة ونصف، هيا بنا..

لم يجد مفراً من فعل ما تريد، وفي المطبخ وقفا، يحاولان قدر استطاعتهما أن يخفضا صوتهما حتى لا يزعجان أمه، وحين انتهيا، ذهبت بنان لتوقظها، واتجه مالك نحو غرفة أخيه، لم يجده، وأثناء خروجه التقته أمه فسألت :- لم يعُدْ بعد؟

أومأ بتردد ثم قال :- يبدو أنه نام في الشركة كالعادة..

وافقته مصطنعة الهدوء، والتفوا حول المائدة يأكلون..

****

في إشراقة الصباح هذه حاول ياسين أن يهاتف أحمد الذي وجد منه مكالمتين وأكثر من رسالة أثناء نومه، ولكن محاولاته لم تفلح، تلهى بابنته مريم، التي تجمعه بها علاقة خاصة لم تتأثر بوجود المولودة الجديدة في حياتهم، جالسها وحمل الرضيعة يعرفها عليها ويؤلف بينهما، حين خرج سيف من غرفته مستنداً على عصاه خالعاً عنه قدمه الصناعية، نظر إليه ياسين، وكذلك رفعت مريم نظرها نحوه قبل أن تحوله لقدمه، قال ياسين:

- هل تؤلمك قدمك؟

نفى سيف الأمر بقوله :

- لدينا مباراة اليوم، سنلعب هكذا دون حاجة إلى قدم تساندني..

- سيرهقك الأمر، ولست مضطراً له.. قال ياسين، فأردف سيف:

- لا يا أبي، إنه اليوم التحدي..

- أي تحدي.. قالها ياسين ضاغطاً على أسنانه، فراوغ سيف :

- ستأتي لتشجيعي أليس كذلك؟

اقتربت منه مريم، وجلست جواره فربت على كتفها ونظر إليها قائلاً :

- ستأتين وتهتفين باسمي؟

ابتسمت وأشارت برأسها موافقة، فتنهد ياسين، وزفر بضيق، ثم قال :

- متأكدٌ أنكَ ستكون بخير..

- بالتأكيد، تعلم أنني أحب المنافسة في مثل هذه الأشياء!

ابتسم ياسين بقلة حيلة، وعاد يتأمل وجه ابنته الصبوح التي تسكن على ذراعه، والتصقت به مريم بعدما ابتعدت عن أخيها، فأحاطها ياسين بذراعه الحر. دخلت عليهم رحيق وقالت باسمة :- طعامكم جاهز يا صامتون! ماذا دهاكم؟

وقف ياسين، وتبعته مريم ثم سيف الذي نظرت إليه أمه وقالت :

- مصممٌ على رأيكَ إذاً؟

ابتسم ولم يُجِب، فتجاوزها ياسين ومريم، وانتظرت سيف، وضعت يدها على رأسه وسارت تجاوره، التفوا حول الطعام، وحملت رحيق رضيعتها، وانشغلت بها عنهم، حتى تهرب من سؤالها عن عدم تناولها للطعام. ذهب سيف ومريم للمدرسة، وعاد ياسين إليها قائلاً :

- يبدو القلق جلياً على وجهكِ، ماذا حدث؟

هو يعرف السبب جيداً، ويسأل متمنياً خطأه، ولكنها نظرت لعينيه سائلة :

- لم يرد أحمد بعد؟

أشار برأسه أن لا، ثم قال :

- اعتني بنفسكِ جيداً..

- هل عرفت مكانه؟.. ستذهب إليه؟..سألت ملتاعة، فأجابها بعينيه ولم يشأ أن يخبرها برسائل أخيها له ثم قال:

- أنا واثق أنها مشاكل في العمل، وبالطبع يجب أن أكون معه، سأمر على مالك لأخبره بأمري، ثم أذهب مباشرة..

- أشعر أن هناك مشكلة كبيرة.. والتمعت عيناها بقلقٍ واضح مع زيادة تقلصات معدتها..

- ستحل إن شاء الله.. قالها مبتسماً ليطمئنها، ثم قبل رأسها، وقبل يد ابنته، ورحل ..

****

في غياهب الألم تسكن، لا تشعر بالعالم المحيط بها، انفصلت عنه منذ زمن، شاحبٌ وجهها كشحوب قلبها، ابيضت شفتاها، وسكنت أطرافها.. في عقلها تلك الأصوات التي تهاجمها..

والآن هي بين الغياب تكمن، تنتظر في حالتها أمراً كان مفعولاً..

وصل ياسين إلى أحمد، لا يدري كيف كانت حالته وهو يخبره بمكانه في رسالة، عرف من الموظفين ما حدث، وسأل الطبيب عنها قبل أن يصل إليه متألماً، جلس جواره ووضع يده على كتفه مطمئناً ثم قال :

- ستكون بخير إن شاء الله ..

نظر له أحمد كمن يستنجد به، ثم قال بوهن :

- أتعتقد ذلك؟ حياتها على المحك..

رسم ياسين ابتسامة يشوبها القلق ثم قال :

- سنحسن الظن بربنا، بيده مقاليد الأمور.. ثم أردف بيقين :- هو قادرٌ على شفائها..

همس أحمد بهم :

- لقد تناولت من الأقراص ما يكاد يقتلها لولا زوجة أبيها رأتها، لما أنقذها أحد وابتلعت العلبة كلها لتموت في توها، يقول الطبيب أنها كادت تموت..

أجاب ياسين مشفقاً :

- ستحيا إن شاء الله

ثم حاول تهوين الأمر عليه فقال مبتسماً :

- لم أكن أعرف أن ابنة بلدي التي تقرعنا دائماً هي التي تشغلك؟

- وستتركني أيضاً؟

- لا تقل ذلك يا رجل، ستكون بخير صدقني..

رأى أباها متلهفاً موجوعاً، جالس في ركن ينتحب، كان يعلم أنه سيفقد ابنته المتمردة ذات يوم، ولم يشأ أن يقيد حركتها فيفلت عقالها من بين يديه، ترك لها حرية التصرف في كل شئ، لم يمنعها ولم يظهر غضبه منها، والآن ابنته راقدة تنتظر موتها، ومن بين أوجاعه انتفض، هل سيبقى ساكناً هكذا منتظراً موتها، تقدم نحو الطبيب يستحلفه أن يراها، يتحدث إليها، يطمئنه عليها، ولم يحدث أياً منها..

الوقت يمر بهم، ويعجز الجميع عن فعل أي شئ، وكأنهم في انتظار مفارقة الروح للجسد، يجيب ياسين مكالمات زوجته ومالك وسارة يطمئنهم أن كل شئ بخير..

مر يومان آخران، يكاد لا يفارق المكان، تبقى عائلته على زيارات لا تنقطع، ولم يستطع ياسين التخلي عنه، دائم الاتصال بمالك ورحيق، يتابع العمل مع الأول، ويطمئن الثانية على أخيها الذي انعزل عن كوكبهم..

لم يراها أحمد كل هذا الوقت، لم يقف حتى على زجاج غرفتها يطمئن قلبه الملهوف عليها، لم يقر عينيه برؤية ملامحها، وفي خضم تفكيره بها قفزت في رأسه فكرة، تحدث بها مباشرة إلى أبيها وقال :

- زوجني ابنتك!

صعق الأب المكلوم، واتسعت عيناه اندهاشاً، وشد ياسين على ذراع أحمد ينقذه من ورطته، ومن سقطات لسانه، ولكن أحمد أكمل :

- نحتاج إلى عقد وشهود، وأنت وكيلها، وهي موافقة، أقسم على ذلك!

حول أبوها نظره عنه متغاضياً عن كل ما قال، وازداد جذب ياسين لذراعه، فلم يزيدا بفعلهما إلا ثورته، فقال :

- لماذا لا تجيبني؟ أنا أريد الزواج بها..

وكأنه طفل يريد إسكاته فقال :

- عندما تنهض من مرضها إن شاء الله ..

- الآن.. أريد الزواج بها الآن.. هتف بها أحمد، فهتف ياسين غاضباً :

- أحمد كف عن ذلك، وهل ترى أن هذا الوقت المناسب لحديثك؟

كتم أحمد غضبه إزاء غضب ياسين، وخرج تاركهما..

عاد لبيته، رأى أمه، انفرد في غرفته، وعكف على صلاته التي لم يفتر عنها، يدعو ربه تضرعاً وخفية، كثرت رجاءاته وآماله، هو رجلٌ فقد كل مآلٍ له في الحياة، أخذ يدعو ويبتهل، يشكو حاله ووجعه..

وانحسر في الغرفة لأيامٍ أخرى، ينتظر خبرٍ عنها، يتتابع دخول أمه ورحيق ومالك إليه، يحدثونه ولا يستجيب.. حتى جاءه ياسين ذات يومٍ وقال :

- لتتزوجها إذا؟...

ماذا حدث؟ لقد وافقت على الزواج! أهكذا تم الأمر؟.. وتم الزواج..

مر يوم يليه آخر، ويستعيد وجهها نضرته، لون أبيض لون المرض، يتحول برفق وهدوء لاحمرار طفيف، يوم بعد يوم يسري الدم نقياً في عروقها ترى آثاره على وجهها، يتحول شحوبها تدريجياً للون عافية. يقترب من غرفتها كل يومٍ بعد نومها، يتأمل ملامحها ويطمئن عليها، وحركة واحدة من خلجاتها كافية بأن تجعله يبتعد، يبتسم كلما اطمأن عليها، ويستبشر بقرب شفائها، ومع ملاحظته للحزن المرتسم على وجهها كان يدفع بالسبب لحالتها، لم يتحمل أن يرى ذلك الحزن مستمراً..

وخرجت من المشفى، وفي بيتها لم تخرج، ولم يستطع الذهاب لرؤيتها، كان يطمئن عليها من خلال رحيق أو بنان اللتين يزروانها باستمرار، يرق قلبه ويزداد فرحاً حين تخبره بنان أنها ضحكت اليوم، أو تحدثت باطمئنان، أو فرحت وابتسمت، وتخبره رحيق أن عينيها سألت عنه، يطمئن نفسه بأنها لن تتخلى عنه..

وانقطعت أخبارها بعدها، لا يربطه بها سوى دعواتٍ في جوف الليل، وركعات يذكر اسمها فيها، كأنه يعرفها لأهل السماء، تزداد لربه رجاءاته أن ييسر له الخير، أن يرضيه بما يقدر، وزاد انقطاع أخبارها، لم تعد رحيق أو بنان تخبرانه بشئ، واستعف عن السؤال خشية أن تصدمه الإجابة ..

بين عمله واختلائه بنفسه مرت أيامه، حتى ذلك اليوم، سمع صوتٌ شبيه لصوتها لا محالة من ذلك، من المؤكد أن المكان الذي جمعهما كثيراً وسط الثلوج، ينحني على صوتها، ويذكره به...

- هل أنتَ سعيد بالزواج الآن؟

ابتسم والتفت لها، وجدها تقترب وتجلس جواره، لم ينطق من دهشته، ولم تتحدث بعدها، وحل الصمت عليهما كما اعتاد، تمالك مشاعره وتنهد وقال :- حمداً لله على سلامتك..

- سلمتَ من كل شر، لماذا فعلتَ كل ذلك؟ هل اطمأن بالك الآن عندما تزوجتني؟.. قالتها بصوتٍ كئيب..

لماذا لم تمت؟ ألم تنهي حياتها بنفسها؟ لماذا تنقذها زوجة أبيها؟ هل انتهت جولتها مع القدر وستسلم بأمره؟..

قال بهدوء :- لأنكِ تستحقين ما هو أكثر.. المهم أن تطمئني لذلك..

- ترد بدبلوماسية دائماً.. قالت شاردة..

التفت إليها بكامل جسده مرة واحدة ففزعت وتراجعت خطوة فقال :

- هل وافقتِ مجبرة؟

قالت :

- لم أكن أعرف إلى أي درجة يصل جنونك..

ثبت نظره لعينيها منتظراً إجابة شافية، ثم قال :

- على أي حال أنتِ موافقة!

قالت باعتراض:

- هناك أشياء يحب أن تعلمها، مثل أنني لن أستطيع يوماً أن أنسى عمر أو ابني..

- أعلم..

- كنت تعلم أنني معترضة دائماً على القدر، حتى صفعني بما حدث، ومع ذلك كنت تتحملني.. هل ستستطيع تحملي لوقتٍ أطول؟

هز رأسه موافقاً، وقد التمعت عيناه بالسعادة، فحكت رأسها مفكرة ثم قالت :

- إذاً، فأنت زوجي الآن!

ابتسم وقد عادت إليه دعابته فقال :- للأسف!

اتسعت عيناها بدهشة ثم ضاقتا وقالت :

- للأسف! مازلت تستطيع التخلي عن الحمل الثقيل الذي ستبتلى به!

بدا مستمتعاً بإغاظتها فقال :- سأفكر بالأمر!

فوقفت لتغادر وقالت :

- أنا في إجازة من عملي لمدة سنة نستطيع الانفصال في أي وقت..

أمسك معصمها يوقفها فسرت رعدة بينهما وقال :

- ما رأيكِ أن تكون سنتين حتى نربي الطفل الأول؟!.. شريطة أن نسميها حور لو كانت فتاة ..

- ماذا؟.. حملقت فيه وانطبقت شفتاها وحبست أنفاسها فوقف ضاحكاً وقال:

- يبدو أنني سأتحمل كثيراً، وافقتِ على الزواج وطلبتِ الانفصال في جلسة واحدة، ستكفرين ذنوبي قبل موتي!

سحبها من يدها وسارا متجاورين، لم تنطق بشئ، تحملق فقط في يدها التي تسجن في يده، حتى وصل بها إلى أمه، جلس وجلست معهما، شعرت بخجلٍ شديد؛ فمواقفها مع أمه مشينة كالعادة، لولا الزيارات التي أغرقتها بها في مرضها، ابتسمت سارة ورحبت بها بحبور، وجاء مالك من عمله ومعه بنان جلسا معهم، لم تفارق يده يدها طوال الجلسة، ومحاولات سحبها كلها باءت بالفشل، لم تزده المحاولات إلا تملكاً ليدها أكثر، حتى رغبت بالرحيل، فرحل معها، ووقف في الحديقة الخلفية وقال :

- إلى أين سترحلين؟

قالت بتوجس:- إلى بيتي!

- وهذا بيتكِ!

- ليس بعد! الآن؟ .. لا أعرف، لم أعتاد الأمر بعدُ!

تنهد ثم أشار للمكان حوله يشرح لها ماذا سيفعل فيه، وعن البيت الذي يخططه، فأعجبها الأمر لإطالة المدة بينها وبين الإقامة معه، ثم وصلها لبيتها، وافترقا على أملٍ منه ورجاءٍ منها بأن تكون قررت الأصلح لهما...

****

دخلت ديانا غرفتها، فوجدت آدم قائماً عند رأس ابنته سارحاً في ملكوت هي مركزه، بأصابعها طرقت على كتفه، فانتبه ولم تحِد نظراته عن ابنته، فهمست :

- براون يجلس مع أبيك، ينتظرك منذ وقتٍ لا بأس به، تأخرت عليه كثيراً..

قال بعينين مبهورتين :

- إلى الآن لا أصدق أن هذه ابنتي..

انحنت ديانا تحمل ابنتها مبتسمة، ثم ضمتها إليها وقالت:

- ولماذا إذاً؟ ألأنها صغيرة ورقيقة؟ أم لأنها تشبهني، هادئة ولا تبكي مطلقاً؟

نظر لهما، وابتسم، ثم قال :

- أين براون؟

أشارت برأسها للخارج، فانصرف عنها، وجلست هي على فراشها، تضم ابنتها وتتأمل كل خلية فيها، تمسح على رأسها، وتقبض بإصبعها على يدها، تمسح وجنتها مرة، وتقبل يدها مرة أخرى، تظل ساكنة حتى تبكي، تهدهدها وترضعها، تبدل ملابسها بأخرى مختارة بعناية، وتضعها على السرير جوارها، ثم تقرأ من القرآن ما حفظت على مسامعها..

يعود آدم، يجلس جوارها وبينهما ابنتهما، يحملها عندما يجدها مستيقظة، يداعبها ويلاطفها، وكأنه بذلك يتأكد أنه أصبح أب لهذا الجسد الغض، يتأمل ملامحها، ثم يهتف :

- إنها تشبهني أنا ..

تضحك ديانا ثم تقول :

- لنسأل والديك، ليكونا الحكم بيننا..

ينظر لها بحنق وكأن كلماتها أزعجته، يضع رأس ابنته على صدره مجاوراً لقلبه، ويمسح عليها برفق، ثم يقول :

- سأجعلها تنطق باسمي أولاً..

تزداد ضحكاتها وتردد :

- أنتَ من سيجعلها؟ سأترك عملي كله وأتفرغ لها، وستنطق باسمي أولاً، لا تحاول..

يضم ابنته أكثر وكأنه يثبت ملكيته لها، ثم يهتف فجأة:

- قد أترك عملي أنا أيضاً، أو آخذها معي إليه..

تهتف ملتاعة :

- أنتَ مجنون لا محالة، سأجعلها أنا تنطق باسمك أولاً.

وكأنها طمأنته بقولها، فابتسم وأبعد ابنته عنه يتأمل ملامحها بعدما سمع صراخها معترضة، أخذ يغمغم بكلمات غير مفهومة بغية تهدئتها، وعجز عن ذلك، فمدت يديها له، اعترض أولاً، ولكنه لم يجد بداً من ذلك فابنتهما لم تسكت، أعطاها لها مشفقاً وملهوفاً عليها، حملتها فسكتت، نظر لهما بغيظ ثم قال :

- ما هذا؟ وهل كنت أنا السبب في بكائها؟

همست له :

- لأن صوتك عالٍ، لا ترفع صوتك في وجودها مرة أخرى، ولن تبكي معك..

يصمتان حتى تنام، تضعها ديانا في فراشها، فيعود لتأملها مرة أخرى سامحاً لمشاعره الجياشة نحوها أن تفيض، تنظر لهما ديانا مبتسمة، هل كانت تنتظر سعادة أكبر من هذه؟..

****

على متن الطائرة المتجهة إلى مكة، نظرت ميرا لزوجها المسترخي جوارها، ثم إلى أمها وإخوتها، وتوسدت ذراع محمد، فقال باسترخاء :

- عرفتِ الآن أن التأخير كان خيراً!

ابتسمت وهي تدفن وجهها في ذراعه وقالت :- عرفتُ..

هل كانت تحلم يوماً بأن تسلم أمها ثم تتبعها الصغيرات يليهن أخوها؟ هل تمنت في أجمل أحلامها ذلك؟ أن تكون عائلتها كلها مسلمة؟ أراحت رأسها بفرحة، وهي تتذكر أخواتها اللائي عرض عليهن محمد الإسلام، وكيف جادلنه، فهن لم يسلمْن مع أمهن، سألت إحداهن :

- وهل الإسلام يكفل لي حق اختيار زوجٍ مناسب وسيم جميل، ويكفل لي حق الانفصال عنه إذا ما مللت منه؟

ورغم أن ميرا سفهت سؤالها وسخرت منه إلا أن محمداً أجابها بنعم، فسألت الثانية :

- وهل الإسلام يحرم الخمر، يعني لو أسلم أخي مثلاً، لن أجده يوماً يعود من الخارج سكيراً يترنح؟

أجاب محمد للمرة الثانية بنعم، فسألت الثالثة :

- وأنا أحب الملابس المكشوفة، وأعرف أن دينكم يحرمها، هل يمكنني الإيمان به، والبقاء على لباسي كما أنا؟

اعترضت ميرا وزمجرت فأخرجها محمد من بينهم وأجاب على الثالثة بنعم، أسلمْن ثلاثتهن بقلبٍ مطمئن، وكانت الثالثة الأسرع فيهن إلى الحجاب..

اتسعت ابتسامتها وهي تتذكر إسلام أخيها منذ شهر واحد فقط، وقد كان هو الوحيد في البيت الذي يدين بغير الإسلام..

شقت الطائرة وجهتها في السماء، ومع اقترابها من الحلم تزداد خفقات قلبها، وتتشبث بذراع زوجها أكثر، تلقي نظرة على ابنيها الذين يجاوران أمها، وتغمض عينيها بعدها لتنعم باسترخاءٍ تتمناه، ولكنها همست إلى محمد :

- هل ستسافر إلى مصر بعد انتهائنا؟..

رد هامساً :- إن شاء الله ..

- وماذا عني؟

- تستطيعين العودة مع عائلتك، لن أتأخر إن شاء الله!

بقبضة قوية ضربته على صدره، فتأوه مكتوماً وقال :- ماذا حدث؟

- ألم أخبرك قبل أنكَ عائلتي ! سأكون معكَ، أم تريدني أتركك لابنة خالتك..

ضحك بصوتٍ منخفض ثم قال :

- اهدئي، لسنا وحدنا.. سآخذكِ معي، لن أستطيع الذهب دونكِ، فقط كنت أشاغبك!

ضربته مرة أخرى، وكتمت صيحته وقالت :- عقاباً على ما فعلت ..

ثم سكنت إلى ذراعه، وتعلقت به، وعلقت قلبها بالتكبير والتهليل، تحضر قلبها لما هي مقبلة عليه، تسبقها سعادتها لفعل كل شئ، يخشع قلبها ويأنس، وتسكن جوارحها ملبية..

****

- سيف! اعتني بأختيكَ جيداً، لن أتأخر إن شاء الله..

قالتها رحيق قبل خروجها، وتركت صغيرتيها مع سيف يرعاهما، اختلاطه الكثير بأحمد جعل منه نسخة مصغرة له، نفس الاحتواء الذي يحمله، ونفس المراعاة والاهتمام، بيد أن ياسين لم يكن كعمر في التفرقة بين أبنائه، بل يحافظ على المساواة بينهم، ولكلٍ منهم مكانته الخاصة، فمريم أثيرته، وسيف ابنه القوي الذي يتعلم منه أكثر مما يعلمه، يحب اهتمامه بكل من حوله حيث يناله من ذلك نصيب، والصغيرة تسنيم أنس البيت وبهجته..

تأخرت رحيق، وزاد بكاء الرضيعة، وعلى إثرها بكت مريم، تاه سيف بينهما ولم يعرف كيف يتصرف؟ أمه لا ترد على هاتفها، وكذلك أبوه..

لم يتأخر ياسين بعد عدة اتصالات، ودخل مسرعاً لسماعه صوت البكاء، واحتار في الصغيرتين، يقبل على أيهما أولاً، حمل تسنيم، ثم طلب من سيف أن يجهز ما يرضعها به، وجلس قريباً من مريم، يهدهدهما حتى سكنتا على ذراعه، أتى سيف بما يريده، فناوله للرضيعة يلقمها، ويهزها حتى هدأت واستكانت ثم نامت.. وضعها في سريرها ثم سأل :

- هل تناولتما غداءكما..

أجاباه بالموافقة، وسأل سيف :- أين أمي؟ لقد تأخرت!

تنهد ياسين ثم قال :

- لا أعرف.. فقد هاتفته تخبره بسرعة الذهاب للمنزل خوفاً على أبنائها، حاول الاتصال بها مجدداً، ولكن لا إجابة مرة أخرى، حتى عادت منهكة القوى، بمجرد دخولها أقبلوا عليها جميعهم، تعلقت مريم بقدميها، وشد سيف على يدها، ونظر ياسين لعينيها وقال بقلق :

- ماذا حدث؟ أينَ كنتِ؟

جلست تستريح وبعد اطمئنانها عليهم أجابت :

- صدمت امرأة بسيارتي، فأخذتها للمشفى وانتظرت حتى أطمئن عليها، ثم طلبت تعويضاً حتى لا تشكوني، وانتهى الأمر على خير الحمد لله..

هتف ياسين بلوم:- لماذا لم تخبريني بكل ذلك حين هاتفتكِ؟

ابتسمت براحة وهي تضم ابنيها إليها :

- لا تقلق، أجدت التصرف هذه المرة، لم أكن أستطيع ترك أبنائي وحدهم وأستنجد بكَ.. ثم أكملت مازحة :- لم أعد تلك الساذجة التي تبكي وتنوح عند الوقوع في مصيبة ..

ابتسم وقال :- ولكن على أي حال لم تستطيعي التخلي عن جنونكِ.. الحمد لله أنكِ بخير..

ابتسمت له ثم قامت لتتخلص من تعب اليوم وتطمئن على صغيرتها الثالثة ..

إنها بداية جديدة في حياتهم، وحياة البناء الذي اختاراه معاً...

****

انتهى أحمد من التصميم والبناء في وقتٍ حسبته قياسياً، لم تكن تريد الزفاف الذي يرغبه الجميع، ولكنها أشفقت على أمه، ولم ترغب بكسر فرحتها، فوافقت مضطرة، مازالت مضطربة مترددة، تجيب اتصالاته بمجاملة، وتحدثه بتهذيب، أحمد تغير بالفعل، والكل يشهد بذلك، عاد ذلك الفتى المرح لا تفارقه ابتسامته ولا فرحته، هل ستضيعها الآن؟ هي لا ترفضه بقدر رفضها لفكرة الزواج.. وتتابعت أفكارها وتلاحقت حتى يوم الزفاف، علمت بأن زفافها سيقام في قاعة كبرى، عاد محمد وميرا التي ساهمت في الإعداد من سفرهما، وشاركها الجميع فرحتها، رحيق وبنان وديانا، وجاءتها إيلين، تحدثت كثيراً معها، وأقنعها حوارها.. ولكن حين حانت اللحظة التي ستلتقيه فيها بكت بشدة، وهدت زينتها، وتلطخ وجهها، انصرف الجميع من حولها فزعين، ولم يبق أحدٌ، عادت وحيدة كما كانت وأفسدت فرحتهم..

علم بأمرها فصعد لغرفتها المفتوحة ودخل، مزق بكاءها نياط قلبه، جلس جوارها وضمها إلى صدره، بكاءها ازداد ونشيجها علا، فقال متألماً :

- رؤية، لو قلتِ الآن أنكِ لا تريدنني، سأبتعد، والله سأبتعد ولن أقترب منكِ أبداً، ولكن لا تبكي، أرجوكِ لا تحزني ولا تخافي من شئ، سأبتعد إن كان في هذا سعادتكِ!

لم تتوقف عن البكاء، وأخذت تنشج بعلو، فلم يزد على كلماته محاولاً أن يمنحها فرصة للهدوء، هدأت ولم تتوقف دموعها ، فأبعدها عنه واحتضن وجهها بكفيه ماسحاً دموعها التي تسيل فقالت:

- أنتَ لا تفهم، أنا لا أرفضك، أنا خائفة فقط، هل ستتحملني بالفعل للنهاية، ستتحمل خوفي وتقلباتي؟

- لقد وعدتكِ، وما زلتُ عند الوعد.. قالها مبتسماً، وقد أثلجت صدره، ثم أكمل :

- لا تقلقي من شئ، لا داعي للزفاف ..

- أحمد أنا حاولت بالفعل تقبل الأمر، ولكني لا أستطيع، يجب أن أرحل، ومتى استطعت تقبله سأعود إليكَ، لقد أقدمت على التخلص من حياتي بالفعل، كيف تطلبون مني أن أتجاوز الأمر وأبدأها كأن لم يكن شيئاً؟..

- لنتجاوزه معاً، لن أترككِ أو أتخلى عنكِ يوماً..

- ولكن لن أقبل بذلك، يجب أن أتجاوزه وحدي كما أقحمت نفسي فيه وحدي...

سيجمعنا القدر مرة أخرى لا محالة من ذلك، ألا تؤمن به؟

ورحلتْ...

****

وقفت مقابله بعدما ودعا سارة، وانفض الجميع من البيت، نظرت للشمس التي تغازل الأفق، ولشروقها الذي يبدو هادئاً خفيفاً، ثم قالت :- توكلنا على الله..

فتح مالك سيارته لها فركبت، ثم استدار لمقعد السائق، وقال :

- رحلتنا هذه المرة ستكون في الأدغال، مستعدة؟

ابتسمت وقالت :

- أكيد! بالطبع أنتَ بحاجة إليَّ في هذه الرحلة، أجيد فنون القتال وأستطيع الدفاع عنك إذا ما تعرضت لأسد مهاجم في إحدى الغابات البرية..

ضحك وهما يتحركان بالسيارة وقال:

- لا تخافي أيتها الشرسة، تعلمت ما أستطيع الدفاع به عن نفسي..

تحركت السيارة في طريقها لهدفهما، يتحدثان عن الفيلم الذي ينويان تصويره، ويسألها عن استعدادها، ويشرح لها ما يريد، حتى وصلا بعد ساعاتٍ..

ترجلا من السيارة، وحملا حقيبتيهما، وتحركا في الداخل، وتوغلا ، وبدأ كل منهما يرفع الكاميرا الخاصة به، يلتقط ويصور ما يريد، عوناً له وعوناً لها في كل شئٍ ، وسيدوم العون إلى أن يشاء الله ...

****

عاد أحمد لأمه، لم يتحدث، ولم تسأله، ارتمى بين ذراعيها فأسكنته قلبها كرضيعٍ بحاجة إلى عناية، لم يبحث عن زوجته، لم يسأل أباها، سلم هو بقدره، لماذا تتحجج بالقدر كل مرة؟ لماذا لم تخبره أنها ترفضه فقط؟ لماذا حاولت الانتحار؟ ألف لماذا في رأسه يسكتها عنوة...

يمر من الشهور أكثرها عليه، لا خبر عنها، ينتقل مالك وبنان لكل مكانٍ في الدنيا، يعودان من سفرهما ليقيمان شهراً، يهلك مالك نفسه في العمل والدراسة، حتى يجني من المال ما يعينه على السفر لبلدٍ آخر، وتنزوي بنان في غرفتها باحثة، تكتب كثيراً، فينتهي الكتاب الثاني لها، تطبعه، تنشره، يذيع صيته وصيتها، تلقي المحاضرات، مالك معها دائماً لا يفترقان، تعكف على القراءة أثناء انشغاله بعمله، تساعده في مشروع تخرجه، تذهب معه للجامعة، يبحثان عن زميلٍ لهما يقوم بتمثيل دورٍ في فيلمه، تختاره هي وتذهب لمالك تقول :

- لقد اخترت شارلوت، أعتقد أنه الأفضل لتقديم ما تريد..

ينظر إليها مالك مستنكراً ثم يفصح :

- ولكنني لا أريده، ثم لماذا قمتِ بالأمر بنفسكِ؟.. قالها بشبه غضب، فقالت :

- مالك لا تكن عنصرياً، هل ننفي مجهوده لأنه يهودي..

- ليس يهودي وإنما صهيوني، ومتميزٌ في عمله لا أنكر ذلك ، فقط أنا لن أتعامل معه.. ردد وقد بان الغضب على وجهه متحكماً فيه، فقالت :

- آسفة، لم أكن أعرف، سأعتذر له ونبحث عن آخر..

- لا عليكِ، سأفعل أنا.. رغم أنه لا يستحق الاعتذار..

شدت على يده قائلة :

- نحن نتعامل بأخلاقنا لا بأخلاقه، حقاً آسفة..

ابتسم مربتاً رأسها وقد تراجع غضبه في توه كالعادة ثم قال :

-لا داعي لكل تلك الاعتذارات، أعتقد أن أليكس أفضل، مارأيكِ؟..

- ليكن إذاً، لتذهب لمشرفك، وأتحدث أنا معه..

- سنذهب سوياً، هيا بنا..

قالها وهو يسحبها من أذنها فضحكت قائلة :

- آسفة آسفة لن أكررها..

يعمل على إنهائه ويقدمه، يقول لها :

- كنت أتمنى الدراسة في نيورك فيلم أكاديمي .. كما تعلمين أنها الأفضل على مستوى العالم ..

تبتسم، تعلم أنه ما فعل لئلا يسافرا معاً، ويبتعد بها عن العائلة المحيطة، تنظر إليه ممتنة أن لم يفعل، هي أيضاً لم تكن تحتمل أن يبتعد، حتى وإن كانت المسافة الفاصلة يسهل تخطيها..

يتخرج مالك، يحتفلان، ويسافران إلى مومباي في الهند، لا يغيبان، رغم أنه حرص على الالتحاق بدورة للتصوير فيها، ولكن لم يكن له أن يطيل السفر هذه المرة..

سيسافر ياسين إلى مصر، ومعه ستكون رحيق وأبناؤهما، قد يقيمان لشهرٍ يحتميان من برد الشتاء كما قالا، يعرف أبناءه على مصر، لم يقل أنه اشتاق لوطنه، رغم أن الشوق أضناه، يحاول مالك أن يساعد أخاه في العمل، لم يعود أحمد كما كان حزيناً منطوياً، بل عاد إلى أحمد الشاب ذلك الذي كانه قبل أن يغيب عنهم، المرح المشارك لهم في كل شئ، ولكنه كان أيضاً يكتم ألماً في نفسه كالذي يكتمه الآن، رؤية جرحته، جرحته بشدة، لماذا هجرته؟ لماذا وافقت

على الزواج إن كانت تنوي الرحيل؟ أخبرته أنها لن تنسَ زوجها، ولكن لم تخبره أنها قد تتركه لأجل زوجها، لأجل أنه لم يفارق قلبها، ليته ما التقاها يوماً، هل عاد ليحبها ثم تجرحه هكذا؟

منذ رحيل أخته وأبنائها وقد خلت الحياة من فرحتها، أبناؤها أبناؤه، لا يمر يوماً دون رؤيتهم، يبقى معه سيف أكثر من بقائه مع أبيه، تأتيه مريم، ويفرح بابتسامة تسنيم..

يجلس في الليل إلى جوار أمه حول المدفأة، يمسك بكتابٍ ويقرأ لها، يطيل القراءة، وتوقفه عند كل فقرة تناقشه، يمازحها ويقول :

- ما رأيكِ لو تدرسين الأدب الإنجليزي؟

تبتسم لتستنير الدنيا في عينيه، ماذا لو ماتت سارة؟ سيفقد حياته بعدها حتماً، يلتقط يدها ويشد عليها برفق، ويكمل القراءة، ثم يقول فجأة :

- أنا أتحدث جدياً، لتحضرين ماجستير ثم دكتوراه في الأدب الإنجليزي.. لنذهب إلى واشنطن، تدرسين في جورجتاون، سأدرس معكِ، نقيم في واشنطن فترة الدراسة..

- لماذا تكره لوس أنجلوس؟.. تسأل ببساطة وكأنها على حق، يجيب بأريحية :

- لا أريد البقاء هنا، رحيق سافرت، مالك لا يستقر، لم يبق لي سواكِ، لتكوني معي..

- ليس لأنك تريدني أن أدرس الأدب الإنجليزي..

يضحك وتضحك، رغم ألمه إلا أنه يستطيع تجاوزه، تعلم ذلك ويؤلمها أن تعجز عن مساعدته..

يقرران الرحيل، يخبران مالك ورحيق، يفرح مالك ويشجعهما، وتبتسم بنان لتقول :

- هذا جيد لتكون لنا زيارات دائمة لجورجتاون..

بينما رحيق يملأها الفراق جزعاً، تعدهم بالزيارة، ويخبرها أحمد أنه سيأتيها كل أسبوعٍ مرة ليتابع العمل مع ياسين، ويرى أبناءها الذين سيشتاقهم، تسأل :

- وماذا عني؟ ألن تعود مرة لأجلي؟..

يقبل رأسها ويقول :- أنتِ الأولى قبلهم، أنتِ ابنة قلبي قبل كل شئ..

تطمئن، تودعهما، وترجو مالك أن يستقر لفترة بسيطة، يستجيب..

في المنزل وحيدين مالك وبنان، يعود من الخارج صائحاً وتسمع صياحه، تقابله هاتفة :

- الأزهر في مصر..

- دعوة إلى باريس..

يصمتان بعدها، وقد خاب أملهما، يفترقان كلٌ في غرفته، يبحث عن مخرج، لم يعتادا الافتراق، ولن تسافر دونه، ولا يفكر في السفر وحيداً، يلتقيان عند مفترق الطرق بين الغرفتين تقول :

- ماذا ستفعل في باريس؟

- تواصلتُ مع شخصٍ ما، سيقدم برنامج من باريس، مدة التصوير شهراً، طلب مني أن أخرج العمل، وافقت، أرسل لي دعوتين اليوم..

- لماذا لم تخبرني من قبل؟.. قالتها بلومٍ

- أردتها مفاجأة لكِ. أعلم كم تحبين باريس..

تنهدتْ.

افترقا ثانية يفكر كل منهما في حل، ثم التقيا بعد فترة وقد أشرق وجهها قائلة :

- لنؤجل مصر لبعد شهر..

ابتسم وهو يقول :

- لا داعي لذلك، أجلتُ سفرنا لباريس لبعد أسبوع إن شاء الله، نذهب إلى مصر، ثم باريس..

- هذا أفضل.. ثم ضحكتْ..

طارقٌ بالباب، ذهب ليفتح، صدم عندما رآها وقال ساخراً :

- رؤية..

وراءه وقفت بنان، حاولت التبسم في وجهها وقالت بتوتر من جفاء زوجها :

- مرحباً رؤية..

تركها مالك ودخل لامبالياً، عذرته بنان لأجل أحمد، ثم قالت لرؤية :

- تعاليْ رؤية، ادخلي..

قالت بتوتر بدا واضحاً في اهتزاز صوتها :

- هل يمكنني مقابلة أحمد؟

- أحمد.. قالتها بنان لتكمل مفسرة مكانه، فأوقفها صوت مالك الغاضب :

- أحمد ليس هنا، ابحثي عنه إن أردتِ، لا نعرف أين يكون؟

- أنا آسفة.. وغادرتْ

راقبتها بنان مشفقة، ثم التفتت نحو مالك لائمة :

- لم يكن عليكَ فعل ذلك، كان يجب أن نحتويها..

- ولماذا لم تفعل هي مع أخي؟ هل خدعكِ مرحه وحيويته الظاهرة؟ إنه يخفي ألماً بسببها..

- يجب أن تعرف أن من يصل لحالتها، ليس علينا أن نلومه، يجب أن نتفهمه أكثر.. حاولت الانتحار لتتخلص من حياتها، هل ستقبل بزوجٍ هكذا بمنتهى السهولة، كان يجب عليها أن تقيم حياتها، هي رحلت لأنها لم تستطع الحياة..

تركها، لا يستطيع التماس عذرٍ لها، قد يفعل لو فعلها أحمد..

تنظر إليه، تهاتف رحيق، تخبرها، لا تعرف أتتعاطف معها، أم تغضب لأخيها؟ ولكنها تقرر في النهاية إخبار أحمد، يجيب بكلمة واحدة :

- لا تخبريها بمكاني..

تستجيب..

هل قال أنه لن يبحث عنها، هل أخبر من حوله أنه لم يحاول البحث عنها، ولكنه كاذب، لقد بحث حتى فقد الأمل، لم يعرف حتى ماذا يفعل إذا ما وجدها، بالطبع سينفصلان، يبحث عنها فقط حتى يطلقها!!

لتبحث عنه إن أرادته يوماً لبعض الوقت، ولكنه عاد، أخبر أمه بما جرى وعاد بها، ذهب إلى عمله، وتحرك في الحي وكأنه ينتشر في المكان كي يسهل بحثها عنه، آذته نعم، ولكنه كان ومازال يحمل بعض الشفقة لحالها، هي الشفقة فقط لا أكثر، ذهب لأبيها من قبل وكان مثله لا يعرف شيئاً عنها، ذهبت إلى الشركة، قابلت ياسين ثم التقته..

نظرتْ إليه، تأملته طويلاً، لم يستطع أن يحرك بصره عنها، قالت معتذرة :

- لم أكن أستطيع سوى ذلك، لو وافقت على الاستمرار سأخدع نفسي، كنتُ لا أزال في تشتتي وحيرتي، لم يكن لأحدٍ أن يستطيع تحملي، و..

قاطعها منفعلاً :

- ولكنني وعدتُكِ..

- الكلام غير الفعل، لم تكن لتفهم ما أمر به أبداً، أنا عدتُ لأعتذر إليكَ فقط، أعرف أنني تأخرتُ ولكن لم يكن الأمر بيدي.. أنا آسفة، أرجو أن تسامحني..

همت بالرحيل فقال :

- أنا لم أطلقكِ..

وقفت، نظرت إليه وقد ظنت أنه فعلها. قالت :- لماذا؟

- انتظرتُ عودتكِ حتى أفعل..

ابتسمت ثم قالت :

- افعل ما يريحكَ، أستأذنكَ..

- أين كنتِ؟.. أوقفها ثانية عن الرحيل. قالت :

- أرض الله واسعة، ابتعدتُ لأؤمن به إيماناً كاملاً..

ثم رحلتْ..

عادتْ لأبيها، لم تذهب لعملها، اهتمتْ بأخيها الذي وضعتْه زوجة أبيها، تبقيه معها ليل نهارٍ، لم يعاتبها أبوها ولم يلومها..

بينما ازداد أحمد مرارة، ألم تهتم به؟ لم تهتم ببقائها معه والعودة إليه؟ طالما آمنتْ لم تعد بحاجته، أم أنها لم تكن بحاجته منذ البداية؟ وما الذي يزعجه؟ يعرف أنها لم تحبه يوماً..

سافر مالك وبنان إلى مصر، وقبل سفرهما عرجت بنان على رؤية، تحدثت إليها، عرفتْ أين كانتْ؟ حدثتْها عن أحمد، ثم تركتْها..

في اليوم التالي ذهبتْ إليه رؤية، ابتسم ياسين في وجهها، ثم سهل دخولها لأحمد، شجعتها ابتسامته على ما نوتْ، وقفتْ أمامه، قال بجفاءٍ يلغي اندهاشه :

- لماذا أتيْتِ؟

- جئتُ لأجيبكَ على سؤالكَ..

أثارتْه وسكتتْ، قال :

- لا أريد إجابة، وإن جئتِ تتعجلين الطلاق، لا تقلقي، سيحدث قريباً..

- ولكنني ما أتيتُ لذلك، أنا لا أريد الانفصال يا أحمد..

لم يرد، مل من الحديث، تعب من كل شئ، وجودها يرهقه، يكفي إخفاءه لمشاعره في حضورها، يكفي لومه لنفسه لأنه يبقي على أي مشاعرٍ لها..

قالتْ :

- كنتُ مع إيلين، أقمتُ عندها..

ثم سكتتْ، انتظرتْ إجابته، تعرف جيداً كم سببت له، مستعدة لتفعل أي شئ كي يسامحها..

قال ساخراً :

- حمداً لله على سلامتكَ..

ووقف مستنداً على عصاه، اقترب من تصميمٍ يعمل عليه، وانشغل به عنها متعمداً، لم تجد بداً من المغادرة، هو يطردها بلباقة...

ما إن خرجتْ، حتى ترك ما في يده، وزفر بضيقٍ ثم رمى عصاه عاجزاً، ضائقاً من كل شئ، لم يخرجه من حالته سوى دخول ياسين، تحدث إليه كثيراً، هل متعاطفٌ معها الآن؟ لماذا وقف الجميع في صفها؟

ذهبت إلى سارة، جلست معها، اعتذرتْ، شعرت بالخجل، لا تستطيع تصور جريمتها، لماذا لم تفعلها سوى في أحمد؟ ألم تستطع رفض الزواج، أو الرحيل قبله حتى؟

ولكنها كانت خائفة بالفعل، لم تتحكم في نفسها وهي تفعلها، لم ترِد له أن يعاني معها، انفردت بمعاناتها الطويلة، لن يفهمها أحد أبداً، لن يفهمون كيف لامرأة تجابه كل ما يحدث لها بقرارٍ واحد؛ سأتحدى القدر، إنها أقرت ذات مرة بأنها من امتلكتْ شفاء مالك، وبأنها من منعتْ ديانا من قدرها، هل يفهمون أي مصيبة كانتها؟..

لم تفطن أنها تحكي لسارة معاناتها إلا عندما ربتت على كفها مطمئنة، لا تعرف كيف ارتمت بين ذراعيها تبحث عن الأمان، ولكنها لم تعد رؤية المتحفظة في تعاملاتها، كانت تحتاج بشدة إلى احتواء سارة، قالت لها :

- ابقِ هنا إن كنتِ تصدقين في مشاعركِ نحوه، أو ترحلي من حياته إن أردتِ أن تسببي له أي أذى آخر..

لم ترَ سارة الحازمة من قبل، ولكنها محقة لأجل ابنها..

عاد أحمد سلم على أمه وبقي يمازحها كعادته قبل أن يدخل لغرفته، صدم وهو يرى امرأة نائمة على سريره، عاد لأمه مصعوقاً، من هذه؟

ابتسمت سارة ثم قالت :

- زوجتك، امنحها فرصة، لقد كانت مريضة تخضع للعلاج..

لم يدخل كما توقعتْ، خرج ولم يعقبْ، جاء الليل، اتصل مالك، اطمأن عليها ثم أنهى اتصاله، جاءتها رحيق، جلستْ معها فعرفت بما حدث، قالتْ :

- اعطِه فرصة، ولكنه على حق..

مر شهر، لا تعرف الاعتذار، ولكنها تعرف التطفل، يقيم أحمد في المنزل الذي أسسه لها، وتقيم هي مع أمه، لا يأتيهما ولكن تذهب إليه رؤية، تتطفل عليه صبح مساء، عندما عادت لم تكن تعرف أنها قد تفعل ذلك، ظنت أنه طلقها وقالت سيرتاح بالها، متى تحركت مشاعرها نحوه، متى اهتمت بألمه؟ متى فكرتْ فيه؟

تحضر له طعاماً، لا يأكله، تتحدث إليه، لا يجيبها، ينهرها، يخرج غضبه فيها، تبدي التجلد، لماذا تتحمله؟ هل أحبته؟ أم اعتذاراً عم فعلت؟

وبعد الشهر ذهب لإيلين، لا يعرف لما قادته قدماه إليها، سألها عنها، أكان يطمئن عليها، أم يبرر لمشاعره نحوها، إنها مجرد شفقة، فلم يعد يحبها..

خرجت من محاولة انتحار فكيف تريدونها بأن تبدأ حياتها كأن لم يكن شيئاً؟ هل هو غاضبٌ لأنها هجرته، أم لأنها لم تثق في وعده لها بالحماية والمؤازرة؟ أقامت مع إيلين شهوراً، ابتعدت عن الجميع، قالت أنها ابتعدت لتؤمن إيماناً كاملاً، هل ساعدتها إيلين في ذلك؟

- لم تكن أفكارها سوية حينها حتى تعاقبها، رؤية تحبك كثيراً، أتعرف كيف بدأت برفض قدرها؟ كيف شعرت بذلك التيه والتردد أنها تؤمن بالله ولا تؤمن بقدره؟ كل ما في الأمر أنها تزوجت لرجلٍ يعشقها، ولم تكن تبادله مشاعره بنفس القدر، تؤجل الزواج باستمرار حتى أشفقت عليه فوافقت، تزوجا لأشهر ثلاث قبل أن يموت، في الشهر الأخير بدأت تشعر بحبٍ نحوه أو شفقة، ولكن موته صدمها شعرت أنها ظلمته، فأبقت على الوفاء له كاعتذار، مات ابنها هو الآخر، فتحول نقمها لقدرها، كل ما في الأمر أنها لم تجيد فهم الكون...

- والآن؟.. سألها..

- والآن هي تحاول أن تقف على قدميها، بصدقٍ هذه المرة، في البداية لم تكن تريد الارتباط بكَ رغم أنها تلاحقك باستمرار، ولكن ملاحقتها لك كانت وكأنها تنتقم من شئٍ لا تعرفه، قد يكون لأنك عدت من الموت كما تدعوك، قد يكون أنها تمنت لو يعود زوجها السابق لتعتذر له، لا تجبرها على الانطواء والعودة لمصيرٍ تجهله ثانيةً...

تركها، وعاد إلى منزله، تردد أمامه لبعض الوقت ثم رحل، منذ أسبوعٍ عادت رؤية لعملها، تذهب في مواعيد منتظمة، يخرج قبلها، ويعود بعدها، ورغم ذلك تعد له فطوره الذي يهجره كما يهجرها، كما في كل مرة تشغل تفكيره فيها، يمشي في الطرقات حائراً، أيسامحها بالفعل؟ هو خائف من ذلك، ماذا لو تركته ثانية؟ ولماذا لا يسامحها؟ وقف أمام متجر لبيع الملابس، لفت انتباهه معطف يحيط بعنقه فراء أبيض، أخبرته مرة أنها تحب ارتداء المعاطف الطويلة ذات الفراء، ابتسم ولا يعرف كيف دخل واشتراه..

عاد للمنزل ودخل، لم يجد طعاماً معداً، فخمن أنها لم تأتِ بعدُ، تسلل لغرفتها يضع ما اشتراه في خزانة ملابسها، ففوجئ بها مضطجعة على فراشها، توقف وصدمت فحاولت الاعتدال، ولكن ألم قدمها الذي تكتمه منعها، وضع ما تحمله يده ثم خرج، فتنهدت بضيقٍ وألم، وعادتْ لوضعها، لماذا أطاعتهم وبقيت معه؟ لماذا لا تستقل بحياتها كما كانت تنوي؟ إن كان لا يريدها فهي لن تفرض نفسها عليه أكثر..

تحاملت على نفسها، لماذا اصطدمت قدمها بالطاولة الآن؟ يجب أن تتحرك إليه، أول خطوة، ثم الثانية، لم تُطِقها فصرخت وتوقفت مكانها لا تتحرك رافعة قدمها ثم مالت نحو السرير الذي لم تبتعد عنه وجلست عليه..

جاء على صراخها بلهفة حاول أن يخفيها، تجلدت أمامه ثم قالت :

- كنت أريد أن أخبرك بشئ..

- لماذا صرختِ؟

- ليس بالشئ المخيف، بعض الألم في قدمي سيزول.. ثم أكملتْ متجاهلة ألمها :

- لقد جئتُ إلى هنا لفعل ما أستطيعه حتى تسامحني، ولكن لن أستطيع أن أفرض نفسي عليكَ أكثر، أنا آسفة، يبدو أنني مصدر لإزعاجكَ منذ البداية..

- الزمي بيتكِ رؤية، لا تهجريه ثانية..

ثم اختفى عن ناظريها..

تنهدتْ، ما الذي جنتْه في حياتها؟ الإيمان بالقدر!! ألا يعرف أنها آمنت أنه قدرها لذلك أبقت على عهدها بالتمسكِ به...

عاد إليها بعد دقيقتين متردداً، ثم قال :

- أنا لم أغضب منكِ، ولكنني فقط كنت قلقاً بشدة عليكِ، ألا تستطيعين قول أنكِ بحاجة لبعض الراحة؟ أنكِ بحاجة لزيارة إيلين؟ كنتُ فعلتُ ذلك لأجلكِ، تسيرين في الطرقات غير عابئة بمن ينشغل عليكِ أو يتحرق لغيابكِ، كيف تفعلين بي ذلك؟ لقد وعدتُكِ بألا أتخلى عنكِ فلماذا تفعلين أنتِ؟...

- أنا آسفة، آسفة.. آسفة.. حقاً آسفة .. قالتها بسرعة مكررة حتى تهدئ ثورته، فزفر واقترب منها، جلس مقابلها وفاجأها سؤال لم تتوقعه :

- لماذا لم تحضري غداء اليوم؟

تراجعت وحملقت فيه ثم قالت :

- آسفة، لم أستطع الوقوف على قدمي، انتظر لبعض الوقت..

سكت وكأنه ينتظر استكمالاً لروايتها، فلم تلبث أن أخبرته كيف اصطدمت قدمها بالطاولة، ينظر إليها وهي تتحدث فقط ولا يفعل شيئاً آخر، يقوم فجأة يقول :

- استريحي الآن..

يغيب ثم يأتيها بالطعام، تبتسم، تنظر إليه وتقول :

- قد أهجره كما فعلت..

- إنما كنتُ أذيقكِ من بعض ما فعلتِ.. قالها ناظراً لعمق عينيها، ارتبكت :

- أنا آسفة..

- لا تكرريها، لا تغيبي ثانية..

- لا أعرف كيف فعلتُ ذلك، صدقني..

تنهد ونظر في أرجاء الغرفة بعيداً عن مجال عينيها، اقتربت منه، ربتت على يده وكأنها تطيب جرحه، رفعتها إلى شفتيها تقبلها ثم كررت :

- والله آسفة..

شدها إليه يعانقها، هل شعر بالغضب نحوها يوماً؟!!..

****

يقف مالك في شرفته يتابعهما بتسلية، ويبتسم بفرح، تأتيه بنان تجاوره وتقول :

- ماذا تفعل؟

يشير إليهما فتضحك، يجلسان في جانبٍ من الحديقة يتحدثان، لاهين عن الدنيا ومن حولهما، وكأنهما تائهيْن التقيا في سفرٍ بعيد فبدد كل منهما غربة الآخر..

تقول بنان ونظرها مسلطاً على رؤية :

- متى سنسافر؟

يبعد مالك ناظريه عنهما ويقول :

- بعد أسبوعٍ إن شاء الله..

تبتسم وهي تتابع الزوجين الذين تركا مقعديهما ثم تقول :

- إلى الصومال هذه المرة، ألم تنوي الذهاب لعمرة أولاً؟

- عندما نعود إن شاء الله حتى يتسنى لأمي الذهاب معنا، وهيا الآن لنستعد اقترب موعدكِ..

قالها وهو يسحبها وراءه، ثم توقف لدى الباب قائلاً :

- ما رأيكِ أن نعد لهم الطعام؟

ضحكت وهي تسأل :- من؟

- للعروسين بالطبع، هيا بنا..

تطيعه، ويقفان في المطبخ، يتفنن في طهي وجبة جيدة، وتحاول تساعده فتفشل ككل مرة، يصيح بها :

- لا تُقطع الطماطم هكذا..

- ولا الجزر..

- ضعي الزيت.. يكفي هذا .. انتبهي للفرن..

يصرخ، تضحك أمه، تدخل رؤية، ينظر نحوها ثم يبتسم ويقول :

- زوجة أخي، هل تجيدين الطهي؟ أم تفشلين فيه كهذه؟

تضحك بنان، ويأتي احمد، يصيح بهما :

- ماذا تفعلان؟

يبتسم مالك له ثم يقول :

- اتصل برحيق، ادعوها للعشاء، سيفوتها ذلك..

يستجيب أحمد، يجتمعون، رحيق وزوجها وأبناؤها، وأحمد وزوجته، ثم مالك وبنان وسارة، يقف مالك ليقطع طعامهم بقوله :

- لتدعو أصدقاءكم جميعاً لحفلٍ يوم الخميس إن شاء الله، سنقيمه لأجل أحمد ورؤية، لا نقاش ولا جدال، لتستجيبوا للأمر..

تخجل رؤية إذ يذكرها كالعادة بجرمها، ينظر إليها أحمد ويبتسم قلقاً..

نظموا حفلاً رائعاً، اكتمل الحضور، من أصدقائهم جميعهم، وبعد انتهائه قال أحمد :

- خفتُ أن ترحلي، لم تفعليها..

- أحمد أنا أحبكَ، ولن أكرر خطأي، أعدك بذلك..

وكأنها طمأنته، يعانقها ويتحدث صمتهما...

****

لقد قال – سبحانه -

((يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ))

سمعتُها ثم قلتُ، أهكذا إذاً؟ الكل يستطيع قول ذلك، ولكن من يفعلْ؟؟ فقال

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ))

آلمني قلبي قليلاً، شعرتُ بوغزٍ لم أستطع تفسير ماهيته، ثم عاندتُ مجدداً، كنتُ قارئة جيدة وقرأتُ الكثير من الأبحاث العلمية ما تثبتُ ذلك، ولكن بدا أنني مستمتعة بالعناد ..

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))

هذه وجدتُها مع مالك، آه خرجنا عن أصل الموضوع، عفواً، ولكن إنه مالك، دائماً ما يقتحم حديثي دون استئذان، أعتذر..

((وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ))

إنه يعددُ الأمثلة، نعم إنها آياتٌ للعالِمين، ولكن أنَّى لي أن أكون؟ كلما اهتز قلبي كلما خفتُ ثم تراجعتُ وعاندتُ، هكذا كنتُ دائماً، ولكنه قال :

((وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ))

ثم ...

((وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ

وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ))

هنا توقفتُ، يكفي هذا، لن أعاند ثانية، إنه الله، هو الخالق، هو البارئ، هو الواحد الأحد، إنه القوي القادر، فقلتُها مؤمنة " أنا من القانتين" .. ثم هذه الآية :

((وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))

فسجدتُ... وخشعتْ جوارحي له وبه آمنتُ.. إنه الحق.. إنه النور.. أمازلتم تسائلونني لماذا آمنتُ..

أنهتْ بنان محاضرتها، ثم خرجت إلى مالك الذي ينتظرها أمام القاعة، نظر إليها وابتسم، هذا كل ما يفعله بعد أن تلقي كل محاضرة، يعجز عن الثناء والرد..

تجاوره في السيارة، تغمض عينيها، تدعو الله أن يرزقها الإخلاص، ثم تفتحها على صورته فتبتسم وتقول :

- سأسمي الطفل الأول عبد الله، ما رأيك؟

يبتسم ثم تعانق كفه كفها، ويقطعان الطريق في صمتٍ ليسمحان لأيديهما بالحديث..

تحلم بـ " **الجدة التي تمثل سيدة الإمبراطورية بحكاياتها المثيرة، وحكاياتِ زوجها، ولم تكن كذلك سوى بدعمه لها في كل شئ، ومساندته لها، مالك كان دائماً ومازال عند ظن قلبها، لم يخذلها يوماً، ولم ينتقص منها** " ..

عوناً له وعوناً لها...

تــــــمــــــت

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

- مريم خليل

- منى جمال

- يمنى مصطفى

- ميار عوض

- صابرين عزام و السيد عزام

- إيمان عادل

- ريهام محمد

- أميرة العيسوي

- أمل عطوة

- إسراء حسين

- نهال ياسر

- شروق خليل

- إيمان رضا

- أميرة الراعي

- إيمان حبيش

- أماني محمد

- آية

- كل متابعين الرواية منذ البداية

- كل اللي اسمه سقط مني سهواً وساعدني – آسفة جدا -

جزاكم الله عني كل خير .. ربنا رزقني بيكم علشان اقدر اكتب .. شكرا جدا